محمد زفزاف

الأعمال القصصية الكاملة



محمد زفزاف

الأعمال القصصيّة الكاملة



الكتاب

الأعمال القصصيّة الكاملة

تأليف

محمد زفزاف

الطبعة

الأولى، 2017

عدد الصفحات: 768

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-844-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

حوار في ليل متأخر

1970

حوار في ليل متأخر

في مواجهة المقهى الصغير أخذ ينظر بعينين حادتين. ركز انتباهه، وتحوَّلت جميع الأعصاب الواعية إلى فورات نارية ملتهبة، وفوق رأسه كانت صورة أسطورية، وخارج المقهى تمتد الساحة، وفي البنايات العالية المواجهة يبدو الضوء ملوناً ولماعاً، الرياح تعبر الساحة وتتوزع في باقي الشوارع الفارغة إلا من الإنارة.

انحنى بقامته القصيرة إلى أسفل، وبلا مقدمات: كان ذلك منذ سنوات، لا أدري، قال الطبيب: «إني تعلمت هذه المهنة بجوعي. كنت أقطع مسافة 10 كلم كي أبلغ المدرسة، وأنت؟ ستتعلمها بلا أتعاب، ستعرف كيف تكسب رزقك».

وظلَّ الرجل القصير يندحر إلى الخلف، يندحر إلى الخلف، ثم يندفع إلى الأمام، يندفع إلى الأمام، وينظر بعيني الصقر إلى الساحة، وظلّت نظراته بعيدة وغريبة ومخيفة.

أطللتُ من خلف الجريدة وتتبعت انحناءة جسده. وكان الرأس مكوراً على نفسه، مركّباً بصفة غير متناسقة فوق الجسد القصير البائس. وكانت ابتِسامة على شفتيه، ذات مستوى آخر، غير عادي. وظلَّ يندحر ويندفع، قلت في نفسي: «أحمق!» ونظرتُ بإلحاح إلى تكور الرأس وانحناءة الجسد، وانتشار الابتسامة ذات المستوى غير العادي.

في الساحة، الأطفال يركضون مشردين، وأكثر من ذلك، هم أشقياء يتشاجرون بعنف وبلا رحمة. ونظر الرجل القصير إلى زجاجات اللبن مصفوفة فوق المرفع، ثم أحنى رأسه وجذب سرواله إلى أعلى، ونظر في الخطوط الممزقة لفردتي حذائه (. . .)(*) أن تسبب لي الكارثة، كنا في السوق العمومي، وقالت لي ذلك، ثم إن الأمر حدث بفظاعة».

قلت:

- وعندما قالت لك ذلك، لماذا لم تحتط؟
- لم أعرف كيف أحتاط.
- كان يلزمك ذلك.
- كيف أعرف؟ لم أستطع.
- وظلَّ ينظر إلى الجريدة في يديه دون أن يقرأها، لأنه لم يكن يعرف القراءة بالطبع، ولكنه كان يعرف كيف ينام حتى ساعة متأخرة في كهف «الأوتيل».

كان صاحب المقهى لا يصغي إليه، فالقصة مكررة. وعلى الساحة عيناه منشورتان، حيث البحيرات المائية القذرة تعكسُ الأضواء، رائحة الأمطار المبكرة تغزو أنفه، تغزو أنفي. مدَّ يده إلى زر المذياع، ولم يعر أدنى اهتمام للكهل القصير الذي يتكلم باستمرار وبلا تركيز.

- إني أنام هكذا في أسفل الأوتيل.
- ألا تخشى البوليس؟ إنهم يأخذون أمثالك إلى المركز بسهولة.
- لطالما انتزعوا مني نقودي التي أحصل عليها بطريقة أو بأخرى.

(*) نقص في الأصل.

- ويطلقون سراحك؟

- نعم. . إنهم قذرون وأولاد الـ. . ثم إنها كانت امرأة. وشدَّ سرواله من جديد، ورفعه إلى أعلى، وظلَّ يتكلم باسترسال، يندحر إلى الخلف ويندفع إلى الأمام.

- وهل كنت تحبها؟

- أجل، ولكنها لا تحبني.

- قلت إنها كانت تريدك.

- صحيح، ولكنْ أن تريدك امرأة معناه أنها لا تحبك.

- ممكن. .

وكنت أتظاهرُ بالقراءة، والساعة متأخرة من الليل، عندما مررت من الشوارع الكثيرة، وكان الظلام سائداً، انتهيت إلى هذا المقهى، وكان الأوتيل بالنسبة إلي شيئاً مستحيلاً، وفكرتُ أن مصيري إنما هو شبيه بمصير هذا الرجل، كل ما في الأمر أنه يعرف المدينة وأنا لا أعرفها. قلت للرجل صاحب المقهى:

- متى تغلقون الأبواب؟

- نعمل ليلَ نهارٍ.

- حسناً.

وظلَّ العجوز القصير يحك ظهره وبطنه، وتخيّلتُ أن طبقات الأوساخ كثيرة ومتجمدة فوق جلدة جسده الهرم. وبدأت أيضاً أحك، وأدعك بطني، وقلت:

- أين تعرفت إلى الطبيب؟

- هنا. في هذه المدينة. كان ذلك عام 30، والمرأة أيضاً في ذلك العهد، عام 30-32.

وطويت الجريدة، وأشعلت سيجارة، وحاولت أن أُشعل له واحدة فرفض، وظلَّ صاحب المقهى ينظف بعض الكؤوس، ويجتاز

باباً صغيراً خلفياً إلى المذياع، فيحدث على الفور ضجيجاً يبعث الضيق والعصبية، وكانت عيناي مثقلتين بالنوم لأن رغبتي في أن أستريح كانت تشتد وتزداد.

وتقهقر الرجل العجوز إلى قعر المقهى، ثم اتجه، دون أن يقول كلمة، إلى الساحة التي تغطيها بحيرات المطر البكر. سار في اتجاهٍ معيّن، كانت قامته القصيرة تتمايل كالسلحفاة، لا يزال يسير في اتجاهٍ معيّن، انطبعت صورته على جدارٍ عالٍ جداً، انطبعت وانغرست، ومن قامته الصغيرة انبعثت شعلة صغيرة قبل أن يختفي. كان يدخّن.

نظرت في الجريدة من جديد، ثم في واجهة المقهى الصغيرة وتحدثت إلى الرجل الذي يقبع قدامي: خلف حاجز حجري، ولا يأبه لوجودي، فردَّ باقتضاب، وسألته عن الكهل القصير فقال إنه يأتي إلى هنا باستمرار وإنه يعرفه. حاولت أن أُطيل الحديث، ولكنه كان يجيبُ باقتضاب. استرخيت فوق الكرسي، وضعت مرفقي على الطاولة، وشعرت أن أجفاني مُتعَبة، وتمنيت أن أنام، وظللت أفكر، وتخيّلتُ أنهم سيقبضون عليه في هذه الساعة المتأخرة، وتخيّلتُ أيضاً أنه يمكن أن يطلقوا سراحه إذا وجدوا معه نقوداً، ثم بدأت أتحسس جيوبي ورفعت عيني، وأخذت أنظرُ في الساحة التي تنتشر فيها بقع مائية قذرة، وكانت رائحة مطر مبكر تغزو أنفي.

العصافير

كنا نتعشى في هدوء وصمت. ولم يكن هناك صوت غير الذي تحدثه أسناننا وهي تمضغ، وبلاعمنا وهي تبتلع ثم لا شيء غير هذا. وفجأة قالت أمي:

- البرد يخف يوماً عن يوم.

قال أبي:

- إن فصل الأمطار بدأ يوغل في الذهاب.

واستمر كلٌّ منا في آلية بنقل الطعام إلى فمه. وكنت أن آكل بنَهَم، وأحدق في أبي وأمي لعلّ كلمات أخرى تصدر عنهما تكون أليقةً. وإذا ابتلعت أمي المضغة قالت:

- وإذن فسنونوتنا أوشكت أن تعود.

قلت بفرحة:

- هل هذا صحيح؟

قال أبي: إن أمك ستعلمك الأدب.

فقلت: أنا لا أخشى أحداً ما دام أبي بجانبي.

قال أبي:

- لن أكون بجانب أحد. سأعلمك الأدب أنا أيضاً.

وبدت أمي كأنها خرجت من المعركة منتصرة لتوها وندت عنها ضحكة قصيرة وما لبث الزهو يعلو ملامح وجهها الدقيقة.

قالت لي وهي تحتك بأبي، وكانت تجلس إلى جانبه، وأنا قبالتهما:

- أرأيت إذن؟

ولم يبدُ علي أي أثر للقلق أو الغضب، أو شيء من هذا القبيل، لأنني كنت متيقناً أن أبي يمزح فقط، ولذلك وجدتني أقول رداً على أمي:

- إنك لن تقوي على فعل أي شيء. سأمسك العصافير، وسأحطم مناقيرها، وأهدم أعشاشها بقصبتي الطويلة.

- يا لك من عفريت معاند! قالت أمي، ثم أضافت بعد لحظة من الصمت والمضغ:

- سنهيِّئ لها مكاناً عالياً جداً في السقف لتبني فيه أعشاشها. ولن تستطيع آنئذٍ الوصول إليها.

قلت: سأرميها بحجر.

وتغيّرت ملامح أمي واختفى نقاب الانتصار والفرحة عن وجهها، وبدت بئيسة جداً، ونظرت إلى أبي في توسُّلٍ بينما كان هو منشغلاً بالأكل أمامه ولم يعرها أدنى اهتمام. وغمرتني بعينيها. كانت عيناها تلمعان كلؤلؤتين. إنني أعاندها دائماً وأكون المنتصر عليها. فأبي عضلاته قوية وباستطاعته أن يمسكها فيكسر رقبتها. وكان كل واحد منا لا يزال يلتهم الطعام لكن بفتور. فقد بدأت أمي كأن لا شهية لها، وأبي كأنه اكتفى. ولبثت أمي صامتة. ثم سرعان ما نفذت من كوة الصمت قائلة لأبي:

- أنت الذي علَّمته قلة الأدب.

ضحك أبي وقال:

- إن ابننا لا يزال صغيراً.

ونهضت أمي أخيراً. وقد لانت كعود خيزرانة نضير بعد مداعبات أبي لها.

إن هذه الجلسة ذكرتنا بسنتين مضتا.

لم يكن الجو يجنحُ نحو الدفء تماماً. فالبرودة لا تزال تغمر الأشياء، والريح لا تزال في عصفها تجعل الأشجار توشوش بمونوتونية. ويبدو أن أمي لاحظت تغير الجو، لأن هذا اليوم كان مشمساً جداً. لكن مهما يكن من أمر فإني أذكر أن الجو كان أقسى في سنة أخرى ماضية، ورغم ذلك فقد امتلأ البيت بزقزقة، وأصبح كأنه مستودع للعصافير تخبِّئ فيه محصولاتها. فهي جيئة وذهوب تنقل في مناقيرها أعواد القش والتبن وأوراق الأشجار الميتة. وكان الجو لا يزال بارداً آنذاك، ورغم ذلك، ورغم أنه لم يمضِ إلا بعض من الوقت فإن بيتنا قد أصبح فيه عُشّان. واستطعت أن أُسقط أحدهما بقصبتي الطويلة الصفراء ذات العُقَد العديدة، وقالت لي أمي بعدها أنها ستؤدِّبني. ولما عاد أبي من العمل أكد لها «أنه لا يزال صغيراً». وكنت أضحك من خلفه وأنا ماسك بتلابيبه، وأطل على أمي في انتصار.

وقررتْ في اليوم التالي أن ترافقني إلى المدرسة. وقطعنا الطريق القصير المؤدي إليها ونحن لا نتكلم. وشعرتُ لحظتها أن أمي تخاصمني لا محالة. وأنها ما زالت غاضبة مني منذ ليلة أمس. ولذلك فإني لم أستطع أن أكلمها أنا الآخر. ولبثنا كذلك حتى بلغنا باب المدرسة، حيث وقفنا منتظرين حلول انفتاح الباب الكبير. ودخلنا في جموع من التلاميذ وأمي لا تزال آخذة بيدي حتى باب الفصل. وتحدثت مع المعلم حديثاً طويلاً، كانا ينظران إلي خلاله وأنا مسمّر على المقعد الخشبي الذي طالما آلم عجيزتي. وفي الأخير ودّعته شاكرة وقبل أن يغيب ظلها التفتت لتطمئنّ علي بنظرة

واشية بالحبور. وأؤكد أني لم أعد أذكر كيف انتقل المعلم من الباب إلى جواري، مع أني كنت أجلس في المقعد الأخير. لكنني أذكر أنه أمسك بأذني وجرني إلى المصطبة وهو يصبُّ من فمه شتائم في الفراغ وضحكات، وقال للتلاميذ:

- إن هذا الولد غير مهذب.

ثم أضاف:

- أعيدوا هذه الجملة.

وأعادها التلاميذ مرة ومرة أخرى. وكان المعلم خلالها يضرب برأسي السبورة. ليس هذا فقط بل ضربني ضرباً مبرحاً على يدي الاثنتين بمسطرته البنية اللامعة، وأمرني بأن أجثو على ركبتي وعلَّق على ظهري ورقة مكتوباً عليها «تلميذ غير مهذب، لا يحترم الحيوانات». ولم ينسَ أن يقول لي أن أكتب جملة «سأحترم الحيوانات» ثلاثمئة مرة. لقد كان عقاباً شديداً إذن. ولذلك فقد حكيت لأبي كل شيء وأريته أصابع يدي التي انتفخ بعضها واحمر. وأعفاني من الذهاب إلى المدرسة ظهر ذلك اليوم والأيام الثلاثة التالية. وفي المساء سمعت أمي تنتحب في المطبخ بينما كان أبي يغادره، وقد أغلق بابه خلفه، وهو في حالة من الغضب الشديد.

حدث ذلك في عام سابق، أما في السنة التي تلت والأمر كان يختلف، إذا لم يمضِ على تلك الليلة التي قالت فيها أمي إن الجو يجنحُ نحو الدفء أيام قليلة حتى بدأت العصافير السوداء ذات الأجنحة الطويلة ترقص على ثقوب الجدران، وتدخل من النافذة لتخرج من الباب أو تدخل من الباب لتخرج من النافذة. يبدو أن أمي نسيت بسرعة. ألم تقل لي إنها ستهيِّئ للعصافير مكاناً عالياً لتبني فيه أعشاشها حتى لا أستطيع الوصول إليها ولو بقصبتي؟ إن قصبتي تستطيع أن تبلغ هذا العش، بل حتى ذلك العش الذي يرتفع عنه

قليلاً، لكن ربما يكون في ذلك العش بيض سيسقط إلى الأرض ويتكسر إذا عالجتها بقصبتي. ولكن أين هي قصبتي؟ إن أمي تعاكسني جداً فليس في البيت قصبة واحدة، هناك مكنسة ذات مقبض قصير لا تكفي بطبيعة الحال، وإذن فهناك فكرة، لماذا لا أستعمل السُّلَّم الذي يتمدد على الجدار الأمامي الوسخ؟ ولماذا لا تتم العملية ليلاً حيث تكون العصافير قد نامت وهي تحلم بالقش والبيادر والأفخاخ؟

وانسللت ليلاً. وكنت قد هيّأتُ السُّلَّم بعد الظهر. لم يكن أمامي سوى أن أحمله لمسافة قصيرة، وفعلت. كنت أصعد درجاته بحذر وخوف. ولِمَ لا إذن؟ أليس الضجيج الذي يحدثه ارتطام السُّلَّم بالحائط كافياً أن يوقظ العصافير فتفرُّ في الظلام؟ لقد كان يتحرك تحت وزن جسمي ولست أدري لماذا. إن جسم أبي أثقل من جسمي ومع ذلك فهو كلما استخدم السُّلَّم لم يتحرك تحته. ولا بدَّ أن في الأمر شيئاً. كنت أفكّر هكذا وكنت أضع يدي في العش. وأحس بشيء ناعم تحتها، ثم بأصبعي تكاد تطير. لقد كانت ضربة المنقار حادة جداً وأحسست أنني أهوي في بئر عميقة، ضيقة، ومظلمة جداً، كأنها بلا قعر.. كأنها بلا قعر.. ووجدتُني في غرفة غير التي ألفتها. لقد سقطت إذن.. وها قد تكسرت ساقي فيما قِيل. وها أنذا وجدت على فراش غير فراشي.

لم أكن أبدو في حالة جيدة بل كنت أحس ألماً مستمراً في ساقي المكسورة، ولست أدري ما الذي كان يمنعني من البكاء رغم ما كان يسببه لي شيء كوخز المسامير (لا أزل أحسه حتى الآن بين الفينة وأخرى). ومضى شهرٌ وشهران وحالتي لم تكن لتبدو جيدة، غير أني لم أكن آبه لذلك. وكانت التي تأبه له حقاً هي أمي، فقد شحبت باستمرار وهزلت، وغدا جسمها نضواً وفكّاها بارزين.

ورغم هذا كله، فما إن غادرتُ المستشفى بأيام معدودات حتى قررتُ أن أبدأ تجربة جديدة لاصطياد العصافير. وألححت على أبي كي يشتري لي قفصاً وكمية من الدابوق. ولأن أبي كان يلبي جُلّ طلباتي فقد اشترى لي القفص والدابوق، ولم يسمح لي بأن أذهب إلى ضواحي المدينة للصيد. وكان معه الحق. لقد أكد لي ذلك موت أحد أصدقائي الذين يحبون العصافير مثلي. فقد لدغته حية قصيرة مزركشة. وهكذا فقد عزمت على أن اصطاد العصافير التي تنزل في ساحة دارنا. فالساحة لم تكن مسفلته، لكن العصافير لم تكن لتسقط في الشِّباك. وقلت ذلك لأبي، فاشترى لي عصفورين جميلين من السوق. ووضعناهما في قفص.

غير أن ذلك لم يكن كافياً بأي وجه، إذ لا بدَّ من المغامرة. أيقنت في النهاية أني لا أحب العصافير بالذات. وإنما المغامرة ولم تكن العصافير هدفاً بل وسيلة، وأحسست أن فشلي في مغامراتي هذه لم يكن إلا حافزاً قوياً لاقتحامها من جديد وبروح جديدة.

لقد كان إصراري كبيراً - كبيراً وعنيداً، أكبر من أي شيء في العالم، وذلك ما كان يشقيني.

صيف 1965

الطريق إلى غرفة مضيئة

كانت أشعة الشمس الباردة تندلق بصخب في الشوارع.

الريح تدفع هذه الأشعة كما لو أنها أصبحت بعضاً من الهواء.

كنت أحس أن خطواتي على الرصيف الرمادي مثلجة وميتة رغم جوربي الصوفيين الأبيضين اللذين يلتصقان بشعر ساقي الكثيف. وكانت خطوات ماتيلدا وخطواتي تسيران في نغم واحد.. كنت أشعر أن وقع خطواتنا شبيه بالحصى يلقى في نهر راكد، أو على الأقل بصدى لضرب على الطبول، حزينة وبعيدة، خلف غابات حزينة وبعيدة، خلف متاهات لا حدود لها.

نظرت في الأسفل فالتقت نظراتي بحذائيّ الأسودين ونعليّ ماتيلدا اللذين كانا وهما يتحركان على الإسفلت شكلين غريبين أثاراني. وكانت الريح التي تعترضنا تجعلُ شعر ماتيلدا الأشقر شعراً أسطورياً.. شعراً لجنية وحيدة في جزيرة مهجورة. فكرت للتو «انتظرت الجنية طويلاً وسط الأدغال فجئتها أخيراً واختطفتها على ظهر قاربي الصغير إلى شاطئ الحياة». ضحكت لفكري الذي يذهب بعيداً.. أردت أن أحكي لماتيلدا قصة الجنية ذات الشعر الأسطوري، قصتها هي بالضبط، فقلت إنها ربما ضحكت مني.

قالت وعيناها تنظران إلى الرسم المعلق على الجدار، الذي كان يمثل رغبة مصمم شركة الإعلانات:

- الريح تهب باردة، سيصيبنا الزكام الليلة.

نظرت في رأسها الذي تشعّث شعره دون أن أُجيب، ثم انتقلت نظراتي إلى المعطف الأسود الذي أوقفت ماتيلدا ياقته الطويلة الأذنين. كانت تشدُّ على الياقة حول عنقها المرمري وعيناها لا تزالان فوق رسم الإعلان. حوَّلت نظراتها إلى الأمام وهي تحتك بجسدي النحيف:

- اسمع.. هنا أشياء رائعة في محلات ليليان.

نظرت ماتيلدا في عيني بهدوء. ركزت نظراتها بحيث أحنيت رأسي قبل أن أديره تجاه محلات ليليان.. قالت وهي تبتسم من خلف شعرها الذي غطَّى بعضه شفتها السفلى:

- تعال ننظر فقط.. هل يثيرك هذا أيضاً؟!

جذبتني إليها، انحدرنا في الطريق المؤدي إلى المحل.. كنت أتعثر لأن الطريق مائل كثيراً. وفي الأسفل، محلات ليليان قابعة خلف واجهات نظيفة تلمع بفعل أشعة الشمس الراقصة.. لبثنا نتفرج على الأشياء والملابس المعروضة.. كانت البرودة تزداد حدّة.. شعرت ماتيلدا بهذا فأدخلت يدها في جيب سروالي. وقالت وهي تنظر خلف الواجهة:

- انظر، هناك أشياء رائعة للأطفال..

قلت: لعب؟!

- هيه، لعب: جرار ناقلة و..

قاطعتها وأنا أضحك بغرغرة منغومة:

- هذه الدراجة تصلح لك.

نظرت في عيني، وكانت كفّها داخل جيبي ملصقة بكفّي:

- طيب. سأختار لك أنت أيضاً لعبة.. (وضحكت ضحكة لها أبعاد).

ضغطتُ على أصابعها في جيبي وأنا أجذبها لنصعد من جديد إلى الشارع الرئيسي، حيث الشمس كانت تبدو وراءه شاحبة ومريضة:

- لن أتركك لكِ الفرصة، قلت لها.

- تعال.. لندخل إلى المحل.

جذبتني بقوة فأمسكت غضبي. في داخل المحل كانت أشياء كثيرة معروضة بطريقة جذابة ومغرية، أثارت ماتيلدا انتباهي إلى لفاع أسود وقالت وهي تتجه نحوه:

- إن هذا اللفاع يصلح لك.

- وأنت أيضاً.. لكن ثمنه مرتفع.

- أنت يصلح لك لأنك ترتدي بنطلوناً أسود وتريكو أبيض.. إذا لففته حول عنقك سيكون رائعاً.

- إن ثمنه مرتفع...

مضينا نتجول في داخل المحل. وفي النهاية استقبلنا بابٌ خلفي. قلت لماتيلدا أن نصعد المنحدر إلى الشارع الرئيسي فوافقت بلا مبالاة، كأن الأمل لم يكن يعنيها البتة. أردت أن أقبّلها في الشارع المتفرع الذي كان خالياً من المارة. وضعت خدها على خدي فأحسست بنعومة شعرها الأشقر تداعبُ وجهي. مرّرتُ شفتي فوق شعرها. قالت وهي تسحب يدها من جيب معطفها:

- هل نشاهد الليلة مسرحية إبسن؟

- ليس معنا نقود كافية.

- معي نقود كافية فيما أعتقد، ثم إنني غداً سأتقاضى أجرتي الأسبوعية.

- سوف يعتذر لك رئيسك كما في الأسبوع الأخير.

- هذه المرة لا أعتقد.

- متأكدة؟

- متأكدة. . ؟

- إذن سنشاهد المسرحية.

كانت الشمس الشاحبة تضيء طريقنا الخريفي. وفي اتجاه الغرب كانت خطواتنا تتحرك. أما الأشجار الصفراء اللامعة التي تعكسُ أشعة الشمس فقد كانت تضرب في الفضاء البارد. . ماتيلدا تحب الخريف، وهي متعشقة وتعبده بروح كاهن. . يعجبها إذ تضع معطفها هذا والبنطلون والنعلين الخفيفين. . ورغم كل شيء فالريح لا تضايقها عندما تشعّث شعرها الذهبي، إن الريح تبعث فيها ماضياً مشرقاً وحاضراً مشرقاً ومستقبلاً مشرقاً كذلك. نظرتُ إلى ماتيلدا وهي تلوك شيئاً في فمها. وكانت لا تفكر في وجودي بجانبها فيما اعتقدت. لأن عينيها كانتا تنتقلان فوق الجدران والواجهة والمارة بحيرة واندهال. . حوَّلت نظراتي إلى اليسار فأمسكتني ماتيلدا بكل قوتها وهي تضحك بصخب «انظر هناك». نظرت حيث أشارت. فرأيت في النهاية شيخاً يتبول على جدار مبنى نظيف. كان بعض الأطفال يضحكون من تصرفه بينما بعض المارة العقلاء يظهرون الاشمئزاز من هذا الفعل البذيء. . قلت لماتيلدا بعنف مفتعل:

- لماذا أنت تضحكين؟

- أوه عفواً لقد ضحكت بلا إرادة. . لكن أليس هناك مرحاض عمومي؟

أمسكت بذراعي وكانت لا تزال تنظر جهة الرجل الشيخ. وفي النهاية حوّلت نظراتها. حدقت في الواجهة على يميننا، كانت تعكسُ صورتنا ونحن ملتصقان. قلت لماتيلدا:

- إن البرد يحتدُّ.

- سيصيبك الزكام هذا المساء ولن نذهب إلى المسرح.

كنا نصعد درجات سُلَّم العمارة. التقينا بالبوابة في الطابق الأول. حيَّت ماتيلدا بينما لم تلتفت لوجودي. قلت لماتيلدا ذلك فقالت إنها تغار، ولكنني أكدتُ لها أنه لا داعي لذلك لأنها إمرأة عجوز ونحن لا نزال شابين، اتجهت ماتيلدا فوراً إلى المطبخ عندما دخلنا الغرفة الدفيئة بعد أن أزاحت المعطف وعلَّقته بالمشجب.

ذهبت لتصنع القهوة بينما كنت أغيّر ملابسي، فتحت النافذة للتو فاستلقت أشعة الشمس على السرير وعلى البلاط فوراً، هيّأت ماتيلدا القهوة بسرعة. استلقيت على السرير أتصفح الجريدة اليومية التي لم أقرأها في الصباح كالعادة. جاءت ماتيلدا بالقهوة. كان شعرها ممشطاً. قالت وهي تبتسم بفرح:

- أف. أردت أن أقول لك شيئاً..

- ماذا؟

- لماذا لا نتزوج؟!

قلت على الفور:

- ألا تعتقدين أننا أحسن من متزوجين؟!

قبّلتني للمرة الثانية، حملتْ فنجان قهوة إلى فمها. حملتُ أنا أيضاً فنجاني إلى فمي. نهضتُ من فوق السرير واتجهتُ إلى النافذة أنظر في وجه الشمس الشاحب المريض.

كانت السماء صفحة حزينة وبعض السُّحُب الرمادية تركض في اتجاه معيّن. قلت لماتيلدا:

- ماتيلدا! تعالي نتفرج على منظر الغروب... الشمس أوشكت أن تغيب.

وأنا أرشف القهوة التفتُّ إليها لاستقدمها.. كانت بجانبي، عيناها في لون الغروب.

الشمس تشرق مرة واحدة

- 1 -

انتظرت طويلاً على إفريز المقهى.. الوجوه شاحبة كوجوه الأموات، وأنا قلق ومسرور معاً.. القهوة تبرد.. وزبون يشرب عصيره وأنا لا أشرب.. لأنني انتظرت طويلاً، لم أستطع أن أعيش سرور الآخرين.. كانت الوجوه شاحبة.. وعلى بُعد أمتار تعكسُ الواجهة النظيفة لوحة ذهبية اتخذت لون الفضة.. الساعة الرابعة ظهراً.. وأنا أترك قهوتي تبرد.. قلت في نفسي: «ربما لن تجيء». وفي فمي أضاعت القهوة طعمها.. كانت ناعمة على لساني.. فقدتْ تلك الحدّة التي عهدتها فيها.. تلك المرارة المحبَّبة، وتلك الدغدغة العذبة.. اعتقدتُ لحظتها أن كل شيء قابل للتغيير، حتى قلب امرأة تدّعي الوفاء.. ولكن اعتقادي ضاع.. جاءت حبيبتي وفي عينيها أشعة وضَّاءة ملونة.. وأهازيج منغومة.. ثم.. ثم أصبح العالم طفلاً لاهياً لا يعرف الحزن..

غادرت الإفريز، وقلت لها وأنا أنفث في وجهها مسرتي ودخان سيجارتي:

- هل تجلسين معي؟

فأجابت: لا.. لا أستطيع..

قلت: لماذا لا تستطيعين؟ أنت تستطيعين كل شيء.

- أنت مخطئ. . حسن نيّة فقط.

وقلت إذ ذاك: لنذهب بعيداً، فلربما كان أحسن.

في الحديقة كان الأطفال يلعبون. . وعلى الكرسي الخشبي كنا جالسين. قلت لحبيبتي:

- هل تحبين الأطفال؟

- نعم. .

- هل تريدين أن يكون لنا أطفال؟

- علاقتنا لا تسمح بذلك. .

- ولِمَ لا. .؟ ألا تحبينني. .

- لا، أنا معجبة فقط. .

صمتت وحدقتْ في الأطفال الصغار. . حركتُ أصابعي في الهواء. . ونظرتُ إلى شعرها الذي تهزه ريح خفيفة. . اقترحتُ أن ننهض ونتمشى في الشارع الواسع. . كانت وجوه الناس شاحبة والواجهات لا تعكس ضوء الشمس. . إذ كانت وجوه العمارات الطويلة تردُّ الأشعة. . ومشيت وحيداً عندما ودّعت حبيبتي. . انحدرت في الطريق المؤدية إلى السوق. . وتمتعت برؤية تفاهات البشر.

- 2 -

وفي المساء قلت لأمي: «أنا أحبك كثيراً يا أمي. . أنت رائعة. . أنت فوق الإنسان». قبّلتني أمي. . عانقتني. . ودغدغت عواطفي «يا ولدي؟» ولم تضف شيئاً. . كنت أحب أمي كثيراً وما اعتقدت يوماً أن أحداً سيضايقها في حبي لها. . ولكن المرء يخرج عن طوره مراراً. . لقد شعرت أن حبيبتي التي لا تحبني، والتي هي معجبة فقط، تملك علي أحساسيسي. . تملأ قلبي حتى الاختناق

(ومع ذلك أيتها الحبيبة، سأظل أعبدك وأعبدك..). لقد ملأت مكانة أمي في قلبي.. ولكن أمي تسترد مكانتها الآن، وفي هذا المساء بالضبط عبَّرت لها عن عواطفي المخبوءة. عن علاقتي الطيبة الخفية معها.. أمي رائعة.. أمي تدير العالم بإصبع.. قالت لي مراراً إنها لا تحتمل العيش من دوني (زوجها يحبها مع ذلك. وهو ليس أبي.. وتعتقد أنها ستعوضني عن أبي الذي اختطفته غيلان الظلام..)، طيب يا أمي.. وأنا أيضاً أحبك ولا أستطيع العيش من دونك.. حوِّلي نظراتك إلى السماء، وانظري في وجه القمر الشاحب.. ستلتقي نظراتي بنظراتك هناك.. وستعرفين كيف أحبك حب الطفل لوالدته.. ألا تعتقدين أنك أغلى من أي شيء في العالم؟ اعتقدي في ذلك أرجوك.. ونظرت ذاك المساء إلى القمر طويلاً طويلاً.. كانت قطعة السماء الهندسية تحرك في اتجاه الشرق. ولم أكن أشعر بالحركة.. ولكن خيالي كان أقوى من أن ينهزم.. أحببت حبيبتي.. أحببت القمر.. أحببت الليل.. ولم أحب زوج أمي.. إنه يذكرني بشخصية اليهودي في مسرحية **الدعوة إلى القصر** لجان أنوي.. أقوال كثيرة، وسقوط قِيم.. ماذا تجني الأموال في كسب حب رفيقة؟ قد تعجَب امرأة بمال صديقها، ولكنها لن تحبه مع ذلك (لا أعتقد فيما إذا كانت أمي تحب زوجها لماله.. ولكن الأكيد أنه يحبها حتى الموت.. ولنضع في الاعتبار أن المرأة ليس لها حقّ الحب في وقت ليس ببعيد..). فيا حبيبتي.. أنا لا أريد إعجاباً بل حباً. تأكدي أن العالم لن يتحرك إلا بالحب.. وأن القمر لن يضيء إلا بالحب.. سأظل أنتظر وأنتظر..

ونمت تلك الليلة كما لم أنم من قبل.. كنت أشعر بانهيار تام.. وأحسست أنني أحب كل البشر بدرجة واحدة..

- 3 -

وفي اليوم التالي، ذهبت إلى الأزقة المتسخة، حيث القاذورات والأطفال الذين يأكلون المخاط.. كنت في حاجة إلى أن أذهب إلى هناك.. كانت العيون الضيقة تنظر إلي وهي مليئة بالقَذَى.. ولم أعبأ بأحد.. دخلت إلى أقرب بيت.. وخرجت حزيناً كما لم أحزن من قبل.. وكان الوهم قد تملَّكني.. سأصاب بالسيفيليس من غير شك.. ومع ذلك فسأظل محتفظاً بثباتي حتى لو أصبت «ليسر العالم في أي اتجاه.. فلا أحد يملك أن يغيّر اتجاهه..». وعندما وجدتني في الشوارع الفسيحة، استلقيت على كرسي في أقرب مقهى.. طلبت قهوة سوداء، ونظرت في الوجوه الشاحبة.. انتظرت طويلاً أن تعبر حبيبتي لأسألها فيما إذا كانت لا تزال معجبة أم أنها دخلت مرحلة الحب.. سأستطيع أن أكون جلداً وأن أتحمل أي شيء.. ليذهب الانهيار إلى الجحيم.. وانتظرت طويلاً، ولم تجيء.. وظلَّ السيفيليس يهددني بالموت البطيء.. ومع ذلك فأنا أحب كل البشر وسأذهب مرة أخرى إلى الشوارع الخلفية حيث العيون الضيقة التي تغطيها طبقات القَذَى، وحيث الأطفال يتغذون بالمخاط.. سوف يتعلم اليهودي كيف يجلب السعادة بماله..

عندما تدليتُ من فوق

صعدت إلى سطح البيت، وأطللت من فوق على فضاء واسع غريب. درت على نفسي وتحركت نحو اليسار، فرأيت الطيور تعبر فوق البناء الخلفي وتكوِّن زواية حادة. تأملت الطيور وهي تتجمع وتتفرق ثم وهي تختفي وراء البناء الخلفي. ولم يكن لدي آنئذٍ سوى شعور بالإبهام. واستغرقت في النظر الملحّ إلى هذا الفضاء الواسع الغريب. ولم تعبر الطيور إذ ذاك، ولكنها كانت قد ذهبت إلى حيث لا أدري. وتزايد شعوري الغامض المبهم. وأطللت من فوق، فتدلى رأسي في الفراغ وأخذت أشعر برغبة في القيء. لم أتقيأ ولكن المسافة بيني وبين الأرض كانت تجلب الدوار. واستعدت وضعي، ونظرت في نوافذ بعيدة مفتوحة في البناء الأمامي. تخليت لحظتها عن كل اهتمام كبير كنت أحسه. فتمططت في حيّزٍ من الهواء، ودرت في السطح، ونزلت إلى تحت. كانت في عيني أمي رذيلة الليل لا تزال. وتجاوزت الباب ودعكت أنفي.

كباقي النساء، كانت رذيلتها الليلية تفوح. وجلست عند العتبة ولم أتحرك. وظللت أرقبهن الواحدة تلو الأخرى، وهنّ يغادرن أبوابهن وقد تدلت نهودهن من خلال ثياب الليل. كنت جالساً قرب القمامة، في العتبة. وأمام الأبواب الأخرى، لم يكن جالساً أحد. وكانت هناك القمامات. وتخيّلتُ روائح رذائلهن الليلية تختفي.

ونظرت في الأبواب وقررت أن أعود إلى نفسي. ولم تكن جريمتي أنا سوى لا شيء. وظلَّت العصافير تحوم في أفق بعيد. لكني لم أرَها. ولن أستطيع رؤيتها. فذلك مستحيل، وشيء غير معقول. وعندما أصعد إلى السطح، ربما أراها، لكن بشكل آخر: لا تكون زاوية ولكن خطين متوازيين.

نظرتُ من تحت حاجبي إلى الأرض، وبدأت أخيل أن كل شيء يتغيّر، وأنه ليس بمستحيل. ولم أكن سوى مثال على هذا التغيير الطارئ. واستنشقت رائحة الرذائل في الليل، ولم يكن لها طعم غير طعم البصل والثوم، فرفضتها ولم أستسغها. لأن الطيور كانت تنقر بحدّة جدار رأسي. وبعد قليل سوف تفرغ القمامات من محتوياتها، وسوف تفتح الأبواب، وتخرج أجساد وقد فاضت منها روائحها. وربما دخلت أنا إلى البيت، وصعدت إلى السطح، وبقيت هناك دون أن أتكلم مع أحد. وربما أيضاً، نظرت إلى الفضاء الواسع الغريب، دون أن أفقد أوهامي، ودون أن تشعر الطيور بذلك.

نظرت من جديد إلى الحائط. وتحدثت إلى نفسي. أخذت أتأمل المربعات التي يركض فوقها الأطفال. لقد رسموها بالطباشير على الطريق. فجاء شكلها كشاهد قبر مسيحي. وبدأوا يلعبون ويكررون أنفسهم دون ملل. ولم تكن لدي رغبة أن أفعل مثلهم. لأنني كنت أعرف أنني مهما حاولت ذلك فلن أستطيع، لم أُتقن اللعبة ذات يوم. وتخيّلتُ أن لهؤلاء الصغار روائحهم، ولكنها من غير شكّ تختلف عن التي لآبائهم. فالموت وحده هو الذي يستطيع أن يضع حداً لكل شيء.

وعندما تدلَّى رأسي إلى الخلف، وأصبح جسدي عند العتبة بلا معنى، أدركت أن كل شيء سيتغير عاجلاً أو آجلاً. فمددت ساقي

بكل حرية. واسترخيت من كثرة التعب. ومرت ليلى من أمامي، لأنها ستستقل الحافلة، وستذهب إلى العمل. وسمعت تغريداً فوق رأسي، فرفعت عيني إلى أعلى، وكانت الطيور قد عبرت. وتتبّعتُ ليلى بعيني، ولم تكن تعرفني، ولم تحاول ذلك. كنت أعرف أختها فقالت لي - وكنا نتحدث جميعاً إلى أمها -: «لقد أحبته وحاولت أن تضحّي من أجله» (وكانت تعني ليلى)، وأما الآخر فلم أكن أعرفه، ولم يكن أحد يعرف هذا الحب الصامت الذي بينهما. تصور هذا، حتى أنا لم يكن لي علم به، ولم أعرف هذا الشخص ولم ترد أن تقول لي. وقالت إن ليلى لم تكلمه في حياتها ولو مرة. وتخيّلتُ أنني ربما كنت المقصود بذلك، غير أن ذلك لم يكن سوى وهم. فحياتي مليئة بالأوهام. لذلك طالما تخيلت نفسي طائراً غريداً أسود، يعبر إلى المجاهل والآفاق. وعندما اختفت ليلى تذكرتُ أختها، وكانت جميلة. وظللت صامتاً في وضعي، وقد تدلّى رأسي إلى الخلف بكل ثقله. ولم أعرف ما الذي أفعله، ولكني استغرقت في النظر إلى الأطفال وهم يقفزون فوق المربعات، على التوالي. وكان لغطهم يحتدُّ. وشعرت ببرودة الصباح قاسية، خلف ظهري، وتحتي. ولم أعرف ما سبب ذلك إلا أن الوقت كان مبكراً. فتمددت باسترخاء كلي. وقلت لنفسي: لا شكّ أن أخت ليلى كانت تعنيني، ولم تقل ذلك لأنها تغار من أختها. ثم رفعت عيني عن الأرض ونظرت فوق. وظللت ساكناً بلا حراك. وتنفست ببطء هواءً غير منعش وفيه رذيلة، لأن القمامة كانت لا تزال مليئة، ولم يأتِ دور إفراغها. فتمططت ودعكت أنفي ووجهي واستمررت أتأمل. كانت أفكار وخواطر، كثيرة ومشوشة، تغتالني. وكنت أجد لذة في ذلك. ولم يكن هناك تبرير غير أن الأمر كان يعنيني. فوحدي، أنا الذي أتحمل كل شيء. وهذا شيء ضروري وأساسي. لذلك فقد ظللت

أفكِّر وأفكِّر، وأتخيّل ما أشاء، وعندما رفعت رأسي، كانت الطيور هذه المرة تعبر بلا تغريد، ولم تكن عديدة، بحيث لم تستطع أن تكون زاوية ولا خطين متوازيين. فراقبتها وهي ترتفع وتهوي. تستدير ثم تغيب. ولم يكن هذا الصمت الذي يغطِّي كل شيء سوى صمتي أنا. لأنني أحببته وطالما تمنيته. فمن أجل كل هذا، ظللت طوال حياتي أتألم على طريقي.

واستمر البرد ينخرُ عظامي، في ظهري، وفي وجهي، وتحت.. وشعرت به، وتضايقت، ونظرت في الحائط، ثم في الطريق والطباشير التي بدأت تفقد لونها. وبدا لي أن المربعات سوف تختفي، وستختفي معها اللعبة التي لم أتقنها في حياتي قط، لأنني لم أكن مؤهلاً لها ولا لغيرها. وهنا شعرت أن أخت ليلى كانت على حقّ، غير أن هذا لم يكن يمنع من أن لها رذيلتها. إذا لم تعرف شيئاً عن حب أختها، فذلك لأن هذا يهم ليلى وحدها، ولا أحد سواها. غير أنني لم أغيِّر رأيي بصدد أنها تحبني. وكنت مسروراً بذلك. فتجمَّعت في جسدي قوة فائقة، وحنان إلى الشيء. وتذكرت ابن عمتي وهو يحادثني عن موعد سفره، وأنه سيفعل ذلك من أجل أنه يحب. فرثيت لحاله، ثم قلت، يمكن أن يحصل للمرء الشيء نفسه. وأدرت وجهي إلى اليسار. وسمعت هديراً قوياً مزعجاً، فاهتزت عتبة الباب من تحتي، فشعرت بالبرد أكثر. ونادت علي أمي، من داخل البيت، فوقفت ومسحت وجهي بكفّي وبدأت البرودة تختفي شيئاً فشيئاً. وقالت لي وهي تنظر في وجهي: ماذا تفعل؟ قلت: لا شيء.. وانصرفتْ عني، فتجاوزتُها إلى السطح وأخذت أنظر في الفضاء الواسع، ثم اقتربت من الحافة، وجعلت أحدق تحتي. وبعد برهة وجيزة، خرجت ليلى ولم ترني. وظلّت في باب بيتهم. لكنها رفعت رأسها ونظرت إلي. فابتسمت لي وأشرت لها بيدي. وحاولت

أن أتكلم معها فلم تسمعني. . . لا شكّ أن الرائحة كانت تفوح منها لأنها كانت واقفة قرب القمامة. وربما أدركت هي ما يدور في خاطري، فخجلت لذلك، وظلّت ابتسامتها معلّقة على شفتيها، وهي تنظر إلي. وظللت أنا معلقاً فوق السطح. فأشارت لي، واختفت وراء الباب. فدرتُ على نفسي، ونظرتُ إلى البناية الخلفية، ولم تكن الطيور آنذاك تحلِّق في السماء، لأنني لم أكن أسمع التغاريد. وتحت وهج الشمس أخذت أسترجع دفئي. فذهبت إلى الحافة، وتدلَّى رأسي من جديد طويلاً، غير أن أخت ليلى لم تخرج، وكانت القمامات لا تزال أمام الأبواب. وعلى الرغم من أنها لم تخرج، ظللت أنتظرها طويلاً مدلياً رأسي إلى تحت، مشرفاً على هاوية سحيقة تُجلِبُ الدوار. ثم أخذت أنظر إلى الفضاء الواسع الغريب، أتخيل نفسي طائراً محلِّقاً، ضمن طيور عديدة، تكوِّن خطوطاً وانحناءات.

الطفل والكلب

اتكأ الصغير عيّاد على جدار المرحاض العمومي بكل ثقل جسمه الضئيل، ووسَّع بين ساقيه اللتين أثّرت عليهما سنوات سوء التغذية. وأقبل على السماء يلتهم فيها السُّحُب والملائكة والصبايا اللواتي يرتدين «الشورتات» القصار النظيفة والأحذية اللامعة المثيرة. هي ذي السماء زرقاء تتراكض عليها سُحُب رمادية وبيضاء. ونقل عينيه من السماء إلى الكلب القابع أمامه، والذي أصرَّ على البقاء هنا بثبات، ووسَّع عيّاد بين ساقيه من جديد، وقال للكلب بكل وضوح:

- اعترف من جديد أن لونك لا يعجبني، لقد كان ميكي أحسن منك. على فكرة ما اسمك؟

قال الكلب بنغمة منفردة:

- اسمي ميكي.

- أرجوك، بكل وضوح! ما اسمك؟

ثم أضاف بعد أن تراجع:

- لا يهم كل هذا.. قلت إن الحياة صعبة وسعيدة.

قال الكلب:

- هذا ما وافقتك عليه. ثم إن الحياة ليست سعيدة إلى ذلك الحدّ الذي تتخيله.. اسمع. سأحكي لك بكل وضوح - أنت أيضاً تصرُّ على الوضوح -. دخلت مرة إلى المقهى. كنت برفقة صديق.

وجاءنا النادل واستفسر عن هوياتنا. تخيّل هذا. حتى النادل يقوم بدور البوليس. تخيّل هذا. ثم قلنا له إننا لا نرغب في أن نشرب شيئاً. لكنه مضى. غادر المقهى بصفة رسمية ونهائية. ربما كان ذلك احتجاجاً من طرفه. وقبل أن ينصرف كنت قد سألته: «قل لي من فضلك.. هل الحياة سعيدة إلى الحدّ الذي يمكن أن يتخيله المرء وهو مزهو بنفسه؟ فقال...». وصمت الكلب ونزنز بذيله في فضاء لا نهائي.

أخذ عيّاد ينظر إلى قدميه الصغيرتين المتشققتين الحافيتين. لقد تراكمت فوقها الأوساخ وهو يحتاج إلى أن يطلب من أمه الفقيرة - مدة أسبوعين - طلباً عادياً ومتكرراً. تبعثه كما تفعل - كنتيجة لهذا الطلب - مع ابن جارتها الذي يكبره قليلاً إلى الحمام (حيث يمكنه الاغتسال والاسترخاء واستعادة معناه الإنسان - كطفل متوحش -) وعندما شبع من النظر إلى قدميه السوداوين المتشققين قال الكلب: «هذا صحيح!».

وحرَّك الكلب رجليه الأماميتين فبسطهما واتكأ برأسه على إحديهما. وقال لعيّاد:

- يمكن للمرء أن يكتشف بسهولة الصحيح من غير الصحيح.

قال عيّاد:

- هذا أيضاً صحيح!

وأخذ يمضغ شيئاً بين فكّيه. كانت فتحتا أنفه تستنشقان العفونة بلذة. رائحة المرحاض العمومي لا تخنقه وإنما تنعشه. ثم أخذ يتساءل: ما معنى أن يُسمّى هذا الكلب ميكي؟! هل هي الصدفة؟ إن كلبي أيضاً يُدعى ميكي. غير أن الفارق واضحٌ كما أعتقد. هذا يذهب إلى المقاهي ويتحدث إلى الجرسون، وذاك لا يعرف سوى النباح وحضور حفلات العرس وإقامة الصلاة في بعض الأحيان.

هناك فارق في السلوك. فعلى الرغم من هذا التشابه الظاهري هناك دائماً اختلاف جوهري هو ما يميّز هذه الحياة بأشيائها وحيواناتها.

وقال بصوت مرتفع للكلب:

- أليس هذا صحيحاً يا ميكي؟!

- نعم. هذا صحيح. لكني لا أعرف عمَّ تتحدث؟

- لا يهم. كل ما في الأمر أنك تعرف فيمَ أفكِّر.

فقال الكلب:

- ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم! ألا تؤيدني؟

- أوه... أنا أؤيدك على طول الخط. اسمع، لكن هناك مسألة واحدة تحيرني. انظر هذه السماء. إنها زرقاء جميلة.

- نعم.. هذا صحيح!

- ألا تشم رائحة المرحاض؟

- بلى!

- خُذ لك نفساً منها. ثم انظر بكل وضوح إلى السماء.

- هذا ما فعلته طوال حياتي قبل أن أُحال على التقاعد.

- قل لي: ألا ترى هناك تشابهاً بين رائحة الأزهار الطيبة وبين رائحة المرحاض؟

قال الكلب (وكان قد طلب سيجارة من أحد المارة فلم يعطه إياها):

- هذا صحيح! ثم إن جمال فتاة متوردة الخدين، تنام على سرير مملوء بالريش لا يعادل جمالك أنت وجمالي أنا - نحن الذين نجلس على رصيف قرب المرحاض - ترى ما عساه كان يحدث لو أن الحاكم والمحكوم عاشا معاً وجلسا على هذا الرصيف معاً؟

قال عيّاد الصغير:

- لتغيَّر العالم، ولما جعت أنت وأنا. قل لي يمكنك أن تعيرني

كمية قليلة من ثروتك لأشتري بها قطعة خبز. . أؤكد لك - أيها الصديق - أنني لم آكل منذ متى. . لا أعرف بالضبط، لقد فقدتُ معنى الزمن.

قال الكلب ميكي:

- ولكني لا أعرفك جيداً. ثم إنه من يضمن لي أنك ستعيد إلي الجزء الذي أعطيك إياه من ثروتي، لكي تشتري به قطعة خبز، تردُّ بها جوعك الأبدي؟

- أنا الذي أضمن لك ذلك.

- هذا غير كافٍ. أنا لا أعرفك.

- طيب، ضع ثقتك الجديدة في.

- حسناً، خُذ لك هذا الجزء من الثروة واذهب إلى حيث تسدُّ رمقك، ولا تنسَ أن تعيد لي الثروة.

أمسك عيّاد الصغير بثلاث قطع معدنية صغيرة ودسّها في جيبه، وقال في نفسه: «لا داعي أن أذهب الآن. إن هذا المكان مريح». واتكأ بكل ثقله على جدار المرحاض العمومي. «سيتأكد ميكي بنفسه أنني لن أذهب لأشتري قطعة خبز. وهذا وحده دليل كافٍ على جوعي لا على عدمه. ثم إن الحرية من شيم الرجال». كان قد استرخى الآن، وشعر أنه قد أوشك أن ينام بهدوء. أما قدماه المتشققتان فقد مرَّ عليهما صديقه الكلب بلسانه:

- اسمع يا عيّاد، إذا كنت ترغب في النوم فأنا أيضاً سأفعل، لا داعي أن ننام جميعاً. إن فكرة واحدة يجب أن تؤرقنا جميعاً - وبكل وضوح.

فقال عيّاد:

- من جانبي، هذا صحيح وأكثر من صحيح.

وفجأة اقترب منهما الحارس البلدي ودفع عيّاد بقدمه. فقال الكلب لعيّاد:

- ماذا يريد منك هذا الوغد؟

(سمعه الحارس ولم يرد عليه، ربما كان ذلك نتيجة احتقار أبدي للكلب).

وقال الطفل:

- إنه يريد أن يُبعدني من هذا المكان. يقول إنه ليس للاستراحة. ولكي لا أضايقه فإنني سأنصرف دون أن أودعك.

قال الكلب:

- حسناً. اذهب دون أن تودعني. خير للمرء ألا يودع أخاه في ظروف مثل هذه. سأتذكر أنني أعطيتك جزء من ثروتي أرجو أن تتذكره أنت أيضاً.

قال الصغير:

- سأحاول أن أفعل.

ونهض متثاقلاً كمن أُصيب بصدمة نفسية قاتلة، وأضاف:

- أنت تعرف أن الحياة تُنسي كثيراً من الأشياء.

قال الكلب:

- هذا صحيح - بكل وضوح هذا صحيح!

وعندما استعاد الصبي نشاطه الإنساني غاب وسط العمارات في المدينة الكبيرة!

في انتظار النوم

الطفلة مات أبوها منذ سنتين. منذ وأمها أحبت رجلاً آخر ذا شاربين. والطفلة لم يبدأ العالم يتسرب إلى رأسها إلا مؤخراً. . لكن مجلبباً بالضباب. وقفت أمها بعد أن كانت جالسة على كنبة سوداء ورأسها على إحدى يديها. ذهبت إلى الشرفة، وعبثت يداها بأزهار مغروسة في أص حجري. ولبثت تنظر إلى ما وراء النافذة حيث الليل عالم غامض. ثم عادت تجلس. وقالت أخيراً لابنتها:

- ألا تنامين يا سرور؟

حدقت البنت في فخذي أمها الثريين. . .

- ليس لدي رغبة.

- قومي اذهبِ إلى سريرك، وستكون لديك رغبة.

وأخذتها من يدها، تبعتها مكرهة. ثم أعلنت لها:

- نامي يا بنتي.

- لن أنام يا ماما.

- طيب. سوف يجيئك النوم.

- إنه لن يجيئني.

- بل سيجيئك.

وتمدّدت البنت التي تبلغ السابعة. وسحبت الغطاء إلى عنقها.

ثم تركت رأسها عارياً، فارتمى شعرها الأسود الشبيه بشعر أمها على الوسادة الصغيرة.

- إنه لن يجيئني.

- سوف آتيكِ به. .

ضحكت البنت. وشقشقت كالعصفور.

- هل له شاربان؟

أصاب الأم تيار كهربائي فوضعت يدها على بطنها.

- نعم هو كذلك.

- اذهبي وهاتي النوم معك.

- لا عليك. . تمددي كلك واغمضي جفنيك.

- لن أغمضهما حتى تأتيني به. . هل له معطف أسود؟

ارتعشت الأم ولم تتكلم. لأنه كان لعشيقها معطف أسود.

وذهبت لتفتح الباب فقد ظنته قادماً، لكنه لم يكن هو.

- ماما. . هل هو النوم؟ جاء أخيراً. .

- امسكي فمك، واغمضي عينيك ريثما أعود.

وذهبت إلى الغرفة المجاورة ووضعت يدها على حافة الشرفة.

وبدأت ترقب الشارع الممتد كأفعى هندية عجوز. ومن رأس الشارع مرقت دراجة نارية عبرت الطريق الأخرى بسرعة. وكنست الفضاء الأسود بنظراتها. وجمعت النجوم المنتشرة في سلتها وجعلت منها عنقوداً وذهبت به إليه ثم قبّلت شفتيه اللتين لوثتهما السجائر.

وأمسكته من كتفيه فحملها إلى السرير.

كانت أنامل يدها تتمسك بظهر أصص الأزهار الثلاثة، وأنفها قد فقد حاسته الشمية. وفي العمارة المقابلة كانت أغلب النوافذ مضاءة بالضوء العادي إلا نافذة كانت غارقة في ضوء قرمزي أحمر.

ونقلت خطواتها فوق أرض الغرفة بوهن. فهو لم يأتِ.

والساعة تعدّت التاسعة، إنها العاشرة. وفي المذياع أغنية لهفى للِّقاء. وعلى الجدار صورة طفلتها معلَّقة تضحك بسذاجة، وبجوارها منظر جميل يعبِّر عن رحلة ربيعية، وكانت ابنتها مغمضة الجفنين لكنها ما عتمت أن فتحتهما.

- هل جاء النوم؟؟

- إنه لم يأتِ بعد. .

- إذا جاء أيقظيني. . سأنام الآن.

- نامي. . سأوقظك.

وذهبت إليها وغطت رأسها الصغير ثم أطفأت المصباح.

ورحلت إلى الغرفة الثانية حيث تعرّت تماماً وبدأت تستعرض جسدها وعنقها ونهديها الكبيرين. وتوقفت عند هذين النتوءين في جسدها وأخذت تستلذ بدعكهما. ثم أسدلت شعرها الشلال الذي كان معقوفاً قبل لحظة. ومشطته على جديد ثم عقفته من جديد. وارتدت روبها البسيط الأزرق اللون. وجلست على الكنبة. ثم تناولت من أمها مجلة نسائية. . وخفضت صوت المذياع الذي اختفت منه أغنية اللقاء. وبدأت تقلِّب الصفحات: الصفحة تلو الأخرى، حتى عثرت أخيراً على صفحة لا شكّ أنها شيقة. كانت عليها صورة لامرأة أوروبية قد ارتدت فستاناً لم يكن رائعاً ولكنه بسيط. ولم تكلِّف نفسها قراءة تعليق المجلة على هذا الفتسان، بل اكتفت بتأمله وتأمل الجسد الطري تحته. وأحست أن شيئاً جعل يصطفق في داخلها. غير أن هذا الشيء اختفى بمجرد سماعها طرقات متتاليات على الباب. . ووضعت المجلة ثم أسرعت لتستقبل حبيبها الذي تأخر. غير أن الطرقات لم تكن على الباب الخارجي. ولكنها كانت داخل غرفة ابنتها. فأصاخت السمع بقلق. وذهبت ففتحت باب الغرفة.

- ألم تنامي بعد؟

- النوم لم يجيء . .

وانتابها شعور تدمير هذه الصبية العنيدة ولكنها جميلة وحلوة كقطعة سكر.

- لماذا تتشيطنين هكذا؟

- لقد تحركت فسقط الأباجور . .

- اغمضي عينيك.

قالت الأم بغضب. ثم أضافت بابتسامة أليمة:

- سأفقأ عينيك إذا لم تنامي.

ردّت البنت بابتهال:

- إذا جاء النوم ذو الشاربين فايقظيني.

انصرفت الأم دون أن ترد عليها، وأطفأت المصباح، ثم أقفلت الباب خلفها. وهرعت إلى غرفتها. وسقطت على السرير تفكِّر في هذه البنت الملعونة. . الصبية التي تحبها وتنرفزها الآن. وارتفع صوت الراديو عندما أدارت زراً من أزراره إلى اليمين. . كانت تسمع ولكنها لم تكن تفهم. وتحاملت على قدميها وكأنها قطعت آلاف الكيلو مترات عدواً. وأحست أن أعصابها توترت. فالعاشرة مرت والنوم بدأ يدبُّ في الأجفان ثقيلاً يخيطها بخيوط لن تنقطع إلا في ساعة متأخرة من الصباح. يمكن أن يكون قادماً الآن غير أن عينيها لم ترياه خلف الشرفة فوق أحد الرصيفين. هناك شخص قصير يعرج، ولكنه هو ليس قصيراً ولا يعرج. وهناك امرأة ترفع جلبابها قليلاً لتكشف عن ساقيها كأنها ملكة سبأ في حضرة سليمان. واختنقت من الفرح، ثم فتحت الباب، وقبلته في شاربيه.

- أخيراً جئت أيها الملعون. . لماذا تأخرت. . لماذا؟

ولعنت هذه الخيالات. هو لم يجيء فلماذا هذه الأحلام؟ آه هل يُعتبر قدومه حلماً؟ أمسكت لجام خيالاتها وحرفت طريقها إلى

العدم، وقالت في نفسها: يمكنني أن ألجأ إلى السرير الآن. هو لن يأتي بطبيعة الحال ما دام قد تأخر هذا الوقت كله.. أكثر من ساعة ونصف. وحدقت مرة أخرى في الشارع على أمل أن تلامس نظراتها شبحه المحبوب. لكن عبثاً. لقد عزم على ألا يجيء هذه الليلة. وأزاحت الأصص قليلاً واحدة بعد الأخرى إلى اليمين. ثم انطلقت إلى داخل الغرفة.. كان في ذهنها فكرة، لكنها لم تنفذها. وعادت إلى النافذة فأغلقتها. وسحبت الغطاء من فوق سريرها «الخاص» ثم تذكرت أن ابنتها نائمة وحدها. فألقته فوق السرير، وزحفت إلى غرفة نوم ابنتها. كانت نائمة ووجهها صفحة بيضاء ليس فيها أي خربشة حبر. لم تكن ملامحها تعني شيئاً. فأحاطتها بذراعيها لتقبّلها فاستيقظت.

- ألم تنامي بعد؟

- إني أنتظر النوم..

وكان النوم قد جاء فعلاً، لكنه سرعان ما ذهب. فأثره لا يزال ظاهراً على جفنيها الصغيرين كجفني أرنبة جميلة.

وقالت الأم:

- سأنام هنا قبالتك.. ارقدي أنت.

وأغمضت البنت عينيها.

- سأحاول أن أفعل.

وذهبت الأم إلى السرير المقابل، وتمددت فوقه، وسحبت الغطاء حتى عنقها.

وفتحت البنت عينيها:

- هل يجيئك النوم بسرعة؟

- ارقدي يا بنت..

وصمتت البنت.. لقد رأت في عيني أمها لهباً يتصاعد إلى

السماء باحثاً عن وقود، فخافت العاقبة وأمسكت عن الكلام، واستغرقت في النوم.. وشعرت الأم بأعضائها تتفكك. فقد سرى النعاس في جسدها التعب. ويبدو أنها لم تعد في حاجة إلى عشيقها اللحظة.. قبل الساعة كان جسدها يفور. أما الآن...

وأمسكت أنفاسها...

وفكّرت ألا تقوم في هذه اللحظة. لقد سمعت الطرقات بالطبع. غير أن الدم في جسدها ما عاد يفور. وترددت قليلاً. ثم - والطرقات تتكرر - انتصبت كالسارية، وطارت إلى الباب ففتحته. وجلسا في الغرفة الأخرى بينما تركا البنت غارقة في نومها في الحُجرة المجاورة.. كان يعتذر لها عن تأخره غير أنها قبلت عذره بثقة وحب. وأخذت معطفه وعلقته. وجعل ينزع ثيابه ويدندن بأغنية قديمة ثم مدّ يده إلى المذياع، وارتمى فوق السرير. فدخلت البنت عندما كانت أمها منشغلة بنفسها أمام المرآة.

- أخيراً.. هل جاء النوم يا أمي؟؟

ضحكت الأم بنرفزة.

- هو ذا يا بنت.

وشرحت لعشيقها كل شيء فقبّل الصبية في شعرها ووجنتيها وقال لأمها:

- أَعطيها قطعاً من الحلوى.. إنها في جيب معطفي الأيمن.

فلبّت الأم الطلب بسرعة. وانتزعت منه الطفلة بحنان وذهبت بها إلى غرفتها وقالت لها:

- يمكنك أن تنامي الآن.

- سأفعل، ولكن بعد أن آكل حلواي.

وتركتها.. وأغلقت الباب خلفها. لكن الطفلة لم تأكل حلواها، بل وضعتها عند مخدتها وذهبت في نوم عميق.

النتوءات..!

تحسّس وجهه بيده. ثم نقل يده إلى الطاولة. استرخت في هدوء. البرود شامل، في الحذاء برود، وفي القدمين برود، وفي اليدين برود. كل شيء بارد. حوَّل اتجاه نظراته إلى هناك.. فوق قشرة جذع الشجرة، ربما هناك حشرات تدبُّ. وهنا أيضاً، ربما لا شيء. وهو... من يؤكد له أنه موجود، على هذا الكرسي وأمام هذه الطاولة، وداخل فنجان القهوة؟ آه. إنه بثيابه الآن، غارق هنا في هذه القهوة السوداء المُرّة. إنه هو وحده الذي يحترق وليست هذه السيجارة. إنها تنتهي ولكنه ينتهي بسرعة تفوق سرعتها. هذا الرماد، هل سيضيع حقاً هنا؟ وهذا الدخان هل سيضيع إلى الأبد؟ على كل حال فهو ليس متأكداً من أي شيء. هنا في حذائيه قدمان تنزّان دماً. إنهما داخل أقفال حديدية ملتهبة. وحرّك قدميه ليتّقي حرارة الأقفال الملتهبة. نظر إلى تحت. فوق الأسفلت حذاءان، إنهما ليسا لاَمِعين. أحدهما كان مرتقاً. في ساعة ما، في يوم ما، هنا خلف جدران هذا الحاضر، كان يمشي وهو يتأمل في الأشياء باستغراق، فارتطم بالطوار وتمزّق بذلك حذاؤه. وقد رتقه فيما بعد. كان له حذاء وحيد، كم كان يؤلمه هذا. إن العالم لا يعترف به. هناك خداع دائم. يؤلمه هذا أيضاً ولكنه يردعه. إنه يعتقد مع نفسه أنه سيبقى قوياً حتى النهاية، وسيقاوم ضدّ هذا الطغيان

المعنوي الذي يعترضه هنا وهناك. وانتقلت يده من تحت إلى فوق. استقرت على ذقنه. علامة استفهام كانت مطروحة الآن. ماذا يعني كل هذا؟ لا شيء فيما يعتقد. تمدّد ذقنه واستطال. ارتاع لهذا التحوّل الطارئ، لا. . ليس في مستطاعه أن يصبح بطلاً لكافكا. إنه شجاع، وهو يستطيع أن يفعل كل الأشياء البطولية إلا أن يُمسخ قملة، أو بالأحرى أن يصبح ماموثاً. هذا التحول الطارئ في ذقنه ليس واقعياً. وضحك من نفسه. المقهى الآن في صمت وهو لم يتحول ماموثاً وذقنه كما كان. تمددت أصابعه، وتحسّس شفته. لبث يدعكها. جذبها إلى الأمام، ثم أرخاها فعادت بسرعة إلى وضعها الطبيعي. إنها لعبة مسلية على أقل تقدير. وأعاد الحركة مرات. لكنه أبصر للوهلة الأولى شجرة شوكية قصيرة نبتت فجأة في الطاولة أمامه. كانت ثمارها فناجين عديدة معلقة بالأغصان. تعجّب لهذا. وكردّ فعل للمفاجأة اندفع إلى الوراء بنصف جسمه الأعلى. رأسه قنطار من الحديد. آه. . يالـلآلام العنيفة الحادة! بدأت الشجرة في الطاولة تتحرك، فسقطت كل الفناجين واندلقت عليه فأصبح مبتلّاً، ليس لديه الآن ثمن ما يدفعه مقابل تنظيف سترته وكيها. مهما يمكن فليس لديه أي شيء. إنه لا يملك أي شيء على الإطلاق منذ أن جاء إلى العالم، وهو بعد كتلة صغيرة من اللحم الطري لا تعي شيئاً. ما أروع أن ينتهي المرء وهو في تلك الحال. هناك بالضبط لا تتحدد له مسؤولية بتاتاً. جاء إلى العالم ولكنه في الوقت نفسه لم يجيء. إن المسألة غامضة من غير شكّ. أليس كذلك؟ خرجت من أعماقه زفرة أليمة. اندفع إلى الأمام هذه المرة. واستعاد وضعه على الكرسي الخشبي. في هذه اللحظة اختفت الشجرة الشوكية القصيرة من على الطاولة. من غير أن يصدق نظر إلى سترته فوجدها غير مبتلّة. الشمس تسطع في السماء، الشمس

قطعة من النحاس لها رنين هنا في الأرض. وثيابه لم تكن مبتلّة. خلفه كان كلام يدور. تناهى إلى مسمعه فلم يفهم منه شيئاً. من يستطيع أن يؤكد له أن هذه الموسيقى التي يسمعها الآن هي موسيقى راقصة؟ كانت رعشات داخلية تتمدد في أوعيته. ومدَّ يده بهدوء إلى فنجان القهوة فوجده بارداً كالثلج، ورفعه إلى شفتيه فشرب قهوة باردة كالثلج. أخذت أسنانه تمضغ قطعاً من الثلج. «أي.. أي.. أي..» انبعث في أعماقه هذا النداء. التفت خلفه ليتأكد فيما قد يكون الزبائن استمعوا إلى ندائه الداخلي. رجل واحد فقط، كان في قطعة من الزجاج يقرأ جريدته.. العالم تحت قدميه الباردتين. إن بإمكانه أن يبني هذا العالم أو أن يهدمه. ونظر إلى بعيد. أشجار نابتة بتنظيم وتنسيق في الطور المقابل، تحت جذوعه خواتم دائرية من الحجر. وفي وسط الدوائر الحجرية تراب مبتلّ. في الأشجار بعض الأوراق اليابسة الميتة. وفي الفضاء كانت الأغصان تتمطط. لماذا هي هكذا متمططة في الفضاء؟ ما فائدة تلك الأغصان في الهواء؟ أن أعصابه لا تحتمل تأمل هذه الأشياء. هناك في المجهول الغامض الذي سيظل مجهولاً، ستبقى تلك الأغصان متمددة ومتوترة كأعصابه. ليس بقدرة أحد مثلاً أن ينقذها من وضعها ذاك. والشخص الذي سيحاول من غير شكّ سيهدم نفسه. وجذب من جيبه منديلاً متسخاً وتمخّط فيه، ومدَّ يده إلى الفنجان بينما كانت الأخرى تعيد المنديل إلى جيبه. يا إلهي! هذه الأرض صلبة وليّنة في الوقت نفسه. شعر بأن شيئاً يحتضنه. وتحول الاحتضان إلى ضغط ثقيل جداً. فبدأ يتنفس بصعوبة.

وهنا تأكد أن عليه أن يواجه هذا الضغط بأي وسيلة.. كأن يتملص منه مثلاً، نظر في قعر الفنجان الأبيض فأبصر شيئاً أسود عالقاً بالقعر. فكّر أن يُدخِل أصبعه هناك فيمسح ذلك الشيء الأسود

لكي يستعيد الفنجان لونه. والتفت حواليه. لم يكن أي شيء بالنسبة إليه ذا أهمية. كيف يستطيع أن يعرف أهمية هذا الشيء أو ذاك؟ إنه حتى لو تمكّن واحد من أن يدله على أهمية هذه الأشياء فهو لن يستطيع أن يتأكد منها. إذ سرعان ما سيتخيلها بوضع آخر، ماذا لو طلب فنجان قهوة مرة ثانية. لا، إنه لا يريد ذلك، إنه لن يتحمّل أن يسقط في الفنجان مرة أخرى. ما هو الرأي في مشروب بارد؟ قد يبدو هذا حلاً جيداً فيما يعتقد. لكن آه.. أدخل يده في جيبه، وأخرج منديله المتسخ، وتمخّط فيه. ضغطه بين أصابعه فشعر أنها تغوص في سائل لزج. حمل هذا المنديل إلى فمه وبصق فيه بصقة مُرّة كان قد غصّ بها قبل لحظات. وأحس أن قدميه الآن تتأرجحان في الفراغ مع أنهما كانتا ملتصقتين بالأرض. وعلى الطاولة بدأت تنتشر نتوءات عديدة. وانقلب الفنجان فأصبح نتوءاً ضمن باقي النتوءات. كان يبدو مميّزاً عنها مع ذاك. بياض في بياض. واسترعى انتباهه كلام كان يدور وراءه. لم يكلّف نفسه أن يلتفت. وأخرج من جيبه قطعاً من النقود، ثم أحصاها ووضع، بعضها أمامه. آه.. ياللآلام العنيفة الحادة! في صدره كانت رياح تعوي وتصفر. وهنا، أصبح كل شيء أمامه نتوءات بيضاء. وأخذت النتوءات تملأ كل شيء. حتى في الفضاء انتشرت فقاعات بيضاء. كانت ترتسمُ عليها ألوان قزحية بفعل الشمس، حاول أن يمد يده ليتناول إحدى الفقاعات. كان عددها قد بدأ يتكاثر ويتزايد. نظر إلى قطع النقود فوق الطاولة فوجدها قد استعادت شكلها الطبيعي بعد أن كانت قد تحولت إلى نتوءات بيضاء. وكانت شبكة الفقاعات قد بدأت تبتعد منه لأن ريحاً غريبة تدفعها نحو الشرق. هنا فقط شعر أنه أخف مما يمكن. حرَّك قدميه فوجدهما خفيفتين، وحرَّك

رأسه فوجده خفيفاً. وقرر أن ينهض ليتبع هذه الفقاعات. وعندما وقف أمحى كل أثر للبياض. حتى النتوءات البيض اختفت. كان ينظر إلى المدى البعيد. وكانت الفقاعات ذات اللون القزحي تنفجر الواحدة تلو الأخرى.

«تكوين»

(أو شيء اسمه التضخم في العلاقة)

توجهت خراطيم المياه إلى الأرض السوداء وغسلوا بقايا المرأة التي فقدت كل معنى في أذهان رجال المطافئ.. ثم أخذت الأرض تلمع بفعل الماء المنتشر في البقعة الرمادية النظيفة. أخذوا جميعاً يقولون دفعة واحدة (كانوا بلا استثناء يهتمون للأمر):

الأول: واضح أنها أمه، لذلك ضرب رأسه بالعمود الكهربائي.

الثاني: ليس صحيحاً لأن أحداً لم يكن يعرف عن ذلك شيئاً.

الثالث: قِيل إنها استلقت على ظهرها أولاً وحاولت أن تسقط من هناك.

الرابع: على العكس.. فلقد رأوها على وجهها وجمعوا نهدها الذي انفصل عن جسدها من فوق لأنها تشبثت بالحاجز في الشرفة.

الثالث: قِيل أيضاً إنها ليست أمه.

الرابع: هذا شيء غير مهم.

الأول: شيء طبيعي أن يضرب رأسه بالعمود الكهربائي.. إن أمه تحبه..

ظلّت الخراطيم تمسح بقاياها.. كانت غليظة ومثيرة للانتباه بجسدها الضخم ووجها الجميل الدائري.. لقد مضى وحده بعد أن

ضرب رأسه بالعمود الكهربائي فمنعوه من الانتحار كما فعلت أمه.

ظلّت لسنوات عديدة متشبثة بأبيه. كان يحبها بخشونة. وقد حكى قصة حياته قبل أن يموت. كان كتاني يعرف باقي هذه الأشياء عن أمه وأبيه. وكان يعرف أشياء أخرى كذلك: في ليلة سوداء دفنوا كتلة لحمية خرجت من بطن أمه بطريقة سُريالية. وكان مقداراً عليه أن الكتلة اللحمية أخ أو أخت: جمعتهما عملية الاستخراج وجمعهما تكوين خاص ناتج عن رغبة. ثم حاول أن يفهم معنى أن يصبح الإنسان أخاً لجماد أو لكتلة لحمية ليس لها إنفاً ولا عيناً.. ليس لها عضواً ولا هيئة. وظلَّ طوال حياته يستوضح ذلك وحده.. فأمه وأبوه لا يفهمانه: إنه غريب. «إن الانتساب إلى كتلة ليس لها إنفاً ولا عيناً، هو انتساب إنساني». ومشى وحده بعد أن ضرب رأسه. وجروه من ذراعيه كمعتقل خطير، فلم تتح له الفرصة لإعادة التفكير وتوضيح الالتباسات في دماغه، «أحياناً لا يتساءل الإنسان عن أشياء مهمة، لأن التساؤل يفقدها أهميتها». لقد جروه من يده فمضى وهو يعوي، وظلَّت البقعة الرمادية مبللة بالماء والخراطيم المائية السوداء متوجهة إليها.

كانت المسافة التي سقطت منها أم كتاني غير بعيدة. فالطابق الثاني لا يقتل في بعض الأحيان. وعندما أرادت أن تموت بدا لها أنها تسقط من جبل شاهق.. ودار دورتين وفتّش عنها فانتشر عالم فسيح في رأسه، وتذكر - ولا يعرف لماذا؟ - أنه قرأ ذات يوم عن رحلة ابن جبير. وخرج ليبحث عنها فوجدهم ينظفون المكان.. كانت البقعة مزدحمة بالناس كأنهم لم يروا عملية انتحار قط في حياتهم.. وعندما ضرب رأسه بالعمود الكهربائي تحدث الناس من هول الصدمة وقالوا..

الخامس: هذه أمه وليست زوجته.

السادس: كان أبوه فاقداً لرجولته قبل أن يموت، وكان يعرف أن أمه ليست عادية لأنها تزوجت أربع مرات في حياتها.

عندما ضرب رأسه بالعمود الكهربائي لم يكن يعرف أنه مُقدِم على عملية انتحار.. ولكنهم لو تركوه لكان قد انتحر ومات كما ماتت أمه وأبوه.. أما الآن فليس له في العالم سند.. وفكّر في تلك الكتلة الرطبة التي خرجت ذات يوم من بطن أمه.. وحزن لفقدان أمه وأبيه وأخيه. ثم مضى وحيداً يضرب في المتاهة لأنهم جرّوه ونفوه داخل دائرة خاصة من اللاوعي.. لم يكن يشعر بأي شيء. فالآخرون لم يكونوا يوحون له بأي فكرة. لقد خرجوا من دائرة وعيه، وتحدثوا في البقعة على إثر تنظيفها من جثة أمه المنتحرة.

الثامن: لقد انتحرت لأنها عرفت أنه لن يعود لها بعد ذلك.

التاسع: من؟

س: عشيقها. وقِيل إنه كان سيصبح زوجها الخامس.

ص: إنها بحقٍّ امرأة مهووسة.. وهل كان ولدها يعرف ذلك؟

س: مَنْ تقصد بولدها؟

ص: كتاني.

س: مَنْ كتاني هذا؟

ص: الرجل الذي ضرب رأسه بالعمود الكهربائي.. أمه مهووسة وتحب الرجال.. لقد خانها عشيقها ورفض أن يلبّي رغباتها.

س: إنها عجوز. لقد ظلَّ نهدها معلقاً في الشرفة ولم ينتبهوا إليه.

ص: كانت بحقٍّ مجرمة، والمجرمون يموتون بفظاعة.

س: إن الزنا ليس جريمة، ثم إنه يجب أن نذكر موتانا بخير..

س: أيضاً، انظرو إلى البقعة! لا يزال الدم هناك..

ص: ليس دماً ولكنه ماء وزفت.

مضى كتاني وحيداً.. وجرّوه من ذراعه كمعتقل خطير.. وعلى الرغم من قسوتهم كانوا خارجين من دائرة وعيه. وكان صامتاً كالحجر.. ولم يكن يحس. فحتى تلك الكتلة التي خرجت من رحم أمه ذات يوم ودفنت خفية، لم يعد يحسُّ بها.. كل شيء أصبح ضبابياً، اختفى خلف ستار رقيق من الألم، لأن كتاني فقد الشعور بما يحيط به، ولم تعد المخلوقات بالنسبة إليه تمثل تلك الأهمية التي كانت لها في السابق. كله كافٍ لإخفاء معالم صور كل الأشياء والمخلوقات من مخيلته.

سأل أستاذه ذات يوم:

- هل يعتبر الانتحار موتاً عادياً؟

- لا. ليس موتاً عادياً.. لأن الموت العادي يَحلُّ بنفسه وليس بإرادة أحد.

- أعتقد أن الانتحار يَحلُّ بنفسه كذلك. إن كلتا الحالتين ناتجتان عن مسبب.

- صحيح، لكن هناك فرقاً طفيفاً في حصول كليهما، ثم إن الانتحار موقف في حين أن الموت ليس موقفاً.. والانتحار جبن بينما الموت شجاعة.

ولم يفهم كتاني هذا المنطق الخاص لأنه كان غريباً. وعندما ضرب رأسه بالعمود الكهربائي لم يكن يفكِّر في الانتحار. لم يكن يفكِّر في الجبن أو في الشجاعة. لقد شاهد أمّه في صباح مبكر.. ونظر إليها مدة غير يسيرة، ولم يكن واعياً لحالته.. وظلّت هي تفعل الشيء نفسه وكان نهداها متدليين كبيرين. وكان لجسدها انحناءة نارية.. وفجأة نزل ستار صفيق ولم يعد يبصر شيئاً. إذ فقد كل حواسه الخمس. كانت أمه عادية.. وكان يتوقع أنها ستتزوج رجلاً

سادساً أو سابعاً. ولم تكن هناك ممانعة من طرفه أو حواجز دينية تقف بينهما. وكان مفهوم خاص للعلاقة قائماً بينهما.. فمهما يكن الأمر فهي أمه.. وقبل سنتين اقترحت عليه أن يتزوج فرفض بدعوى أنه يبحث عن امرأة تعرف كيف تنسجم معه ومعها.

كتاني.. كتاني!!

كان يشربُ القهوة ولم يكن يسمع أي صوت. وأخيراً نظر في جسد ضخم متهدل شهواني:

- هه!

- تعال هنا..

ثم مضى.. وتنفس هواء منعشاً في الشرفة من الطابق الثاني الذي سقطت منه أمه.. وظلَّ يتنفسُ بكل حرية فتجمّع هواء طيع في صدره المنتفخ كصدر أمه.

- ماذا تريدين؟ أمي..

- لقد وجدتها.. عندما تسقط البقرة تكثر الجناوي..

- لا أفهم..

- فلانة.. لقد نضجت وهي في قد أمك، والخطّاب كثروا وهي ترفضهم جميعاً إلا أنت.. ماذا تقول؟!

لم يقل شيئاً لحظتها، بل انزوى ودندنت في رأسه موسيقى مثيرة للأعصاب.. وانسحب إلى الخلف ثم غادر الحُجرة. كان يعاني من عقدة أمه.. ولم تكن له أية فكرة عن أوديب. ولكن عقدته التي أحسها وتعرَّف إليها كانت من نوع خاص: هو في حاجة إلى نشج إنساني، إلى عاطفة، إلى بلاهة أحياناً.. وإذا قدر الأمر فإن أمه ستتزوج من جديد.

ظلّت الخراطيم تنظف البقعة التي فيها الدم بالزفت بالماء. وكانت أفواه صغيرة وكبيرة تنغلق وتنفتح.. ثم امتدت الخراطيم

السوداء ورشته حتى ألقته أرضاً فدار دورتين وسقط. كان يعتقد أن قطعة من أمه بين يديه.. غير أنه لم يكن هناك شيء.. فحتى الكتلة اللحمية اختفت معالمها فلم يعد يكوِّن في ذهنه عنها أدنى صورة. لقد اعتقلوه، وشعر بقوته تخور لأنهم كانوا أقوياء، وفي الواقع لم يكونوا يريدون له أن ينتحر لأن ذلك عيب. فالانتحار «ماشي مزيان». إنه جبن وليس موقفاً.. ثم بدأت الخراطيم السوداء تدفعه من جديد وترشه بماء سقوي بارد كما لو كان مجلوباً من أحواض الجنة.. وحاول أن يستلذ دغدغة الماء ومداعبته. وشعر أنه شخص آخر. فلقد تغيّر كلياً ولم يكن البشر يحيطون به.. بل كانت الأفلاك والآفاق والأبعاد.. وكانت كل هذه الأشياء متراكمة فوق جسده الضخم الذي تضاءل وأصبح خفيفاً وناعماً.. لقد كانوا لا يزالون يتكلمون وكانت البقعة على وشك أن تجف.. ولم يحاول أحد أن يرشها من جديد.. لأنه لم يبقَ هناك أثر للموت.. كانوا يتكلمون ويتكلمون.. وكانت الخراطيم السوداء قد انسحبت مثل حيات غليظة إلى جحورها.

حالة...

الواقع أن الضباب بشكله الرمادي هذا يعجبني. وأن التبرم الذي علق بين الصباح ليس ناتجاً عنه بتاتاً. إنني مستاء فعلاً وحزين. ولكن ليس للضباب يد في ذلك. إن البرد ليفعل فعلته خصوصاً في من لا يتمتعون بمعاطف صوفية دفيئة مثلي. ثم إن الإنسان كيف لا يحزن ورأسه جراب ثقيل محشو بالكلام المزعج. والتفكير الشتيت؟!

لقد ابتلعتُ محتوى كأس القهوة دفعة واحدة رغم السخونة المفرطة. وكنت متيقناً أن ذلك سيقتلع لَهاتي وسيخلِّفُ لي ألماً وقتياً. مع ذلك فكرت: أن أتألم وقتياً أحسن من أن أتألم طوال يومي هذا. إن زوجتي التي كانت تحبني قديماً، والتي لا أظنها الآن كما تدّعي، تملأني تأنيباً وكلاماً وسباباً صبيحة كل يوم، وتدّعي في ذلك كله أنها تحبني وتعشقني حتى العبادة. لا يُهم. قديماً كانت طفلة جميلة. شعرها طويل حتى الساقين. وتوادنا. وقلت لها قصّيه. ثم ذهبت وقصته. كانت تحبني؟ وكانت تحبُّ شعرها كذلك.. والآن يبلغ بها الحدّ إلى صفعي: «ما الرجل بلا عمل؟ بلا نقود؟!». إن الحقّ معها. هذا لا شكّ فيه، ولكن من أين لي العمل؟ لتعطيني هي عملاً وسترى؟ لتعطوني عملاً وسترون. أي عمل، زبّال، نجار، أي شيء. حتى منظِّفاً لدورات المياه. إني أريد أن أشتغل. أن أحرك يدي هكذا... أريد أن أصبح غنياً. وألا أسمع كلاماً يحزُّ ويُحزن بلا هوادة. إني

أريد معطفاً. معطفي أصبح رثاً. آه لا يهم. لا بل إنه يهم. من غير شكّ أن للبرد عاملاً إضافياً في حزني صبيحة هذا اليوم كما كان في الأصبحة السابقة، منذ غزوة نوفمبر الكبرى. إني لأحمد اللّه كثيراً لأنه خلقني في أرض معتدلة الحرارة كما يقولون. لقد سمعت أن هناك أناساً يموتون من فرط القرّ أو فرط القيظ. إن هذا لا أعرفه هنا في بلادي. لم يحدث يوماً. وعلى كل حال فالبرد يمكن أن يميت. إن هذا الخناق الذي يشده علي كافٍ لو زيد في حدّته أن يقتلني أنا نفسي، وأن يؤدّي بجسمي - هذا الذي افتقد استعراض حركاته منذ كذا من الزمن - إلى حضرة تسعني وتسع تابوتي وكفني. إنني شبه ميت وإن كنت أتحرك، وأمشي، وآكل. ليس بالمفهوم الذي يحمله الناس.. حتى الامتلاء والشبع والكفاية لا.

كان ذلك الإنسان طيباً، وإن كان وقحاً. يبدو أن في الكلام تناقضاً!! أبداً لا. ولقد هاجر إلى بلادٍ بعيدة، وتركني بلا عمل. إن ما أعطانيه عن عملي طوال السنوات الماضية، أو سمّه ما شئت، قد انتهى بالفعل. إن البطاطس والطماطم والخبز كل هذه لا تترك اليد إلا فارغة. إن عدوة الإنسان قفته. هذا صحيح. تملأها لتفرغ ثم تملأها لتفرغ كأنك تُغربل الماء أو تمسكه بأصابعك وهو يتساقط أبيض كاللجين من علٍ.

كان له بستان في ضاحية المدينة. ولقد أعفاني طوال تلك السنوات - والحق أقول - من شراء الخضر، بل حتى من الثياب. كان يعطيني المستعملة منها والتي استبدلها بأخرى. وأؤكد أن هذا المعطف الرثّ الذي ارتديه الآن كان من إحدى نعمه علي. قد أصبح رثاً جداً. ومن ثم فقد بات من الأكيد سهولة إدراك عدد السنوات التي سرّحني فيها من العمل منذ مضى إذا عرفنا بأن المعطف كان على كل حال لائقاً يوم سلّمه إلي مشفوعاً بضربة خفيفة

من يده على كتفي. . ولقد أوصى بي أحد أصدقائه خيراً. وكان هذا الأخير ماكراً. قال لي ستعمل معي. قلت هذا حسن. هذا جميل. جد جميل. ثم وافقت ثم أتى بآخر غيري وسرّحني من غير سبب. ولقد شعرت بالمهانة. وبأن كرامتي تداس في واضحة النهار مثل دجاجة خلّفتها سيارة لامعة على الطريق مجندلة.

وقالت لي زوجتي: «لا بأس» ثم أضافت. . . «ابحث لك عن عمل آخر». قلت: «سأحاول». . وكنت ولا أزال أحاول بالفعل. أما من جانب زوجتي فقد حاولت هي كذلك. كان زوج ابنة خالتها إنساناً له وضعية ما داخل الطبقة التي تقف على طبقتنا مباشرة. ولقد تدخلت لدى ابنة خالتها ووعدتها ولا تزال تعدها. وإن زوجتي في انتظار أن أشتغل تموت غيظاً. وتحملها أصابع أسطورية من الحزن إلى البكاء وإلى أن تقول كلاماً كأنها ترثي ميتاً. في هذا الصباح فعلتْ ذلك أيضاً. إنك لا تشتغل، فتّش عن عمل. ماذا سنأكل؟! سأذهب إلى أمي إذا استمرت الحال هكذا. وكانت تبكي. وحاولت أن أفعل كذلك. لكني افتكرت بأني رجل. والرجال لا يبكون، يتألمون فقط، بل إنهم يبكون من الداخل، وعيونهم الداخلية تبكي أكثر فأكثر. . ليست هذه هي المرة الأولى التي تقول فيها إنها ستذهب إلى أمها. إن هذه المرة قد تكون ألفاً، بل أكثر من ذلك، إذ ربما أخطأت التقدير. كانت تريني بعض الأماكن في لباسها. انظر إنها أصبحت غير صالحة حتى للترتيق. ولقد كانت صادقة. لقد رأيت ذلك بالفعل، ومعها الحق إذا بكت. إن الضباب أُحبه بشكله الرمادي هذا. إلا أن البرد يكدر عليّ تمتعي بجمال ضباب هذه الصبيحة. إن المعطف في حاجة إلى ترتيق. زوجتي ثيابها في حاجة إلى ترتيق. أنا بلا عمل. أنا ذاهب إلى الميناء وعيناي فيهما شيء دافئ، وأنا مقرور بما يكفي.

الموت وما بعده

من هنا مرَّ الناسُ، ومن هنا عادوا إلى الأكواخ وقد تبدلت خفايا أعماقهم. إن ذلك بالطبع لم يكلِّف الواحد منهم سوى بضع ساعات، أو إن شئت فبضع دقائق.. ما هي إلا بضع دقائق وينسون.. فكأن العمياء ما ماتت، وكأنها ما كانت في العالم تشغل الناس وتأخذ نصيباً من وقتهم..

في ذلك الصباح الباكر، حملوا جثتها ليودعوها إلى الأبد، وكان الناس الذين يرافقون الجثة لا يتعدون الخمسة: ابنتها وطفلاها، ثم زوج ابنتها والفقيه الذي قرأ عليها سورة قرآنية، كانت ابنتها وحدها هي التي لم تتمالك نفسها.. هي وحدها التي كانت تتعثر بأحجار الطريق المدببة البيضاء، هي وحدها التي كانت تشعر بأن الموت عالم غامض يجب الاعتراف به، والاستسلام له في كل لحظة طرق فيها الباب. أما الموت في ذهن الطفلين فقد كانت له صورة عجيبة. إن جدتهما سيأتي لها ملاك الليلة، وسيوجِّه إليها بعض الأسئلة فتجيب عنها بلا أو نعم.. هل فعلتِ خيراً في الدنيا؟ نعم.. هل فعلتِ شراً؟ لا. ثم سيأمر الملاك ملاكاً آخر أصغر منه مقاماً فيحملها هذا الأخير إلى عالم عجيب، حيث ستستردُّ بصرها وشبابها وتتزوج من رجل يروق لها. أما زوج ابنتها فلم يفكِّر في موت العمياء بتاتاً.. ولكنه بعد أن أودعوها الحفرة وجد أنه لم يفكِّر

في موت شخص ما فكأن أحداً لم يمت. وبما أن العمياء كانت تضايقه في حياته، وكانت في بيته جثة هامدة لا تفعل شيئاً طيباً على الإطلاق، فإنه قد تخيلها الآن في أبشع صورة. جيفة نتنة ملقاة في حفير. وبعد ساعات قليلة ستنبعث منها ديدان منهومة تأكل كل شيء فيها حتى عظامها. ثم خطر له أنها الآن في وضع مريح، ممددة هكذا بلا مشاكل، لقد خلَّصته وخلَّصت نفسها، وخلَّصت كل من يعرفها.. فهي لم تكن سوى وهم. لم تكن لها أي قيمة مادية. فبما أن لحظاتنا الحياتية القصيرة تُقاس بقيمنا المادية، وما نساويه وما نحققه على هذا المستوى، فإن العمياء كانت في حياة زوج ابنتها كيساً مثقوباً للادّخار، كل ما يوضع فيه يتلف للتو. أما الفقيه، فقد تأمل طويلاً في المسألة. ما معنى أن يموت المرء؟ هذا سؤال طالما طرحه على نفسه كلما قام بعملية دفن وغسل. ولكي يُجيب عن سؤاله الذي يلازمه دائماً فهو يعترف ببعض التحفظ أن الموت إنما هو حدّ فاصل لما هو خير ولما هو شر في الإنسان. لكن السؤال يُولِّد لديه أسئلة أخرى ويُولِّد لديه إجابات أخرى. لماذا سيُعاقب الإنسان مع أنه لم يختر وجوده؟ لو أنني لم أُولد ما كان هناك عقاب أو جزاء. وإذن فبما أنني لم أختر وجودي فإنه ليس من العدل أن أُسأل عن وجود لست مسؤولاً عنه. فالعقاب والجزاء إنما يعنيان من تحمل مسؤولية الفعل. ويطيل الفقيه في هذه الأسئلة التي لا تنتهي، ويشعر أنه بدأ يدخل إلى عالم غامض يُقال عنه إنه كفر.. يجب ألا يناقش هذه المسائل. ويعترف أن ما يقوله عقله صائب، ولكنه يخاف من هذا الشيء اللامحسوس الذي علَّمه إياه القرآن والسنّة، وما حفظه في المتون الكبرى... لقد ودّعوا العمياء. ومع أنها لم تكن بذات قيمة مادية فقد شغلت بعضاً من تفكير الناس.. وفي كل خطوة تخطوها ابنتها كانت تشعر أنها تهوي إلى قرار سحيق. وكان الطريق

الترابي الممتد من المقبرة إلى الأكواخ الجاثمة في الأوحال يضيق ويضيق، حتى لكأنه أغلال تشدُّ على الأقدام التي لا تحدِثُ أي صوت أو صدى. ويبدو أن الحزن قد طار فجأة من مخيلة الطفلين. فانشغل أحدهما بالتقاط قطع الزجاج الملونة المتناثرة في الرمل، والتي تعكس أشعة شمس الصباح الملتهبة. وفي الكوخ شعرت البنت أن شيئاً ما ينقصها. وشعر الطفلان أن شيئاً ما ينقصهما، بينما شعر الزوج بشيء لم يفهم له معنى. هل ينقصه شيء؟ أم لا ينقصه؟ إنه لا يدري بالضبط.

ماتت العمياء تلك الليلة بلا مقدمات. ماتت فجأة. في الساعة التاسعة ليلاً. أرخت ذراعيها وتمددت فوق سرير خشبي له حشية من الخيش. تمددت على ظهرها. وكانت تتنفس بصعوبة وتحاول تحريك قدميها الباردتين. لقد قِيل لها إن الموت يصعد من القدمين إلى الرأس. في تلك الساعة كانت الكلمات تختلج في أعماقها دون أن تقفز خارج فمها النتن الذي يبيِّن عن ناب عفن أصفر. عندما شعرت أن الحالة غير طبيعية أجهدت نفسها وحاولت أن تتكلم. وفي النهاية تكلمت. لم يكن أحد يشعر بآلامها. فابنتها كانت تعتقد أنها قائمة كالعادة. وإما ممددة كما تفعل طوال أوقاتها. فيما أنها لا تفعل شيئاً فهي تلتزم سريرها الخشبي. ثم تبدأ في التقلب فوقه وهو يئنُّ ويطقطق. وفي بعض الأحيان تلتزم الهدوء والسكون فلا يُسمَع لها سوى شخير رتيب.. شخير ممل ومغث. وقبل أن تموت تلك الليلة شعرت أنها من غير شكّ قادمة على تجربة غريبة.. وحاولت أن تتحرك فوق السرير فلم تستطع. وصرخت كأنها تتكلم في أعماق بئر عميقة. ونادت ابنتها:

- حسناء.. إني أموت.

ولكن أحداً لم يسمعها إذ ذاك. كانت ابنتها حسناء خارج

الكوخ. ذهبت لتتبرز في الخلاء. أما الطفلان فقد كانا منشغلين بلعبة طريفة. وأعادت العمياء الكرّة. ولكن أحداً لم يسمعها. وكان لصوتها رنة محزنة قاتمة - حسناء.. حسناء.. ولكن عبثاً. فحسناء ذهبت لتتبرز في الخلاء. ثم.. ماذا بإمكان حسناء أن تفعل؟ هل تستطيع أن ترد موت العمياء؟ هل الموت جرو صغير يفر بمجرد أن نلقيه بحجر؟

.. في تلك اللحظة أحست العمياء أن أعصابها تتوتر وأن نصفها الأسفل قد أصبح مشلولاً غير قادر على الحركة.. وأعادت بصوتها الأجش القبيح.

- حسناء.. إني أموت..

وسمعتها حسناء وهي تدخل إلى الكوخ.. كانت لا تزال تشدُّ سروالها. وأجابت أمها صوت فيه بعض اللامبالاة.

- أمي ها أنذي.. ماذا تقولين؟

- إني أموت.. حسناء.. إني أموت..

ولم تهتم ابنتها لذلك.. فلقد سمعت عنها مراراً وتكراراً هذه الشكوى. فهي دائماً تدّعي الموت وتقلب البيت رأساً على عقب.

- ولكني ماذا أستطيع أن أفعل يا أمي..؟ اخرجي إلى الخلاء وشمي هواء.. تحركي قليلاً.. لماذا أنت نائمة ليلاً ونهاراً؟

- إني أموت..

ولكن البنت لم تنتبه.. ولم تعر للقضية أي أهمية. وفي تلك الأثناء بدأت العمياء في السعال. سعلت باختناق وماتت. ولكن أحداً لم يشعر بموتها في اللحظة، لأن حسناء توجهت إلى طفليها، وزوجها لم يكن هناك.. حثتهما على النوم فلم يناما.. وفي الصباح الباكر اكتشفت البنت أن أمها ماتت عندما رفعت عنها الغطاء. رأت

نهديها المتدليين اللذين ماتت فيهما تلك النخوة وتلك العربدة. ولا شكّ أنهما كانا بارزين، وكانا مثيرين في زمن ما.. ولا شكّ أن صاحبتهما كانت تملك صدراً يسيِّل اللُّعاب.. أما الآن فهما خرقتان باليتان متدليتان. ومن صدرها انتقلت نظرات حسناء إلى عيني أمها.. فكأنما لم ترهما من قبل. كانا غائرتين كما لو أن سفوداً فقأهما. ماتت الحركة في وجهها وأصبح أزرق. وبدا كأن لا فرق بينه وبين الخيش الذي يتوسده. ما الفرق بينها الآن وبين هذا الخيش؟ الخيش لا يتحرك وهي لا تتحرك.. الخيش لا يحس ولا يشعر، وهي لا تحس ولا تشعر.. إنها لحظات ويصبح الإنسان في عداد الأشياء التي كان يعتقد أنه سيدها.

وعندما تأكدت حسناء من موت أمها صرخت ثم بكت طويلاً. وجاءت بعض الجارات فبكين قليلاً وانصرفن.. أما طفلاها فلم يبكيا لأن جدتهما ماتت، ولكنهما بكيا لأن أمهما تبكي بوحشية، ولأنها كانت تعذب نفسها بماسوشية فظيعة.. هشَّمت القدر الطيني، وأخذت تمزق وجهها بقطع هذا القدر. فحفرت على خديها خطوطاً دموية كبيرة اختلطت ببعض السواد.. كان المنظر مؤلماً للغاية. ولكن في النهاية، بعد أن تخبطت حسناء على الأرض، اقترحت على نفسها الجلوس. فجلست فوق التراب وغرست قدميها فيه. ثم أطرقت لوقت قصير. ولكنها لم تلبث على هذا الوضع، بل أمسكت بعود وأخذت ترسم خطوطاً فوق الأرض. خطوطاً لم تكن تعني شيئاً. فهي لم تتعلم القراءة والكتابة. وفي تلك اللحظة بدأت تخطر لها صورة سريعة... بدت لها أمها سالمة العينين، وبدت لها صورتها وهي تركض في الحقل. ثم ظهرت لها صورة أبيها الذي فقدته وهي صغيرة، ثم زواجها. واختلطت هذه الرؤى كلها بالخطوط المرسومة فوق الأرض. وتنهدت بقوة وألقت بالعود الذي

كانت تخطُّ به الرسوم الغريبة على التراب. في تلك الأثناء دخل زوجها بالفقيه. ونظرت نظرة أخيرة إلى جسد أمها، وقالت للفقيه وهي تشير إلى داخل الكوخ:

- إن الماء ساخن في البرمة.

وبمساعدة الزوج حمل الفقيه الجثمان الهزيل إلى داخل الكوخ حيث كانت تنتظر العمياء عملية الغسل والتطهير.. إذ يجب أن تلاقي ربها خالية من جميع أدران الدنيا. إن الجسد خبيث، ولذلك فكل ما هو خبيث يتعلق به. كان الفقيه يفكِّر في ذلك، وكان يؤمن فيه بشيء من التحفظ.

كانت جلجلة الماء فوق جسد الميتة تغرِقُ حسناء في تفكير ليس له حدود ولا هدف. طفرت إلى ذهنها صورة أمها واسترجعت بسرعة القصة التي حكتها لها عن سبب إصابتها بالعمى. وبينما كانت حسناء تخطُّ فوق الرمل خطوطها الغريبة، كانت صور سريعة تتوالى في مخيلتها وتطفر في كل شيء أمامها... هو ذا الموت قد حلَّ.. وها هي ذي تجربة مُرّة لا بدَّ وأن يمر منها كل واحد.. لكن ما أفظع ألا يستعد المرء لاستقبال التجربة.. إنها تأخذها فجأة، كما أخذت قبل ساعات روح العمياء، ولم يبقَ بعد ذلك سوى جسدٍ بالٍ سيكون مصيره التلاشي بعد لحظات. وشعرت حسناء تحت قدميها الحافيتين بالتراب وقد بدأ يسخن. وانسلت فوق خديها دموع فحاولت أن تكفكفها، لكنها لم تجد القوة الكافية لفعل ذلك. وفي تلك الأثناء كانت صورة أمها وهي شابة تذهب وتجيء في مخيلتها؟ إنها تريد أن تضع في ذهنها صورة لأمها قبل أن تصاب بالعمى، وكلما استرجعت خيوط القصة التي حكتها لها أمها.تقطع الشريط إلى أجزاء. وعبثاً حاولت أن تلملم أطراف القصة.

وعندما رفعت حسناء عينيها عن الأرض، وحوّلت نظراتها إلى

السماء الزرقاء بدت لها اللوحة كاملة، وبدت لها صورة باقي الأشياء بارزة المعالم. .

كان الوقت ظهراً عندما انطلقت أمها العمياء بسلتها المصنوعة من القصب إلى الحقل. . وكانت الشمس محرقة جهنمية. . ولم يكن في السلة سوى خبزة حرشاء وبرّاد شاي، وأبوها ربما كان خلف هذه التلال التي تفصلها عنه، ملقى تحت الشجرة ينتظر غذاءه. . وفي الطريق الملتهب وجدت نفسها وحيدة تغني أغنية شعبية ملتهبة. . لم تكن غير الأشجار منتصبة في العراء. وتحتها ربضت الدواب تمضغ أحلامها في كلال. ولأن الحرارة كانت مفرطة فإنها لم تضع على جسدها سوى خرقة تبيِّن عن جميع معالم جسدها. أما عند صدرها فكان الثوب مفتوحاً بحيث أن هوة سحيقة بين نهديها كانت تعكس أشعة الشمس. لدى كل خطوة كان صدرها يهتز في نشوة. . وعندما تحوّلت إلى المجرى المائي لتبترد وجدت هناك حسون جالساً بجلبابه الصوفي رغم الحرارة الشديدة، وقد أدلى قدميه في المجرى المائي. وحاولت أن تتراجع ولكنه فاجأها بالكلام. . وعندما تكلما طويلاً أراد أن يقبلها ففرّت ثم تبعها. . كانا يضحكان في نشوة عارمة. لكن سرعان ما تحول المزاح إلى جد. كانت تجري وكان يجري. . كانت تقفز وكان يقفز. . ثم بلا مقدمات تعثرت فسقطت. ولحظتها صرخت في ألم حاد: «آه. . عيناي. . عيناي». وعندما حُمِلَت إلى البيت وُضِعَت لها أدوية عبثاً. . كان عود صغير قد اخترق بؤبؤ عينها اليمنى. . ولكن كل ما في الأمر أن العين الأخرى لا تعرف كيف أصيبت بالعمى. . كل ما تتذكره أن الأدوية كانت توضع لها حتى في العين السليمة. . وبعد عام لم تعد ترى شيئاً. لقد تعطلت حركة عينيها. وها قد أصبحت عمياء.

هنا فقط اختفت معالم اللوحة أمام عيني حسناء، فتركت مكانها

وهي لا تزال في شرودها. وتوجهت إلى باب الكوخ المقفل حيث كانت جلجلة الماء فوق الجسد الميت تأتيها واضحة.. ثم رجعت إلى الوراء وهي حائرة لا تعرف ما عساها تفعل. وكان الكفن الأبيض الذي دخل به زوجها قد أثار انتباهها، فأحست بشيء من السعادة.. لقد ذهبت عنها تلك السحابة التي لا تعرف كنهها والتي ملكت عليها كل حواسها. وعندما كفّنوا العمياء، وذهبوا بها إلى المقبرة لم تشاهد حسناء عملية الدفن، بل كانت تجلس بعيداً فوق قبر أحد الأموات. وكانت كأنها لا تعير أي أهمية لموت أمها. في ذلك الصباح أحست أن حياتها ما هي إلا نوم قصير، تأتي بعده يقظة على حقيقة مرة ومؤلمة. وبينما هي جالسة على القبر كان طفلاها خلفها منشغلين بشجار. لو أن جدتهما لا تزال حية لضربتهما على أيديهما كما تفعل دائماً. ولكنها الآن قد ماتت، فإنهما سالمان من أذاها.. وحثت حسناء طفليها على ألا يقوما بحركات فيها وقاحة، لأن الموقف كان يتطلب حركات أكثر رزانة. ولكن الطفلين لم يكونا يعرفان بالطبع معنى الرزانة. فهما يتصرفان بما يوحي به إليهما شيطانهما. لقد تصنّعا الرزانة. ولكن عندما نهضت أمهما وتوجهت إلى الحفرة حيث سترقد أمها إلى الأبد لطَمَ الكبيرُ أخاه، فضجَّ هذا الأخير بصرخة سرعان ما كتمها، وكان الكبير يتتبع إذ ذاك أمه وهي تتوجه إلى قبر جدته حافية القدمين، وعلى جسدها ثوب أحمر، فيه بقع صمغية سوداء. لقد كانت فكرة الموت لدى الطفلين تتخذ شكلاً غريباً إلى حدّ ما. فجدتهما من غير شكّ لم يتغير فيها شيء، وهي فوراً ستنتقل من عالم إلى آخر، من عالم واقعي إلى عالم أحلام. ولأنها كانت قد قرَّبت لهما عالم الأحلام فهو مألوف لديهما. إنها الآن بين الملائكة. وهما قريباً سيلتحقان بها، هناك حيث سيجدان الغول والشيطان وغيرهما من الأرواح الشريرة مكبَّلة بأغلال حديدية

ملتهبة. ولم يمضِ وقت يسير حتى رجعت حسناء إلى مكانها الأول فوجدت طفليها وقد افترقا. كان الصغير يلهو على بُعد عشرة قبور تقريباً. وكان منشغلاً بجمع بعض ما يهمه، بينما عقد الكبير إلفة مع الأفق الشرقي، حيث الشمس تلهو في دائرتها النحاسية. فقالت لهذا الأخير أن يذهب فيأتي بأخيه لأنهم سينصرفون وقد تمّت عملية الدفن.

لم يكلف الزوج نفسه الحديث إلى زوجته حسناء، بل مضى في إطراق إلى جانب الفقيه الذي لم تكن تبدو على ملامحه آثار لحزن حقيقي لأنه متعود على حالات نفسية مشابهة. فهو قد أصبح الآن غير قادر على الشعور بالألم والحزن. إنه يستطيع أن يطرد الحزن وأن يتنكر له، وهذه خاصية تتميز بها نفسية الفقيه لكثرة ما تعوَّدها. فعندما تتكون الحالة النفسية في داخله، يتكون لديه بالمقابل استعداد للشعور بها، وبالتالي لرفضها والتنكر لها. وبما أنه يمارس عملية الغسل ليس بصفة دائمة فهو ليس في حزن دائم، رغم أنه يعيش دائماً مع الأموات، حتى لكأنه أصبح في عدادهم.

وكان زوج حسناء مع ذلك شعر الآن في هذه اللحظة بالذات بألم حاد.. إنه لا يحب حماته ولكنه مع ذلك يعاني من ألم خارج طاقته، ولم يكن بمقدوره أن يطرده.. وهنا أيضاً بدأ الفقيه أقوى منه، ولكن الواقع أن حسناء هي التي كانت تتألم بصدق. أما الطفلان فقد كانا يتأسفان على شيء واحد هو وقاحة جدتهما الممزوجة بحنانها القاسي. فهي تتكلم دائماً، وهي تضربهما ولكنها مع ذلك تتقبل شيطنتهما.

عندما وصلت المجموعة إلى الأكواخ المتناثرة، اضطر الفقيه إلى أن يقنع نفسه بالانسحاب، ولذلك قال للزوج:

- عظّم اللّه الأجر..

- أجرنا وأجركم عند اللَّه. .

ولم يطل الحوار، لأن الفقيه قد بدأ يتلكأ في مشيته حتى التحقت بهما حسناء وطفلاها وراءها. وكان الفقيه ينتظر وجودها إلى جانبه ليقول لها عبارة ترددت في رأسه وقفزت مرات ومرات. .

- صبّري نفسك، كلنا للموت.

فتنهدت حسناء لتقول:

- اللَّه يصبر المسلمين أجمعين. .

- كلنا للموت. .

والتفت إلى الزوج، وأعلن له في همس أنه سينصرف الآن. فدسَّ هذا الأخير يده في جيبه وأعطاه درهماً، فنظر إليه الفقيه نظرة ذات معنى، وودّع حسناء ليمضي بين الأكواخ.

لم تثر أشياء العمياء الانتباه إلا بعد مرور ثلاثة أيام على وفاتها. هناك صندوق قديم من الخشب، فيه أشياء ليست بذات قيمة، ولكنها مع ذلك تدخل في مُلك العمياء. إنها ممتلكاتها الخاصة التي لم تُطلِع عليها أحداً إلا قليلاً. كان الصندوق لا يزال رابضاً في الزاوية التي رقدت فيها العمياء طوال حياتها تقريباً. وفيه ربضت أيضاً مسبحة وقطعة حجر صغير تستعمل لإزالة الأوساخ، عندما تأخذ العمياء حمَّامها الشهري في الكوخ. وإلى جانب هذه الأشياء كان هناك سروالان قديمان من ثوب رخيص، وإزار أبيض لم يستعمل إلا نادراً. ومن الأوراق الشخصية عقد زواج قديم تحتفظ به العمياء كذكرى. وهذا العقد لم يلمحه أحد حتى هي نفسها منذ سنوات، ولربما نسيته بالمرة. أما الآن وقد دخلت أيادٍ غريبة إلى الصندوق تعبث بمحتواه فإن عقد الزواج قد فقد قيمته التي كانت العمياء تسبغها عليه. إنه الآن مجرد قطعة ورق. . وها قد تجرأت

أيادٍ غريبة على حمل الصندوق الذي لم يكن أحد يستطيع أن ينقله من مكان إلى مكان آخر. أما سريرها الذي تغطيه حشية من الخيش مليئة بالحلفاء فلم يثر الانتباه إلا مؤخراً. فقد مرّ على وفاة العمياء خمسة أيام، ولكن أحداً لم يكن يفكِّر في مسه أو استعماله. وهو أيضاً سرير كان يحرَّم على الأطفال لمسه، لأن صاحبته لم تكن تغادره إلا لماماً. فهي دائماً ممددة فوقه كأنها غير موجودة على الإطلاق. ولكن صوتها القبيح الخشن هو الذي كان يعلن عن وجودها، فهي تتدخّل في جميع المحادثات وتظهر بمظهر المجربة والحكيمة. وهي بتدخّلها تثير قلق ابنتها حسناء، وقلق زوجها معاً.. ورغم ذلك فإن ابنتها كانت تقف إلى جانبها ضدّ زوجها. أما الآن فالسرير قد خلا من صوت لا من جسد، لأن الصوت هو الذي كان موجوداً لا الجسد، ولأن الصوت وحده هو الذي كان يعلن عن شخصية العمياء. إنها تتكلم ولا تصمت أبداً. وها قد فكّر الزوج الآن في استعمال سريرها. لقد طرح الفكرة فجأة على حسناء ذات عشية. فبينما كانت الأسرة تتناول كؤوس الشاي قال الزوج لزوجته:

– حسناء... ألا ترين معي أن هذا سرير يصلح لأن ينام عليه أحد الطفلين؟

ودون أن تكلِّف نفسها النظر إلى وجهه، أجابت بصوت واضح:

– سينام عليه أحدهما بالطبع.. أو سوف نرى فيما إذا كان يتسع لنا نحن الاثنين.

– لا إنه صغير.. لكن يمكن أن ينام عليه الطفلان معاً.

بقيت الفكرة على هذا الشكل في رأس حسناء وزوجها، ولم يحاولا أن يناقشاها في تلك اللحظة.. لقد طُرحت وكفى. وكما أنها طرحت ببساطة فحلها سيطرح ببساطة أيضاً.. في المساء سينام أحد

الطفلين أو هما معاً على سرير جدتهما. وإنه من المحتمل ألا ينام عليه أحد الزوجين لأنه صغير ولن يتسع لهما.. ثم إنهما يتوفران على سرير خشبي، أما الطفلان فهما لا يتوفران على سرير، بل ينامان فوق الحصير بعد أن تلفهما أمهما في بعض الخرق التي لا تقل رداءة عن التي يلتف بها أبواهما.

وهكذا عندما حلّت ساعة النوم، أمرت حسناء ابنها الكبير بأن يذهب فينام فوق سرير جدته. ولكن الطفل أظهر بعض التحفظ في بادئ الأمر. لكن سرعان ما توجه هو وأخوه إلى السرير وتمددا فوقه، ولم يكونا يشعران إذ ذاك بأي شعور غريب، لأن الضوء كان لا يزال يطرد الأشباح. لكن عندما أطفأت أمها الضوء بدآ يحتكان ببعضهما. فقد جعل الكبير يتخيّل تلك الأرواح الشريرة التي كانت جدته تحكي له عنها. أما الصغير فلم يكن خياله بأقل نشاطاً من خيال أخيه. فقد نشطت ذاكرته ونشط تخيله. بدأ يسترجع صور كل العفاريت وكل الشياطين. ثم بدت لأحد الطفلين جدته وهي تضحك وتضحك كما لو أنها عفريت عاد منتصراً من جولة مسائية في الأدغال النائية. وكان الطفلان يحتكان ببعضهما بقوة. لكن ذلك لم يطل، بل إن الصغير لم يطق الوضع، ولبثا صامتين وقتاً ليس بيسير وأطلقا العنان لخيالاتهما تحلق بهما في عوالم مفزعة مرعبة. ولم يدرِ الصغير كيف يقاوم هذا الجيش من الأبالسة. وتخيلها تنهشه بالأظفار والأنياب، فانسلَّ في الظلام إلى أمه وأبيه ولم يطمئن حتى وجد يده ممسكة بجسد أمه. وهنا تبعه الكبير بعد قليل من التردد. فقامت الأم وأنارت المصباح البترولي لتستطلع الأمر.

- لماذا تركتما سريركما؟

قال الصغير:

- لقد خفت..

قالت الأم:

- لماذا تخاف؟

أما الكبير فقد كان لا يزال غارقاً في تفكير بعيد، وكان يعضُّ على شفته السفلى. وقال لأمه بعد هنيهة من الصمت:

- إنني لن أنام هناك..

وقالت الأم:

- أيها الجبانان.

ولم تضف شيئاً، بل قامت للتو تعدُّ لهما خرقهما فوق الحصير. وعندما تمدد الطفلان فوقه، كانت خيالات مرعبة لا تزال تلحُّ عليهما. ولكنهما مع ذلك كانا يشعران بقليل من الاطمئنان قرب أبيهما وأمهما. ولبثا يسرحان في ذلك العالم الذي بدأت أشباحه تتلاشى شيئاً فشيئاً تحت وطأة النوم. وفي الصباح فكرت الأم والأب بجد في مسألة السرير فاقترحا أن يتركاه هناك بعد أن توصلا إلى أنهما ليسا في حاجة إليه.

أرخت حسناء جسدها إلى الخلف. واتكأت على الكوخ بينما انغرست أصابع رجليها في الرمل. كان طفلاها خارج الكوخ يلعبان تحت شجرة التين اليابسة. وبذلك وجدت فرصة تخلو فيها إلى نفسها. ولم تكن في بادئ الأمر تفكر في شيء بعينه. ولكنها بعد ذلك نشط تفكيرها، وأصبحت عدة صور تترى في ذاكرتها. ولم تهتم للحرارة التي بدأت إذ ذاك ترتفع بعنف. كان شعور حسناء بوجودها تحت الظل كافياً وحده لطرد الحرارة المفرطة. ولم تكن لتتحرك أو تبدي أي استعداد للقيام بفعل ما. في تلك الأثناء فقط عندما رفعت عينيها وجدت أن سرير أمها رابضة في الزواية. وها قد انهالت في رأسها الآن جدران الزمن الضائع، فرأت أمها فوق السرير ممددة ملفوفة في الحايك الصوفي. وسمعت صوتها قادماً من بئر عميقة،

أجش، خشناً وبذيئاً كما كان. . وأرادت أن تكلم أمها العجوز العمياء ولكن دون جدوى. كانت أصابع قدميها تنغرس بقوة في الرمل. وكان جسدها قد ارتخى كلية على الكوخ. شعرت أن آلامها بلا حدّ. وحاولت أن تنهض لتغير من وضع السرير فلم تستطع. لقد اختفت معالم العمياء ولم يبقَ منها سوى هذا السرير. أما الأشياء الأخرى فقد تفرقت وضاعت في جوانب الكوخ.

بدت لحسناء الآن جميع تصرفات أمها جلية وواضحة، وانتفضت انتفاضة عنيفة عندما طفرت إلى مخيلتها صورة أمها وقد ماتت. عينان مفقوءتان ووجه أزرق فاحم. ثم تذكرت ذلك الناب الوحيد الأصفر الذي ينغرس في فم العمياء. وطغت على حسناء صور رهيبة أخرى تجاوزت عالم الواقع إلى عالم الأشباح والأرواح. . ولم تعد تختلف عن طفليها في شيء. وأجهدت نفسها لكي تقف. ثم غيّرت رأيها وأمسكت بعود وبدأت ترسم فوق التراب صوراً وأشكالاً غريبة لم تكن شبيهة بتلك التي رسمتها في اليوم الأول من وفاة أمها. وعندما هزت عينيها واجهها في اليوم الأول من وفاة أمها السريرُ مرة أخرى، فسالت من عينيها دموع دفيئة. وللتو انتفضت وهي تقرر أن تنهي حكاية السرير هذه. ونادت بصوت مرتفع على طفليها فلم يجبها أحد. كان الطفلان قد ابتعدا من الكوخ كثيراً. وفجأة مرَّ جُعَل أمام عيني حسناء فدار دورة عنيفة وضربها على وجهها وسقط. ثم طار الجُعَل من جديد. ولمست حسناء موضع الضربة قبل أن تدلف إلى الكوخ.

وفي المساء اقترحْت على زوجها أن يذهب بالسرير فيبيعه. نظر هذا الأخير في وجهها ملياً قبل أن يوافقها على رأيها. فبعد أن ضاعت معالم العمياء، وتلاشت في الكوخ، لم يبقَ سوى هذا السرير الذي يذكّر في كل آونة بصورة لامرأة ما، وبصوت كان يأتي

من هناك.. ثم بكلمات وعبارات كانت صاحبتها تدّعي الحكمة والفطنة.

وحمل الزوج السرير في اليوم التالي فباعه بثمن بخس، واستمر الطفلان ينامان على الحصير وحسناء وزوجها على سريرهما الخشبي القديم.. لقد كان هناك صوت أجش، لكنه بدأ يفقد حدّته وخصوصيته الآن.. وها قد أصبح صوتاً كباقي الأصوات. لم تعد له تلك الحدّة التي كانت فيما قبل في رأس حسناء ولا في رأس زوجها، إنه الآن صوت كباقي الأصوات، ليس له لون، وليس له حدّة أو برود.. ولكن مع ذلك فإن صورة العمياء بقيت عالقة في كل زاوية وفي كل مكان. كان الطفلان عبثاً يحاولان أن ينسيا، وكانت أمهما تحاول أن تفعل كذلك.. وحتى الزوج الذي كان يرغم نفسه على النسيان لم يستطع. لقد كانت الصورة أقوى من كل شيء.. صورة الحياة قبل الموت.

الدفن

لهاث جريح ينبعث من أعماقه، وعرق جهنمي يتقطر من مسام جلده الضيقة المهترئة.. كان يحس أن العرق المتفصد - لا من جرّاء الحرارة الربيعية، ولكن من جراء صعود الجبل - يسير ببطء بين شعيرات جسده الكثيفة، ويسمع لهذا العرق في عالم الصمت الذي يحيط به خريراً مزهواً كخرير الغدران في الوادي. لا شيء غير الصمت، وخرير عرقه القاتل، وانهيار في الطريق، وتعب مؤنس، وامرأة ماتت منذ يومين ولم تُدفن بعد.

توقف س.. عن المشي وبدأ يلهث بقوة كما لم يلهث من قبل.. لقد تعب حقاً: إنه لشيء موهن ومتعب وقاتل أن يجتاز طريقاً أخرى غير التي انهارت.. وطوال يومين وهو يصعد ويهبط طرقاً غير هذه.. ورغم شعوره بالتعب المفرط فإنه لم يستطع الوقوف أو الاستراحة.. امرأته هناك في البيت ملقاة ككيس من التبن المبتلّ.. لعلّ الجسد الآن قد أصبحت له رائحة كريهة مزكمة، أو لعلّ بعض الديدان قد بدأت تتكون في أصابع الرجلين، وهي تبحث لها عن ثقوب ومنافذ لعالم الضوء.. المقبرة بعيدة ولكن الطريق التي انهارت زادت أبعادها أكثر فأكثر.

ذلك المساء، منذ أسبوع بالضبط، بينما كان س.. وزوجته التي ماتت الآن يتعشيان، سمعا انهياراً عنيفاً وضجيجاً قوياً، بحيث إن

الضجيج طغى بتاتاً على صوت الرعد وعلى تكتكات المطر. كان ضجيجاً لم يعهداه من قبل.. وفي صباح اليوم التالي وجدا أن قطعة من الجبل انفصلت عنه بفعل السيول التي حفرت في التربة، وسقطت هذه القطعة على الطريق الوحيدة.. وتوقفت هناك بعناد. ومنذ ذلك المساء أصبح بيت س.. وزوجته في انفصال تام عن العالم، عن القرية وحوانيتها التي تبعد أربعة كيلومترات عن بيته. ولكي يذهب إلى هناك فهو من غير شكّ يتعب تعباً شديداً، بحيث إنه لكي يجتاز قطعة الجبل يتعيّن عليه أن يتسلقها بأظفاره ويديه وقدميه وكل جسده.. وعندما يقف فوق قمة هذه الكتلة الترابية الصماء، يقفز قفزة شديدة في بقعة أقل ارتفاعاً ومنها إلى الطريق المسدودة. وكان قد فكّر بعد أن توفيت زوجته أن يضعها في كيس ويشدها إلى ظهره ثم يقوم بالعملية نفسها. ولكن تبيَّن له أن هذا ليس لائقاً بالأموات.. ثم إنه قد ينجح وقد لا ينجح، وسيكلفه ذلك فيما يعتقد تأنيباً قوياً من ضميره. ومنذ يومين وهو يبحث عن حلٍّ لحمل هذه الجثة إلى المقبرة، الطريق تسدُّها قطعة من الجبل وليس هناك إلا طريق واحد تؤدّي إلى المقبرة ولكنها بعيدة جداً، فلكي يجتازها يجب عليه أن يدور بحلزونية حول الجبل، حتى يجد نفسه في النهاية في الحضيض، حيث القرية والحوانيت والمقبرة. ولقد خطرت له فكرة بعد اليأس: أن يأخذ فأسه ويحاول أن يدفن زوجته هنا بالقرب من بيته، ولكن كل ما قام به كان عبثاً، فالأرض حجرية صلبة كالحديد. وكان مجرد حفر بعض مليمترات مكعبة يتطلب منه الساعات الطوال، وقد يضطر إلى تغيير المكان فتصدمه الصلابة والعناد والتمنّع نفسهم.. وها قد انتهى الآن من التوصل إلى حلّ: سيلتحق به بعد الظهر رجلان يساعدانه على حمل الجثة ويسيران معه على طول الطريق الحلزونية حتى الحضيض، حيث القرية والمقبرة والحوانيت.

وعندما بلغ س. . البيت ظلّ واقفاً لبرهة، كان التعب قد تمكن منه، وبلا إرادة هوى على الأرض الباردة، وشعر أنها أدفأ وأرحم رغم صلابتها. وركز بصره في البعيد، وتتبع بإلحاح ذلك الخط المنحني الذي يفصل السماء عن الأرض. واكتملت أمام عينه لوحة حزينة، هناك بيوت بيضاء، وهناك أرض محروثة، وأشجار فقدت شكلها ولونها، ثم في البعيد البعيد خطّ منحنٍ ذو تعاريج يفصل الأرض عن السماء. . ومن هذه اللوحة المكتملة حوّل نظراته إلى الخلف وركّزها بالضبط عند أسفل الباب، ولبث مذهولاً شارداً وأدرك أن وراء هذا الباب نصف المفتوح زوجته مسجاة وقد أزرقّ لونها، بل ربما تغطّى جسدها ببساط من الدود. واستجمع في وعيه جميع الروائح الكريهة، وشعر أن أردأها وأخبثها قد علّق بوعيه. . ثم خطرت له صورة غريبة: لو أن ذئاباً تسربت من الباب شبه المفتوح بعد غيبته ونهبت الجسد الميت. وتخيّل زوجته التي طالما عانقها وضمها إليه بإلحاح وقد تمزقت إرباً إرباً. . وحاول في ذهنه أن يجمع هذه الأجزاء المقطعة ليعيد إلى زوجته الراحلة ذلك الجسد البضّ الذي أصبح معلولاً في أخريات أيامه. ونهض ببطء. . نهض كآلة مفككة في حاجة إلى تصليح، ووضع كفّيه على ركبتيه المنهارتين بفعل الحزن والمرارة، واندفع كالمحكوم عليه بالأشغال الشاقة إلى البيت، لقد طرد صور الذئاب المفترسة من ذهنه. . (ليس ضرورياً أن يموت المرء شر ميتة وقد كان في حياته من أحسن المخلوقات وألطفهم وأرقّهم، إن العناية الربانية تقف جنباً إلى جنب مع هذه الأرواح الخيّرة، دفاعة الشرور. .).

ورفع يده ليحك مؤخرة رأسه. . كان شعره خشناً مبتلاً - لا بفعل المطر ولكن بفعل العرق - وعندما دفع الباب المفتوح ارتمت عيناه على جسد مسجى في هدوء، مغطى بثوب نظيف بسيط كانت

زوجته تحفظه في صندوقها لمثل هذا اليوم. وعزّ إذ ذاك على س. . أن يجد نفسه وحيداً أعزل، وعزّ عليه أن يواجه العالم بلا عون، (إن الموت لا يمهل أحداً)، لقد اختطفها ذات صباح بينما كانت تتحدث إليه بدفئها المعهود. لم تكن تبالي بالموت ولم تكن تعتقد أنه سيفاجئها. وها قد فاجأها الآن! فإذا كانت الحقيقة قد غابت عنها فإن الآخر أدركها بعد موتها. . زوجها وحده هو الذي أدرك أن الموت إنما يفاجئنا في أي وقت وفي أي مكان.

ولم يطق س. . النظر إلى الجثمان الهادئ هكذا ببرود، بل حوّل اتجاه نظراته إلى أشياء لم تستقر أبداً في وعيه بقدر ما استقرت صورة زوجته المرحومة. وغادر البيت، وأقفل الباب ببطء، ثم ذهب ليجلس على قطعة من الحجر متجذّرة في الأرض وبدت له مرة ثانية البقع البيضاء في الحضيض، والأرض المحروثة والخطّ المنحني الذي يفصل مملكة السماء عن مملكة الأرض، وظلَّ جامداً فوق قطعة الحجر حتى سمع أصواتاً تنتشر في الهواء الملبد الراكد كماء البِركة، ها قد وصل الرجلان. وعندما أبصرا س. . تبعاه إلى داخل البيت، كان جو من الحزن مخيماً على الوجوه، لم يمت لهما أحد، ومع ذلك فمن المتعيّن عليهما أن يحزنا، أو على الأقل أن يفتعلا الحزن. وبعد وقت يحاول س. . أن يقفل الباب، كان وجهه قد تجهّم أكثر. واستعاد جسده التعبان حيوية عصبية قلقة. لقد شعر أكثر من أي وقت مضى أنه أعزل وأنه يواجه العالم بلا عون، وعندما كان الثلاثة ينحدرون ويتعثرون بأحجار الطريق، مرّ شريط سريع أمام عيني س. . (الطريق الحلزونية ليست طويلة. .) وتصورها مسفلتة على الرغم من أنها حجرية صعبة ولا أحد يمر منها. . إنها على كل حال تؤدي إلى الحضيض. حيث البيوت البيضاء والحوانيت والمقبرة. وحيث يوجد، بعيداً من هذه جميعاً، خطّ منحنٍ يفصل

السماء عن الأرض، كان يشعر بكثير من المرارة، وبكثير من التعب، وكانت تسري في جسده مع ذلك قوة خارقة لا عهد له بها. . وكان وزن جسد امرأته إذ ذاك لا يساوي سوى ميليغرامات قليلة. (لا شكّ أن روحها تحلِّق مع أرواح عديدة في ذلك المجهول البعيد) - وانحدرت دمعة من عين س. . وبدت له الطريق الحلزونية الوعرة قصيرة جداً.

بيوت واطئة

1977

الكابوس لرجلين

الشمس ذات وهج في السماء. ذلك شيء حقيقي وأكيد. واجهة الصيدلية المركزية تردُّ الأشعة فتعمي الأبصار، حتى النباتات الخضراء تردُّ أشعة الشمس المتوهجة، وزجاج السيارات الأمامي يردُّ الأشعة، ارتعاشات أصوات المحركات في الفضاء تبعث على الرعب خصوصاً إذا ما تخيّل المرء انعدام هذه الارتعاشات، يا له من سكون مريح! إني أتساءل كيف يستطيع مدمنو القهوة أن يتحملوا كل هذه الضوضاء، ضوضاء المحركات وزعيق السيارات والدراجات النارية والصراخ الناشز لبائعين متجولين، كل واحد يتفنن في الإعلان عن بضاعته. صراخ حقيقي يرتفع وينخفض ويقوى ويضعف ويغلظ ويحد.

كانت التي بجانبي على إفريز المقهى تدخّن بنَهَم شديد وعيناها مركزتان على الشرطي الذي ينظِّم المرور. في الواقع لم يكن ينظمه ولكنه كان يساعد أضواء المرور المبثوثة في كل جانب من الطرق التي تصبُّ كلها هنا. في الساعة الثانية عشرة والنصف تعجز أضواء المرور عن كبح جماح السائقين المتهورين، لذلك كانت الاستعانة بعددٍ من رجال الشرطة ضرورية (**وكانت تدخّن وتنظر بتركيز وقد تدلت شفتها السفلى. ارتخت. شهوانية من غير شكّ، لا بدَّ أن تكون لي في هذه الساعة. سنتغذى جميعاً في أقرب مطعم لكن**

جيبي فارغ. 18 من الشهر. تلك أكبر مأساة أعانيها). وتتوهج الشمس أيضاً وتتوهج أوجه التلميذات. لا أنظر إلى الوجوه بل إلى المؤخرات. أي تناسق هذا في الردفين! فحتى المرايل لا تستطيع أن تخفي ذلك التناسق الذي يبدأ عن الإعلان عن نفسه منذ 16 سنة. **(وتدخّن وتتوهج أيضاً وتلتفت إلي فأركز نظراتي وعقلي وأبادلها النظرة فأشعر أن أسلاكاً كهربائية تخزُّ داخل رأسي ويسري التيار مع النخاع الشوكي فأشعر إذ ذاك بأنني أجلس على كرسي)**. أحياناً يكون النصف الأسفل للإنسان مشلولاً فاقداً للإحساس، لكن حالات مثل هذه، نظرات مثل هذه تعيد إليه الإحساس بكل شيء، بنفسه.. بالعالم.. بالمرأة التي تنظر إليه نظرات ليست كنظرات النساء الأخريات.

- هل تنتظرين أحداً؟

لم تسمعني. كانت نظراتها تجاه الصيدلية المركزية. تزاحمت السيارات وأخذت تركض مثل لعب الأطفال، وعندما أحست المرأة بأن النار تحت أنفها التفتت إليَّ مذعورة. كنت أريد أن أشعل لها سيجارة. فوجئت وقالت شكراً. قلت لا شكّ. وقلت أيضاً:

- هل تنتظرين أحداً؟

إذ ذاك،

- نعم، أنتظر شخصاً لكنه لم يجئ. الساعة من فضلك؟

- الواحدة إلا ربعاً، الوقت متأخر. لم أتغذَّ بعد، على كل ليست عندي شهية.

- وأنا أيضاً.

نظرت إليّ بتركيز مرة أخرى، واعتقدت أنها تقول في نفسها إني بليد ولا أتقن الحديث مع امرأة. ومع الأسف قد يكون ذلك صحيحاً

لكن ليس مئة بالمئة. والشمس تتوهج ويتوهج معها كل شيء وأشعر أن الكرسي موجود تحتي. وقالت المرأة:

- إنني أدخن كثيراً.

- وأنا أيضاً.

وخفت أن يتأكد الحذس من أنني بليد معتوه ولا أتقن المذاكرة. وقلت مغيّراً طريقة الحديث:

- لا أدري كيف يتهافت الناس على هذا النوع من المقاهي مع أن الضجيج شديد والصراخ والزعيق وكل شيء.

- معك حق، أنا لا أرتاد مثل هذا النوع من المقاهي لكني على موعد. أيضاً أنا مثلك لا أحتمل الضجيج والصراخ والزعيق ونفير السيارات. إن أعصابي تتحطم الآن. هل تتفضل وترافقني إلى الداخل حتى يأتي صديقي. على الأقل حتى تخف حدّة الضجيج.

دخلنا وجلسنا وقلنا في وقت واحد:

«ماذا تشر. . .»، وضحكنا ونادينا على الجرسون وأخذنا نشرب وكانت الواحدة واعتقدنا أن صديقها لن يجيء وشربنا مرة أخرى وخفَّ الضجيج وحيَّتنا مدام برنارد بابتسامة صفراء. وقالت المرأة إنها لا تحب مثل هذه المواعيد وأن كل شيء يجب أن يكون دقيقاً في الحياة، وقلت:

- أين تشتغلين؟

- في الشركة العامة للحسابات. حتى العمل يرهقني هناك. إن أعصابي تكاد تتحطم.

وقلت لها عليها أن تشرب فالبيرة تهدِّئ الأعصاب وليس من الضروري أن يكون كل شيء دقيقاً في الحياة حتى الحب والموت والجنس والنفاق وابتداء العلاقة مع شخص لم يسبق لنا معرفته. ولست أدري فيما إذا كانت قد وافقتني على ذلك إلا أن الساعة الآن

كانت الواحدة وثلاثين دقيقة، وإحدى وثلاثين دقيقة. وكان يوم السبت، وبعد ساعات قليلة سيكثر الهرج والمرج وتتخلص التلميذات من المحافظة والمرايل ويظهرن في الشوارع أنيقات، وتظهر بوضوح وتناسق أكثر أردافهن وسينظرن كثيراً في الشباب وخصوصاً ذوي الشعور الطويلة والسراويل والأقمصة الملونة، وينظرن إلى كل راكب سيارة، وتتزعم تلميذة مغامِرة رفيقاتها وينحشرن في السيارة ويذهبن إلى الكورنيش أو إلى بعض الغرف الخاصة ويستقبلن شبان مجهولون. وإذا كان أحدهم شجاعاً أو شرب نصف زجاجة من الخمر فإنه يعرّي إحداهن وينكحها من الأمام أو يقلبها.

وقالت المرأة التي بدت لي حقيقية:

- إن برنامج هذا اليوم فشل، أنا لا أثق في الرجال ولكن. . .

وقلت لها:

- معك حقّ، يجب ألا نثق حتى نهاية المطاف سواء في النساء أو الرجال. ثم إن الحياة بلا برامج تكون أحسن. ما رأيك في طجين من لحم الخنزير البري.

تقززت وقالت:

- أنا لا آكله. أنا مسلمة علاوة على ذلك، رغم أني أشرب وأدخن.

وهمهمتُ:

- وتزنين مع أول واحد تصادفينه في الطريق. ولكنها لم تسمعني فأضافت:

- أطلب لي شريحة لحم إذا كان ذلك ممكناً.

طلبت اثنتين. وعندما أكلنا أردت أن أدعوها إلى البيت فتبيَّن لي أنها ليست من ذلك النوع الذي تمكن دعوته لدى أول لقاء. وظللت

محتاراً، ورغم ذلك شعرت بنوع من الوهج النفسي والفرح العارم ينتابني وتجشأت هي وقالت لنفسها:

- عفواً.

الساعة الثانية وخمس دقائق.

كانت المبادرة منها وغادرنا المقهى ورأيت أن أدعوها إلى البيت حتى لو كان ذلك مغامرة تُفسِد كل شيء. لكنها وضعت يدها خلف كوعي ومشينا متلاصقين دون أن ندري إلى أين.

كنت أشعر بأنها حقيقية معي أكثر من اللازم وقلّما يأتيني هذا الشعور مع امرأة تعرفت إليها لأول وهلة. وكانت أقصر مني قامة قليلاً. وسمعت ضحكتها ذات الرنة الخاصة فقلت لها ما الذي يضحكها وقالت إنها تذكرت شيئاً، ثم سألتني:

- ما الذي كنت تفعله في المقهى، هل كنت تنتظر صديقة؟

- لا ليست لي صديقة. أقصد أعرف فتيات كثيرات لكن ليست لي صديقة. في الواقع كنت أنتظر صديقاً صحافياً، أقصد أني أهتم بالفن، لي علاقة مع بعض الفنانين أو الفنيانين.

- أي نوع من الفنّ لك علاقة به، يبدو عليك بالفعل أنك فنان. شكلك يوحي بذلك، طريقة لباسك، وطريقة تدخينك، ونظراتك أيضاً موحية بأنك فنان. أي نوع من الفنّ لك علاقة به؟

- ستعرفين ذلك فيما بعد، وكنت أنتظر ذلك الصديق الصحافي، لكن موعدنا لم يكن بذي أهمية.

وقالت إنها مدمنة على التدخين ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك في الشارع لأن ذلك عيب. وقلت لها:

- هناك بعض النساء يفعلن ذلك في الشارع.

- ممكن لكني لا أستطيع أن أفعل. هناك كثيرات مثلي لا يستطعن أن يفعلن لأن ذلك يعتبر عيباً.

انزلقت يدها من خلف كوعي وأصبحت تحت ذراعي. حركت ذراعي لأضم كفّها نحو جسدي فضغطت بقوة عليّ وضحكت مرة أخرى لكن عبثاً حاولت أن أعرف لماذا ضحكت، وقالت ونحن نتجنّب حفرة في الشارع:

- هل تدري أن أحد جيراننا قتل زوجته بمسدس مؤخراً، لقد أخذها إلى سيدي عبد الرحمن في سيارته وأطلق عليها الرصاص.

قلت وأنا أفتعل الدهشة:

- إن ذلك فظيع، لماذا قتلها؟

- لأنها كانت تخرج مع رجال آخرين. كانت تخونه. ما معنى أن تخون امرأة، هل تستطيع أن تجيبني بصراحة؟

- نعم، أستطيع. الخيانة في نظر الناس هي أن تنام امرأة متزوجة مع رجل آخر غير زوجها.

- صافي.

- نعم، صافي!

- إنك مخطئ.

ولمّا سألتها أن تصحح لي، قالت:

- يبدو عليك أنك ولد طيب. ما رأيك أن نتمشى أكثر في مكان خالٍ. أنا أحب الشوارع الخالية ثم نذهب لنشرب قهوة في كريمري هادئة أعرفها.

كانت رائحة البيرة تفوح من فمها، ولا أدري فيما إذا كانت تشم هي الأخرى رائحة فمي وأخرجت سيجارة وأخذت أدخن لأموّه تلك الرائحة التي تخرج من فمي، والتي ربما كانت مقززة أو كانت شيئاً آخر. إن الروائح أحياناً - الروائح الكريهة - تكون مبعث شؤم. مشينا ومشينا ومشينا أيضاً، دخلنا الكريمري. كانت الطاولات مصطفّة بنظام، وشبان وشابات في كل مكان يدخّنون، تأكل الفتيات

مثلجات مرتفعة الثمن، لأن الشبان في الغالب هم الذين سيدفعون. ورأيت، فتاة تلتهم وتلتهم ولا تسمع إطلاقاً إلى ما يُقال لها. خشيت أن تكون المرأة التي معي من ذلك النوع. (**النوع المبتذل الذي يجعل الحياة بلا طعم، يجعلك تفقد الثقة في كل النساء**).

وقفتْ من دون استئذان وذهبتْ لتملأ آلة الموسيقى بقطع من فئة عشرين سنتيم، وعندما عادت قالت إنها لا تحب البوب وسألتها عن اسمها (**وبدا لي ذلك قبيحاً لأني لم أسألها من قبل**). سألتني عن اسمي. وعلمتُ أنها تُسمّى فاطمة وعلمتْ أني اسمي حسن بلال. إذ ذاك قال حسن لفاطمة:

- لا شك أن أعصابك لم تعد متوترة، إن ذلك يظهر على ملامحك.

قالت فاطمة:

- بفضل وجود ولد طيب مثلك. أتساءل أين كنت مختفياً قبل أن نتعارف.

(**كثير من الأشياء التي نبحث عنها تظلُّ مختفية ولا نعثر عليها، وقد يطول ذلك مدى العمر، ويكون الإنسان الذي يبحث عمّا ما لم يجده أشد بؤساً من غيره. أليس كذلك؟**).

وأضافت:

- الشبان هذه الأيام تافهون رغم أنهم يتميزون بجمال خارق.

وقلت:

- معك حقّ. أتمنى ألا أكون تافهاً مثلهم.

رشفت فاطمة من قهوتها ودعتني إلى أن أستمع إلى الأسطوانات الفرنسية التي اختارتها. استمعت إلى الأسطوانة تلو الأسطوانة وكانت تافهة الكلمات وفيها كثير من الزعيق، ولكنها جميعاً تتحدث عن الحب. وشجعني ذلك على أن أختار منها بعض

الكلمات التي ربما استعملتها عند الحاجة، خصوصاً مع مراهقات **(وهل يحتاج رجل في الثلاثين أن يختار فيما بعد كلمات للحب؟ ماذا علمته الحياة؟)** أردّتُ أن أتحدث عن المسرح وخفت ألا تفهم فيه شيئاً فأكون ثقيلاً ومزعجاً.

قالت فاطمة:

- انظر تلك البنت، إني أعرفها، كم كبرت! لقد كانت صغيرة جداً.

- ولا تزال 17 أو 18 سنة.

- ولكن جسدها.

- إنه بالفعل جسد حقيقي.

- هل تحب النساء جميعاً أم امرأة واحدة؟!

- بحسب المصادفة. إذا كانت امرأة واحدة مقنعة ففيها الكفاية.

ولم تستمع إلى ما قلته، كانت مشغولة بالنظر إلى البنت التي كانت صغيرة وكبرت وكان الرجال الذين حولها يغازلونها دفعة واحدة.

وأردت أن أدعوها إلى البيت (أقصد فاطمة). لكني خفت. هذا النوع ربما يرفض ذلك. ثم غادرنا الكريمري ومشينا نتفرج على الفترينات. توقفنا عند بعضها. وكان الزحام شديداً - لم تكن الكلمات التي قلنا عالقة بذاكرتي الآن، كل شيء امّحى مثل فقاعات الصابون، لكن الذي عرفته أنني مع امرأة حقيقية ولم تعد بيننا أية كلفة. مشينا أيضاً وأيضاً تفرجنا على معروضات الحوانيت الأنيقة. وقالت إن عليها أن تنصرف الآن.

الساعة السادسة والنصف مساء.

كان طابور من الناس ينتظرون عند محطة التاكسي. قالت فاطمة

يجب ألا أكون مضطراً إلى البقاء معها حتى يأتي دورها لأخذ تاكسي. أصررت على البقاء ولكنها رفضت.

- لكن ستدخلين البيت مبكرة.

- هذا أمر طبيعي. الزوج سيدخل من السينما الآن.

(سررت لتكوين علاقة مع متزوجة. على كل حال، هذا النوع من النساء ليس متعباً تعطيك كل شيء مقابل لا شيء، وكنت أعتقد بادئ الأمر أنها متزوجة ومطلقة. صدق حدسي إذن).

وقلت:

- لم أكن أعتقد أنك متزوجة.

- متزوجة من عامين لكني لم أُنجب. إني أحب الحياة.

ورأيت رجلاً ينظر إلينا وخشيت أن يكون من أقاربها، وخفت أيضاً أن يكون زوجها **(لكنه لم يكن ولن يكون)**.

قالت فاطمة:

- يجب أن تعرف أن زوجي متحرر.

- فهمت ذلك منذ اللحظة الأولى.

ثم...

كنت أعيش وحدي في غرفتين، إحداهما مؤثثة والأخرى شبه فارغة إلا من سرير وقد تكوّمت فيها فقط الكثير من الصحف العربية والفرنسية، وكان عملي في شركة للإعلانات يتيح لي الكثير من الوقت. وكنت وحيداً وكنت أتأمل وكنت أقرأ وكنت أسكر وكنت أخسر الكثير من حوالتي الشهرية خصوصاً في نهاية الليل من أجل مومس لها تجربة في النوم مع الرجال **(تأكد لي فيما بعد أن هذا النوع من النساء له تجربة فقط في إفراغ جيوب الرجال)**.

وكنت أقرأ...

ومعنى أن تعيش وحيداً هو أن تتكوّم كثير من الأزبال والأوساخ

في المطبخ وأن تمسح بالفوطة وجهك - الفوطة التي تمسح بها عضوك بعد عملية جنسية وألا تشعر بتقزز - ومعنى أن تعيش وحيداً هو أن تكثر الحشرات في بيتك وتعيش على المعلبات في نهاية الشهر. وتحلم أيضاً بامرأة تفهمك وتكون غنية لكي تنقذك من متاعبك وتجعل منك أميرها الذي تضحّي من أجله بكل شيء حتى عائلتها وزوجها السابق إذا كانت متزوجة.

وأظلُّ وحيداً وأحلم...

كانت الخادمة التي جلبتها من الشارع حيث تكثر الخادمات مكوّمات على الأرصفة بانتظار الزبائن - الزبائن الذين يشغّلونهن ويفعلون معهن أشياء أخرى - كانت الخادمة منهمكة في تنظيف أرضية الغرفة بالجفاف وماء جافيل، بينما كانت ابنتها في المطبخ تفعل شيئاً ما. كانت الخادمة عجوزاً طاعنة في السن ولكنها قوية. عندما شعرت بأني أقف عند رأسها توقفت عن التنظيف ورفعت عينيها إليّ وقالت:

- يا السي حسن، مالك على هذه الحالة. يجب أن تستدعيني حتى لو لم يكن معك فلوس. النظافة من الإيمان.

قلت:

- صحيح. كانت هنا فتاة **(وكنت أكذب)** تقوم بتنظيف الدار **(واستمررت في الكذب)** أنت تعرفين أن الفتيات زدن عن الحاجة. ولكني طردتها في نهاية الأمر.

وقالت الخادمة:

- معك حقّ. الفتيات زدن عن الحاجة. عندي ثلاث فتيات ولا أحد يريد أن يتزوج. إنك ترى الوسطى وقد أصبحت مثل البقرة.

- اللّه يخليها ليك، سوف تنفعك في المستقبل.

- تنفع راسها أحسن.

ونادت الخادمة على ابنتها بصوت مرتفع وقبيح:

- سلمي على السي حسن، لا تخجلي منه.

كانت الفتاة بدوية في مظهرها. ويبدو أنها لم تلتحق بالمدرسة قط. خجلت ولكن أمها نظرت إليها نظرات شزراء. فهمت أشياء. وقالت الخادمة إنها كبرت وتبحث عن ابن حلال ولكن لا أحد يريد أن يتزوج في هذه الأيام. وقلت أنا إن غلاء المهور هو العائق الوحيد. وإذا استمرت الحال هكذا فالمغرب سيصبح ماخوراً كبيراً ولن نلد الرجال ولكن سنلد أولاد الحرام ونكون شعباً من اللقطاء وأن... إلخ.

ثم ترددت البنت. رجعت إلى المطبخ لتنظفه وانحنت الخادمة تسقي الأرض بالماء وماء جافيل. وأخرجت أنا سيجارة لأن أفكاراً معيّنة راودتني. ولكي أخفي انفعالي سحبت دخاناً كثيفاً اخترق رئتي حتى كدت أختنق. وتمشيت قليلاً في الغرفة الأخرى. جلست على الكرسي وتناولت جريدة وأجريت بصري على سطورها. ولم أكن أفهم ما أقرأ. كنت أنظر إلى بعض الصور وأقلّب الصفحات. تركت الخادمة عملها وجاءت إليّ:

- أنت تسكن في غرفتين، هذا شيء كثير عليك.

وأضافت بعد صمت وهي تضحك:

- نتمنى أن نسكن معك هنا.

ونظرت إليها نظرة اشمئزاز ولعلها لم تفهم ما أقصد. انتقلت إلى السرير وتمددت عليه وسمعت الخادمة وهي تنادي بصوت مرتفع: «رشيدة!» وأجابت رشيدة «نعم!». ذهبتْ الخادمة إلى الغرفة الأخرى وسمعت الأم وابنتها تتحدثان كما لو كانتا تتآمران. وبعد لحظات وأنا ممدد على السرير جاءت رشيدة.

رأيت البنت مضطربة وخجولة. قلت:

- ماذا؟ هل تريدين أن تقولي شيئاً.

ترددت البنت وتراجعت قليلاً:

- هل تسمح لي أن أجلس إلى جانبك يا سي حسن.

ورأيت دمعاً يترقرق في عينيها. أفسحت لها مكاناً بجانبي:

- لماذا تبكين؟

أجابت:

- أمي قالت ذلك. إذا لم أفعل ستطردني وستسخط علي.

وفكّرت أن أمها قاسية حقاً (**مثلما تفعل مع جميع الزبائن من غير شكّ**). وأمرتُ رشيدة أن تنصرف. أنا لست حيواناً. صحيح أنني أشتهي النساء ولكن ليس إلى هذا الحدّ. وسمعت أمها في الغرفة المجاورة تتحدث بغضب مكتوم، لكن الكلمة الوحيدة التي التقطتها أذناي هي:

«ياق... !».

وسمعت جهيش بكاء. قررت أن أنهي هذه الكوميديا، وخرجتُ إلى القهوة التي توجد عند رأس الشارع بعد أن أكدت للخادمة أنني سأعود بعد أن تكون قد انتهت من غسل الثياب.

- في القهوة - وكالعادة.

دخلتُ وطلبتُ بيرة باردة ونظرتُ إلى الرجل الذي أمامي. ابتسم لي ولم أبتسم له (**لا أريد أن أكوِّن علاقة معه، ربما تكون نهايتها سيئة - يرتكب الإنسان هذا الخطأ الفادح. في لحظة معيّنة يرتبط بشخص ويظلُّ الارتباط قائماً حتى درجة الملل سنوات طوالاً، يصبح ذلك الشخص الطرف الثاني مضجراً إلى حدّ الغثيان، وتريد أن تتخلص منه فلا تجد مجالاً لذلك وعليك فقط - وذاك هو ما في مقدورك - أن تسبَّ تلك اللحظة التي جمعتكما لأول مرة**). سيبتسم الرجل وأبتسم وسيدفع لي ثمن بيرة وأدفع له

ثمن أخرى وسيبدأ الحوار وسيقترب مني وسأقترب منه وتكون هذه الحركات كلها بداية الضجر الأبدي. . . إلخ.

ولم أبتسم له.

كان يتمايل برأسه طرباً بأغنية تنبعث من آلة تسجيل وضعها أمامه. ورغم أن في ذلك مضايقة للزبائن فإن صاحبة القهوة لم تحتج ولا يمكن أن تحتج (**أليس من حقه أن يفعل ما يشاء لأنه يدفع كل يوم - وكل يوم أيضاً**).

وأخذتُ أفكِّر في الخادمة الملعونة التي تبيع ابنتها بتلك الطريقة وبتلك الدرجة من القسوة. وتصورت أنها الآن تمسكها من شعرها تنتفه وتلعن سلالة أجدادها وأبيها الذي لم تعرف كيف تزوجته وكان في إمكانها أن تتزوج رجلاً آخر غير مغلوب على أمره، ولا بدَّ أن أتحدث عن هذه الخادمة وابنتها لصديق - وعندما وقف حمادي المدرس بإحدى الثانويات اختصرت كل الحديث الذي كان من الممكن أن أفوه به، وقلت لحمادي:

- سأحكي لك شيئاً.

طلب حمادي بيرة وأحصى القطع النقدية القليلة الموجودة في جيبه. وعندما تأكد من أنها كافية لشرب بيرتين أخريين، هزَّ رأسه نحوي:

- احكِ ما تشاء فأنا أسمعك.

وحكيت له بالتفصيل عن الخادمة التي تبيع فتاة رشيدة. قال وهو يشرب:

- وماذا فعلت لرشيدة؟

- لا شيء!

- أنت لست رجلاً. كانت تريدك أن تغتصبها حتى تسهّل الطريق إلى العهارة وتستريح أمها من العمل في بيوت الناس.

- هل تعتقد يا حمادي أنني حيواني إلى هذا الحدّ.

قال حمادي وهو ينظر باشتهاء إلى صاحبة المقهى:

- باختصار أنت لست رجلاً. ألا تعرف أن من «فيه دم يخدم»؟.

باختصار:

لم نتفاهم، هو في وادٍ وأنا في وادٍ. ثبت لي أنه يستطيع أن يفعل ما لم أفعله أو ما لا أستطيع أن أفعله، ولم نتوقف عند هذا الحدّ، بل اقترح علي أن آخذه إلى البيت حتى يريني كيف يتصرف الناس. ظللت لحظات أفكر في اقتراحه (**هل هو اقتراح وجيه؟ هل كنت على خطأ؟**) وقلت له أن يدعني أقلِّب الأمر على جوانبه فربما انتهيت إلى نتيجة تكون مفيدة بالنسبة إلي وإليه (**أن يفعل ما لم أفعل وأن أتعلم مما سيفعل**).

أمسكني من ذراعي وقال:

- ادفع ثمن ما شربت وتعال كي أريك ما تفعل.

دفعت وتبعته. كنت أتردد خلفه. وعندما بلغنا مخبزة «النجمة الخضراء» توقفتُ وحرنت مثل حمار أشهب.

وقال حمادي:

- لماذا توقفت؟

فكرت قليلاً:

- إنني لا أريد أن أفعل ذلك. عيب يا حمادي، النساء كثيرات. يمكنك أن تصطاد أي واحدة الآن. الخادمة لا. أقصد بنت الخادمة.

ثار غضبه ورأيته ينصرف عني وكتابه تحت إبطه. التفت وخُيِّل إلي أنه قال لي:

- إنك يا صديقي معقد.

وغادرت «النجمة الخضراء» ومشيت نحو البيت وأنا أفكِّر فيما إذا كنت حقاً معقداً. كيف يمكن لإنسان أن يحكم على نفسه وعلى الآخرين بتلك السهولة. أليست الأحكام حتى ولو كانت ماثماتيكية مجرد أحكام نسبية. ثم إن كلمات عقدة، معقدة.. لا تعني بالنسبة إلي شيئاً. فهي كلمات فضفاضة وعائمة جداً. إلا أني طالما قلت ذلك مراراً، وفي نفسي، إن بنت صاحب «النجمة الخضراء» معقدة. وحكمتُ عليها من خلال الجدية المفتعلة التي تظهر عليها وهي تقوم بتسيير المخبزة، بعزم مثل رجل محنّك. وكنت أفسِّر سبب ذلك كونها بربرية. وحتى البربر فيهم ومنهم. فالبربري السوسي، ليس هو البربري الريفي، ولا هو البربري الزياني. ليس فقط اختلاف اللغة هو الذي يكون فرقاً، ولكنها العادات، وبما أن بنت صاحب «النجمة الخضراء» كانت سوسية فقد اعتقدت أنها متزمّتة، ولكنها مخلصة من غير شكّ لواحد، يفعل بها ما يشاء. وربما تدفع له من صندوق أبيها. أقصد من صندوق مخبزة أبيها. وأما أنا فلم أستطع في يوم من الأيام أن أراودها عن نفسها، وربما لم أعرف من أين تؤكل الكتف. ولعلّ أول حوار كان بيننا، باستثناء «بنجور موسيوه» و«بونجور مادوموازيل!»، كان حواراً فيه كثير من الفظاظة بالنسبة إلي. وبعدها قررت ألا أفاتحها في شيء. وأيقنت أننا لا يمكن أن نتفاهم إطلاقاً. وسنترك ذلك للظروف. ستكون بين ذراع رجل ليس أحسن مني على كل حال وستتذكرني وتتشهاني. وأنا سأفعل الشيء نفسه في المستقبل، في زمن قادم، عبر سنوات ممتدة آتية. أو، سننسى بعضنا.

ودفعت للخادمة قليلاً مما أملك. وصاحت في وجهي: «رشيدة!»، فأجابت ابنتها بنعم. وعندما جاءت رشيدة قالت لها أمها قولي للسي حسن بالسلامة. ودعتهما وهبطتا الدرج. وكانت داري

نظيفة، وقلت إنه سيعرف ذلك عندما يعود هذه الليلة لينام. ونسيت أن أقول من هو. إنه قد دخل في حياتي بشكل ما لا أراه ولا يراني رغم أنه يعلم أنني هنا وأعلم أنه هناك. لا أدري أين يبيت عادة ولكنه منذ شهور عندما يحلو له يبيت في الغرفة الثانية ويغلق عليه الباب.

ونسيت أن أقول أيضاً، إنه مُتابَع في قضية تآمر على سلامة وأمن الدولة، وأنه محكوم عليه بالمؤبد ولا أمل في العفو أو النجاة إلا بإزاحة النظام كلية. كان صديقاً لي ونلتقي في كثير من الأفكار والمواقف السياسية وقررت أن أقدِّم له خدمة بقدر مستطاعي لكنه يحترس مني رغم أنه يحترم أفكاري. يعتبرني رجلاً غير عملي، لا، فوضوياً على الأصح. لا يشاركني في الحديث إلا نادراً ولكنه يشاركني داري. له مفتاح. والغرفة الثانية له. وكل الزوار مغلقة في أوجههم. ولا أحد تقريباً يعرف من هناك. لا يشعل الضوء في الغرفة، ولا أعرف حتى كيف يتسلل إلى المرحاض، ولا في أي وقت. إن زيارته غالباً تكون في منتصف الليل. قلت:

- ستتبدل الأحوال. وهناك أمل في عفو شامل.

قال الهادي:

- لا تكن متفائلاً إلى هذا الحدّ. لماذا لم يصدر العفو عن أناس لهم وساطات، واقتيدوا إلى ساحة الإعدام أو غياهب السجون؟

- الظروف السياسية تختلف.

- الظروف السياسية. أقصد ظروف القمع لا تتغير في أي زمان ولا في أي مكان. وهي نفسها دائماً. السجون وساحات الإعدام وأقبية الكوميساريات.

- أنا شخصياً متفائل. هناك تصريحات تدل على انفراج عام في الجو السياسي.

- إنها مناورات.

كان بلاط الغرفة نظيفاً، ورتبت بعض الكتب بينما وضعت البعض الآخر فوق السرير. أنصح دائماً الخادمة بأن تترك بعض الفوضى في البيت. تنظفُ البلاط وتترك الزجاجات الفارغة في مكانها. إن وجودها بذلك الشكل يعطي النفس شعوراً بالإلفة، بأن هناك أشياء موجودة على الأقل: تنظر وتتحرك وتنطق وتغضب. كل ذلك وهي في مكانها جامدة، فارغة من أي معنى إلا معنى وجودها.

هل يدرك الهادي أن شيئاً ما قد تغيّر؟ لست أدري فيما إذا كان يعير أهمية لأشياء تافهة من هذا النوع. كأن يعرف أن الغرفة نظِّفت، وأن الكُتب أعيد ترتيبها من جديد. لكنه حتماً لن يعير أية أهمية لقصة اغتصاب بنت الخادمة. سيبتسم. وسوف أفهم من ابتسامته أنه يسخر من هذه الاهتمامات السطحية التي نغرق فيها يومياً من أخمص القدمين حتى قمة الرأس، نأكل وننكح ونرتدي ثياباً بذوقنا ونتطلع إلى أشياء أخرى مماثلة. لكني شخصياً لا أنجذب إلى ذلك النوع من الحياة. ومع ذلك فستظلُّ مرتبطاً بمن يعيش تلك الحياة. مهما كانت قسوتهم أو عاطفتهم أو نبلهم. أنت مثلاً مضطر إلى أن تقبل أو ترفض اغتصاب بنت الخادمة. وأنت مثلاً تصاب بالعناد فتريد أن توقع بامرأة متزمّتة تدّعي الوقار حتى إذا سقطت بين يديك انهارت كما لم تنهر امرأة منذ عهد حواء. وهكذا حال من لا حال له. أقصد الفتاة البربرية، بنت صاحب «النجمة الخضراء» التي لا تبتسم لزبون، والتي تتنقل مئات المرّات في اليوم بين السلال والمرافع والآلة الحاسبة والزبائن وداخل الفرن، حيث يظهر العجَّانون وقد ابيضت ثيابهم بالدقيق، وابيضت رموشهم وأنوفهم وأوجههم وما إلى ذلك.

وستعلم فيما بعد أن ذلك النوع من النساء هو من يخونك بسهولة وأنه مصاب بانفصام. وربما إذا ذهبت إلى أبعد حدّ وجدته مصاباً بهوس جنسي يؤدي به في نهاية الأمر إلى الشذوذ، وكذلك كانت عظيمات النساء في التاريخ. ولا يهمنا أن نعرف فيما بعد أن هؤلاء العظيمات كنّ ملكات أو إمبراطورات أو بائعات خبز أو حتى بربريات سوسيات. لا يهم. المهم أنهن كنّ سحاقيات ويجدن لذتهم في ذلك. وقال الهادي:

- إن الثورة آتية لا ريب فيها، فما علينا إلا أن نعمل في السر.

قلت:

- ألا تعتقد أن كلمة الثورة جد عائمة. ثورة على ماذا ومن أجل ماذا؟

- أن تعرف أن لها مفهوماً واحداً. يعني تغيير الأوضاع السياسية أولاً والاجتماعية والاقتصادية.

قلت:

- نعم. ذلك ما كنت أفكِّر فيه دائماً، ولكن...

- معنى هذا أنك ضدّ الثورة. لماذا هذه اللكن؟

- أعتقد أنها في محلها. إني لست ضدّ الثورة، يجب أن نطرح جميع المواقف للمناقشة رغم لكن، ومع أن، وآه، وممكن أن. المسألة التي تنقصنا هي رحابة الصدر. ذلك التعصب هو الذي أدى إلى هذه الغرفة الآن. الأفضل لك أن تنام.

- ليلة سعيدة. واهنأ بمن تشاء من النساء.

وأغلق الهادي عليه الغرفة وأطفأ الضوء. وعندما كنت في غرفتي بعد ذلك سمعت الماء يشرشر ولم أستطع أن أخمّن فيما إذا كان يبول أم كان يشرب. ولم أعد أسمع الشرشرة. كنت متعباً جداً وقررت أن أنام. وفي اليوم التالي قالت فاطمة:

- لقد تصدقت على أكثر من مسكين هذا اليوم.

ونفثت دخان سيجارتها الشقراء في وجهي. ثم أضافت:

- ما رأيك في الصدفة؟

قلت بشفتي:

- هممم!

- ما معنى هممم!؟

ومطّت شفتيها. وأخذت تتلهى بالنظر مشدوهة إلى مومس أوروبية ترتاد المقهى يومياً. مومس فاقت الأربعين ولكن نهديها مكتنزان، ظهر جزء منهما، وظهر ما بينهما وقد تدلت فوقه سلسلة ذهبية. وكانت المومس تمسح أنفها بطريقة منفرة ومخلة بالآداب.

وقالت فاطمة:

- لا بدَّ أنها بدوية.

- يظهر ذلك.

- إن الأوروبيات أنيقات.

- ممكن.

- ولهنّ حسٌّ جمالي مرهف.

- ليس كلهن.

ولم يكن يهمني من هذا كله سوى أن أنام مع فاطمة. لم تكن عندي تجاهها أية أحلام رومانسية، تلك الأحلام التي تستحوذ علينا. تجاه امرأة غير متزوجة بالخصوص.

ثم قال الهادي:

- إنك لا تهتم سوى بفرجك. ذات يوم ستصاب بمرض يقتلك. هل تعتقد أن هناك فرقاً بينك وبين حيوان؟

- ليس هذا هو الأمر. ولكني أؤمن بثورة شاملة من السياسة حتى الجنس.

- ولنبدأ أولاً بما هو أقرب إلى الناس.

وقالت فاطمة:

- هل تشتمني؟ فيمَ تتحدث؟

- في لا شيء. إني أردد أغنية.

- أغنية خالدة.

- نعم.

وفكرت كيف يستطيع الهادي أن يتحدث إلى هذا النوع من النساء؟

امرأة جميلة، ولكن أفقها ضيق. ثم هل كل امرأة لا تتحدث في السياسة تعتبر ذات أفق ضيق؟

وسألتُ الهادي:

- إن النساء كلهن متشابهات. واهتماماتهن واحدة تقريباً. هل يمكنك إذن أن تفاضل بين هذه وتلك؟

أجاب الهادي:

- المسألة ليست مسألة مفاضلة. ولكن يجب أن يتوفر هناك وعي سياسي لدى المرأة. إن الفراش ليس كافياً، يجب أن نحكي همومنا لبعضنا.

وقالت فاطمة:

- إنك تشتمني مرة أخرى. ماذا تقول؟

- أنا لا أشتمك. يمكن أنك شربت كثيراً البارحة وتكوّن لديك الآن هذا الوهم.

- أنا لا أؤمن بالأوهام.

الكورنيش - الساعة السادسة مساءً:

وقالت فاطمة:

- إنني متزوجة فعلاً ولكن...

قلت:

- لكن ماذا؟

- لا أدري.

- لماذا؟

سكتت وأخذتْ تنظر إلى البحر، في تأمل من خلال الزجاج. وكانت هناك بعض الصخور الناتئة تحت المقهى، والأمواج تتكسر عليها فتكاد ترش الزجاج. واستغرقت في النظر إلى الماء الأزرق الهائج. وقلت لها من جديد: «لماذا؟»، فأجابت: «ماذا تعني؟».

كانت قد حدثتني عن أبيها الجندي الباسل الذي مات مع ثلاثة من رفاقه في جيش التحرير. وقالت أيضاً إن زوجها من ذلك النوع من الرجال، هو أيضاً مثلنا جميعاً، مثلي ومثلها يهتم بالسياسة. ربما أكثر منا جميعاً. رشفت فاطمة من بيرتها جرعة أخرى. ثم قالت:

- إنه الآن يتعفن في مكان ما.

- من؟

- زوجي. كان ذلك ذات صباح باكر - أخذوه مني غصباً. لكموني وأخذوه مقيَّداً والبندة على عينيه. ثق بي، لقد كنت أحبه كثيراً. في البداية كنت أعطف عليه، ولكني أصبحت لا أستطيع أن أعيش من دونه.

- هل هو متورط في تهمة خطيرة؟

- لا أعتقد. ولذلك لم يقدِّموه إلى المحاكمة منذ أكثر من سنتين. ومن يدري؟ ربما يكون قد مات؟

لقد تحدثنا بما فيه الكفاية، الشيء الذي جعلني أتراجع عن الأفكار التي كوّنتها عن فاطمة أول الأمر. كانت صامتة مثل أي أنثى. صامتة لا تتحدث إلا في أشياء ثانية تخصها هي بالذات مثل أنثى. إلا أنها مع مرور الوقت لم تعد تلك الأنثى، أصبحت أنثى

أخرى. أنثى حقيقية، من ذلك النوع الذي يبحث عنه أي مثقف مثالي، أي ثوري مثالي. وأخذتُ أحكي لفاطمة عن الهادي، وربما كان من جماعة زوجها، وأنه شاب كذلك يستحق أن يكون محبوباً مثل زوجها.

كانت تنظر إليّ بكل اهتمام ولا تُعلِّق إلا بكلمات فيها الكثير من التأثر. وفي كل مرة تتحدث عن نضال زوجها، وعن بطولة أبيها في جيش التحرير:

- كل الناس في الحي لا يزالون يذكرون بطولة والدي، إنهم لا ينادونني باسمي، ولكن باسم بنت العياشي.

قلت:

- الواقع أنك من أسرة يجب أن تفتخري بها.

وشربنا المزيد من البيرات. ثم غادرنا المقهى وذهبنا متعانقين، مشينا بمحاذاة المسابح، وتبادلنا بعض القُبُلات. وقالت:

- إن ذلك عيب في الشارع.

- هناك من يفعل مثلنا.

- إنهم ليسوا مسلمين ولكنهم يهود أو نصارى.

الساعة الثانية عشرة ليلاً:

كنت في حالة يرثى لها من العياء الشديد. لقد تمشيت كثيراً وشربت كثيراً. استمتعت بالوحدة ولم أتأمل في شيء لأن أفكاري لم تكن مركزة. وتخيلت أن الهادي يكون الآن في غرفته. وبالفعل وقفت متثاقلاً. ذهبت إلى المرحاض أولاً، ونظرت في وجهي وعيني. كانتا حمراوين بفعل الشراب. سمعته يسعل فطرقت الباب. توقف عن السعال وسمعت خطواته مجرورة نحو الباب. كان مغلقاً من الداخل. ولم أكن أدري لماذا يغلقه عليه. هل يقيه باب من شر يمكن أن يقع له؟

جلست قربه على السرير. وسمعته يقول بهدوء وهو يندسُّ تحت الأغطية:

- يبدو أنك شربت كثيراً. إنك تحطم صحتك.

- إني أريد أن أتمتع بالحياة.

وتذكرت لماذا ذهبت إليه. لأحكي له عن فاطمة. وأخذت أحكي له كل شيء. كان يستمع بكل اهتمام ويدخّن. وجّه إليّ بعض الأسئلة. وفي النهاية قلت:

- يجب أن تتعرف إليها. ما رأيك لو قاسمتنا الغرفتين؟

قال الهادي بغير اهتمام:

- لا مانع عندي. لكني أحذرك. إن الشرطة في كل مكان. إنك تضع ثقتك بسهولة في بعض الأشخاص.

لمتُ الهادي على سوء نيته. إن فاطمة فتاة واعية ومن أسرة مناضلة. وتمدد الهادي وجذب اللحاف إلى عنقه. ثم قال:

- الأفضل أن تذهب لتنام. أنا متعب وأنت كذلك.

جررت خطاي إلى الغرفة الأخرى. دخّنتُ سيجارتين ثم نمت وفي الصباح عثرت على ورقة غير ممضاة، كان خط الهادي: «أشكرك، ولا أنسى مدة إقامتي عندك».

وبعد ذلك لم أعد أرى الهادي، وحاولت أن أخمّن أين يمكنه أن يكون، هل يكون قد التحق بجبال الأطلس عند أقربائه. وتذكرت أن له أختاً متزوجة في تاوريرت. ولكنه لا يمكن أن يذهب إليها، لأن كل الطرق في أيديهم. ومراكز المراقبة مبثوثة في كل مكان، في الطرق الرئيسية، وفي الطرق الثانوية. وقلت لنفسي إني جبان وحيوان وكل شيء. وهل حقاً أنني أتمتع بحياتي؟

الخامسة والنصف صباحاً - ذات يوم:

استيقظت من النوم متثاقلاً. ولم أصدق أن هناك طرقات على

الباب، فكرت أنني أحلم. ولكن عندما تكررت الطرقات تيقنت أني لا أحلم. من يكون الطارق في هذا الصباح الباكر؟ لا بدَّ أن يكون الهادي قد ندم على ما فعل وعاد ليريح نفسه بعد تعبٍ وتجوال كثيرَين. وسررت لعودته. ذهبت إلى الباب وحاولت أن أفتحه ولكنه استعصى أول الأمر. عاودت الكرّة فصرَّ صريراً مزعجاً وانفتح. ورأيت آلاف الأيدي تمتد إليّ وتمسك بعنقي وذراعي تمنع عن جسدي الحركة. حاولت أن أفتح عيني بكل قوة لأتأكد فيما إذا كنت لا أحلم. صحت:

«آي..».

وأبديت بعض المقاومة، لكني أحسست بصفعة حديدية على قفاي، شعرت على إثرها أني أفرغ كل ما في جوفي. كانوا يجرونني في الدرج وقدماي وركبتاي تصطدمان بأشياء صلبة لم أدرك ماهيتها. كنت مجروراً دون أن تكون لي إرادة لفعل أي شيء، جروني وجروني أيضاً. وأحسست أن آلاف الأيدي ترفعني مئات الأمتار عن الأرض لتلقيني في حفرة مظلمة. اصطدم جسدي بحديد سيارة الجيب، ولم تكن عندي حتى القدرة على التألم، أخذت أئنُّ وأُصدر أصواتاً واهنة ضعيفة. وحاولت أن أتقلب. لكن قدماً ذات رائحة نتنة كانت تحط على وجهي بكل ثقلها، فلم أستطع أن أتحرك أو أتنفس. وكانت هناك أقدام أخرى تدوسني. تحركت الجيب وأنا مطروح تحت الأقدام الغليظة ذات الرائحة النتنة. ومع ذلك كنت لا أزال أفكِّر هل أنا في حلم أم في يقظة. وحاولت أن أقنع نفسي أنه مجرد كابوس عابر لم أستطع التخلص منه الآن، وفي الصباح عندما أستيقظ سوف أحكي كل شيء وكل شيء.. وكانت أصوات قبيحة تثقب أذني:

- أين صديقك يا كلب، يا ز...

ممكن حدوثه

توفيت والدتي بغير علم مني عام 1946، ثم لحق بها أبي بعد عامين، وكان قد رجع من الحرب. ولم يكن له اهتمام ولا رغبة في شيء سوى إرضاء زوجته الثانية، أمي الثانية. كان ينزع رزته الملفوفة فوق رأسه ثم يطوح بها في الهواء الحار، ويتوعدني، ثم يقول في غضب كريه: «ابتعد منها». ولم يكن أمامي سوى أن أُلبّي رغبته، لأنني كنت أعرف بالضبط نفسيته وقلقه وردود أفعاله. كانت أمي الثانية تدّعي أني أضايقها. وكنت أعرف أن هذا افتراء وكذب، غير أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً فالابتعاد منها هو الحل. كنت مراهقاً في سن السابعة عشرة. ولم أدرِ كيف لم يأخذوني لأحارب في إحدى الجبهات من أهل وطن غير وطني كما فعلوا بجميع الذين هم في سني. آه! لقد تداركت. كانت الحرب قد انتهت عندما تزوج أبي من جديد. كانت أمي الثانية في التاسعة عشرة أو العشرين. فلم تكن هناك قوانين تحرِّم الزواج بين رجل في الخمسين وطفلة في عمر ابنته. وحتى الآن لا توجد هناك قوانين. فأنت تستطيع أن تتزوج بطفلة في الرابعة عشرة. وتستطيع كذلك أن تعطيها أطفالاً صغاراً يقاربون سنها بحيث لا يميز الناس بين زوجتك وبناتك. كانت زوجة أبي تميل إليّ. وعندما كنا نتشاجر، كان أبي يغضب في وجهي ويشتمني ثم يلوح برزته في الهواء الحار: «ابتعد منها، ها العار! ابتعد منها».

شيّعنا جنازة أبي في صباح مبكر، لأنه توفي في المساء على إثر سعال خانق. وكانت زوجته التي أيقظتني وقالت إنه مات. أحسست لحظتها بتحجر في عاطفتي، وكأنه لم يكن أبي. ولكنها عندما هزتني كالشجرة، تساقطت دموعي. ثم فكرت في المصير: مصيري ومصيرها ومصير جثة أبي. ولم أكن أعرف شيئاً عمّا يجب أن أدفعه من لوازم الدفن أو أبقيه. ولحسن حظي، فقد تكفّل الجيران بالمهمة. واكتفيت أنا بالبكاء ومتح الماء من البئر القريبة من بيتنا. كانت الصنابير العمومية، إذ ذاك، وقت الحرب، قليلة. وكانت الآبار تعوِّضها في كل مكان. غير أنني بعد وفاة أبي لم أكن أفكِّر في البقاء مع زوجته، لكن البيت كان ملكنا. وحاولت مراراً أن أتخلص منه وأن أغامر كما يفعل جميع من هم في سني، لكني فشلت. لقد عوّدتني التجربة أن الأشياء لا تسير كما نريد، بل كما تريد هي. وفجأة اختفت زوجة أبي. كان الناس يتحدثون عنا، وكانوا يتحدثون باستمرار وبلا هدف، بل بلا معقولية أحياناً. أقوال مسلية لكنها غريبة. وحكيت ذلك لزوجتي فيما بعد، فقالت إن معهم الحق. ولم أفهم هذا المنطق. ثم تحدثنا مراراً، وأصرّت على أن معهم الحق، وأنهم أحرار فيما يقولون. ولم أكن أغضب لأقوالها، بل إنها حُرة فيما تقول. فنحن أحرار بالكلمات على ألا نمس الآخرين في مقدساتهم وفيما يعتقدون. ذلك هو رأيي على الأقل. لقد ظللت أكنُّ لزوجة أبي عاطفة خاصة. إذ ساعد على ذلك تقارب سنينا وتشابه مزاجنا. واعتبرتها منذ الوهلة الأولى أختاً لي. ولولا تدخلات المرحوم أبي لما فارقتني في جميع الأوقات. ثم فجأة، تغيّرت عاطفتها نحوي، وقلت ذلك لزوجتي، فقالت إن ذلك شيء طبيعي. وتساءلت عن الشيء الطبيعي في الأمر. قلت: «لماذا؟ كيف ذلك؟»، فأجابت: «إن العواطف الإنسانية تتبدل. وكل حال لا تقر

على حالها». قلت: «مثلاً؟» قالت: «إن الحب يتحول إلى كراهية. والكراهية تتحول إلى حب. وكل شيء ممكن في هذا العالم». ووافقتها وإن كنت أختلف معها، لأنني طالما آمنت بصدق العاطفة الإنسانية. وعبّرت عن شعوري هذا في جميع علاقاتي مع الناس لذلك كسبت احترامهم وحبهم لي. وكانت زوجتي تفسِّر ذلك بأنهم يفعلونه لتلبية مصالحهم. وبما أن مصالحهم لم تكن في يدي فقد كذّبتُ جميع مزاعمها. كانت زوجتي واحدة من النساء اللائي لعب الشيطان بأرواحهن. كان إبليس يسكن روحها. وكنت، مع ذلك، أعرف أنها إنسانية إلى أقصى حدّ. فالشيطان وحده هو الذي يعرف مساوئها، ولم أكن أنا أعرف سوى محاسنها. وكانت شديدة الرحمة حتى بأعدائها. ولقد لامتني عندما حكيت لها أني لم أحضر جنازة أمي، وعندما قلت لها إن ذلك لم يكن في علمي، ثارت في وجهي وقالت بغضب: «ولماذا لا تعلم؟»، قلت: «إن العلم وحده عند اللَّه. فهو الذي يقتلنا أو يميتنا - لا أدري - إنه يستعيد هداياه. كيف لي أن أعرف أنها ماتت وأنا مسافر في مكان بعيد؟ ثم إن اللَّه يميتنا في أي مكان ومتى يشاء، حتى لو لم نكن جوار أقربائنا ليدفنونا أو ليبكوا علينا». ولم تقتنع زوجتي. وقالت إنني قاسي القلب، فظّ العواطف، وأنني لم أدفن أمي ولم أحضر جنازتها. كان إبليس يتملك روحها، فهو وحده يعرف متى تغضب ومتى تفرح، متى تحب ومتى تكره. كانت تحقد على زوجة أبي ولم ترها في حياتها قط. وظلّت على حقدها ذاك لسنوات. ولم أستطع أن أفهم هذه الكراهية.

كانت تقول إن الجحيم أليَق بها وإنها امرأة خلقت للنار لتأكل عظامها ولم تخلق للحياة أو لأي شيء من هذا القبيل. وكنت أفكِّر في هذه الخواطر الغريبة الملعونة التي تنتابها ولكن لم أكن أعرف

مقياساً لها فهي وحدها تعرف كل شيء. وربما لم تكن تعرف أي شيء على الإطلاق. كيف تتبدل العواطف؟ لست أدري. من يصدق أن زوجتي دخلت عليّ برفقة امرأة؟ امرأة مكتملة العمر والقَدّ، لم أعرفها إلا بعد تأمل طويل، دخلت زوجتي ودفعتها إلي: «هل تتذكر؟ زوجة أبيك». كيف تحصل الأمور؟ لا أدري. هذه زوجة أبي أين كانت؟ الشيطان وحده يعلم. وعانقتها. هذه زوجة أبي. وعانقتها وعانقتها. وبكت زوجتي لتأثرها الشديد. وأدخلتها إلى الغرفة المجاورة. ثم قالت لها: «هذه غرفتك ولن تبرحيها بعد اليوم». وفوجئتُ بهذا القرار الذي اتّخذته زوجتي. كيف تحولت من كرهها الجهنمي لها إلى هذا الحب؟ ولم أقل شيئاً. وقفت حائراً مندهشاً. هذه الأشياء تحصل ولا أعرفها أنا. امرأتان في بيت واحد ولا تجمعهما أية علاقة. لعلّ ذلك الحقد الكبير تحول إلى حب كبير. إن النساء يعرفن بعضهن. فهنّ أقدر على ذلك. واستجمعت لحظاتي التاريخية القديمة، فكرت في جميع الملابسات ولم أصل إلى شيء. كانت صورة أمي تحضر بين عيني، وكذلك صورة أبي. كنت وحيدهما. ولم أعرف أني سأفقدهما وأني سأعيش كما يعيش الملايين أمثالي في العالم - وحيداً منفرداً بلا عون. وكنت أفكر في مشيئته وقدرته التي أرادت كل شيء. ثم أصبحت الصداقة بين زوجتي وزوجة أبي شيئاً لا مراء فيه. كنت أراقب ذلك من بعيد ولا أتدخل في شؤونهما. كانتا لا تتوانيان عن تقديم أية خدمة أحتاجها، بل كانتا تتنافسان. فعندما كانت إحداهما تجرُّ الكرسي إلى الشرفة لأجلس عليه، كانت الأخرى تنفض الغبار عنه وتسويه. ولم يكن هناك فارق كبير في السن بينهما. وفي مساء يوم أربعاء، سمعت زوجتي تتهم زوجة أبي بصفات غريبة. ووضعت الطين على أذني الاثنتين ولم أسمع شيئاً. قررت ألا أسمع وألا أفهم وألا أتدخل.

وفكرت ليلتها في أشياء غريبة حدثت أو لم تحدث لي. كان خيالي واسعاً ونشيطاً، تلك نوع من المشادات التي تقع عادة بين الرجال والرجال أو بين النساء والنساء ولكنها لا تخلف أي أثر للاستياء. إن سوء التفاهم ضروري في حياتنا اليومية وأعتقد أن الحياة لا يمكنها أن تسير أو تستمر إلا بهذا التفاهم السيئ. نحن في حاجة إلى من يواجهنا يوماً عن يوم، وفي حاجة ماسة إلى الغير الذي ينافسنا ويستفزنا ويثير أحقادنا. وإلا فإن الحياة لا يمكنها أن تكون. فكرت على هذا المنوال، وشعرت لحظتها أني على حقّ، وأن أفكاري صائبة، غير أن الأفكار نفسها نسبية، فهي تتغير من ثانية لأخرى. ولم أعرف بالضبط إلى أي قرار أهتدي. فزوجتي تحب وتكره وتحب. والشيطان وحده يعرف نفسيتها. أما زوجة أبي، فكانت تختلف عنها أشد الاختلاف في اللحم وفي الدم. كانت مع ذلك واضحة في علاقتها. ولم أكلِّف نفسي التدخل في شؤونهما. ثم بدأت زوجتي تشركني في الشجار الذي يقع بينهما، وحاولت أن أتملّص من جميع هذه التفاهات. ولكنها - زوجتي - ظلّت تلحُّ عليّ وتصر على أن أفعل أي شيء. تلك مشاكلهما فلتجدا لها حلاً. وحاولت أن أصمد فلم أستطع. ودخلت عليّ زوجتي في ذلك الصباح غاضبة كما لم تغضب من قبل:

- اسمع.

- مالك؟

- هي أو أنا؟

- لا أفهم.

- قلت هي أو أنا.

- لا أفهم.

- لا تحاول أن تفهم. الناس يتحدثون والخبر شائع.

قلت بكل أعصابي:

- ماذا تعنين؟ لا أفهم.

قالت بغضب شديد:

- قلت هي أو أنا، الناس يتحدثون. خُذ ابنك وسأمضي إلى بيتنا، الناس يتحدثون. لا أستطيع أن أتحمل.

- لا أفهم.

- لا تحاول أن تفهم. الناس فهموا كل شيء. الخبر شائع والعلاقة خطيرة.

ثم جرّت الباب في وجهي. بقيت وحيداً منفرداً بلا عون. نظرت في أسفل قدمي الجامدتين. حاولت أن أسترجع جميع لحظاتي الماضية فلم أستطع. كانت زوجتي تعول في الغرفة الأخرى. وكنت جامداً كقطعة حجر. ماذا أفعل؟ لا أعرف. هل حصل شيء؟ لست أدري. الشيطان وحده يعرف. لقد سكن روحها من قديم. إبليس هناك في رأسها. أما أنا فسأصمد لأعرف الناس بحقيقة الأمر. سأصمد، وسأواجه العالم. لقد اخترت هذه الأشياء وسأتحمّل مسؤوليتها بنفسي. وحيداً كنت وسأظل وحيداً. وأخذت أفكِّر فيما بعد 46، عندما مات أبي بالضبط، على إثر ذلك السعال الخانق. كنت لا أريد أن أتدخل في شؤون أحد. وكنت أعرف كيف أعيش مع زوجة أبي التي يجمعني وإياها سقف واحد - لم يكن أحد يتحدث في بداية الأمر. ولكن العلاقات ساءت فيما بعد. لقد أوّل الناس ما شاءوا. وقالوا إنها في سنه، وحاكوا بعد ذلك أساطير طريفة. كان بعضها صحيحاً وكان بعضها مختلقاً. ولم نحاول أن نهتم لشيء في بداية الأمر. فمثل هذه الأساطير نفسها كنت أسمعها عن أمي أثناء ذهاب أبي إلى الحرب. كان الأطفال يرددونها في أذني. ولكن عندما كان يتغيّب أحدنا، كنا نقول الشيء نفسه عنه،

لأن أغلب الآباء قد ذهبوا إلى الحرب، ولم يتخلّف عنه ذلك سوى العجزة وبعض المراهقين الذين لم تدركهم الدعوة. كنت متعوداً على أشياء مثل هذه، أشياء من قبيل الجد أو من قبيل الهزل والتسلية. ولطالما سمعت كلاماً من نوع خاص، ولكثرة تشابه ما سمعت لم أعد أحاول أن أفهم. . ثم إن الأشياء التي يقوم بها الإنسان، مهما كانت قبيحة، فهي تخصّه وحده. ولست أدري كيف يمكن لأحد أن يتدخل في أشياء لا تعنيه ولا تمسه. إذا كان بعض الفضول البشري موجوداً حقاً، فهو يؤدي إلى بعض الأفكار التافهة إذ ليس جيداً أن يملأ الإنسان حياته بمثلها - ولطالما اعتقدت أن ليس أقبح من أن يملأ الإنسان حياته بأشياء تضره أكثر مما تنفعه. وكانت زوجتي في أغلب الأوقات توافقني على أفكار مثل هذه بل إنها أوحت لي مرة أن البشرية لا يمكنها أن تستمر على هذه الحال. وقالت أيضاً إن جميع الأشياء تتبدل ما عدا التي تحمل نفعاً للإنسان. كنت أعرف في بعض الأحيان أن الشيطان يتخلَّى عنها ويسلِّمها لي. لكنه غالباً ما كان يقف إلى جانبها. فيوحي لها ببعض الأفكار الطريفة، وبعض الخواطر الغريبة التي لا يتقبلها سوى أحمق أو معتوه. فلقد حاولت أن أستفهمها عمّا حدث ولكنها لم تكن لتجيب. كانت تجد متعة كبيرة في الغضب والاستعلاء. قولي أي شيء. ماذا حدث؟ ماذا فهم الناس؟ لكن الحجر يجيب والمرأة لا تجيب. ومواقف مثل هذه لا يمكن أن يصمد أمامها إلا من وهبته الطبيعة قدرة خارقة على الصبر. فالمرأة جامدة ولا تريد أن تتحرك. لا تريد أن تقول شيئاً بل لا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها أو عن زوجها. لطالما قلت لها إن التفاهم السيئ الذي يقع بين الناس إنما هو سرّ وجودهم في هذا العالم. فنحن موجودون لكي نتفاهم لأننا لم نخلق متفاهيمن، وأن الحياة مليئة بالتفاهات ومليئة بسوء التفاهم. وحاولت أن أقول لها

إنها هي التي دخلت عليّ ذات يوم بامرأة كنت قد نسيتها إطلاقاً. كنت أعرف جيداً كيف تقبل أقوالاً مثل هذه. وكنت أعرف أنها، من غير شكّ، تستطيع أن تثور في وجه اتهامات الناس وأقوالهم. كان أي اعتقاد في شخصها محتملاً. ولحظتها عندما ثارت في وجهي، بقيت جامداً. حاولت أن أستوضح ولكن عبثاً. كانت هناك خواطر كثيرة تنتابني، خواطر هي من قبيل الماضي أو الحاضر لا أدري وبقيت أفكر وأفكر. كان صوتها يأتيني منتحباً بقوة وضعف. وأحسست أن العالم لا يسير على ما يرام وأن كل الطرق ملتوية إلا طريقاً واحداً. وحاولت أن أسير في هذا الطريق الذي لا أعرف نهايته. ورأيت أمي وتخيلت موتها. ورأيت أبي كذلك، وتذكرته. كان صدره العريض يظهر خلف الثوب الشفاف، كان الحر شديداً، وكان يلوّح برزته في الهواء بغضب: «ابتعد منها ها العار! ابتعد منها». وشعرت أني أبتعد بسرعة فائقة. كنت أخترق مجاهل بعيدة الأغوار، وكنت أستمع إلى نحيب يرتفع في الغرفة المجاورة. الزوجة لا تزال تبكي. كنت أعرف أنها تؤمن بتفاهات كثيرة، مجرد تفاهات. وعرفت أيضاً أن حياتها ستظل متعلقة بأشياء مثل هذه.

رسائل أصوات أجنحة

«رائع، أليس كذلك؟».

هذه الحروف برزت بالإنجليزية على ظهر الصورة. كانت فوق. عند الحدود النهائية للصورة: صورة من الكاغد لا من البلاستك. وأسفل الحدود النهائية العليا، تتوسع الحروف اللاتينية. ثم في نهاية الحروف على اليمين هناك علامة استفهام. الكل يعرف علامة الاستفهام. على شكل مخطاف متعرج، دقيق من الأسفل، سميك في الرأس لانفتاح شقي قلم المداد، عندما ينحدر القلم ويُرفع عن الورق، تبرز بوضوح دقة أسفل علامة الاستفهام. وفي البياض أيضاً ظل لأصابع، لو أن المجهر استُعمِل لظهرت بوضوح عدة خطوط أخرى كالديدان، أو كالزمبركات أو الأسلاك النحاسية المتعرجة. ليس ضرورياً أن يوجد المجهر للكشف عن جميع هذه التخيلات. يكفي فقط الاستعانة بالتجربة الماضية لتخيل كل شيء. إذن هناك فوق البياض تعرجات وخطوط وظلال لأصابع ليّنة أو صلبة. إذ لا بدَّ من وجود الأصابع حتى لو لم نشأ تخيلها.

كانت «رائع، أليس كذلك» وحدها معزولة فوق ظهر الصورة، وأحياناً لم تكن لتستغرق الوعي الكامل للناظر، لأنها تقترب من الحدود الفوقية، وتقترب من الفراغ أو من العدم. وكانت «؟» أيضاً شديدة البروز، وتبدو منعزلة عن الجملة المكتوبة. لو كانت قد كُتبت

وحدها مع ذلك لأدّت معناها الإنساني. حيث إن «؟» هي نتيجة خبرة سابقة، فإنها تستعيد وضعها الأول في الذهن. إنها تستطيع مع البياض، الذي فوقه ملامح من أصابع مختفية وغير موجودة إطلاقاً، أن تكون جملة كاملة ومفيدة. كأن تقول «ما رأيك». وتكون الإجابة الضرورية والحتمية قلب الصورة لرؤية شاب عربي مع فتاة غربية. يمكن أن يكون مارتينيكياً مثلاً. شعر طويل جعد، يكوِّن قبّة فوق الرأس، وجسم نحيف ضئيل، عليه بقايا من الطفولة. ثم جسد آخر ليس أسمر، وشعر أشقر أملس. وخلف الجسمين أعمدة وفضاء ضروري. وجه الشاب طويل لكنه صغير، إذ إن الشعر استطاع أن يغطي جزءاً كبيراً من جبهته. أما الفتاة فنهداها بارزان، كبيران، في صدرها تحت السوتيان. يبدو عليها نوع من الفتوة، وجهها غارق في براءة أو عاطفة أخرى غير مفهومة، لأنها بعيدة جداً داخل مكان خبيء في الجسم أو الرأس. عاطفة بعيدة شديدة البُعد، ولا يمكن معرفتها. أحياناً تتناقض ملامح الوجه مع الكلمات المنبعثة من مكان خفي بين الشفتين. غير أن السمرة عادية، بحيث تصبح في الصورة أو خارج الصورة عادية ومبتذلة. أحياناً، تتحدث الفتاة ببراءة وبحسن نيّة تكون، كما يُقال، خارجة عن أطوارها. عندما نغادر أطوارنا، نغادر أيضاً تعقّلنا فنقول الأشياء الحقيقية حتى لو أصابتنا في الصميم. هذه الأشياء ليست بذات قيمة في الخيال، لكنها، في الواقع الملموس، ذات قيمة كبرى.

على وجه العربي ابتسامة. على وجه البنت شيء. فوجه الشاب قد تعوّد أن يبتسم أمام العدسة حتى لو كان في حالة حزن. لقد تعوّد ذلك. وهذا نوع خاص من المواقف المحرجة التي أصبحت بالنسبة إليه سيئة للغاية. أما وجهها هي فهو صارم، لكنه ذو خطوط وتعرجات عادية. ليس هناك حزن ولا مسرّة. أحياناً – تبعاً للحظة –

يمكن اكتشاف المسرّة في العينين، خلف النظارتين اللتين لا تخفيان العينين. فالوضع في الصورة يختلف تماماً عن وضعه هو. في الواقع أيضاً تبرز على وجهه أحزان تاريخ قديم، في الصورة غير ذلك. لكن الابتسامة غير عادية، فيها كثير من التكلف. على العكس، فالفتاة في الصورة قريبة من التي خارج الصورة. فحتى صدرها يظهر عادياً جداً وليس منتفخاً. وتحت السوتيان لا يزال نهداها محتفظين بما كان لهما. أما هو فصدره يبدو منتفخاً. ويمكن بسهولة تخيّل ريش ملون على جسده. ريش منفوش كالديك الذي انتهى لتوه من معركة حامية من أجل رغبة جنسية ضدّ دجاجة ضعيفة.

الانتفاخ، هنا في الصورة، ظاهر مفتعل. في الواقع أيضاً يبدو مفتعلاً. ثم كان انتفاخه قوياً. وكان بالإمكان تخيل الريش الملون بدل الثياب. قال: «الصين أهون من أميركا». قالت: «طبيعي». ثم فتح فمه وتثاءب وتجشأ ولم يقل عفواً، لأن أحداً لم يسمعه. فهي لا تسمعه لأنه لا يعرف متى يحدّثها. أحياناً، يحدّثها عن الأشياء الجميلة وهما في حالة حزن. وأحياناً أخرى، يحدّثها عن الأشياء الحزينة وهما في حالة فرح. في الصورة هناك نوع من التقارب في الابتسام. لكن ابتسامته واضحة للغاية. ليست واضحة لكنها مفضوحة. هي تقول ببساطة ها أنذي. أما هو فيقول: أنا لست أنا، أنا آخر، أنا جدي. أما هي عندما تحدثه عن جدتها، فتقول: «في شمال السويد لنا قصر من تسع غرف. القصر مهجور، هو قصر جدتي. نحن نسكن الجنوب. الحرارة عندنا تبلغ 28 درجة».

كانت الصورة إذ ذاك تطغى عليها الظلال وراء الجسمين. قُرِّبت الصورة من عينين بارزتين، وحاولت الأصابع أن تتلمسها. لكن كانت هناك ظلال فقط. وعلامات أصابع مثل نبات الخرشوف.

- هل تحبين الخرشوف؟

- لا. لا أعرفه،

- إنه لا ينبت في السويد.

- ممكن، ولكني لا أعرفه.

كانت أيضاً بطنها بارزة قليلاً. أما سرتها فمندفعة إلى الخلف. كانت المسافة من فوق، من تحت السوتيان حتى السرة جدّ بعيدة. لا بدَّ أن يحصل ذلك، حتى تصير للمرأة نكهة طرية وناعمة، وحتى يصير لملامستها لذة تنقض الوضوء أو تنقض شيئاً. على بعد سنتيمترات من السوتيان والسرة، تمتد مسافة، وهذه المسافة تتناسب مع ملامح الوجه بحيث تجعل الشاب العربي ينتفخ ويعتقد أنه يمتلك العالم. ولكنه في الواقع لا يمتلك شيئاً. يمتلك امرأة، والمرأة في الواقع ليست كل شيء. وأيضاً في الصورة الأخرى أشكال هندسية موزّعة، وتبرز أبواب وأشياء سوداء من الرواق، ومنشفة إسفنجية عليها خطوط متعرجة واضحة. ثم هناك نقطة فوق العنق، وأخرى إلى جانب السرة بيضاء كذلك. أما هو فله شعر كثيف جعد. وقالت بعد تأمل واضح:

- هل عندكم هيبيون كثيرون مثلك؟

- لا نحن لا نفعل هذا. كان السهروردي هيبياً. كان القمل يغطي وجهه وكان قذراً ولا يقطع أظافره.

وقالت باندهاش:

- رائع! هل كتب كتاباً مثل **على الطريق**.

- لا، لقد قتلوه. قالوا إنه معطل.

- أوه، فظيع.

وكان أيضاً من الواضح، ومن السهل كذلك، رؤية الريش فوق جسده. ريش منفوش من أجل رغبة جنسية. وكانت الخطوط

المتوازية والمنشفة الإسفنجية وكل شيء، بارزة. إذ يمكن رؤيته هو نفسه. أما هي فتبدو منفصلة عنه مثل «؟» خلف الصورة. وكان هناك خط آخر أبيض مستقيم مرسوم فوق المايو الأسود. أما بالنسبة إليها فلم يكن هناك شيء بتاتاً. السرة فقط بعيدة من السوتيان. والمسافة الواضحة في الجسم مشهية تناسب الابتسامة غير المفتعلة على الوجه. فعندما تلمع العدسة، ينفتح فمه هو، بتلقائية، ويبتسم حتى لو في حالة موت. حتى لو في حالة حزن. فالابتسامة تكرر نفسها، وتبدو كما لو أُلصِقت على الرغم منها على صفحة الوجه. عندها هي، كل الأشياء تمضي طبيعية. لذلك ظهرت منفصلة مثل «؟» خلف الصورة. وكانت مع الخطوط المتوازية والشكل الهندسي المرسوم في الرواق تظهر كجسم متكامل. والشيء نفسه أيضاً يقع - في الماء، أي أسفل الصورة - أي أسفل الرواق - بعيداً منه، على اليمين. أما على الشمال، فيسنده هو جدار، فيه بروز أحجام سوداء.

قالت:

- «الحياة معقدة».

- ليس تماماً، إنها بسيطة. هل أنا معقد.

- لا، أنت لست مثلهم.

غير صحيح. أنت لم تعرفيهم كلهم.

ثم أخذ الريش المتوهَّم يتطاير عن جسده. ومن الممكن ملاحظة الزوايا وبروز الأجسام السوداء والماء الموزع على اليمين.

وقفَ في فضاء خاص. وقفتْ في فضاء خاص. وانعكست الصورة فكانت الحدود الأولى على الخلف: البياض في الأسفل وسواد المداد عند حافة الحدود العليا.

«رائع، أليس كذلك؟».

وعندما كانت علامة الاستفهام تنفصل عن الجملة المفيدة، كانت تقترب منها شيئاً فشيئاً. وتزداد أيضاً دقّة رجلها السفلى فتلتوي قليلاً إلى جهة ما. هناك أيضاً تعرجات أخرى خفية. بالنسبة إليه، كان خلط وتشوُّش وعدم انطباق. الواقع هو غير الصورة. بالنسبة إليها لم يكن هناك تشوُّش ولا عدم انطباق: في المقهى وفي الصورة. في الرواق بجانبه أو قرب الماء لها وجه واحد. فالابتسامة ليست متّسعة ولا فاضحة. ثم لدى انعكاس الصورة. فبدأ جسم الشاب كشبه منحرف ورأسه كفاكهة متدلية نضجت بما فيه الكفاية. وظلّت هي، حتى أثناء الانعكاس، محتفظة بطبيعتها الأولى.

قالت:

- هل عندكم كتاب مثل **على الطريق**؟

ظلّ مقلوباً في الصورة كشبه منحرف ورأسه ناضج ومطبوخ بالأفكار. قال من بين أسنانه:

- نعم هناك. ولكننا نخفي مثل تلك الأشياء.

- لماذا؟

سكتت وتحوّل شعرها إلى الخلف عندما هبّت عليه رياح خفيفة، ثم انعقد وتشوش وتشابك بلا أدنى رغبة منها... وفي الصورة، بقي ملتصقاً منحنياً. غير أنه، أثناء الانعكاس، أصبح يغلّف الرأس كثوب البصل. وبدا أنه لا يشبه الرأس الآخر، رأسه هو الذي كان فاكهة ناضجة. فاكهة ليس لها اسم. ولكنها من الممكن - حتماً - أن يُقال إنها فاكهة وحشية ذات أشواك حادة الرؤوس، تنغرز وتبقى مع ذلك صلبة قوية مدببة.

عندها انعكست الصورة الجديدة، واستعادت وضعها الأول. الآن كذلك، الخطوط المتوازية، ثم البروز الأسود، على طول

الرواق فوق الماء من جديد يظهر. لكن شبه المنحرف يصبح مقلوباً فلا يعود يعني شيئاً. ويستعيد الجسمان الوضع البشري الأول. أول شيء يظهر الابتسامة غير الحقيقية. شيء قبيح وليس رائعاً. ابتسامة في غير محلها بين السرة والسوتيان تمتدُّ المسافة الطويلة الغريبة كشيء حقيقي، واقع محسوس ومنظور كذلك. لكن خارج الصورة تنتفي الابتسامة وتتوقف جميع الإشارات. وعندها هي، في مكانها. أما هو فيتغيّر لديه كل شيء ويكتسي جسمه حلة جديدة من الريش. ويرتفع شيء آخر قبيح فوق رأسه.. شيء مرفوض ورديء. وعلى الرغم منه يشعر أن كل شيء يتغيّر لديه خارج الصورة، لأنه لم يكن حقيقته على الإطلاق. فهو مثلهم جميعاً. ولكنه ينفي هذا أو يحاول أن ينفيه فلا ينتفي، خارج الصورة أيضاً، بعيداً من باقي الأوضاع الأخرى. يتحدث بوضوح: «الفكرة التي تكونينها...».

لكن الأشياء كلها تبقى في أمكنتها داخل الصورة وخارج الصورة.

تنظر في لمعان العرق في أصابعها وفي انبعاج عند رأس أحد الأصابع. تقول وكل شيء لا يتغيّر: «ليست عندي فكرة. هناك اختلاف ولكن لي ملاحظة، عندنا في الصيف الحرارة تبلغ 30 درجة. عندكم الشيء نفسه».

كان رأسه في الصورة مطبوخاً وناضجاً، يغطي جبهته الشعر الكثيف الجعد: «لا، لا أريد هذا».

ومع ذلك كان في الرواق ملامح شخصية منها. ظلَّ إلى جانبها فأبرز انتفاخاً في صدره. وسألها هل تعرف نبات الخرشوف. قالت إنه لا يوجد في السويد. ثم إنها لم تكن متأكدة، وعندما قلبت الصورة ظهرت «؟» وحدها، وأيضاً ظهرت: «رائع، أليس كذلك» بحروف لاتينية مشتتة. كانت الحروف في نهاية أطرافها دقيقة غير

متشابهة، وهناك أيضاً فجوات بيضاء تحت الحدود العليا للصورة. إلا أنه قبل الوصول إلى الحدود السفلى، كان البياض الناصع وعليه ظلال أصابع متعرجة كالديدان، كأسلاك النحاس. كانت أشياء لا يمكن رؤيتها إلا بالمجهر. وأحياناً، كان من الممكن إدراكها بسهولة فائقة، لأن ذلك لم يكن يتطلب سوى استعادة بسيطة لتجربة ماضية، حصلت في وقت ما وفي مكان ما.

في مكان معزول

كانت ندائف الثلج في الخارج لا تزال تتساقط، ويمكن للمرء ملاحظة البياض المنتشر في كل مكان رغم الساعة العاشرة ليلاً. وقد استطاع أحمد أن ينكمش داخل معطفه مثل قنفذ لأن المقهى لم يكن فيه زبائن كثر، ولم يكن دافئاً بما فيه الكفاية. وعلى الرغم من البُخار الذي يغطّي الزجاج، والذي يوهم بدفء حقيقي، فقد كان المقهى بارداً. وقد حاولت الفتاة من وراء البار أن تبرز ذلك فقالت:

- لا يمكن بأي حال تجنب البرودة. فالمكان واقع بين جبال، والثلج يتساقط باستمرار. ثم لا يمكن إدفاء المقهى فذلك يكلف كثيراً. خصوصاً أن الزبائن يقلون باستمرار في هذا الوقت.

- يبدو أن المكان خالٍ وحزين جداً بسبب الجو.

- ليس تماماً. هل أسكب لك؟

- نعم. واسكبي لنفسك إذا أردت أن تتجنبي هذا البرد الذي ينذر بزكام حاد.

- سأشرب ويسكي، فصاحب المقهى يرفض أن أتناول شراباً رخيصاً.

كان المقهى فارغاً إلى حدٍّ ما. فهناك حوالي ثمانية أشخاص متفرقين ومتلفعين في البار أو على مقاعد جانبية وقد أُغلِقت الأبواب والنوافذ، وخفت الضوء. ويأتي من كوة المطبخ صوت ارتطام أوانٍ

وكؤوس تُغسل. تتناولها الفتاة بين حين وآخر وتصففها تحت البار. وفي زاوية قرب الباب كانت امرأة قد رفعت لثامها، فبدا الوشم يغطي وجهها على الطريقة الزمورية، تشرب الكأس تلو الأخرى. في حين كان الرجل الذي يرافقها قد سكر نهائياً فتدلت أطراف عمامته على كتفيه وفوق جبهته، وقد تدلت شفته السفلى. وقالت الفتاة:

- إن الويسكي يؤثر على صحتي لكني ملزمة بشربه.

- حاولي أن تشربي النبيذ الأحمر.

- غير ممكن. انظر تلك المرأة هناك. لا تشرب سوى النبيذ ومع ذلك فهي أقوى من عفريتة.

- لقد سكر زوجها بالبيرة فقط.

- إنه يسكر بسرعة. لكنه ليس زوجها فهو متزوج بامرأتين.

- يا للحظ! لا بدَّ أنه غني.

- يتاجر بالأبقار ويملك شاحنتين. حتى القايد يرهبه هنا. وزوجتاه تعرفان علاقته بتلك.

ثم سمعت الفتاة ارتطام كأس بالبار فذهبت لتجفف المكان. ودخل اثنان وقد دليا طاقيتهما على آذانهما. كانت الطاقيتان والثياب قد ابيضت بفعل الندائف الموزعة على أجسامهما. وأخذ أحدهما يكوّر كفيه وينفخ فيهما فيخرج بخار كثير يحجب وجهه الذي لطّخه الشحم. لا شكّ أنه عامل تشحيم. والآخر سائق شاحنة. وتوجها مباشرة إلى البار ووقفا بالقرب من أحمد وطلبا قهوتين ساخنتين جداً، وتحدّثا بهمس بينهما فشربا قهوتيهما بسرعة وغادرا المكان وقد أحكما شدّ طاقيتيهما قبل فتح الباب الزجاجي للمقهى. وتسربت ريح خفيفة قارسة فتحرَّك جميع الزبائن وأحكموا شدّ ثيابهم على أنفسهم. وأخرج أحمد سيجارة مفكراً أنه يستطيع أن يدفئ بها على الأقل دائرة الفضاء المحيطة بوجهه. وأفرغ ما تبقى من الكأس في

جوفه وضرب بقاعه على البار فأتت الفتاة وصبّت له ولنفسها. وقالت إنها لا شكّ ستسكر الليلة وأن ذلك ممتع حقاً، خصوصاً في مثل هذا الجو، ثم أضافت بالبربرية:

- إلّا وصميد باهرا. سنت تاشلحيت؟

(الجو بارد جداً. هل تتكلم البربرية؟)

- لا. لكني فهمتك. هل أنت بربرية؟

- المرحوم أبي بربري، أما أمي فعربية من دكالة. أضطر أحياناً إلى أن أتحدث بالبربرية فأغلب سكان المنطقة هنا بربر.

- لماذا نفيت نفسك هنا؟ يبدو أنك لست من هذا المكان.

- لا. لكن لذلك قصة طويلة. قصة طويلة جداً. على كل حال لا يمكن أن أعود إلى مدينتي فهو يهددني بالقتل.

- من؟

- هو.

- لكن هناك السلطة.

- أنا أعرفه جيداً. الأفضل ألا نتحدث في هذا الموضوع. ثم إني أعيش رغم العزلة حياة سعيدة نسبياً. وقد ألفت المكان وأخشى أن أقضي فيه عمري كله.

- ذلك ما يخشاه أي إنسان يكون في مكانك. هل ترين القمر في الأعالي وقمم الثلج؟

- إن الزجاج مضبَّب ولا أرى شيئاً.

- أنا كذلك لا أرى شيئاً. لكني تخيلت ذلك فقط. هاتِ لي كأساً أخرى. إن بي تعباً لا حدّ له. وأفكر أين أنا في هذا البرد القارس، خصوصاً أنك قلت أن ليس هناك فندق.

- نعم. ليس هناك فندق. نحن فقط نملك ثلاث غرف لكنها محجوزة منذ أربعة أيام للسياح. اشرب وسيأتي الحل فيما بعد.

حقاً، إن ذلك شاق بالنسبة إليك. أقرب مدينة تبعد ثمانين كيلومتراً، علاوة على الثلج والجو السيئ.

- نعم. والتعب الشديد. فأنا لا أستطيع أن أقود السيارة الآن. هل تفهمين؟

- أفهمك جيداً.

ثم صبّت لنفسها ولبّت طلب زبون آخر في زاوية البار. وغادرت البار وهي تسعل إلى صندوق الموسيقى. وسمع صوت دافئ بلحن أميركي ينطلق من هناك. واستيقظ الرجل الذي تدلت عمامته ورفع عقيرته بأغنية بربرية. وطلبت منه الفتاة أن يكف عن ذلك لأنه ليس وقته، وبعد ذلك يكون في إمكانهم جميعاً أن يستمعوا إلى صوته. وقال الرجل:

- اعطونا شراباً فالحياة قصيرة. لا بدَّ أن أبيع يوم السبت القادم شاحنة أبقار بكاملها. يا لها من صفقة!

وقالت الفتاة:

- لا تعتقد أن الناس متسولون.

وقالت لأحمد:

- إنه فقط عندما يسكر يتباهى بماله.

وقال أحمد:

- معه حقّ إن الحياة قصيرة. البرد شديد أيضاً ويجب أن أنام. ما رأيك في أن أنام معك الليلة وأدفع لك.

- لا أدري. ذلك لم يحصل مع زبون قط هنا.

- فليحصل لأول مرة. اشربي كأسك. الحياة قصيرة. هيه. كل شيء متعب حتى النوم مع امرأة، لا تعتقدي أني مثل الآخرين. سأذهب لأنام فقط. وإذا لم تريدي فإني لن أقربك، مع أنه من الأفضل أن ننام في فراش واحد الليلة.

- إنك تشرب كثيراً. هل أكلت؟
- أكلت سرديناً ونصف كيلو من الموز قبل ساعات.
- ليس ذلك كافياً. أطلب لك سندويتشاً. أنا أيضاً في حاجة إلى أن آكل قبل أن أنام.
- حسناً. كما تشائين. اعطيني شراباً. إن البرد قد بدأ يخف. أشعر بدفء.
- لكن أنفك أحمر.

وسمعت زبوناً يطلبها فذهبتْ وتناولتْ الحساب. ثم غادر ثلاثة رجال المقهى، وتسربت الريح من جديد فلم يشعر بها. ورأى الندائف تحت المصابيح كثيفة لا تزال تتساقط. كان الشارع كله مغطّى بالبياض وفارغاً. وانغلق الباب الزجاجي من تلقاء نفسه.

وسمعها أحمد وهي تسأله:

- هل أنت موظف في الدولة؟
- لا.
- تاجر؟
- لا.

آه فهمت. مهرب مخدِّرات. إنهم يمرون كثيراً من هنا.

- لا، لست مهرب مخدِّرات. لكنني أفعل أشياء أخرى في الحياة. هل تشتغلين معهم؟
- مع بائعي المخدِّرات؟
- لا. هم.
- من هم؟
- هم. ألا تعرفينهم؟ رجال الشرطة.
- غير ممكن.
- لماذا غير ممكن؟

- لأنه كذلك. لقد طلبت سندويتشين، هل تسمح بأن أفرغ كأساً أخرى لي. الواقع أنك كريم.

- لكني فقط أودُّ أن أنام.

- ذلك ممكن. إلا أنه شيء صعب. أنت لا تعرف المنطقة. لا يمكنني أن آخذ معي زبوناً إلى البيت. غداً سوف يتكلم الجميع.

- لكن المسألة مسألة ليلة واحدة فقط في حياتك هنا.

- فهمت ستكون مضطراً لانتظاري ساعتين أو أكثر حتى يفرغ البار نهائياً.

- سأحاول أن أفعل. هل تأخذينني معك؟

- إن عندي سريراً واحداً يتسع لشخص.

- ذلك أحسن.

كان أحمد قد شعر بثقل في رأسه من فعل الخمر. ثم أخذ يغمض عينيه ويحاول السقوط من فوق المقعد إلى الخلف. وقالت الفتاة وقد أصبحت لا تستطيع أن تتمالك نفسها من فعل الشراب:

- اذهب وانتظرني في السيارة، سألحق بك متى انتهيت. هكذا أنهي جميع الشكوك.

دفع الثمن وأمسك بالسندويش، وتوجه إلى الخارج وهو يمضغ. وكانت الريح شديدة تهب من الأقاصي. ارتعش جسمه كله فوجد نفسه يركض بصعوبة فائقة لأن قدميه لم تسعفاه. سقط فوق الثلج، ثم تحامل على نفسه وتوجه إلى السيارة، ثم أغلق على نفسه الباب وحاول أن يأكل لكنه لم يتمكن من ذلك. وشعر بيديه ترخيان السندويتش فوق فخذيه، لكنه لم يجد القدرة لإعادته إلى فمه. وأخذ يشخر بصوت مرتفع عندما شعر بالدفء، وتدلى رأسه إلى الأمام، في حين كانت الفتاة قد بدأت تسقط الكؤوس بين قدميها في البار. ولم يبقَ هناك سوى زبون واحد مخمور.

القوة والعجز

كان عنده وهم بأنهم هنا. حوله، مبثوثون في كل مكان. معلقون فوق غصون الأشجار، وداخل نباتات الكيف، حتى المكان الذي كان يرقد فيه دائماً، شكّ فيه مراراً. لذلك غيّره أكثر من ليلة، أكثر من يوم. أما الليلة فقد أصبح عنده وهم حقيقي بأنهم يطاردونه. وتصور أن الغابة كلها تصرخ باسمه. لم يكن وهماً ذلك الذي سمع قبل لحظات: حديثاً بين مجموعة رجال. وحاول أن يقنع نفسه بادئ الأمر أنهم مجرد سكارى أو لصوص جاءوا ليختفوا في الغابة. لكنه طرد ذلك التصور من ذهنه، خصوصاً أن الأصوات بدأت تقترب، أصوات جادة في البحث عن شيء. كان حافي القدمين. وعندما كانت أشياء مدببة تخزّه، كان يحاول أن يقمع تلك «الآي. . .» في داخله.

الأضواء تظهر من بعيد، ومن قريب كذلك. أضواء الفيلات والبارات والمراقص والأوتيلات. وكان أشدها لمعاناً ذلك المنبعث من مرقص ومسبح، يعرفه جيداً، إلا أن الأضواء كانت تختفي أحياناً، عندما يجد نفسه وسط دغل كثيف. الأصوات الجادة، والخطوات الجادة التي تبحث عن شيء لا تزال تتعقبه. وفكّر أن تلك نهايته حقاً. وخاف أن يضيع الطريق للخلاص منهم. مشى وجرى ولهث، وتعثر أيضاً، ومرة أخرى تعثر ووقف وجرى ولهث.

أحس أن العالم من حوله يحاصره حصاراً لا فكاك منه والتمع الضوء من جديد. هذا الضوء يكون خطراً بالنسبة إليه. خصوصاً أن الدوريات غير معدومة في الشوارع والأزقة. صارت الأصوات بعيدة الآن. ثم انعدمت نهائياً. ولكنه لم يطمئن. هل تكون مجرد حيلة تنطلي عليه؟! كم من الحيل انطلت على كثير من أمثاله. (الإنسان هو الذي يأخذ درساً مما فات). لكن الدورس - للأسف - غير متشابهة، والناس غير متشابهين. وأخذ يركض من جديد، وأعتقد أن سيولاً من الدماء تنفجر الآن من قدميه الحافيتين. تحمل كل شيء مع ذلك. حتى الجراح تندمل، المهم هو النجاة بالنفس. يمكن للإنسان أن يعوِّض كل شيء فيما بعد. صار وسط بقعة ملتمعة. ظهرت الأضواء بوضوح هذه المرة، من النوافذ، في الفضاء. وفي أمكنة أخرى لم يحددها. عيناه غطاهما عرق غزير يهطل من جبهته. أصبح جسده كله بللاً في بلل. كم هي كبيرة هذه الغابة! كم هي شائعة! تجاوز الأشجار، لكن الأصوات كانت أمامه، الأصوات الجادة، والخطوات الجادة الباحثة عن شيء حقيقي. الأمر إذن لا يتعلق بوهم. ثم رجع أدراجه، لحسن حظه أن أحداً لم يرَه، هذا على الأقل في اعتقاده. جرى كالمجنون ولهث وتعثر وتوقف. لم يكن جسده تحت تصرفه. كان ملك قوة أخرى لا يعرفها، هي التي أعطته كل تلك الانطلاقة وذلك الاندفاع. وقال إن في إمكانه أن يجري حتى إلى ما لا نهاية. وكان بالفعل يجري نحو اللانهاية. ووجد نفسه وسط طريق خالٍ ووراء الطريق البحر الممتد في الليل، كان البحر يعكس عالم الليل كله. عبر قفزاً حاجزاً حجرياً قصيراً، ودلى نفسه في حفرة رملية سحيقة. واستمع إلى نبضات قلبه العنيفة التي غطت جميع الأصوات. وأخذت هذه النبضات تهدأ قليلاً قليلاً، وفكّر لو بقي وسط الغابة، وظلَّ يركض

ويركض. أما الآن فلا أمل. ليس هناك سوى البحر بعمقه، البحر الذي يكشف كل شيء. سمع محركات تهدر خلف الحاجز. كانت السيارات تجري بسرعة فائقة. وحاول أن يتحامل على نفسه كي يقف، كي يغادر الحفرة، لكنه لم يقوَ. وقال إن ذلك هو عجزه النهائي. ونبش في الرمل لكي يقبر نفسه هنا. وبدا له ذلك عبثاً. لقد تركوا له الفرصة ليفعل ما فعل. وها قد أصبح - من غير شكّ - لقمة سائغة بين أيديهم. وانتفض بقوة، وتشبث برمال الحفرة. أطل من فوهتها فرأى الزبد الأبيض يتلاشى من ناحيته، ورأى حفيرات صغيرة مملوءة بالماء تلمع، موزعة في كل مكان. قفز من الحفرة ومشى منهكاً على الشاطئ. وبدت له الغابة قريبة. ما عليه إلا أن يركض ويتجاوز السياج والطريق حتى يجد نفسه وسطها، ثم شعر أن جسده تدفعه قوة غريبة للجري. وأخذ يركض. قفز فوق السياج. ومرت سيارة غريبة بسرعة في اتجاه المراقص والفيلات والأوتيلات. لم ينتبه صاحبها إليه. لكنه لم يصدق عينيه. رآهم عند حدود الغابة. كانوا خمسة أو ستة أو ألفاً لا يدري. وقف مشدوهاً وسط الطريق أول الأمر. فرك عينيه حتى يتأكد من أن الأمر لا يتعلق بوهم. كان حقيقة. تأكد من ذلك. وأصاب جسده وهن كبير. ركبتاه شلتا. لكن القوة نفسها عادت إلى داخلهما من جديد. هزتهما بعنف، ورمت بجسده جهة البحر. أخذ يجري ويجري. وسمع صوتاً من ورائه يناديه أن يقف. لكن ذلك لم يكن في مقدوره. تصاعد لهاثه وجرى فوق الشاطئ لا يدري إلى أين. كانوا وراءه يركضون ويلغطون. وكان الفضاء من حوله يردد: «قف ففففف. . .» إلا أن أذنيه كانتا صمّاوين. سمع طلقات رصاص ولم يصدق أنه المعني بذلك. سمع زنزنة وصفيراً حول أذنيه، وبين فخذيه. اخترق شيء ما قدميه عند الركبتين، تعثر وسقط. حاول

الوقوف لكنه سقط. وسمع أخيراً زنزنة تنطفئ عند قدميه اليمنى. وأحسن بأن أشياء تنغرس في جسده. سقط على وجهه في التراب. امتلأ فمه باللعاب والرمل والماء. وكان تنفسه يخف شيئاً فشيئاً قبل أن يدركوه. ومع ذلك، كان يتساءل هل حقاً هو المعني بالأمر.

موسم زيارة السيد

توقفت الشاحنة عند حافة الطريق، فقفزت حليمة خوفاً في مكانها، وكذلك فعل أطفالها الثلاثة. أما الهادي فقد فتح باب الشاحنة قرب السائق، ونزل إلى الأرض وهو يضرب الباب بعنف حتى أحدث فرقعة قوية غضب لها السائق لكنه لم يعبِّر عن ذلك بالكلام أو الاحتجاج. ثم فتح السائق الباب الآخر ونزل من الجهة الأخرى بعد أن أخرج رأسه وأطل ليرى فيما إذا كانت هناك سيارة أخرى قادمة. ومشى الهادي من الجهة اليمنى، بينما مشى السائق من الجهة اليسرى. وعندما أصبح الهادي عند مؤخرة الشاحنة صاح بصوت مرتفع على حليمة فأجابته على الفور ووقفت لتطل عليه برأسها.

قال الهادي:

- أيقظي الأطفال.
- لم يناموا
- طيب، هيئي نفسك باش تنزلي.

رأى الهادي السائق من الجهة الأخرى، وهو يتجه إلى الحفير. الليلة مظلمة، وليست هناك أصوات، خشخشات وأنّات تبعثها حشرات صغيرة قادمة من وسط الأشجار. دخل السائق وسط الأشجار القريبة من الطريق وأخذ يبول واقفاً. ولما رأته حليمة

أخفت رأسها مخافة أن يهوي عليها الهادي بصفعة من يده. ولما انتهى السائق من ذلك التفت إلى الهادي وقال له وهو لا يزال يشد أزرار سرواله:

- اصعد ودل أبناءك وزوجتك ومتاعك. إني متعجل، فالطريق لا يزال أمامي طويلاً إلى وجدة. يجب أن أكون هناك قبل السادسة مساء غداً.

وضع الهادي يديه على حافة الشاحنة وأراد أن يصعد، لكن فكرة ألحت عليه، وسيدلّي زوجته لكن من سيساعدها على النزول. وتخيّل السائق وهو يضع كفّيه على خصرها ويساعدها على الهبوط إلى الأرض، برد الدم في جسده وقال:

- حليمة.

- نعم.

- انزلي أنت. اتركي الأطفال سأصعد إليهم.

وافقت حليمة وألقت بشربيلها أولاً. أمسكت بحافة الشاحنة ورفعت رجلاً ثم أخرى، وعندما تعلقت في الظلام على حافة الشاحنة، أدركها الهادي ووضع يديه على مؤخرتها، ثم على خصرها وساعدها على النزول. ذهبت وجلست متكئة على شجرة. شعرت بألم لأنها جلست على عود ناتئ، أو جذع صغير. غيّرت مكانها وأخذت تتنفس بصعوبة وبسرعة كما لو كانت قد اجتازت مسافة طويلة جرياً، وعلى الفور، قفز الهادي إلى الشاحنة، بخفة ومهارة، وجد أطفاله الثلاثة واقفين ينتظرون بخوف تحت ظلام الليل. تحدث إليهم ودلاهم واحداً واحداً للسائق. اتجهوا مباشرة إلى أمهم وقرفصوا بالقرب منها وهم ينظرون إلى ما يفعله أبوهم والسائق، أخذ الهادي يدلّي للسائق في الظلام رزم الأغطية والثياب ثم حقيبة قديمة مهترئة. ثم في الأخير رزمة كان داخلها على ما يبدو أوانٍ

معدنية، لأن السائق عندما أمسك الرزمة رنّت الأشياء داخلها، وسمع كذلك صوت كؤوس زجاجية. وفكر في كون هذا الرجل معتوهاً حقاً. إنه يضع الزجاج في رزمة دون أن يعرف أنها ربما تعرضت للكسر.

ركب السائق وأدار المحرك فانطلقت الشاحنة في الطريق. ووقف الهادي أمام زوجته ويداه على خاصرتيه. قال الهادي:

- بعد قليل سيطلع الفجر. ما رأيك، هل نمضي الآن، أم نترك ذلك حتى يطلع الفجر؟

لم يكن لحليمة رأي قار. لذلك قالت له أن يفعل ما يشاء، فجلس إلى جانبها، واتكأ بدوره على جذع الشجرة. وكان الأطفال الثلاثة بين اليقظة والنوم. وفي الأخير ناموا، وجد الأول الدفء في حضن أمه، بينما أرخى الثاني والثالث رأسيهما على فخذي أمهما، أخرج الهادي سيجارة وأخذ يدخّن، قالت له حليمة:

- يجب أن تنهي هذه العلبة.

- سأنهيها.

- ليكن ذلك الآن. قبل طلوع الفجر، لا يمكن أن يراك أبوك بالسيجارة أو يشم فيك الرائحة، إن ذلك حرام.

- أعرف، على كل حال لم يبقَ سوى خمس سجائر، سأدخنها قبل طلوع الفجر، لكني لا أعرف كيف أقضي هذا الأسبوع من دون تدخين.

قالت حليمة وهي تمسح مخاطها في ثوبها:

- افعل مثل أخيك عباس، إنه لا يدخن.

- لا أستطيع.

- تستطيع لو كنت رجلاً.

- أنا رجل.

- سوف نرى فيما إذا كنت ستصبر هذا الأسبوع من دون تدخين.

كان الهادي يدخّن وينظر في السيجارة، يتأملها كما لو كان محكوماً عليه بالإعدام. سيترك التدخين طوال أسبوع لأن أباه لا يمكن أن يراه وهو يدخّن، ورغم أن أباه لا يصلي ولا يصوم أحياناً مع كبر سنه، فإنه يعتبر التدخين حراماً مثل تناول الخمر. ولذلك الهادي سيكون مضطراً طوال أسبوع الزيارة إلى أن يتخلى عن التدخين شأن السنوات الماضية. بالنسبة إليه هو يصوم عن التدخين مدة الأسبوع. حتى في رمضان فإنه يبيح لنفسه أن يدخّن أحياناً، لكن خفية من الجيران، لأنهم إذا اكتشفوه يرجمونه ويلعنونه، ويقرأون عليه اللطيف في الجامع. وسيصبح بعد ذلك الشخص غير المرغوب فيه. لقد كانت حليمة تحذره دائماً من التدخين في رمضان خصوصاً أيام الآحاد، عندما لا يذهب إلى القاعدة الجوية. أما في باقي أيام الأسبوع فهي لم تكن تعرف كيف كان يستطيع أن يدخّن. وقد سألته مرة فقال الهادي إنهم جميعاً يدخنون. إن العمل مرهق وجسمه لا يحتمل ذلك. وأخذت تفكر حليمة الآن في هذه المشكلة العويصة: هل يستطيع الهادي أن يصوم عن التدخين مدة أسبوع كامل؟ في الواقع، إنه لم يكفّ عن التدخين حتى هنا في السنوات الأخرى الماضية، كان يعتزل مع أصدقائه في مكان ما ويدخّن. المهم هو أنه لا يدخّن أمام أبيه، وكذلك، المهم أن يحلق رأسه في هذا الأسبوع ويضع طربوشاً أحمر. فأبوه أيضاً لا يمكنه أن يحتمل رؤية رأسه وفوقه شعر كثيف مثلما يفعل النصارى.

جعل الهادي ينظر في الظلام مفكراً في الغد القريب، كانت هناك أصوات بعض الحشرات وراء الأشجار المجاورة. ومرت إذ ذاك شاحنة في الطريق أمامهم فنظر إليها الهادي، كانت الشاحنة التي

مرت أمامهم شاحنة عسكرية أميركية. ولم يتمكن الهادي من رؤية سائقها رغم محاولته ذلك. الظلام في المنطقة يقف حاجزاً دون كثير من الأشياء.

أخرج الهادي سيجارة أخرى وأشعلها وأخذ يدخّن بلذة كبيرة، نقل يده اليسرى إلى عانته وبدأ يحك بأظفاره الطويلة، كانت حشرات كثيرة متعددة في شعر عانته تدفعه إلى أن يفعل ذلك. ورغم أنه ذهب إلى الحمَّام أول أمس، فإن الحشرات لا تزال ترعى بحرية في حقل من الشعر كثيف، وهذا يؤلم الهادي كثيراً ما يدعوه إلى أن يحك لاعناً هذه الحشرات الصغيرة التي ليست قملاً ولا برغوثاً، ولكنها حشرات صغيرة تلتصق بجذور الشعيرات فلا تتركها إلا بعد أن تمص كل الدماء الموجودة في مكان التصاقها. وكانت حليمة تعرف أنه يعاني من الحشرات الكثيرة، لذلك قالت عندما رأته يحك بعنف في الظلام إلى جانبها:

- لا تزال تحك؟

- نعم.

- حك إذن. قلت لك مئة مرة احلق تلك الغابة من الشعر ونظف نفسك، لكنك عنيد، وقلت لك مليون مرة ضع قليلاً من الكاز ولكنك ترفض دائماً ولا تسمع إلا ما يمليه عليك عقلك الأهوج.

- إنك لا تعرفين شيئاً. لقد قال لي الطبيب الأميركي في القاعدة ألا أحلق شعر العانة، لأن بقاء الشعر يزيد في همّة الرجل.

وفكرت حليمة أن ذلك غير صحيح فهمته لم تزدد هذه الأيام الأخيرة، بل إنه كان يعطيها بظهره وينام دون أن تستيقظ فيه شعرة، وما هكذا يجب على الرجل ذي الهمّة أن يفعل.

وقال الهادي:

- فيمَ تفكرين؟

- في لا شيء.

سيطلع الفجر قريباً. هل تعتقد أن أباك يكون قد حطّ رحيله قبلنا.

- أعتقد أنهم عندنا يسبقون الموسم بيوم أو يومين. ذلك يكون أحسن لأن المتأخر لا يمكنه أن يجد مكاناً يبني فوقه قيطونة.

- هل يكون أباك قد بنى القيطون هذا العام قرب السيد؟

- تلك عادته، فمنذ سنوات وهو لا يبني قيطونه إلا قرب السيد. إنه يريد أن يتبرك به حتى يزداد محصوله كل سنة. ولكن للأسف لم يزدد هذا المحصول طوال سنوات. فأبي كما تعرفين مبذِّر.

- أعرف ذلك. إني لأتساءل كيف أن رجلاً مسناً مثله لا يزال يصر على الزواج.

- أنا أيضاً أتساءل عن ذلك. وها هو الآن قد تزوج تلك القرعاء، وهي أصغر منه بكثير، بل إنها تصغرني بعشر سنوات. إن سيدي الكامل لا يساعد رجلاً مزواجاً مبذِّراً. ولكن رحمته مع ذلك قوية وواسعة.

وعندما كان الهادي يتكلم، كانت حليمة قد غطّت في النوم، تركها الهادي تنام مثلما فعل أطفاله الثلاثة، وفكّر هو أن ينهي هذه السجائر المتبقية قبل طلوع الفجر. بعدها سيمضغ بعض وريقات من النعناع ليطرد الرائحة. حتى إذا ما عانق أباه فلن يشم فيه رائحة التبغ. كانت حليمة قد ارتخت بتأثير التعب الذي دبَّ في جسدها، لأنها لم تنم طوال الليلة. حاولت ذلك فوق الشاحنة ولكنها لن تستطيع مع الاهتزاز الكثير فوق الطريق، وحديث الأطفال وتساؤلاتهم عن أشياء عديدة لا علاقة لبعضها ببعض. كان الهادي

يدخّن، ويسابق شبحاً وهمياً في التدخين، شعر هو الآخر أن إلنوم قد بدأ يستغفله، رغم السيجارة التي كان يعتقد أنها تنبّه دماغه، وقال على الفور:

- لا تنامي لأن الفجر يقترب.

قالت حليمة مغمضة العينين:

- لم أنم، عندما يحل الفجر أيقظني. دعني أتكئ.

- استيقظي الآن. ستنامين عندما نصل إلى السيد.

- لقد وصلنا.

- أقصد عندما نصل القياطين، هناك يمكن أن تنامي يومين متتاليين.

- أسكت ودعني أنام لقد جئت للسيد لأزوره لا لأنام يومين متتاليين.

- وعندما كان الحديث يدور بينه وزوجته استيقظ أكبر الأطفال الذي كان يبلغ الثالثة عشرة، والذي لم يكن يفهم ما يقوله أبواه تماماً لنقص في عقله. لم يكن ذلك الطفل سوياً. أخذ ينظر في وجه أبيه. حاول أن يتبيّن ملامحه لكنه لم يتمكن. وأخذ ينظر في الحمرة المتوقدة بذيل السيجارة، وتلهّى كثيراً بالنظر إليها كلما رفع أبوه يده إلى فمه. وقال الطفل لأبيه:

- أبي، هل نصل اليوم إلى السيد؟

قال الهادي:

- الآن، بعد قليل جداً عندما يطلع الفجر.

- يكون هناك جدي؟

- نعم، لقد بنى قيطونه بالقرب من السيد. وسيتمكن هذه المرة من الإقامة بالقرب من القبة مباشرة.

لم يعد الطفل يحاول أن ينظر في وجه أبيه، بل اتجه بنظراته

إلى الظلام الواسع، وفي النهاية أغمض عينيه ووضع رأسه على فخذ أمه وفعل أبوه الشيء نفسه إلى أن طلع الفجر. فاستيقظت حليمة أولاً وأيقظت الجميع. كانت أمامهم بعض المواشي متفرقة في حقول قريبة منهم. وتبيّنوا الحفير الذي كان يوجد تحت أقدامهم به ماء راكد لا يجري، وأن هناك ضفادع صغيرة تقفز، وتفتح أفواهها على حافة الحفير في الماء. تثاءب الهادي فتبعه الكل. فعلوا الشيء نفسه ومسحوا بعض الندى الذي تساقط على وجوههم ورؤوسهم.

وقف الهادي وتمطّى بعيداً منهم جميعاً، وذهب الطفل الصغير وأمسك بسروال أبيه الكاكي. لم يكن هذا السروال مرقعاً، ولكنه نظيف رغم أنه قديم ومستعمل.

ويبدو أن الطفل كان معجباً بسروال أبيه، فعندما أمسك به لم تفارقه عيناه. وظلَّ يتأمله، فتشت حليمة في رزمة أخرجت منها قطعة خبز قسمتها إلى ثلاث قطع، أعطت لكل طفل نصيبه، ونادت على الهادي وهي تنظر إلى قامته من الرأس إلى القدمين.

قال الهادي:

- هل أصعد إلى الفوق لآتي بعربة كارو، أم نحمل هذه الرزم على أكتافنا ونمضي إلى السيد؟

أجابت حليمة:

- أعتقد أنه لا داعي للإتيان بعربة كارو. لماذا التبذير؟ إن بإمكان الأطفال أن يتمشوا قليلاً.

- أمامنا كيلومتر ونصف.

- نمشي ونستريح، إذا ما تعب الأطفال، على كل حال، فإن ذهابك إلى السيد وإتيانك بعربة كارو سيكلف وقتاً طويلاً.

ووضع الهادي الرزمتين على كتفه، وناول رزمة إلى حليمة. وأمر الأطفال أن يتهيئوا للسير على الأقدام قليلاً، وحاول المعتوه أن

يساعد أمه في حمل الرزمة عنها، رفضت وطلبت منه فقط أن ينتبه قبل أن تصطدم قدمه بحجر فيسقط، وقال الطفل إنه سينتبه وسيمشي أطول مسافة ممكنة. وقال الآخران إنهما يستطيعان أن يفعلا مثله.

قالت حليمة:

- هل تعتقد أن القرعاء تكون قد استيقظت الآن؟

- اسألي أولاً فيما إذا كانت قد حضرت مع أبي إلى السيد؟

- إن ذلك لا يدعو إلى شكّ. ماذا ستفعل في بني يسف إذا لم تحضر إلى سيدي الكامل؟

- لا أدري. ولكن تلك القرعاء تريد أن تعاكس أبي. وقد حكوا لي أنها تضربه أحياناً.

- إنه رجل وإذا تنازل عن رجولته فليس ذلك من شأنك. دعه وشأنه، لتفعل به زوجته ما تشاء.

قال الهادي وهو يحرك الرزمتين فوق كتفيه:

- إنه كبير السن ولا يقوى على جدعة مثلها. أنت تعرفين أبي ولا شكّ.

قالت حليمة:

- لكنه هو الذي اختار الزواج منها. أنا زوجة ابنه أكبر منها سناً.

- أبي، اللّه يهديه، إنه يحب النساء.

كانت العائلة قد تسلقت مرتفعاً، بحيث لم تعد تظهر الطريق خلفها، كانت بعض الأشجار منتشرة وراء سياج حديدي تغطي الطريق بالمرّة. ولم يكن هذا يمنع من سماع هدير شاحنة بعيدة في الطريق. رأى الجميع القياطين منتصبة تحت أشعة الشمس، ورأوا كذلك عدة خزانات نصبها الأعيان على مقربة من قبّة السيد. وقال الطفل المعتوه عندما رأى القياطين:

- أبي، انظر، لقد وصلنا.

قالت الأم:

- ستحاولون أن تكونوا مهذبين، إن جدكم لا يحب قلة الأدب.

وبدأوا يقتربون من القياطين شيئاً فشيئاً، ويبدو أن الناس لم يستيقظوا بعد، إذ لم يكن هناك صوت ينبعث من أي مكان تقريباً، أما القياطين فقد أخفت قبّة السيد.

لم تكن القرعاء قد جاءت بالفعل كما توقع الهادي. وقد تألم لذلك، لأنه تصور أباه على كبر سنه، وهو يشتغل في نصب القيطون، وترتيب بعض الأشياء، وقال الهادي لزوجته عندما وصلا على الفور:

- هل رأيت، إن القرعاء لم تجيء مع أبي، وهي تتشفى فيه.

قالت حليمة:

- إنه يريد ذلك، ويتعلق بها أكثر مما يتعلق بظله.

لا يهم، لكن اذهبي وتكلفي بشؤون القيطون، اغسلي الأواني ورتبيها وهيئي الفطور.

قالت حليمة:

- إن القرعاء ستصل عشية اليوم. تلك هي عادتها. فهي تتهرب من اليوم الأول في السيد، لأن الأشغال فيه تكثر بشكل لا يتصور.

قال الهادي:

- في الواقع ليست هناك أشغال. ولكنها تفعل ذلك لأبي العجوز وتودُّ فقط أن تتشفى فيه.

- لا تقل هذا الكلام، لو أرادت أن تتشفى فيه لتركته بسهولة إلى مكان آخر.

- أين تتركه؟ لا تجد الدفء إلا عنده. ألم تذهب قبل ثلاث

سنوات لا يعلم سوى الشيطان إلى أين، لماذا عادت؟ لأن الآخرين يرفسونها بأقدامهم.

- لا تقل هذا الكلام.

- كيف لا أقوله؟ إني لا أريد لأبي أن يتزوج قحد... ولكن هو، ماذا أقول له؟ ماذا يمكن أن يقول ابن لأبيه؟ أنت تعرفين أني لا أكاد أرفع حتى عيني في وجهه. إنه لو لم يكن يريدها بالذات لاستطعت أن...

قالت حليمة وهي تنظر إليه في غضب.

- أعرف ماذا تريد أن تقول. أصمت يكون ذلك أحسن. تريد أن تزوجه، أليس كذلك؟

- لِمَ لا؟ إني لا أريد لأبي الطاعن في السن أن يتزوج قحد... الكل يتحدثون عنها، بل عني.

- لا تهتم لهذا.

وسكتت حليمة، ثم بعد برهة قالت مستهزئة:

- يتكلمون عنه كما لو كان قايد أو باشا. إنه مجرد فلاح فقير، دعه وشأنه، اتركه للقرعاء واهتم بشؤونك فقط.

كانت القياطين قد استيقظت الآن، وبدأ اللغط والضجيج يتصاعدان في الفضاء، وغادر الهادي باب القيطون، نظر حواليه ثم عاد إلى حليمة:

- هيئي الفطور. وإذا عاد أبي قولي له إني لن أتأخر.

وتوجه وسط القياطين، يخترق الممرات التي تفصلها. اتجه نحو الساحة الكبيرة حيث بدأت الاستعدادات لعرض الحلوى والعطور. وكان بجانب الساحة صف من بائعي الإسفنج. وقد تربّع كل واحد منهم خلف مقلاته السوداء المزفّتة. فكر في أن يشتري كيلوغرامين من الإسفنج ولكنه عدل عن ذلك وتوجه إلى قبّة السيد

ليتبرك به. واجتاز الساحة، وسار وسط القياطين ليبلغ القبّة. وتصور أن هذا العام يختلف من باقي الأعوام السابقة. عندما كان صغيراً مثلاً، كان السيد يبدو له أكبر من إله. وكان يخافه كثيراً، أما الآن وهو يتجه إلى القبّة فلم يكن يراوده الشعور نفسه الذي راوده وهو صغير، كل شيء يتغيّر حقاً، فكر، لكنه لا يزال يخاف من السيد، والمهم أن فيه رائحة شحم من الرسول. كانت أمه المرحومة عندما تصاب بمرض، لا تؤمن بطبيب أو فقيه أو أي كان، ولكنها كانت تؤمن بسيدي الكامل، فقبل أن تتوفى، في اللحظات الأخيرة وهي على فراش الموت، كانت تصرخ بصوت واهن متعب: «خذوني عند جدي. آي، جدي، سيدي الكامل، جدي آي»، لكن أحداً لم يستطع أن يأخذها إلى جدها قبل الوفاة، ومن يدري؟ فربما يكون جدها هو الذي أنقذها من الآلام التي عانت منها سنين طويلة، فقد قال الحاضرون لحظتها: «إن جدنا، سيدي الكامل لبّى طلبها بسرعة، وأرسل لها ملك الموت». وقد آمن الهادي وقتها بذلك الكلام، إذ أنه رأى أمه تحتضر في هدوء تام، دون أن تحرك يداً أو قدماً أو شفة. كانت تبتسم حقاً، وتنظر إليهم جميعاً بنظرات مركزة ولطيفة، ثم أغلقت عينيها وظلّت ابتسامتها مرسومة على شفتيها، ثم تحولت الابتسامة إلى لا شيء، وقِيل لحظتها:

- آه لقد أنقذها جدها، إنه كريم.

وقيل أيضاً:

- لا شكّ أن ملك الموت حمل روحها إليه الآن.

ثم سمع صراخ بعد ذلك، وبكاء وعويل، ولطم على الخدود والأفخاذ، وسقطت بعض الأجسام في هستيريا عنيفة، وتوجهت امرأة لا يتذكرها الآن إلى قول الزعبول، وقطعت جزءاً من الصبّار وأخذت تمسح به على وجهها وهي تبكي وتندب، ثم اختفت بين

الخيام. وعندما تذكر الهادي هذه الحادثة حاولت دمعة أن تنزل من عينه، لكن ذلك استعصى عليه. ومشى بخطوات ثابتة، وإن كانت متعبة، نحو السيد. كان يمشي نحو القبة وهو يشعر بإحساس خاص لا يمكن إدراكه أو وصفه، وكان عنده شعور يجمع بين القوة والضعف. ولم يكن الآن لأي شيء أهمية، فقط هذه اللحظات، ذات أهمية خاصة، ثم تردد طويلاً قبل أن يجتاز عتبة القبة. دخل بعد أن تملّك جسده استرخاء تام، وشعر أنه في مأمن من خطر تهدده في السابق. كم من الناس يتمنون الموت في حضرة السيد الذي له رائحة من شحم الرسول، كلهم تقريباً، حتى الذين يقدسون سادة آخرين في القبائل الأخرى المجاورة. إن لسيدي الكامل تقديراً خاصاً في نفوس الناس، بل أكثر من ذلك، شيء مثل الخوف والرعب ينتاب الإنسان عندما يفكِّر فيه.

مرّ يومان والمفروض أن القرعاء تكون حاضرة مساء اليوم الأول أو صباح اليوم التالي، وعندما نزل بعض الحجيج المتأخرين من بني يسف هرع إليهم الهادي ليسأل عن زوجة أبيه، واعتقد الجميع أنها سبقتهم إلى زيارة السيد، ويبررون تأخرهم بضيق ذات اليد، ولولا فلان أو فرتلان الذي أنقذهم بمقدار من المال، لما زاروا السيد هذا العام. أما حليمة فقد قالت في نفسها: إن القرعاء فعلتها حقاً. هي قادرة على أن تفعلها. ربما قد تكون ذهبت مع أحد العزاب إلى مكان ما، وقالت للهادي:

- ألا تخجل القرعاء من أن تفعل ذلك. وفي هذا الظرف بالذات؟

قال الهادي:

- لا نتقلد بذنب أحد. يمكن أن تكون مريضة.

- إني لا أثق بتلك القرعاء.

وعندما قام والد الهادي بجولة حول القياطين لزيارة الأحباب، اكتشف أن جميع الأُسَر التي يعرفها حاضرة.

واقترحت حليمة:

- إن على أبيك أن يركب أول شاحنة ويذهب ليأتي بها.

- وإذا لم يجدها.

- لا يهم، عليه أن يحاول، سوف يتكلم الناس عنه. هل سمعت برجل يزور السيد دون أن تكون معه زوجته؟

وقالت حليمة إنه إذا لم يرد أن يفهم فستقترح بنفسها ذلك على أبيه.

وافق الأب وحتحت بعض القروش في شِكارته، وقرر أن يركب أول شاحنة متجهة إلى بني يسف، لكنه لم يجدها. كانت القرعاء قد فعلتها.

القياطين كثيرة، منتشرة على مدى البصر، تحت وهج شمس حارة، وصراخ الباعة وأهازيج المجاذيب، كل هذه الأشياء تختلط بغبار كثيف يتصاعد إلى السماء، ومن حين إلى حين تسمع طلقات البنادق تتبعها الزغاريد، وكان الهادي وأبوه مطرقي الرأس، يفكران، ولا يهتمان بهذا الجو العام الذي يحيط بهما.

قال الوالد:

- ما رأيك يا وليدي فيما فعلته القرعاء؟

لم يجب الهادي، وتمنى لو لم يكن أبوه معه لذهب واشترى سيجارة ودخّن في تأمل، وفكر بجد في المسألة، رفع رأسه، ونظر بعيداً في النهر المنساب بين الأشجار. بعض الأطفال العراة كانوا يتزحلقون فوق الطين، فتهوي أجسامهم في الماء مثيرة زوبعة من رشاش الماء، عندما كان الهادي صغيراً كان يفعل مثلهم، وحتى والدته المرحومة كانت تفعل الشيء نفسه، إنه لا يزال يتذكر أجساد

الكثير من النساء عارية، وهن يرششن بعضهن بالماء، وقد تدلت نهودهن، والتصقت شعورهن بأجسادهن السمراء المكتنزة.

رفع الوالد رأسه ونظر حيث كان ينظر الهادي، ثم وقف الأب بتعب، وتمشّى منهكاً تحت شجرة تين قصيرة، لكن الهادي خرج على الفور من شروده، والتحق بأبيه:

- ماذا نفعل للقرعاء إذا كانت تفضِّل الهروب؟ ألم تكن تعرف في السابق أنها خفيفة الرِّجل؟

- كنت أعرف، لكنني لا أستطيع أن أعيش وحدي، لذلك تزوجتها. لكن ما يهمني اليوم هو كيف أستطيع أن أواجه الناس، كلهم سيتحدثون عني، وسيقولون هربت وتركته، هل تقدِّر هذا العار؟

- إني أقدّره، خصوصاً أنها أصغر منك.

فكّر الهادي أن ينزع عنه ثيابه وينزل إلى النهر مثلما يفعل كثير من الرجال والنساء وأراد أن يقول ذلك لوالده. إلا أنه عزف في نهاية الأمر. ورأى دمعات تترقرق من عيني أبيه وقال الهادي:

- تبكي من أجلها. ألست رجلاً؟

- إني لا أبكي من أجلها، ولكن من أجل الفضيحة، أنت لا تقدِّر ما سيقوله الناس.

وقال الهادي:

- لا يهم الآن، سوف نحاول أن نجد حلاً فيما بعد، عليك ألا تهتم للأمر كثيراً.

وأمسك بغصن صغير لشجرة قريبة منه، كسر الغصن فأحدث طقطقة قوية، ورأى الأطفال لا يزالون ينزلقون الواحد تلو الآخر إلى الماء، واشتدت فيه الرغبة في السباحة مرة أخرى، لفت نظره امرأة وقد عرّت نصفها الأسفل وأخذت تقضي حاجتها في الخلاء تحت تينة قصيرة مظللة. أحنى رأسه واقترح على والده:

- علينا أن نعود إلى القيطون، سوف نناقش المسألة فيما بعد.

ويبدو أن أباه لم يسمعه، ولكنه عندما مشى باتجاه القياطين تبعه والده العجوز. الغبار مرتفع، والشمس حارة ورائحة البارود وأشياء أخرى، والقياطين لا يحدّها بصر، كل شيء على ما يرام إلا افتقاد القرعاء، ولماذا اختارت بالضبط هذه المناسبة المقدسة لتفعل فعلتها؟ واقترح الوالد وهو يسير بمحاذاة الهادي:

- ما رأيك لو تشوف فقيه؟

- لماذا؟

- أو شوافة؟

- إن ذلك لن تكون له جدوى.

- يمكن أنها سقطت في بئر، أو وقعت لها حادثة من هذا النوع.

- ولماذا لا تكون قد فرّت مع رجل آخر؟

ورغم محاولات الوالد العجوز المتعددة لإقناع ابنه بأنها لم تفر مع أحد، فإن هذا الأخير لم يقتنع، واقترح أن الحل عنده، ولكن ليس الآن وقته، إن تجنب الفضيحة ممكن، بل أكثر من ممكن، سينتظر حيث ينتهي موسم الزيارة، وبعد ذلك يأخذ أباه معه إلى المدينة الصغيرة، حيث يستطيع أن يقيم معه عدة شهور، حتى يتسنى للناس في بني يسف أن ينسوا الفضيحة، وألا يعود إلّا في موسم الحرث ليحرث أرضه إذا بقيت لديه القدرة على ذلك.

كانا يمشيان وسط الغبار الكثيف دون أن يتكلما، اجتازا قبّة السيد حيث تجمّع عند بابها أجساد مكومة كثيرة لمتسولين فقراء، وكادا أن يضيِّعا الطريق إلى قيطونهما.. لكن الابن المعتوه أمسك بجلابيب الهادي:

- أبي، أمي تبحث عنك.

لم يرد الهادي عليه بل سبق أباه إلى القيطون، عندما رأته حليمة أسرعت إليه منفعلة مضطربة:

- لقد فعلتها القرعاء.

- ماذا؟

- لقد فعلتها، على أبيك ألا يعرف شيئاً وإلا قتل نفسه.

تلفّت الهادي ليجد والده جالساً بعيداً من القيطون، ينظر إلى الأفق البعيد.

قال الهادي:

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- هل تتصور هذا، أبوك متزوج بقحه.. لقد أخذوهما معاً.

- من؟

- لقد فعلتها، ضبطها رجال الجندرمة وهي تحت ولد عيشة.

فكّر الهادي، وتمشى بعيداً من حليمة، الآن بدا له أن عليه أن يقترح الحل على أبيه حتى لو لم ينتهِ الموسم بعد.

- الناس لا شكّ بدأوا يعرفون هنا، وقال لنفسه:

- نيّة سيدي الكامل.

لكن ذلك فوق الاحتمال

شمَّ رائحة البصل من وراء المطبخ، بين الضلفتين. ثم ظهرت يدان نحيفتان، جميلتان. وظهر بعد ذلك جزء من جسم طويل، نحيف هو الآخر كاليدين. لمح (م) الابتسامة الخجول النهمة على وجه المرأة. ثم قفزت عيناه فوق ثنايا الثوب الذي يظهر الجسم تحته متشكلاً.

قالت المرأة:

- أعتذر عن هذا التأخير.

قال (م) وهو يحني رأسه، ثم يرفعه لينظر في عينيها مباشرة:

- أوف، لا بأس.

- نستمر في الحديث أعتقد، لقد وضعت شيئاً من البصل في المرميطة.

- نستمر. لكن أين الطفل؟ لقد نسيت أن أسأل عنه.

- إنه في الروض. هل تعرف ذلك؟ لقد كبر.

- حقاً؟!

- أوه.. أصبح رجلاً. بعد سنتين يمكن أن يلتحق بمدرسة ابتدائية.

- سأكون فخوراً بمعرفة هذا الشاب الجديد في العائلة.

ثم ضحكا وكفّا عن الضحك في لحظة واحدة تقريباً. ورأى (م)

أن الثوب رهيف جداً يكشف أشياء كثيرة من جسد السيدة. ألقت هي بنظرة خاطفة على جسدها واعتدلت من جديد في وضعها. أطرق (م) وأمسك بفنجان القهوة وقرّبه من شفتيه ورشف رشفة قوية نشرت الصخب في أرجاء الغرفة. قرّبت المرأة يدها من الطاولة الصغيرة وتناولت كأسها، فرأى (م) نحافة يدها ورقتها وجمالها. تتبّع يدها وهي تنقل الفنجان إلى شفتيها الجميلتين. قالت السيدة بعد أن ردّت الفنجان إلى مكانه:

- قلت لك لماذا لا تكثر من زيارتنا؟ منذ متى لم تزرنا؟
- ستة أشهر أعتقد.
- إن هذا لا يليق بأصدقاء. حسن يسأل عنك مراراً.
- أعرف ذلك.
- تعرفه وتتجاهله. إنك قاسي القلب ومتحجّر العواطف.
- أبداً.
- أعرف.
- لا تعرفين شيئاً. زوجك صديقي وأنت أكثر من زوجة صديقي.
- أخت مثلاً؟!
- أكثر من ذلك.

ضحكا مرة أخرى بانفعال. حرّكت المرأة رجليها فوق الكنبة المقابلة للرجل. انزلق الثوب قليلاً فاستعذبت المرأة ذلك. قالت:

- هل تعرف؟
- نعم.
- إن حسن لم يعد كما كان. كما كنت تعرفه.
- ستة أشهر لا تغيره، بل لا حتى أعوام.
- حقاً، لكنك لا تدرك ما أقصد.

- تكلمي بصراحة.

- إنه يسافر كثيراً. هل تدري أين يوجد الآن؟

- لا.

- يوجد قرب أوكايمدن. إن المرأة التي تتزوج مهندساً أو جندياً هي أتعس النساء.

- لا يمكن أن نعمم.

- أقول ذلك عن تجربة. ماذا جنى من شهاداته العليا في الهندسة؟ لا شيء سوى التنقلات.

- الحياة صعبة وليست سهلة بالشكل الذي يتصوره الإنسان.

- لكن لماذا لم يختر مهنة أخرى. إنه يتركني وحدي شهراً أو نصف شهر. الطفل يحتاج إلى رؤية أبيه كل مساء، حتى الطعام لا أجد له مذاقاً. إن امرأة شابة وحيدة مثلي بلا رجل..

ثم سكتت وتحركت فوق الكنبة فظهر جسدها متناسق التقاطيع تحت ثوبها الرهيف. برزت كل معالم جسدها مغرية، شابة وحميمة، انزلق الثوب قليلاً فوق الركبتين وظهرت فجوة خفيفة. مدَّ (م) يده إلى جيبه وأخرج علبة سجاير. تناولت السيدة ولاعة موضوعة فوق الطاولة وأشعلت له. نظرت في عينيه بعمق وهي تقول:

- ألا تزال تدخّن السجائر الصفراء؟

- نعم تلك عادة قبيحة.

- أفضل ما في حسن أنه لا يدخّن.

- لكل رجل محاسنه ومساوئه.

- إن حسن يبدو بلا محاسن وبلا مساوئ. رجل وكفى. رجل ولا شيء آخر.

قال (م) وقد مدَّ يده إلى الفنجان الياباني المزركش:

- ليتني كنت مثله.

قالت السيدة:

- هل تعرف؟ إنه يقدّرك ويحترمك ويضع فيك ثقة عمياء.

- إنه أخي وصديقي. أعرفه جيداً وأفهم نفسيته. أعرفه - مع كامل الاعتذار - أكثر منك.

- ممكن.

- وهو لا يؤمن بشيء سوى العمل.

- نعم. تلك هي مساوئه. إنه يؤمن بالعمل حتى لو ضحّى بحياته الزوجية. أنت تفهم. إنه لا يعيرني أدنى اهتمام. أحياناً، لا يتذكر حتى قُبلة يقدّمها لي بعد غيبة طويلة.

- لقد أصبحت تفهمينه. لا لوم إذن عليه.

- لكن ذلك شيء فوق الاحتمال. إن لكل شيء خصوصيته.

سمعت طقطقات في المطبخ. ورأت المرأة بخاراً يغادر الباب إلى حيث يجلسان. وقفت بخفة فبرز جسدها من جديد، أكثر من ذي قبل، منحوتاً بفنية مثل تمثال. مشت جهة المطبخ فلاحظ (م) انزلاق الثوب الحريري الخفيف فوق جسدها. تخيّل أن لصوت خفيها موسيقى. استمر يدخّن بكل أعصابه سيجارته الصفراء ذات المفعول غير القوي. عادت المرأة وهي تقول:

- كم الساعة من فضلك؟

- ...

- ...

- ...

- يجب أن أذهب إلى الروض.

- من أجل الطفل؟

- نعم.

- سأوصلكِ.

- شكراً.

ثم وقفت أمامه ودون أن تنظر إليه قالت:

- هل تعرف؟ نحن منفيون هنا في أنفا العليا. إنه حي بعيد.

- أعرف ذلك. من أجل قضاء حاجة بسيطة يلزمك ركوب سيارة أجرة.

- نعم، فحتى السيارة يأخذها معه. بصراحة، لقد ندمت على زواجي بمهندس. هل تسمح سوف أغيّر ثيابي.

ذهبت واختفت خلف باب آخر. سمع حركاتها وتخيّل كل شيء. كل شيء. ثم التفت عن يساره فرأى صحيفة فرنسية. أمسك الصحيفة ونشرها أمامه فوق ركبتيه. قرأ في إطار على اليمين: «عطل نهاية الأسبوع وأيام الأعياد - رونو للحراسة - ضاحية باريس - 59-99-35». لم يفهم شيئاً من هذا الكلام. إنه إعلان ولا شكّ يهم من كان باريسياً. المحظوظين منهم بالأخص الذين يفكرون في قضاء عطل نهاية الأسبوع في مكان ما. سمع حركات المرأة وراء الجدار وأخذ يتخيّل كل شيء. كل شيء.

خرجت على الفور ولم تغيّر شيئاً من هندامها سوى تصفيفة الشعر، قالت وهي تبتسم:

- مستعد؟!

- نعم.

وفي السيارة أيضاً:

- أنت تعرف. حسن لا يفهم الحياة الزوجية. إن امرأة بلا رجل، خصوصاً امرأة في سني...

لم تنهِ كلامها بل مدّت يدها إلى الترانزستور وفتحته بلا إذن منه. شعرت بانشراح قوي وبسعادة لا تتصور. بدأت تحرك قدميها على نغمات الترانزستور. لاحظ (م) ذلك. ورأى الثوب الحريري الرهيف

ينزلق إلى الخلف قليلاً فوق فخذيها. شعرت هي بذلك وأمعنت في الاهتزاز. وعندما بلغا الروض أكّد لها أنه سيزورهم قريباً وقريباً جداً. وعندما دارت السيارة مع المنعطف تذكر (م) أنه لم يكلِّف نفسه الانتظار قليلاً لتقبيل الطفل مجاملة لأمه، ولصديقه. قال إن ذلك غير مهم. وحرَّك زر الترانزستور ليرتفع صوت الموسيقى.

بيوت واطئة

تحت ذراع الطفل علبة خشبية شكلها غير محدد، علبة قذرة عليها سواد، وعليها احمرار باهت وألوان أخرى لا يمكن تمييزها. وتبدو ذراعه التي تحتها العلبة بشكل مثلث متساوي الأضلاع. وعندما يلتفت قليلاً إلى الموظف الزائر تصبح ذراعه مثل مثلث قائم الزاوية. قد يبلغ الطفل الحادية عشرة أو الثانية عشرة ولا يبدو أكبر أو أصغر من سنه عندما لا يتكلم. أما عندما يتحدث إلى الموظف الذي لا يزال يتبعه، يخيل أن الطفل يبلغ التاسعة عشرة أو الثامنة عشرة، والواقع أنه غير ذلك.

يقول الموظف:

- كم سنك؟

- 12.

- تبدو أكبر.

- 12.

- 18.

- 12.

حاول الطفل أن يتخلص من العلبة الخشبية. لكن ذلك تعذّر عليه. رفض أحد زملائه أن يحتفظ بها، إلا أن الموظف الذي يتبعه

قال: لا بأس، احتفظ بها حتى تعود. وأجاب الطفل بأنه قد لا يعود. فأحياناً يحصل له ألا يعود. إنهم يكونون في انتظاره. ولم يسأله الموظف عمّن يكون في انتظاره. كان يتبعه فقط على بعد أمتار قليلة. وعندما يتوقف الطفل يتوقف الموظف بعيداً منه بانتظار أية حركة. لم يكن الطفل يضع حذاء. قدماه متسختان، تراكمت عليهما الأوحال، وبين أصابع قدميه كتل من السواد الذي تنبعث منه رائحة كريهة هي مزيج من إفرازات الجسد وأشياء أخرى. ويمكن رؤية الوسخ المتجمد في حفرتي العرقوب، كما يمكن رؤيته عند العنق وبالخصوص تحت نهاية الأذنين، فهناك اسوداد باهت لا يشبه اسوداد الوسخ عند العرقوب. كانت ساقه اليمنى تبدو صفراء، خالية من الدم، لأن البنطلون ممزق، بشكل جعل عضلات الساق الخلفية تظهر صفراء وعجفاء في الوقت نفسه. ولم يكن من الممكن معرفة ما إذا كانت الساق اليسرى تشبهها في الصفرة وفي النحالة. ومن يدري؟ فقد تكون عليها علامة عضة من طرف كلب مثلاً. وعندما كان يسرع في مشيته، كان الموظف يلاحظ أن الخرق المتناثرة للساق اليمنى تكاد تجعله يتعثر فيسقط. إلا أن الطفل لا يسقط رغم أن العملية تكررت مراراً، فغالباً أنه كان مستعداً لها من كثرة استعماله للسروال القذر الممزق. وعندما كان الطفل يتعثر، لم يكن يشعر بأي انفعال تجاهه. فهو يسير بالسرعة نفسها، ومن المنتظر أنه لن يتقدم إليه عندما يسقط.

دار الطفل في منعطف ضيق جداً بحيث اختفى عن عيني الموظّف. فأسرع هذا الأخير لكي يلحق به. عندما دار حول المنعطف رأى الطفل لا يزال يمشي بالسرعة نفسها وسط زحام دكاكين صغيرة مصطفة على طرفي الزقاق. جال الموظف بعينه في الدكاكين فرأى أناساً فقراء يبيعون وأناساً فقراء يشترون. واعترضت

طريقه امرأة حافية عجوز فقيرة وقالت: «سيدي، تضرب شي فال». لكنه دفعها حتى كادت تسقط. خاف أن يختفي الطفل وسط زحام الزقاق. إلا أن الطفل لم يختفِ بل كان بين قدميه، يبحث عنه بدوره. وعندما تأكد من أنه هو، تقدمه بخطوات دون أن يتكلم معه. تأكد الموظف من أنه لم يفقد الطفل، فعلّق أملاً كبيراً على ذكائه. وتبعه وهو يعتقد أنه لن يفقده حتى لو مشيا في أكبر متاهة، ذلك أن الطفل ذكي جداً. وعندما انفرجت الزحمة من أمام الموظف لاحظ أن الطفل يتعثر للمرة العاشرة أو العشرين، غير أنه لم يسقط. ثم نقل علبته الخشبية تحت ذراعه اليسرى وأسرع قليلاً في مشيته. لكن الزحام كان يعوقه، فوجد نفسه مضطراً إلى أن يسير، تلافياً لأي اصطدام، ببطء. أما الموظف الذي شعر أن شيئاً من الغبار قد أخذ يتسرب إلى عينيه وخياشيمه، فقد أخرج منديلاً ومسح شيئاً عن عينه اليمنى، ثم كوّر المنديل ولفَّ جزءاً منه حول أصبعه. وأدخل إصبعه في أنفه وأخذ يديرها. وبما أن المنديل أبيض فقد رأى الموظف أن رأس إصبعه يحمل أوساخاً بين الصفرة والسواد. ثم تمخّط وبصق على الأرض المغبّرة دون أن ينتبه إليه أحد من المارة في الزحام. وشاهد الطفل يتوقف أمام أحد الدكاكين، فتوقف بدوره أمام حانوت بيع القِفاف والسلال المصنوعة من الدَّوم. وأخذ يتأمل قفة عليها ألوان زرقاء وحمراء. وحاول أن يسأل صاحب الحانوت عن ثمنها لكنه عدل عن ذلك لأن الطفل التفت خلفه وانطلق مندفعاً في الزحام الذي أخذ يخف قليلاً، ومسح الموظف عرقاً متساقطاً من جبهته، وتنفس بصعوبة شديدة. شعر أنه في حاجة إلى شيء. لم يعرف أي شيء هو في حاجة إليه. في الأخير اهتدى إلى أنه في حاجة إلى سيجارة فأخرجها ووضعها بين أصابعه دون أن يشعلها لمدة طويلة. أخذ يديرها بين إصبعيه وهو يتابع الطفل بنظراته. مشى وراءه دون أن

يفقده بنظراته. في هذا الوقت كانت الحرارة شديدة، والسماء تبدو شبه رمادية، أميَل إلى الزرقة، خالية من السحب. أتيحت الفرصة للأشعة أن تسقط بكل ثقلها وحرارتها على الناس والأشياء. واضطر الموظف إلى أن يفتح ربطة العنق، وأن يخفف من تضييق الخناق على رقبته، فوسَّع الربطة، وأخرج المنديل ثم جفف عرقاً وهمياً.
أما الطفل فلم يشعر بالحرارة. ربما لأنه تعود هذا الطقس. لكن ذلك لم يمنع من أنه أخذ يلهث ويلتفت خلفه ويشير إلى الموظف أن يتبعه. سار الموظف وراءه في إذعان، تحت وطأة رغبة ملحّة قاسية.
وقف الطفل أخيراً أمام دكان لبيع اللبن والحليب والحليب الرائب. الناس متجمعون مزدحمون هناك. توقف الطفل طويلاً وراء الناس الذين غطّت قاماتهم كل شيء عن عينيه. وبعيداً منه، تحت سقيفة أحد الحوانيت قرب قفّات الزبيب والتين الجاف والحناء والتمر وقف الموظف وهو يراقب الطفل خلف الناس، خلف حانوت الحلاب، ثم فكّر أن يلتحق بالطفل ويطلب له كأس حليب رائب، كما يطلب لنفسه كأساً آخر. أخذ يفكِّر في ذلك، في الوقت الذي حاول الطفل فيه أن يتسرب من بين أقدام الناس. كانت محاولاته المتكررة عابثة، غير أنه لم ييأس فأعاد الكرّة، لكنه لم يفلح. وشاهد الموظف كل ذلك وعرف سببه. فاقترح على نفسه أن يلتحق بالطفل فوراً وأن يفعل ما فكّر فيه ثم رأى الطفل يثني رجله اليمنى ويقفز على رجله اليسرى قفزات إلى الخلف. لا شكّ أن أحد الناس قد داس على قدمه. ظلَّ الطفل يقفز على رجله اليسرى، محاولاً أن يعيد اليمنى إلى الأرض، وفي الأخير استطاع أن يتوفق في ذلك، ووسَّع الموظف من ربطته مرة ثانية وابتعد من تحت السقيفة. مشى نحو الطفل ونحو الناس. أدخل كتفه اليسرى وأخذ كأسين من الحليب. ناول أحد الكأسين للطفل دون أن يكلمه، بل ابتعد منه وأخذ يتلذذ بحموضة الحليب.

أنهى كأسه بسرعة، قبل الطفل. دفع ثمن الكأسين، وعاد إلى مكانه تحت السقيفة، وجفف عرقاً وهمياً مرة أخرى عن جبينه ووجهه. في حين ظلَّ الطفل خلف الناس يلتذ بكأسه وهو ينظر في المارة، كأنه يؤكد لهم أن بإمكانه، هو الآخر، رغم قذارته، أن يدفع ثمن كأس حليب. انتظر الموظف طويلاً أن يفرغ الطفل كأسه ويمضي أمامه. ظلَّ يتلذذ بشرب كأسه. وأخيراً أنهاها. سُرَّ الموظف لذلك واعتقد أنهما سيستأنفان مسيرتهما فوراً. لكن الطفل لم يفعل لأنه أراد أن يعيد الكأس إلى البائع فتعذر عليه ذلك، منعه زحام الناس فتسرب بين أرجلهم، وعاد خائباً مرة أخرى وكأسه في يده. فكّر الموظف أن يذهب وينزع منه الكأس ليعيدها إلى صاحبها فخاف من شيء لم يعرفه. وقال لنفسه إن على الطفل أن يحاول بنفسه إعادة الكأس إلى صاحبها. وحاول الطفل ذلك. غير أنه في الأخير اهتدى إلى حلٍّ طبيعي. أمسك بأحد الناس المزدحمين. فالتفت هذا الأخير غاضباً في وجهه. شاهد الموظف الرجل والطفل يتكلمان، ورأى الطفل يمدُّ الكأس إلى الرجل. أمسك هذا الأخير الكأس وناولها للبائع. فمشى الطفل دون أن يشير على الموظف بأن يتبعه. وكان هذا الأخير في أتم اليقظة فسار وراءه وسط الزقاق. ثم انعطفا في زقاق منحدر نحو البيوت التي توجد عند النهر. كان الزقاق خالياً ومترباً، وبعض الأبواب العتيقة مفتوحة أو موصدة. ثم في طرف الزقاق حمار مربوط أمام باب مفتوح لفندق. كان هناك مدخل من دون باب. مدخل متآكل عريض أفقياً وقصير عمودياً. يمكن للمرء أن ينحني لكي يدخل إلى الفندق بسهولة. رأى الموظف بعض البدويين متجمعين على الأرض فوق حصائر صفراء متآكِّلة. ورأى امرأة تُجلِسُ طفلها الصغير عند نهاية ساقيها وهو يفعل ذلك أمام الجميع وسمعها تردد كلمة تكثر فيها «ع» كأنها تشجعه على ذلك. مشى

الطفل أمام الموظف دون أن ينتبه إلى شيء. لكنه توقف عند الحمار وأخذ يتفرج على ذبابات زرقاء ضخمة وهي تصدر أصواتاً منفرة فوق الجروح النتنة على ظهر الحمار. وعندما رأى الحمار يتألم ويحرِّك أذنيه وقائمتيه الخلفيتين ضحك ومضى منحدراً نحو النهر. لاحت له مياه النهر صفراء وقوارب مثبتة عند الضفة، وأعجب الموظف الزائر للماء الذي يحف السور عند مكان معيّن، وتمنى لو يلقي بنفسه من فوق ذلك السور العتيق الذي تطلُّ من فوقه مدافع صدئة. ثم يغطس في الماء ويسبح إلى ما لا نهاية. لكن صفرة الماء لم تعجبه. مشيا في طريق طويل بمحاذاة النهر. كان الموظف لا يزال يتبع الطفل عند باب أحد البيوت الواطئة. توقف الموظّف بدوره وأخذ يراقب الطفل وهو يضرب بقبضة يده الباب.

ظلَّ يفعل ذلك برتابة إلى أن خرجت امرأة عجوز وتحدثت إليه. ظلّا يتحدثان في حين كان يشير جهة الموظف مراراً ويدور على نفسه. رأى الموظف الطفل وهو يضع علبته الخشبية أرضاً ويفتّش في جيوبه. استمرت العملية وقتاً قصيراً إلى أن أخرج الطفل شيئاً من جيبه وقدّمه للعجوز. تناولت العجوز ذلك الشيء، ثم دخلت البيت لتخرج. أخذا يتكلمان من جديد. وتمنّى الموظف لو أنه كان يسمع ما يقولانه، غير أن ذلك لم يكن بذي أهمية في نظره. أشار الطفل إلى الموظف، فمشى الموظف نحوهما متخاذلاً وتعباً، لم يتحدث إلى الطفل ولم يتحدث إلى العجوز وإنما أفسحا له الطريق فدخل البيت. أغلقت العجوز الباب في وجه الطفل فلم يغضب. مشى بلا مبالاة نحو الضفة التي لم تكن تبعد من البيت إلا بأمتار. وضع الطفل علبته الخشبية وجلس على الأرض. دلّى قدميه لكي تتبردا في الماء لكنهما لم تكونا طويلتين، لذلك لم تتحقق رغبة الطفل. ثم أخذ يحرك قدميه في الهواء وهو يتأمل الماء الأصفر، والقوارب

المثبتة. وأحياناً، يلتفت جهة الباب لعلّ العجوز تطلُّ، أو لعلّ الرجل الغريب يخرج. كان هواء رائع يلفح وجه الطفل. ونوع من المسرّة تعتريه. ولم يكن يعنيه، في حقيقة الأمر، ما يفعله الموظف داخل البيت. ربما لأنه تعوّد على ذلك.

الحبل المشدود

كنا جالسين تحت شمس حارة، على مقاعد عتيقة في مواجهة ساحة كبيرة. الساحة وسخة تحيط بها دكاكين وأهرية، وتؤدّي إليها أزقة قادمة من كل مكان. كنا نشرب الشاي ونستمع إلى موسيقى رتيبة متحشرجة، موسيقى تتحدث عن السيجارة والكأس. لكنها لا تتحدث عن المرأة. هناك بعض الدواب الجاثمة في الساحة من شدة الحرارة تحت سفائف أو بالقرب من حيطان انسحب عنها الظل. كان هناك أناس جاثمون بالقرب من دوابهم، يتغذون دون تقزز بخبز ناشف، مع زيتون في الغالب. أما بجانبنا على المقاعد التي تكاد تتحطم، فهناك أوروبيون قذرون يتأملون ببلاهة في لا شيء. بعض الأوروبيين المحظوظين يمرون في الساحة ويلتقطون لنا صوراً، دون أن ينسوا الناس الجالسين قرب دوابهم يتغذون. ومن الأزقة الضيقة يتوافد على الساحة الكبيرة، بين الحين والحين، رجال وأطفال تفرغ الساحة ثم تمتلئ. الحرارة شديدة وقوية. لكن أطفالاً صغاراً لم يكن ذلك يعني بالنسبة إليهم شيئاً استمروا في اللعب. ثم رأينا مجموعة أطفال أخرى تخرج من زقاق ضيق في صف واحد. تتجه المجموعة نحو الساحة. كانوا يسيرون بخُطى واهية ضعيفة مخذولة. كنا ننظر إليهم جميعاً بانتباه شديد، لأن المجموعة كانت ملتحمة وملتصقة. رأينا أيديهم مشدودة فاعتقدنا أن ذلك لعبة يمارسها الأطفال

المخذولون. لم تكن في أقدامهم أحذية. كما أن أحدهم كان بلا سروال، وأعضاؤه الصغيرة ظاهرة دون أن يشعر بخجل من ذلك. أخذت المجموعة الصغيرة تقترب من الساحة، مرتبطة، ملتحمة، في حين كانت المجموعة الأخرى لا تهتم بها. ثم رأينا بوضوح، الآن، في يد كل واحد من المجموعة الأخرى حبلاً معقوداً. في الواقع. كان حبلاً واحداً مشدوداً إلى أيديهم جميعاً. ظلّ الأطفال المربوطون بالحبل يسيرون وسط الساحة. في صف واحد غير متماسك. لاحظنا أن منهم من كان يبكي، فتعجبنا لذلك وتيقّنا أن الأمر لم يكن يتعلق بلعبة بقدر ما كان يتعلق بشيء آخر أهم. وأخرج بعض الأوروبيين كاميراتهم وأخذوا يلتقطون صوراً للأطفال العراة، وهم يبكون مشدودين إلى حبل واحد. يتبعهم طرفه من الخلف. ثم فجأة من زقاق آخر رأينا رجالاً يركضون نحو الساحة - رجال فوق رؤوسهم قبعات، ويبدو أن ثيابهم متشابهة. بعد ذلك تأكدنا أنهم من رجال المخزن. فحاولنا أن نكوّن صورة حقيقية عمّا يجري. وبالفعل هجم رجال المخزن على الأطفال الذين كانوا يلعبون تحت الشمس الحارة، دون أن يبالوا بشيء. ثم رأينا المشهد بأكمله: رجال المخزن يوثقون الأطفال بحبل آخر طويل ويضحكون بوحشية. أوقفوا الأطفال ورأينا بعض الأوروبيين يلتقطون صوراً. مشى رجال المخزن وأمامهم مجموعتان من الأطفال وهم يبكون. كانت الشمس حارة، والساحة قذرة، وأناس مثل الدواب مكوّمون في كل مكان يتغذّون بخبز وزيتون. لم يكن أحدهم يهتم بشيء. فقد كان شيئاً طبيعياً عندهم أن يوثق رجال المخزن هؤلاء الصبية القذرين، وقال الرجل الذي بجواري وهو يرشف شايه البارد:

- لماذا يفعلون هذا؟ هل يتعلق الأمر بلعبة؟

قلت:

- نعم، لكنها لعبة خاصة.

وقال الرجل الآخر الذي بجواري:

- إنهم ينظفون المدينة من هؤلاء الصغار القذرين. لكنهم نسوا الكبار القذرين.

وقال الرجل الآخر الذي بجواري:

- لا شكّ أن لرجال المخزن قلوباً غلاظاً.

فقلت للرجل الآخر الذي بجواري:

- أجلاف!

لكن هذا الأخير، وقف أمامي منتصباً وهو يقول:

- هل تسب رجال المخزن؟ قفْ. تعال معي إلى المركز.

فوقفت متخاذلاً دون أن أدفع ثمن ما شربت. ومشيت أمامه بثقة لا متناهية. عبرنا الساحة، وسط الناس والدواب. لم يكن أحد يهتم بي، ورغم ذلك لم أكن أفكِّر في المصير بل مشيت بثقة، وبثقة كاملة أمامه.

غموض

تظهر حاملات الأثقال، مادة أعناقها فوق سطح الماء، أو فوق الرصيف. ولا بدَّ أنها تترك ظلها جامداً أو متحركاً. قد تكون الحركة معطّلة الآن في الميناء. تصور إضراباً يعرقل كل حركة العمل في الميناء. وعندما أدركت أنه يفكِّر في شيء بعينه مسحت شيئاً كالبلل في عينها اليمنى وقالت:

- لقد قالت أمي لأبي أمس إن الزمن تغيّر. وأن الظروف ما عادت كما كانت في السابق.

وتدخلت أختي وقالت إن ذلك غير صحيح على الإطلاق.

كانت يدها في يده وهي تعرف. وأجابها دون أن ينظر في عينيها أو وجهها:

- وأنت ماذا قلت؟ هل كان لك رأي؟

- إني لا أفهم كثيراً في هذه الأشياء. أنت تجدُ أنني أعتمد عليك كثيراً في تفسير ما يغمض علي.

- ليس دائماً. بعض الأحيان لا تعتمدين علي.

كان حفيف جرائد النخل يبعث الوحشة، بينما الكلاكسونات المدوية على أبواب العمارات تبعث الرهبة والخوف. ثم لاحظت في صيغة سؤال:

- هل تذكر تلك الأيام الجميلة عندما كنت تنتظرني في. . .

- لماذا هذا السؤال؟

- لا أدري. لكني أردت أن أذكّرك. أو ربما، أردت أن أذكّر نفسي.

قالت ذلك دون أن تكون متأكدة مما تقول. ربما حاولت أن تملأ فراغاً في الزمن بمجرد كلمات متراصة، متتالية، ومركّبة بطريقة قد لا تفيد شيئاً. إلا أن الماضي كان له إشعاع قوي في ذاكرتها. ولم يكن بمستطاعها أن تتخلص منه بأية طريقة. فكل الأشياء التي حدثت لها، في وقت ما، تبقى ماثلة أمامها متجهِّمة أو بشوشاً.

التصقت به تحت ظل نخلة سامقة في الشارع. وقالت:

- إني أتذكر كيف أنك كنت ودوداً معي.

- معنى ذلك أني تغيّرت.

- لا.. لكنك تعرف أني ضعيفة دائماً.

كانت تفترض بعض احتمالات. وكان هو أيضاً يفترض الشيء نفسه. إلا أن ذلك لم يكن واضحاً البتة. في الماضي أحيت فيه هذا الشيء غير المفهوم، إلا أنها اليوم تغيّرت وهما قد جاوزا الثلاثين معاً. أصبحت تشعر أن ذلك الغموض المحبب في السابق أصبح ثقيلاً عليها اليوم فلم تعد تحتمله، لكنها لا تصارحه بذلك مباشرة. إلا أنها تعلنه.

لم يستيقظ مبكراً هذا الصباح، لأنه لم ينم إلا متأخراً، فقد شاهد سهرة تلفزيونية تافهة، وبعدها انزوى في ركن ما وأخذ يشرب، صبَّ لنفسه كأساً وقال أين كأسك؟ ضحكت وقالت: «إني أريد أن أنام. ثم إني مسلمة وأم أولاد ولا أريد أن أدخل جهنم».

وهكذا انصرفت دون أن يعير اهتماماً لكل ما قالت أمس، بل استمر يفرغ لنفسه كلما انتهت الكأس، ويحاول أن يتابع مقالة في

صحيفة مغربية رجعية. ولمّا شعر أن رأسه صار ثقيلاً ذهب لينام كي توقظه في العاشرة والنصف.

- إن فطورك معك والوقت متأخر. قالت.

قال وهو يدمدم:

- ليس مهماً. فاليوم يوم عطلتي الأسبوعية. أليس من حقي أن أستيقظ متأخراً وأنام متأخراً مرة واحدة في الأسبوع على الأقل.

تركته دون أن ترد عليه وإنما هيَّأت له فطوره، في الوقت الذي كان فيه داخل غرفة التواليت. وسمعت الماء يندلق، وقبضة خيط دورة المياه وهي تحدث صوتها المألوف. ثم الماء وهو ينزل، ثم اختناقاً فصمتاً. وسمعت كذلك صدى خطواته فجاءت بالمنفضة إذ كانت قد نسيتها، وخشيت أن يلقي بأعقاب سجائره على الأرضية كعادته دائماً. كان مُهمِلاً إلى حدّ ما. كان لا مبالياً وغامضاً. وفي تلك اللحظة وهو يتناول فطوره اقترحت عليه:

- ما رأيك في نزهة هذا الظهر دون أن نأخذ معنا الأطفال؟

لقد كان يعرف أنه لم يلبِّ رغبة مثل هذه الرغبات منذ زمن طويل. فالنزهة كان يقوم بها وحده على الأقدام لأنه لا يملك سيارة. كيف يمكن لموظف عادي مثله في «شركة العجلات المغربية، تصدير - استيراد» أن يمتلك سيارة، خصوصاً أن له أطفالاً وزوجته لا تشتغل؟ ثم إن جزءاً من الحوالة الشهرية قد يذهب في البارات. وأن أي موظف متوسط تستطيع أن تهدده عادة مثل تلك. أما هو فإنه لا يذهب بعيداً في إرضاء نزواته. إذا استطاع أن يحقق بعض التوازن في حياته، ووفِّق في أن يكوِّن أسرة وأولاداً ويسكن في غرفتين في حي أوروبي لا في حي شعبي، حيث كان بإمكان أبنائه أن يهددهم اللوطيون والأطفال الأشرار بالاغتصاب، وهذا مكسب حقيقي له، لذلك فهو يفتخر به. إذ ليس بمستطاع أي إنسان في مدينة

طويلة عريضة من مليونين من السكان أن يجد له زوجة وبيتاً من غرفتين، وفوق ذلك في حي غير شعبي، ومع أن دخله محدود فهو يفكر - مع زوجته طبعاً - أنهما في يوم من الأيام سيصبحان غنيين. ومن الأكيد أنهما يعرفان من أين سيأتي الغنى. فهما يتصورانه ويتصوران أنفسهما يعيشان في بيت غير بيتهما ولهما سيارة أو ربما سيارتان إلى غير ذلك من التصورات. ومن غير شك فإنه سيرتقي في «شركة العجلات المغربية، تصدير - استيراد».

كانت قد تركته وحده وانسحبت إلى الغرفة الثانية، بينما كان هو يتناول إفطاره وقد طمأنها على أنهما سيقومان بنزهة ظهر اليوم الأحد. ولأنها لم تكن تحظى بهذه الأشياء، فقد دخلت الغرفة الثانية وأخذت تعتني بنفسها قبل حتى أن يأتي أوانُ النزهة. وكانت تريد أن تقترح عليه تناول طعام الغذاء في مطعم مثلما تفعل عائلة بيدرو، سائق الشاحنة الإسباني، الذي يسكن قبالتهم في العمارة. إلا أنها خافت أن تضايقه فعدلت عن فكرتها. وقالت: «يجب أن أستعد لتهييء طعام الغذاء». وعندما تناول الزوج إفطاره، دخّن سيجارة واحدة، وتصفّح الجريدة التي يلقي بها البائع كل صباح تحت الباب. ثم قرر أن يخرج ليشرب قهوة ويدردش مع بعض الأصدقاء حتى يحين وقت الغذاء. أما هي فقد شعرت أنها بدأت تستعيد ذلك الزمن القديم. فقد كانت أغلب أوقاته في حانة «سان - جورج» القريبة من البيت وفيها يترك نصيباً لا بأس به من الحوالة الشهرية. ورغم أنه لم يكن ينتسب إلى عائلة غنية حتى يتمكن من نسيانها، فإنه هنا استطاع أن ينسى عائلته.

قالت الزوجة وهما يقتربان من الميناء:

- إني أشعر الآن بأن حياتي تتجدد. إني ألومك كثيراً لأنك تتركني في البيت وحدي.

- ماذا تريدين مني إذن؟ هل تريدين أن آخذك إلى «سان - جورج» ليتمجّن عليك السكارى؟

- ليس في الدار البيضاء سوى «سان - جورج». هناك أماكن أخرى يمكن أن نرتادها.

- على كل حال، أنا لا أريد أن آخذ زوجتي إلى بار.

- أنا لا أريد أن تأخذني إلى بار. لكني أريد أن تهتم بي قليلاً.

- تريدين أن تقولي إذن إني لا أهتم بك.

- لا، لا أريد أن أقول هذا بالضبط.

كان يبدو أنها أخذت تراوغ في الحديث. لقد قالت إنه لا يهتم بها. ثم أرادت أن تغيّر مجرى الكلام. ويبدو أنها تعرف طبيعته جيداً. فهو عصبي إلى حدّ الجنون أحياناً. لذلك خمّنت أن النزهة يمكن أن تتم على أحسن ما يرام إذا ما توقفت عن الكلام في أمور مثل تلك، وإذا أخذت تتحدث عن طول أعناق الرافعات وعن زرقة البحر، وعن السمك الذي يقدَّم بكثير في مقهى الميناء. ثم قالت:

- ما رأيك أن ندخل تلك المقهى ونأكل سمكاً؟

- الأفضل عندي أن نركب زورقاً ونتجول قليلاً في البحر ثم نعود لنأخذ سمكاً ونشرب شيئاً. إذ ذاك ستكون شهيتنا تفتحت لكل شيء.

وافقته بلا أدنى تردد، ثم ذهبا نحو الزوارق. واكتريا زورقاً ليعودا بعد ذلك إلى المقهى.

كانت قد اقترحت عليه نزهة ظهر يوم الأحد فوافق بسهولة. وقد بدا لها ذلك شيئاً غريباً حقاً. أحياناً يتملص من اقتراحاتها. فهو لا يأخذها معه حتى إلى دار السينما بل كان يدسُّ في يدها فئات نقدية ويقول لها: «خذي الأولاد واذهبي إلى السينما. إن الفيلم ليس جنسياً ولا ماجناً. مسموح للأطفال الصغار أن يروه». فكانت تفكر

لماذا بالضبط يقترح عليها أن تذهب إلى السينما مع الأطفال؟ في حين يذهب هو إلى «سان - جورج» يغرق نفسه في النبيذ أو البيرة. وباختصار، كان يبدو لها أنه يريد أن يتخلص منها بأية طريقة، في الوقت الذي كانت هي نفسها تتشبث به تشبثاً يفقدها أعصابها. وربما كانت تشعر أنها بدأت تشيخ عندما جاوزت الثلاثين، فقررت أن تتعلق به حتى نهاية المصير. لكن، في الواقع، كانت تلك عادتها حتى وهي في بداية العشرين. أما هو فقد كان كذلك متشبثاً بها إلى حدّ الجنون. لكن ذلك لم يكن يظهر فاضحاً. لأنه كان كتوماً، غفلاً، يحتفظ بعواطفه باطنياً، لا يعلنها بسلوك ظاهري. وهذا ما كانت تحبه فيه. أما الآن فقد بدا لها ذلك مبالغاً فيه. إنه غير مبالٍ. وبدقة، فهو غير مبالٍ بها كثيراً. أحياناً يقول: «أنت أم أولاد. قابلي الأولاد. ليس من مصلحتك أن تعرفي متى أخرج أو متى أدخل». لكنها تجيب: «أولاد، أولاد. دائماً أولاد. إن الجروة نفسها لها أولاد». غير أنه لا يجيب، بل يصمت. «سان - جورج» في انتظاره، حيث يعبُّ كؤوساً من النبيذ ليعود كي ينام أو يتفرج على المذيع وهو يذيع نشرة الأخبار الأخيرة في التلفزيون. أما الزوجة فقد كانت تفضِّل شيئاً آخر غير «سان - جورج». عندما كانا يذهبان مثلاً لحضور بعض الاجتماعات النقابية. ورغم ما كانت تسمعه عن الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها الشخص الذي يهتم بالسياسة في المملكة، فقد كانت تفضِّل ذلك، وتعتبره عملاً إيجابياً أحسن بكثير من إغراق النفس في الكحول.

قالت وهما وراء صحون السمك المقلي:

- لولا هذا الضجيج لكانت المقهى شيئاً رائعاً. إن ثمن النبيذ هنا فيما أعتقد ليس مرتفعاً.

- بالنسبة إلى ما يقدم معه من سمك فإن ثمنه ليس مرتفعاً. ثم

إنهم يقلونه بعناية، رغم الكمية الوفيرة التي يقدمون منها كل يوم للزبائن.

- هل تذكر المرة الأخيرة عندما جئنا هنا؟!

أومأ برأسه نعم واستمر يعبُّ كأسه وهو ينظر إلى الناس مصطفين في البار وهم يلغطون. قالت:

- لقد كانت معركة حامية بين سكيرين.

ثم التفتت حواليها فرأت نساءً ورجالاً، ورجالاً ونساءً، وعائلة معها أطفال. فاطمأنت إذ خافت أن تكون الأنثى الوحيدة في البار، فذلك يجلب المشاكل لزوجها. قالت:

- يمكننا أن ندخل متأخرين في المساء. ما دام الأطفال يوجدون عند أمي.

حدَّق فيها بغموض، وبصمت لا حب في عينيه. قال دون أن يفكِّر فيما يقول:

- لا. نقوم بجولة فقط على الأقدام. ثم ندخل لنشرب القهوة في البيت.

- لا يمكن أن نقطع كل تلك المسافة إلى بيت أمي لأخذ الأطفال.

- ما هي إلا ربع ساعة. تأخذين تاكسي جيئة وذهاباً وتحلين المشكلة.

ثم، فسرت كل شيء على طريقتها الخاصة وبسرعة. خمّنت مثلاً أنه يريد أن يتخلص منها ليذهب إلى مكان آخر ليعبّ فيه الخمر. لذلك قالت وهي تتذكر أنه يلزمه أن يستيقظ مبكراً كي يذهب غداً للعمل:

- مهما يكن، فإنه لا يمكن أن تسهر هذا المساء. أنت تعرف

أنك غداً ستذهب للعمل. ستبقى في البيت وستتفرج على التلفزيون، يكون أحسن.

لم يجب ولكنه استمر في أكل السمك. أخذت سمكة وقربتها من أنفها وهي تقول:

- إنه طري، ليست فيه رائحة.

لكنه أيضاً لم يجب وانشغل بالمضغ ورؤية الزبائن في البار وهم يلتهمون السمك والنبيذ والبيرة. انتهى من المضغ وقال لزوجته:

- يمكن أن يحصل أي شيء إلا أن يكفّ الناس عن الشرب.

قالت:

- لقد قلت إن ذلك حصل في دولة عربية. هل تذكرها؟

- آه نعم. لكنهم لا يمكن أن يكفوا عن الشراب أبداً.

- هل تعتقد أن الشرب غريزة؟

- لا أعرف ما تقصدين بكلمة غزيرة؟ إن السمك طري وليس قديماً.

- تماماً.

كانت ريح خفيفة في الخارج تدغدغ شعرها ووجهها، وتبعث خشخشة لطيفة في جريد النخل على طريق الميناء. لم تكن السيارات كثيرة في هذا الوقت. لقد صار عند الناس عادة أن يغادروا الدار البيضاء يوم الأحد إلى الضواحي. بعضهم يتجمعون في دور السينما أو في ملاعب الكرة، أو يذهبون لمشاهدة سباق الكلاب. تذكّر ذلك وقال لزوجته:

- هل تعرفين باها؟

- الجرسون في سان - جورج.

- نعم.

- مالو؟

- كل فلوسه ذهبت في سباق الخيل أو سباق الكلاب. كل الجراسين أصبحت عندهم حرفة الآن لعبة التييرسي. هل تعرفين إنه يمشي على قدميه حتى سيدي معروف، لأنه لا يملك حتى ما يدفع به ثمن الحافلة.

- أخشى أن تصير مثله.

- لا أبداً. أنا لا أحب لعبة سباق الخيل.

- إنك تحب لعبة الشرب.

لم يقل شيئاً. لكنه وضع كفّه خلف ذراعها فوق الكوع، سحبت يدها وأدخلتها تحت إبطه. أمسكت به بقوة كما لو كان سيهرب من يدها فقال لنفسه إنها بئيسة وتستحق الرثاء. تحتاج إلى عناية. ضعيفة بشكل مخيف. باختصار، أنها امرأة. والمرأة في حاجة إلى قوة خفية تقف إلى جانبها لتحميها من شيء حقيقي أو، وهمي. أما زوجته فهي من هذا النوع. إنه يدرك ذلك لكن ليس في إمكانه تنفيذه باستمرار، لأن هناك مشاغل أخرى لا يستطيع تمييزها هي التي تملأ وقته. قد تكون هذه المشاغل في العمل أو في الحانة أو في أي مكان آخر إلا أنها موجودة.

يشعر الآن بدفء قوي يمتد جسده كله، وبرغبة جامحة في أن يحتويها احتواء جنسياً محضاً. أخذ يتخيّل أوضاعها في الفراش وانفعالاتها الجنسية وصرختها المعروفة التي تطلقها في أوج اللذة. شعر بارتعاش فطرد كل شيء من ذهنه، في حين تشبثت به في قوة كأنه سيهرب منها. قال من جديد وكان قد تيقّن أنه أعطاها نصف ظهيرة بأكملها:

- ستأخذين تاكسي وتجيئين بالأولاد من عند أمك.

- متى؟

- الآن. إنها السادسة والنصف. في السابعة تكونين في البيت.

- وأنت، ماذا تفعل الآن؟

- لا شيء. أتجول قليلاً. سأتفرج على الفترينات، ثم ربما أذهب لأشرب كأساً في مقهى بمرسى السلطان، ثم ألتحق بكِ في البيت.

أخذ لها تاكسي ثم تنفس بعمق وحرية. لقد تخلص من عبء ليس ثقيلاً ولكنه عبء. الآن فقط ستبدأ نزهته الفردية الخاصة. كانت الشوارع الطويلة المتفرعة مغرية، والعالم فسيحاً وباهراً. مشى في هذه الشوارع الكبيرة دون أن يفكر. ثم توقف عند النزل الكبير يتحسس جيبه. وبعد أن تأكد أن الغشاء الإنجليزي معه، قرر أن يدخل ليطلب غرفة فيها ماء ساخن.

مشكلة كل يوم

جاء في بيان رسمي للحكومة أن حركة البناء أخذت تزدهر. لا شكّ أن هذا ما يفسر كون اكتراء بيت عادي في حي شعبي يعادل أجرة شهرية بأكملها لموظف صغير. أما غير الموظفين الصغار فلا يدري أحد أين يسكنون. ربما هناك كهوف كثيرة وسط المدينة يأوي إليها الناس الذين لا يستطيعون دفع أجور الكراء.

كان بعض العمال معلقين فوق السقالات على طول وعرض المدينة. أما العمارة الكبيرة التي تواجه المقهى فقد أوشك بناؤها على الانتهاء، وتمَّ طلاؤها الآن بالجير الأبيض وينتظر قريباً تركيب أبواب المتاجر تحت، وتركيب زجاج النوافذ.

قال الجرسون للزبون:

- إذا رزقك اللّه فلا أحد يستطيع أن يمنع عنك رزقك.

ثم استمر في الحديث:

- كنت أعرف هذا الرجل مجرد فقير معدم. بعد خمس سنوات ها أنت ترى. لقد اشترى هذه البقعة بثمن بخس. والآن لا أحد يمكنه تقدير مدخول العمارة ذات الطوابق السبعة.

وقال الزبون للجرسون:

- هات كأساً أخرى. واحد اعطاتو وواحد زواتو.

ورأى الزبون - الذي كان موظفاً صغيراً - رجلاً لم يكن أكثر

منه رتبة يعرفه جيداً. فهو يغيّر السيارة كل عدة شهور وهو متزوج بامرأتين، يدفع ثمن كراء بيتين. كانت إحدى المرأتين تفعل ذلك على مرأى ومسمع من الجميع. ولم يكن الزوج يهمه شيء سوى تغيير السيارة وارتياد الحانات. وكان المال ينزل عليه من السماء.

وسمع الزبون الجرسون يقول له من جديد:

- إذا رزقك اللّه فلا أحد يستطيع أن يمنع عنك رزقك.

وقال الزبون برأسه: «تماماً»، ثم قال: «كلا» برأسه لطوابير ماسحي الأحذية والمتسولين الذين كانوا يتزاحمون حوله، ثم جاء جرسون آخر فظّ واعترض طريق المتسولين، في حين سمح لحوالي ثلاثة من ماسحي الأحذية بالقيام بجولة داخل المقهى. ورأى الزبون الرجل المتزوج بامرأتين يغادر سيارته ويتوجه نحو المقهى. وعدل الرجل عن رأيه فتوجَّه نحو قهوة أخرى. ودارت في رأس الزبون أفكار عن الرجل. في حين كانت تدور أفكار أخرى غير مماثلة في رأس الجرسون الفظّ، الذي تخلَّى الآن عن مهمته في طرد المتسولين، وجلس يتأمل التابوريهات المنتصبة حول البار. وإذ ذاك كان عمال بناء كثيرون معلقين على السقالات في جميع أحياء المدينة. وقال عامل بناء لرفيق له في الحي الشرقي:

- إنها الثانية عشرة، يجب أن نتغذى. هل معك نقود؟ اذهب واشترِ زبدة وخبزاً لنتغذى. أنا ليس معي شيء. كل ما كان عندي دفعته أمس تكلفة تأمين وكتب لابني في المدرسة.

وأجاب عامل البناء الآخر:

- أنت أحمق. لماذا دفعت تكلفة التأمين؟ سوف يطردونه في آخر السنة. لقد فعلوا الشيء نفسه مع ابني الأوحد في السنة الماضية.

واستمر العامل في تكملة أغنيته الحوزية المفضلة لديه. لكن الآخر أخذ يفكر فيما قاله صديقه. ولم تكن تلك مشكلة الرجل

الوحيدة (أقصد الرجل الذي طُرد ابنه) بل كانت له مشكلة أخرى لا يفوه بها لأحد أبداً. إن ابنته تقضي شبابها الآن في السجن. ذلك أن الشرطة قبضت عليها وهي متلبسة بجريمة إلقاء جنين في مكان خالٍ. ورغم ما قالته في المحكمة من أنها كانت جائعة، وأن أباها كان عاطلاً وأنها فعلت ما لم تكن تريد فعله، فإن المحكمة أصدرت حكمها عليها بعشرين سنة نافذة. أما أبوها الآن فهو مستمر في أغنيته الحوزية، ناسياً كل شيء. في حين كان الآخر وهو معلق إلى جانبه يفكِّر في غذاء هذا اليوم وفي أشياء أخرى ربما كانت ذات أهمية.

وقال الجرسون للزبون:

- إنك تشرب بنهم شديد.

في الوقت الذي كان الجرسون الفظّ ينظر إلى الزبون نظرات شزراء وعندما تلتقي أعينهما فإن الجرسون الفظّ لا يطرق إلا بصعوبة. وقال الزبون الذي رأى بنتاً صغيرة واعتقد أنها بنته جاءت تبحث عنه:

- واحد أعطاتو وواحد زواتو. لقد اتفقنا. هات كأساً أخرى.

وعندما خدمه، ابتعد منه في زواية البار وأخذ يقول لنفسه ما يلي:

«حقاً واحد اعطاتو وواحد زواتو. أنت الذي فعلتها لنفسك أيها البليد، تتردد على هذا المكان منذ سنوات وتعتقد أن الحظ سوف يحالفك. افعل مثل أولئك الذين أعطتهم الدنيا نفسها. ألا تخجل من نفسك أيها الحمار؟ لك ثلاثة أولاد وتسكر يومياً».

ثم استمر الجرسون، في الزاوية، يقول لنفسه أيضاً: «أحمد اللّٰه كنت ماسح أحذية. أما الآن فأملك ثلاث عمارات وبقالة. وأنت أيها الحمار ماذا تملك؟».

وقال الزبون لنفسه وهو يشرب:

«لا بدَّ أن أزني اليوم. الحياة جميلة. الفتيات الصغيرات الجميلات كثيرات».

أما الجرسون الفظّ فكان قد وقف الآن يتدافع مع متسول قوي الجسد. ورأى الناس الجرسون الفظّ يسقط أرضاً. ثم تدخلوا بينهما وانتهت المعركة. وقال رجل لرجل:

- إنه قوي مثل بغل. لماذا لا يشتغل؟

سمعه المتسول القوي وقال له:

- اسكت يا حمار وإلا فعلت بك ما فعلت بهذا.

وأشار جهة الجرسون الفظّ. فسكت الرجل وخاف على نفسه من صفة تُسمّى الإهانة. لكن رجل بوليس سرياً لم يكن يخاف من الإهانة توجه إلى المتسول في ثقة واعتزاز بالنفس وقال له:

- هل تريد أن تبيت هناك؟

ففهم المتسول ما هو المقصود بلفظة (هناك). انسحب من المقهى وترك الجرسون غير الفظّ يقول للزبون:

- إنه دائماً يأتي إلى هنا. لقد كثر المتسولون بشكل فظيع. يمرُّ الآلاف كل يوم من هنا.

وقال الزبون في تهكم للجرسون:

- لو كنت تسافر لرأيت ما هو أفظع. إن الناس لا يعرفون ما يفعلون بأنفسهم في البوادي.

وقال الجرسون:

- عندهم الأرض فليحرثوها. إنهم كسلاء.

وقال الزبون:

- يبدو أنك تفهم كثيراً. إنك رجل ذكي. لكن عليك ألا تنسى أن واحد أعطاتو وواحد زواتو.

ولنفسه: «وهذا ينطبق عليك يا بغل، يا حمار، يا كيدار. . . إلخ. . . إلخ».

وعندما كان الزبون يقول ذلك، كان أغلب العمال ينزلون عن سقالاتهم ليتغذوا خبزاً وزبدة وربما شاياً. في الوقت الذي كانت فيه موائد فاخرة، يتحلق حولها أناس لا يفكرون سوى في زيادة ثروتهم، وبناء المزيد من الفيلات، والتفكير في زواج الأبناء من عائلات شريفة، تملُّك المزيد من العقارات والأسهم في الشركات. قال الأب وقد نزع طربوشه عن رأسه، فظهرت صلعته لامعة تحت وهج الشمس المتسرب من النوافذ الواسعة:

- اسمعي يا بنتي. ذلك الشاب لا يليق بك. أنا أقترح عليك ابن علان الذي يدرس الآن في فرنسا. سيحصل في نهاية هذه السنة على دكتوراه في الكيمياء.

وقالت الأم:

- لكنه ليس جميلاً. إنه قصير وخجول.

في حين وقفت البنت ودارت على نفسها. امرأة حقيقية من غير شكّ. لها قامة طويلة ومتناسقة. دارت على نفسها وتوجهت نحو الصالون غاضبة. فقالت الأم للزوج:

- قلت لك مئة مرة يجب ألا تتحدث إليها في هذا الشأن ونحن نأكل.

قال الزوج الأصلع الثري:

- لن أكرر ذلك.

وقامت الأم وتوجهت إلى الصالون وعادت بالبنت. كانت تمسح دموعها. ولم تكن لديها شهية. أما العاملان اللذان نزلا عن السقالات فكانت لهما شهية غول. ولم تكن الخبزة وكمية الزبدة القليلة التي اشترياها تملأ أعينهما. ولكن أحدهما قال في نفسه:

«أحمدك يا رب». وكانت السيارات كثيرة. من مختلف الماركات، تملأ الشوارع بضجيج محركاتها وتتوجه إلى مختلف الأحياء. ويمكن للمرء أن يتساءل من أين يأتي هؤلاء الناس بكل هذا المال. وفي الوقت نفسه كان المتسولون قد نشطوا في الإلحاح على الناس بالصدقة. لأنه، بعد قليل، ستخلو الشوارع. فوقت الغذاء الآن. وقال متسول لرفيقته التي كانت تحمل طفلاً صغيراً اكترته من جارتها العمياء، وتجر طفلين صغيرين قذرين لا يكفّان عن ضرب بعضهما:

- عليك أن تلازمي تلك القهوة. أما أنا فسألازم هذه. وعندما أشير لك افهمي أنني سأحل مكانك فتعالي لتلازمي قهوتي.

أما الصغير الذي كان بين ذراعيها فقد نزل مخاطه على شفته فابتلعه لأنه كان جائعاً. إذ ذاك نشط الجرسون غير الفظّ في إفراغ الكؤوس للزبائن الذين اصطفوا خلف البار. وظهرت علامات الانشراح على الجرسون. وكان رجل فقير، خلف الزبائن، يردد بصوت مرتفع:

«والذي حارت البرية فيه...»، لكن الجرسون الفظّ كان له بالمرصاد. أمسكه من ذراعه ودفعه خارج المقهى وهو يقول له: «دعْ الناس يشربون في خواطرهم. الصباح اللّه».

ودخل الجرسون وعلى وجهه علامات القسوة، ثم جلس في مقعده المعتاد. وعيناه تنتقلان من زبون إلى آخر.

جاء ذلك في بيان رسمي للحكومة...

الجرادة

كان الطفل الصغير جالساً عند عتبة البيت يراقب البنت الصغيرة وهي وسط الحشائش الخضراء، وبعض الأزهار قرب سكة الحديد. فالقطار لم يمرُّ من هنا منذ أسبوع كامل، لا في الليل ولا في النهار. لأن مستخدمي السكة الحديد قد أضربوا طوال هذا الأسبوع، وربما حتى في الأيام القادمة. وكانت البنت مشتغلة بالبحث عن أشياء وسط تلك الحشائش والنباتات التي تغطّي قامتها الصغيرة. بينما الولد الصغير يفكر في أشياء أخرى تخصه وهو ينظر إلى البنت. وفكر في أن يلتحق بها ويساعدها لكنه ظلَّ جامداً في مكانه. في حين مشت هي نحو السكة وأخذت تمشي فوقها محاولة الاحتفاظ بتوازنها، إلا أنها فشلت مراراً. وضحك الولد الصغير منها، وقال إنه يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يفشل. غير أن المشروع ظلَّ في رأسه. ورآها تتخلَّى عن لعبتها تلك وتستمر في البحث بين الحشائش والنباتات. وأن كلب مشرد يدور حولها وقد أخرج لسانه الأحمر وأرخى أذنيه المثقلتين بالقُراد، كانت تخاف الكلاب وتصرخ منها. حاول الولد أن ينبّهها إلى وجود الكلب بالقرب منها فعدل عن ذلك. ابتعد الكلب منها ومشى فوق السكة، وغاب وراء المنحدر. ورأى الولد البنت قادمة وفي يديها شيء، كانت جرادة صغيرة لا تقوى على الطيران، جرادة خضراء.

وقال الولد:

- ألا تخافين من الجراد؟

وقالت البنت:

- لا.. ثم إنها أنثى. فالأنثى لا تؤذي الأنثى.

- كيف عرفت أنها أنثى؟

- انظر كيف أنها جميلة.

- حقاً إنها جميلة. لكن هل هي أنثى أم ذكر؟

لم تجبه البنت. ابتعدت منه قليلاً وجلست فوق التراب. وضعت الجرادة أمامها، وأخذت تضرب التراب بيدها محاولة أن تحثُّ الجرادة على الطيران. لكن الجرادة كانت عاجزة عن الحركة. أخذت البنت تصرخ وتضرب التراب بالقرب من الجرادة. ثم بدأت تدفعها بيدها، فظلت الجرادة عاجزة عن الحركة. وقال الولد الصغير:

- أزيليها من الظل وضعيها تحت الشمس.

- لماذا؟

- ستدفأ وستحاول أن تطير، إنها تشعر بالبرد من غير شكّ.

أمسكتها البنت برفق، وحملتها تحت الشمس. وظلّت تضرب التراب وهي تحثها على الطيران عبثاً. وقال الولد:

- لا.. دعيها تشعر بالدفء.

تركتها وحدها وعادت بالقرب من الطفل وجلست إلى جواره وهي تراقب الجرادة. أخذت الجرادة تتحرك أخيراً. وظنت البنت أنها ستطير وقالت ذلك للولد فأجاب:

- لا. لن تطير حتى تدفأ.

وقالت البنت:

- ستطير حتى قبل أن تدفأ.

- ليس ذلك صحيحاً.
- ستفعل لأنها أنثى.
- ليس ذلك صحيحاً. إنها ليست أنثى وليست ذكراً.
- إنها أنثى، وهي خضراء لأنها عروس.

وقال الولد وهو يمسك البنت من ذراعها الهشة البيضاء:
- وكيف يكون العريس.
- إنه أحمر.
- لا.. أنت لا تفهمين شيئاً. العريس يكون أصفر وكذلك العروس. وهذه الجرادة خضراء لأنها تتغذى من النباتات الخضراء.

تخلصت البنت من قبضة الولد. وذهبتْ بالقرب من الجرادة تحت الشمس، فتوقفت هذه الأخيرة من الحركة. أخذت البنت تنفخ عليها بفمها وتضرب التراب بكفّها لتحثها على الطيران، لكن ذلك كان عبثاً، ثم تركتها، وذهبت بالقرب من السكة، وأخذت تمشي فوقها. احتفظت بتوازنها قليلاً. ثم سقطت في الأخير وظهرت عورتها فضحك الولد، ورآها تغطي نفسها بتلابيب روبتها القصيرة البالية. كفّت الفتاة عن هذه اللعبة وعادت مرة أخرى وسط الحشائش، ولم يعد الولد يراها. وعندما غابت عن ناظريه كثيراً التحق بها فوجدها جاثية تتابع دودة صغير وهي تزحف. قال الولد:
- عن ماذا تبحثين؟
- إني أبحث عن ذكر.
- للدودة أم للجرادة؟
- للجرادة.
- إنك لن تجديها. الجراد غير موجود في هذا الوقت.

ثم قالت البنت وقد انتصبت واقفة:
- اسمع. هل تعرف لعبة العروس والعريس؟

قال الولد وهو يمسك بيدها:

- إذا تمددت على ظهرك في التراب عرفت كيف ألعب لعبة العروس والعريس.

- لكن لن تفعل مثل الجراد.

- أعرف ما أفعل.

نزلت أمها من الطابق الأول وأخذت تنادي عليها لكنها لم تسمعها. لم يسمعها الولد كذلك. أخذت الأم تجيل النظر حول خطوط السكة. دخلت البيت. ربما كانت مختفية في إحدى الحُجرات أو في المطبخ، لكنها لم تجدها. خرجت وأخذت تنادي عليها بصوت مرتفع. سمعها الولد فانتفض من فوق جسد البنت، رأته الأم وسألته عنها، ففرَّ تجاه السكة. فهمت الأم كل شيء ولحقت بابنتها وسط الحشائش. أمسكت بها بقوة وهي تقول:

- ماذا تفعلين؟

- نلعب لعبة العروس والعريس.

أخذت الأم تقرصها وهي تقول في غضب:

- متى كانت أمك قحـ...؟

لم تفهم البنت شيئاً. كانت أول الأمر تتحمل اللسعات، لكنها في الأخير أخذت تعول وهي تردد: ماشي أنا.. هو.. هـ.. ها.. آي.

استمرت الأم في لسعها وهي تردد:

- قولي يا بنت الحرام. متى كانت أمك قحـ...

كان الولد الصغير إذ ذاك - وقد نجا من اللسعات - يحاول أن يحافظ على توازنه فوق السكة التي أدفأتها حرارة الشمس.

الديدان التي تنحني

مرّ علينا يومان فقط، في هذا المكان. شرعنا في العمل الذي بدا لي لأول وهلة أنه متعب إلى حدّ الموت، لأني شخصياً لم أتعود على أرض صلبة مثل هذه. ليس ذلك فقط، لكن المياه تغمر تلك الحفر التي يوسِّعها العمال، بعد نهار كامل. حاولت أن أتخلص من هذا الماء فلم أستطع. قلتُ هذه هي البداية. ولم أكن أعرف عن النهاية شيئاً. تركتُ ذلك لزمن سوف يأتي ولا أدري عنه شيئاً. وقررت بعد تجربة هذين اليومين أن أستمر في العمل إلى أن ننتهي منه. فكرت أننا خلال المدة التي أُعطيت لنا لا بدَّ أن ننجز الأعمال التي طولبنا بها، مهما كلفنا ذلك من جهد أو وقت. سمعت أنه على بُعد كيلومترين منا، هناك مجموعة أخرى من العمال، تابعة للشركة نفسها. سمعت كذلك: ما أن تنهي الشركة أشغالها هنا، إلا وتوجِّهُ مجموعة أخرى من العمال، بعد ستة أشهر في الجنوب الشرقي، حيث تحتاج تلك الأرض لا إلى طريق واحدة ولكن إلى طرق عدة. ربما سيكون حظي بالالتحاق بالعمل هناك. ربما سأبقى بالشركة، حيث أنضم إلى المجموعة العاملة في المكاتب. كنت مرشحاً دائماً لمغادرة المكاتب، نظراً إلى أشياء خاصة، ونظراً أيضاً إلى المهارة التي أعمل بها خارج الحيطان كما يقول المهندسون الذين كنت تحت تصرفهم، وعملت مساعداً لهم. حظنا الآن هذه المرة الجنوب. لم

أكن أدري بالضبط في أية بقعة من الخريطة كنا نعمل. على كل حال، لم تكن الأرض صحراوية كما كنت أتوهم قبل المجيء. ومن يدري، فربما كانت المجموعات الأخرى التي تعمل في الاتجاه نفسه توجد على مقربة من الصحراء. آمنت بادئ الأمر أنني لن أستمر في العمل أقل من يومين. لكن، ها قد مرّ يومان... في الواقع لم يكن هناك، بالنسبة إلي، أي سبب للانزعاج. فلا شيء هنا يزعج أو يقلق، رغم صلابة الأرض أحياناً، رغم هذا الماء الذي يطفر في وجوهنا - نعم ماء في الجنوب، وقرب الصحراء -. لم أكن أجدُ مبرراً أو سبباً للقلق والانزعاج.. أما حياة الخيمة فهذه أشياء مألوفة بالنسبة إلي. الماء عندنا في البراميل والأرض لا تخلو من أعواد جافة تصلح للنار. وهناك، أيضاً، كيسان من الدقيق. تعوّد العمال أن يعجنوا بعد نهاية العمل أو أثناءه، ويطبخوا طعامهم الذي ألفته، شخصياً، بعد ما كنت أتأفّف منه لدى أول علاقتي بالعمل. تلك أشياء طبيعية في حينها. كنت لا أزال مراهقاً، صغير السن، غادرت المدرسة الثانوية وأنا أحمل أفكاراً مثالية لا حدود لها ولا فاصل. أوهام إنسان مريض، لا يعرف عن واقعه شيئاً، يتخيّل الحياة بشكل سيارات متنوعة الألوان والأشكال، وفتيات كثيرات، ثم أمسيات على الكورنيش. كل هذه الأشياء لم تكن سوى مرض، أدركت فيما بعد ألا شيء أشد واقعية وارتباطاً بالحقيقة، على مرارتها، أكثر من العمل. العمل وحده هو الذي يصنع الرجال. لست أدري كيف يستطيع أن يعيش رجل دون أن يحرك يديه ولا أن يُعمِلهما في شيء.

كنت قد بدأت وقتها بالقضاء على ذلك الشخص النزق المراهق، الذي كان يرقد في داخلي، في أفكاري، في تصرفاتي، في حياتي. وبالفعل، فقد انتهيت إلى القضاء عليه، وأعتقد بصفة نهائية. فكل تلك الأفكار الحالمة التي كنت أضعها في ذهني عن

المستقبل تغيّرت تماماً، لتحلَّ محلَّها أفكارٌ أخرى. تعودت شخصياً على حياة هؤلاء العمال: أنام معهم في الخيمة رغم أني رئيسهم، وأن لي خيمتي التي وضعتها الشركة رهن إشارتي، كما هو الشأن أثناء كل ورشة أترأسها. لا أنام معهم فقط.. لكنني أضع نصيبي من النقود، عندما يجمعونها لشراء جميع المستلزمات التي تخصهم طوال الأسبوع الكامل. في بعض الأحيان كنت أدفع لهم ثمن وجبة غداء أو عشاء. ولم يكلفني ذلك قدراً مالياً ضخماً، فنظراً إلى امتيازاتي الخاصة عليهم، كانوا ينظرون إلى تلك الوجبة باعتزاز، ويظلون - أيضاً - ينتظرون يوماً آخر كي أدفع لهم وجبة غداء أو عشاء. الحقيقة أنني أعرف أن تلك أشياء فوق طاقتهم. كانوا ثلاثة عشر عاملاً، أغلبهم متزوجين، وحتى الذين لم يتزوجوا كانوا في الطريق إلى الزواج، أو كانوا يطعمون عائلة كبيرة العدد، غالباً ما كانت تسكن في ضواحي المدينة، في تلك الأكواخ القصديرية القذرة، التي هي بمثابة بيت سكني ومزبلة ومرحاض في الوقت نفسه، لذلك عندما كنت أدفع ثمن هذه الوجبة، أشعر في داخلي أنهم يريدون ذلك لأنهم يقتصدون. وحاولت قدر المستطاع أن أقيم أكثر من وجبة في الأسبوع بحسب ما تسمح به ظروفي الخاصة، كان هؤلاء الثلاثة عشر عاملاً هم المجموعة التي تعمل معي في الغالب. وقد جبتُ بهم كثيراً من الأماكن، وكانوا دائماً هكذا: العمل المتواصل، تلبية كل ما أطلبه بسرعة فائقة، ربما كان ذلك راجعاً إلى معاملاتي الخاصة لهم.. فزملائي الذين لهم الرتبة نفسها والعمل نفسه في الشركة، يسيئون في الأغلب إلى هؤلاء العمال. لم يكن هؤلاء الزملاء يتورعون عن إيلامهم وتكليفهم بالقيام بساعات إضافية في العمل دون تعويض عليها. ولم يكن هناك أي تساهل من طرفهم تجاه هؤلاء العمال. ولطالما فكرت: هؤلاء الناس يرزحون تحت

أعباء ثقيلة. المشاكل. الآلام النفسية. الآلام النفسية والبدنية التي لا يستطيع مخلوق أن يتحملها. كنت شخصياً أعرف هذه الأشياء وأعيها جيداً. وأحاول أن أوضِّح هذه الأشياء للمهندس الذي أعمل لفائدته. خصوصاً إذا ما كثرت الاحتجاجات من طرفه عن التأخر في إنجاز العمل، وأوضح له بالخصوص أن هؤلاء الناس ليسوا حيوانات، لكنهم بشر مثلنا. غير أنه يقول: إن هؤلاء الناس لا يجدون ذواتهم إلا في العمل المتواصل الشاق. وكان أغلب المهندسين الذين عملت معهم يعلنون تذمرهم من هذه الإنسانية المبالغ فيها. التقارير تصل إلى مدير الشركة، فأُستَدعى على الفور وأؤنَّب على التأخر في العمل، وعلى تساهلي المبالغ فيه. باختصار، كنت نغمة نشازاً في هذه الشركة. وأعتقد أن سبب تساهلي وإنسانيتي هو طبيعتي الخاصة. لذلك فإني أنعت نفسي بالرومانسية. ولطالما اتخذت قراراً تجاه نفسي وحياتي: أو أواجه العالم بخشونة وصلابة. وأحياناً أجدُ أن هؤلاء الذين يأخذون علي تساهلي، هم على حقّ، وأن الحياة تفترض أحياناً قدرة فائقة على العنف. وشخصياً لم يكن من طبيعتي العنف. صحيح أنني كنت شديد الانفعال، شديد التأثر، هذا لا يعني أنني كنت عنيفاً، طبيعتي كانت أبعد ما تكون من العنف. وكنت مستعداً بين الحين والآخر أن أتجاوز نفسي، وأتسامح، بل أتنازل عن الأشياء الضرورية من حقوقي، على الأقل كفرد.

كنا قد وصلنا إلى هنا، قبل يومين، حوالي الساعة السابعة صباحاً. وعلى الفور ما أن نصبنا الخيمتين، خيمتي وخيمتهم، وأنزلنا المعدات، حتى سيارة للتنقل قيل إنني لست في حاجة إليها، لأن العمل هنا لا يتطلب التنقل الكثير من مكان إلى آخر. هناك فقط بعض عربات اليد الحديدية التي نستعين بها عادة لمثل هذه الأعمال.

وهناك أيضاً البولدزر، الرابضة في مكان بعيد حيث لم يكن موعد استعمالها بعد، فآخر ما نفكر فيه، بعد الحفر، وتسوية التراب، ونشر الحصى، هو البولدزر، وأحياناً كنا في حاجة إلى سيارة جيب صغيرة لتربطنا بأقرب مدينة إلينا. لكن هذه المرة، نحن محرومون من سيارة الجيب... البولدزر فقط التي تربض وحدها في المكان.
استعنت بإرشادات المهندس وشرعنا في العمل. كان المهندس نفسه هو المكلَّف بالمجموعة التي توجد على بُعد كيلومترين من هنا. لذلك فقد تنقّل خلال هذين اليومين بيننا وبينهم. وأغلب الظن أنه سيظل يتنقّل حتى ننتهي من العمل. توصيات عادية. أعرفها جيداً! لأنني عملت معه مراراً: «عباس، كن متشدداً.. يبدأ العمل في السادسة صباحاً، وينتهي في السابعة والنصف. إذا اقتضى الأمر، اشتغلوا ليلاً. الشركة تطلب هذه الأشياء». وافقت.. ليس بمستطاعي أن أعارض ولا أن أحتجّ، لأني أعرف أن أية مبادرة من هذا القبيل ستتعرض للرفض والسخرية. وقلت سأحاول أن أفعل ما في المستطاع. لكن عادتي دائماً هي عادتي: كنت أسمح لهم بقدر الإمكان بأن يستريحوا، وأحياناً، أن يشربوا الشاي على رسلهم. وأحياناً، إذا ما شعروا بالتعب، يمكنهم أن ينصرفواليناموا. كنت أعرف أنني لو ضبطت لأدّيت الثمن غالياً: تخفيض الأجرة، وتوجيه إنذارات بالطرد... إلخ. تلك هي العقوبات التي تلحق بأمثالي وغالباً ما لم تكن الشركة تستطيع أن تستغني عن أحدنا، حتى لو فعل ما فعل، والشيء نفسه بالنسبة إلى المهندس. فقد ضبط مهندس قام بعملية تزوير قائمة بمستلزمات الأعمال في إحدى الورشات. وبدلاً من الطرد، عوقب بتخفيض أجرته لمدة شهر واحد. ذلك نوع من العقوبات التي تلحق برؤساء العمل أو المهندسين. الخصم فقط. سبب ذلك أساساً النقص الذي تعانيه الشركة من هؤلاء

المستخدمين. كنت أفعل ما أريد تقريباً، مراعياً عدم المبالغة في العصيان وخرق قوانين العمل. كانت بضع خِيام، هنا فقط، تلوح لنا من بعيد متفرقة، وغير ذات قيمة، وكانت أيضاً بعد الدواب، وبعض الأشجار القصيرة، متفرقة على مدى البصر من جميع الجهات. وخلفنا كانت هناك طرق كبيرة تؤدّي إلى مكان في الجنوب، ربما إلى مدينة رئيسية في المنطقة. وكان عليّ أن أكتشف المكان على الأقل لكي أعرف أين يمكن أن أقضي نهاية العطلة. لقد سألت المهندس، وقال إنه يمكن أن توجد هناك - إذا لم تخنه الذاكرة - على بُعد عشرين كيلومتراً مقهى تديره أوروبية لم يحدد جنسيتها. وفكرت بادئ الأمر أن هذا شيء مسلٍّ حقاً، بل شيء رائع وإنساني. لكن، كيف أمضي إلى المكان؟ ليس في حوزتي سيارة أو شيء من هذا القبيل. أقنعتُ المهندس أن يتوسط لدى الشركة كي أحصل على سيارة جيب. كان هو يملك سيارته الخاصة التي يستعملها بمقابل. ونظراً إلى أن العلاقة بيننا لم تكن إلى حدٍّ ما قوية فقط كنت أتلافى أن أفاتحه في مسألة نقلي معه عند نهاية الأسبوع إلى المقهى حيث نستطيع أن نقضي ليلتنا بالشكل الذي تسمح به الظروف. كان شاباً من «تارودانت» معتزاً بنفسه، رغم قصره المبالغ فيه، وهيئته التي لا تبعث على الاحترام. كنت أعرف مدى الزهو الذي يشعر به رجل في مثل وضعيته، خصوصاً مع أناس هم دونه في العمل والمرتبة، ورغم أنه لم تكن له إمرة عليّ، فقد كان يعتقد مع نفسه أنه يستطيع أن يأمرني بأشياء خارجة عن عمله، كنت في الغالب أرفضها، متحدياً زهوه وغروره. كان العمال المرافقون لي يعرفون هذه الأشياء في، لذلك غالباً ما كانوا يعتبرونني واحداً يستطيع أن يحميهم.. من ماذا؟ - لا أدري. كانت هذه هي الفرقة التي تعمل معي في الغالب، فأنا الذي اخترتهم واحداً فواحداً، بعدما نظرت في أوراقهم الشخصية.

وتعرفت إلى هوياتهم ووضعياتهم، فالواحد منهم يستطيع أن يلبّي رغباتي بالقدر الذي أطلبه، وبلا مراوغة. ولم أكن، شخصياً، أستغل هذه الطيبة في أرواحهم. فقد كان نوع من الاحترام الذي أفرضه عليهم، كافياً لتمهيد الطريق إلى تنفيذ أية رغبة. تلك كانت هي المسألة بحذافيرها.

قضينا ليلة البارحة، أنا في خيمتي، وهم في خيمتهم، بشكل غير عادي لأن التعب أنهكنا طوال ذلك اليوم، فمن نقل المستلزمات، إلى بناء الخيمتين، ثم الشروع في العمل مباشرة، كل هذه الأشياء كانت دافعاً لتعب شديد، ملك علينا جميعاً كل قوانا، فأنهكنا، ونمنا عن آخرنا دون أن نتحدث أو نشرب الشاي أو نلعب الورق. كانت الليلة غير عادية، وكنت أشعر بتوتر أعصابي، وتعب لا حدود له، بحيث كنت أرى القمر مستطيلاً لا مستديراً، وكانت خيالات شتى متزاحمة في الليل ومتدافعة. ومع ذلك، نمت دون أن أتحرك أو أعي شيئاً. شعرت أن العمال لم تكن لديهم أية رغبة في العمل هذا اليوم. كانوا يتلكأون، وحاولت أن أتجاهل هذه الأشياء. قلت، إنها ضرورية ولا بدَّ منها. نحن لا نستطيع أن نعمل مثل الآلات، فجسم الإنسان لا يُقدُّ من حديد، إنه من لحم ودم. ثم راودتني فكرة، طوال اليوم، أن أذهب لاكتشاف نواحي المنطقة. وفكرت أن ربما سأتعرض لأخطار، في هذا الليل، خصوصاً أنني لا أعرف طبائع ناسها ولا حيواناتها. وشعرت بتعجب مؤنس، ومع ذلك، أرغمت نفسي على الصعود.

هناك أشياء لا يعرفها أحد.. أشيائي تلك.. حتى الذين يعرفونها لا تهمهم بالقدر الذي يهمني. لكل واحد أشياؤه وحقيقته. فكرت - وأضفت: أن الحياة هي حيّز خاص. حيّز؟ ما حجمه وما كثافته؟ لستُ أدري. ولكن أعتقد أن الحياة هي تلك الأفعال اليومية

التي قد لا نعيرها اهتماماً ولو ضئيلاً. والحياة هي تلك العلاقة البسيطة أو المعقدة المتشابكة بيننا وبين الناس. لذلك فحياتي هي هذه الحوادث التي جرت لي بعلم أو بغير علم مني. ليس هذا مجاله. ولكن بواعث داخلية دفعتني الآن إلى التفكير في مثل هذه الأمور. قد يعتقد البعض أن هناك دوافع تبرُّم من العمل مثلاً هي التي أملت علي أفكاراً مثل هذه. لكن الحقيقة هي العكس. أحبُ هذا العمل، رغم التنقلات الكثيرة، ورغم الانقطاع الذي يدوم أياماً، وأحياناً شهوراً. . المسألة مسألة عادة وإلفة. في بادئ الأمر كنت أجد صعوبة كبيرة في الانقطاع عن حياة المدينة، والانعزال في الخلاء، مع مستلزمات العمل والبولدزر والجيب وبراميل الماء، لكن الأمر أصبح على عكس ما كان عليه. أعني أن حياتي اليوم أصبحت ذات ارتباطات خاصة، وذات طعم خاص كذلك. ثم إن العمل، أحياناً، لا يفترض الانعزال التام عن جو المدينة، فقلَّما تحدثُ أمور مثل هذه، مثلما هو الشأن اليوم. ومن يدري فربما يجيء أمر خاص من فوق فأنتقل دون أن أتمم العمل، ويتولَّى آخرٌ المهمة التي أقوم بها. كل شيء محتمل وكل شيء قابل للتغيير، ونحن لا نسيِّر حياتنا بأنفسنا، إن سلطتنا على حياتنا بسيطة للغاية، وضئيلة جداً، فكثيراً ما تفضِّل نوايانا، ومطامحنا لأن الظروف ليست في يدينا، ولكنها بين أيدٍ خفية لا يعلم سوى اللَّه وحده لمن هي. هل هي للشياطين أم للملائكة؟ فمثلاً، كنت أنوي أن أصبح، وأنا شاب، طبيباً كبيراً له شهرة وصيت ومال، ولكن هل تتحقق كل المطامح؟ أبداً لا. . الأمور متعقدة جداً. وهذا ما كان غالباً عن ذهني، إلا أني أصبحت أعيه جيداً، وأعرفه معرفة قوية على ما أعتقد.

لم أتمم دراستي لأسباب خاصة، لا تعني أحداً، كانت مطامحي بعيدة جداً، وكنت متفتحاً على عالم هو من اختراع أحلامي

المريضة. وفجأة لم أعرف كيف التحقت بالعمل. لم أكن أجاوز الثامنة عشرة، ولم أتمم حتى دراستي الثانوية. فجأة، فرَّ العجوز أبي، مع عشيقة.. هكذا وبلا أدنى مراوغة. وتركني وأمي ولم أعرف ما الذي أفعله. من يعولني ومن يعول أمي؟ أسئلة لم تحيرني كثيراً. لأني، وبلا تفكير، وجدتني أشتغل في الشركة. كنت محظوظاً إلى حدّ بعيد، فإنسان في مستواي ووضعيتي لا يمكنه بحال أن يعثر على عمل حتى لو دفع ماء وجهه وكرامته.

دخلت علي أمي.

- سي عباس.

- أي نعم..

- تعال يا ابني. اقترب. اقترب.

واقتربت، وجلست مطرقاً، كانت عجوزاً لا تقوى على شيء، شديدة الضعف، خالية من أية رغبة جنسية. ولم يكن في عينها ذلك البريق الشهواني الذي نجده عند غالبية النساء. كان قد أنهكها زوجها. ولم تعد تصلح لشيء. جلست بجانبها، وأمهلتها حتى تنفست أو تنهدت بيأس مُر، ثم قالت:

- أبوك دارها (أي فعلها).. تعرف هذا. ماذا تقترح يا ابني على أمك؟ الزواج من جديد، أم العمل في أحد المعامل، اقترح على أمك يا ابني وقُلْ ما شئت.

ظللت ساكتاً وفهمت ما كانت تعنيه بالضبط. العمل؟ هي لا تستطيع أن تفعل شيئاً. لقد أصبحت جثة. مجرد جثة. الزواج؟ هذا أيضاً شيء مستحيل. ولا يمكن أن أسمح لأمي بذلك. ثم من يستطيع أن يتزوجها وينفق عليها وعلى رجل في سنه. وفكّرتُ، كنت أمام الأمر الواقع. الحياة صعبة. والظروف تسير كما تريد. واقترحت:

- أمي. لا تفكير في هذه الأشياء. سأتولى الأمر.
- نظرك يا ابني. ردّ بالك وافعل ما تشاء.

وبدأت أشتغلُ. لم أعد أسمع شيئاً عن أبي، في أية مدينة هو، وهل أنجبَ أولاداً - كنت أريد فقط أن أتعرف إلى هذه الأشياء، وفي الواقع لم أكن أشعر بأي حقد تجاه والدي. فهمت ظروفه وقدّرتها. إن الإنسان غريزي... حيوان غريزي، وأكثر من ذلك، يستطيع أن يتخلّى عن كل شيء مقابل لحظة خاصة. الرجل والمرأة على السواء. وفكرت لنفسي: يعلم اللّه ماذا كانت تفعل أمي عندما كانت شابة... هل هي قديسة؟ لا. ليست قديسة ولا شيطانة. ولكنها واحدة كالأخريات وكالآخرين. هي مثل أبي. ومثل التي ذهبت مع أبي، مثل كل الرجال ومثل كل النساء. فلا أحد يتورع من أن يفعل العجب عندما تتاح له الفرصة. لذلك طالما شعرت بعاطفة خاصة تجاه أبي. وتمنيت فقط لو يزورني حتى لو مع زوجته، ولكن أين هو؟ وهل يعقل أن يعود؟ كان قاسياً، فظّاً غليظ العاطفة والقلب. وفي نظري أن الأب، أي أب، ليس من حقه أن يكون خشناً إلى هذا الحدّ. فنحن مطالبون ولو بقسط بسيط من الإنسانية والرحمة. من يطالبنا بذلك؟ لست أدري ولكننا مطالبون وكفى. الحياة تمضي تحت المطالبة والطلب. وهذا الطلب والمطالبة هو ما يسمونه فيما أعتقد بالمسؤولية. لم يكن أبي مسؤولاً في يوم من الأيام، لا أمام نفسه، ولا أمام أي أحد. كان عديم الثقة بالنفس إلى جانب ذلك، وكان لا يفكر في لحظاته ولا في لحظات غيره. وقلت لأمي بأنني أرغب في رؤية أبي، قلتها مراراً، وطالما انتظرت غضباً نارياً منها، ولكنها على العكس لم تكن لتثور ولا تجحظ عيناها كما كنت أتخيل.. كانت تنظر إليَّ بهدوء ووقار وإلفة كالقطة العجوز أمام صغارها، ثم تقول: «أبوك أين هو؟ لا أحد يعرف. هو لا يرغب في

رؤية أحد. سنوات عشر تمضي. ولا يفكر في ابنه، أو في زوجته التي قضى معها عمره كله». ثم تصمت ولا تضيف شيئاً، الكلمات نفسها تتكرر والبرود نفسه والحركات نفسها، وأحياناً كانت تضيف: «فتّش عنه الدنيا، أبوك المسخوط، أبوك العاهر... تجد الشياطين في طريقك ولا تجده». عشر سنوات مضت، بل أكثر من ذلك. أين أبي؟ لست أدري ربما يكون قد مات، قد رحل، فغير معقول أن يتصف أب بمثل هذه القسوة. عشت مع أمي. كانت البائسة تشكو من تركي لها أول الأمر. ولكنها عندما تعوّدتْ، أصبحتْ قادرة على الصبر. كانت تلزم البيت وحدها ولا تغادره إلا لماماً. أحياناً كانت تصلّي وأحياناً أخرى كانت تخرج لتثرثر، أو لتنبش في الأرض تحاول أن تغرس البصل أو الثوم أو البطاطا أو النعناع. وكانت تقول: «الحركة بركة» فلم تكن تطيق الجلوس المستمر وحدها في البيت.. ففولة خير من أي شيء، وربطة نعناع خير من لا شيء كذلك. ثم أنه على الرغم من أن التعب الفيزيولوجي الذي كان يبدو عليها، كانت تتحدى وتتحدى دائماً، وتتحرك، وتخرج، وتفعل أشياء، ربما ليست في مستطاعها. كنت أدرك أنه ليست لها قدرة على العمل، وأن ما تفعله ليس سوى محاولة تغطية، ومحاولة شغل البال، وإراحة الضمير غير العامل.

عندما التحقت بالشركة لم أكن أتوقع أن الأمور، أية أمور، تسير كما نريد ببساطة. التحقت بالعمل وبسهولة كذلك. كنت أولاً بالمكاتب. تقلّبتُ في أغلبها. ولكن التجربة دلت على أن لي قدرة خارقة على تسيير الأعمال خارج الجدران، وأنني رغم التهم التي توجه إلي من كوني شديد الحساسية، على الرغم من هذه الأشياء جميعاً، كنت معروفاً أني من الذين ينجزون الأعمال على أتم وجه. ثم إن ما كان يتمتع به زملائي من سمعة سيئة في الغالب: السرقة

والتوقف عن العمل بلا إذن، كل هذه الأشياء كنت منزهاً عنها. جبتُ تقريباً أرجاء البلاد. وكنت مرشحاً للذهاب إلى دولة إفريقية، تعاقدت الشركة مع حكومتها على إنشاء طرق صغيرة وكبيرة. كنت مرشحاً لذلك. ولكني رفضته، فقُبلَ الرفض بسهولة. أسباب خاصة، في الواقع، هي التي كانت تدفعني إلى الابتعاد من الهجرة، حتى لو كان مردود ذلك كبيراً. الأجور تتضاعف، والامتيازات كثيرة ومتنوعة، ولكني كنت دائماً أرفض. فمناسبات مثل هذه لم تكن تعطيني سوى الشعور بالتفاهة. ولست أدري بالضبط لماذا؟ فالتفاهة غالباً ما تنتج عن أفعال يقوم بها المرء وليس راضياً عنها. أنا، شخصياً، كان شعوري بالتفاهة يزداد ويتفاقم. ولم يكن هناك سرّ في ذلك. ربما لأني فقط لم أكن أرغب في أن أصبح غنياً. إن مجرد التفكير في الغنى يجعلني تافهاً، وغير ذي قيمة، كنت أبدو لنفسي حقيراً كالجرذ عنما أفكر في الثروة، بل أحقر من الجرذ. وعلى العكس من ذلك كانت أمي تدفعني كلما أتيحت الفرصة لها نحو ما تُسمّيه بالمجد. وشخصياً، كنت أعتقد أن أوان المجد فات. تلك أوهام يتعلق بها شبان في سن معيّنة من حياتهم. كنت أرغب فقط في أن أعيش، أنام وآكل، وأرتدي ثياباً نظيفة، وأملك بيتاً لا أدفع إيجاره (وإلى حدّ الآن لا أملك هذا البيت) ويبدو لي أحياناً أنه من الصعب على المرء أن يكسب مأوى يلجأ إليه. فالحياة معقدة تتطلب المزيد من الفلوس، والمزيد من الرغبات الجامحة، التي ليست في جوهرها سوى دناءة وخساسة. لذلك، فعندما اقتُرح علي العمل هذا، في هذه المنطقة بالجنوب، لم أُبدِ أي تأفف ولا تبرُّم. على الرغم من أني لم أكن أعرف المنطقة، ولم يسبق لي أن زرتها. كانت قُرى منتشرة هنا بفوضى ولا نظام، بل إنها لم تكن قُرى بما لكلمة قرية من معنى. مجرد خِيام فقط متباعدة بعضها عن بعض، وأحياناً

يستطيع المرء أن يرى بعض البيوت البيضاء أو الحمراء على مدى البصر. لكن ذلك قليل.. وأحياناً أخرى طوال اليومين، لم نستطع أن نشاهد ولو حيواناً برياً أو أليفاً مع أن الخلاء الواسع يغري بتكاثر الحيوانات. الأرض صلبة وطازجة. لكن هذا لا يمنع من انتشار الخضرة والنباتات حتى لو بين الأحجار.. أغلب الظن أن الصحراء بعيدة من هذا المكان، على الرغم من أنها تبدو قريبة جداً على الخريطة، ومن يدري فربما تكون الصحراء هنا على بُعد عشرين كيلومتراً فقط.. لا شكّ أن المهندس يعرفُ الأمر، ويعرفُ مقاييس خطوط الطول والعرض هنا. لأن ذلك كما يبدو لي هو شيء من اختصاصه، ولا بدَّ قبل أن يعطي الأوامر ببدء العمل أن يتعرض على طبيعة الأرض التي سيشرع في إصلاحها أو تعبيدها. قلت للمهندس عندما نزلنا في الصباح إن الأرض هنا شبيهة بالتي اشتغلنا عليها قبل ثلاثة أشهر، هناك قرب تارجيست.. لكنه لم يوافق ولم يعارض. ولربما كان على حقّ لأنه لم يزر المنطقة. اشتغلتُ فيها برفقة مهندس آخر تشيكي الأصل يعمل لحساب شركتنا... لكن المهندس نظر في وجهي ملياً وقال من خلال أنفه بلغة مزكومة:

- هل تعتقد أن العمل هنا صعب؟

قلت وأنا أدق الأرض بحذائي:

- هنا؟ لستُ أدري.. الأرض شبيهة بتلك التي قرب تارجيست، ومع ذلك أنجزنا العمل.. ومن يدري؟ فربما تكون أسهل.. هناك البولدرز. وهناك الفؤوس والأدوات والعمال.. كل هذه الأشياء تسهّل العمل حتى لو كان تحطيم الحديد.

قال المهندس الشاب:

- الحديد يمكن أن يصهر. أما الأرض؟ المسألة بنظري ليست

مسألة صعوبة لكن مسألة تأخير العمل. عليك أن تجعل ما أمكن حتى لو اقتضى الأمر إضافة بعض الساعات.

قلت وأنا أنظر تجاه المكان الذي نصبنا فيه الخيمة:

- إضافة بعض الساعات معقول. لكن العمال لا يعوَّضون على ذلك.

قال وهو يدخّن:

- هذا أمر لا يعنيك ولا يعنيني. إنه أمر يخصُّ الشركة.

ثم تركني وبقينا هناك نعدُّ اللوازم لنشرع في العمل. في اليوم نفسه كنت أشعر أن الأمور أوضح في ذهني، سوف نخطط أولاً وسوف نمضي في العمل، طوال هذه المدة. ولست أدري كيف بدأت أفكِّر في أمي العجوز آنئذٍ. على الرغم من أنه لم يكن هناك أي سبب لذلك. تلك حالات خاصة كانت تنتابني في بعض الفترات، سواء وقت العمل، أو خارجه.. حتى في المقهى أو في قاعة السينما، أو في الشارع، كانت تبدو لي أمي بائسة شقية، ومهزومة، وكنت أفكِّر دائماً أن أبي هو الذي هزمها. لقد تركها جثة. أو كما يقول العرب القدماء، تركها هَامَة، لا تصلح لأي شيء... لعلّ هذا ما كان يجعلني أفكر فيها باستمرار. لكن عندما كنت أتذكر أعمالها اليومية البسيطة كنت أشعر براحة وأتيقّن أنها ليست قلقة ولا متألمة، خصوصاً أنه لم يكن في إمكاني أبداً تقدير الألم الذي يشعر به الآخرون، فذلك خارج عن طاقتي، أعرفه ولا أتجاهله.

كانت الأحجار ناتئة ومدبَّبة تحت أقدامي، رأيت طيور القَوبَع تحلِّق بعيدة حول الخيام، تحوم في الوقت الذي كنت أسمع فيه أصوات الفؤوس وهي ترتطم وترنُّ فوق الأحجار.. مشيت ببطء، واتكأت في ظل البولدزر.. وغابت طيور القَوبَع.. نباتات ميتة

وخضراء، كثيفة ومقصوصة بين الأحجار. . . الأجسام ترتفع، تنحدر وتتكور على نفسها كالدود. ورنين الفؤوس، وصمت غير شرعي يحتوي المكان تحت ظل البولدزر الممتد إلى بعيد، من جذر العجلة الحجرية.

تعبت كثيراً اليوم ولم تكن لي أية رغبة في العمل. كنت أسير، أتغيّب أحياناً وأعود لأتأمل طيور القَوبَع التي تملأ الفضاء. أنظر بإلحاح إلى جبل مُسنَّم أجدب كالتلّ، أحياناً أخرى أتصور الجِمال تتلألأ متحركة في فيلم حربي. . لا أحب أفلام الحرب. نظرت، وفكرت وأحببت الظل. لم يكن الهواء كثيفاً خانقاً ولا حاراً. رياح خفيفة ومعتدلة من شهر نوفمبر هي التي تهبُّ، تأتي مسرعة ثم تتوقف لتمتلك هوة جديدة تستأنف السباق بعد ذلك. أخرجت سيجارة وفكرت في الريح، الريح التي تأتي من أي مكان أو من لا مكان. هل هي الريح نفسها يا ترى تمضي وتعود بشكل أو بآخر؟ ورأيت الأجسام المنحنية كالديدان، الملتوية كالديدان. . صوت الفؤوس وارتطامها بالأحجار باهت إلى حدِّ الانتحار. وقفت ونظرت خلف البولدزر. ولم يكن هناك سوى لون أبيض بشكل قبّة بعيداً في الاتساع الغربي. . أنغام وهمية تأتي من هناك. أنغام لكن بلا وقع تمطط وتنحدر إلى أسفل. أحياناً تختلط مع رائحة إبطي النتنة. وأحياناً أخرى تتجه بسرعة وتخترق تلك الأجسام التي تنبشُ الأرضَ. كنت أتصورهم وقد استمعوا لها، ثم سقطوا جميعاً من جراء الانفعال إلى الأرض. وفي الواقع. . لم تكن هناك أنغام. هناك هلوسات فقط، وخيالات كثيرة التشعب. دخّنت وملأت صدري ورئتي واتجهت وسط حجم ظل البولدزر. . وقفت قرب الأجسام المنحنية التي تنبش الأرض. واقترحت لا شعورياً على أحدهم:

- اسمع يمكنك أن تمضي خلف قدور.. هذا المتر يستطيع أن يحفره برواك. وهزَّ برواك رأسه، وأراح الفأس على نصفه التحتي، ونظر جهة الخيمتين، وقال بانشراح:

- أي نعم سي عباس! أنا أفعل هذا.

ولم يتكلم قدور. كان لا مبالياً بالحوار. ترك الفأس في الحفرة وأمسك بالبالة، مضى بها وهو يضعها فوق كتفه. سار كمن يمشي نحو هدفٍ بعيد، وفكرت أن هؤلاء لا يعرفون تلك الأنغام التي تنحدر من ذواتنا. نظرت إلى رقعة كبيرة في مؤخرته ونظرت إلى رجليه الحافيتين اللتين ترتطمان بالأحجار.. ولستُ أدري إذا كان يتألم أم لا.. سارَ أيضاً وأغرق في المسير. وقلت لبرواك:

- تضرب بالفأس أولاً.. خُذْ بالة بعلي.

أجاب:

- سي عباس. انظر هناك. البالة لن تفعل شيئاً. الفأس أولاً تقلع الحجر.

- بعلي.. الأرض رطبة أمامه وهو يحتاج إلى البالة. انظر هنا، الأرض طايبة.

- صحيح.. اضرب أولاً تحت الأحجار وإذا انتهيت خُذْ عربة يد وانقل التراب من هناك.. لتملأ الثغرات.

قال نعم برأسه، وزقزقت القوابع فوقنا. وأزاح بعلي طاقيته وترك رأسه تحت الشمس الدافئة. كان يتنفس بهدوء وينظر باتجاه الطريق، بل ينظر نحو أشجار صغيرة كثيفة ومتماسكة بشكل غابة. ولكنها نادرة وقليلة ولا تملأ الأفق. أشجار كالدَّوم بلا قامات.. كالحلفاء.. وشعرت برأفة تغزو قلبي. رأفة على من؟ لستُ أدري ربما على نفسي، ربما على الآخرين. وأخرجتُ سيجارة وبدأت

أدخن. كنت كثير التدخين في حالات خاصة، أشعر فيها بيأس من كل شيء وبجدوى لا شيء. ونظر بعلي في وجهي:

- سي عباس، أعطيني واحدة!

ورأيت رأسه العاري ينتفخ حتى يصير بحجم القبّة. أخرجت سيجارة وأعطيته إياها، كان معي نصف علبة. وقدمت الباقي لهم. وذهبت إلى رأس الطابور، والأحجار تخزُّ قدمي، ورنين الفؤوس يتواتر في الهواء. وقلت لبحري، في مقدمة الطابور:

- هل تسير على الخطّ دائماً؟

- نعم لا يزال مرسوماً. أسيرُ دائماً في الاتجاه.

ثم توقف بصلابة:

- سي عباس.. هل تدري ماذا هناك؟ البيت الثاني على اليمين؟

قلت:

- لا...

- أمس.. ذهبت وحدي، وتحدّيت نباح الكلاب، ودخلت. هل فهمت؟

قلت:

- نعم. تقصد أن هناك وليات.

- نعم، وليات وأي وليات! خمّنت ذلك عندما رأيت حركة غير عادية دخولاً وخروجاً.

ونظرت في البيت الثاني إلى اليمين. لم يكن هناك أي آدمي يتحرك. هل صحيح أن الوليات يوجدن حتى هنا، في هذه المناطق النائية.

وقلت لبحري:

- هل أنت متأكد أم أنك تتهكم؟

- واللّه يا سي عباس. تستطيع أن ترى ذلك بنفسك. أربع وليات صغيرات. جئتك أمس ووجدتك نائماً. لم أرد أن أوقظك. كنت نائماً وكتاب فوق صدرك مفتوح في نصفه. كنت تقرأ ولا شكّ ثم نمت.

لم أجب بحري، بل نظرت في الطابور خلفي، ورأيت أجسامهم منحنية كالديدان. ثم سمعت هدير محرك قادم من بعيد. وسمعت الضربات وتوقفت السيارة عند الخيمتين خلف البولدزر، وخرج المهندس الشاب ونادى علي.

قلت لبحري:

- هيا اعملوا، ودائماً في الاتجاه نفسه.

قال نعم، وانحنى.. ثم صار دودة مثل باقي الديدان الأخرى، وتعثرتُ بالأحجار. ورأيت المهندس يدور على نفسه ويدخل في السيارة وأدار المحرك وعاد من حيث جاء. أخرج رأسه ولوح لي بيده. «سأعود بعد قليل ربما..» ثم لبثت واقفاً في مكاني قرب البولدزر، وحوّلت عيني إلى البيت الثاني عن اليمين، وبقيت مركزاً وعيي حاضراً كالزمن. ولم يمر هناك أي آدمي. فلا وليات ولا أي شيء. رنين الفؤوس فقط، وظل الآلة الضخمة يمتد نحو الرجال الذين انحنت ظهورهم وتقوست كالديدان فوق التراب، ورأيتهم ينبشون ويهوون على الأرض.

مدَّ بحري يده إلي عندما تعثرت بالأرض، ثم أخذ يلهث كالكلب وسط الليل الخفيف. وتجاوزني بحري بعدة أمتار وتوقف. ظللت في الحفرة بضع ثوانٍ وخرجت فلحقت به. وجدته لا يزال يلهث كالكلب. بحري يلهث كالكلب. وكان البيت الثاني عن اليمين هادئاً وفيه ضوء. ومدَّ بحري يده تجاه البيت في سواد الليل وقال:

- هيا نحن هنا.

قلت لبحري:

- إنهن نائمات.

قال بحري:

- لا يهم. سيكون الشيخ خلف صلفة الباب.

قلت:

- من الشيخ؟

- هو، أبوهن أو أخوهن.. أو.. الوليات.

- هل معهن الشيخ؟

- نعم قالت إحداهن إنه عمهن.

- قلت:

- اذهب وحدك.

- سي عباس!

ولم أجب ولم أتحرك. توقفت قدمي اليمنى عند حافة الحفرة في الليل الخفيف، وبدا لي بحري جزءاً من الليل. ولم يكن، في حقيقة الأمر، شيئاً كالليل. الليل هو الذي يشبهه أو كليهما لم يكن يشبه الآخر. ثم أخذت الحفرة تغور تحت قدمي، والضوء يزداد لمعاناً في البيت. وسار بحري بعيداً وغاب. دخل في ثقب ليلي وغاب. ثم خرج من الثقب نفسه ومشى نحوي. ونظرت إليه، لكنني لم أكن أراه ولا أميّزه.

- سي عباس. هيا فالوليات موجودات. الشيخ وراء الضلفة كالجرو.

وقبل أن ندخل في الثقب، تنفست، ورأيت أضواءنا الباهتة في البعث. لقد توقفت الأجسام عن الالتواء والانحناء الآن. وهم ربما كانوا يفعلون شيئاً آخر. وربما خرجوا للتغوط في الخلاء بين الأحجار الناتئة. غداً في الصباح سيجدون فضلاتهم وقد فقدت لونها

الأول ومبتلة بالندى. وربما دفنوها في حفرة صغيرة مثلما تفعل بعض الحيوانات، بل ربما أخطأها بعضهم ووقع فيها فيضحك عليه زملاؤه. وعندما تنفستُ رأيت جسماً مكوّماً في الثقب ولم يكن له أي شكل، ولا تظهر منه أية علامة تميّزه. بدا وجهه له عينان وأنف وفم مثل السيكس. وعندما تحرك ظهر وجه وسط دائرة من القماش ولما انفتح الفم وانغلق اتضح أنه بالفعل مثل السيكس. سيكس عجوز وقذر، ثم غطّى القماش بسرعة ذلك الوجه الذي يشبه جذع البلوط، واختفى الأنف والعينان، واستعاد الشكل وضعه اللاشكلي.

وقال بحري:

- الليل جميل!

قلت:

- الهواء رائع!

قال:

- الوليات إنسانيات.

قلت:

- الناس كرماء.

قال:

- سنذهب لنرى.

قلت:

- لا داعي لذلك. لأننا لسنا في حاجة إلى.

قال:

- الأرض صلبة وفيها أحجار.

- أي صحيح. وستعملون مدة أربعة أيام أخرى أو خمسة.

- وماذا بعد ذلك؟ هل ننتقل؟

- مكان آخر ينتظركم خلف المجموعة الثانية.

قال بحري:

- سي عباس!

قلت: نعم.

قال:

- الوليات إنسانيات.

قلت:

- الشيخ ليس أباهم ولا أمهم.

قال بحري:

- سي عباس..

قلت:

- نعم.

قال:

- رأيتك تعلو بالجزء الأسفل من جسمك؟؟

قلت:

- تكذب بحري.. كيف ذلك.

قال:

- رأيتك رغم أن الغرفة كانت مظلمة. ألم ترني؟

- لا..

- لماذا؟ سي عباس.

- كنت أفكر في الشيخ.

قال بحري:

- سي عباس. هل نأتي كل مساء.

قلت:

- نترك المجال للآخرين.

قال:

- سي عباس لا تقل هذا. إنهم يخافون من العقاب.

قلت:

- أي عقاب؟

قال:

- اللّٰه! سي عباس.

- إنه ليس قاسياً بالشكل الذي يتصورون.

- من أدراك سي عباس. الحق. اللّٰه أعلم.

ومدَّ لي بحري يده في الظلام ولم أسقط في الحفرة هذه المرة. كان هناك نتوء في الأرض، بل نتوءات. كانت الأضواء كثيرة وباهتة ومتفرقة في هذا الخلاء الأسود. الضوء في البيت الثاني عن اليمين. والضوء في الخيمتين. وظهرت لنا الآلة البولدزر عالية وضخمة كالجبل. لأول مرة شعرت أننا في صحراء. وتخيلت أن مئات من الجمال العشارية تهجم علينا وترفسنا وهي تزبد، تعضنا وتجرجرنا حتى نموت. إن الجمل العشاري بإمكانه أن يهز خيمة بسهولة وأن يدوس عشرة أشخاص دفعة واحدة. وقلت لبحري:

- بحري هل لك فكرة عن الإبل العشارية؟

- آه، سي عباس لا تتحدث عن ذلك. إنها تقتل في الثانية.

قلت:

- هل سبق أن رأيت شخصاً قتله جمل عشاري.

- الحقيقة سي عباس، لا..

قلت:

- انظر الخيميتين. إنهما تشبهان جملين عشاريين.

- آه سي عباس. صدقت.. الأحجار ناتئة وهواء الصحراء رطب في الليل.

قلت:

- بحري، هل نعود؟
- سي عباس، إلى أين؟
- البيت الثاني على اليمين.
- يقال إن الإكثار من ذلك يُذهب بالصحة، سي عباس.

ومضيت صامتاً قرب بحري. وسمعت الأنغام، وحاولت أن أتخيّل الأنغام فلم أستطع. الضوء باهت في المكان، وهواء رطب آتٍ من الصحراء، وتخيلتهم جميعاً يتحدثون عن أبنائهم ومشاريعهم. وتخيلت أحدهم وهو ينفخ على النار في الموقد ليهيئ البراد الثالث أو الرابع. وانتبهت إلى أن بحري يجب أن يكون مكانه إلى جانبي. ونظرت إليه في الليل وهو يتعثر. ثم قلت له:

- بحري عم مساءً.. اذهب فهم ينتظرونك.

قال بحري:

- عم مساءً، سي عباس. الهواء جميل وربما لن أنام بعد.

قلت:

- عم مساءً. الساعة السادسة صباحاً غداً.

ونظرت نحو الأضواء الباهتة، حيث الوليات، وحيث الشيخ الذي لا شكل له، ولكني لم أكن أفهم شيئاً. وتنفست ودخلت إلى الخيمة. وسمعتهم يتحدثون أيضاً، ولم أفهم ما يقولون. كان هواء الصحراء يدخل من ثقوب الخيمة الفوقية.

خرجت من تحت الخيمة في الصباح فلفحني الهواء. ومشيت فوق الأرض وفتحت عيني جيداً. خيمتهم لا تزال نائمة. رأيت الندى فوق الأحجار، ورأيته فوق الخضرة القليلة على التراب، ورأيت الشمس كذلك. أما البولدزر فرابضة كالجمل بعيداً بلا حراك، وسمعت همهمة في الخيمة المجاورة، وأصواتاً تلغط، فرجعت إلى خيمتي ونمت من جديد.

استيقظت في العاشرة، وذهبت إلى المجموعة وأخذت فأساً وضربت أمام الطابور على الأرض. وقلت للذي خلفي: «الأرض سهلة نوعاً ما». ثم أستمرُ في الحفر ولم أستمر في الكلام. وعندما ذهبت تحت البولدزر رأيت أمي، وهي تحفر مثلهم: دودة مثل باقي الديدان، تغرس البصل وتنبش بأضافرها التربة التي تتجمع تحت جذور النعناع، ثم تفتتُ الروث أو البعر بأصابعها المتشنجة وتوزعها بالتساوي قدامها، وتنفض أصابعها ويديها ثم تقف بتعب وتدخل إلى المطبخ. رأيتها كذلك تقشِّر البصل فتدمع عيناها، وتضعه في صحن وتطلق صنبور الماء فيغرغر بحُرية وحشرجة كالبول. صوته منغم كصوت البول الذي يسيل من قامة طويلة. رأيتها وقد أنهت عملها في المطبخ. ثم خرجت لتتحدث في العتبة وهي تقول: «ابني سي عباس.. سيتزوج نصرانية (أي أوروبية).. يعرف الكثير منهن. جميلات كالملائكة..» ثم بعد أن تنهي حوارها مع نفسها أو مع غيرها تدخل لترفع غطاء الإناء، وتشمُّ رائحة البصل من جديد، خلال سحابة البخار المتصاعدة. ثم إذا أحرقها الإناء تضعه بخفة وتستغيث بسيدي هدّي: «اللّه.. سيدي هدّي!» وربما يسمعها سيدي هدّي أو لا يسمعها. وتحت البولدزر رأيت أشياء أخرى كذلك. الديدان بشكل أقواس لها أشياء تنخفض وتعلو في أيديها. وينبعث من أقدامها رنينٌ حادّ أو خافت. وترتفع البالات، فتنقلُ التراب بسرعة إلى عربات اليد فتفرغ ما في جوفها في الجانب الأيسر، وتعود خاوية، كما كانت في السابق، وأسمع وأتأمل أصواتها:

زيط ليط.. زيط ليط

زيط ليط

زيط ليط.. زيط ليط

ليط

زيط ليطر

ثم تهوي الفؤوس وترتفع البالات وتملأ عربات اليد من جديد. شعرت بتنمُّلٍ في قدمي، وببرودة تحتي، فوسعت رجلي. وأخذت أسمع صوت ابنة جارتنا ولا حتى صوت أمي، بل أخذت أسمع: زيط ليط زيط ليط زيط ليط زيط ليط.

أفرغت عربات اليد من جديد. وذهبت قدام الطابور وقلت لبعلي أن يناولني البالة فقلّبت التراب. وشعرت بعضلاتي تتوتر، وبأقدامي تغوص في بحيرات صغيرة من الماء، فسحبت قدمَي اللتين ابتلَّ حذاؤهما، واستمررت في تقليب التراب وأدرت وجهي إلى بعلي وقلت: هيا استمر. فأخذ البالة واستمر في تقليب التراب، ورأيت أغناماً بالقرب ترعى الأرض الجرداء فتلهيت بإلقاء الحجر عليها. تفرّقت الأغنام ورجعت بعيداً من الرجال. فلحق بي قدور وقال بتوسل:

- سي عباس.

قلت:

- نعم.

- أريد أن أطبخ شاياً.

نظرت في أسفل قدميه، ورأيت فردتي حذائه الممزقتين، وأصابع رجليه ناتئة كجذور الأشجار، بل كالبطاطا، ورفعت عيني إلى وجهه فبدا لي في سواد أصابع قدميه: «اذهب واعمل حسابك».

قال بفرحة كبيرة:

- ولِمَ لا يا سي عباس؟ كأسك هو الأول.

- اعطه النار كثيراً.

- كما هي العادة سي عباس، مشحراً كما هي العادة.

قلت:

- هل تطبخ في القازانة هذه المرة؟

- إي نعم سي عباس. شايها رائع. أحسن من البراد. البراريد لا تكفي.

- طيب، اطبخ جيداً.

- نعم سي عباس.

ومشيت حيث مشت الأغنام وتفرقت. ورأيت بيوتاً قصيرة ملونة، وباهتة اللون متفرقة في فسحة، وأخذت أسمع أصواتاً ضعيفة: زيط ليط زيط ليط تك تك تك تك زيط.

ومشيت بعيداً قليلاً، وبدأت أراهم وقد تجمعوا ثم تفرقوا حول الأرض كمن يوزعون غنيمة. ولم أعد أسمع الأصوات أو رنات الفؤوس. وسمعت صوت موتور ضخم لشاحنة ربما.. التفتُّ لكي لا أجد شيئاً. كان قليل من الوهم مسيطراً على حياتي. كنت وحدي وحككت أسفل بطني.. أسفل أسفل بطني، عند العانة مباشرة. ثم بدأت أسمع في لا وعي. زيط ليط زيط ليط زيط ليط زيط ليط... إلخ. وعندما سمعت هذه الأصوات. أعجبتني ولم تضايقني فأخذت أردد وأنا أتمشى بعيداً منهم: زيط ليط زيط ليط زيط ليط. وسمعت أيضاً: دك تلك درك تك زيط.

كانت الشمس حارة نسبياً، فجلست تحت شجرة، ورأيت مجرى مائياً يتجه نحو أشجار قليلة كثيفة. البيوت قليلة بيضاء وغير ذات لون. البيوت قليلة قليلة. فضاء فسيح فقط في المكان. وبدأت البولدزر تهدر في سمعي، وتخيلتها تدك صلابة الأرض، وتسوّي الأحجار. ورأيت عجلتيها الحجريتين الضخمتين فخفتُ منهما وأصابني رعب حقيقي ونهضت ومشيت نحوهم وأنا أسمع زيط ليط ليط زيط ليط..

أخذتُ أدوس الأرض بثقة وألم. كانت الأحجار منتشرة وملساء، نابتة في الرطوبة والوضوح. بعض الأحجار حادة وتخترق اللحم حتى العظام، بل تخترق العظام حتى العظام، الدكان فسيح وممتد، وسمعت الأصوات. الخلاء غريب. وسمعت الأصوات، مشيت من جديد نحوهم وظهورهم مقوسة وقد برزت أعضاؤها من ثيابهم الممزقة، وخطوت فوق الممشى الترابي على جانب الطريق التي بدأت تتضح معالمها آنئذٍ. ونظرت إلى بحري الذي لم يكن ينظر إلي. وتوجهت بقوتي إلى بعلي الذي تناسق مع رنين الفأس والمعول. وانسحبت أخيراً وسط الخيمة. ناديت على قدور وقلت له هات الشاي.

بعد فترة دخل!

- سي عباس هو ذا الشاي.
- أين هو؟
- ماذا تفضِّل؟ الكأس أم الغراف.
- كيفما تريد.
- أقترح الغراف سي عباس. فهو يحتفظ بالحرارة.
- أعتقد أن الكأس الزجاجية هي التي تحتفظ بالحرارة.
- أعتقد الغراف سي عباس.
- طيب هات الغراف.

وجلست عند باب الخيمة المنصوبة كالجمل، في مواجهتهم، وأخرجت سيجارة وجعلت أدخن ورأيتهم يعملون. كانوا قد بدأوا يبعدون الآن من الخيمتين. اقتربوا ليبتعدوا.. وأعطيت سيجارة لقدور الذي لم يكن يدخن، فتناولها ووضعها عند أذنه اليمنى. ومشى نحوهم فتجمعوا حوله ولم أقل لهم شيئاً. كانوا أشقياء يحملون بؤس العالم على أكتافهم. لذلك لم أقل لهم شيئاً. ومع

ذلك فقد كانوا سعداء إلى حدّ الحرية. ورأيتهم وقد تجمعوا وارتفعت أيديهم إلى أفواههم. وفي تلك الفترة خفّت الأصوات ولم يعد هناك رنين، بل كان الدخان والشاي، ثم استرخيت بجسمي كله على الأرض وغرست حذائي في الأرض، ودخنت بنهم وتفكير، وشربت الشاي الدافئ في الغراف المعدني. ورأيت الأرض واسعة وأشكالاً باهتة للبيوت والأشجار. وعندما وقفوا واتجهوا نحو الأدوات أخذت أراهم كالنمل. واختفت صورة الديدان في مخيلتي. وبدأوا يرسمون شبكة شديدة التعقيد. دخلت إلى الخيمة ثم خرجت، وتمططت في الهواء. وارتفعت أصوات حادة حيناً وخافتة أحياناً.

وذهبت إلى رأس الطابور الذي بدأ يبعد من الخيمتين وتناولت الفأس، وأخذت أسمع لنفسي الرنين، وأتسلى بالنغم الحجري.

كفَّ المطر عن السقوط، وظهرت الشمس في السماء وراء الأشجار. مشينا نحو النهر وكنا خمسة: الكبير لا يتجاوز خمس عشرة سنة والصغير لا يقل عمره عن الثالثة عشرة. الصغير هو أنا. ظهرت الشمس في السماء وكفّت الأمطار عن الانسياب، ضربنا الأرض بأقدامنا وهي واسعة وفجّة. فيها الغيس والطين. ومشينا نحو المجرى الصغير. مسحنا أقدامنا في العشب ودليناها في الماء. نظر الواحد إلى الآخر وقلنا هيا لنعوم. وضعوا رأسي في الماء وتثاقلت أكفهم فوق جمجمتي فأكلت الطين وشربت الماء. وسمعت الضفادع تنقنق وهي تقفز. وجاء دور أكبرنا فوضعنا أكفّنا على رأسه، وشرب الماء وقال: «مت. اتركوني لقد مت» ولم نتركه حتى مات. . وفررنا وكنا صغاراً. ثم نظرت في وجه المهندس وقلت:

- بكم تبعد هذه المنطقة منهم؟

- إنهم هناك. وهم أقرب إلينا فلا تخف. عشرون كلم على الأقل.

ومشيت نحو الماء وأدخلت قدمي في الرمل المبتل، وسمعت هدير البحر، وتخيلت الآفاق البعيدة بشكل مدن حامية، فيها كلام كثير، وفيها أناس تختلف لغاتهم عن لغتنا ونظرت إلى المهندس وقلت:

- هل نذهب إلى البار مرة ثانية؟

- ننظر في البحر ونستنشق الهواء. ثم نعود بعد ذلك.

وعندما أحسست ببرودة الرمل تحت قدمي، لاح لي وجه أكبرنا من جديد. عيناه لامعتان. في وجهه صرامة طفولية، وامتعاض من النتانة، مشينا، وكنا خمسة... الأرض متبقية، وقد كفّت الأمطار عن السقوط.

ونظر أبي إلي وهو يقول:

- من أين لك هذا الغيس في سروالك؟

قلت بثقة:

- دفعني حمادي في بركة مائية.

- هذا الغيس هو غيس النهر وليس غيس البرك. انظر الطين. هل تكذب؟

- لا أكذب. كيف أذهب إلى النهر وهو بعيد.

وعندما أمكسنا برأسه، ودفعناه في الماء زعق كالكلب وقال إنه يموت غير أن أحداً منا لم يعترف بموته. وعندما مات صمتنا وحدقنا في وجوهنا. ولم تكن الشمس غائبة وراء الأشجار ولكنها مشتعلة وكثيرة الالتهاب. وسمعت حفيف الخُطى مع حفيف الماء في البحر. وقال المهندس:

- هذا المكان قريب من إفني. الطريق التي ننشئها ستؤدي إلى موريتانيا.

- سمعت أنها تؤدّي إلى مالي.

- غير صحيح. مالي لا نتعامل معها. ولكن الطريق ستؤدي إلى موريتانيا.

- هل كان الناس يزورون موريتانيا في السابق؟

- كانوا يفعلون. وكانوا يركبون الإبل. أعرف تجّاراً كانوا يخترقون موريتانيا ويذهبون إلى السنغال.

- أعتقد أن صاحبة البار كانت تتعامل مع أولئك الناس فقط.

- لا . . أولئك الناس لا يعرفون البارات. إنهم يعرفون الإبل ويتحدثون عن الصحراء والنخيل والصلوات الخمس ولا يضيعون أوقاتها.

ومشيتُ نحو الماء عندما رأيت الأمواج قادمة بيضاء، وتلهّيت بالصمت. وشممت رائحة النبيذ من فم المهندس. ثم ابتعد مني فلحقت به. وظللنا ننظر إلى شاحنات تمرُّ من الطريق. وتعالى هدير شاحنات وارتفع الدخان. وتكوّرت الأرض وقفزت الضفادع فأكلت الطين من جديد وشربت ماء قذراً. قلت للمهندس الشاب:

- لا أطيق طعم الطين.

ماذا تعني؟

- الطين. . لا أطيق طعمه.

- هل أنت مجنون؟ مالك ومال الطين. هل أنت سلحفاة؟

- لا . . لست سلحفاة.

وسمعت أكبرنا يزعق كالكلب وهو يموت. وتوقف أربعة صغار. قال الأول: نحن جميعاً قتلناه. قال الثاني: لم نقتله ولكنه مات وحده. قال الثالث: لن نقول لأحد وإلا قتلونا. وبكى الرابع في صمت. بينما الخامس كان قد مات. وبدأت أحرك شدقي وأتلافى مضغ كمية الطين، بصقتها على الشاطئ بقرف ومرارة.

وقال المهندس الشاب:

- يبدو أن حالتك سيئة. هل ترغب في كؤوس أخرى؟

قلت:

- نعم. لا أطيق طعم الطين. إنه في فمي.

- ابصقه إذا كان في فمك.

- لا أستطيع إنه في دمي.

مشينا وسمعنا الماء خلفنا. وسبقني إلى البار وبقيت في الخارج أنظر في الطريق الطويل. ليس هناك شاحنة. وقلت للمهندس الشاب:

- متى ننتهي من هذه الطريق؟

- أنت أدرى مني بذلك.

- أقصد آخر أجل لإتمامه.

- أعتقد أنه لم يتم إلا بعد شهرين.

- هل يمتد حقاً إلى موريتانيا؟

- سمعت ذلك.

ثم بعد صمت:

- لماذا لا يقيمون مدينة هنا في هذا الشاطئ.. مدينة جميلة؟

- مثل أكادير.

- إن الأرض هنا خراب ولا تعطي شيئاً. لماذا مدينة ساحلية بلا ميناء؟

- نعم.

وشربت ونظرت من خلال الزجاج. وخرج المهندس الشاب، وتفسَّح قليلاً ولم يعد. انتظرته طويلاً واعتقدت أنه سكر. غير أنه عاد في الأخير. وضرب على كتفي وقال:

- اشرب أيضاً يا رئيس الورشة.

فضحكت وقلت:

- اشرب أيضاً يا مهندس الورشة.

فضحك رئيس الورشة ومهندس الورشة معاً. وعرف رئيس الورشة أن مهندس الورشة ورئيس الورشة قد شربا كثيراً. شابٌّ طيب ولكنه في الواقع لم يكن سوى إنسان بسيط، جعلت منه حياته ذلك الإنسان الغامض. والذي يبدو للآخرين أنه لا يحب سوى نفسه، في الواقع لم يكن يحب إلا الآخرين. كان منطوياً وغامضاً. ولم يكن يشبه كبيرنا الذي قتلناه ولم يعرف بموته أحد. كبرنا ونسينا موته.. غير أنه حاضر في كل لحظة بالنسبة إلي. وأبعدته من ذهني وأنا أقول:

- هل تأخذني إلى الورشة؟

قال: نعم.

وأدار المحرِّك. وتوقفنا عند الورشة فانسحب. ومشيت إلى خيمتهم وشربت الشاي في الكأس. وقال بحري:

- سي عباس، هل تذهب إلى الوليات؟

قلت:

- لا.. سأذهب لأكتب رسائل، أنا تعب.

قال:

- سي عباس. لقد سألن عنك.

قلت:

- قل لهن سأجيء غداً.

ونظر بعلي في وجهي وهو يقول:

- سي عباس نزيدك أتاي.

قلت:

- شكراً. أتاي يؤرقني. وأنا في حاجة إلى النوم، ليلة سعيدة.

وخرجت من الخيمة وتوجهت إلى خيمتي. كانت الأرض حجرية صلبة. مشيت فوقها ورأيت ضوء الوليات البيت الثاني على اليمين، ثم ترددت في الفضاء العام كالزعيق.. زيط ليط زيط..

وتوقفت عند باب الخيمة وبصقت كمية كبيرة من الطين في فمي. وأشعلت سيجارة لكي أشوّه بها طعم الغيس في فمي. وشممت رائحة التبغ، غير أني سمعت الضفادع تنقنق. وذهبت وأشعلت اللمبة، فانتشر ضوء خفيف، وبدأت أكتب رسالة لأمي كي أطمئنها على حالتي.

استيقظت مبكراً ففقد فمي طعم الغيس والطين. خرجت وكانت ملامح من الشمس فقط مرسومة وراء الحواجز. هنا الأرض تشبه تلك التي قرب تارجيست. هناك الجبال المرتفعة السامقة وهنا الأرض بلا جبال. لكن الصلابة واحدة. والعنفوان والقوة متشابهان. وزقزقت في ذلك الصباح المبكر طيور القَوبَع، فاستفقت بصفة نهائية وأيقظتهم، فخرجوا ولووا ظهورهم وصاروا كالديدان. جاء برواك وطلب أن يهيّئ شاياً فقلت له أن يفعل. وجاءت الشاحنة ثم اختفت. وجرّ قدور عربة الزفت. ورشّ الحصى الأبيض، وأخذ البياض يستحيل إلى سواد. وكانت مناطق أخرى كثيرة بيضاء، وفوقها التواءات وانحناءات تنبعث منها أنّات. وعندما انتصف النهار جاء بحري وهو يقول:

- سي عباس إن الوليات قد هيأن الطعام.

- ماذا؟ هل نتغذى عندهن؟

- أي نعم سي عباس.. لقد تدبرت الأمر.

قلت:

- لماذا تدبرته وحدك ولم تخبرني؟

قال بحري وهو يتمخط:

- اسمع سي عباس. أنت شاب. والشبان لا يستشارون في أمور مثل هذه.

مشينا نحو الكورنيش على الأقدام. وتحت البنايات واحدة توقفت. وقلت للأحمر أن يمضي قبلي. فأصرُّ على أن أمضي وحدي وسيتبعني بعد ذلك. قلت:

- الأحمر.. إنها تنظر إليك.

- لا.. بل تنظر إليك أنت.

- طيب. إذا اصطدتها لا تقل شيئاً.

- لن أقول شيئاً.

اقتربت وتحدثت إليها. ونظرت في وجهي تحت الظل. خلف زجاج المقهى لم أكن أرى شيئاً. سوى الأشباح. وقالت بغضب شديد:

- أمثالكم كثروا في الكورنيش.

قلت بكبرياء:

- من تقصدين؟ أنا.

- نعم أنت.. من أقصد؟ هي تحرك وإلا خرج لك.

ولم أتحرك لكني تلقيت ضربة قوية. ورأيت الأحمر قادماً في غضب. ورأيت أيادي ترتفع وتهوي. وسحبني الأحمر إلى الخلف. وقال: «لنأخذ تاكسي ولنهجر الكورنيش». كانت الأرض صلبة والأحجار مدببة تحت قدمي. سبقت بحري لأني كنت أعرف أين أسير. البيت الثاني على اليمين. توقفت وتنفست، وشعرت بالطين في أنفي وفمي. وقلت لبحري:

- هل الشيخ لا يزال هناك؟

اختفى جزء من جسمه وراء نباتات خضراء. ولاح جسمه كله. ورأيته.

قال بحري:

- أي نعم.. سي عباس! وماذا تعتقد؟ إنه كالعلقة تتغذى من دمائهن.

- هل تعتقد أن الشيخ يقوى على الشجار.

ضحك بحري، وبانت أسنانه الغليظة اللامعة:

- مالك سي عباس؟ هل خفت منه؟

ثم استمر في ضحك عنيف:

- قيش مثله لا ينفع ولا يضر، إن لكمة واحدة تلحقه بالجنة فوراً.

وتجنبت فضلات آدمية أمامي. ومشيت نحو البيت الثاني على اليمين. وقال بحري:

- سي عباس! نهار جميل!

قلت:

- أي نعم. الشمس غير حارة ولا باردة.

قال بحري:

- الوليات اغتسلن هل تشم رائحة شيء؟

قلت:

- نعم. رائحة اللحم المطبوخ.

- لا سي عباس. شيء آخر.

- رائحة إبطي.

- أوه، سي عباس كلنا لنا روائحنا. شيء آخر. أنا لا أقصد الطعام.

- رائحة السفرجل المطبوخ.

- لا سي عباس.

ثم أخذ يضحك بهيستيريا. توقفنا لحظة. سمعنا هدير محرك سيارة قادمة نحو الخيمتين. قال بحري:

- سيارة المهندس. ماذا يريد سي عباس؟ سأذهب إليه، انتظرني. ومشى يركض كحيوان وحشي في الخلاء. كانت رجله اليسرى لا تتوازن مع الرجل اليمنى. وظللت أنظر إليه وهو يركض ثم اختفى قليلاً. يحرك يديه ويشير إلي. حرك المهندس يديه ودخل في سيارته. ثم اختفى. قال بحري:

- إنه يريد أن يقول لك أشياء خاصة.

قلت له:

- قل لي.

فلم يرد، قال: في المساء سيراك لا داعي لأن يضايقك الآن.

ودخلنا ولم نرَ الشيخ. ووقف بحري وصاح بأعلى صوته: «فاطمة!». وخرجت الصغرى من ثقب وكانت حمراء الوجه. قال بحري:

- أين هو؟

- ادخل واسكت. قالت.

- أين هو؟ سي عباس يريده.

قلت بغضب:

- اسكت بحري لا أريده. من قال لك ذلك؟

وضحك بحري ورأيت أسنانه الغليظة اللامعة تهتز ويخرج منها الحلب. حلب أبيض مختلط بصفرة. قلت: «اجمع لعابك أولاً. بحري»، قال بحري: «سي عباس.. إنه هنا. أراهن على أنه نائم».

وعندما خرجنا، توقفت أمام البيت الثاني على اليمين. وتبعني بحري وهو يقول:

- سي عباس لقد خرج الآن. كان نائماً ألم أقل لك؟

- . . .

- سي عباس إنه كالعلقة يعيش من دمهن.

- لا تقل هذا! إنه شيخ. ماذا تنتظر من شيخ أن يفعل؟

- يفعل أي شيء سي عباس، إنه ينام معهن أيضاً.

- لا تقل هذا. هنّ حرام عليه.

- أنت لا تعرف شيئاً سي عباس. من قال لك هذا؟

ومشينا نحو الخيمتين ورأينا البولدزر وتحاشيتُ الفضلات الآدمية، وقال بحري:

- سي عباس. النهار جميل.

قلت:

- أي نعم.

- انظر الشمس، سي عباس.

- لا حارّة ولا باردة.

فسكت بحري، وأضفت:

- أنتم ستعملون هذا اليوم. وتوشكون أن تنهوا الطريق.

- الطريق طويل سي عباس. يقال إن أمامنا شهرين. انظر الخيمتين. إنهما تبدوان بعيدتين من مكان العمل.

- ستنتهون.

قال بحري:

- عندما ننتهي ستتأسف على الوليات.

قلت:

- هنا وليات في كل مكان بحري، حتى في تارجيست.

- الأرض متشابهة في كل مكان سي عباس.

- انظر إنها صلبة ومع ذلك..

- ومع ذلك سي عباس، نحن وطيناها.

وصمت بحري قليلاً. وقبل أن نتجاوز الحفير إلى الخيمتين، قال وقد لاحت أسنانه الغليظة اللامعة:

- هل تدري سي عباس؟

- أي نعم.

- لقد رأيتك تهتز هذه المرة بنصفك الأسفل فقط.

- رأيتك كذلك بحري. اذهب وقُلْ لهم بعد نصف ساعة أن يبدؤوا العمل. سأنام.

- لقد كنت تهتز سي عباس.. رأيتك بعيني هاتين..

قلت ببرود:

- رأيتك كذلك. زيط ليط. قُلْ لهم أن يبدأوا العمل. زيط ليط. بعد نصف ساعة. زيط ليط.

قال بحري:

- سأقول لهم سي عباس.

ثم مضى ودخل في الخيمة. رأيت البولدزر رابضة. والظل قصيراً ممتداً من عجلتيها الحجريتين. ورأيت الفؤوس متكئة، ورأيت البالات مكومة.. وأخذت أسمع الهدير مختلطاً بزقزقة طيور القَوبَع في الصحراء. وامتدَّ نغمٌ حزين في المكان!

تمددتُ لأستريح وأخذت أفكر في الشيخ العجوز وفي بحري. ورأيت وجه فاطمة مستديراً أحمر، يطفر الدم منه. وشعرت بتعب. وبرغبة في أن أنام. تمددت، وأغفيت.

نزلت أمي إلى تحت. فتّشتْ في التراب تحت جذور النعناع والبصل فشممت رائحته. وذرذرت العدس والشعير فقطقطت الدجاجتان وطارتا بسرعة. تفرَّقتا ثم اجتمعتا. وأكلتا ثم ضربتا الأرض بمنقاريهما. اختفتا ثم عادتا للظهور. حرَّكت أمي يديها وقالت:

- اش. . كتكتكتكت.

فتفرقت الدجاجتان وطارتا وقطقطتا. اختفتا ثم عادتا للظهور. فصبّت أمي الماء من المقراج على النعناع فلوى النعناع رأسه واخضرَّ وأخرج رائحة مشهية. وعندما سمعت صوتاً في الباحة أطللت برأسي من النافذة. فقالت أمي: «إن الدجاجتين لا تريدان أن تأكلا. انظر النعناع وقد لوى عنقه واخضرّ». فلم أسمعها جيداً وأدخلت رأسي وشممت البصل، ورأيت البولدزر ورأيت كذلك الديدان ملتوية تنبش الأرض وقد ابتعدت هذه المرة من الخيمتين. ثم جاء بحري وأعطاني الرسالة ففتحتها وقرأت ما يلي: «. . . أبوك لا يزال غائباً. إنه مسخوط ورجل قاسٍ ما عرفت مثله في حياتي قط. هل يعقل أن يذهب هذه السنوات ولا يزورنا ولو مرة واحدة فقط. إني أحترمه كثيراً يا إبني. فلنطلب مغفرة ربنا من أجله». ثم بعيداً من السطور. قرأت هذه الآيات: «ومن الناس من يعبد اللّه على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به. وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون اللّه ما لا يضره وما لا ينفعه، ذلك هو الضلال البعيد، يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير. . . » وتوقفت الرسالة عند هذا الحدّ. ورأيت إمضاء ابن جارتنا. شابٌّ معتوه يحفظ القرآن ويظل يردده. وإذا طلب منه أن يكتب رسالة أقحم فيها آية أو آيات. يدخل إلى البيت ويقرأ القرآن. يخرج منه ويقرأ القرآن. يردد آيات. ويقول: هذه في النهي عن التدخين. وهذه في النهي عن تقليد الغرب. وهذه عن تحريم السينما والأفلام الماجنة. كل ما لا يرضيه يردد عليه آية من الآيات. ثم طويت الرسالة ورأيت عربة الزفت. وأدخلتها في جيبي، فرأيت عربة الزفت. كانت الحجارة صغيرة ناتئة تحت أقدامي. فرأيت الزفت أسود يُرش فوق الحصى. وفجأة قفزت

الدجاجتان، ورأيتها ترش الماء من المقراج على النعناع، فأطللت من النافذة وقلت: «هات الغذاء» وجاء بحري وفي يده الفأس:

- خير سي عباس.
- خير، بحري. الحياة عادية.
- كيف حال الوالدة سي عباس؟
- بخير.
- حمداً للَّه سي عباس.

ثم انحنى بعيداً وحفر في التراب وأرخى فأسه. واختفى وراء بعلي وأنَّت عربة يد بين ذراعيه: زيط ليط. وصبَّ التراب، فرأيت الدجاجتين ورأيت الزفت. وقلت:

- كيف حال قدور؟
- لا يزال نائماً سي عباس.
- ما الذي يؤلمه؟
- لا شيء سي عباس. أو.. كل شيء سي عباس.
- كيف ذلك، كل شيء؟
- به حمّى، في الحقيقة لم يعد يطيق العيش هنا؟
- أعتقد أنه به روماتيزم.
- أشنو روماطيز، سي عباس؟
- الروماتيزم مرض قبيح.
- اللَّه يحفظنا سي عباس. حماه مرتفعة وهو يئنُّ ويكاد يموت.
- بحري أين المهندس؟
- جاء قبل لحظة سي عباس. واختفى فجأة. أنت تعرف سي عباس. كالبرق بسرعة يأتي، وبسرعة يمضي.

أطرقت وتحسست الرسالة في جيبي، وكانت عربة الزفت لا

تزال تسوِّد بياض الطريق، تئنُّ عربة اليد في مكان بعيد، تنقل الحصى، تئنُّ، وقلت من خلال يأس شديد:

- اشتغلوا، سأذهب لأراه.

- سي عباس! قال لن أطبخ له شاياً.

- تعال معي. لكن ليس في تلك القازانة القذرة.

- لا سي عباس. عندنا البراد.

ورأيته وقد اصفرَّ. ارتفعت حماه، وارتعشت شفتاه وأمسك بيدي وهو يقول في ألم حادّ:

- سي عباس. أموت. أوصيك. أوصيك.

ثم سكت. وأغلق عينيه وفتحهما. قلت بحزم:

- هيا قدور. . الحمّى شيء بسيط. كل الناس تمرض بالحمّى.

قال الآخر:

- لكنه يتألم سي عباس بكثرة.

قلت:

- الألم بسيط. أطبخ الشاي واسكت. هيا أشعل النار.

قال قدور:

- ليس بسيطاً سي عباس بالقدر. . بالقدر الذي. .

قلت:

- اشرب شاياً وستعود إلى حالتك الطبيعية.

- شكراً سي عباس.

واختفيت خارج الخيمة. كانت براميل الماء مصطفة وفارغة. رأيت الزفت ورأيت الدجاجتين. شممت البصل وتحسست الرسالة. جاء بحري. ذهب بحري. ارتفعت الفأس. رشَّ الزفت. ابيضّت الأرض. اسودّت الأرض. قطقطت الدجاجتان. أطللت من النافذة. قلت: الغداء: زقزقت طور القَوبَع. لاحت براميل الماء. زيط ليط.

تحركت عربات اليد. زيط ليط. سمعت القَوابَع. زيط ليط. ارتفعت حماه. زيط ليط. جاء بحري. زيط ليط. مضى بحري. زيط ليط. نتؤت الأحجار. زيط ليط.

مشيت وابتعدت قليلاً. كانت أصواتهم بعيدة. وتوقفت وقلت للمهندس:

- إن حالته خطيرة. هل هناك سيارة جيب عند الفرقة الأخرى؟

- نعم. هناك سيارة. لكن لماذا؟

- نأخذه إلى أقرب مستشفى. المسألة أعوص من الحمّى.

- ثلاثون كيلومتراً كلها. المستشفى بعيد.

- نأخذه مع ذلك. أبعث معه سائقاً يأخذه على الأقل إلى هناك. بعد ذلك يتدبرون أمره.

حملناه وشفتاه ترتعشان. ألقيناه في الجيب فأنَّ أنيناً شديداً حتى بكى.

قال إنه يحس بالبرد. مد يديه بارتعاش:

- سي عباس. أشعر بالبرد. قُلْ لهم أن يعالجوني.

- لا تخف، سيعتنون بك.

- شكراً سي عباس.

قلت للسائق أن يمضي. فارتفع غبار بعيد. وانتشرت إذ ذاك نباتات قصيرة في الأرض. لاصقة بها بلا سيقان. التفتُّ نحوهم. فقلت أن يذهبوا إلى عملهم. جاؤوا ليروا صديقهم. قلت بحزم:

- لا شيء. إنه مريض بالحمّى. يعطونه قرصاً صغيراً فيشفى.

قال بحري:

- لا أعتقد سي عباس. ألم ترَ صفرته؟

قلت بحزم:

- اذهب واعمل، تجعل من الحبة قبة.

تفرقوا. ثم انحنوا والتووا. دسَّت الأحجار. وظهروا لي كالديدان. سمعت زيط ليط. ورأيت الدجاج. أطللت من النافذة وقلت: هات الطعام. وشممت البصل. ورأيت السبنية الملونة فوق رأس أمي، وهي تحرك يديها، وتنثر العدس والشعير وتقول بصوت واهٍ: كتكتكتكتكت. وتلمع السبنية مع الشمس. فأرى أبي وقد غضب وأطلَّ وراء الخيمتين فيلوح لي البيت الثاني على اليمين، وتبدو الحفرات كخنادق في ساحة القتال، وأسمع زيط ليط. الهواء جميل سي عباس. زيط ليط. رأيتك تهتز. زيط ليط. الولية تريد لو.. زيط ليط. عنده حمّى. زيط ليط. اتبعها أنت. زيط ليط. الأحمر، اتبعها أنت. ثم ذهبت وشربت شاياً وجلست في ظل الخيمة القصير. وجاء بحري ونظر في ساعتي.

- الثانية عشرة سي عباس.

قلت بوضوح:

- هيا توقفوا وتغذوا.

- هل تأتي معنا سي عباس؟

- سآتي.

- شكراً سي عباس.

وتبعته إلى الخيمة الأخرى.

بعد الظهر عادت سيارة الجيب. اخترقت النباتات الكثيفة الخضراء فغطّى هديرها قضقضة الأغصان التي تدلت كاليأس. ذهبت على الفور وناديت على بحري فأخرجت قدور وألقيناه داخل الخيمة، وفجأة اكتشفنا أنه مات. اكتشفه برواك عندما دخل ليهيّئ الشاي. قال له أن يهيّئ له شاياً فلم يجب. ثم خرج وهو يركض صارخاً في وجوهنا: «لقد مات! لقد مات!» وشهق شهيقاً قوياً ومؤثراً ورفع يديه إلى رأسه حتى ارتفع قميصه عن بطنه. وقبل أن ندفنه كنت قد ترددت

في الأمر. هل المكان صالح للدفن؟ هل ندفنه بلا إذن. لكن المجموعة كلها اتّفقت على الدفن في المساء، قبل أن يتعفّن الجسم. كان كل واحد يتحمل مسؤولية نفسه. هكذا فكرت. وحفرنا له حفرة بعيداً من الطريق ثم دفناه تحت ضوء اللمبات الباهت دون أن نصلي على جثمانه. لأن أحداً لم يكن يعرف الصلاة. فكل العمال لا يصلون. وأنا بدوري لم أصلِّ في حياتي قط. ولم يسبق لي أن دخلت المسجد. أهلنا عليه التراب. ثم رششنا قبره بالماء. «سطلان اثنان كافيان» قال برواك. فتكفّل هو برش القبر. ولم أدرِ ما الذي كنت أفعله أنا. دخلت إلى الخيمة وأخذت مفكرة صغيرة وسجلت ما يلي:

الاسم: قدور علي.

تاريخ الازدياد: 1935 (بلا شهر ولا يوم).

مكان الازدياد: أي زفزافن (جبال الريف).

عدد الأولاد: ..

الرقم:

ثم نظرت في الصفحة المقابلة للمفكرة الصغيرة، وقرأت فيها - كانت الكتابة بقلم الرصاص -:

1 - معجون للأسنان.

2 - صابون تايد.

3 - سطل ميكا.

4 - كريم للحلاقة.

5 - منفضة.

6 - ... (لا شيء).

تركت المكان فارغاً لأني سمعت أصواتاً خارج الخيمة. كان أحد ينادي عليّ لم أتبيّن صوته إلا فيما بعد. قفزت خارج الخيمة.

وأدرت إصبعي في أذني فهبت علي ريح خفيفة أنعشتني. قلت بتعب:

- ماذا؟

قال أحدهم:

- سي عباس يجب أن نبحث عن امرأة تهيّئ لنا قصعة كسكسو.

قال آخر:

- ليس الليلة سي عباس. قلت له أن يؤجل ذلك إلى الغد. العادة تقضي أن يهيَّأ الكسكسو بعد وفاة الميت بليلة.

قال الأول:

- في بعض المناطق، سي عباس، يهيَّأ الكسكسو في الليلة الأولى لوفاة الميت.

قال آخر:

- من الأفضل أن نهيئه اليوم. كل حبة كسكسو بألف حسنة.

- إذا هيأتم الكسكسو اليوم فسوف تُذهبون جميع الحسنات.

قلت بنبرة حزينة:

- اتفقوا أولاً. اليوم أو غداً سواء.

فقال بحري:

- ولكن أيها السادة أين نجد المرأة التي تهيّئ الكسكسو؟

قالوا جميعاً بصوت واحد:

- نعم. أين نجد المرأة؟

ثم بعد لحظة صمت حاسمة، تقدَّم بحري من أذني، الجميع ينظرون إليه. قال بصوت منخفض: «الوليات سي عباس. هل نذهب عندهن؟»، ولستُ أدري كيف استطاع أن يسمعه الآخرون. فقال صوت المجموعة:

- هذا شيء غير لائق سي عباس. لا يمكن للعاهرات أن يصنعن طعام الميت. سوف يذهبن جميع حسناته.

قال آخر:

- ما لك ومال العاهرات؟ هل لك دخل إذا أردن أن يمحين ذنوبهن؟

قلت موافقاً:

- صحيح نترك لهن الفرصة كي يمحين ذنوبهن. أليس كذلك؟

قال بحري:

- سي عباس. اذهب عند النوليات. هاتوا الفلوس يا جماعة.

قلت وأنا أخرج عشرين درهماً من جيبي: «خُذ!».

وانسحب إلى الخلف. ورأيته يختفي في ظلام الليل. كان الضوء باهتاً ينبعث من ثقب خلفي في البيت الثاني على اليمين. شعرت بكثير من التعب واليأس من لا شيء. دخلت إلى الخيمة وفتشت في أوراقي الخاصة تحت ضوء اللمبة. وقررت - ولست أدري لماذا؟ - أن آخذ إجازة مرضية. كنت أحس بضيق المكان، وتعفن الهواء من حولي. وفكرت أيضاً، ولأول مرة، في أن هذا عمل لا يليق بي، وأنه يتعبني. تمددت فوق الفراش وأخذت أسترجع كل شيء، أو أتذكر أحياناً بعض الأشياء التافهة، التي حصلت لي والتي حصلت لغيري. وترددت كثيراً في اتخاذ قراري الفجائي. ولكني في الصباح حزمت أمتعتي، وركبت الجيب. قال السائق الذي كان يعرفني جيداً:

- يبدو عليك التعب الكثير، سي عباس.

لم أجب. فأضاف:

- عليك أن تستريح قليلاً. أنت دائماً خارج المدينة لماذا تنفي نفسك سي عباس؟ لو كنت مكانك!...

وصمت، فأكملت الجملة في ذهني. وظللت أتمايل بجواره عندما تهتز سيارة الجيب. نظرت عن يميني فلم يكن هناك شيء

سوى الخلاء المقفر. ونظرت عن يساري فكان هناك السائق. ثم نظرت أمامي وكان الخلاء كذلك. سيارة الجيب تخترقه. وكان هناك أزيز حادّ، وأصوات الدجاج والطيور وعربات اليد، ورنين الفؤوس وهدير آلة البولدزر. ثم أطللت من النافذة وصرخت: «هات الغذاء» ففرت الدجاجتان ووقعتا فوق النعناع وبعثرتا أوراقه. وسمعت صوتاً بجواري:

- سي عباس.. هل أثّر فيك الموت إلى هذا الحدّ؟ كلنا للّه.

قلت:

- لا لا.. لا موت ولا أي شيء. لا أدري.. فقط أريد راحة.

الحلزونات الجميلة

كانت المرتفعات - التي تغطيها الأشجار الخضراء - تمثّلُ نصف دائرة. وفي هذه المرتفعات الخضراء، غير العالية، تنتشر بيوت واطئة قليلة، متفرقة، ومختفية أحياناً. أما البحر فقد اكتسب لون الأشجار والسماء معاً: ما جعله يتميز عن اللون العادي الفاتح أو الغامق. وفي أماكن مختلفة توجد سيارات. لكن الهدوء يسيطر على المكان بشكل معقول ومثير. أما فوق رؤوسنا فقد تدلت أزهار بيضاء، ذات رائحة نفاذة. أزهار مثقلة تحت وطأة الصيف. فالحرارة شديدة والجو لطيف مع ذلك، ورائحة البحر منتشرة في فضاء فسيح. ويبدو أن (ف. .) استعذبت هذا الهدوء ونامت الآن تحت الظل الذي أخذ يتمدد أكثر باتجاه البحر. كانت أزهار بيضاء فوق رأسها وعند أنفها. وحاولت أن أوقظها لكني عدلت عن ذلك. وقفت لأرى من خلال أغصان العريشة المتشابكة أجساماً قليلة متفرقة خارج الماء وداخله. أجسام أخرى كانت ممددة فوق الرمال الحارة. مشيت وسط النباتات المغروسة في الرمل. رفعت عيني إلى السماء الزرقاء الصيفية. لم تكن هناك سحب ولا أي شيء. وسمعت خشخشة من خلفي. لقد استيقظت (ف. .) وسمعت صوتها الدافئ من خلال الأغصان المعرشة:

- هيه، دالي، أين تذهب؟

- أتمتع بالنظر إلى البحر.
- خذني معك.
- سأعدو. نامي الآن. أنظر فقط إلى البحر والمرتفعات.
- خذني معك.

سمعت خشخشة مقتربة من وصوت أغصان هزيلة تتكسر وطقطقة أعواد، ثم (ف..) تتلهى بتكسير الأعواد الصغيرة. ورأيت عوداً في فمها تمضغه. كانت هناك، أيضاً، طيور تصوّت في مكان ما. وتحلِّق مذعورة ثم تختفي نهائياً. سقطت بعض قطرات العرق من جبيني على أنفي، ثم على شفتي فشعرت بمُلُوحة مقززة. وسمعت (آي..) تبعتها (ف..) بدفء أنثوي. اجتزت الأشجار القصيرة ولحقت بها.

- هيه، مالك تصرخين؟
- لقد آلمني عود في قدمي. أنظر.
- إلبسي السوتيان أولاً. هل تذهبين معي هكذا ونهداك عاريان؟
- ليس هناك أحد. المكان خالٍ.
- وتلك البيوت والسيارات، ألا ترينها؟
- لا يهم. نلتحق بهم هكذا.
- إن هانز سيقلق.
- لا. أنا أعرف جيداً. ثم إنه ليست له سلطة علي.

تطاولت لتصل إلى فمي وقبلتني وهي تضحك.

قالت:

- تعال نفعل الحب.
- لقد فعلناه. ألا تشبعين؟
- متى؟

- قبل لحظة. ألا تذكرين؟ لا تكوني شاذة. ضعي السوتيان أولاً وتعالي ننزل إلى البحر.

- لا. تعال نفعل الحب.

- سنفعله في المساء. لقد تعبت. طاقتي محدودة. ضعي السوتيان أولاً.

كان نهداها أبيضين مثل الشمع، عكس بشرتها التي اسمرَّت بفعل الشمس. أما جسدها فهو نحيف، متناسق، وردفاها مثيران، ومع ذلك، فطاقتي محدودة. مشيت، أتخطّى الأعواد القصيرة المغروسة في الرمل. ولم أهتم للحرارة المحرقة المنبعثة من الأرض، بينما (ف...) تكرر آي.. آي.. بين الفترة والأخرى وهي تتبعني. التفتُّ إليها فلم تكن قد وضعت بعد السوتيان. صرخت في وجهها:

- هيه، ضعي السوتيان. لن أكررها مرة أخرى.

- لا.

- سأصفعك إذا لم تفعلي. هل تسمعين؟

توقفت عن المشي خائفة. وكمن أراد أن يبكي قالت بنشيج:

- أرجوك دعني. المكان خالٍ. ليس هناك أحد.

ولما أردت أن ألتحق بها فرّت وسط النباتات وهي تقول:

- سأضعه، لكن كفّ عن أن تكون وحشاً.

وقفت أنتظر. كان رأسها فقط يظهر لي، وشعرها الأشقر الذهبي يتحرك بفعل هواء خفيف لم أميّز من أي اتجاه يأتي. أخذت أنظر وجهة هانز ورالف. لم يكونا في المكان الذي تركناهما فيه. وحاولت أن أتذكر المكان لأني نسيته. كانت هناك فوطات وأشياء مكوَّمة تقترب من السواد. وخمّنتُ أن تكون تلك الأشياء السوداء ثيابنا. وبالفعل عندما التحقت بي (ف..) سألتها. قالت إن تلك

ثيابنا من غير شكّ، وأنها لا تزال تذكر المكان ولا يمكنها أن تخطئه أبداً. ثم قلت لها أين يمكن أن يكون هانز ورالف الآن، قالت إنهما في الماء. أو هما يجمعان الأصداف وبعض الأشكال البحرية النادرة. ومشينا مبتعدين، بعد ذلك، من بعضنا. كانت (ف. .) تتبعني وترسل صراخها الأليف: آي. . آي. قلت لها يجب أن تكفّ عن ذلك. سكتت لفترة وهي تتبعني. ثم سمعت آي من جديد.

كانت المرتفعات ممتدة على حافة الماء، في شكل نصف دائري، ما أعطى المكان صورة جفنة مملوءة بالماء. ولم أكن قد رأيت أحسن من هذا المكان أبداً. لقد بعث في نفسي رهبة خاصة. هناك المرتفعات والأزهار والنباتات الخضراء والماء. وبعض قوارب ملفوظة، مهملة، وبيوت قليلة وصمت. كانت (ف. .) تحب المكان كذلك.

قالت إنهم اكتشفوه بالصدفة. وفي الواقع اكتشفه هانز وحده عندما أخطأ الطريق إلى أليكانتي. توقف عندما رأى سيارات وأناساً يسبحون، وبناية واحدة صغيرة تطلُّ على الماء وقوارب. وأعجب بالمكان واقترح الذهاب إليه. كان الزفت أحياناً يطفو فوق الماء، وبعض الأعشاب والعلب التي تلفظها البواخر. لكن ذلك نادراً ما كان يحصل. وكنت أتخيّل أن هذه الأوساخ تأتي من جبل طارق. خصوصاً أنه كان يلوح لنا غير بعيد. كيلومترات قليلة من طريق البحر. سمعتُ هديراً بعيداً يأتي من الخلف. كانت (ف. .) واقفة تنظر إلى قافلة سيارات تأكل الطريق الترابي وتثير زوبعة من الغبار. ثم تختفي هذه السيارات الواحدة تلو الأخرى وسط أشجار، لتظهر مرة ثانية، عبر الطريق الترابي الذي يوغل هناك. لم نكن نستطيع أن نخمّن إلى أي مكان هي ذاهبة. فربما كان هناك مخيم، وراء هذه المرتفعات. وربما أيضاً كان هناك مكان آخر أحسن. إلا أن هذا

الاحتمال ضعيف. لم يكن عدد السيارات يتجاوز خمساً أو ستاً. أما ركّابها فلا يمكن للمرء أن يعرف كم هو عددهم، والغالب أنهم سواح وليسوا إسبانيين.

حاولت أن أرى الإسباني العجوز أنطونيو الذي كان يلعب مع هانز الشطرنج. لكنه لم يكن موجوداً. الثياب فقط مكوَّمة وحدها قرب الماء. وشعرت ببرد خفيف رغم الحرارة. وكانت النار المنبعثة من الرمل قد بدأت تخفّ حدّتها باقترابنا شيئاً من الأمواج الضعيفة المتكسرة. في الحقيقة لم تكن هناك أمواج. كنا نرى شيئاً أبيض هو مزيج من الزبد وانعكاس أشعة الشمس على الماء المنبسط. والذي يزداد زرقة كلما سرحت بصري إلى بعيد. زرقة داكنة، وزرقة أدكن أيضاً.

رأيت زجاجات بيرة فارغة متفرقة وقد لصق بها الرمل، انحنيت على واحدة ولوحت بها في الفضاء، وألقيتها على (ف. .) لكنها كانت بعيدة. سمعت كلاماً غير أني لم أفهم منه شيئاً. كانت تتحدث إلي بالألمانية. وقلتُ بدوري كلاماً بالعربية لم تفهم منه شيئاً، أو هي لم تسمعه على الإطلاق. لكن ما مهمة الكلام إذا لم يفهمه المرء. قلت مرة لـ(ف. .): الأجدر بنا أن نصمت وأن ننظر في عيون بعضنا، ونتأمل الأشياء الأخرى. لكنها قالت إني أحمق. وظللت مع ذلك صامتاً طوال المساء كله. أحياناً تنتابني الرغبة في الصمت. أشعر أنني أكرر نفسي. فالأشياء كلها قِيلت ولا يجب أن تُعاد. وأحياناً أتوصل إلى أن الصمت يؤدي إلى الجنون وأن طريق الحمق قريب جداً. كانت كتلة من شيء ساخن الآن، قد غطت ظهري وانزلقت مع عنقي. وسمعت قهقهات. قلت لـ(ف. .):

- الأفضل أن تكفّي عن المزاج.

- لقد ضربتني بزجاجة فارغة.

- لم أضربك. أنت تريدين أن يدخل الرمل عيني.

- أريد أن أراك أعمى.

ثم،

- إنك عاجز جنسياً، تعال نفعل الحب.

- أنا لا أتحدث إلى حمقاء.

وعندما وضعت ذراعها النحيل حول خصري أحسست أنها تريدني أكثر من اللازم. وضعت ذراعي حول عنقها وقبّلتها في وجنتها:

- لا تكوني شرسة يا (ف. .).

- إني أحبك.

- طيب. لا تكوني شرسة. أنت صغيرة.

وعندما وصلنا إلى المكان الذي كوّمنا فيه ثيابنا القذرة، قالت (ف. .):

- أنظر في الماء. هانز يسبح بثيابه. إنه يشير لنا.

قلت:

- لماذا يفعل ذلك؟

- إنه يفضِّل أن يكون غير عادي. لكنه سيصاب بزكام قبيح هذا المساء.

سحبت الفوطة، ونشرتها قرب كومة الثياب وتمددت فوقها. وجاءت (ف. .) لتتمدد إلى جانبي فوق الفوطة لكني لم أهتم بها. تمددت على بطني، ولففت ذراعي حول رأسي. وسمعتها تقول إنها ستذهب لتسبح وأني وحش. لكني لم أردُّ عليها، بل استعذبت الأشعة المركزة فوق ظهري، ثم بعد لحظة وجيزة، شعرت بشيء ساخن على ظهري. كانت ذرات رمل تطايرت من تحت أقدام (ف. .) من غير شكّ. وتململت قليلاً لأن دغدغتها أثّرت علي

بشكلٍ واضح. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيتْ الذرات فوق جسدي حتى ألفتها من بعد. الحرارة قوية الآن. تفصَّد إبطاي فاحتجت إلى أن أحكمها مثل أجرَب. ارتخى جسدي كلية، وتمنيت أن أظل هكذا، أكبر وقت ممكن. ولم أكن أتمنى شيئاً آخر حتى لو دعيت لشرب بيرة ألمانية باردة مثلاً في الشاليه البعيد... كانت (ف..) وهانز يلحّان دائماً - عندما ندخل مقهى - أن أشرب معهما بيرة ألمانية، وعندما أعتذر لأنها مرتفعة الثمن، كانا يضحكان بصوت عالٍ. ولم يكن رالف يفعل مثلهما، فهو الآخر - مثلي - لم يكن يريد أن يشرب بيرة ألمانية، بل كان يفضِّل كأس بينو بلانكو، رخيص الثمن، أو لا شيء. والأغلب أنه هو الذي عوَّدني أن أشرب البينو بلانكو، فمن ناحية كان رخيصاً، ومن ناحية كان طعمه لذيذاً. وكان هانز يقول إني إذا ما أدمنته، ربما أصاب في الكبر بالرعش. أما رالف فيقول له: هل تضمن له حياة طويلة حتى الكبر؟! إذ ذاك نرفع كأسينا، أنا ورالف، ونقول: في صحة الجميع. فأحس وقتها أن (ف..) تشعر بالندم لأنها تشرب بيرتها بتقزز وتتمنى أن تفعل مثلنا. كانت (ف..) أول الأمر صديقة لرالف. وعندما خرجنا ذات مساء وشربنا بالليل كله كؤوساً كثيرة من البينو بلانكو، كانت الليلة الأولى التي أصبحت فيها (ف..) صديقة لي. عدنا في حالة يرثى لها من السكر. ونمنا أربعتنا مكوَّمين، وفي الصباح وجدتها بين ذراعي ورالف ملقى بعيداً. لا أدري من الذي حملها ووضعها بالقرب مني. استيقظت وقبّلتني في فمي أمام هانز ورالف. وكان هذا الأخير يضحك معي طول اليوم. وكانت تقبّله أيضاً في فمه. صارت تقبّلنا معاً في فمنا وتنام بين ذراعينا معاً متى تشاء أو تشاء. ثم بعد ذلك لم يعد رالف يعطيها أهمية. لم يكن يعطي أهمية لأي شيء، بل يشرب فقط البينو بلانكو كل مساء وينام مثل كلب خرج

لتوه من ماء النهر. وكانت (ف. .) تطلب مني دائماً أن نفعل الحب. كما لو كان ذلك سهلاً بالشكل الذي يمكن أن يتصوره أي معتوه. أردعها أحياناً، لكنها تضحك فقط باستهتار. ولم أكن أعرف فيما إذا كانت تمزح، أم أن اقتراحها جاد مئة بالمئة. كيف لي أن أعرف؟ فقد كانت غامضة إلى حدٍّ بعيد، وتصرفاتها تبدو لي غير معقولة ولا قارة. كل شيء ممكن بالنسبة إليها حتى الجحيم. وقد يتخيّل الإنسان أنها أكبر من سنها. وفي الواقع، قد كانت طفلة صغيرة، غير مبالية، وهي التي كانت تنفق على هانز ورالف، تبذّر أموال أبيها الذي يعمل وكيلاً لشركة فولسفاكن - لأنها الابنة الوحيدة الحمقاء المدللة!

كان عسيراً على أشعة الشمس أن تغزو عيني وقد لفقت رأسي بذراعي. كنت أفكّر في تصرفات (ف. .). إلى أي شيء ستنتهي علاقتي بها. لم تكن، أبداً، من ذلك النوع الذي أبحث عنه. فالإنسان لا يعيش بفعل الحب وحده، وبالذات مع امرأة واحدة. خصوصاً أنني لا أستطيع أن أتخلص من مرض واحد يؤرقني: الملل المستمر لفترة معيّنة. في الوقت الذي أشعر فيه، أيضاً، بغريزة التملُّك. أتخيّل (ف. .) دائماً بين ذراعي رالف. وعلى الرغم من أنه لا يعطيها أهمية فقد كنت دائماً معرّضاً للسخرية من نفسي. ثم قررت، في نهاية الأمر، أن ذلك ليس مهماً على الإطلاق. فهي لم تكن من ذلك النوع الذي أنا في حاجة إليه وقتاً طويلاً. لا حاجة إذن إلى أن أورط نفسي في مشاكل ليس لها أي أساس، غير معقولة.

رفعتُ رأسي فصدمتني أشعة الشمس، وحاولت أن أعوّد عيني عليها. كانت الأشجار البعيدة الخضراء الكثيفة، تنشر الظلال وتعكس الأشعة. ورأيت بالقرب مني على بعد أمتار سياجاً شائكاً. (ربما كانت هذه المنطقة ملكاً خاصاً في السابق). وكان السياج يمتد على طول مسافة بعيدة حتى الصخور التي توجد في نهاية نصف

الدائرة، على اليمين، وتمنيت لو أذهب كي أسبح بالقرب من تلك الصخور، فهي مغرية وقد انغرست في الماء الهادئ الذي يبدو راكداً، أزرق داكناً، لكن الإعياء كان قد هدّني، وتمنيت فقط أن أذهب إلى الشاليه وأشرب بيرة باردة وأستمع إلى الموسيقى. وحيث كنت أتمنى الوحدة دائماً فإن الشاليه كان بالنسبة إلي أفضل مكان للتأمل. لم يكن شاليه بمعنى الكلمة، لكنه محل تجدُ فيه كل شيء. فبالقرب منه عند المدخل قن للدجاج، وزريبة وسخة توجد فيها عنزتان مربوطتان باستمرار، في عنق إحديهما جرس صدئ. وكانت خلف الشاليه نباتات ماتت في المهد، لأن هواء البحر لم يلائمها قط، وشجرة قصيرة محروقة الأغصان تمدُّ أذرعاً مثل فزاع الطيور، في فراغ بدا موحشاً. وكانت الإسبانية العجوز التي تدير الشاليه تخرج إلى شبه الحديقة تلك وتدوس كل النباتات بلا حذر، لتأكدها من عدم جدوى أي شيء هناك. وكانت الدجاجات أيضاً تقفز باحثة عن حب غير موجود. ويمكن للزبون أن يحمل مشروبه ويذهب ليتمدد في المكان، دون أن يشعر أن أحداً سيحاسبه، بل إن بعض الهيبيين يختفون وراء الحديقة الميتة باستمرار. لعلهم كانوا يتناولون الآسيد خفية عن الأنظار وسط الدغل الممتد وراء الشاليه.

سمعتُ أصواتاً عند قدمي، آتية من البحر. لم أهتم بادئ الأمر غير أني رفعت رأسي عندما تأكدت أن هذا الصوت هو صوت (ف . .). كان الإسباني العجوز الأهتم يلاطفها بدوره، ولم تكن بطبيعة الحال تفهم ما يُقال لها، بل كانت تضحك لحركاته التي يحاول أن يشرح بها مواقفه. أخذ يدور على نفسه ويشير لها بذراعه جهة اليمين وجهة اليسار ثم بعيداً بعيداً وراء البحر. ولم أدرِ بأي شيء يتعلق بالأمر. ولكن ملامح وجهها كانت تتغير فربما فهمت أن الأمر يتعلق بشيء ذي أهمية. أما هو فابتسامته المعتادة لم تكن

تفارقه. كان يبتسم حتى في أحرج المواقف. غير أن عينيه هما اللتان تعكسان عاطفته الحقيقية وكذلك حاجباه الأشيبان. كان العجوز حافياً. سرواله القديم مثنياً حتى ركبتيه، وقد لصق الرمل المبتل بشعر ساقيه المقوّسين كلاعب كرة قدم. سبقته (ف. .) وأتت راكضة لتتمدد بالقرب مني على الفوطة ثم قالت وهي تضحك بالطريقة المألوفة عندها:

- الماء بارد، اذهب لتستحم.

- ليست عندي رغبة، أفضِّل أن آخذ حمام شمس.

ثم وهي تخرج علبة السجائر من كومة الثياب:

- إن هذا العجوز يحكي رواية. لكني لم أفهم شيئاً مما يقول.

- لقد كنت تضحكين معه.

- أضحك فقط دون أن أعرف لماذا.

- ربما كان يشتمك بالإسبانية وأنت تضحكين على نفسك.

قالت:

- أوه. ممكن. لكنه ليس خبيثاً.

ثم قدمتُ له سيجارة فأخذها وأحنى رأسه في حياء بريء إلى الرمل. تناولت واحدة وبحثت عن الثقاب وأشعلت لهما وأطفأت الوقيدة، لكي أشعل لنفسي بوقيدة ثانية. قالت (ف. .):

- هل أنت متشائم إلى هذا الحدّ؟

- إلا مع رقم 13.

- أنت أحمق.

- نعم.

في الحقيقة، لم أكن متشائماً ولا متفائلاً. فأنا لا أؤمن بالتطيّر، كنت أفعل ذلك لأني رأيت الناس يفعلونه. ولم يكن في نيتي أبداً أن هذه التطيرات تؤدي إلى نتيجة. أخذت أجذب نفساً

عميقاً من السيجارة السخيفة تحت وهج الشمس ولفح هواء البحر كانت للسيجارة نكهة مغرية. وفضّلت أن ألصقها بين شفتي لتكون أقرب إلي أثناء ممارسة رغبة التدخين، لكني عدلت عن ذلك لأني خشيت أن يتساقط رمادها على لحيتي. وقفت وتمططت ومشيت بعيداً، وضربت بقدمي شيئاً في الهواء. كان الإسباني يغرس قدميه في الرمل ويدخّن ويتكلم ويدخّن ويضحك ويتكلم ويدخّن. ورأيت هانز من بعيد مثل التيس قادماً بخطوات ثابتة، ولم يكن معه رالف، ثم هانز يعدل عن فكرته فيعود بالخطوات نفسها إلى الماء ويغطس فيه بثيابه. وقلت إنه أحمق حقاً، وغير عادي. وسمعت (ف..) تناديني. فعدت إلى حيث كانت فاقترحتْ أن نذهب إلى الشاليه ووافقت. قالت إنها ستذهب لتقول ذلك لرالف وهانز، فقلت لتلتحقوا بي هناك.

ارتديت ثيابي القذرة بعد أن جففت جسمي من العرق. ونفضت الرمل عن شعر رأسي. وعندما وصلت إلى الشاليه لم يكن هناك أحد، فقط أطوات خافتة منبعثة من مكان ما. ثم زجاجة تتكسر أو كأس. ثم رأس أشعث يرتفع من خلف البار، رأس أشيب ووجه فيه تجاعيد. رأيت الابتسامة مرسومة بطريقة آلية على الوجه. ثم انحنى الجسد مرّة واختفى وراء البار. دخل رجل وامرأة من باب خلفي مفتوح على فراغ، حيث تبدو خضرة باهتة وشيء أبيض بشكل عصا. جلس الاثنان قبالتي فرأيت العجوز تغادر البار وفي يدها فوطة بيضاء مخططة مبتلة. لم أحب العروق البارزة الخضراء في ساقيها. نظرت إلي وابتسمت كما لو كانت ستعتذر وتوجهت إلى شخصين قبالتي فتحدثنا إليها، وفي نصف الطريق إلي قلت لها أن تأتيني ببينو بلانكو. فعادت أدراجها وهي لا تزال تبتسم. وكان جبل طارق، مثل صخرة ماردة، يرتفع على بُعد كيلومترات قليلة من المكان،

ومدينة (لالينيا) رابضة في فقر مدقع عند قدمه. كانت بنايات الجبل بيضاء مشتتة، وملصقة في أجزاء معيّنة منه.

ثم.

سمعت رجلاً إسبانياً في يوم ما يقول لي:

- لقد ماتت لالينيا؟

ويضيف:

- هل زرت جبل طارق؟

- نعم، أنا أيضاً كنت أشتغل هناك. إيه أيها العصر الذهبي لكن الحكومة الآن منعتنا وعوضتمونا أنتم. لا شكّ أنكم تربحون الكثير هناك. لماذا غادرت عملك في جبل طارق؟ لقد سمعت أن هناك اثني عشر ألف مغربي قد حلوا مكاننا.

- نعم. أنا واحد منهم لكنهم طردوني بعد أن تظاهرنا احتجاجاً على الميز.

وشربت قهوتي. شربت آخر قطرة منها باردة كالصقيع وقلت:

- ترى ما الذي يفعله سكان لالينيا الآن؟

- لقد أصبحت قبراً ميتاً. كلهم هاجروا. لقد تشردنا.

- ستأخذون الجبل في يوم.

- ماذا نفعل به من دون الإنجليز؟ ماذا نفعل بصخرة ناتئة في قلب البحر؟

وناديت من جديد على العجوز فجائتني بكأس أخرى من البينو، وطلبتُ أن تشغّل الحاكي فقالت لم يحن الوقت بعد لذلك، وأن الزبائن قليلون. ثم سمعت حديثاً في الخارج، ورأيت من خلال الستارة القصبية أجساماً تقترب من الشاليه. ثم دخل هانز مبتلاً، وتبعه الآخران. كانت (ف. .) لا تضع سوى قميص أزرق على جسدها، وجاءت لتجلس بالقرب مني. قلت لها أين سروالك،

فقالت: في السيارة. كانت تحب أن تتعرى دائماً. قالت مرة إنها تريد أن تنتقم. وسألتها مماذا أو ممن؟ فقالت لا تدري ولكنها تحب أن تتعرى. وقالت أيضاً إنها تحب أن تنغرس الأشعة في جسدها. وسألتها أية أشعة، فقالت: إنها غير متأكدة، والغالب أنها أشعة الشمس. ونادت الآن على بيرة وأخذت تشرب بتقزز. وعندما طلب رالف كاس بينو بلانكو رشفه بسرعة واختفى لفترة معيّنة. ثم عادت صاحبة البار بأطباق عليها سمك فوقه سيترون. التهمنا ذلك بسرعة ونهم فائقين، خصوصاً هانز الذي بدا جائعاً كوحش. وقال رالف:

- يجب أن تأكل لأن البينو بلانكو يؤثر على المعدة إذا لم تأكل.

قلت:

- لكني أحب أن أشرب قبل أن آكل.

- إن ذلك يؤثر على صحتك. خُذ طعاماً خفيفاً أولاً.

- لكنها عادتي.

- لا تتعود على أشياء قبيحة.

غادر الرجل والمرأة اللذان كانا قبالتي مكانهما. وأصبحنا نملأ الشاليه بالضجيج. انطلقت قهقهات من مكان ما. وقررت (ف. .) أن تغيِّر البيرة بالبينو بلانكو. وبعد أربع كؤوس فقط بدا على عينيها التعب. ارتخت أهدابها وتدلت شفتاها بشهوانية. وقفت وذهبت إلى إسبانية وتحدثت إليها بكلام لم نسمعه. لا أدري فيما إذا كانتا تتفاهمان لكن عندما عادت سمعنا موسيقى تنطلق بهدوء. ثم جاءت كؤوس أخرى وسمك آخر. أخذت (ف. .) تقترب مني وألقت بذراعها على كتفي. وكانت وراء الزجاج سماء صافية جميلة. ولم نرَ البحر، لأن الجدار يحجب منظره. وقالت (ف. .) وهي تتجشأ:

- هل تعرف أني أحبك؟

- نعم. أعرف ذلك.

- أنت لا تعرف شيئاً. أسمع الموسيقى. هل تحب السيارات؟ ألا تحب أيضاً الغابة؟ كان أبي يذهب إلى الغابة كل...

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- وكان أيضاً يحب قطف الأزهار الشائكة، وكان يلتقط حلزونات كثيرة.

- وبعد؟

- أبي أيضاً، لا يكثر من الشراب مثلك. وكنا، أنا وأمي وأبي نحب الغابة ونقطف الأزهار ونتراشق بالحلزونات. إيه، اسمع. ألا ترى أن الحلزونات مسكينة؟

- لقد سكِرتْ.

وقال هانز:

- إنها تحب الطبيعة.

قلت وأنا أحاول أن أسوي وضع رأسها على كتفي:

- وبعد؟

- وبعد؟ آه. كانت الحلزونات جميلة. وكان الربيع. هل تعرف؟ كان الربيع جميلاً ذات سنة، وكان النهر متدفقاً. كانت الأزهار أيضاً. يجب أن تراها. وكان رامون معنا.

- من رامون هذا؟

- وكنا نفضِّل الغابة على المقهى. وكان أبي يفضِّل الصيد البري. آه. يا لتلك الحلزونات الجميلة المسكينة.

ارتفعت ضجة الموسيقى. وفضّلت أن آكل سمكاً على أن أستمع إليها. واستمرت (ف..) تحكي أشياء كثيرة. ثم وقفت وهي تجذبني من ذراعي.

قلت:

- اجلسي.
- لا. أريد أن أذهب هناك. أودُّ أن أبول في الحديقة الميتة.
- اذهبي إلى التواليت.
- لا. أريد أن أذهب هناك. أودُّ أن أبول في الحديقة الميتة.
- اذهبي وبولي. لا أحد يمنعك.

ذهبت (ف..) واجتازت الباب الخلفي لكنها لم تختفِ. ظلّت واقفة هناك وهي تناديني. كانت تقول: تعال. لكن رالف قال:

- هيه. قفْ واذهب لتبول معها.
- ليست بي رغبة.
- إنها تريد ذلك. ربما تصطادان جراداً صغيراً في الحديقة.
- لكني لا أستطيع.

وقال رالف وهو يخرج كمية من الدخان من فمه:

- هل تسمح لكي أذهب؟
- تفضل. قلت.
- لكنها تناديك أنت.
- لا يهم. اذهب معها. أنا أفضِّل أن أشرب الآن.

التحق بها رالف ثملاً. كانت الظلال تقترب من الباب الخلفي وفي الخارج. ورأيته يمسكها من ذراعها لكنها لا تود أن تتحرك. ثم رأيتها تقصدنا. وقفت غاضبة أمامي:

- لا يمكنني أن أذهب لأبول وحدي.
- لست وحدك. معك رالف.
- إنك لا تحبني. أنت مثل الحلزون. هل تعرف؟ أبي يصطاده. وكان رالف أيضاً. وكان رامون... إلخ.
- أنت سكرانة. اذهبي لتبولي.
- وحش.

ونادت على رالف. كنت أراهما يجتازان الحديقة الميتة، ويختفيان وسط أشجار قصيرة كثيفة. وعندما تأخرا لمدة طويلة، قال هانز:

- كان يجب أن نذهب معهما.

- لماذا؟ إن رالف أكثر من رجل.

- لكنها هي، تريد أكثر من رجل.

من غير شكّ، فقد كان رالف و(ف..) الآن، يفعلان ذلك.

الأقوى

1978

الرجال والبغال

جمعوا كل ما في القرية من البغال ذلك اليوم، وتساءلنا لماذا البغال بالذات؟ لكنهم عادوا وجمعوا كل الحمير، ولم يكن في إمكان أحد أن يعرف لماذا جمعوا البغال والحمير. لكن الإجابة كانت عندهم وعندهم وحدهم. ففي نهاية الليلة عادت لنا بغالنا وحميرنا، وعندما وصلت البغال والحمير دقّ النفير فأفقنا على ذعر. واكتشفنا أن وراء سلسلة الحمير والبغال سلسلة أخرى من الحمير والبغال، ثم وراءها سلسلة من البشر الحفاة مثلنا، جاءوا من قرى أخرى في السهل. ثم وراءهم جنود مسلحون، لكنهم قلّة قليلة تُعدُّ على رؤوس الأصابع. وفي ذلك الوقت من الليل اختاروا اليافعين منا. وقالوا لنا ضعوا أياديكم فوق رؤوسكم ولا تحاولوا أن تحدثوا ضجة بأحذيتكم على الأرض. إلا أنهم كانوا مخطئين إلى حدّ التفاهة، إذ لم تكن لنا أحذية، فحتى البُلُغات لا نضعها، وضربني الأجنبي بمؤخرة بندقيته وقال لي إياك أن تفعل ذلك، فأحنيت رأسي وأنا تحت ثقل النوم لأرى فيما إذا كنت أملك حذاء حقاً. لكنه أعاد ضربي فاستقمت واستفقت. ومضى إلى الخلف وربما كان يكرر الشيء نفسه مع الآخرين. كانت الأرض باردة والجو ممطراً، وفتحت أقدامنا جلطات صغيرة من الماء. وعندما تتحرك البغال والحمير متعثرة، تستطيع أن تسمع شلط شلق شلت... وأحياناً

يتطاير الماء تحت الجلباب فيَصلُ حتى أماكن بين أفخاذنا فنشعر ببرودة الماء لأننا لم نكن نملك سراويل في ذلك الوقت، سواء كانت قندريسية أو أوروبية. ثم يتقلص الجسد ويرتعد المرء في مكانه لأنه لا يستطيع أن يبدي حراكاً، فأدنى حركة تستوجب طلقة رصاصة. على الإنسان أن يتحمل البرودة وأن يمشي وفق السرعة التي يمشي بها الجميع، وأحياناً يتوقف البغل الملعون أو الحمار، فتكون أنت المسؤول وتُنزَل على صدرك أو كتفك، أو عند الكلية، ضربة قوية من كعب البندقية.

ظللنا للحظات واقفين فوق جلطات المياه، وبعد ذلك دفعوا النساء والأطفال والشيوخ. وأدخلوها جميعاً إلى الأكواخ، وقِيل لنا بعربية رطنة: كل واحد منكم مكلَّف ببغلٍ. هل ترون تلك الجبال؟ سوف نتفرق جماعات وفرقاً. وموعدنا في تلك الجبال، ومن أراد منكم أن يتحرك أو يبدي أي تصرف غير لائق فرصاصة واحدة تكفيه. ولقد كنت متيقناً أن أحداً منا لا يستطيع أن يتحرك، لذلك فهذا التحذير لم يكن في محله، أو ربما كان في محله، قد يتحرك أحدنا دون حتى أن يعرف لماذا، وتكون النتيجة رصاصة واحدة تكفيه.

كانت البغال محمَّلة بالأسلحة، لم نكن نعرف ذلك أول الأمر، بل إن البغل الواحد كان يحمل مدفعين، وكان مقرراً أن نصعد تلك المرتفعات الوعرة، ولم يكن أحد يركب بغله سوى الأجانب الذين خلفنا. فقد كانوا يحرسوننا اعتقاداً منهم أن بإمكان أحدنا أن يفر ويختفي في الأشجار الكثيفة التي كانت مبثوثة هنا وهناك، إلا أنني كنت متأكداً أن أي أحد لا يمكنه أن يجرؤ على فعل ذلك، خصوصاً أن الجو بارد، والمطر ينذر بالسقوط في كل لحظة، ثم ماذا يستطيع أحد أن يفعل أمام هؤلاء الأجانب ببنادقهم

ومسدساتهم؟ كنا نسير في خطّ مستقيم وراء البغال، ولم تكن البغال متلاصقة، بل كانت هناك مسافة بين كل بغل وبغل. وكانوا قد أخذوا مجموعة أخرى من البغال في طرقات أخرى، وربما ذهب مع تلك المجموعة أصدقاء لي من قريتنا. لم نكن نستطيع أن نلتفت إلى اليمين أو إلى اليسار، المهم فقط هو أن ننظر إلى الأمام وأن نسير وراء بغالنا نحو تلك الجبال. أما ما تحمله تلك البغال فلم يكن من مهمتنا أن نعرف. إلا أننا عرفنا فيما بعد. كانت المدافع وبعض السلاسل الحديدية الكبيرة وأشياء أخرى. أما إلى أين كنا نتجه ولماذا المدافع والبغال؟ فقد عرفنا فيما بعد أن بعض القبائل قد ثارت على السلطات، وأن هذه الأسلحة ستتوجه لقمعهم وقمع ثورتهم، وقد يعتقد المرء أن ذلك كان سهلاً جداً، بل على العكس، لم يستطع الأجانب أن يجتازوا أحد الأودية قط إلى يومنا هذا. فهناك، خلف الصخور، وتحتها، وفي قلبها، كانت تنطلق رصاصات تُردي العساكر الآخرين. وبعدما استطاعت القبائل هزيمة الأجانب في الجبال، نزل هؤلاء إلينا ذات ليلة وذبحوا العديد منا انتقاماً لشرفهم واعتقاداً منهم أننا كنا نضرب من الخلف أو من السماء، لذلك ذبحوا البعض منا وبقروا بطون النساء وأخرجوا الأجنَّة وانسحبوا بالمرة دون أن يعودوا إلى تلك المنطقة. وها هم اليوم يعودون. جمعوا البغال والرجال وصوّبوا البنادق إلى صدورنا وظهورنا، وكان منهم البيض والسود، وقِيل إن هؤلاء السود مسلمون مثلنا، يصلون ويصومون ويزكّون، ولم نتعجب لكن المسلمين مثلهم. فقد كان في صفوف جيش الأجانب مسلمون معروفون كذلك. مشينا واعتقدنا أن الشمس ستطلع بعد قليل، لكنها لم تطلع، حتى شككنا في أن الوقت لم يكن فجراً ولكنه منتصف الليل. البرد قارس والريح عاتية وعواء الحيوانات كالذئاب يأتينا من

أودية الجبال. لم نكن نرى الجبال ولا كنا نتصورها لأن الظلام شديد ولا وجود لضوء. وأحياناً أسمع حنحنة بغل وصوت ضربة من مؤخرته فأحسبها في ظهر إنسان، ولما لم يكن الإنسان يصيح أو يتألم فمن الأكيد أنها على ظهر بغل. كانت تلك القبائل قد عادت إلى الثورة من جديد، وسمعنا ذلك غير أننا لم نتأكد من شيء لأننا في السهل، بل سمعنا أن بعض رجالنا - رغم المراقبة الشديدة - قد التحقوا بالجبال، وهم يحاربون الآن إلى جانب القبائل. وتساءلتُ لماذا يأخذوننا نحن على الرغم من أننا لم نستعمل سلاحاً قط في حياتنا. وسمعت الأجنبي من ورائي يقول بعربية واضحة: «امش يا بوركابي». فأسرعت في المشي مخافة أن يهوي علي. كانت عربيته واضحة حتى شككت في كونه أجنبياً. وبعد ذلك علمنا أن من الضباط من كان جزائرياً. وكانت وجوههم في بياضها وحمرتها تشبه وجوه الأجانب. أسرعت حتى التحقت ببغلي الذي لم أكن أدري ما الذي أصابه فأخذ يركض رغم ثقل الحمل. وأمسكت بذيله حتى يجرني معه. كانت البغال الأخرى لا تفعل مثله. وسمعنا هرير كلاب بعيدة أخذ يمتدُّ ويمتدُّ ويتردد صداه في كل مكان. واشتدَّ الظلام حتى إني لم أعد أستطيع رؤية أخيلة البغال الأخرى. وأصابني تعب شديد، وغبطتُ الأجانب الذين يتبعوننا راكبين. أما نحن فلم يكن لنا الحقّ في ذلك. وفكرت في الهرب، لكن كيف يمكن؟ إنهم يستطيعون أن يخرجوك حتى لو اختفيت في بطن أمك. وأخذت البغال تصعد المرتفعات، وبدأ التعب الأكبر بالنسبة إلينا، فتمسكت أكثر بذيل البغل، وشعرت بأنه يجرني جراً، وقلت إنه لو لم يكن لما استطعت أن أصعد المرتفع، خصوصاً بعد هذا المشي الطويل. كنا قد أدركنا الجبال إذن، ولا شكّ أن الأجانب سيفاجئون سكان القبائل نائمين فيفعلون بهم مثلما فعلوا بنا

في السابق، سيذبحون ويشرِّحون ويملحون. وأعتقد أنهم لا يستطيعون لأن هؤلاء مسلحون، ونحن لم نكن كذلك. كانت البغال لا تزال تصعد المرتفع، وشعرت بالبرد الشديد ينبع من الأرض ويتسرب تحت الجلباب بين فخذي، وينتشر في بطني وصدري وكل جسدي. ثم لم يكن الأمر كذلك فقط بل أخذت الأمطار تهطل ببطء ثم قوية وعنيفة. وأخذت البغال تنفصل عن بعضها تحت خيوط المطر، وهي تكاد تسقط أو تتعثر من ثقل ما تحمل. وجاءنا أمر بالتوقف. واعتقدنا أول الأمر أن ذلك إشفاق منهم علينا. فأغلبنا لم يكن يرتدي لباساً يقيه البرد والمطر. وفكرت في حالة من يرتدي مجرد تشامير أو قشابة. كيف يستطيع تحمّل هذا الطقس اللعين. لقد كنت من المحظوظين لأني أمتلك جلباباً. تجمّعت البغال والرجال تحت صخرة كبيرة عالية. وبعيداً منا فعلت باقي المجموعات الشيء نفسه. لم نكن نراها، ولكن علمنا ذلك فيما بعد. وأخذت الأمطار تهطل بغزارة فحنحنت البغال وأشعل الأجنبي سيجارة وأخذ يدخّن تحت الصخرة، بعد أن اختار له مكاناً يقيه من المطر.. ثم قدِم شخصٌ وتحدَّث إليه، ولم يكن من حقنا نحن أن نتحدث، وسمعنا ذلك الشخص يقول لنا: «إن الشلوح سيقتلونكم عن آخركم.. لكنا لن ندع لهم الفرصة». كان مغربياً إذن، ويتحدث لغة الأجانب بطلاقة. وتساءلت أين أمكن لهؤلاء أن يتعلموا تلك اللغة. ومن يدري فلربما كان أيضاً شلحاً، ولكن الأجانب استطاعوا أن يجعلوا منه إنساناً آخر، أجنبياً مثلهم. وفكرت في أن أجلس، غير أني خفت من الأجنبي، ولم يستطع أحدنا أن يفعل. وأخذ بغلان يتحركان ويضربان الأرض بحوافرهما. كانت المرحومة والدتي تقول: (إذا حفر بغل أرضاً بحافره، فاعلم أن أحد أقربائك قد مات). وخفتُ أن يكون الموت اختطف أحداً من عيلتي. أصبح

الجلباب ملتصقاً بجسدي، ولم يشفق الأجنبي علينا. التصقت بالبغل فتزحزح وابتعد مني. ثم عاد الرجل إلى الأجنبي وتحدث إليه بلغته. فوقف الأجنبي بسرعة خاطفة. وسمعنا الجندي يقول لنا: «عليكم أن تستعدوا، لم نفاجئهم كما كنا نتوقع». وتساءلت: كيف بإمكاننا أن نستعد لقتل أخوة لنا في الدين، ثم إننا لسنا مدربين على استعمال السلاح. ومشى الجندي مسرعاً في الظلام حتى لم نعد نرى من خياله شيئاً. في حين أصبح الأجنبي المكلَّف بنا يدور على نفسه، ويتحدث بلغته. فتساءلت: هل يكون قد أصيب بجنون؟ أخذ يصرخ في وجهي، ودفعني دفعة قوية وأشار إلى البغل فرأيت جاري يرتعد من البرد وكنت أعرفه. كنا حوالي ستة أشخاص بالإضافة إلى الأجنبي. والغالب أن كل مجموعة كانت تتكون من هذا العدد. ولما لم أفهم ما قِيل لي، عاد الأجنبي إليّ مرة أخرى وقال «كوشون!»، علمت فيما بعد أنها تعني خنزير. ووجّه إلي صفعة قوية ثم رفسة بقدمه على بطني. تألّمتُ وسكتُّ. كانت الأمطار لا تزال تهطل قوية وعنيفة. وأخيراً أمرنا بأن نصعد المرتفع من جديد بغلاً فرجلاً ورجلاً فبغلاً. وجدنا في الظلام كوخاً صغيراً مُطفأ الضوء له باب مفتوح. اقترب منه الأجنبي وصوَّب رشاشه. وقال لأحدنا أن يدخل لكي يخرُج من فيه، فدخل الرجل وخرج. الكوخ خالٍ من أي أثر لإنسان. ولم يصدق الأجنبي ما قِيل له، فصوَّب ضوء بطارية داخل الكوخ، ولم يكن في داخله أحد. رأينا ذلك بأنفسنا، ثم أمرنا بالاستمرار في الصعود. مشينا منهكين. وفجأة سمعنا طلقات الرصاص فحرنت البغال وحنحنت ثم وقفت في أمكنتها. كان سكان القبائل إذن يقظين. ثم أمرنا الأجنبي بأن نضرب البغال حتى تتمكن من الانطلاق من جديد. لكن لم يكن لأحدنا عصا. أخذنا نضربها بأيدينا فلم تتحرك. وسكت الرصاص ثم دوى من جديد. ورددت

صداه كل الأودية وكل الجبال وكانت الأصوات تأتينا ممزوجة بالريح والمطر. ومن وسط الظلام انضم إلينا جنديان آخران وأخذا يضربان بمؤخرة بندقيتهما البغال، فتحركت بصعوبة، وبعد أن نفّذا مهمتهما عادا من حيث جاءا، وسمعت أحدهما يتعثر ويسقط أرضاً، أو هكذا خُيِّل لي، واشتدت طلقات الرصاص فخفتُ على نفسي، وقال الأجنبي إن علينا أن نمشي بمحاذاة الصخور حتى نتّقي الرصاص، لكنه وهو يقول ذلك، مرت فوق رؤوسنا رصاصات كثيرة، وخُيِّل لي أن شيئاً كالدم يتدفق من جسد البغل. كان دماً بالفعل. لقد أصابته رصاصة أو رصاصات كثيرة. احتميت به. وسمعت الأجنبي يئنُّ. وكانت البغال الأخرى قد تفرقت في الظلام والتصقت بصخور الجبل، في حين لم يعد للرجال الآخرين أثر. وتصورت أنهم فروا من غير ذلك. كان الأجنبي ممدداً بالقرب مني تحت صخرة صغيرة ناتئة، وأطلق رصاصات ثم عاوده الألم، لقد كان جريحاً، ابتعدت منه بخطوات إلى الخلف، لكنه أمرني بأن أقف في مكاني. لم أفهم عربيته أول الأمر، وقفت وقد صوّب رشاشه نحو صدري، ثم أرخى الرشاش من جديد، كان البغل بالقرب مني. مددت يدي إلى الشواري وأخذت أتحسس ما فيه. وعندما وقعت على قطعة من الحديد خفيفة سحبتها وأخفيتها وراء ظهري. وكان الأجنبي يتألم ويصرخ تحت المطر: «تعال ياكوشون، أين أصدقاؤك؟ اقترب..»، أخذت أقترب منه في الظلام. لم يكن لأصدقائي وجود. لقد نجوا بأنفسهم. حتى البغال الأخرى اختفت تحت وابل الرصاص والمطر، لم يبَق هناك سوى بغلي وبغل آخر في الأعلى. وشعرت بالدم يغلي في رأسي، وبغضب لا حدّ له. وكانت قطعة الحديد ترتعد في يدي. وأردت أن أهوي بها عليه غير أنني ترددت. وأخذت أتراجع قليلاً إلى الخلف. وكان البغل قد

انحدر إلى تحت. لكن صوت الأجنبي أمرني بالوقوف مرة أخرى وبالاقتراب منه. لم يصوب رشاشه إليّ أول الأمر، ثم وجهه نحوي وسمعته يطلق صرخة قوية هذه المرة. لقد أصابته رصاصة أخرى من غير شكّ. وأخذتُ أرتعد من الخوف فربما أصابتني رصاصة طائشة. ألقيت قطعة الحديد من يدي، ودون أن أستمع إلى أوامره وجدتني أركض في المنحدر، ثم اصطدمت ببغل ممدد في الطريق، وسقطت على الأرض. كان الرصاص لا يزال يئزُّ في الفضاء، من جهة. وقفت في خوف وجريت. ولم أكن أعرف إلى أين. وسمعت صوتاً يناديني أن أقف. كان هذه المرة بالشلحة. لكنني لم أقف. وأُطلقت علي رصاصة فوقفتُ وانقض علي رجل ملفوف في جربة قصيرة فوقها برنوس، ثم التحق به رجل آخر. وقال لي الرجل الأول:

- هل أنت معهم يا خائن؟

- لا واللّه. أنا لست أجنبياً، لقد أخذونا على الرغم منا. إني لا أعرف حتى كيف أستعمل السلاح.

- اسكت.

- لقد أخذوا بغالنا وذبحونا وقتلونا.

لكن الرجل الثاني قال:

- اطلق سراحه، إنه ليس منهم.

غير أن الرجل الأول لم يستمع إليه بل أمسك بي وقادني إلى شجرة قصيرة وربطني إلى جذعها وأنا مستسلم له. وقال لي أن علي أن أبقى هكذا حتى يعودا إلي. لكنهما لم يعودا. ومن يدري فربما يكونان قد ماتا. وعندما طلع الفجر لم أعد أسمع أزيز الرصاص. وحاولت أن أقدّر أي مكان أوجد فيه لكني لم أستطع. كان الهدوء

يشمل المكان والأرض مبتلة والمطر قد كفَّ عن السقوط. فككت الرباط بصعوبة كبيرة وانطلقت منهكاً أبحث عن طريق توصلني إلى القرية، كانت تلك معركة غنمت فيها القبائل المدافع والسلاح وكل شيء. وأخذوا حتى البغال. وعلى الرغم من أنهم مغاربة مسلمون مثلنا لم يردّوا لنا بغالنا حتى اليوم.

جيران

قال محسوس لصديقه:

- كانت قوية وعيناها تشعان بالحياة.

ردَّ لطيف:

- ومع ذلك فقد ماتت. كثيراً ما يخوننا الحدس أو التخمين.

- كانت تبدو أقوى من الموت.

- أقوى من الموت! إنه تعبيرٍ بلاغي. ليس هناك أحد أقوى من الموت حتى الشيطان.

- ومن أدرانا أن هناك موتاً؟

- على كل حال فهو حقيقة. إنه غياب شخص عن حياتنا. لا يستطيع أن يتحدث إلينا. لا يستطيع أن يحبنا. لا يستطيع أن يحقد علينا.

أدار محسوس زر المذياع ليخفض من الصوت. لغط الصوت يأتيهما على شكل ضجيج غير مفهوم خلف الجدار. إنه لغط المعزين من غير شكّ. تأكَّد لهما الآن أنها وأخاها لم يكونا معزولين عن العالم، بل كانت لهما علاقات كثيرة. لقد كانا منطويين على نفسيهما. حتى إن بعض الناس تحدثوا عن علاقة مشبوهة بينهما. بعضهم كان يعتقد أنهما زوجان.

وقال محسوس:

- عندما كنت أقول لها بونجور لم تكن ترد. أعتقدت أول الأمر أنها صمّاء، لكن الواقع، أنها كانت شديدة الخجل. غير أنه كان في عينيها بريق. هذا البريق وحده هو الذي أجابني مراراً.

- أما أنا فقد أجابتني مراراً. ظننت أنها ستدق علينا الباب ذات مساء عندما يكون أخوها قد خرج إلى الحانة المجاورة لشرب بيرتين كما هي عادته كل مساء.

أخرج لطيف سيجارة. تردد في أشعالها. نظر إلى الجدار، بدا كما لو كان يتتبع الموسيقى الهادئة المنبعثة من المذياع. كان غائباً عن العالم، تصورها وهي تغسل الأطباق القذرة المكدَّسة في المطبخ. أو تصفف الكُتب المبعثرة على البلاط، نظر إلى الكُتب والمجلات وهي ملقاة أرضاً. لم يكونا يملكان مكتبة، بل كان يملكان إهمالاً وكسلاً لا حدّ لهما. موظفان مبتدئان يسكنان غرفة واحدة ويقتصدان ما أمكن. لكنهما في الواقع لم يقتصدا شيئاً إلى حدّ الآن.

أشعل لطيف سيجارته.. في حين كان محسوس وهو ممدد على بطنه يتصفح إحدى المجلات ويتتبع اللغط خلف الجدار، قرب الباب.

قال لطيف:

- كم كانت جميلة! هل تعرف أني أحبها وأن ذلك لم يخطر لي على بالٍ في السابق.

أجاب محسوس:

- هل أنت أحمق؟ رجل حي يحب امرأة ميتة!

- أعتقد أنها لم تمت، إني أتصورها الآن وهي تبتسم. أتصور عينيها تشعان.

- نستطيع أن نتصور ذلك جميعاً. لكننا لا نستطيع أن نحب الأموات، أقصد ذلك الحب الجسدي.

- إنك لا تفهمني، ليس ضرورياً أن يكون الحب مقترناً بالجسد.

- من يبتسم؟ من يخجل؟ من تبرق عيناه؟ هل هي الآلهة أم البشر؟

طوى محسوس المجلة. وقف وأطلَّ من النافذة. طلب من لطيف سيجارة. غادر الغرفة إلى التواليت. أتت من هناك رائحة قذارة. تشمم ذلك بتقزز من كوّة التواليت. سمع الناس يقدِّمون التعازي. سمع رجلاً يقول لأخ الفتاة:

- لو بقي أبوك وأمك على قيد الحياة لماتا من أجلها. كانا يحبانها كثيراً. كانا يحبانكما كثيراً.

فهم محسوس أنهما يعيشان بلا أب ولا أم. وتخيّل أن دور الشاب قريب كذلك. هل تكون الأسرة قد نزلت بها لعنة الموت؟ زرَّر سرواله وعاد ليقول للطيف:

- هل تعرف يا لطيف أن والديهما قد ماتا من زمان؟

- وبعد؟

- سوف يأتي دور الشاب كذلك.

- متى كنت تتنبأ بالغيب؟ هل تستطيع أن تقول لي متى ستموت أنت؟ اسمع. لقد خطرت لي فكرة. سنذهب لنعزيه في وفاة أخته.

- ولكننا لا نعرفه. ليست لنا علاقة به.

- إنه جارنا.

فكّر محسوس قليلاً. دار على نفسه في الغرفة. فكر قليلاً ثم قال:

- يا اللّه! لنذهب.

بدا لهما الباب مفتوحاً. على بُعد أربعة أمتار من باب غرفتهما ارتفع اللغط أكثر. مشى محسوس في المقدمة وتبعه لطيف بخطوات مترددة. اقتحما الغرفة. هناك مجموعة من المعزين. لم ينتبه إليهما أحد. ظلّا واقفين مشدوهين. قال لطيف:

- إني لا أعرف كيف أعزي، اذهب أنت الأول.

لاح لهما الشاب وقد بدا عليه تعب كبير. كان يتحدث إلى شخص متقدم في السن، يبدو أنه هو الذي سمع محسوس حديثه من كوّة التواليت. رآهما الشاب وتعرَّف إليهما. وقف متخاذلاً واتجه نحوهما. مدَّ محسوس يده وصافحه ثم عانقه وهو يقول في صوت خافت:

- البركة في رأسك. نحن جيران، هل تعرَّفت إلينا؟

أجاب الشاب بصوت هادئ:

- نعم.

ومدَّ يده ليصافح لطيف وتعانقا. اغرورقت عينا لطيف بالدموع. وبدت له الابتسامة والعينان المشعتان. ارتجف. لم يعرف ما يقول. لكنه بذل مجهوداً قوياً حتى تخرُج الكلمات من فمه:

- البركة في رأسك، أختك كانت... إني، إني... أحبها.

أجاب الشاب بهدوئه المعتاد:

- شكراً، لقد كانت طيبة. إنها تستحق ذلك وأكثر.

رأى الشاب معزياً آخر، اتجه نحوه. اضطّرب لطيف، تصبب عرق قوي من جسده، أراد أن يتحرك فلم تقوَ رجلاه على المشي. ثم تهاوى على أقرب كرسي إليه.

حمار الليل يضرب سكيرين

توقّف بنسليمان في الظلام، ومدَّ يده ليمسك بذراع آيت موح كي يجنّبه السقوط في حفرة أمامه. كان هذا الأخير إلى حدّ ما أعشى. ورغم أن الظلام لم يكن كثيفاً لامتداد ضوء المصابيح البعيدة منه، فإن آيت موح لم يستطع أن يرى شيئاً. ولو كان الجدار القصير الموجود قبالتهما مطلياً بلون آخر غير الأبيض لما استطاع أن يراه.

قال بنسليمان:

- هل ضربك حمار الليل؟ إنك لم تعد ترى ما أمامك.

- أنت تعرف أن بصري ضعيف. لماذا تتكلم مثل والدتي؟ هل رأيت في حياتك حمار الليل هذا الذي تتحدث عنه؟

قال بنسليمان:

- لا يهم، ردّ بالك. لقد اقتربنا من السور الآن. اعطني الزجاجتين حتى لا تتعثر فتكسرهما.

تحرَّك آيت موح قليلاً إلى الوراء، وحاول أن ينظر يميناً ويساراً. ثم مدَّ يده إلى حزامه وأخرج زجاجتي النبيذ اللتين أصبحتا دافئتين ما بين سرواله ولحمه. تناول بنسليمان الزجاجتين فاصطدمتا ببعضهما. وخشي أن تتكسرا. مشى بخطوات حذرة نحو السور القصير. ولما اقترب منه كان آيت موح لا يزال يفتّش عن شيء في جيوبه. وضع بنسليمان الزجاجتين فوق السور، ثم اعتمد بكفّيه وقفز

إلى فوق، لكن الأسلاك الشائكة آلمت جسده وأصدرت أنيناً خفيفاً. ضغط على سلك بيده وحاول أن يُدخِل جسده بين سلكين، متجنباً ألا يمزق السلك الفوقي ثيابه. نجح في ذلك وتدلّى إلى تحت، ثم استعاد الزجاجتين، وذهب بالقرب من إحدى عربات السلع المنتشرة فوق خطوط السكة التي تشكّل شبكة على هذا الجانب من أرض الميناء. وقف ينتظر آيت موح وهو يلهث. وظهر رأس هذا الأخير في الضوء الخافت للمصابيح، ثم ظهر جسده كله فوق السور، وقال بنسليمان لا بدَّ أن هذا الأعشى سيترك كل ثيابه معلقة على تلك الأسلاك ذات الرؤوس المدببة الحادة. لم يقع شيء من هذا. قفز آيت موح وتوجّه مباشرة إلى حيث ينتصب جسد رفيقه. ظلّا صامتين وهما متقابلان. كانت أفكار خاصة تدور في رأس كل واحد منهما. المهم أنهما يشعران الآن باطمئنان، فهما في مكان مريح وأمين. لن يضايقهما شرطي. وقال آيت:

- أعتقد أننا نستطيع أن نشرب الآن بحرية.

قال بنسليمان:

- لا تستطيع تقدير مدى حسدي لأولئك الذين يشربون في البارات الآن، إنهم يستطيعون أن يبصقوا في وجه أي شرطي.

- لو كنت غنياً مثلهم لاستطعت أن تفعل الشيء نفسه. إن ثمن زجاجتين في الخلاء يعادل ثمن ثلاثة كؤوس. وأنت لا تسكر بكأس ونصف.

لم يكن بنسليمان يستمع إلى آيت موح، لأنه أصبح الآن خلف عربة مكعّبة سوداء، مجوّفة من فوق. سمع آيت موح شرشرة البول ففتح أزرار سرواله وفعل مثل بنسليمان. رائحة البول اختلطت برائحة نفايات السفن التجارية، ومراكب الصيد المتجمعة في جناح آخر من المرسى، الأضواء القليلة المنبعثة من الصواري والكوّات تنعكس

على الماء، لكن الضوء لم يكن ليصل إلى هنا، فالعربات المنتشرة فوق شبكة الخطوط الحديدية المتداخلة تمنع من وصول الضوء إلى المكان. واختار بنسليمان بقعة نبت فيها حشيش صلب، بالقرب من الماء، وجلس هناك. تبعه آيت موح وهو يتكلم بصوت حادّ وغير مفهوم، جلس بجانبه وأخرج من جيبه علبة ياوورت فارغة وأخذا يصبّان لبعضهما فيها وقال بنسليمان:

- الآن نستطيع أن ننام بحرية هنا.

- يجب أن نسكر أولاً حتى ندفأ.

وقال بنسليمان:

- لو كان عندنا بيت!

ردَّ آيت موح:

- لا تفكر في هذا. لم يكن لنا بيت إطلاقاً ولا يمكن أن يكون.

- لا شيء بمستحيل. في صحتك!

وأفرغ علبة الياوورت في جوفه. تقزز ومسح فمه بظهر كفه. كانت نسمات خفيفة تهبُّ من جهة البحر. وسمع عن قريب صوت اصطخاب الأمواج، وقهقهة بعض البحّارة المخمورين. ثم غطّى على هذه الأصوات جميعاً صفير قطار قادم. وقال آيت موح:

- أتمنى أن لا تداهمنا الشرطة هنا.

- لا تخف. كن مستعداً لشهرين سجناً على الأقل.

- أخشى ذلك. لكن الحياة تمضي رتيبة بلا سجن.

- بالنسبة إلى أمثالنا، السجن راحة وانفتاح.

- يمكن أن يكون ذلك بالنسبة إليك وحدك.

- اسكت يا حمار.

- الحمارة هي أمك.. اسكب كأساً أخرى.

صوت القطار يقترب منهما. وفكّر آيت موح في أمه التي تكرر عليه دائماً ما يفعل به صوت حمار الليل. إنه يضلله ليلاً، فيضيع الطريق المؤدي إلى كوخهما القصديرية بفعل السُّكْر. لكن والدته لم تكن تعرف أنه يشرب ذلك الشيء الحرام، تعتقد فقط أن حمار الليل متمكن منه، وحاولت مراراً أن تكتب له تميمة عند كثير من الفقهاء، لكنها لم تفلح، فقد ظلَّ حمار الليل يلازمه وأحياناً حتى النهار. وكلما التحق بعمل، سرعان ما يطرد منه.

عندما سمع آيت موح صفير القطار للمرة الأخيرة، قال لبنسليمان:

- سوف يكتشفوننا.
- إن رجال الديوانة نائمون.
- هل تعتقد ذلك؟
- وحتى رجال الشرطة.
- والمسافرون؟
- إن هذا القطار أعمى خاص بالسلع. اشرب.

وأفرغ له زجاجة النبيذ الرخيص في علبة الياوورت:

- في صحتك.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة ليلاً والسماء تنذر بصحو حقيقي غداً. لكن الظلام مع ذلك منتشر، لا تبدده سوى تلك المصابيح القليلة الباهتة المنتشرة خلف السور. وسمع بنسليمان موسيقى منبعثة من مكان ما، تبيَّن فيما بعد أنها قادمة من جهة المراكب. كانت ترتفع وتنخفض لتصمت في أغلب الأحيان، تصوَّر أن سكيراً مثلهما هو الذي يعالج جهاز الراديو.

مرَّ القطار بسرعة دون أن يحفل بهما. وسمعاه يتوقف على بعد كيلومتر تقريباً منهما، وسمعا أيضاً، على الأثر، أصواتاً آدمية

ضاعت في الليل. وقف آيت موح، وأخذ يبول بالقرب من رفيقه، نهره الآخر، وطلب منه أن يبول جالساً لأن الكلب وحده هو الذي يفعل ذلك وهو واقف لكن الآخر لم ينتبه له، وزرر بنطلونه.

وعاد ليقول:

- إنه دوري، هات كأساً أخرى.

أفرغ بنسليمان من الزجاجة الثانية حتى اندلقت الخمر على علبة الياوورت، وعلى أصابع رفيقه، ثم شرب آيت موح نصيبه دفعة واحدة. ودندن بلحنٍ بربري مردداً بعض الكلمات التي لم يفهمها بنسليمان. مشى بعيداً، وأخذ يتسلق العربة المجوفة السوداء الرابضة على بُعد أمتار منهما، فسمع صوت طنين تردد في الليل، صاح بنسليمان.

- يا كلب! هل ضربك حمار الليل. إنهم سيكتشفوننا، دعنا نسكر.

أفرغ لنفسه في علبة الياوورت. وتلذذ بالجرعة الأولى. ثم دلق كل شيء في جوفه، أخرج سيجارة رخيصة جداً من نوع الفافوريت وأشعلها. اتكأ على كوعه الأيسر، وصرخ في وجه آيت موح حتى يكف عن سكره وعربدته. لكن آيت لم يكن يستمع إليه، مشى نحو المرفأ، ووقف يتأمل الضوء المنبعث من مراكب الصيد، ومن البواخر، والمنعكس على صفحة الماء المتلألئ... وتصور الأسماك وهي تقفز فوق سطح الماء. فكر أن يتراجع خطوتين إلى الوراء، ثم يقفز إلى المركب الذي أمامه، حتى ينهي سكرته مع الصيادين. وعندما تراجع إلى الخلف اصطدم بجسيمن آدميين، أمسكاه من ذراعيه.

- مع أي رايس تشتغل؟

أخذ يتمتم.

- هات ورقة التعريف.

أخذ يتمتم أيضاً.

كان الرجلان ينتميان إلى عمالة البيضاء. أخرج أحدهما شيئاً من جيبه. لم ينتبه آيت موح في الظلام، أخذ يصرخ:

- لست أنا، إنه هو...

رفع بنسليمان عينيه في الظلام ورأى ثلاثة أشباح تتدافع. ترك ما تبقى في الزجاجة وجرى نحو السور. تسلقه بصعوبة. وعندما وضع كفه على سلك شائك انغرزت إحدى أسنانه فيها. تحمّل كل شيء، وبذل مجهوداً للنجاة بنفسه، أدخل جسده بين سلكين فعلقت بعض الأسنان بثيابه. لم يهتم بذلك. هوى إلى الأرض تاركاً بعض الخرق معلقة على السور.. سقط على كفيه وركبتيه. تنفَّسَ بسرعة وعمق. وعندما حاول أن يقف وجد ثلاثة أشخاص بثيابهم المتشابهة وقبعاتهم المستديرة يحيطون به، وقد وضع أحدهم يديه على خاصرتيه، وأفرج ساقيه.

هياكل عظمية

قالت الزوجة:

ستأخذ ضربة شمس.

وقالت الحماة، وهي تحاول أن تمضغ سندويش البطاطس المقلية بما تبقى لها من أسنان:

- سيحصل ذلك إذا لم يضع طربوشه فوق رأسه.

كانت حرارة الشمس قوية بالفعل. غير أنه ليس متأكداً من أن ذلك سيحصل له، لأنه لم يسبق له أن تعرض لضربة شمس. أو هو لا يذكر أنه تعرض لها ذات يوم.

حرَّك قدميه الخارجين عن مستطيل الفوطة فوق الرمل. وشعر ببعض الحبات تدغدغ ما بين أصابعهما. نظر إلى الحماة وهي تمدُّ يدها النحيلة ذات العروق البارزة إلى زجاجة «كوكا» المثلجة، أعجبه أن يتأمل الطريقة التي تصبُّ بها السائل الأسود في فمها. أمعن في الأمل. تخيَّل السائل مثل أفعى سوداء صغيرة طرية الجسد تنسرب في جحر. تخيَّله أيضاً خيطاً أسود. تخيَّله زفتاً ثم لم يعد يتخيَّل أي شيء، اختلطت صورة الخيط بالزفت بالأفعى بالسائل. ابتسم وحرَّك إطار نظارتيه فوق أرنبة أنفه، كررت الزوجة:

- ستتعرض لضربة شمس.

قال:

- الجو لطيف.

لم يضف شيئاً ولا شعورياً أخذ ينظر إلى المنديل المشدود فوق رأسها. ألوانه زاهية. كثيرة. تشكل مساحات هندسية متقاربة ومتباعدة. ومتداخلة أحياناً فيما بينها. وعندما يتحرك الرأس تتغير الألوان. تفقد بعضاً من نوعيتها تحت أشعة الشمس. قذفت فتاة مراهقة قدميه بالكُرة. لم يتحرك. ولم يحاول أن يرد الكرة. ومن تحت النظارة دائماً تشهَّى ذلك التناسق البريء لجسدها. نقل بصره إلى زوجته. فلاحظ أن ملامح وجهها التي يعرفها تغيّرت. أخذت أبعاداً أخرى. استطال الوجه وبرز الأنف واتّسعت العينان حتى أصبحتا مثل كهفين مظلمين عميقين. وسمعها تقول:

- لقد كثرت المراهقات. انظر كم هي قبيحة!

لكن الحماة لم تهتم لما يدور حولها. ابتلعت آخر قطعة من البطاطس وأردفتها بآخر جرعة. وعندما أنهت المضغ أحدثت أصواتاً صادرة ما بين اللسان واللَّهاة. وقفت ومشت حافية فوق الرمل الحار تجاه بعض القياطين التي تتجمع تحتها نساء مثلما يهيئن الشاي أو يأكلن باستمرار، أو يغتبن جاراتهن، أو يتحدثن فيما لا يعنيهن. مشت بتباطؤ وحذر شديدين وهي تحاول إنزال ثوبها الخفيف الذي تلعب به الريح. وبدت له هيكلاً عظيماً نحيفاً. تخيَّل عظامها تطقطق. ثم هي تنفك وتنتشر بيضاء أو مدماة على الرمل. وأزال النظارتين. وتابع بعينيه الفتاة التي تلعب الكُرة. جسد متناسق حقاً: بريء. يتطاير شعرها الأسود الأملس وينتشر مثل مروحة خلفها وحول رأسها. ويندلق إلى الأمام عندما تنحني. يندلق بشكل عمودي ثم يستعيد وضعه. أتى شاب من خلفها وصبَّ حفنة رمل على ظهرها. ثم دفعها في مكان من جسدها يدل على أنها تحرَّم عليه شرعاً. وكانت الزوجة تحاول إحكام شدّ المنديل على رأسها.

فتحت جراباً خلفها. وأخرجت نظارتين شمسيتين ووضعتهما. ربما لكي تخفي اتجاه نظراتها. تلصصت أول الأمر على زوجها. ثم أخذت تتابع الفتاة. ومن مكان ما أخرجت كمية من الحِمَّص المقلي وأخذت تلقي بالواحدة تلو الأخرى في فمها وهي تمضغ ببطء، مستعينة بلسانها الذي ينفخ الحنك بعد الحنك. طاردت الفتاة الشاب المحرَّم عليها. غير أنه التجأ إلى الماء ورشَّها بسرعة فتراجعت. فاجأتها الكُرة قادمة من لا مكان. صدمتها فسقطت جالسة على الرمل. لم تتحرك وظلَّت تذري الرمل من حولها وهي تقول كلاماً يبدو أنه احتجاج. أمعن هو في تأملها أكثر. وأمعنت الزوجة كذلك في تأمل حركات الفتاة وحقدت عليها. خصوصاً عندما رأت صدرها وقد اندفع إلى الأمام. كانت الفتاة قد كوَّنت بنصفها الأعلى وذراعيها المتصلّبين المغروسين من الخلف في الرمل مثلثاً ذا نتوء. في زاويته العليا رأس يتحرك في كل اتجاه. تصدر عن ضحكات استهتار أو براءة. لم يتكلم، بل فكَّر أن الزوجة تتابع كل شيء حتى ما يجري داخل رأسه. ولم يكن يعرف بالضبط ما يدور في رأسه. إنه فقط ينظرُ إلى الماء وإلى الكُرة وإلى الفتاة. العالم الآخر. حتى زوجته ربما لم يكن يراها. إنها حاضرة ويمكنها أن تُلمس مثل هذه الفوطة أو هاتين النظارتين، لكنه لا يراها. وربما أحسَّت أنه لا يراها بالفعل. وضعت يدها على كتفها ثم على عنقه، مرّت برؤوس أصابعها على بعض الشعيرات الملساء في جسده. ثم قال دون أن ينتبه:

- لماذا لا تسبحين؟

- أريد فقط جمع الأعشاب هناك.

وأشارت جهة البحر.

- انظر كم هي كثيرة! وطافية فوق الماء!

- أيضاً فوق الأرض. الأمواج تخلِّفها ثم تنسحب إلى الوراء.

بساط أخضر من الأعشاب البحرية يتحرك فوق الماء. يتوسط خضرته سواد نفايات السفن. كانت الخضرة مثل شبكة ممزقة في كثير من الأماكن. غير متصلة بالخضرة التي تكوَّمت على الأرض وغاصت في الرمل المبتلّ. واحتضنت قواقع صغيرة مجوفة لامعة. كم كان معجباً بتلك القواقع! معجباً بغطاء الحلزونات البحرية. ومعجباً أيضاً بأشكال أخرى هي من غير شكّ بيوت لحيوانات أخرى ماتت أو ابتلعتها أسماك كبيرة. كم كان يخاف أيضاً الأسماك الكبيرة التي لا يعرف من نوعها إلا ما يراه مصوراً في الكتب أو المجلات. (هذا الوهم: يسبح ثم يغطس. ثم تتعطل عضلاته. يهوي إلى القاع فيُصبح بسهولة فريسة لمثل تلك الأسماك، إنها أبشع ميتة خشيها طوال حياته).

وقفت الفتاة واستأنفت اللعب بالكُرة. تحركت جهة الماء حتى علقت الأعشاب الخضراء بقدميها فطوحت بها بعيداً. استمر في النظر إليها. لم يحدد أي موقف عاطفي منها. وأزاحت الزوجة النظارتين من عينيها وتظاهرت بمسحهما. قالت وهي لا تنظر إليه:

- اذهب لتسبح.

- إن أمك ستضيع المكان. إلى أين ذهبت؟

- لا تهتم بها. ستعود على كل حال.

سكت وطرد بعض الهوام بقدميه. طنت ذبابة حول رأسه. وابتعد الطنين شيئاً فشيئاً. وعادت إليه صورة السائل الأسود وهو يتحول بالتدريج بين التراقي والجوف لتمحي الصورة من جديد. أو أنها لم تمحَ نهائياً، بل استمر التحول. اندمجت الصورة الأولى في صورة العظام وهي تطقطق وتتفكك لتنشر بيضاء أو مُدمَّاة فوق الرمل. لكن الفتاة قذفت العظام بالكُرة، فتحولت الكُرة إلى عظم،

بل إلى جمجمة. ذهبت الفتاة إلى الجمجمة وأمسكتها بيديها وألقت بها إلى الشاب المحرَّم عليها شرعاً. لقد أصبحت الفتاة من آكلي لحوم البشر، الذين قرأ عنهم كثيراً. وتحسّس رأسه. اصطدم بالعرق في جبهته. وتأكّد من أن رأسه ليس عظماً أبيض. وأن الجلد لا يزال يغطي تلك الجمجمة. وقف وتمطط في الهواء الحار وأخذ يركض جهة الماء. داس فوق الأعشاب الخضراء، وأحس بوخز القواقع تحت باطن قدميه، لكنه لم يأبه. شعر بفرحة عارمة، واستطاب برودة الماء. ثم ألقى جسده على أول موجة حقيقية تواجهه. طشطش الماء من حوله. إلا أن الطشطشة ضاعت عندما سدَّت أذناه، وتسرب إليهما الماء. بالقرب منه كانت مجموعة تتدافع بالأيدي ويتساقط بعضها كأشياء ثقيلة فاقدة للتوازن. فقد هو الآخر توازنه، عندما دفعته موجة من الخلف، فتكوَّر ولعق الرمل في القاع. بصق وغسل وجهه بسرعة برشّاتٍ خفيفة. ثم وقف فوق الأعشاب البحرية، وقذف ببعضها في غير اتجاه. أعجبته قدرة الفتاة والشاب على الاستمرار في اللعب. وعندما طاشت الكرة نحوه أسرع إليها وقرر أن يشاركهما. بدا عليهما الاستعداد الكامل لقبوله كي يدخل في اللعبة. دخلها فعلاً وأصابته نشوة. حتى الفتاة أصابتها نشوة أكبر، لأن دخول شخص جديد في اللعبة يعطيها إمكانية أكبر لتنويع طريقة اللعب. ورأى زوجته واقفة من دون منديل فوق رأسها وهي تتمطط مثلما فعل هو قبل لحظة. أدرك بالتقريب نيتها. ثم رآها تركض جهتهم. مرت كالسهم واخترقت الماء وأخذت تضرب بذراعيها بلا تنظيم. كانت تخبط الفضاء والماء والزبد وكل شيء. وعندما كان ينظر إليها وهي تدخل وسط حلقة المتدافعين بالأيدي. ضربته الكُرة على قفاه. فسعل سعلة خفيفة أضحكت الفتاة والشاب معاً. ضحك بدوره وأعاد لأحدهما الكُرة بقوة. وقام بحركات عشوائية. تمدد

جسده في حيّز أكبر من الهواء. صار مثل حيوان خرافي طري. أصبح الحيوان يتموج على حفافي في نهاية الزبد، زاحفاً، منتشراً، مستطيلاً، حتى إنه أفزع كل الناس العراة في المكان، لكن الحيوان الهلامي قد أحس بدغدغة الماء، أخذ يتقلص شيئاً فشيئاً. ثم عاد إلى وضعه الطبيعي، وتلقَّف الكُرة من جديد. أصرَّ على أن يمضي في اللعبة وحده، مع الفتاة والشاب. لكن زوجته التحقت بهم. شعر بها عندما أمسكته من الخلف. بيديها الباردتين. ارتعش، التفت إليها. ابتسمت في وجهه ابتسامة خُيِّل إليه أنه يعرف معناها. اقترحت عليه أن تشاركهم. هزّ رأسه هزّة تعني الموافقة والرفض معاً. وقالت له:

- اذهب لتأكل الحِمَّص.

- لا أحبه.

سكتت لحظة وهي تنظر إلى الكُرة تقفز في الفضاء الفسيح من جهة أخرى، اقتربت منه.

- لم تكن تحب أبداً اللعب بالكرة.

- ليس دائماً.

- اذهب واشرب بيرة في البار.

- ليست عندي رغبة.

- عندك رغبة في أن تلعب مع تلك.

سمع ما قالت. ولكنه تظاهر بعدم الفهم. ورأى بعيداً الحماة وهي تخطو ببطء دائماً جهة كومة الثياب. فكر في أن يقول للزوجة إن أمك قد عادت، إلا أنه عدل عن ذلك. ثم جرى متسلقاً منحنى رملياً حيث اصطفت دكاكين البقالة والمقاهي. وقف هو يلهث ليستعيد نفسه الأول. نظر إلى البار شبه العاري من الأمام ثم أخذ له مكاناً بين الواقفين. كانت زوجته تخطو باتجاه الحماة وقد تدلَّى

ذراعاها حتى الأرض، وتهالكت على نفسها جالسة. تصورها وهي تُخرِج حفنة جديدة من الحِمَّص المقلي. اتكأت على أمها لتقول لها شيئاً. دلّت الحماة رأسها جهتها لتسمع بوضوح. أصبحتا هيكلين عظميين عاريين تحت الشمس. تفكك الهيكلان، وتفككت الهياكل الأخرى على التوالي. سمع طقطقات العظام. بدأت ببطء وخفوت. أخذ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً. طقطقات وأصوات تكسُّر. ارتفع الصوت وارتفع حتى ملأ الفضاء من حوله. رأى الناس يتعرون وتكشط عنهم جلودهم. وتحسس جسده. فوجد الجلد لا يزال متلصقاً في مكانه يتفصَّد عرقاً. أغمض عينيه وفتحهما ليتأكد من أن هذه الأشياء كلها ليست حقيقة. عاد كل شيء كما كان، فشعر بالراحة، وضع رأسه بين ذراعيه وسمع صوتاً بالقرب منه:

- لا شكّ أنك متعب. هل تريد أن تذهب إلى المرحاض لتتقيأ؟

العلبة والنجيمات

عندما أصبحنا وسط الحديقة العمومية الصغيرة. وجلسنا على المقعد الحجري البارد، رفعت عيني لأتأمل الأشجار وهي ممتدة في الفضاء طويلة حتى لتكاد تبدو أنها بلا نهاية. بعض العصافير تثقل الأغصان النحيلة فتتدلى مثل عناقيد رمادية وملونة. بسط خليل الجريدة بيني وبينه على المقعد الحجري. ووضع فوقها علبة السردين. وقسم الخبزة وناولني جزءاً منها. ولما لم أنتبه إلى حركته الأخيرة نبّهني إلى ذلك بلكزة في كوعي. فارق بصري الأغصان المثقلة. ونظرتُ إلى الطعام القليل بيننا. فكرت أن صورة الأسماك على العلبة مُشهية أكثر مما في داخل العلبة. لم أكلِّف نفسي ذات يوم إحصاء عدد السردينات التي يحتوي عليها حجم من هذا النوع. كنت آكل فقط وقد أشعر باكتفاء أو لا أشعر به بحسب شهيتي للطعام. أما الآن فقد بدا لي أن نصيبي الضئيل هذا لن يكفيني. ولم يكن في مستطاعي تقدير شعور خليل تجاه هذه الكمية القليلة من السردين. الوقت بين الثانية عشرة والواحدة. يؤكد ذلك وجود ثلاث عاملات في عمر الزهور يجلسن قبالتنا على المقعد الحجري. ووجود أخريين على مقعد آخر. كانت هناك فتيات أخريات فضلن أن يجلسن على الأرض وبينهن شاب في يده كيس من البلاستيك الشفاف يحتوي على سندويتشات البطاطس المقلية. قلتُ لخليل وهو مشغول بشق الخبز بأظافره:

- ننتقل إلى المقعد الآخر. بالقرب من الفتيات الثلاث. ما رأيك لو نشاركهن طعامهن ويشاركننا علبتنا؟

- لا شكّ أنك تمزح. هذه السردينات لا تكفي حتى لأقلهن شهية.

- لا تعتقد أني جاد. أعرف أن ثمن سندويتش واحد مما يأكلن يعادل ثمن علبتي سردين.

أخذ خليل ينقل بأظافره الطويلة القذرة نصيبه من السردين إلى قطعة الخبز في يده. كان يفعل ذلك بأناة ويمرر أحد أصابعه وسط قطعة الخبز بسرعة، وصببت فيها ما تبقى دون أن أكلف نفسي إحصاء السردينات الباقية. والغالب أنها ثلاث. لم تكن مشكلتي الأساسية هي إحصاء ما يوجد داخل العلب ولكن مشكلتي هي الجوع. اليوم يغذيني خليل وغداً يعشيني جليل. اليوم يعشيني فلان وبعد غد فرتلان. وعندما لا يوجد في العالم خليل أو جليل فإني دائماً أظل متعلقاً بوهم أن أعثر على فلان أو فرتلان. وخليل مثلي يعيش على وهم أن يعثر على جليل. فلان أو فرتلان. اثنان فقدا كل شيء في الحياة إلا الأمل. لقد تعرفت على خليل في أحد البارات. عندما كنت لا أزال أحتفظ بقليل من النقود بعد طردي من وزارة البريد على إثر إضراب عنيف. أما هو فلم يكن يشتغل في أية وزارة أو أي معمل أو أية شركة. رسب في امتحان البكالوريا مراراً. رغم وعيه المتقدم وذكائه إلا أنه في النهاية فضَّل ألا يعيش مع العائلة لفقرها الشديد. فأخواته الثلاثة محترفات. وأبوه يبيع النعنع والفلفل. عندما التقينا في البار لأول مرة، دفع عني ودفعت عنه. ثم أخذنا نتحدث عن النساء وعن الأغاني والتجنيد الإجباري. وقلت له إني لم أستدعَ لأنني محظوظ وقال هو إنه دفع رشوة فأعفي. ثم انتقلنا للحديث عن صعوبة الحصول على جواز سفر وتحدثنا كذلك

عن أوروبا وكيفية اغتيال المهدي بن بركة. وشتمنا الوضع القائم وطلبنا كؤوساً أخرى من الشراب حتى لم نعد نقوى على الوقوف. ثم استدعيته إلى بيتي الذي لم أدفع كراءه مدة سنة. وفضَّل على إثر ذلك أن يلازمني. قلت لخليل:

- إلى متى سنظل هكذا فقيرين؟

- إننا نحيا على كل حال. ليست حياة الرفاهية ولكنها حياة.

ونظرت إلى مجموعة الفتيات العاملات الشاحبات الوجوه وهنّ يلتهمن سندويشاتهن. نظر خليل إلي ورأيته يبتسم. فكرت أنه سيقول شيئاً. قال بالفعل:

- إنهن بئيسات.

- لكنهن أغنى منا.

- لقد كنت غنياً ذات يوم عندما كنت في وزارة البريد.

أي غنى ذاك؟! كانت الحوالة تتبخر في أول الشهر. الكراء والبقال والعائلة. والمومسات يأخذن ثمن جهدهن من أثاث البيت: فوطة، منفضة، حذاء أو أي شيء آخر. خليل يعرف كل تلك الأشياء جيداً. لقد حكيتها له ولربما أخذت إحدى أخواته نصيبها من ذلك الأثاث. من يدري؟

أخذتْ أشعة الشمس تتسرب من بين الأغصان. لكن تلك الأشعة لم تكن قوية ولا حادة. ورغم ذلك العرق يتفصَّد من ظهري عند النخاع الشوكي. أوشك خليل على أن ينهي نصيبه من الطعام. توقف قليلاً عن المضغ وتجشأ. ثم تجشأ مرة ثانية. قلت له:

- هذه الغازات ستقتلك. لقد تفتتت كبدك من فرط الشراب.

- وندرة الطعام.

- ما أروع تلك الأيام القادمة التي سنأكل فيها حتى الشبع. ونشرب فيها حتى الغيبوبة؟

- إن شاء اللّه. عندما تلد البغلة أو يبيض الديك.

- إنك متشائم.

- لست متشائماً ولا أي شيء. ولكنني رجل واقعي. إذا كنت تريد أن تأكل حتى الشبع وتشرب حتى الغيبوبة فما عليك إلا أن تعمل لذلك.

رأيت الفتيات وقد أنهين طعامهن يتراشقن بشيء وهنّ يتضاحكن. كانت إحداهن قد انفصلت عن المجموعة وظلّت واقفة تحت الظل واضعة يدها عند خاصرتيها. مفرجة ساقيها.

قلت لخليل:

- إنها جميلة. أليس كذلك؟

- لا يمكنها أن تهتم بأمثالنا.

أخذ خليل يجمع فتات الخبز. وضعه في العلبة الفارغة ثم كوم الجريدة وألقى بكل شيء فوق نبات ضعيف أخضر ينمو بصعوبة فائقة. اقتحم الحديقة شرطي ورجل من القوات المساعدة غير مسلح. مشيا بهدوء واعتزاز كبير بالنفس. بدا الشرطي منتفخاً مثل ديك. شعرت الفتاة أنها مهددة في أمنها فانضمت إلى المجموعة. حتى أبسط المتع ممنوعة أمام الشرطة. وعلى الرغم من الرزانة التي افتعلتها المجموعة فإن الشرطي اتجه نحوها. أخذ الحديث يدور بينهم. في البداية كانت الفتيات محافظات. لكن سرعان ما انطلقت الضحكات. استغل الرجلان الفرصة وبدآ يعوضان عن النبذ الذي يلحقهما وهما من دون لباس رسمي. تخيلتهما وهما يدفعان ثلث الحوالة للكراء والثلث الآخر للبقال وما تبقى للعائلة الفقيرة التي قد توجد في أية قرية نائية من الوطن. ومع ذلك فهما يبدوان الآن داخل اللباس الرسمي قويين وغنيين. أي غنى ذاك؟! أي غنى ذاك؟! لا شكّ أن مثل الغنى الذي كنت أعيشه وأنا موظف في وزارة البريد.

كل الأفواه تتحدث دفعة واحدة. والضحكات تصدر متباينة القوة. نسي الشرطي رزانته المفتعلة، ورأيت يديه تتحركان ببهلوانية إلى مكان تحت نهد إحدى الفتيات. تراجعت الفتاة قليلاً وهي تضحك. كادت أن تتعثر وتسقط إلى الخلف. في حين انهمك رجل القوات المساعدة في مغازلة فتاة أخرى.

قال خليل:

- لن يحصلا على واحدة. أراهنك. النساء لا يحببن الشرطة.

- من أدراك؟ انظر كيف يبدين مسرورات.

أخرجتُ علبة السجائر التي أصبحت شبه فارغة. تناول خليل السيجارة وأشعل لنا بولاعة جميلة لا أدري من أين حصل عليها. وهو مصرّ على الاحتفاظ بها حتى في أحرج اللحظات المادية. في الواقع تشهَّيت الفتيات الجالسات والواقفات. وعلى الرغم من أني لم أكن محظوظاً مع النساء فقط كنت أترك لخيالاتي المجال حتى أنفس أكثر. سمعت خليل يزفر زفرة قوية. وفهمت أيضاً ما يريد. استمر الرجلان في مداعباتهما وقد تجاوزت تلك المداعبات وجهها البريء الأول. أصبحت الأيدي تلمس الأجساد. ثم بعض الأماكن الحساسة فيها. استمرت ضحكات النشوة أيضاً. ولم يكن ذلك سوى دافع لتصعيد تنهداتنا. سمعنا خلف الحديقة باباً يخبط بعنف. ثم مرَّ من أمامنا ضابط شرطة يتبعه شرطيان بثيابهم الكاكية. كانت بعض النجيمات النحاسية تثقل كتفي الضابط وتتدلى إلى الأمام. توقفت الفتيات عن الضحك وهنّ خائفات. التفت الشرطي إلى الخلف. وتغيّرت ملامح وجهه وهو يرى الضابط. أدّى التحية. وكذلك فعل رجل القوات المساعدة. ظهر عليهما انفعال كما لو كانا متلبسين بأبشع جريمة. قال الضابط وهو يحك أنفه:

- هل تعتقدان أنكما في ماخور؟

قال الشرطي وهو يتعتع:

- لقد وجدناهم بالفعل يا سيدي كما لو كانوا في ماخور. هذه حديقة عمومية وليست ماخوراً.

- من هؤلاء؟

- ذلك الشخصان وهؤلاء الفتيات. كنا نطلب منهم أوراق التعريف.

بدا الارتياح التام على الضابط ثم تقدَّم منا الشرطيان اللذان كانا يتبعانه. طلبا أوراق التعريف. ماذا تفعلان؟ لا شيء. أخذت الفتيات العاملات يتباكين. كنا نتغذى يا سيدي. لا نعرف هذين الشابين. غير صحيح. هو الذي... قولي الحقيقة يا سمية.. هو.. لكن..

لم يحاول ضابط الشرطة أن يسمع أي كلمة احتجاج. دفعونا إلى السيارة. وركب الضابط بالقرب من السائق. كنت أرى كتفيه من خلال النافذة الصغيرة المشبكة مثقلين بالنجيمات النحاسية. وكان نحيب الفتيات المجهولات يزداد تصاعداً.

الحرف

استطاع الحرف أن يتخلص من أيدي حرس القوات المساعدة بسهولة، لأنهم كانوا مشغولين بهدم خيمته على الشاطئ. اختفى خلف كثبان الرمل. ولأنه لم يكن يشكل أية خطورة، لم يهتموا بفراره. المدينة صغيرة. يمكن غداً أو بعد غدٍ مشاهدة الحرف وهو يتجول، أو منعزلاً في ركن من مقهى يدخّن الكيف في تأمل.

قال الضابط:

- لا تهتموا كثيراً. سوف يأتي ويقدم نفسه إلينا غداً صباحاً أو هذه الليلة. هل نهتم بمخبول؟

- قال أحدهم وهو يرفس الباش بحذائه:

- أخشى أن يرتكب حماقات أخرى هذا المساء.

قال الضابط:

- كل ما يهمنا هو أننا نودُّ أن نعرف من أين أتى بهذه الخيمة؟ من أين له الفلوس حتى يشتري مثلها؟

كان الحرف يرى قاماتهم في الظلام، وأحياناً يميّز وجوه بعضهم عندما تُفضح تحت ضوء البطاريات. وفكر أنه يستطيع أن يتغلب على اثنين منهم على الأقل لو تشاجر معهما. ولكنهم أكثر من اثنين. أخذ يمسح الزبد عن شفتيه ويلعن في الهواء. ورآهم يتشكلون لحمل الخيمة إلى السيارة.

كان الحرف معروفاً من طرف الجميع. ولا شكّ أن قصته مع حرس القوات المساعدة هذه الليلة ستنتشر في المدينة الصغيرة. سيعرفها الكل. وتبدأ التكهنات كيف يستطيع الحرف أن ينتقم من هؤلاء الحرس. إن حماقاته كثيرة وشاذة، سواء في السجن أو في مستشفى الأمراض العقلية. وعندما ركب الحرس السيارة قال الضابط:

- إنها خيمة غالية الثمن. لا يمكن أن يشتري مثلها حتى الباشا نفسه.

- هذا الأحمق المعتوه لا ندري من أين أتى بها؟

كان الناس يعرفون من أين أتى بها. لقد ذهب مع هيبية فرنسية إلى تاغازوت. كانت تدّعي أنها التقت بأميرها. تعتقد حقاً أنه أمير، بلحيته القصيرة وبشرته السمراء. وعندما عاد من تاغازوت، حمل معه هذه الخيمة القصيرة وبشرته السمراء. وعندما عاد من تاغازوت، حمل معه هذه الخيمة ومعطفاً للفرو، وهذا المعطف هو الذي كان يرتديه الحرف يومياً رغم الحرارة الشديدة. كان يرتدي أيضاً سروالاً مقصوصاً فوق الركبتين، بحيث تبدو ساقاه المشعرتان وقدماه الحافيتان المتصلبتان. كل ذلك مع معطف من الفرو مرتفع الثمن والحرارة شديدة.

عندما رأى الحرف السيارة تتحرك، دكّ الرمل بقدميه وأراد أن يصيح. لكن الصوت انحبس في حنجرته. دسّ يده في جيب معطفه الفرو وتحسس حزمة من الأوراق النقدية. مشى نحو المكان الذي كانت الخيمة منصوبة فيه وأخذ يذري الرمل كمن يبحث عن الشيء. لكنه لم يعثر على ذلك الشيء. جلس وأخذ يمضغ ريقه. وقف ثم جلس مرة أخرى ومدَّ رجليه. شعر بوخز تحت عجيزته فوقف وتوجه نحو الأصوات القريبة. مرَّ بالقرب من فندق «الجزر» وظهر له مركز

الشرطة فاغراً فاه. انسلَّ إلى زقاق ضيق، فاراً بنفسه منهم. لو ألقوا عليه القبض لأشبعوه ضرباً ورفساً، وألقوه أياماً في قبو مظلم يتغير زبائنه باستمرار إلا هو. لقد كانت له تجربة في ذلك المكان المظلم الذي يقضي فيه الزبائن حاجتهم أمامك وقد تدلت أعضاؤهم الجنسية. كان الحرف يقبض على حزمة الأوراق النقدية في جيبه بيد حديدية. وعندما رأى شبح أول إنسان في رأس الزقاق ارتجف ووقف في مكانه متصلباً. لكنه عندما عرف أن الأمر لا يتعلق بواحد منهم، مشى في ثقة نحو المكان الذي خطر له توّاً. كانت جُلّ الحوانيت قد أغلقت أبوابها تقريباً. والقليل منها ما زال مفتوحاً، ضيقة الأبواب. وقد اصطفّت كؤوس اللبن الرائب على جوانبها. مرَّ ثلاثة أشخاص ملتفين في جلاليبهم. وسمع اسم «الحرف» يتردد في شفاههم لكنه لم يعر أحدهم اهتماماً. كانوا يتحدثون عنه من غير شكّ. ووجد الحرف نفسه أخيراً أمام باب دار يعرفها جيداً ولكنه لا يزورها إلا قليلاً. طرق الباب وهو لا يزال يتحسس حزمة النقود في جيبه. طرق مرة أخرى ففتحت له الباب امرأة عجوز على جبهتها وشم عمودي يقسمها إلى نصفين. قالت المرأة:

- الحرف، ماذا تريد؟ اذهب فتّش عن مكان آخر يليق بك يا خانز.

لكنه لم يستمع إليها، بل دفع الباب بكل قوة وعنف.

- سأبيت هنا الليلة. لقد أخذوا خيمتي.

- من؟ البوليس؟ لا شكّ أنه عملتها يا خانز.

اجتاز باحة الدار وأصبح وسط الغرفة التي ينبعث منها الضوء. وقالت المرأة بصوت منخفض:

- لا ترفع صوتك. الجيران فوقك.

كانت ثلاث نساء ممددات. وأخذ يجيل النظر فيهن ليختار إحداهن. وعندما لحقت به المرأة قالت:

- أنا لا أمزح. ادفع النقود أولاً.

أخرج الحرف حزمة وأراها للعجوز، فصرخت في النساء:

- يا! أفقن فالحرف غني هذه الليلة.

وأرادت أن تخطف من يده حزمة النقود، غير أنه أعادها إلى جيبه بسرعة. وقال:

- أريد تلك.

- هي لك. هات النقود سأعدها لك.

- إنها معدودة.

- هات يا خانز.

- الخانزة هي أمك.

وأعطاها ورقة نقدية، فاختطفتها من يده وهي تقول:

- هل تكفي هذه يا مخبول؟ للشراب أم للنوم؟

دفع لها الحرف ورقة أخرى، إلا أنها أرادت أن تستزيد لكنه رفض. وجلس مجيلاً نظره في الغرفة. كانت مستطيلة مطلية بطلاء يقترب من الأصفر الباهت. وعلى الجدران عُلِّقت بعض الصور لسيدنا علي والغول ولحواء وهي تقدم التفاحة لآدم والأفعى بينهما وقد لوت جسدها على جذع الشجرة. وكانت نافذة وحيدة صغيرة على شكل شبه منحرف قرب الباب. وقد اخترقها الضوء حتى انتهى وغاب في ظلام خفيف خارج الغرفة.

اقتربت إحدى النساء من الحرف:

- من التي تختار؟ أنا؟

- أريد تلك. أنت أكل جسدك الزهري. ما هذه الدمامل على شفتيك؟

- أنت أيضاً تفهم هذه الأمور يا أحمق.

- الحمقاء هي أمك. ابتعدي مني لا أريد خانزة مثلك.

فصاحت المرأة في العجوز:

- أمي طامو. هل جننت حتى تستقبلي في بيتك مثل هذا المخبول القذر.

قالت العجوز:

- أقرع وبفلوسه.

- يلعن بوها حياة.

- اسكتي أنت. إنه لا يريدك. ومن حقه ذلك.

التفتت العجوز إلى الحرف وأخذت تلاطفه. بالغت في ملاطفتها له. انتفخ الحرف مثل ديك يستعد لمعركة حقيقية أو معركة جنسية. وأرادت أن تجعل لملاطفتها ثمناً. قالت وهي تحرِّك الحرف من كتفيه:

- نريد أن نسكر الليلة ونتعشى ونمرح. هات ثمن اللحم والخضر والفواكه. هذه النقود ستأخذها الساقطة.

- إنني لا أملك بنكاً.

أدخل يده في جيبه وأخرج ورقتين نقديتين. تناولتهما العجوز مسرورة وهي تقول:

- أنت الآن رجل.

وللنساء:

- ألم أقل لكنّ. أقرع وبفلوسه؟

التفت الحرف إلى المرأة التي رغب فيها. اقترب منها ووضع كفه فوق كفها. لكنها أبدت بعض التمنع. سحبت يدها من تحت يده وهي تقول:

- هل تحبني حقاً؟

قال الحرف:

- أنا لم أرك قبل الليلة. كيف أستطيع أن أحبك.

- هل تحب هيبية إذن؟

- نعم. أحب كثيرات.

وقالت امرأة أخرى وهي ممددة فوق زريبة مهترئة:

- لقد أفسدت الهيبيات القذرات السوق علينا. سأذهب إلى الدار البيضاء لأصبح غسالة. وسأتزوج بعسكري.

- اسكتي يا فرتلانة. لا تعتقدي أنك ستجدين زوجاً بسهولة هناك. الفتيات كثيرات والرجال أصبحت عيونهم في السماء.

- كل زرع له كياله.

- أنك لست زرعاً، أنت حنظل.

- أقفلي فمك يا ساقطة.

- الساقطة هي أنت.

كانت العجوز قد غادرت الغرفة وقد التفّت داخل حايك أبيض: متسخ، أما الحرف فقد حاول أن يقفل فم المرأة التي بجانبه حتى لا تستمر في الشتم. لكنها أبعدت شفتيها من كفيه. وقالت:

- قُم اقضِ حاجتك وابتعد مني أيها المخبول.

أراد الحرف أن يرد عليها، لكن طرقات قوية على الباب اسكتتهم جميعاً. وتساءلت الأعين عمّن يكون الطارق. وأخذت النساء في الاهتمام بأنفسهم. ربما يكون زبون جديد. لكن الحرف وقف فجأة، وخرج إلى باحة الدار. أخذ يجيل نظراته في كل مكان. استمرت الطرقات بخفة هذه المرة فخرجت إحدى النساء الثلاث. وقبل أن تحاول فتح الباب وضعت أذنها عليه لتستمع إلى الحديث الدائر في الخارج. كان من في الخارج قد أحس بأن شخصاً ما وراء الباب فصرخ بصوت مرتفع:

- بوليس. افتحي يا ساقطة.

صرخت المرأة صرخة مكتومة:

- ناري!

إذ ذاك أخذ الحرف يدور على نفسه. توجه بسرعة إلى صندوق كان موضوعاً قرب الحائط القصير. ثم قفز إلى الخارج بعيداً من سيارة الشرطة. وسمع أصوات خلفه وهو يركض: «إنه الحرف. قف يا بغل، يا أحمق يا مخبول».

لم يكن يلتقط من هذه الكلمات إلا بعض الحروف. كان يركض ويركض ولم يكن أحد يركض خلفه. وقال الضابط:

- لا تهتموا بذاك المعتوه. سنقبض عليه الليلة أو غداً صباحاً.

ثم دُفعت النساء بقوة داخل السيارة إلى جانب نساء أخريات ورجال آخرين.

خلف النافذة

كانت سيارة الشرطة مُرابطة في الجهة الأخرى من الشارع، قرب النادي الإيطالي. لمحتها (ك) فهرعت مفزوعة إلي تخبرني بذلك. لم أفاجأ، لأنني رأيت السيارة من خَصَاص النافذة وهي في مكانها منذ ساعات. لم أرد أن أخبر (ك) بذلك لأنها كانت حاملاً، وخفت أن يؤثر ذلك على صحتها وعلى تكوين الجنين. لكن وقد اطّلعت الآن على الأمر، قلتُ لها وأنا أهدِئ نفسي:

- لا تخافي شيئاً. إنهم مثل الكلاب. سيظلون هناك حتى ييأسوا ثم ينسحبوا.

قالت بخوف:

- أخشى ألا يتم ذلك، إن أحدهم واقف خلف السيارة وينظر إلى النافذة باستمرار.

- قلت لا تخافي. فالأمر ليس على هذا الشكل من الخطورة. ثم إننا تعوّدنا على ذلك.

مع ذلك، رأيت ملامح وجه (ك) تتغير. أخذت تدور في مكانها دون أن تعرف ماذا تفعل. كانت تفتّش عن شيء ربما. ولم أسألها عن ذلك الشيء الذي تفتّش عنه. رأيتها تدور ذاهلة على نفسها، وقلت لها:

- يمكنك أن تستريحي. هل تفتشين عن كرسي؟ إنهم مسمرون

هناك منذ ساعات. لم أرد أخبارك. عندما يتأكدون من أننا لسنا في البيت سينصرفون. الأمر ليس خطيراً إطلاقاً.

قالت (ك):

- إني لا أثق فيهم. هل الأمر يتعلق بمظاهرة الأمس؟

قلت:

- نعم. لكنهم لن يوقفوا سيل هذه المظاهرات والإضرابات المتوالية، حتى لو تمَّ اعتقال بعض الأشخاص.

شممت رائحة البصل قادمة من (ك). قلت:

- اذهبي واكملي تهييء طعامك. سأتغذى اليوم بشهية.

- أما أنا فلن أستطيع الأكل حتى ينسحب أولئك الغربان.

انسحبت (ك) إلى المطبخ، وجلست أنا على السرير أفكر. كنت أجوب الغرفة بخطوات بطيئة، متجهاً صوب النافذة أحياناً، وصوب الفراش أحياناً أخرى، أجلس على حافته وأفكر.

كان الأشخاص الستة في السيارة يرتدون ثياباً مدنية وعلى رأس كل واحد منهم طاقية باهتة، ويرتدون معاطف قديمة، من ذلك النوع الذي يباع في سوق الخردوات والذي تبعث لنا منه أميركا بواخر كثيرة عنواناً على الصداقة، مع - طبعاً - بواخر أخرى تحمل أطناناً من القمح المسوس الذي تعافه حتى الدواب. كان ذو الجثة الغليظة الذي يقف خارج السيارة ينظر إلى النافذة بصبر وبلادة. رأيته يتجه إلى السيارة، ويطلب سيجارة من أصدقائه الجالسين في الداخل يناقشون - ربما - كيفية اعتقالي.

كنت متأكداً أن الأمر لن يعدو مجرد اعتقالي حتى تخف حدّة المظاهرات العمَّالية والطلابية. فقد كانوا يشكون دائماً في أمثالي عندما تتأزم الأوضاع السياسية في البلاد. فيعمدون إلى اعتقال مئتين أو ثلاثمئة شخص ممن لهم سمعة سيئة ودوسيهات في مراكز

الشرطة. لكن ذلك، في الواقع، لم يكن هو الحلّ. فقد كانت الاضطرابات تستمر دون أن يستشير المتظاهرون أحداً. كان كل واحد منهم يشعر أنه مذنب لأنه تخلَّف عن اللحاق بنا. ولذلك عنادهم يشتد، وتستمر المظاهرات هنا وهناك في مختلف المدن وفي مختلف الأحياء. ولا يقف في وجه ذلك حتى السيارات السرية الكثيرة المُرابطة في كل شارع. فقد كان المتظاهرون يعرفون كيف ينظمون أنفسهم.

وقفتُ وذهبت بهدوء إلى المطبخ. وجدت (ك) متوقّفة عن الحركة، جالسة على طبلة صغيرة وهي تبكي. ولما رأتني مسحت دموعها بسرعة وتظاهرت بالثبات، لأنها خافت أن أنهرها. وقفتْ وأدارت ظهرها إلي ووجهها صوب الصنبور، حيث تراكمت تحته أوانٍ وصحون غير مغسولة. فتحتْ الصنبور وتركت الماء يشرشر فوق الأواني. وكانت تنظر إلي خلسة بطرف عينها. قلت:

- لماذا أنت متأثرة. أنت تعرفين أنهم يأخذونني ويعيدونني إليك.

- لكني لن أصبر على ذلك. ستصبح أباً في المستقبل وسيشنقونك دون أن يهتموا بأبنائك أو يشفقوا عليهم.

- إنك تذهبين بعيداً. أين ذهبت أفكارك الثورية عندما كنا صديقين قبل الزواج؟

- لكن يا (ج) الأمر يختلف الآن. سيصبح لنا أطفال. أنا لست متخاذلة. كما عرفتني سأظل. لكن هناك شيئاً يؤرقني لا أدري ما هو.

- ليست المشنقة على كل حال.

- سأذهب معك إليها.

قلتُ بغضب:

- هيئي طعامك. أنا جائع. لا تخافي إلى هذا الحدّ.

أمسكت أنفاسها ودلّت يديها النحيلتين في الماء وأخذت تغسل الصحون وهي تذرذر الصابون البودرة عليها. تعالقت بيديها رغوة غير بيضاء تماماً.

انصرفتُ إلى الغرفة الأخرى المطلّة على الشارع. ولم أحاول أن أنظر من النافذة. لقد كان عندي اطمئنان نفسي خاص تجاه مواقف مثل هذه. ذهبت وتمددت فوق السرير. تناولت المنفضة وباكيت السجائر وقربتهما مني. أخذت أدخن وأتأمل تعرجات الدخان المتلاشية في فضاء الغرفة. وقلت: «لماذا لا أستمع إلى الموسيقى ولو لآخر مرة». أدرت البيك - آب فسمعت خطوات (ك) سريعة، قادمة من المطبخ. قالت وهي تلهث:

- هل جننت؟ إنهم سيسمعونك.

- الأمر لا يعنيك. ثم إنه لا يجب أن تخافي إلى هذا الحدّ. عودي إلى المطبخ.

- اسمع (ج)، يمكن أن يكون واحد منهم الآن خلف الباب.

- إنك حمقاء.

- أرجوك، اخفض صوت البيك - آب.

فعلت، واجتذبت نفساً عميقاً من السيجارة. كنت أبتسم دون أن أدري حتى لماذا. ظللت أبتسم. اعترتني نشوة خاصة لم أعرف سببها، بل أخذت أقهقه، وقفزت من فوق السرير، أخذت أجوب الغرفة طولاً وعرضاً. شعرت أن الشخص الآخر في داخلي الذي كان يقهقه اعتراه ندم. ذهبت إلى النافذة. كانت السيارة لا تزال في مكانها، لكن الشخص الذي خارجها اختفى. حاولت أن أفعل شيئاً. عدت إلى السرير وتمددت. أشعلت سيجارة ثانية. كان صوت فيتزجرالد يملأ الغرفة بدفئه. كانت السعادة تغمرني مثلما لم يحصل

لي من قبل. كنت متيقناً أنهم سينصرفون عندما يتعبون. ربما لم تعطَهم الأوامر لمهاجمة بيتي.. لكن من يدري؟ فقد ينتظرون فرصتهم المناسبة. لا أحد يعرف ما يدور في تلك الرؤوس المخشبة التي آلت على نفسها الكتمان والمكر. وتخيلت أنهم يفعلون الشيء نفسه بالنسبة إلى رفاق آخرين، في أماكن أخرى. وعندما هيَّأت (ك) الطعام تغذينا، ولم تكن لها شهية، بل كانت تذهب بين فترة وأخرى إلى النافذة، تنظر إليهم وتنظر إلي. ورغم محاولاتي المتكررة بإقناعها أن ذلك لا يشكل خطراً، لم تقتنع بل كانت صامتة، حائرة، مترددة، وقلت لـ(ك):

- اسمعي يا (ك) اذهبي واستريحي قليلاً. أنا شخصياً سأنام.

لكنها لم تلبِّ طلبي، بل ظلّت تمشي بين النافذة والسرير خائفة. وفكرت في أن الزواج عرقلة حقاً. لم تكن (ك) هذه مثل (ك) التي عرفتها سابقاً. كانت شُجاعة لا تخاف. لكن الآن لا أفهمها إطلاقاً. هل تخاف علي إلى هذا الحدّ؟ وقفتُ وطردتها من الغرفة إلى الغرفة الأخرى المجاورة. أغلقت الباب وأنا أهددها بألا تعود مرة ثانية. وأعلنت لها أني في حاجة إلى أن أستريح. لا يهمني أولئك الكلاب المرابطون هناك. اختفت (ك). ولم أعرف ما الذي كانت تفعله. نمت أكثر من ساعة. استيقظت ولم تكن في رغبة لمغادرة الفراش. ظللت ممدداً وأشعلت البيك - آب. واستمعت من جديد إلى صوت فيتزجرالد الذي كنت أحبه، ثم سمعت طرقات خفيفة على الباب. ذهبت وفتحت. خمّنت أن (ك) تريد أن تقول شيئاً. كانت الآن أكثر ثباتاً مما سبق. وقالت بهدوء أعصاب:

- أعتقد أنهم لن يأخذوك معهم. لو أرادوا لفعلوا.

- لقد قلت لك ذلك سابقاً فلماذا الخوف إذن؟ هل تأكدت مما أقول؟ اذهبي الآن وهيئي القهوة.

- سأفعل.

لكنها قبل أن تفعل، ذهبت إلى النافذة وأخذت تطل عليهم.

- هل لا يزالون هناك؟

- نعم. لكني لست خائفة.

- ماذا يجدي الخوف في مواقف مثل هذه؟ اذهبي وهيئي القهوة.

أخذت كتاباً وحاولت أن أقرأ. لكن لم أستطع أن أركز انتباهي. كان فكري شارداً حقاً. ألقيت الكتاب وناديت على القهوة. جاءت (ك) بصينية صغيرة. وضعتها أمام الفراش وجلست بالقرب مني. ثم دخلت تحت اللحاف بجانبي. شعرت بجسدها بارداً. ثم شيئاً فشيئاً أخذ يتدفأ جسدها الحي النحيف. سكبت القهوة وناولت الفنجان لـ(ك) لكنها رفضت. قالت إنها تريد فقط أن تتمدد بالقرب مني لتشعر بالدفء. إن البرد قارس. في الواقع، لم يكن البرد قارساً، ولكن شعورها الخاص فقط هو الذي يوحي لها بأن الجو بارد. جلست أنا فوق الفراش. مددت يدي إلى البيك - آب أغيّر الأسطوانة. أشعلت سيجارة وأخذت أرشف القهوة بلذة. أما هي فقد كانت عيناها في السقف. وبدت لي بطنها منتفخة وقد تجمع اللحاف فوقها. وفكرت تفكيراً غريباً. يمكن أن يختنق الجنين في بطنها بهذا اللحاف. ثم طردت هذه الأفكار. وقالت (ك):

- اسمع يا (ج). هل تعتقد أنهم سيظلون مرابطين هناك؟ إلى متى إذن؟

لم أحاول أن أجيبها، بل استمررت في الاستماع إلى الموسيقى ورشف قهوتي بلذة. وعندما انتهيت تمددت بجوارها. كانت في رغبة أن أفعل معها الحب. لكنها حامل ومتأثرة إلى حدّ بعيد. لم يكن لديها - من غير شكّ - أي استعداد لذلك. ألقيت بذراعي فوق

جسدها الممدد. وشعرت بحرارة فائقة. في هذه الأثناء كانت طرقات تُسمَع على الباب، خفيفة أول الأمر. تنبهت (ك) بكل حواسها. وقلت لها:

- يمكن أنْ تكون إحدى جاراتك. لكن لا تفتحي.

- لن أفعل. يمكن أن الجيران فهموا كل شيء.

- لا يهم. إنهم يفهمون كل شيء.

ازدادت الطرقات على الباب. فخفضت صوت البيك - آب. كانت الشمس قد بدأت تغرب. والطرقات تزداد أحياناً، لتتوقف بعد ذلك. وشككت في هذا الإلحاح من طرف الطارق، انزعجت (ك) رغم أنها تظاهرت بالثبات واللامبالاة. في الأخير أحسست أن جسدها أخذ يتحرك. وقفتْ في النهاية وذهبت إلى النافذة. ظلت واقفة هناك. كنت أتأمل جسدها الرائع الحي. كانت شهية حقاً. قلت لها وهي تزال واقفة:

- هل لا يزالون هناك؟

قالت بتخوّف:

- يمكن أن يكونوا خلف الباب. لقد قَلَّ عددهم في السيارة.

قلت:

- تعالي وتمددي. لا نعيرهم أدنى اهتمام.

عادت (ك) بتخاذل واضطراب وتمددت بجواري. كان جسدها الآن يرتعش. ازدادت الطرقات وخفتت لثوانٍ ثم عادت من جديد. قالت (ك):

- يجب أن ترحل غداً حتى تنتهي موجة الإضرابات.

ضممتها إلي بقوة. وازدادت الطرقات عنفاً. كنت مع ذلك أشعر باطمئنان وبعدم خوف، رغم إلحاح الطارق. التصقت (ك)

بي، وأحاطتني بذراعيها. وسمعت بكاءها تحت اللحاف. ضممتها بقوة. قلت وأنا أحسُّ بحركات الجنين في بطنها:

- كفّي عن البكاء. لا تخافي. في إمكانهم أن يكسروا الباب. لا تخافي.

مع ذلك، كانت لا تزال تبكي وجسدها يرتعش. كان الجنين يرتعش بدوره في بطنها. وعندما مرَّ قليل من الوقت، سمعنا محرك سيارة تغادر المكان في الشارع. كانت الغرفة مظلمة الآن ولم نستطع إضاءتها. وقالت (ك):

- إنهم ينصرفون، لا شكّ أنهم سيعودون في الليل، أو في الفجر.

أوهام

ألقت نفسها من النافذة، التي لم تكن بعيدة من الأرض. وفي الخارج سمعها تركض وهي تنتحب. مدَّ عنقه من النافذة، نظر إليها في غضب. اختفت في الظلام البارد، بعد دقيقتين فقط أو أقل ستكون في بيتهم. ستحكي لوالدتها كل شيء. أغلق الرتاج. دار في الغرفة وهو يفكر بعصبية. صرخ الطفل الصغير، فحاولت أخته التي تكبره بعامين أن تسكته. نظر إليها، إنهما يشبهان دميتين كهربائيتين. ورآها تنتف شعرها وتصرخ: «ويلي ويلي!» وتتجه إلى النافذة لتلقي بنفسها منها إلى الخارج.

قال للحاج:

- هات كأس شاي.

طقطق الكرسي العتيق من تحته كما لو كان سيتكسَّر على الفور. فتح الجريدة على الصفحة الثقافية، وأخذ يقرأ قصيدة لأحد أصدقائه. كل الأصدقاء أصبحوا شعراء إلا هو. قال إن طموحه أكبر من ذلك. إنه لا يتسرع في اختبار موهبته. قد يختبرها بعد عشر سنوات. ربما تكون أنضج من جميع مواهب هؤلاء الذين يكتبون.

قال الحاج:

- سي عبد الكريم، من أين تحصل على كل هذه الصحف؟

ضحك الحاج وأضاف:

- لو فتحت مكتبة هنا لكنت اغتنيت من سنوات.

- لمن ستبيع كتبك؟

- لك وحدك.

أخذ عبد الكريم يرشف الشاي الساخن. يتتبع أبيات القصيدة. يعيد قراءة الأبيات والمقاطع. مثلك لم أرَ واحدة أبداً. أنت أجمل من كومونة باريس. آه عفواً، أنت أسخف من ثورة بوحمارة. في الساحة المتربة بعض البعر والروث. دجاجات هزيلة تنقّب هناك بمناقيرها. مرت مارتين وهي تحمل قفّة في يدها. حيَّته وهي تبتسم، ردَّ بتراخ. قالت:

- أليس عندك درس الآن؟

- لا أشتغل هذه الظهيرة.

- مر عندنا هذا المساء. لقد جلب أندري زجاجات جديدة من الخمر. سأهيئ بايلا. هل تحبها؟

- سأحاول أن أمر، إني أحب البايلا كثيراً.

انصرفت مارتين وقال الحاج:

- إن وجود هذه الثانوية أنعم علينا بمثل هؤلاء الناس. لم نكن نرى الأجانب إلا وهم عابرون من هنا. لو عرّبنا التعليم ما رأينا مثل هؤلاء الجميلات.

- اذهب إلى الدار البيضاء، وستشبع من رؤيتهم.

- آه، الدار البيضاء! إنها حلم يا سي عبد الكريم، يُقال إن فيها عصابات كثيرة. وحتى الفتيات هناك يغتصبن الرجال، ماذا قالت لك تلك الأجنبية؟

- ليس ذلك شغلك.

- معك حقّ يا سي عبد الكريم.

أخذ يتلهى بالنظر إلى الدجاجات التي تنبش الروث والبعر

بمناقيرها وهي تتقافز. لم يكن يحيط المكان سوى بعض الحوانيت، وخلفها دور شعبية مكتظة بالكثير من الأطفال الصغار. وخلف الدور المكتظة تفرّقت نوايا لخماسين ومستخدمين في البساتين. ومن غير شكّ فإن تلك النوابل هي الأخرى اكتظت حتى أنها لم تعد تسع أصحابها فلفظت بعضهم إلى الخلاء. أمسك عبد الكريم الجريدة من جديد وأخذ يقلّب صفحاتها دون اهتمام. رفع رأسه فرأى قروياً يسوط حماره بعصاه. لكن الحمار لا يأبه للضرب. لقد رفض أن يتحرك. أن يتقدم. يحلو لعبد الكريم أن يجلس في هذا الوقت، عندما لا يكون عنده درس في الثانوية، يثرثر مع الحاج أو يقرأ. إن ذلك على كل حال أفضل من النوم. هناك بعض الأصدقاء لا يفعلون سوى ذلك، ماذا يستطيع أن يفعل المرء في قرية صغيرة، تبعد من أقرب مدينة بمئة وعشرين كيلومتراً؟ لقد اختار أحد رفاقه في العمل الإغراق في الشراب. بعضهم اختاروا مطاردة تلميذاتهم. أما هو، فكان يقرأ وينام مع مارتين كلما أتيحت الفرصة أو تغيَّب أندري. ومع ذلك فقد كان أندري يحبه. وكانا يتناقشان باستمرار عندما يشربان عن حوادث مايو 68 وكيف أن أندري استطاع أن يحطم كثيراً من علامات المرور وأن مارتين تمكنت هي الأخرى من إحراق متجر كبير للعطور.

- يا للأيام الجميلة! هل تذكرين يا مارتين عندما فجرنا ذلك الغضب؟ كانت أياماً سعيدة حقاً

وقال عبد الكريم:

- ما أروع أن يفجر الإنسان موروثه من الغضب! هل تعرف يا أندري أن الغضب ليس حالة نفسية ولكنه موروث تاريخي. إنه خلاصة ماضٍ بأكمله.

- صحيح - ولقد استطعنا أن نفجر جزءاً من ذلك الموروث.

ورأى عبد الكريم الرجل القروي وهو يشد حزامه. ثم انحنى الرجل ورفع عصاه عن الأرض. وعندما حاول أن يهوي على الحمار، رفع هذا الأخير أذنيه وجرى إلى الأمام. ركض صاحبه وراءه. ثم تخلّى عبد الكريم عن مشاهدة ذلك. أدخل إصبعين في الكأس وأخرج أوراق النعنع وأخذ يمصّها. كانت لذيذة جداً. وهو يحب أن يفعل ذلك أحياناً، تلك عادة تذكّره بسنوات الطفولة. عندما كانت والدته تأمره أن يفرغ البراد من النعنع وينظفه. كان يختلي بالبراد ويمصمص كل محتواه. كم كان ذلك النعنع لذيذاً وحلواً. ولقد احتفظ بهذه العادة حتى بعد زواجه. يجب أن يمارسها أحياناً. وكانت الزوجة تقول: «إنك لست طفلاً صغيراً. اشترِ لك مصاصة أطفال نطليها لك بالعسل أو بالمربى». لم يكن يهتم لذلك، بل يستمر في مصمصة أوراق النعنع وتفلها على الصينية. ربما كان عنده شعور بمضايقتها، لأنها تحاول ما أمكن أن تمنعه من مسراته الصغيرة. تلك المسرات الصغيرة التي هي أساس سعادة الإنسان. وكان يعتقد أن تلك الأشياء التافهة، في نظر الناس، هي من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الشخص الذي تصدر عنه. لقد تعوّد أن يحترم أبسط وأحقر سلوك إنساني. ولعلّ ذلك هو الخيط الدقيق الذي فصل بينهما. لأنها لم تكن تتفق معه في وجهة النظر هذه. وألحّت عليه صورتها. قفزت من النافذة ثم اختفت من أمام عينيه، واختفت أيضاً من مخيلته. وظهر الطفلان يتقافزان ويناديان عليه بصوت واحد، وراح يقول لنفسه إنه قاسٍ جداً بقدر ما هو عاطفي. وحاول أن يحط من هذا الأخذ والردّ في رأسه. ليكن الإنسان شجاعاً ولو مرة واحدة في حياته باتخاذ قرار معيّن مهما بلغت تفاهته. ودفع الكأس فوق الطاولة. وقف واتجه نحو الحاج. دفع له ثمن الشاي. قال هذا الأخير وهو مشغول بتحريك زر المذياع:

- صافي سي عبد الكريم، ستذهب عند الأجنبية؟
- هل يهمك ذلك؟ عندما أكون معها في الفراش سأنادي عليك.
وقال الحاج وهو يضرب صدره بكفه:
- اللّه اللّه! كم أنت كبير القلب! إن ظني لم يخطئ فيك أبداً.
- سأتركك معها وسأنادي على الجيران. وسيرون كيف أن رجلاً متسخاً مثلك استطاع أن يغوي امرأة في غاية الجمال.
- سينصبون لي تمثالاً إذ ذاك، وسيحترمني القايد أكثر، وسيعمل كل ما في مستطاعه لإنجاحي في الانتخابات القادمة. وسأصبح إقطاعياً كبيراً.
- هل ستنساني؟
- كيف أنسى سمساري؟
ضحكا معاً. التقت كفّاهما في الهواء. شدا على كفي بعضهما بقوة. ونزلت دمعة فرح من عين الحاج. غادر عبد الكريم القهوة. أحس أنه يعيش في فضاء هائل متخيَّل. ليست هناك بيوت ولا أشجار ولا طرق ولا فلاحون ولا ثكنات عسكرية. هناك فضاء واسع فقط. إلا أنه تضايق منه. لقد كان مخيفاً. فهو لا يستطيع أن يعيش في فضاء مثل ذاك، لأنه يبعث على التوتّر والألم. كم كان يتحمل أشياء مماثلة وهو في سن معيّنة. إلا أنه الآن لم تعد له قدرة على التحمل. أبسط الأشياء تثيره، لأنه لم تعد له قدرة على قبول أي شيء، حتى لو كان هذا الشيء منعه من مصمصمة أوراق النعنع.

(- هل من السهولة التخلي عن هذين الصبيين؟ إنهما بريئان.
- أعرف ذلك.
- من أجلهما أرجو أن نستمر.
- لو فعلتِ شيئاً بسيطاً من أجل ذلك!

- لقد فعلت الكثير.

- أنت لم تفعلي شيئاً. يجب أن نفترق.

- لماذا لا تتحمل ولو قليلاً من المتاعب مثلما يتحمل باقي الناس؟

- لم تعد لي القدرة. في السابق، في سن معيّنة، كان بإمكاني ذلك).

كانت القرية خالية الآن. الشمس فقط وكلب دلّى لسانه الأحمر وهو يلهث. مشى عبد الكريم، دون أن يفكِّر، تجاه باب مصبوغ بطلاء أخضر باهت. طرق الباب والتَفَتَ ليرى بعض التلاميذ الذين ربما تغيّب أحد أساتذتهم، يلعبون بالكُرة. طرق الباب فخرجت فتاة صغيرة قذرة نظرت بعين واحدة بين الجدار والباب.

- قولي لأبيك: زجاجة واحدة كيفما كان نوعها.

- لا يمكن. لقد مرّ رجال الدرك أمس واحتجزوا كل الزجاجات بأمر من القايد. لحسن حظنا أنهم لم يأخذوه إلى السجن.

- قولي له: سي عبد الكريم يريد ذلك، أنا متأكد أنهم لم يفتشوا البئر وأنت تعرفين ذلك، لا تكذبي أيتها الساقطة.

- لقد فتشوا كل شيء حتى البئر.

- لا تكذبي، إنهم لا يعرفون أن في بيتكم بئراً.

أغلقت الفتاة الصغيرة الباب في وجه عبد الكريم. وعندما تأخّرت عاود الخبط على الباب من دون جدوى. لأنها لم تفتح. انسحب وهو يشتمها بصوت مرتفع. تذكر بعض زملائه الذين يشربون أو يطاردون تلميذاتهم. في هذه القرية الصغيرة ليس هناك من اهتمام سوى بالسكر أو الزنى. انحنى عبد الكريم والتقط عدة أحجار. أخذ يطوح بها بعيداً. ثم تذكر أن هذا عمل لا يليق بأستاذ. لو رآه أي

شخص لاعتقد أنه فَقَد عقله. أرخى ذراعه فهوت قطعة الحجر الأخيرة بهدوء إلى الأرض. إذا كانت البئر قد جفّت أو فتشها الدركيون فإن هناك أندري ومارتين. ابتسم لنفسه. في أحرج الأوقات يستطيع أن يجد لنفسه مخرجاً.

(- إن ما يعجبني فيك هو صمودك وعنادك.

- لستُ كما تدعين. ولكني فقط أعرف ما أعمل.

- ولهذا السبب فإني لا أريد أن نفترق، نعمل من أجل إسعاد طفلينا.

- كان عليك أن تعملي لذلك في السابق. أما الآن، فليس وقته).

وقالت مارتين في المساء:

- إن ما يعجبني فيك هو عنادك.

- لقد جفّت البئر أو ربما فتشها الدركيون.

- ماذا تقول؟ إني لا أعرف فيمَ تتحدث.

- ليس مهماً.

- اشرب، يبدو أنك في حاجة إلى ذلك. هل تتذكر زوجتك وطفليك؟

- مثلما تتذكرين أندري الآن.

- ليس هناك أي وجه للمقارنة، بالنسبة إلي فإن أندري يعرف كل شيء.

تمدد عبد الكريم على ظهره، اقتربت مارتين وأخذت تمر بأصابعها على شعره، استلذّ ذلك أول الأمر، لكنه في النهاية حرك رأسه وابتعد منها. وقفت وذهبت إلى المطبخ. أحضرت شريحتي لحم. واستمرت تصب لنفسها الكأس تلو الأخرى. كان عبد الكريم يشعر أنه ليس وحيداً في هذا العالم، استطاع أن يتعرف إلى الكثير

من الناس. يعتقد أنهم يحبونه كثيراً. حتى لو كان ذلك وهماً فإنه يرضيه. إذ كيف نستطيع أن نميّز بين الوهم والحقيقة. وأراد أن يقول ذلك لمارتين لكنه تراجع. وسمعا جرس الباب يرن. ليس أندري على كل حال. لكن.

(- دع عنك الأوهام. نستطيع أن نتلافى كل ما فات ونعيش من جديد من أجل طفلينا.

- إني لا أتشبث بالأوهام أبداً. لكني أحياناً لا أفرّق بينها وبين الحقيقة.

- تلك هي مشكلتك.

- أعتقد أنها ليست مشكلتي وحدي. إنها مشكلة أي إنسان. ستعرفين أنت كذلك هذا إذا ما تمعّنتِ في الأمر جيداً).

سمع عبد الكريم أصواتاً مرتفعة في الخارج. ميّز منها صوت مارتين بصعوبة. أخذت الأصوات تقترب، وأصبح أكثرها حدّة هو صوت مارتين. ثم أطلت عليه قامة رئيس الدركيين. كانت مارتين تقول:

- إن هذا غير معقول.

قال الرئيس لعبد الكريم:

- تفضل، خُذ معك الزجاجة، أنت متهم بالسكر والخيانة الزوجية.

كانت مارتين تصرخ:

- غير معقول. عبد الكريم. إن هذا الدركي يريدني لنفسه. لقد حاول معي مراراً. لم أرَ مثل هذا أبداً. غير معقول. غير معقول. يا له من بلد غريب!

جبال وخنازير برية

عندما رأى القائد وأعوانه الدوار وهُم في أعلى الجبل شعروا أخيراً بالخلاص. لقد سارت سيارات الجيب الثلاث مسافة عشرين كيلومتراً، في طريق وعرة جداً، مليئة بالحفر وضيقة. القائد وحده هو الذي يتصبب عرقاً، وتبدو عليه علامات الإنهاك لأن لم يتعود هذه الحياة القاسية. أما أعوانه من القوات المساعدة فقد كانوا من أبناء المنطقة، اشتغلوا بالرعي وتسلَّقوا الجبال والأشجار، وبعضهم حارب مع فرنسا في الهند الصينية. بدا الدوار وسط الغابة الكثيفة المحيطة به كبُقع بيضاء متفرقة. إلا أن بقعة واحدة بيضاء كانت تبدو بوضوح بارزة وسط الأشجار ووسط الدور الصغيرة المتفرقة. كانت البقعة مقهى وفندقاً وسكنى لمعمِّر إيطالي ذي جنسية فرنسية، ورث المكان عن أبيه الذي ابتناه في الأربعينيات ومات مقتولاً من طرف أحد أعضاء جيش التحرير الذي فاجأه وهو يتجول على بغلة في الغابة المجاورة. أخرج القائد منديله المطرز الحواشي بالأخضر يمسح جبينه وأرنبة أنفه. ثم مرر المنديل تحت ذقنه وحول رقبته. وقال وهو يسعل:

- وأخيراً وصلنا.

- لم نصل بعد يا حضرة القائد.

قالها السائق الذي بجانبه وضرب على المقود بأصابعه ضربات

خفيفة. لم يجبه القائد، لأنه مشغول بالنظر إلى تلك البقع البيضاء المنتشرة وسط الأشجار. وتمنّى لو كان ذلك المنبسط كله تحت الجبل ملكه وحده. ولكنه يعلم أنه ملك لفخذة توارثته منذ قرون ربما. ومهما حاول أن يزوِّر من الوثائق مثلما فعل ببعض الأراضي فإنه لا يستطيع الحصول على هذا المنبسط الذي تغطيه الأشجار. كانت سيارة الجيب تهتز فوق الحفر والأحجار في حجم رأس البشر. يتقلقل معها القائد ويبعث زفيراً قوياً ويستمر في مسح وجهه بالمنديل. سارت السيارات الثلاث ببطء في الطريق الضيقة جداً التي تحفّها من الجانبين مرتفعات تشبه الحيطان هي بقايا شقّ طريق. اختفى الدوار لحين ثم ظهر عندما تجاوزت السيارات الثلاثة هذه الحفرة السحيقة وسط الجبل. التَفَتَ القائد إلى السائق:

- كم يتعين علينا أن نقطع الآن حتى نصل إلى الدوار؟

- لست متأكداً حضرة القائد. أغلب الظنّ أربعة كيلومترات كلها التواءات وحفر وأحجار، ومن يدري؟ ربما تعترضنا صخرة سقطت من أعلى الجبل.

- فمك لحسه كلب.

ابتلعها السائق، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. زاد من سرعة السيارة قليلاً. وودَّ لو أنه يفتح الباب، يقفز من السيارة ويتركها تهوي بهذا الجبان إلى الحضيض. وقال للقائد:

- حكاية الخنازير الوحشية هذه لن تنتهي مع هذا الدوار أبداً. إن عليهم أن يتسلحوا لكي يدافعوا عن أنفسهم.

- ماذا تقول أيها الوغد؟ ألا تعرف أن حمل السلاح بالنسبة إلى المدنيين ممنوع. هل تريد أن تزرع ثورة في البلاد؟

- عفواً سيدي. أنا لم أقصد. . .

- انظر أمامك واسكت.

مرق أمام الجيب ثلاثة أرانب بيضاء ومخططة بالأسود. ثم اختفت في دغل على جانب الطريق. تنهّد السائق وقال:

- إنه مكان صالح للصيد يا سيدي.

- ألا تعرف أنه لم يحن بعد موسم صيد الأرانب؟ و.. إن من قام بذلك الآن تلزمه عقوبة؟ قلت لك انظر أمامك واسكت.

كانت بعض الأشجار التي لا تعطي ثماراً معلقة في الجبل وعلى صخوره، وأحياناً خلف نتوءات الجبل لا يظهر منها إلا الرأس أخضر متفتّحاً في فضاء فسيح واسع ورمادي. القائد وحده يتمتع بإجالة النظر في كل هذه الأشياء. والسيارات الثلاث تسير الآن ببطء شديد حتى إنها تكاد تصطدم ببعضها. ترتفع قليلاً ثم تهوي في بعض الحفر، فيكاد المقود ينفلت من يدي السائق. التَفَتَ القائد إلى الخلف، وأطلَّ من خلال النافذة المشبكة، فرأى بعض رجال قواته والسلاح بين سيقانهم وهم يكادون أن يناموا. صرخ من النافذة بصوت غاضب:

- أنت هناك. ألم تنم بما فيه الكفاية ليلة أمس؟

ارتعد الرجل وجمع ساقيه وأمسك بيدين حديديتين على بندقيته. تظاهر بالمسكنة. صحيح أنه لم ينم بما فيه الكفاية ليلة أمس، لأنه حرس المركز من الثانية صباحاً حتى السادسة، والقائد بطبيعة الحال يعرف ذلك. لكنه يصرُّ على فرض سلطة معيّنة حتى يبدو رجلاً قوياً. لقد صرخ في وجه الرجل لكنه لم يعر اهتماماً لنتيجة صراخه. المهم أن يصرخ القائد متى ما أتيحت له أدنى فرصة لذلك. جفف القائد بعض العرق على وجهه ورقبته السمينة. شعر أنه يقسو كثيراً. وحاول أن يبدو لطيفاً شيئاً ما. غيّر ملامح وجهه وابتسم لنفسه لكنه أحس أن تلك الابتسامة ليست حقيقية. وأراد أن يعوّض عن انفعاله بحركات من يديه. قال للسائق بجانبه:

- يمكنك أن تدخن.
- إني أنتبه إلى الطريق، سيدي.
- لا يهم.
- إني أدخن كثيراً مع ذلك..
- ومع ذلك ماذا؟ قلت لا يهم. دخن. لكن لا تنفث دخانك في وجهي.
- حاشى للّه سيدي.

أخذ السائق يفتش في جيبه عن العلبة. أخرجها وألصق سيجارة بين شفتيه. ظلّت السيجارة ملصقة بين شفتيه لوقت طويل. تردد كثيراً في إخراج علبة الثقاب من جيبه. لم يكن يعرف سبب هذا التردد. ربما خاف من القائد. يمكنه أن يتراجع عن وجهة نظره. كأن يقول مثلاً: «أيها الكلب! من قال لك دخن؟» وقال السائق في داخله: «الكلب هو أبوك». وأضاف: «أعوذ باللّه». أخذت عضلات وجه القائد ترتخي قليلاً، تتمطط، علامة على مسرّةٍ حقيقية، وغير مفتعلة. قال القائد لنفسه: «يكفي المرء أن يقنع نفسه بشيء حتى لو كان مستحيلاً، فيتحقق هذا الشيء، على الأقل في الحلم». شعر أنه حقق شيئاً ليس مستحيلاً ولكنه ليس في مقدور أي إنسان أن يفعله. أن تنتقل من حالة نفسية إلى أخرى بدافع تلقائي. ثم أخذ يضرب بأصابع يده اليمنى على ركبتيه. لكنه كفَّ عن ذلك، معتقداً أن هذه اللعبة لا تليق برجل محترم مثله وأمام تابع له. وقع في مأزق فالتفت عن يمينه يتفرج على الصخور الناتئة والأشجار القصيرة المتشابكة، أماكن معيّنة من الجبل. فكر لو أنه طلب الانتقال من هذه المنطقة الوعرة والتحق بإحدِى العمالات في المدن. غير أنه أدرك بغريزة كلب أن الأمر سيختلف كثيراً عمّا هو عليه هنا. ستنزع منه كثير من الامتيازات، سيُفرض عليه الحضور في الثامنة صباحاً، سيضطر إلى

الانحناء كل صباح احتراماً لسعادة العامل، ستصمُّ أذنيه الأوامر الجهنمية الوقحة من طريق التلفون. أحس أنه في وضع مريح هنا، وأنه الأول والأخير. أخذ يضرب من جديد بأصابع يده اليمنى على ركبته مبعداً صورة الحرج من ذهنه. التَفَتَ إلى السائق وخاطبه باسمه هذه المرة:

- علال، أشعل سيجارتك. هل لا يزال الطريق أمامنا طويلاً؟

- ثلاثة كيلومترات، سيدي.

شعر السائق أن القائد تغيّر نوعاً ما. تلك عادته، إن المرء لا يكاد يحكم عليه حكماً نهائياً. إنه يغضب كثيراً أو في أغلب الأوقات. لكن أحياناً تتلبسه حالات طيبة لا تتصور، يصبح كريماً، متسامحاً. سيدي زوجتي مريضة. شفاها اللَّه! خذ هذه المئة درهم. سيدي لقد تعبت كثيراً، إني لم أنم منذ يومين. فهمت فهمت، خُذ لك أسبوعاً راحة. اللَّه يكون في عونكم. إني أعرف أنكم تتعبون. وأنت يا عبد القادر، لا يزال ابنك يحصل دائماً على المرتبة الثانية في الصف؟ نعم سيدي. خُذ كيس الدقيق ذاك واعتنِ كثيراً بعائلتك. لا سند لإنسان في هذا العالم سوى عائلته. حتى اللّه لا يمكنه أن يقف بجانبك في اللحظات الحرجة بل البشر. وانصح ابن عمك بأن يبتعد من السياسة، ولولا إخلاصك وجديتك لكنت قد قبرته في السجن.

أخرج السائق علبة الثقاب وبصعوبة أشعل لنفسه واحدة، نظر في المرآة عن يساره. لم يرَ أثراً للسيارتين، التفت إلى القائد:

- سيدي. السيارتان اختفتا.

- ماذا تقول؟

- السيارتان، لا أراهما.

- عليك أن تسير ببطء. ستلحقان بنا من غير شكّ. الطريق صعبة ومليئة بالأحجار والحفر.

- نعم سيدي. أحجار بحجم رؤوس البشر.

وقال القائد:

- هل تعرف أني مسرور جداً بينكم في هذه المنطقة. إن خمس سنوات مرّت بسرعة كما لو كانت يوماً وليلة.

- إنها منطقة رائعة وأهلها طيبون كما عرفتهم يا سيدي.

- صحيح. لولا مضايقات هذه الخنازير البرية في كل موسم.

- لقد كان ذلك منذ القديم سيدي. حتى قبل الاستقلال. إلا أن الحوادث لم تكن بالحدّة نفسها الآن. فقد كان الفرنسيون يصطادون هذه الخنازير ويطبخونها. هل ذقت لحمها سيدي؟

- لا..

- إن لحم هذه الخنازير البرية لذيذ. ألذ من طعم البقر. ولكن الناس لا يأكلونه لأنه حرام. ما هي الآية التي تحرم الخنزير يا سيدي؟

لم يجبه القائد، بل أخذ ينظر إلى تحت. أعجبه ذلك المستطيل تحت قدم الجبل المحروث بعناية والمحاط بسياج من الأشجار القصيرة، التي لا شكّ أنها شائكة. التربة داكنة السمرة، تقترب من السواد. مثل هذه البقع الصالحة للحرث قليلة هنا. أحياناً يضطر الناس إلى إيجاد بقع معيّنة في جنبات الجبل لحرثها أو لغرس أشجار اللوز أو الزيتون فيها. وفكّر أن هذا المستطيل الصغير تحت الجبل ربما كان المورد المالي الوحيد لعدد كبير من العائلات. وعندما اهتزت السيارة من جديد، انتفض القائد، ونظر إلى الأمام. وقال للسائق:

- يمكنك أن تتوقف، حتى ننتظر الآخرين.

- ربما كان كثير من الجرحى ينتظروننا الآن سيدي.

- لا يهم. ما فات مات. ثم إنهم متعودون على هذا النوع من الحوادث كل سنة. إن عليهم أن يتسلحوا.

أدرك القائد أنه ارتكب خطأ. نظر إلى السائق، فاضطرب هذا الأخير، وحكّ جبهته من الانفعال. وأضاف القائد بسرعة وهو يتلعثم:

- بالعصي. أن يتسلحوا بالعصي، ألا يمكنهم أن يطردوا الخنازير بالعصي.

- إنها قوية يا سيدي. ثم إنها تهجم جماعات حتى لو وجهت لها الرصاص فإنها تستمر في هجومها. هل أتوقف سيدي؟

- نعم. حتى يلتحق بنا الآخرون.

تنحّى السائق يميناً ببطء وحذر شديدين. الطريق ضيقة لا تتسع إلا لسيارتين. وأحياناً لا تتسع إلا لسيارة واحدة. وأحياناً يلزم التوقف لمدة ساعة على الأقل لإزاحة بعض الأحجار أو قطع الجبل التي تسقطها سيول الأمطار أو غيرها من الأعلى. وهذه الطريق الثانوية ليست مرقّمة لدى مصالح وزارة الأشغال العمومية. وقد حفرها السكان تحت سياط قبطان فرنسي بفؤوسهم وأظافرهم مدة سنة، عندما حاولوا أن يتمردوا على إثر إطلاق رصاصة في المنطقة قبل ثلاثين سنة. القائد لا يعرف هذا. فتح الباب وقفز إلى جانب الطريق. ذهب إلى مؤخرة الجيب وأمر الرجال بالنزول لكي يتنشقوا قليلاً من الهواء حتى يلتحق بهم الآخرون. قفز الرجال واحداً واحداً إلى الأرض وبنادقهم في أيديهم. بدا على وجوه بعضهم الإنهاك، تفرقوا ثم تجمعوا. انسلَّ أحدهم وسط أغصان شجيرة قصيرة متمسكة بالأرض غصباً، جلس خلفها فظهرت قبعته الخضراء الباهتة مثل فاكهة. وسُمعت شرشرة خلف الشجيرة، وسُمعت خشخشات بعض الحيوانات أثارتها حركة الرجل. قال أحد الرجال:

- ماذا سنفعل لهذه الخنازير الملعونة. لقد قتلت من قتلت وجرحت من جرحت. هل سنذهب لنطاردها في الغابة؟

أجاب آخر:

- إنها الأوامر. القائد يريد أن يتظاهر بأنه يحميهم، ولو أراد ذلك فعلاً لسلحهم. هل تعرف أنه يمنع عنهم حتى بنادق الصيد؟

- اسكت إنه هناك. لو سمعك تتحدث عنه لقطع لسانك.

- طز عليه.

- هل تستطيع أن تقولها في وجهه؟

- نعم.

اقترب القائد ويداه حول خاصرتيه. يتشمم الهواء بطريقة مسرحية. ويمشي بطريقة أظهرت جسده كآلة مفككة لم يحكم شدّ محازقها. وعندما نظر إلى الرجال قال الآخر لصديقه:

- قلها في وجهه إذن.

قال الآخر:

- أستطيع أن أقولها. هل تعتقد أني جبان وخائف مثلك؟

ثم قال للقائد:

- سيدي! لا شكّ أن حكاية الخنازير هذه تتعبك في كل موسم. سنحاول ما أمكن مطاردتها. يمكنك أن تترك بعضاً منا حول القرية مدة خمسة عشر يوماً لحمايتها.

لم يهتم القائد لاقتراح الرجل، في حين فوجئ بصديقه يشتمه بصوت منخفض: «أسكت يا ولد...». إنها فكرة جيدة من النوع الذي يروق للقائد أن يتشبث به. ولكن هدير السيارتين القادمتين هو الذي جعله لا يعير اهتماماً للاقتراح. كانتا تتمايلان مثل سلحفاتين كبيرتين. ضرب القائد كفّاً بكفٍّ ومشى بعيداً قليلاً من الرجال. وقف

الذي كان خلف الشجيرة وأخذ يزرر بنطلونه وبندقيته بين فخذيه. توقفت السيارتان متحاذيتين. قال السائق الأول دون أن يسأل:

- لقد تعطلت إحدى العجلات واضطررنا إلى استبدالها يا سيدي.

قال القائد:

- متى سنصل إذن؟ أمامنا طريق العودة. هل تريدون أن نقضي ثلاثة أيام للوصول إلى القرية؟

ثم صعد إلى الجيب وصفق الباب بعنف. ركض الرجال وراءه وألقوا بأنفسهم في الخلف. تحركت الجيب الأولى، هدر محركها بحشرجة وتبعتها السيارتان الأخريان. أصبحت الطريق منحنية إلى الأسفل بشكل مخيف ما اضطر السائقين الثلاثة إلى بذل مجهود للتحكم في السيارات.. إن هذا المنحدر هو العلامة الوحيدة على أن القرية قريبة جداً. كانت أمعاء كلب معفر في التراب ملتصقة بالأرض. ليس لها لون ولكن، يمكن أن تكون لها رائحة. داسته عجلة السيارة لأنه لم تكن هناك إمكانية تجنب ذلك. شعر القائد بهذا فلم يعلق بشيء عندما اهتزت السيارة على إثر الارتطام برأس الكلب.

لكنه قال فيما بعد:

- هل تعرف أن رأس كلب يمكنه أن يقلب سيارة؟!

- نعم سيدي. إذا كانت سرعتها تفوق المئة في الساعة.

- إني أعرف صديقاً مات بحادثة من هذا النوع. أف. لا يهم. كم بقي من الوقت لكي نصل؟

- لقد وصلنا تقريباً، بضعة دقائق ونصل.

- إن أمامنا عملاً متعباً. نقل الجرحى. مطاردة الخنازير.

- الخنازير تكون قد فرّت واختفت في الغابة. يستحيل سيدي البحث عنها. يجب إعطاء الأوامر لحراس الغابة حتى يتكلفوا بمطاردتها.

- ذلك صحيح.

زفر القائد وحكّ قُنّة رأسه بسبابته. نظر عن يمينه. لم يكن هناك شيء يثير الانتباه. فقط العالم نفسه: الأحجار الكبيرة والأشجار الصغيرة، وطائر لا يُعرف له اسم يحوم في الفضاء. السيارة تستمر في انحدارها. ثم بعد منحر صغير بدَا المقهى واستوت الطريق واتسعت. حول المقهى بنايات بيضاء هي عبارة عن حوانيت ودور سكن تحفّها النباتات الخضراء التي تكاد تغطيها نهائياً. سارت السيارات الثلاث في الطريق أمام المقهى فأثارت الغبار من خلفها. ركض الأطفال وراءها في خوف وتبعهم بعض النساء الحافيات والرجال الحفاة. اخترقت سيارة القائد مجموعة من الناس. تشتتت الحلقة. وراحت بعض النسوة يندبن ويولولن. عندما قفز القائد من الجيب تبعه رجاله ووسعوا الحلقة بمؤخرات بنادقهم. ارتمت امرأة مسنة على قدم القائد تقبّلها في شبه هذيان. دفعها دفعة خفيفة وأخذ ينظر بألم إلى ستة من الرجال ممددين فوق التراب. أمسك أحد الرجال المسلحين المرأة من ثوبها القذر وجرها برفق حتى تنضم إلى الآخرين. التفت القائد إلى حلقة الناس وأخذ يحاول أن ينظر إليهم واحداً فواحداً، كأنه يعتذر لهم عمّا حلَّ بهم، أو كأنه يشرح لهم أن الأمر ليس بيده. ولكنها الخنازير الملعونة هي المسؤولة. أو ربما هناك شيء آخر مسؤول عن كل هذه الأشياء التي تقع. مثل انهيار جزء من الجبل أو تدفق سيل من الأعلى أو هبوب عاصفة تحطِّم الأشجار وتُذهِب بأسقف البيوت. ثم اخترق رجل المجموعة وفي يده محفظة قذرة، مثل تلك التي يحملها التلاميذ الفقراء في الأحياء

الخلفية، وعلى عينيه نظارة مشدود أحد طرفيها بقطعة ثوب إلى أذنه، انحنى الرجل على يد القائد يقبلها. وقف بتهيُّب أمامه. قال للقائد:

- لقد وقع ذلك هذا الصباح يا سيدي. وحاولت أن أتصل بكم تلفونياً مراراً. لكن التلفون في أغلب الأحيان يكون معطلاً في المقهى.

- ليس هناك مشكل. هل مات أحد؟

- لا يا سيدي. ليس هناك مشكل. لم يمت أحد. فقط هؤلاء الجرحى يبدو أنهم في حالة سيئة.

- سنأخذهم إلى المركز الصحي في القيادة.

أشار بيده إلى الرجال ونظر إلى السيارات، رفع الجرحى عن الأرض بسرعة وهم يئنّون. ثم ألقى بهم داخل السيارات. فكر القائد أن يدخل المقهى لكي يتناول مبرّداً لكنه تذكر هؤلاء الذين يتجمعون حوله. كيف يمكنه أن يصرفهم من حوله. تحركت السيارات الثلاث ودارت في الساحة حول نفسها. شُتِّتت المجموعة وأثارت الغبار من خلفها. أخذ بعض الصغار والكبار يحكّون أعينهم بظهور أكفهم وارتفع النشيج، تحوَّل إلى بكاء وعويل.

قال السائق للقائد:

- يلزمنا وقت لكي نصل إلى المركز الصحي يا سيدي.

- لا يهم. هات علبة الثقاب.

أشعل لنفسه سيجارة أميركية. جذب النفس بعمق كما لو كان قد قضى على أكبر مشكلة تؤرقه. أخذت السيارات الثلاث تتمايل إلى أعلى مثل السلاحف: بلونها الأخضر الباهت، وعندما تعب الأطفال من الركض وراءها وقفوا يلهثون حفاة تحت الغبار. لوح أحدهم بيده لها. لكن لا أحد يرد عليه. تجمع الناس في الساحة حول الرجل ذي النظارة. قالت امرأة:

- أخشى ألا يعودوا . لقد مات كل من جُرح في السنة الماضية عندما نقلوا إلى مركز القيادة. وقال رجل للمقدم صاحب النظارة:

- لماذا اتصلت بهم تلفونياً. كان يمكننا أن نتدبر أمرنا وحدنا. نداويهم بالأعشاب واللبيخات والكي.

قال المقدم:

- إنني مسؤول. يجب أن أخبَر عن كل ما يقع هنا.

- إنهم سيموتون.

- كان عليك أن تقول ذلك للقائد قبل لحظة. كان عليكم أن تحموا أنفسكم من الخنازير البرية. وقالت المرأة التي تولول:

- ناري! وليدي سيموت.

قال المقدم:

- هيا تفرقوا.

ثم سوّى وضع نظارتيه على أرنبة أنفه. ومشى ومحفظته القذرة تتدلى من يده حتى تكاد تلامس الأرض لقصر قامته. كان بعضهم يتحدث وكان البعض الآخر يتبعه وهو يطلق كلمات في الهواء، من الأكيد أنه كان يسمعها، ولا يعيرها أدنى اهتمام.

الأقوى

أخذ الأطفال يهللون وهم يتطلعون إليه، متشعبطاً في العمود الكهربائي. شجعوه بالصفير والتصفيقات وكلمات الإهانة التي تُنقِص من شجاعته. كان يتحدّاهم ويستمر في تسلق العمود الكهربائي. ثم فجأة يرفض التيار الكهربائي اللحم البشري، فيسقط قويدر مصطدماً بالأرض وهو يبكي. فرَّ الجميع بعد أن تأملوه لحظة. تركوه وحده يتألم ويستنجد، ثم بعد شهرين في مستشفى حكومي، أصبح يُسمّى بويدية.

قالت فاطنة:

- حتى الحكومة تخافه. يُقال إنه يتحكم في الدوار كله. ومع ذلك فهو يخاف ولدي.

ردّت جارتها:

- يجب أن تحذري. لا تتحدثي عن بويدية بسوء أبداً. إنه يستطيع أن يسمع كل ما يُقال عنه بطريقته الخاصة. فآذانه منتشرة في كل مكان.

- إن ولدي أقوى منه ويستطيع أن يبتر له اليد الأخرى.

- أنت تتكلمين فقط. إذا أردت أن تفقدي ولدك فواجهيه مع بويدية وسترين.

- إني لا أزال أتذكر أنهما عندما كانا صغيرين، كانت أم بويدية

تأتيني دائماً شاكية باكية، وتدّعي أن ولدي خبط ابنها على الأرض مراراً حتى أفقده وعيه.

- بويدية صار الآن رجلاً، وهو يستطيع أن يقف في وجه جيش بأكمله.

وقالت فاطنة. بصوت مرتفع:

- يلعن أبوه، وها أنا أقولها بصوت مرتفع.

بويدية إذن يزرع الرعب. كان عنيفاً متحدياً منذ الصغر. تستطيع أن تضربه بالأرض المرة تلو الأخرى لكنه لا ينهزم. يكرر التحدي. يعتقد أنه أقوى إنسان في المنطقة، بل في العالم كله. «اضرب فلحمي ميت. ولكن إما بي وإما بك. اختر ما دمت تريد أن تتحدى بويدية. الموت لي أو لك».

قال سي أمحمد البقال:

- من يدّعي القوة يموت ضعيفاً.

أجاب البقال المقابل له:

- لم يكن بويدية يدّعي القوة فقط. ولكنه كان يدّعي ما هو أكبر من القوة. لذلك قتلوه شر قتلة. لا رحمة اللّه عليه.

- لكنه لم يؤذنا قط.

- لأننا جيران والديه ربما.

- أليس له أب. يُقال إن أمه حملت به من رجل آخر.

- احذر أن يسمعنا.

- كيف ذلك؟ هل نخاف منه حتى هو في قبره؟

- آه! نسيت أنه قد مات.

قيل إن الروح عزيزة عند اللّه. وأن من قَتل بغير حقّ لا بدَّ وأن يموت بحقّ. فبويدية قَتل من دون حقّ، ولذلك كان موته بحقّ. ويعلم الكثير أنه قَتل ثلاثة أو أربعة أشخاص في حياته، لكن لا أحد

يستطيع أن يشي به. كلهم يصمتون عن القتل ولا يصمتون عن الطعن في أعراض بعضهم البعض. ولأنهم مسالمون فهم يغتابون بعضهم ويرضون بذلك. إن تَغتِب تُغتَب. إياك أن تغتاب بويدية فهو يسمعك حتى لو كان داخل السجن. آذانه طويلة عريضة تلتقط كل شيء. حتى همسات الناس في الفراش، وهم في خلوة بعيداً من العالم. إن ما تقوله الزوجة لزوجها يسمعه بويدية، وما يقول الزوج للزوجة يبلغ بويدية بهذه الطريقة أو تلك. لكن كل من يدّعي القوة يمت ضعيفاً.

وقال رجل:

- يُقال إنه دخّن كثيراً من الكيف وشرب كثيراً من الخمر قبل أن يقدم على قتل مسعود.

وردّ آخر:

- إن أصحابه دخنوا وشربوا أكثر منه.

وقال آخر:

- لم يكونوا يريدون قتله. لكن مسعود - يرحمه اللّه - كان عنيداً وحاول أن يتحداهم، فانغرز رأس الحديدة المدببة في رأسه. مات بعد أن فركل بقدميه لحظات معدودة.

- سمعت أنهم قتلوه من أجل ثلاثمئة درهم. ما أقبح أن يُقتل الإنسان أو يموت بهذا الثمن البخس!

وفي الواقع، فإن بويدية يستطيع أن يقتل أو يجرح أو يعتدي لا لشيء إلا لمجرد العناد والتحدي. ألم يكن هو الأقوى في الدوار بل في العالم؟ إن كلمة الأقوى يجب أن تسمع مهما كان الأمر.

عندما بلغ أمه خبر وفاته، خرجت تضرب فخذيها وتلطم وجهها وتتمرغ في التراب وتقول إنها فقدت أحسن الرجال. لكن النساء - كعادتهن - لم يبكين ولم يلطمن أفخاذهن معها، بل كنّ، بدافع التشفي، ينظرن إليها في حقد وهنّ يطللن من خلف فجوات

الأبواب. لم تكن امرأة في السابق تستطع أن تقع في مشادة معها، فبويدية يمكنه أن يشوّه وجوه الأزواج وأن يغتصب النساء والأطفال الصغار. استمرت أمه في اللطم والبكاء والأنين حتى فقدت وعيها، وفركلت للمرة الأخيرة كما لو كانت تحتضر، ولم تخرج امرأة لتشممها البصل. كان فمها ووجهها معفرين بالتراب وهي تتنفس بهدوء. وخرج زوجها المشلول وهو يتعثر. ثم جرها من قدميها بصعوبة نحو باب الكوخ. وكما لو كانت تفتعل هذه العادة فتحت عينيها وقالت له: «اتركني يا ولد الفاعلة». تركها الزوج ممددة على التراب. وجلس تحت ظل الكوخ القصديري. أخرج السبسي والمطوي وأخذ يدخن الكيف وهو يسعل. عاودت الفركلة مرة أخرى وبدأت تهذي، ثم ارتخت نهائياً.

وقالت امرأة لجارتها:

- إنها أكثر شراً من ولدها.

- أتمنى أن تموت. إن عندي كيلو غرامين من البصل واللّه لن أشمم لها واحدة.

- دعيها تموت.

- لن تموت، فهي أقوى من عفريتة. من يدّعي القوة يموت ضعيفاً. لا بدَّ وأن تنغرز في جسدها سكين حادة ذات يوم.

تحامل الزوج على نفسه. بعد أن أعاد السبسي إلى جيبه، فتح الباب على مصراعيه. أمسكها من قدميها وجرها إلى فناء الكوخ. لم تبدِ أي تمنّع. بقي منديل رأسها في التراب. التقطه الزوج وألقاه على وجهها لكي يقيها لفح الشمس الحارة. أغلق الباب خلفها وخرج يتعثر فوق الحفر والجلط المائية. مرّ بمجموعة من الأطفال فتحلقوا حوله ثم تفرقوا. وتحدثوا لبعضهم. كم من واحد منهم تمنى لو يكن هو بويدية حتى لو كان الثمن ميتة مثل ميتته. المهم أن يُثبت الإنسان

وجوده ويعلنه للعالم بكل الطرق. وسمع الزوج طفلين يتحدثان بصوت مرتفع، والغالب أنهما كانا يتحدثان عن طفل في مثل سنهما اعتدى عليهما.

أجاب الآخر:

- سنقتله وسندخل السجن. وعندما نخرج تكون لنا شوارب.

- وسنصبح قويين.

- مثل بويدية.

- سيخافنا الجميع.

- وسنسكر وننزع من الناس الفلوس ونعتدي على الفتيات وخصوصاً على أخت عباس لأنها سمينة وتطردنا كل يوم من باب كوخهم.

مشى الزوج يتعثر متثاقلاً. أنهكه المرض. كان يبدو بلا انفعال. كأن لم يؤثِّر فيه موت أو إغماء امرأة. فدماغِه شبه مخدَّر بلا أحلام. عرج يميناً فدخل الزقاق، وواجهته الحوانيت وقد تجمع حولها الكثير من الناس، جلسوا على التراب، بعضهم يتأمل أو يجتر ذكريات البادية القديمة، وبعضهم يلعب الورق أو الضامة. توقف عند أحد الحوانيت وترك جسده يتهاوى على الأرض. قال البقال:

- لقد فعلها بويدية.

- فعلها لنفسه، تحمل مسؤوليته.

كانت نبرة صوته حيادية كأن الأمر لا يتعلق بابنه. فهو في قرارة نفسه يشعر أن ليست هناك علاقة بينه وبين بويدية. أحياناً ينتابه الشكّ في أنه لم يلده. إن عنده فكرة عن الخادمات بأنهن مومسات. وبما أن أم بويدية كانت خادمة فلا شكّ إنها حملت به من رجل آخر. ثم هناك الاختلاف الكبير بينه وبين بويدية، واحد مسالم، هادئ،

كسول، لم يشتغل في حياته إلا لماماً. أما الآخر فقاتِل وعنيف وعنيد. لكن من يدّعي القوة يموت ضعيفاً.

قال البقال:

- لقد كان مسعود طيباً، ويعمل من أجل خمسة أولاد وزوجة حامل.

- يرحمه اللَّه لو لم يقتل بويدية لقتلني أبناء مسعود فيما بعد. وأنا لا أريد أن أذهب ضحية أحد. إني أريد أن أعيش أعواماً أخرى.

رفع رجل رأسه. كان منشغلاً بالنظر إلى الأوراق في يده. وقال:

- إن بويدية لا يموت. هل تعلمان أن الناس عندما طاردوه ظلوا يضربونه بالعصي والبالات على كتفيه وجمجمته. لكنه لم يمت. فقد ظلَّ والدماء تسيل على وجهه يلوح بسلسة حديدية في أوجههم، وقد أصاب منهم ثلاثة. لكن ضربة الفأس هي التي قضت عليه نهائياً. فقد تركت حفرة كبيرة في رأسه. وعلى إثرها هوى إلى الأرض وهو يردد سأقتلكم كلكم. بويدية هو الأقوى. لكنه لفظ أنفاسه.

حتى هذا الوصف لمقتل بويدية - الذي كان يعرفه والده - لم يؤثِّر فيه. بدا حيادياً جداً. أدخل يده في فتحة جلابيته، وأخرج السبسي والمطوي وملأ له شقفاً. دخن بهدوء ومدَّ السبسي إلى الرجل الذي يلعب الورق. دخن منه هذا الأخير وأعاده إليه.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي اعتدي فيها على مسعود من طرف بويدية. فهو في كل شهر مضطر، مثل باقي أصحاب الحوانيت، إلى دفع غرامة مالية. لكن الغرامة كانت مرتفعة، بدعوى أن حانوته مليء بالسلع المتنوعة، وله زبائن كثر. عندما كان مسعود يبدي أي

تبرُّم، فإن بويدية يخرج رأس سكينه من تحت معطفه الأسود القذر الذي لا يغيّره أبداً. ولا يفوه بكلمة. كانت رأس السكين تنوب في الحديث عنه، ثم يدخل رأس السكين ويتسلم المبلغ وينصرف. لكن في المرة الأخيرة، قرر مسعود أن يرى السكين لا رأسها. إلى متى سيظل يدفع هذه الغرامة؟ لكن بويدية قال:

- طيب. لا تريد أن تدفع مئة درهم؟

- لا. أنا رب عائلة. أدفع لرجال الضريبة، أدفع رشوة للمقدم. ثم لك أنت أيضاً؟ أنا لا أشتغل بالسوق السوداء. ثم إني لا أملك بنكاً.

- طيب. ستدفع مئة درهم.

لوّح بويدية بالسكين اللامعة في الهواء. كان القتلة الثلاثة خلفه ينظرون في صمت ولا يتدخلون في الحديث. إذا تحدث بويدية ففيه الكفاية. إنهم لا يتدخلون إلا بالسلاسل والسكاكين أو اللكمات. وقال بويدية:

- هذه السكين سوف تفصل رأسك عن جسدك. أو تلك الحديدة.

التفت إلى الثلاثة خلفه:

- أرها له حتى يعرف أننا لا نمزح.

ولمسعود:

- ستنغرز الحديدة في قُنّة رأسك.

قال مسعود:

- لن أدفع حتى لو كان في ذلك حتفي. يتّم أولادي إذا شئت.

- طيب. ستدفع ثلاثمئة درهم.

- لن أدفع.

ارتمى بويدية على مسعود وقبض على رقبته وجذبه إلى خارج

الحانوت. حاول مسعود أن يقاوم. مدَّ يده إلى هراوة في زاوية. وقبل أن يهوي على بويدية، سقط مسعود أيضاً وهو يتمرغ في دمه.

وقال البقال للأب:

- ليس وحده هو الذي يفعل ذلك. كلهم يتشبهون الآن بقتلة الأفلام.

- أنا لم أرَ فيلماً في حياتي. الآن فقط، فهمت لماذا كان يصرُّ على مشاهدة الأفلام. هل هي التي تعلمهم؟

لا أحد يدري كيف تجرأ الناس على مطاردته وقتله، على الرغم من أنهم كانوا يخافونه. في البدء أخذ الذين طاردوه يهمهمون. ثم أصبحت الهمهمة احتجاجاً بأصوات مرتفعة. وقالت امرأة وهي ترى مسعود متمرغاً في دمه:

- واللَّه لم يبقَ هناك رجال. يقتل ويمضي إلى حال سبيله والرجال ينظرون إليه.

وقالت أخرى:

- اصمتي يا أختي وإلّا سمعك.

- لن يستطيع أن يؤذيني. وإذا فعل فإني أهشِّم رأسه بيد المهراس.

- إنه لن يعطيك الفرصة حتى تهشِّمي رأسه.

- اللَّه اللَّه. لم يبقَ هناك رجال.

قال أحدهم:

- معها حقّ. لم نعد رجالاً.

وردّ آخر:

- أنا امرأة. إبدأ أنت أيها الرجل. أبدأ قبل أن يختفي.

- ولماذا لا أبدأ؟ لماذا لا نبدأ؟

دخل إلى كوخه وخرج بهرواة غليظة الرأس. تفرَّق الرجال

وفعلوا مثله. وبسرعة فائقة انقضّوا على بويدية. ظلَّ يقاوم، في حين فرّ القتلة الثلاثة. انهالوا عليه ورفسوه. كانت ضربة الفأس من الخلف قوية. لم يملك أمامها بويدية إلا أن يستسلم لضعف قواه، على الرغم من أن وعيده ظلَّ مستمراً حتى لفظ أنفاسه. إن الشرطة نفسها تتجنب شره، إلا إذا ارتكب جريمة لا تخفى على عين أحد. جريمة تفوح رائحتها وتكون فيها إهانة للسلطة. إذ ذاك يعتقلونه ويودعونه السجن شهراً أو شهرين. والكل يخاف من أن يصبح أولاده من بعده يتامى مشردين. كم من شرطي قتل في حادث من ذلك النوع من الحوادث، فأصبحت زوجته من بعده مومساً. والكل يقول: «ذلك جزاء تهوره. لم يرد أن يأكل القوت وينتظر الموت». أما هذه المرة، فبعد مقتل بويدية، حضر رجال الشرطة بعد أن تأكدوا من الوفاة، لأنهم لا يحضرون إلا إذا كانت هناك وفاة. فالمشادات في تلك الأحياء لا تنتهي أبداً، ويلزم تجنيد كل أجهزة الشرطة لفضّ تلك الخصومات في حي واحد فقط.

عندما حملت سيارة الإسعاف جثتي مسعود وبويدية، تحلق كثير من الخلق حول سيارة الشرطة. وأمر الضابط أعوانه أن يفتشوا عن صاحب الفأس فجيء به بسرعة.

وقال الضباط للرجل الذي كان يرتعد:

- لا تخف. سنأخذك معنا من أجل تحقيق بسيط وروتيني. حسناً فعلت عندما قتلت ذلك الأبتر المشؤوم.

ركب الرجل الجيب. وقالت زوجته وهي تنتحب:

- اللّه معك. أتمنى أن تعلمك هذه الحادثة كيف يجب أن تتجنب الفضول.

لكن نساء أخريات أخذن يشجعنها ويصبرنها.

المركز الصحي

توقف الرجال الثلاثة أمام العربة التي تحمل المريض، عربة يجرها حمار، غير مغطاة. ووراء الرجال الثلاثة امرأتان وطفل صغير، اختلطت دموعهم مع ماء المطر المندلق من السماء في غير عنف. المرأتان تجهشان والطفل الصغير يرتعد من البرد، والحمار هو الآخر يحاول أن ينفض الماء عن أذنيه المرتخيتين.

قال الرجل الأول:

- نحمله على أكتافنا.

- كيف ذلك؟ إنه يتألم.

قال الثالث:

- نحاول أن نجر الحمار وسط المستنقع.

قال الأول:

- أعرف هذا الحمار البليد. لا يمكنه أن يجتاز المستنقع حتى لو قتلناه بالضرب. فكَّر الرجال الثلاثة في صمت قليلاً. وبدا لهم المركز الصحي بعيداً وغاصاً في الوحل والماء الكدر. أما بابه فمغلق. كانت هناك نافذة واحدة مفتوحة قليلاً يمر أمامها رأس بشري من دون شكّ. إنه المركز الصحي الوحيد في المنطقة لحوالي عشرة آلاف من سكان القرى والدواوير. لذلك فالوصول إليه يعتبر رحلة أبدية لا نهاية لها.

قال الرجل الأول:

- حاولا أن تساعداني. افرجا ساقيه وأنا سأضعه على ظهري.

أخذت الأمطار تتهاطل بقوة هذه المرة، والريح تلوي أعناق بعض الأشجار الطرية القصيرة حتى لتكاد تتكسر. وكان يسمع للمريض أنين واهٍ وضعيف تحت قطعة المشمع التي غطوه بها. وعندما يسمع له أنين، يمعن الطفل في ذرف الدموع، ويتشبث بقوة وعنف بثوب أمه القذر.

قال الطفل:

- هل سيموت يا أمي؟

لكن الأم لم تجبه، بل مدّت يدها إلى المشمع، وجذبت بعض أطرافه لتسوية فوق جسد المريض، وعندما فعلت ذلك اندلقت بعض المياه التي تجمعت في بعض ثنايا قطعة المشمع.

أخذ الرجل الأول يستعيد نَفَساً عميقاً كان قد فقده. وأعطى ظهره للعربة. وقام الاثنان الآخران بنقل المريض إلى ظهر الرجل. شعر هذا الأخير بالثقل فتشجّع وصمد أكثر وانحبست أنفاسه مرة أخرى. أما المرأتان فقد اهتمتا بتسوية المشمع على رأس المريض.

أخذت المجموعة تجتاز المستنقع وقد رفعت أثوابها حتى ما فوق الركبتين بكثير. أما المرأتان فلم ترفعا ثوبهما أكثر من حدود الركبتين، وسمحتا لثيابهما بالابتلال. لأنهما كلما حاولتا أن ترفعا الثوب أكثر، ظهرت أفخاذهما الغليظة المشعرة. وكاد جسد المريض أن ينزلق عن ظهر الرجل، فتداركته الأيدي وأعادت توازنه.

قال الرجل الثاني:

- أتمنى أن يكون الممرضون حاضرين.

تساءل الثاني:

- لا أدري كيف يجتازون هذا المستنقع للوصول إلى المركز.

- إنهم لا يجتازون المستنقع، بل يسكنون في المركز.

وازدادت الأمطار فلم ينتبه أحد إلى ذلك، كان المريض وحده هو الذي يستجيب لهذه الظاهرة الطبيعية بأنّات متوالية ورتيبة.

وعندما اقتربوا من المركز الصحي، سمعوا أغنية منبعثة من مذياع فشعروا بالأمل. الممرضون موجودون. وقالت امرأة:

- سوف يعالجونه وسوف يُشفى.

وقال الرجل الثاني وهو يفتش في جيب سرواله:

- يجب أن ندفع لهم رشوة حتى يعتنوا به أكثر.

- صحيح.

ثم صعدوا بعض درجات قليلة، وتجمعوا فوق مصطبة عالية. وأحس الرجل الذي يحمل المريض بإعياء. أدار ظهره جهة حائط المركز، ثم حاول أن ينزله برفقٍ وأناة. لكن قواه لم تسعفه فسقط جسد المريض مثل كيس على الأرض الصلبة. أصدر أنيناً مرتفعاً وصمت. فانحنت عليه المرأتان وحاولتا أن تسنداه على الجدار.

أخذ الرجل الثاني يطرق الباب الحديدي البارد بقبضة يده. ولم يأتِه الجواب إلا بعد لحظات.

أطلّت ممرضة قصيرة القامة برأسها، ثم خرجت لتلقي نظرة على المريض:

- ماذا به؟

- لا ندري.

أجاب الرجل الثالث:

- إنه يشكو من الوجع ومن الحمّى.

وقالت الممرضة القصيرة القامة:

- احملوه واتبعوني. ثم إن الطبيب لا يأتي إلا يوم الخميس.

حُمل جسد المريض بالطريقة التي حُمل بها في المرة الأولى.

وعندما أصبحوا داخل حجرة ذات مقاعد طويلة حاولوا أن يجلسوه لكنه لم يقوَ على ذلك. غابت عنهم الممرضة داخل حُجرة أخرى. ولم يكن في المصحّة سوى هي وممرض واحد فقط. وعندما رآها الممرض قال وهو ممدد في سريره:

- ميت آخر؟!

- ربما.

- متى ننهي طريقة العيش هذه؟

- عندما نتزوج.

- أنت تحلمين كثيراً. لقد نفونا هنا، في هذه المنطقة. أنا أحلم بالعودة إلى مدينتي.

- وإذ ذاك سنتزوج.

- أنت لا تفكرين سوى في الزواج.

- وفي أي شيء يمكن لامرأة مثلي أن تفكر.

- اذهبي واعطي لذلك الكلب أقراصاً قبل أن يموت.

لم يكن ينظر إليها، بل كان يدخن في تأمل، وينظر إلى الأمطار تتساقط وتصدم زجاج النافذة. خرجت الممرضة ونظرت في وجه المريض، جسّت نبضه ووضعت يدها على جبهته، لم تخمّن مرضه، وافتعلت بعض الجدية والعناية. عادت إلى غرفة خلفية وجلبت بعض أدوات الحقن. ثم قالت:

- لا تخافوا. سيُشفى.

لفّت المجموعة المريض في قطعة المشمع. وحملوه إلى الخارج. كان الحمار يبدو من بعيد وهو يهز بعض قوائمه ويحرك أذنيه ورأسه. رفع الرجال والنساء ثيابهم إلى ما فوق الركبتين، وأخذوا يخوضون في الماء العكر، أما الممرضة فقد التحقت بالممرض، وتزاحمت معه في الفراش:

- إني أملك بعض الحلي. سأبيعها وسنتزوج.
- هل مللت الإجهاض؟
- إلى متى سنعيش هكذا؟
- هاتِ العشرة دراهم التي أخذتها منهم.
- لم آخذ سوى خمسة. أقسم لك.

وأخرجت ورقة من فئة الخمسة دراهم وقدّمتها له. ثم سمعا صرخة قوية تلتها صرخات أخرى. قامت الممرضة وأطلت من النافذة فرأت امرأة تلطم وجهها وتلطشه بالماء تحت المطر. ورأت رجلين يبدوان كما لو فقدا وعيهما وهما يتمرغان في ماء المستنقع، عادت مرتعبة إلى وسط الغرفة.

- ناري! يمكن أنه قد مات.

قام الممرض من مكانه وذهب إلى النافذة. وأخذ يراقب المشهد تحت المطر. أحسَّ بشعور غريب. وأخذ يجوب الغرفة بخطوات بطيئة وعيناه تحدّقان مرة في الأرض، ومرة في عيني الممرضة الزائغتين. لكنه لم يكن يستطيع الكلام.

الشجرة المقدسة

1980

الشجرة المقدسة

بعض الشبان الذين تعلموا قليلاً، اكتفوا فقط بالابتسام علامة السخرية والاستهزاء. ماذا يهمهم في شيء قطع شجرة في مكان خالٍ؟ ماذا يهمهم حتى لو كانت سامقة في بستان وقد تدلّت منها ثمارٌ شهية، تتساقط بفعل نضجها أو فسادها، أو تظلُّ معلقة على الفروع والأغصان؟ وقف بعضهم يطلّون مشرئبين. ينظرون إلى الناس المتزاحمين لا إلى العملية التي تتم وسط تلك البقعة الخالية إلا من شجرة. وراء الشجرة هناك ألواح من الإسمنت المسلح تُرَكَّبُ ببطء وإتقان. امتدت خلف تلك الألواح التي ترتفع في السماء عمارات أخرى داكنة لم تركَّب بعد رتاجات نوافذها، فبدت مفتوحة كأفواه حيوانات خُرافية. كان هناك سياج من رجال القوات الاحتياطية يشكل دائرة متينة متماسكة، يمنع الناس من الاقتراب من الوسعة، حيث تشمخ شجرة فوق مرتفع أرضي بني اللون. الناس يتزاحمون خلف سياج رجال القوات الاحتياطية الذين كانوا يردّون بعنف بضربات على الأكتاف أو عند الركب، فتسمع أنَّات، وقد يسمع زعيق طفل تحت الأرجل تشبّث بأمه الحافية الممزقة الثياب. أعناق بعض الشبان المتعلمين في الخلف لا تزال تشرئب. قال أحدهم للذي بجانبه:

- هذا أحسن ما فعلت الدولة.

- ماذا يهمك أنت مما تفعله الدولة؟ قطع شجرة لا يهمنا في شيء، بعد غد سوف تبنى في مكانها عمارة جديدة لن تهمنا أيضاً في شيء. ولن تضع ثمن كرائها في جيبك.

- على كل، يجب القضاء على مثل تلك الخرافات. لقد ظلوا يقدسون تلك الشجرة.

- سوف يقدسونها أكثر عندما تُقطع.

- بل سوف ينسونها.

كثر الازدحام حول الوسعة، وكثر التدافع إلى الأمام وإلى الخلف، بعض البنادق وبعض العصي الغليظة الرؤوس كانت ترتفع في السماء، فتهوي على بعض الأذرع أو الأجسام. جرّت امرأة طفلها الصغير ذا الخطم الملطّخ بالمخاط وهي تقول لامرأة لم تهتم بها:

- ما لنا ومال الشجرة؟ هذه حكومة تريد أن ينزل بها بلاء سيدي داوود. واللّه لن يستطيع أحد منهم أن يغمض عينيه الليلة حتى تحصل له مصيبة.

وقالت المرأة الثانية دون أن تلتفت إليها:

- الحكومة ما لها؟ أولئك الرجال المساكين الذين يقطعون الشجرة هم الذين ستصيبهم اللعنة، المخزن بعيد كل البُعد عن ذلك. إنهم يدفعون الناس إلى حتفهم دائماً ويبقون في الخلف.

أدركت المرأة أنها تقول كلاماً خطيراً. ارتعدت من الخوف والتفتت حولها. خافت أن يكون أحد المخزنيين خلفها فيأخذها إلى المقاطعة، حيث تُجلَّد وتُعلَّق مثل شاة في أحد الأقبية. فكّرت أن عليها أن تعول أطفالها الثلاثة الذين تركهم لها الزوج وانتقل إلى حيث سيذهبون جميعاً. وعادت تقول للتي بجوارها:

- الحكومة تعرف ما تفعل، لو لم تجد مصلحة في قطع تلك الشجرة لما فعلت ذلك.

قالت المرأة الأخرى:

- ألا تخافين من لعنة سيدي داوود؟ أغلقي فمك وإلا وقف عليك هذه الليلة في المنام.

- وماذا فعلتُ لسيدي داوود؟ إنني مجرد أرملة فقيرة أعول ثلاثة أولاد بكل الوسائل.

انسحبت المرأة من الزحام، لا تريد مشاكل مع المقاطعة ولا مع سيدي داوود. وحتى سيدي داوود لا تعرفه ولم ترَه قط في حياتها. لا يوجد له قبر في الوسعة. قالوا هو الذي زرع الشجرة وتقمصت روحه. قالوا أيضاً، لم يزرعها أحد. لكن الناس فوجئوا ذات صباح بتلك الشجرة في الوسعة وكأنها بنت سنوات، هي لم تتبرك بها إلا مرة واحدة، عندما ظل زوجها في فراش الموت أكثر من عامين. لكن بعد الزيارة بأيام، أخذ سيدي لابي أو سيدي داوود روح زوجها.

تلفح الشمس بشدة أجسام المتزاحمين التي لا تُعرف من جراء الأوساخ، فلم تلتمع سوى حبات من العرق على أنوفهم. هدير الجرافة في الوسعة لا يزال مستمراً، بعض العمال تسلوا بالحبال المربوطة على جذع الشجرة. وراء ظهورهم كانت البنادق مشرّعة. يجب تنفيذ أمر الحكومة من دون توانٍ أو تخاذل، بعدها سمعت طقطقة الجذع والفروع، فخرّت الشجرة على الأرض. ترك بعض العمال الحبال وركضوا إلى الخلف. الحرس من خلفهم أيضاً تراجعوا. لم يكن واحد منهم يوماً يتمنى أن يفقأ عينه غصن شجرة. اختلَّ نظام الدائرة فارتفعت أعقاب البنادق ورؤوس العصي في السماء من جديد. التَوَت الأذرع وتخبطت في الفراغ. وسمعت أصوات الاحتجاج مكتومة وعلنية، وقال أحدهم:

- غداً أو بعد غدٍ سوف ترتفع عمارة فوق روح سيدي داوود.

- أخشى أن يُسمّيها هؤلاء عمارة سيدي داوود ويعلّقوا عليها الشموع والتمائم.

- كل شيء ممكن.

ازداد الازدحام حول الوسعة. بعض الناس ركضوا من حوانيتهم الضيقة المظلمة ليروا ما يحدث. البعض فضّل أن يراقب الأمر من بعيد. توقفت سيارتان قرب المزدحمين. نزل قائد المقاطعة من إحديهما، وسبقه بعض الحرس يوسِّعون له الطريق. أصيب الناس أول الأمر بذهول عندما رأوه. أخذ بعضهم يشتمه بصوت منخفض. الحرس يَضربون في كل اتجاه. تطاير الغبار حول الموكب الصغير من كل الجهات. القائد وحده كان يعرف معنى أن يتظاهر الإنسان بالثبات واللامبالاة. أدنى حركة تثير شغباً وفوضى لا حدّ لهما. خصوصاً في أمور ذات حساسية مثل هذه. الغبار يتطاير، والصراخ والعصي وأعقاب البنادق تتطاير. كل ذلك شيء ضروري في لحظة مثل هذه. ما على أكبر رئيس دولة في العالم إلا أن يتمالك أعصابه. ما على أكبر رئيس حكومة، أكبر وزير، أكبر والٍ، أكبر عمدة، أكبر قائد مقاطعة، أكبر فلان إلا أن يتمالك نفسه. لكن الذين يتلقون الأوامر لا يتمالكون أنفسهم. يعتقدون أحياناً أن أي تصرف فردي يأتي منهم هو تلبية لأمر سامٍ. إن أي رئيس دولة في العالم يمكنه أن يتقبل صفعة ويبتسم أمام كاميرا التلفزيون. سوف يقدّره الناس لأنه لم ينفعل مثلهم لأتفه شيء. لكنه في الخفاء يستطيع أن يعطي الأوامر لتهديم عشرات المدن لأن كاميرا التلفزيون ليست موجهة إليه في تلك اللحظة. بعد ذلك سوف يخطب في الناس مظهراً براءة الإنسان تجاه أخيه الإنسان!

الأذرع الآن ترتفع، والأصوات ترتفع، وأعقاب البنادق تتراشق في السماء. تصطدم برؤوس العصي أحياناً؛ وبرؤوس البشر أحياناً

أخرى. تصرخ الأفواه وتنزّ الوجوه دماً، وتسقط الأجسام أرضاً. لكن القائد دائماً لا يتحرك. إنه يحاول أن يعوّد نفسه على أن يصبح وزيراً أمام كاميرا التلفزيون. (أثبت. سوف تأتي لحظة الانتقام في حينها: عندما تستطيع أن تهدم عشرات المدن). أعقاب بعض البنادق تناوشه عن غير قصد بفعل زحام الجماهير التي تقدِّس شجرة. لكنه لا ينفعل، ابتسامته صارمة وجادة، رغم الغبار الذي يحجب وجهه عن كثير من المتزاحمين. غير أن أحد الذين يتلقون الأوامر لم يتمالك نفسه. من مكان ما هوت قطعة حجر كبيرة على رأس قائد المقاطعة فشجّت رأسه، سقط على التراب. وظلت الابتسامة أبداً مرسومة على شفتيه اللتين ظلّتا تسبحان في بركة من الدم والتراب. أطلق الحارس الرصاص. تطايرت أحجار في الفضاء المغبر فتلتها رصاصات لم يكن أحد يدري من أي مكان كانت تنطلق. أخذت الأجساد تسقط وتهرب، وتتشتت، وتتفرق وتصطدم ببعضها، ارتفع الغبار. معركة حقيقية فعلاً. لم يعد هنا نظام لأي شيء. عواطف من الغضب والخوف والحقد والشجاعة والجبن كلها تحوم حوله شجرة مقطوعة. الرصاص ينطلق من كل مكان ويخترق كل مكان. اختلط كل شيء. العويل والبكاء وأنين الاحتضار الأخير. ابتسامة قائد المقاطعة كانت لا تزال مرسومة على شفتيه رغم الدم والتراب؛ كأن عشرات الكاميرات تتزاحم حوله لتلتقط له صوراً. تفرَّق الناس، خلت الشوارع الضيقة وأُغلِقت النوافذ والأبواب المركَّبة تركيباً عشوائياً على جدران بنيت كيفما اتفق. كانت بعض العيون تطل من ثقوب أو شقوق في الحيطان والنوافذ والأبواب. لكن تلك العيون لم تكن ترى سوى حرس غير منتظمين في الوسعة وفي رؤوس الأزقة القذرة المتفرِّعة التي تجمعت فيها مياه القاذورات والأوساخ. أصحاب بعض الحوانيت من خضَّارين

وعطّارين وأشباه بقّالين تركوا سلعهم واختفوا في أماكن ما. بعض العجائز اللواتي يبعن الحناء العطِر والصابون البلدي ولوازم السحر كذيول الفئران ورؤوس الغربان تفرقت وتركن سلعهن على الطوار. اقترب بعض الحرس من القائد. أشار إليهم بيده فحملوه بسرعة إلى إحدى السيارات. تعجّب أحد الحراس من شدة صبره عندما رآه لا يزال يبتسم كأن شيئاً لم يقع.

دراية...

ثم أصر على أن ينظر في عيني مباشرة. وأخذ يبتعد شيئاً فشيئاً مني وأنا مسمّر على المقعد البارد، وقهوتي قد انتهت. تجاوز الطريق وكيسه فوق كتفه. لا بدَّ أن كيسه مليء بالتبن أو النخالة.. لا يهم، بل إن وزن الكيس لم يكن ثقيلاً، لذلك كان الرجل يمشي بسرعة حتى دون أن يحس بالثقل الذي فوق ظهره. وعندما بلغ موقف الأوتوبيس، اتَّكأ على شجرة من الساج زرعتها البلدية أيام الحماية. وسمعتُ صوت رجليه وهما تدوسان أوراق الساج الصفراء المنتشرة على الطريق. كانت شجرة باردة عارية فوق رأسه، موزّعة أغصانها في فضاء أزرق صافٍ جداً. ثم ترك الكيس يهبط من فوق ظهره فلا يحدث أي صوت. وعندما تصورت أن جسمه أعرض من شجرة أخذ ينظر جهتي فلم أعره أي اهتمام على الإطلاق، وإنما أخذت أضرب الأرض بحذائي ضربات خفيفة لم تكن تعني شيئاً سوى أنها نوع من التعويض.. عن أي شيء؟ لا أدري. ربما عن انفعال مكبوت. وفكّرت فيما إذا كان الجابي سيسمح له بالصعود إلى الأوتوبيس مع كيسه. لقد كان واقفاً الآن وحده. أضخم من شجرة، وأكبر سناً منها. كان أبي كذلك أضخم من شجرة، وأكبر سناً منها. إلا أنه لم يكن أبي ولا يمكن أن يكون. ومع ذلك فقد ظلَّ الرجل ينظر في وجهي نظرات متفحّصة مليئة بالوهم. وقد أفزعني ذلك.

خصوصاً أن أبي لا يمكن أن ينهض من قبره ولا أن يحمل كيس تبن أو نخالة لعدم حاجته إلى ذلك. كان واقفاً الآن وحده ينتظر مجيء الأوتوبيس، ولم يكن بينه وبين الشجرة إلا سنتيمترات من الهواء. وخلفه حائط متهدم لكراج قديم. وحتى شارة الوقوف لَوَت عنقها وبهتت صفرتها، بل أمحت تماماً. ورفع عينيه إلى أعلى وحاول أن يقرأ أو يتهجأ. فجاءت امرأة ملتفة في جلبابها ووقفت إلى جواره. وتساءلت لماذا كان قبل لحظات يدور ويدور حولي ويتفرسني بذهول. كانت نظراته تتهمني، بل تريد أن تقول شيئاً. وتخيلت فيه أبي الذي فقدته، ولربما كان الرجل يتخيّل في ابنه. إلا أن أبي لم تكن قامته طويلة وعريضة بهذا الشكل. كانت سمات الوجه متشابهة فقط. وحاولت ألا أخاف والرجل يدور حولي. كانت صورة الموت فوق كتفه، وفي وجهه، وفي أنحاء قامته. ولقد أفزعني أن يكون مثل أبي. غصَّ موقف الأوتوبيس بالناس، واختفت المرأة المجلببة فلم تعد بالقرب من الرجل.. أصبحت وسط الزحمة. إلا أنه ظلَّ يلوح لي من بعيد، بالقرب من شجرة، ووراءه الكراج القديم.

قلت:

- إنك تشبه أبي.

- لا أدري.

- بل إنك تشبهه.

- لا أدري.

- إن لكما الملامح نفسها. الفرق بينكما أنه لم يكن يحمل كيس تبن قط فوق كتفه. لم تكن لنا دواب.

- لا أدري.

- لماذا تتفرس فيّ، وتدور حولي. وأنا أشرب قهوتي؟

- لا أدري.

وأخذتْ لا أدري ولا أدري تتكاثر وتنتشر في الفضاء من حولي. كانتْ لا أدري جالسة معي في المقهى، وموجودة في فنجان القهوة، وفي السجائر التي احترقت كلها قبل ساعة.

أخذ الناس يتجمعون وقد تأخر الأوتوبيس... وصار الرجل وحده ينفصل عنهم جميعاً. ابتعد من الشجرة وجرَّر كيسه على الأرض.. لا شكّ أنه مليء بالتبن أو النخالة.

وأردت أن أسأله عن محتوى الكيس لكنني خفت من لا أدري. فقررت أن أصمت، وأحاول فقط أن أجد علامات صغيرة قد تكون الدليل القاطع على أن الرجل ليس أبي. ورغم يقيني الكامل بأن الميت لا يعود، فقد كان التشابه بين الرجلين لا شكّ فيه. ولما أتى الأوتوبيس صعد كل الناس إلا الرجل.. عاد بالقرب من الشجرة واتّكأ عليها، ورفع قدمه ووضعها فوق الكيس. ثم رأيته يدخل يده في ثنايا ثيابه ويخرج شيئاً يفرغه على ظهر كفّه وبحركة خفيفة أعاد ذلك الشيء إلى مكانه، في حين رفع كفّه المحدودبة إلى أنفه وعطس بعد ذلك.. لا شكّ أنه مدمن على النشوق. ثم سألت الرجل من جديد، والأكيد أنه لم يكن يسمعني على الرغم من لا أدري:

- يبدو أنك تحب النشوق.

- لا أدري.

- فقط أردت أن أقول إنك لست أبي. كان رحمه اللّه يدمن على الكيف. وكان يهزأ بمن يتناول النشوق. هذا هو الدليل القاطع على أنك لست أبي. أريد شيئاً من النشوق لأتأكد من أنه نشوق وليس كيفاً.

وقال الرجل بعد ذلك:

- لا أدري.. لكني على كل حال لست أباك.

ورأيته هذه المرة ينظر جهتي، وقد أزاح قدمه من فوق كيسه..

كان قذراً مرقّع الثياب. ابتعد من الشجرة. وسار فوق الرصيف المقابل لكي يواجهني مباشرة. ثم انتظر أن يعبُر سيل السيارات الفاصل بيننا. ورأيته يزحف كسلحفاة نحوي.. سلحفاة حقيقية وليست متخيلة.. ارتعشت وخفت أن يكون أبي.. لكنه لا يمكن أن يكون. أخذ الرجل يقترب ويقترب. وأنا مسمّر على المقعد البارز. لما صار أمامي فتح فمه بتراخٍ:

- ابني.. هل تعطيني ثمن تذكرة الأوتوبيس.. ليس معي.. ليس معي..

أجبته بجفوة:

- أنا فقير، ليس معي نقود.

لم يقل شيئاً، بل مشى في الطريق السفلي يجرُّ قدميه وكيسه. وسمعته وقد اختفى بصفة نهائية يقول:

- ربما كنت أباك.. لا أدري..

الزواج الثاني

أنهكه التعب. وشعر بحرارة فائقة بين جلده والجلابية الصوفية. تبللت بعض ثيابه من الداخل، خصوصاً القميص الذي كان يبرد ويسخن فوق جلده. قدماه تعبتا أيضاً. وقرر أن يجلس. أن يعطي ظهره لجذع شجرة. أخرج علبة السجائر وأشعل واحدة. تنفس بعمق وسرح في تلك الأرض الشاسعة أمامه، أشجار متفرقة وأكواخ ملتصقة ببعضها أو متفرقة، مبنية بشكل غير منتظم. أمامه بعض الحمير والبغال، وفي البعيد شياه وأبقار. كلها مطرِقة. بعضها رابض في أماكن ظليلة. نصف يوم وهو يبحث، فتّش في ثلاثة دواوير. لكنه حتماً سيعثر عليها، إلا إذا أخفاها بعض العزّاب الصعاليك في بئر أو في نادر تبن. ولكنه هذه المرة إذا لم يجدها فسوف يقتني مذراة، وسيغرسها في كل كومة تبن أو حطب حتى لو كان في ذلك موتها.

قال العبدي:

- إنها لم تفعل ذلك إلا لأنها تحبك. ولا تريدك إلا لنفسها. النساء متشابهات، ثم إن هناك عامل الغيرة، المرأة لا تحب ضرتها.

- ولكني سوف أتزوج ثالثة ورابعة. إن فحلاً مثلي لا يمكنه أن يعيش مع امرأة واحدة.

- هل تعتقد أنك الرجل الفحل الوحيد في أولاد خياط؟

- لا يهمني إذا أصابت باقي الرجال عنة. أما أنا فلا أحد يستطيع أن يمنعني من الزواج مرة أخرى.

وقالت أمها:

- حرام أن تفعل تلك الحمقاء ذلك. لقد كان لزوجي الأول أربع نساء وهو في الخامسة والسبعين. وكنا راضيات بذلك مثلما نقول عن الرجل نقول عن المرأة. أنا نفسي تزوجت خمس مرّات بعد وفاة زوجي الأول. إذا ضبطتها فعلِّمها كيف تحترم زوجها. أنا لا أرضى بأن تكون لي بنت من ذلك النوع - لقد مضى عهد الرجال.

قال القرقوري:

- سوف أتركها معلقة من دون أكل ولا شرب سبعة أيام وسبع ليالٍ.

- افعل بها ما تشاء. رغم أنها ابنتي، وهي فوق ذلك، زوجتك.

جذب نفساً آخر من السيجارة، استلذ الاسترخاء على جذع الشجرة، وشعر بجفنيه يثقلهما النوم، لكنه حاول أن يقاوم ذلك. لا بدَّ أن يستمر في البحث عنها. سوف تعرف كيف أنه ليس عنيناً. ورغم أنها تعرف ذلك فقد تجاهلته هذه المرة. أمّ ثلاثة أطفال تفرُّ من زوجها لأنه لم يرتكب خطأ سوى أنه تزوج مرة ثانية فتاة صغيرة تكبر ابنته البكر بعامين!

الحرارة شديدة، والحيوانات تحت ناظريه تكاد تثقلها أشعة الشمس. بعضها يرفع رأسه في الفضاء، ويطرد الحشرات عن أذنيه وعينيه. وبعضها الآخر يتزاحم حول بقعة نبتت فيها حشائش قصيرة متفرقة وقليلة. آخر دوّار يبعد من المكان الآن بحوالي كيلومترين. هناك سوف ينتهي التفتيش والبحث عنها، وإذا لم يعثر عليها فلن

يبأس، لأنها تعرف مكاناً تذهب إليه، لها ابنة خالة في الدار البيضاء متزوجة من جندي. نفض جلابيته بين ساقيه الممددتين على الأرض، ثم وقف تحت الشجرة واستلذ الظل. لكنه أصر على أن يسير هذين الكيلومترين الباقيين.

قالت أمها:

- أنت تسلخ وأنا أعلق، لقد سوّدت وجهي في أولاد خياط. إنها تستحق الرجم حتى القتل أمام الناس.

وقالت إحدى الجارات:

- كم كنا صبورات في زماننا، هذا زمان التلفزيون، لقد أصبحت النساء يتشبهن بالممثلات.

ولكزها زوجها:

- متى رأيت التلفزيون في حياتك يا شارفة؟ هيا سوقي حمارك واسكتي.

سكتت المرأة وهوت على الحمار بالعصا، كاد الخرج أن يسقط عن ظهر الحمار فسوّته فوقه.

وقال القرقوري:

- إن ما فعلته ابنتك لم تفعله امرأة قط في أولاد خياط.

- أعرف، هذا كله فعله قمح القرض الفلاحي. لو لم تكن تجد ما تأكل لما فعلت ذلك.

- عن أي شيء تتحدثين؟ إن مكتب القرض الفلاحي يأخذ منا أكثر مما يعطينا. فرار ابنتك سببه أنني دللتها كثيراً ووفرت لها الكثير، أشتغلُ من دون استراحة في حرث الأرض وزراعتها.

- اعذرني يا ولدي. هي زوجتك افعل بها ما تشاء.

كانت الخيام تبدو له الآن قريبة ومتفرقة، فوق منبسط، تحيط بعضها سياجات من أشجار أو نباتات شوكية. رأى من بعيد مجموعة

من الرجال وقد تجمعوا تحت ظل شجرة. تصور أنهم يلعبون الورق أو الضامة، أو يغترفون من قصعة صيكوك بارد في هذا الحر الشديد. اتجه نحوهم يجر قدميه في تعب. عندهم سيكون آخر خبر عنها. إذا عثر عليها فسوف تؤدّي ثمن كل المسافة التي مشاها على قدميه بين الدواوير. هوت قدمه اليسرى في حفرة صغيرة، سقط على الأرض، ثم وقف وأخذ ينفض التراب عن كتفيه. مشى نحو الرجال. لاحظوا أنه غريب. فتوجه أحدهم نحوه. دار بينهما حديث لم يتمكن الآخرون من سماعه. كانت أيديهما ترتفعان وفماهما ينفتحان وينغلقان ورأساهما يتحركان. سار القرقوري في اتجاه معيّن، وعاد الرجل إلى الجماعة وهو يبتسم:

- إنه يفتش عن زوجته. لقد قال إنه جاء على قدميه من أولاد خياط.

- مسافة بعيدة!

- وماذا قلت له؟

- لقد أخبرته عن وجود امرأة من أولاد خياط وصلت أمس، وأشرت عليه بأن يقصد بنت الداودية. إنها تنزل عندها.

- تلك الشيخة العجوز، تريد أن تتاجر بامرأة بعدما لم تستطع أن تفعل ذلك بنساء الدوار.

- إن تلك المرأة أيضاً كهلة ولا تصلح لشيء.

- على كل حال هي أفضل من حمارة.

- ومن أدراك؟

(أنت تسلخ وأنا أعلق) أما القرقوري فقال:

- سأسلخ وأعلق بنفسي، لست في حاجة إلى مساعدة أحد، امرأة تهرب من بيتها تستحق أكثر من ذلك.

وقال أحد جيرانه:

- ما كان عليها أن تفعل ذلك. كل الرجال يتزوجون أكثر من امرأة واحدة إلا من لم يستطع ذلك

- لقد شبعت تلك الكلبة، جوّع كلبك يتبعك.

أصبح القرقوري الآن وسط ساحة كبيرة ومليئة بالحفر، أطلت عليه النساء من تحت مناديل رؤوسهن التي تتدلى فوق الأعين. رجل غريب في الدوار، قالت إحداهن:

- يمكن أن يكون لصاً.

وقالت أخرى:

- من أدراك؟ ويمكن أن يكون واحداً من الدوار هاجر منذ صباه وهو يعود الآن ليفتش عن أهله.

شعر القرقوري بحركة غير عادية من حوله، تصور النساء والأطفال يتحدثون عنه وعنها. وقف في مكانه ينظر من حوله. تظاهرت النساء بعدم الاهتمام. ثم توجه نحو امرأة فهربت منه. لكن امرأة أخرى اقتربت منه وهي تقول لصديقها:

- لماذا تهربين منه؟ هل به جرب؟ يبدو أنه رجل فحل.

اقتربت قليلاً فتشجّع القرقوري. سألها عن بيت الداودية. فهمت المرأة إذ ذاك كل شيء.

- هل تعرفها؟

- لا.

- ولماذا تبحث عنها؟ ألا تعرف أنها امرأة ذات سمعة سيئة في الدوار؟

- لا أعرف ذلك، ولكني أبحث عن زوجتي. لقد تركت لي ثلاثة أطفال وهربت.

- عوك عوك. وفضّلت أن تعيش فاسدة مثل الداودية.

أرته البيت. توجه نحوه، وعادت هي تحكي للنساء. استنكرن

جميعاً. امرأة ذات أولاد تفرُّ من بيت زوجها، لا شكّ أن ساحراً كبيراً هو الذي أثّر عليها.

وقالت امرأة:

- هذا شيء لا تفعله سوى حمقاء أو مسحورة.

- أو امرأة ضربها جن أو عفريت.

- السحر يفعل أكثر من ذلك.

- عيب يا أختي. لو تلبّس روحي شمهورش لما استطعت أن أفارق أولادي وأترك زوجي.

- قولي اللّه يلطف.

- اللّه يلطف ويستر. ومع ذلك، هذا أمر لا تفعله امرأة مهما ارتكب زوجها من حماقات.

وقالت أخرى:

- لا شكّ أن الداودية هي التي سحرتها وأرادت أن تبيعها لرجل آخر. هذه الأيام لم يعد عندها شغل سوى ملء المجمر بالبخور وتعليق التعاويذ على بيتها. كانت تريد أن تسقط واحدة منا في فخها.

- إنها امرأة شريرة عوض أن تتوب إلى ربها فقد تمادت في رذيلتها.

وقالت امرأة شابة:

- لو أننا أقنعنا الرجال بصبِّ النفط على بيتها وحرقه!

الأطفال يسمعون الحديث، يعرفون أن الداودية امرأة سيئة السمعة لكنهم لا يقدِّرون مدى سوى سمعتها، إنها امرأة عجوز. كانت شيخة تحترف الغناء والرقص وأشياء أخرى. لكنها الآن لا يعرف أحد ممَّ تعيش. بعض الرجال فقط يعرفون. غير أن الأطفال لا يضايقهم الأمر بقدر ما يسليهم. حتى النساء في قرارة أنفسهن

يرغبن في وجود امرأة مثل تلك في الدوار، حتى تصبح هي الاهتمام اليومي الوحيد.

الجميع واقفون ينتظرون ما سوف يحصل. لا بدَّ أن نهاية الداودية ستكون على يد هذا الرجل الغريب. سحرها سوف يكون وبالاً عليها، والساحر أحياناً يعود عليه سحره بالشر، أرادت أن تخرب عائلات، لكن السحر سوف يخرب حياتها.

(أنت تسلخ وأنا أعلق). غير أن القرقوري كان يمسكها من شعرها الآن. وصاحت النساء عندما رأين ذلك. ثم أغلقن أفواههن بأكفهن وكتمن أصواتهن، بعض الأطفال أفزعهم المنظر والبعض الآخر لم يهتم بشيء. أخذ القرقوري يجذب شعر زوجته بقوة وعنف. يضرب على الوجه وعند القفا ويركلها بقدميه. تصيبها ضربات وتخطئها أخرى. تتألم. تصرخ أحياناً لكنها تكتم صرختها. أخذ يجرها وسط الساحة، ثم ظهرت، خلف طابور النساء، الداودية منعزلة في زاوية معيّنة قرب أحد الأكواخ. لكنها خافت على نفسها فعادت بسرعة إلى بيتها. الأفواه تتحدث والقرقوري تعب الآن من الضرب لكنه لم يتعب من شدِّ رأسها. يتشبث بالشعر حتى لا تهرب منه. لم يكن يسمع حديثها ولكن أذنيه التقطتا:

- تتزوج أخرى؟ وأنا لأي شيء أصلح؟

هوى عليها من جديد حتى فار الدم من فمها فسكتت. فكّرت أن مصيرها سيكون أكثر قسوة من هذا، ففضلت أن تستسلم دون أن تقاوم، وفكرت أيضاً في المسافة التي ستمشيها على قدميها حتى أولاد خياط. لم يكتفِ القرقوري بذلك بل نزع نعليها وهي لا تقاوم:

- ستمشين على الشوك حافية حتى أولاد خياط. سترين، حتى لو تدخّل القائد لن ينقذك مني.

وقالت امرأة عجوز:

- يا للبئيسة! كل ذلك فعله سحر الداودية، أرادت أن تفرِّق بين الزوج وزوجته. وارتفع صوت طفل:

- اضرب، إنها تستحق أكثر من ذلك.

وقالت أمه:

- اسكت يا ابن الحرام، أنت لا تفهم في هذه الأمور.

دقات الطبول

فلما رأيت ذلك قلت هذا غير ممكن. ولماذا دقات الطبول بالضبط؟ ولماذا أسمعها أيضاً وحدها ولا شيء غيرها؟ لا شكّ أن في الأمر شيئاً. وما عساه يكون هذا الشيء؟ الأفق المظلم متّسع أمامي. غير أن هناك بعض الضوء يمتدُّ كغبش الصبح أحياناً. بين حدّ السماء وحدّ البحر. لكن كل شيء أسود في الغالب. حالِك. ما يجعل لدقات الطبول القادمة من كل مكان معنى خاصاً وعميقاً. وتمتدُّ فوق الرمل الذي يشكل كثباناً وحفائر لا أراها بسهولة. وحاولت أن أدخن لكن لم تكن معي سجائر. كانت قد نفدت وسمعته يقول:

- إن أختك هي التي أرادت ذلك، أنا لا أحب النساء كثيراً. لقد راودتني عن نفسي.

- لا يهمني ذلك. كان عليكما أن تفعلا ذلك في الغابة. أو في أي قرينة كحلاء.

الطبول تدق في رأسي كثيراً. ولم تكن الكلمات تصدر عني بعفوية، بل لم أكن أعرف ما أقول. لأن كثيراً ما كان يجب أن يُقال وما يمكنه أن يُقال عن هذا الأفق المظلم وعن حدّ السماء والماء وعن هذه الكثبان والحفائر، وعن افتقاد السجائر. لكني لم أعرف أي يد تلك التي هوت على أختي بالسكين. هل كانت يدي حقاً؟ أم

أن هناك قوة أخرى أقوى في استطاعتها أن تفعل بنا ما تشاء؟ لقد كفّت الآن دقات الطبول. عوّضتها أصوات بعض الحشرات وتلاطم الموج. ثم سمكة كبيرة قتلت أخرى صغيرة بسكين؟

غير أن البحر عميق وكل شيء ممكن في أي وقت وفي أي مكان.

- متى كنت تغار على شرف أختك؟ لو كنت رجلاً لفتشت عن عمل. ألست أنا التي تعولك؟

بصقت على وجهها، دفعتها إلى الخلف، كانت تبدو عادية بلا انفعال.

- أخرجي ذلك البغل من هناك.

- سوف أخرجك أنت من البيت. اذهب لتنام في الشارع.

- متى كان أبوه يدفع ثمن كرائه يا ساقطة؟

- أخرج وإلا ضربتك برابوز.

وقال الوالد قبل أن يموت:

- اهتم بأختك كثيراً. إنها أصغر منك، والنساء لا يعرفن شيئاً في الحياة. وقالت أمي قبل أن تلحق به:

- لا تزوّج أختك إلا برجل حقيقي.

لكنها رفضت أن تتزوج رغم إلحاح الرجل الذي نفخ في بطنها. ثم تدق الطبول لتعلن أن في إمكان الإنسان أن يكون عنيداً ومتشبثاً حتى بالشيء الذي يمكنه أن يكون وبالاً عليه. وتدق الطبول مرة أخرى لتجد امرأة تعول رجلاً.

قلت لها:

- إن الجيران يتندّرون بنا. ذات يوم سوف يقدمون شكاية إلى مركز الشرطة.

- فليخرجوا من عين الإبرة. عندي علاقات كثيرة مع مفتشي الشرطة.

- أنا لا أريد أن تكون لي أخت تحترف البغاء.

- هل تستطيع أن تعيلني يا فنيان؟

الرمل تحت جسدي بارد. تكاد الأصوات خلفي تختفي نهائياً. كلهم ناموا. لكنني لا يمكن أن أنام. هذا أول الليل ولا أدري كيف ستكون نهايته؟ رأيت صورتها وهي تصرخ مضرجة بدمائها على الأرض. والرجل يضرب الباب بقدمه في عنف وهو يركض. صارت الأرض ملطخة بالدماء. اسودّ الدم فجأة، تغيّر لونه بسرعة. وسقطت هي على الأرض تصرخ. لا أعتقد أنها ماتت. كانت مثل شاة ذبيحة تتمرغ وتقاوم الموت بقائمتيها الخلفيتين، فمها كان مفتوحاً ينزُّ دماً. عندما درت على نفسي كانت الحجرة كلها مغطاة بالدماء. الجدران كلها حمراء. ثم اسودّ لونها واختفت كل الصور المعلقة عليها. أصبح كل شيء أحمر فأسود. ودقت الطبول من حولي كما لو كان الأمر يتعلق بحفلٍ ديني رهيب. هل هناك علاقة بين دقات الطبول والموت؟ في حالة خاصة لم أعد أشعر بما أفعل. لم أعد أسمع ما يقول أو ما تقول. لم أعد أسمع شيئاً سوى دقات الطبول الآتية من بعيد. ولكي تكتمل الصورة كان رجال سود بجلابيبهم يتزاحمون حولي ويصغرون شيئاً فشيئاً حتى يختفوا نهائياً ولا يبقى من المنظر سوى ذلك الصوت. ورأيت الرجل يفرُّ مسرعاً باتجاه الباب وأنا أشهر السكين في وجهيهما.

سمعتهم يقولون:

- هذا قليل النفس.

- ليتني كنت مثله. إنه يعيش كملك. له علبتا سجائر في اليوم ومصروف الجيب.

- إنها حياة الكلاب.

- دعك من ذلك الكلام. لو كان يشتغل لما تمتعت بأخته.

ثم أتظاهر بأني لا أسمع شيئاً. بما أن الأمر حقيقة فلماذا أنفعل له في اللحظة؟ لكن تلك اللحظة تكون أحياناً أقوى من الإنسان. لحظة الانفعال، تلك اللحظة الذي أخذت فيها يدي السكين وهوت عليها في مكان ما من جسدها. أعتقد أنه البطن. أعتقد أنه الكتف. أعتقد أنه العنق، عندما تدق الطبول من حولك، فإن أصواتها تصم أذنيك. تجعلكِ غير قادر على امتلاك أمر نفسك. وها هي الآن تدق قرب البحر. منبعثة من هدير أمواجه، ومن هذا الظلام اللانهائي. جسدي يرتعش من البرد. بعض خيال الصخور يظهر لي. وقفت ومشيت نحوها. لا أثر لبشر على الإطلاق هنا. لكن بعض المشردين أو الذين حصلوا على نساء يتجمعون في مغاور تلك الصخور، يشربون أو ينامون فيها. بعض الأحيان تقوم الشرطة بحملة تنظيف لكنها غالباً لا تعود بصيد، يكفي أن تدس في يد الشرطي عشر دراهم وينتهي الأمر. أحياناً يأخذون أحد المشردين لتبرير حملة التنظيف. وتحسّستُ جيبي. كانت معي نقود كافية للدفع. وعندما تدق طبولهم أدسها لهم وأستريح. افعل ما شئت إذا كنت ذا مال. الريح تعصف الآن والبرد يشتدُّ. تلفعت بالمعطف وأحكمت شده بيدي حول العنق. بلغت الصخور. الجو كان معتدلاً. هناك يمكن للمرء أن ينام في إحدى الفجوات بين صخرتين حتى الفجر. حاولت أن أحترس كثيراً لكي لا أسقط في هوة أو يتكسر أحد أعضائي. سمعت أصوات رجال وأصوات نساء، ابتعدت منهم قليلاً، كانوا يهمسون في خوف عندما شعروا أن هناك آدمياً يدق طبولاً حولهم. فضّلوا أن يُسكِتوا طبولهم للحظة حتى لا تختلط دقات طبولهم مع دقات طبلي. حتى يستطيعوا أن يميزوا أي نوع من النغم أعزف. هل

هو شبيه بعزفهم أم هو غريب عنهم. اخترت مكاناً بين صخرتين. كانت الريح تعصف فوق، غير أنها لم تكن لتصل إلى جسدي. البرد أيضاً خف. أشباح الرجال والنساء من بعيد تظهر لي. وأرى نار السجائر من بعيد تلمع كعيون القطط. لم أكن أستطيع أن أخمن عددهم. ثم أخذت النار تقترب مني. لم أشعر بخوف بل باطمئنان، وقال الرجل طويل القامة:

- هل أنت وحدك. تعال قاسمنا الحلال والحرام؟

- أي نوع من الحلال؟ وأي نوع من الحرام؟

- تعال شوف بعينيك. إن عزفك أشبه بعزفنا. وضم طبلك لطبولنا حتى نطبل جميعاً.

وقفت وتبعته بتؤدة واحتراس وقال الرجل:

- هناك نتوءات كثيرة في هذا المكان. إياك أن تتعثر.

انضممت إلى المجموعة. كانوا ثلاثة رجال وثلاث نساء متحلقين حول بساط من البلاستيك عليه أكل. وخلف ظهر أحدهم جراب. أخرج منه زجاجة خمر. وأخذ يصب لنا في كأس واحدة تدور على الجميع. بعد لحظات تعرفت إلى وجوههم جميعاً عندما كانت تشتعل عيدان الثقاب. كان وجه إحدى النساء يشبه وجه أختي، حتى صوتها وضحكتها كانا مشابهين. شربت بسرعة لكي أمحو الصورة. أحد الرجال كان يشبه أيضاً الرجل الذي كان في بيتنا.

شرعت بمغص حقيقي وحاد. سكتُّ ولم أنبس بكلمة. أعطاني أحدهم سيجارة وعندما أشعل لي قرَّب عود الثقاب من وجهي لكي يتعرّف إلي. وقالت امرأة:

- لماذا أنت ساكت، هل عندك مشاكل؟

لم أجب.

- دق على طبلك فنحن في مجاهل إفريقيا.

لم أجب.

- إذا لم ترد أن تدق على طبلك فمزّق جلده بسكين.

ثم أخرجت سكيني وهويت على أختي في مكان ما من جسدها. ربما في البطن، ربما في الكتف. ربما في العنق. وربما أخطأتها فأصبت جلد الطبل، لأنه لم يعد يسمع له صوت الآن.

اللقاء الأخير

في زاوية من مقهى، بدأ عالمها يتحدد. كان كثير من الضباب الرمادي يطفو على جفنيها، بينما هو كان يسبح في ظلال سوداء أقرب إلى لون الليل. يبدو أنهما تعبا من لوك الكلمات، أو أنه يخيّل إلى كليهما أنها لم تعد تؤدي مدلولاتها كما يجب، وأنها أصبحت باردة كجبال الصقيع. في عينيها كان الصمت يتمدد بلا مبالاة، وكانت شفتاها خابيتي البريق منطفئتين. الصفرة تعلوهما وبعض خطوط وألياف ترتسم عليهما، «أنت تبدو لي عادياً جداً الآن. . ما لم أكن أتوقعه. لقد كنت أخال أنك ستبقى دائماً شيئاً غير عادي، شيئاً له قيمته في حياتي، ولكن الآن. . ». وانشغلت برؤية زبون يقتحم عليهما خلوتهما بالمقهى. . كان طويلاً ووسيماً. «إن مظهر الرجال خادع». وانحصرت نظراتها في العصير أمامها. وتناولت الكأس وشربت بلذة. شعرت أن فقاعات من الهواء تتصاعد إلى خياشيمها، أحدثت لها قليلاً من الانزعاج. وارتبكت لا شعورياً إذ بدرت منها حركة غير عادية تخلُّ بالإتيكيت، وكان صديقها لا يُبالي بوجودها أمامه، فقد كان يفكر ببطء، وكان يَحسو قهوته ببطء كذلك. كان قد تجرَّد من ثيابه ولبث عارياً، تخيّلته هكذا: عارياً لا تستره قطعة ثوب. «لماذا نحن أبداً مزيفون؟ لماذا نحن لا نلتقي إلا من الخارج؟ قبل أن نلتقي. . قبل أن نتعارف، كنت شيئاً رائعاً،

شخصاً أعتقد أن جميع الفتيات كنّ يتلهفن إليه، أما الآن فأنت لا شيء على الإطلاق. في عينيك تراب، وشفتاك قطعتان من المطاط». وأرخت يدها اليسرى ذات الأصابع النحيفة على الطاولة، وظلّت تقلِّب الكلمات بصمت في رأسها، وربما بلا إرادة منه وضع أحد كفّيه على كفّيها، وتركه كذلك حتى اضطرت لسحبهما من تحت كفّه. لقد شعرت أن يده باردة كعينيه، كشفتيه، كرباطة عنقه، كقهوته.. «أنت تغيّرت كثيراً أيتها المرأة الملاك.. من غير شكّ أن أحلام اليقظة لا تدوم» واحتسى من قهوته جرعة فيها من المرارة والأسى ما استطاعت هي أن تستشعره، لقد شعرت بغريزتها النسوية أنه يتألم، وقالت من خلال كثير من الضيق:

- أنت حزين؟؟
- لا، بل أنتِ.
- أنا لا، أنت، يبدو ذلك في عينيك..
- ولماذا أحزن؟ أليس العالم كله لي؟

وعاودت هي وضع كفيها على الطاولة، فأعاد الحركة السابقة.. وضع كفه فوق كفيها، ولم تسحب هذه المرة كفّيها، بل لبثت جامدة كتمثال مرمري في متحف.. وشعرت هذه المرة بالدفء لا بالبرودة، «لكن للأسف فات الأوان. إن دفء اللحظة لا يعوِّض برودة اللحظات، إن كان الحنان يشع من عينيك الآن. فبعدها سيشع منهما مكر وخداع». وتعلقت عيناها بربطة عنقه الزرقاء، إنها تذكرها بحدث ما.. وعبثاً حاولت أن تتذكر لكن رأسها غرق في بلبلة وتشوش وظلّت تستجدي الربطة ولكنها لم تجب؛ كانت جامدة على صدره، مدلاة من ياقة قميصه الوردي، «إنه يختار ملابسه بذوق، إنه شخص لا يماثله أحد في ظاهره، لكنه من الداخل ليس خبيثاً بل يبعث الملل..». وقال لها بمحبة ظاهرة:

- هل تذكرين عندما طاردتك لأول مرة؟

- لماذا هذا السؤال؟ لقد كررته مراراً.

- ذلك أنه يعجبني أن أتذكر أول لقاء لنا.

- إنك إنسان..

وصمتت، شعرت أنها لا تجد الشجاعة الكافية لتنتقده، ولتسلط شيئاً من الضوء على شخصيته، ولكنه لم يمهلها بل أعلن لها:

- إنسان ماذا؟

- فقدتُّ العبارة..

- أنا أتمنى أن يكون لقاؤنا الأخير هذا متسماً بالصراحة.

- أنت تعرف أني صريحة.

ونظر في ساعته. كان ميناؤها يبدو له غريب الشكل، غير مألوفة لديه، وأراد أن يقول لها ذلك، لكنه خشي أن تقول له كلمتها المعهودة «أنت تهتم بالأشياء التافهة»، إنه لم يشعر يوماً مع نفسه أنه تافه، فقط يعتقد أنه دقيق الملاحظة، غير أنه طالما كان يغضبها بملاحظاته هذه.

كانت قد سحبت كفّيها من تحت كفّه. وبدا لها أنهما قضيا أكبر وقت ممكن في المقهى، وأنهما استنفدا الكلمات التي أعدّاها لهذا اللقاء الأخير «يجب أن نفترق وكفى». كانت المبادرة منها، ذلك أنها اعتبرت حبهما عبثاً. وحاول أن يقنعها ولكنه فشل معها بشتى المحاولات، وفي الأخير كانا قد اتفقا على هذا اللقاء الذي سيكون آخر لقاء من غير شكّ. وحرَّكت الكرسي فتبيَّن له أنها ترغب في الانصراف ولذلك استعد لأن يرافقها في الطريق.

اجتازا الشارع الرئيسي. . وفي غمرة صمتهما كانت تدور أفكار كثيرة وغير منتظمة في رأسيهما، رأس الأنثى كان ذا شعر طويل

أسود، ورأس الرجل كان ذا شعر قصير جعد. وقال لها وهو يسوي ربطة عنقه:

- أنت التي شئت لنا هذا المصير إذن.

- لست أنا.

- ومن إذن؟ أنا؟

- لا أنت ولا أنا.

- إن الصدفة شاءت ذلك...

- هذا كلام لا معنى له!

كان شعرها ينزلق في صفحة ريح المساء. ولأنهما كانا ملتصقين وهما يمشيان كادت بعض خصلاتها أن تلامس وجهه: فسَرَت في جسده قشعريرة أليمة «نحن تحابينا إذن بإخلاص فلماذا نفترق؟» وأراد أن يقول لها هذه الجملة التي ترددت في زوايا رأسه، لكنه تنبه إلى أنها لا تزال تعاند وتعاند. لقد أصرت رغم أن إصرارها كان بلا معنى. «كنتِ تقولين إن حُبنا شيء غير عادي. وأنه شيء فوق الطبيعة والبشر، هذه أحلام رومانسية كانت تراود فتاة مراهقة مثلك سريعة التقلب، أنت تافهة وجميلة، أنت لا تتفهمين الأمور». وبينما كانت تدور في رأسه هذه الأفكار كانت تدور في رأسها أفكار مشابهة، ولم يكونا يستطيعان أن يعلنا أفكاراً قاسية مثل هذه لبعضهما. فرغم أنهما اعتزما أن يكون هذا اللقاء هو الأخير لم يستطيعا أن يحطّما الحاجز الذي ظلَّ قائماً بينهما طوال فترة علاقتهما، وبدا لها أن الوقت حان لتقول له كلمتها بصراحة، كانت قد شعرت أنها أوشكت على أن تودّعه وشعر هو كذلك بهذا، لذلك فقد خففا من مشيتهما وفي النهاية توقف. أمسكت يده وظلّت تحدق في عينيه الباردتين «إن هذه النقائص كلها ليست ذات أهمية بالنسبة إلي.. أن تكون تافهاً فلا معنى لهذا.. ذلك أننا جميعاً لا نخلو من

التفاهات.. لكن الأخطر والأدهى هو..» وأرادت أن تقول له كلمتها الخطيرة والصريحة في آنٍ واحد، وقال لها:

- هل تعتقدين أن هذا سيكون آخر لقاء لنا بالفعل؟

- أعتقد ذلك اعتقاداً جازماً.

- أخشى أن تندمي..

- لا، أبداً. إن الشيء الذي لم أحدّثك فيه منذ لقائنا الأول هو زوجتك.. إنك ما دمت متزوجاً وأباً فلن أعتقد أني سأندم. كُن على يقين من ذلك.

ولبثا برهة صامتين. وفكر هو حقاً.. «إنها لم تستدرجني مرة للحديث عن زوجتي. إن عواطف المرأة غامضة. لو أنها فقط استدرجتني لعالجنا الأمر بهدوء. أما والموقف في نهايته فما العمل؟» وقال لها بتوسل:

- حاولي أن نلتقي مرة أخرى لنبتَّ في الأمر.

- لا أستطيع. لقد قررت وكفى.

حاول أن يقنعها ولكن محاولاته لم تنفع. وودّعته وفي نفسها قرار ما. أما هو فقد كان لم يقرر بعد. ووجد نفسه إزاء مشكل يتعين عليه حله، خصوصاً أنه كان يحبها، ويعتقد أنها تبادله الحب نفسه.

المتعاقد

ظلَّ الكلب يتمرغ عند الباب، ثم توقف عن التمرغ، وأخذ يلعق قائمتيه وهو ينظر إلى الرجل العجوز بين الحين والآخر. البيت يتكون من غرفتين اكتراهما قدور منذ أكثر من عشرين سنة. ثمن كرائهما إذن رمزي بالقياس إلى ذلك العهد. أشار قدور للكلب أن يلتحق به قُرب الفراش. لكن الكلب لم يهتم به. أخذ ينفض أذنيه وهو منبطح على الأرض. أحياناً لا يلبي رغبة سيده، لقد تعود أن يفعل ما يشاء، لأنه لا يُقمع كأي كلب آخر. قال قدور للكلب:

- تعال. عندي لك شيء.

رفع الكلب رأسه. لكنه رفض ذلك الشيء. إنه يصر على عدم تلبية تلك الرغبة البسيطة لدى العجوز. غضب قدور وتظاهر باللامبالاة. مدَّ يده إلى الطاولة الصغيرة قرب الفراش. تناول سيجارة وأشعلها. كانت فوق المنضدة الصغيرة منفضة مليئة بأعقاب السجائر والرماد وأعواد الثقاب. المرحومة كانت تنبّهه دائماً إلى أن ترك المنفضة قرب السرير أثناء النوم شيء مضر. وكانت تحرص دائماً على إزالتها من قرب السرير. أحياناً تستيقظ من نومها في آخر الليل لتفرغ المنفضة، بعد أن تكون قد نامت قبله. وبعد أن تكون قد حذرته كي يفرغ المنفضة في القمامة عندما ينتهي من التدخين.

يطمئنها:

- لا تخافي سوف أفرغها.

- أنت تقول ذلك دائماً ولا تفعل.

- سوف أفعل هذه المرة.

لكنه عادة ما ينام وينسى إفراغها. أخذ يدخن ويرشف من كأس القهوة التي هيَّأها بنفسه. لم يكن لقهوته طعم القهوة التي كانت تهيؤها المرحومة. لكنه تعوّد على طعم قهوته. كل شيء يتعود عليه حتى الوحدة. وقف الكلب، وأخذ يتمشى ويدور في مكانه يحاول الإمساك بشيء في ذيله كما لو كان قراداً. قال قدور:

- تعال كي أزيل لك ذلك القراد اللعين.

غير أن الكلب استمر في الدوران حول نفسه. ثم اختفى في الغرفة الثانية. سمع العجوز قضقضة أسنانه. وقال بصوت مرتفع:

- إياك أن تفعلها في الغرفة المجاورة أو في المطبخ. أنت تعرف أنه لم تعد لدي القوة الكافية لتنظيف الغرفتين. لقد دللتك المرحومة كثيراً.

المرحومة ماتت عن أكثر من خمس وأربعين سنة قبل ستة أشهر. ومع ذلك كانت كثيرة الحركة، البيت نظيف دائماً. كل شيء مرتب بعناية فائقة. يُقال إن كل نساء تاحناوت من هذا النوع. لهذا السبب تزوجها. أو لهذا السبب زوّجتها له والدته. واختارها له أبوه وأعمامه. كلهم ماتوا الآن. وكانت فراستهم لا تخطئ أبداً في أي شيء. كانوا يعتقدون دائماً أنه سيظل في المنصب نفسه في الشركة الوطنية للخطوط الحديدية بعد حصوله على الشهادة الابتدائية. لم تخطئ فراستهم أبداً. لقد ظل كذلك ولم يترقَّ أبداً حتى تعب وأحالوه على التقاعد. لكنه مع ذلك يستطيع أن يعيش الآن رغم كل شيء. مثل أي إنسان يستطيع أن يعيش رغم كل شيء.

حاول أن يغادر الفراش الذي كان ممدداً فوقه، لكي يُدرِك

الكلب في الغرفة الثانية وفي المطبخ. أخذ نفساً عميقاً من سيجارته. ظلَّ ينظر إلى بعض الصور المعلقة على الجدار أمامه. قرر أخيراً أن ينهض ليلحق بالكلب، وضع قدميه في فردتي البُلغة الصفراء العتيقة، وحاول ألا يحدث أي ضجيج لكي لا يفزع الكلب لأنه في العمق كان يحبه. التصق بضلفة الباب. أخذ يختال مثل لص، مشى كقط متربّص بهدوء، وبخطوات مطاطية. مدَّ عنقه، عندما بلغ الغرفة الثانية، لكي يضبط الكلب في الحالة الخاصة التي يفعل فيها ذلك. أسقط في يده، لأن الكلب كان ممدداً فوق بساط الموكيت الرخيص وقد أغمض عينيه نهائياً. تحدث إليه قدور. لكن الكلب فتح عينيه بتثاقل، ثم أعاد إغلاقهما في اطمئنان. اقترب منه لكنه لم يتحرك أيضاً، بل لم يفتح عينيه هذه المرة. أصدر هديراً خفيفاً وهو مغمض العينين. ضغط قدور على مؤخرته بقدمه. غير أنه لم يتبرّم واستمر في إغفاءته. نوع من الغضب؟ ممكن.

قال قدور:

- هل أنت غاضب مني؟

لم يسمع الكلب السؤال. ربما سمعه ولا يريد الجواب. غضب من أي شيء؟ وأعاد قدور:

- لقد تحدثت إليك في شيء يخصنا. يجب ألا تغضب. فقط أنا أوجّه لك انتقاداً. إذا كنت تستطيع أن توجّه لي انتقاداً فافعل دون أن تتردد. أنت تعرف أنني أتقبل كل شيء منك كما كنت أفعل مع المرحومة. اسمع هل تريد صحناً من فتات الخبز في الماء؟ إنك لم تأكل منذ الأمس. لقد رفضت البارحة أكل بقية عشائي.

تحرك الكلب حركة خفيفة، حركة متعب استلذ بداية النوم. تجاوزه قدور بعد أن يئس مما كان يرغب فيه منه. مشى نحو المطبخ. رأى الأطباق موضوعة ومتراكمة فوق بعضها تحت

الصنبور. فكر أن يغسلها. فتح الصنبور وترك الماء ينذلق فوق الصحون. حمل بيده اليسرى ثلاثة فناجين ووضعها في الحوض الصغير تحت الصنبور. في حين كانت أصابع اليمنى لا تزال ممسكة ببقية السيجارة. اجتذب نفساً أخيراً وألقى بالعقب تحت قدمه. نسي أن يضعه في المنفضة. انحنى قليلاً على محتويات الحوض الصغير، وانشغل بغسلها. عندما انتهى جفّف يديه بالفوطة القذرة المعلقة عن يمينه. كانت المرحومة تغيّر الفوطة كل يومين تقريباً. وكانت لا تترك الصحون تتراكم أبداً في الحوض.

- كل شيء في حينه، يجب عدم تأجيل كل ما يمكن القيام به في حينه.

- لكنك تبالغين أحياناً.

- إن قيمة أي امرأة تُقاس بنظافة بيتها.

- عندكم أنتم فقط في تاحناوت.

- في تاحناوت أو في غيرها. البيت هو المرأة.

هذا الفضاء المريح الذي كان يعيش فيه. افتقده الآن. لكن بقدر ما يكون في الإمكان امتلاك أي شيء، بقدر ما تكون هناك إمكانية فقده. يؤمن بهذا في العمق. ما يخفف عليه كل الآلام المحتملة.

شعر أن الفوطة مبللة وباردة، نزعها من المسمار المعلقة عليه. ووضعها عند حافة النافذة عرضة لأشعة الشمس. اجتاز باب المطبخ إلى الغرفة المجاورة. كان الكلب قد نام الآن. لم يحاول أن يدفعه بقدمه هذه المرة. أخذ ينظر إليه ملياً. كم من مرة منعته المرحومة من أن يفعل ذلك. أن ينام هنا، في هذا المكان بالذات. كل شيء له مكانه الخاص. كثيراً ما تساءل قدور كيف كان بإمكانها أن تعامل الأطفال لو كان لهما أطفال.

- دعي الكلب يفعل ما يشاء.
- لست أنت الذي ينظف برازه.
- إنه يعرف أين يفعل ذلك.
- هذا لا يهمك. بل يهمني أنا. لو أن الرجال فقط يتوقفون مرة واحدة عن التدخل في شؤون النساء.

الكلب الآن في نومه العميق يبدو وديعاً ومسالماً. تخطّاه قدور، ومضى إلى الغرفة الأخرى. أشعة الشمس تنتشر على بلاط الغرفة وعند قدم السرير. ارتمى فوقه، لأنه لا يعرف ما يفعل بنفسه. بعد لحظات سوف يخرج إلى الشارع. حيث الباعة المتجولون، يعرضون الخضر والأسماك والفاكهة. سوف يقتني منها على قدر جيبه. وربما أيضاً غير وجهة نظره. هناك مطعمان رخيصان في الشارع الآخر. لكن الطعام الذي يقدمانه كثيراً ما يصيبه بإسهال. مرة عثر على قطعة من ضمادة عليها شيء أصفر مع صبغة اليود في صحن اللوبياء. أصابته رغبة قوية في القيء. لم يفعل، لكنه قرر ألا يأكل اللوبياء أبداً. ألا يعود إلى ذلك المطعم.

أخذ ينظر إلى الجدران والسقف. فكر أن يخرج ويشتري جريدة. أجّل ذلك إلى ما بعد. قراءة الجريدة تكون أحسن على إفريز المقهى، خصوصاً إذا لم تكن هناك ضوضاء كثيرة وزعيق السيارات والدراجات النارية. لو كانت المرحومة حية لما شعر بهذا الفراغ. أحياناً يتغلب عليه في أول الشهر، لكن تلك اللعبة رغم ما فيها من متعة فإنها تستنزف جيبه. إنها لعبة قذرة وباهظة الثمن.

في الأيام الأولى كان ينام حتى الظهر، لكنه الآن أصبح يستيقظ مبكراً. أحياناً يجلس إلى الحلاق. ويساهم في ثمن براد شاي، أو زجاجة خمر. لكنه لا يستريح إلى أصدقاء الحلاق الكثيرين. يفضّل أن يذهب إلى أي مكان آخر، لكن ليس بالضبط عند الحلاق.

تقول المرحومة:

- أصبحت الآن متقاعداً. عليك أن تفتش عن أي عمل آخر لتشغل به وقتك.

- إنني لم أنم في حياتي قط بما فيه الكفاية. دعيني أستريح قليلاً. لقد ظللت طول عمري أشتغل لهذه الدولة التي لم تقدم لنا أي شيء.

- أنا لا أريد أن أتحدث عن الدولة. إنها شيء كبير علينا. فقط أقول لك لو أنك وفّرت قليلاً من المال، لكنت الآن تملك دكاناً لأي شيء.

- أعرف أن مجموعة من المتقاعدين فعلوا ذلك. لكنهم لم يكونوا موظفين في نفس وضعيتي.

- بل أقل من وضعيتك وفعلوا الكثير لأبنائهم.

- صحيح.

يفكر أنها لا تفهم شيئاً في هذه الأمور. ما كل موظف يشبه الآخر. ما كل وضعية تشبه الأخرى. إنه يعرف أن شباناً التحقوا بالعمل معه في قسم التجهيز، أصبحوا أثرياء بعد أربع سنوات من العمل فقط، أما هو فقد صدق حدس أبيه وأعماه فيه. ظلَّ في الوظيفة نفسها، ولم يعرف يوماً ماذا يعمل لكي يصبح مثلهم.

ذهب قدور إلى النافذة وأطل منها على عالم فارغ. بعض الأطفال الذين لم تقبلهم مدارس الدولة كانوا يلعبون بالكرة. اثنان منهم جلسا عند عتبة أحد البيوت. كانا يتبادلان سيجارة محشوة بالكيف لكي يتخدّرا. طاشت الكُرة من بين الأقدام فضربت السيجارة فطارت من يد أحدهما. بودلت اللعنات وأعيدت السيجارة إلى الشفاه.

كانت المرحومة تقول:

- إن آباءهم قليلو التربية. لو كان لي أطفال لعرفت ما أفعل بهم.

- ماذا تفعلين إذا كان لك ستة أو سبعة أطفال؟

- أعضّ عليهم بأسناني كما تفعل الكلبة بجرائها.

لكنه يفكر أنها لا تعرف في هذه الأمور أيضاً. هو وحده يعرف لماذا هم هناك في الشارع. هو وحده يعرف لماذا يختار الكلب ذلك المكان لينام فيه، ولماذا لم يدخّر سنتيماً واحداً طوال حياته. تراجع إلى الخلف قليلاً. أغلق النافذة. مرّ بكفّه على شعر رأسه. ثم قرر أن يخرج إلى المقهى في الزاوية. أدار المفتاح في الباب وترك الكلب يفعل ما يشاء...

السلاح

لم تكن بيوتهم تشبه بيوتنا.. كنا نبنيها نحن فوق الأرض، أما هم فقد حفروا خنادق وسكنوها، بل كهوفاً لها أبواب ونوافذ يدخلها الضوء. لا أحد يدري بأية طريقة استطاعوا أن يبنوا بيوتهم تلك. إنها مكعبة من الداخل. أحياناً تكون أسطوانية الشكل أو مخروطية. المهم أن لها أبواباً ونوافذ. لا يتاح لأحد أن يدخلها. فهم يعيشون في عزلة. لا يتحدثون إلا مع بعضهم، لا يسلِّمون على الناس أمثالنا. أظافرهم وجلودهم وثيابهم وكل شيء فيهم قذر ومتسخ. لا يتكلمون كثيراً ربما بفعل الحشيش. دائماً يتحدثون إلى أنفسهم في الغالب كما لو كانوا يهذون. كلامهم أحياناً يبدو غريباً. ويؤوّله الكبار منا تأويلات خاصة. ومع ذلك فأطفالهم لم يكونوا يتشبّهون بهم إلا في قذراتهم. إنهم لا يعملون في الفلاحة أو التجارة أو قطع الأخشاب. ولكنهم فقط يرحلون ويعودون بعد أيام طويلة بأكياس فيها كميات من السكر والشاي والكيف واللحم والعظم، خصوصاً لحم الجمال التي تعافها حتى كلابنا. ومع ذلك فقد كنا نتشهّى طعامهم، تنسلُّ أمهاتنا ليلاً ليتوسلن إلى نساؤهم كي يزودنهن بقليل من الطعام. كانت نسائهم طيبات. لكن أبشع ما فيهن هو أنهن كنّ متسخات مقملات لا يغطين شعورهن ويدخنّ كثيراً من الحشيش. بعضهن كنّ يشربن الكحول الخالص.

- جدهم هو سيدي عبد القادر الجيلالي. .

- لا، إن جدهم هو المهدي بن تومرت. لقد كان أحمق مثلهم. يرتدي جلباباً ويخرج في الناس يضربهم بعصا حتى يعودوا إلى الصراط.

- لا هذا ولا ذاك. إنهم مجرد بوهالة.

لم يكن أحد يعرف شيئاً عنهم. ليست لهم أوراق رسمية. لا تواريخ ازدياد ولا تواريخ وفاة ولا عقود نكاح. ولكنهم مع ذلك موجودون في كهوف تحت الأرض.

تلك الظهيرة تجمّعنا عند السياج الشائك الذي يفصل بيوتنا عن بيوتهم. كنا نراقب من بعيد ما سوف يحصل. المخزنيون يتحدثون إلى أكبرهم سناً وأنظفهم ثياباً وأقصرهم شعراً. لم نكن نستطيع أن نسمع شيئاً. ممنوع علينا الاقتراب منهم. المخزنيون بهراواتهم وبنادقهم. رأينا الأيدي ترتفع والأفواه تنفتح وتنغلق. بعض المخزنيين حاولوا أن يتسربوا إلى الكهوف لتفتيشها أو لإخراج من فيها. وكان الضابط الفرنسي يراقب كل ذلك من بعيد، ويعطي الأوامر وهو يدور على نفسه ويضرب الأرض بقدميه ويصرخ، يتحسس أحياناً، وفي غضب، مسدسه الذي تدلى إلى جانبه.

قال أحد الأطفال:

- إن عندهم سلاحاً.

أجاب رجل:

- اسكت أيها البرهوش. هل رأيت في حياتك بوهالياً يعمل مع الوطنيين؟

قال آخر:

- إنهم مجرد حشاشين ومخدَّرين.

- يُقال إن كهوفهم مملوءة بالقنابل والبنادق والرصاص.

قال الرجل الأول:

- أغلق ذلك الفم القذر واذهب لتلعب مع حمارتكم.

توزَّع المخزنيون على أبواب الكهوف. الضابط الفرنسي وسط اثنين من المغاربة ووراءه سينغالي. يصرخ بفرنسية لا تُفهم وبعربية قد لا يفهمها إلا هو. اختفى المخزنيون داخل الكهوف. دُفع الرجال والنساء والأطفال إلى ساحة واسعة. المخزنيون قرب الجيبات مصوبون بنادقهم. الآخرون يؤدون مهمة الدفع والضرب والركل بجد يرضي الضابط. لكنه يستمر في الصراخ والشتم. لم يكفِه كل ذلك.

قال الرجل:

- إنه يريد أن يعثر على السلاح بأي وجه كان.

- لن يعثر على شيء، إنهم مجرد دراويش وحشاشين.

- لو لم يكن متأكداً من شيء لما هاجم كهوفهم.

- لطالما هاجم بعض البيوت لكنه لم يعثر على شيء. هذا الملعون سوف يقتله الوطنيون ذات يوم.

- لا تقل هذا الكلام. سوف يسمعك أحد المخبرين فيكون مصيرك سجن علي ومومن.

خاف الرجل على نفسه وانسحب من بيننا. ظللنا نراقب من خلف السياج. الأطفال الأصغر منا يتزاحمون من بين أرجلنا. لكن الأغلب أنهم لم يكونوا يرون شيئاً.

أصبحت الساحة مزدحمة. شرع في فصل النساء والأطفال عن الرجال. وقع نقاش حاد بين مخزنيين عن طفل، أحدهما يجرُّه جهة الرجال والآخر يجرُّه جهة النساء والأطفال. رأينا الطفل ينكمش على نفسه ويحني قامته محاولاً أن يبدو أصغر. لكن الضابط الفرنسي أدرك الطفل وضربه في بطنه. ودفعه جهة الرجال. سمعت من حولي:

- إنه لا يزال صغيراً.
- صحيح إنه لا يقدر حتى على حمل سكين بَله بندقية.
ثالث:
- اسكت سوف يسمعك أحد.
ثم صمت بيننا خلف السياج، وارتفع بكاء وعويل وصراخ في الساحة.
بعد ذلك تقدم مخزنيان وهما يحملان أشياء مثل القنابل وثلاث بنادق.
لم أكن قد رأيت قنبلة في حياتي، وسمعت:
- هذا عجب.
- لماذا؟
- هالة مع الوطنيين.
- اسكت. لا تتحدث، اغلق فمك يكن ذلك أفضل لك.
طوّق الرجال القذرون الحُفاة. ووجهت إليهم أفواه البنادق. ورفعت العصي تنزل على الرؤوس والأكتاف. الضابط الفرنسي يتأمل الأسلحة ويصرخ. يضرب فخذيه مثل امرأة في مأتم. يلوح بيديه في الفضاء فترتفع العصي وتهوي على الأجسام. أخذ المخزنيون يدفعون الرجال إلى الجيبات بأعقاب البنادق. النساء والأطفال يصرخون في الجانب الآخر. لكن الأمر لم يتم بسهولة. انطلقت رصاصة من مكان معيّن. ذُهل الضابط وتوقف عن الحركة. انطلقت رصاصة فأصابته في ذراعه. احتمى بالجيب وهو ينزف دماً. أخذ المخزنيون يطلقون الرصاص في كل مكان، جهة السياج وجهة النساء والأطفال والرجال. وفي الفضاء الفسيح، ركضنا وتزاحمنا وسقطنا ووقفنا. شعرتُ بحرارة شديدة في بطني. لم آبه أول الأمر، تحسست بطني وأنا أركض.

كان الدم يلطّخُ كفي. ومع ذلك لم أكفّ عن الركض. كنا نجري في كل اتجاه. نصطدم بالأحجار وببعضنا. نسقط ونقف. عندما بلغت البيت ركلت الباب وارتميت في الباحة. جرت أمي إلي وهي تنظر إلى دمي مذهولة:

- هل فعلتها يا ابن الكلب؟

أخذت تمزق قميصي، وتفتش في جرحي عن شيء. الدم لا يزال يسيل. كانت تصرخ وتعوي كذئبة غصبت صغارها.

- لقد فعلتها يا ابن الكلب. غداً يأخذون أباك إلى السجن ويقولون إنه كان وطنياً. ما لنا وللوطنيين يا ولد الفاعلة!

القرد والبندير

كنت ممدداً في الظل، تحت جذع الشجرة الوحيدة الموجودة أمام الكوخ الصغير الذي كنا نسكن فيه جميعاً، أنا وأمي وأبي وإخوتي الثلاثة.

ولم يكن جسدي الصغير النحيل يحتمل الحرارة الشديدة التي تجعل حتى النباتات تغرق في اللهاث. فقفزتُ بسرعة عندما سمعت صوت البندير قادماً من بعيد. وقلت ذلك لأخي الذي يصغرني بسنتين فتبعني وهو يجري حتى فقد توازنه فسقط لكنه أمسك بضلفة الباب. اختفى صوت البندير من أسماعنا، فقال أخي:

- لعله في رأس الدرب. نمشي إليه، ربما لن يمر من هنا.

قلت:

- اسكت ولا تقل هذا. كل النساء يردن أن يفلين قملهن قبل الذهاب إلى الحمَّام.

قال أخي بعد لحظة صمت وتهيُّب:

- ها قد عاد. ألا تسمع شيئاً؟

فركت أذني الاثنتين، وأدخلت أصابعي فيهما ثم نظفتهما من التراب، الذي كنت ممدداً فوقه تحت الشجرة. وبالفعل أخذت أسمع البندير. كان لضربه إيقاع حنون يهزّني هزّاً كلما استمعت إليه. ولم تكن تعنيني مشاهدة القرد وهو يفلّي رؤوس النساء وينظفها من

القمل بقدر ما كان يعنيني نغم البنذير يرعش مفاصلي وأعضائي، ويبعث في داخلي موسيقى داخلية تفقدُني صوابي. وعندما أخذ يرتفع صوت البنذير من جديد، تمسكت بالتراب وغرست قدمي فيه. الحرارة شديدة، وفي ارتفاع متزايد. كنت ألهث وكان أخي الذي لا يأبه لشيء قد ابتعد مني قليلاً إلى الأمام. ثم أخذ يحرِّك رأسه وبسط ذراعيه وهزّهما ولوَّح بهما على نغمات البنذير.. وفعل مثل طائر مهيض الجناح. لا يقدر على مغادرة الأرض.

نظر في وجهي وقد غطى الفرح العارم عينيه الصغيرتين المدورتين الغائرتين كعيني موكة. وبدأ يقفز ويوالي ضرباته للأرض. أما أنا فلبثت مسمّراً في مكاني أستلذُّ سخونة التراب تحت قدمي وأهتز داخلياً للبنذير. ولا يزال أخي يرقص، وعندما ظهرت فيطونة من بين نباتات خضراء طويلة في الكوخ وأوقفته عند حدّه، وأمرته في تلطف أن يذهب عند صاحب القرد ويأتي به إلى هنا. فقفز أخي من جديد ورقص على نغمات البنذير. ومشى راكضاً نحو الصوت. كانت الأنغام ترتفع وتتوالى برتابة محببة، اتكأت لحظتها على جانب الكوخ وقد اختفت ذراعي كلها في النباتات الخضراء الملصقة به. قدماي حافيتان ورأسي تكاد الشمس تدوخه. لا أحتمل شدة الحرارة وأنا واقف. لذلك أفضِّل التمدد تحت الظل استجلاباً للنوم. وعندما بدأت الأنغام تقترب من مسمعي رأيت فيطونة تهرع إلى رأس الدرب فبرزت رؤوس أخرى لنساء أخريات: رحيمو وخدوج ومريم وعويشة والسليمانية ثم زوجة العربي حفصة التي كنا نسميها فعصة. وتجمّعت النساء وقد عرّين رؤوسهن فبدا شعر رؤوسهن مشعثاً أغبر متسخاً. وتظاهرت كل واحدة منهم بالوجع في الرأس والوسخ في الجسد. وبالفعل كنّ متسخات قذرات. لا يمكن التمييز بين الواحدة منهن وبين كومة من القاذورات إذا نُظرَ إليهن من بعيد. دفعت رأسي إلى

الأمام وانفصلت عن النبات الأخضر الملصق بالكوخ. وتقدمت خطوتين نحوهن فأحجمت بعد ذلك. لكني عندما رأيت الأطفال يركضون في رأس الدرب وهم يسبقون القرد والبندير، مشيت نحو النساء. وكانت رحيمو قد جلست على التراب الحار، وبدأت تخلل شعر رأسها الجعد القذر بأصابعها. ثم تجمع يدها في شكل قبضة وتضرب مراراً فوق رأسها. وفجأة برز القرد. كانت في عنقه سلسلة حديدية طويلة. وبدأت دقات البندير تنتشر في الفضاء فاهتزّ جسدي لذلك، ورأيت أخي يركض نحوي وقد تطاير التراب حول جسده الصغير. قال:

- هل ننادي أمي؟

- إنها نائمة. لا توقظها.

- ستذهب إلى الحمَّام ويجب أن تنظف رأسها من القمل.

- دعها تنام. القرد لن يفلّي هذه الرؤوس كلها.

- من قال لك ذلك؟ في رمشة عين يستطيع أن يفلّي مليون رأس. سأنادي أمي.

نظرت إليه بغضب شديد. وأمسكته من ذراعه بقوة ثم جذبته نحو النساء. وقلت له وأنا لا أنظر إليه:

- تعال هنا. دعنا نتفرج واسكت. لا تنادِ أمك. قالت لا توقظني فلا توقظها.

وعندما أصبح صاحب القرد على مقربة منا، أدخل السلسلة في يده، وقلّب البندير في الهواء، وأداره على أحد أصابعه مراراً كالفرفارة. ثم شرع في الضرب فحركت فيطونة رأسها المشعث. ثم دخلتْ وسط النساء وأخذت ترقص رقصة جيلالية، فارتفع صوت البندير وازدادت حدّته وتوقف الضرب، فجلستُ على التراب وأجلست أخي الصغير. وتهالكت فيطونة على نفسها متعبة. وجلستْ

على الأرض الحارة وقد سال عرقها بكثرة على وجهها. وابتلَّتْ أثوابها فوق جسمها. كان ثوبها من الكتان الرقيق بحيث أبرز معالم جسمها عندما التصق به. وأخذ منخاراها ينفتحان وينغلقان كالنافوخ. وتوقف القرد عن الدوران حول نفسه وجلس على مؤخرته وحدق في النساء الواحدة تلو الأخرى. لم يكن هناك زغب فوق مؤخرته. لذلك ظهرت مؤخرته حمراء يكاد الدم يتطاير منها لدى أول لمسة أو نغزة. وكانت هناك حفرة وسط هذا اللحم الأحمر أغلب الظن أنها أسته. أدخل مؤخرته في التراب الحار، ونقل بيده اليمنى السلسلة إلى فمه وعض عليها. ثم حرك عينيه في حيرة يمنة ويسرة. وكان الرجل مشغولاً بالحديث إلى رحيمو. وظللت أنظر إلى القرد وحركاته المتزنة واللامبالية في الوقت نفسه. وكانت النساء وقد جلسن وتربعن فوق التراب قد فككن عن رؤوسهن الخِرَق والمناديل. ولم يكن شعر أي واحدة منهن أملس. لذلك بدت رؤوسهن كالدومة أو كأوراق العنصلية. وعندما أحرقت أشعة الشمس الرؤوس دلّت كل واحدة منهن رأسها للأخرى حتى تفلّي القمل. فهنّ جميعاً سيذهبن إلى الحمَّام اليوم أو غداً. وقبل الذهاب إلى الحمَّام يقمن بعملية تنظيف الرؤوس. ويظل صاحب القرد جالساً يروي عن نفسه وعن قرده إلى أن ينتهين، فيمر القرد أو القردة آخر الأمر بتفتيش الرؤوس واستخراج ما تبقى من القمل. كانت فيطونة قد دلت رأسها لحفصة بينما دلت خدوج رأسها لمريم. ودلت السليمانية رأسها لعويشة. وشرعت في الفلي بسرعة وفعص القمل على قطعة حجر وسط الجماعة. أما رحيمو فقد اكتفت بضرب رأسها المرة تلو الأخرى بقبضة يدها اليمنى. كانت تنتظر دورها وهي تتحدث إلى صاحب القرد، وعندما أبصرتني منشغلاً بالنظر إلى القرد وقد لَوَى السلسلة على عنقه أربع مرّات، قالت:

- الأحسن أن تبتعد من ذلك القرد. تعال وفلّ لي رأسي.

قلت:

- قولي لأخي أن يفعل ذلك، بصري ضعيف.

فنادت أخي. وقف بسرعة، وجلس عند ظهرها وفتح ساقيه الصغيرتين، واحتضنها من الخلف بهما ثم ألصق أنفه بشعرها المشعث، وأخذ يفتش في رأسها. لكنها تضايقت من الانحناء إلى الخلف فأمرته أن يقف ويجلس قدامها. ففعل بخفة. كان التراب حاراً يلسع أقدامي. وكانت الشمس أيضاً تحرق رأسي. وصاحب القرد لا يزال يروي عن نفسه، لكني لم أكن أعرف ما الذي يقوله بالضبط، إلا أني كنت أسمع الإجابات من الرؤوس المحنية تتوالى مرفقة بالضحكات. ثم قفز القرد ودار دورتين ثم أخذ ينطُّ بخفة ويقوم بحركات بهلوانية. وعندما ضيقت السلسلة على عنقه الخناق زعق زعقة قوية قفزت لها من مكاني بينما تحرك أخي من أمام رحيمو وفرَّ بعيداً. وكانت جماعة من الأطفال تتفرج من بعيد، فعلا صياحهم، وركضوا إلينا ثم أحجموا وركضوا ثم أحجموا عندما انخفض زعيق القرد. فلازم الهدوء، إلا أنه ظل يضع يده على عنقه فوق السلسلة الحديدية التي اسودّت من الصدأ. وكفّت النساء عن الفلي، وقال صاحب القرد بغضب شديد:

- هل فيك النعرة يا ابن الكلب؟

فضحكت النساء، بينما نظر القرد بتمعن في كل مكان ونطّ من جديد وقام في الفضاء بحركات بهلوانية. وعاد إليه رشده عندما ضرب صاحبه التراب بالعصا التي كانت موضوعة إلى جانبه مراراً، ثم ألقى بها إلى القرد فأمسكها وعضّ بأسنانه عليها. ثم حولها إلى قفاه وأراح قائمتيه الأماميتين عليها، وزعق من جديد.

كفّت النساء عن الفلي، وقامت السليمانية لترقص من جديد

على نقر البندير. كان الرجل يضرب بعنف، ويدير البندير بسرعة وخفة من ثقب إطاره على أصبعه الغليظ. وكانت السرعة التي يديره بها تجعل الناظر إليه متيقناً من مهارته الخارقة. لذلك عندما كنا نصيح ونحرك أجسادنا الخفيفة والثقيلة على نغمات البندير، كان هو يمعن في الضرب والنقر ويدور على نفسه. في الوقت الذي استطاع أن يتخلّى فيه القرد عن موقفه السلبي ليقفز وسط الدائرة ويبدأ في الرقص محركاً نصفه الأسفل مثلما تفعل النساء. وبدا لي أن احمرار مؤخرته المغطاة بالتراب مبالغ فيه.

كان يدير جزءه الأسفل بمهارة عندما تتوزع الضربات في الفضاء بنظام دقيق. لكن عندما جذبه الرجل من السلسلة هذه المرة بعنف دار دورتين في الفضاء وارتمى بخفة طارئة على وجه السليمانية. فسقطت هذه الأخيرة على ظهرها وصاحت «ويلي. .» فتفرقنا جميعاً. وكان بعضنا يضحك إلا أن الضحكات تجمدت نهائياً عندما ظلَّ القرد ملتصقاً بالسليمانية. كان الرجل إذ ذاك قد تجمد في مكانه ورأيتُ عينيه قد تجمدتا وجحظتا في حين اصفرّ وجهه الأسمر وازرقّ. ظلَّ جامداً في مكانه. كانت الحرارة قوية، وسكتت السليمانية عن الكلام. ورأينا القرد يحرك قائميته الأماميتين في ثيابها بعنف ويبعث زعيقاً حاداً قوياً. وقالت امرأة في رعب:

- أنقذها يا رجل. ماذا تنتظر؟

وعندما سمع الرجل صوت المرأة، خرج عن دهشته وقفز مسرعاً نحو القرد وقد ألقى البندير في التراب ثم أمسك العصا وراح يضرب بها القرد على ظهره حتى قفز من فوق السليمانية ووقف على قدميه الخلفيتين وزعق من جديد وفتح فمه كمن يريد أن يتكلم. أو كمن أصيب برصاصة قاتلة مفاجئة. ظلَّ واقفاً على حاله. ثم تمدد على التراب ككلبٍ أليف. وعندما شعرت النساء بنوع من السلام

هرعن إلى السليمانية. كانت قنوات من الدم قد تكوّنت فوق وجهها وصدرها. وبرز نهدها الضخم الكبير من تحت ثوبها الممزق. وبدت كما لو كانت فاقدة الوعي. فقالت امرأة:

- جيبوا الماء والبصل.

فمشت فيطونة بسرعة راكضة نحو كوخها. وعادت ببصلة وإناء من الماء. ووضعن لها البصل على أنفها ورششنها بالماء. بينما تكوّم الرجل على نفسه في زاوية معيّنة وقد جمد القرد في مكانه لا يبدي حركة. وظلّت النساء تتحدث وقد اختلطت أصواتهن فوق رأس السليمانية، كانت ملقاة على التراب، غير أنها آخر الأمر بدأت تتنفس بقوة شديدة. ثم فتحت عينيها المغلقتين، وأدارتهما في محجريهما تتطلع إلى كل الوجوه التي تتفرس فيها. وقالت رحيمو:

- ابتعدن منها ودعنها تتنفس في حرية. هي في حاجة إلى هواء. لكن السليمانية بعد أن دارت عيناها في محجريهما أرخت أهدابها من جديد، ثم أغلقت عينيها، وقالت النساء يجب أن نحملها فحملنها وهي تئنُّ وتفتح عينيها ثم تغلقهما، ثم ذهبن وأدخلنها كوخها الذي كان مفتوحاً في وجه الهواء الحار الجاف. وقد ظلّ الرجل صاحب القرد جالساً منكمشاً على نفسه في جهة أخرى مقابلة. وكان قرده قد خرج عن هدوئه فجلس وقد حرك قدميه الأماميتين وأدارهما في حجم الهواء الذي يحيط به. لكن الرجل لم يمكث هكذا طويلاً، بل وقف وقد ربط بنديره تحت إبطه وجر قرده خلفه. وعندما كان ماضياً قالت فيطونة:

- لا تحزن. إنه المكتوب.

قال:

- من يدري؟ ربما كان مكتوباً علي أو عليك.

قالت فيطونة:

- صحيح. لا تحزن، فسوف نضع لها لبيخة وستشفى.

ثم غاب الرجل والقرد والبنذير وصوته. وبعد ثلاثة أيام ماتت السليمانية، ولا أحد يدري هل من جراء الجروح أو من جراء مرض طارئ.

وعلّقت امرأة:

- سبحان اللّه، كانت تفلّي شعرها استعداداً للحمَّام. ولكنها لم تفعل ذلك إلا لتغتسل اغتسال الموت. لقد ذهبت نطيفة عند ربها.

هل تذبل الأزهار؟

- تعال اقترب.. قل لي.. أين كنت البارحة قبل الاعتقال؟

- قبل الاعتقال؟ نعم.. كنت في البيت.

- لكننا أخذناك من.. فهل هذا معقول؟

- سيدي، لست أدري.. كنت في البيت.

- ألم تكن في المقهى كالعادة؟

- لا..

- قُل الحقيقة.

- لم أكن في المقهى.

- واصدقاؤك.. ألا تخمّن أين كانوا؟

- لا أدري.

- لماذا؟

- لأنني لا أدري.

- لا تكن مراوغاً.

- لست مراوغاً.. الحقيقة أقول.

- فلان؟

- لا أدري.

- وفلان؟

- لا أدري.

- وفلان؟

- لا أدري.

- قُل الحقيقة، وإلا أعدتك إلى تحت.. أين يقضون أوقاتهم عادة؟

- لا أدري.. ربما في المقهى.

- غير المقهى؟

- لا أعرف.

- طيب.. دائماً نراكم تتناقشون في المقهى وأيديكم ترتفع وتهوي، وأفواهكم تنفتح وتنغلق.. ماذا تقولون وفيمَ تتناقشون؟

- في لا شيء.. عن النساء أحياناً.

- هل هذا معقول؟ الحديث عن النساء لا يتطلب كل تلك الحدّة التي تتكلمون بها أنتم في مقهاكم..

- أقسم لك.. كل ما نفعله هو أننا نتحدث عن النساء.. ولا نجلس في المقهى إلا لنشاهدهن.

- هذا ليس دليلاً.. أليست هناك وسيلة أخرى لمشاهدة النساء؟

- لا أعتقد.

- لماذا؟ إن هناك المقاهي وهناك البيوت..

- المقاهي لا يرتدنها لأن ذلك عيب.. وفي البيوت حرام.. ثم إننا لا نملك بيوتاً خاصة أنا وأصدقائي.. أنت تعرف يا سيدي أن ذلك صعب بالنسبة إلى رجل عادي مثلي..

- كفى.. لا يهمني هذا.. قل الحقيقة.. فيمَ تتناقشون عادة؟

- في لا شيء سيدي.. النساء أحياناً.

- طيب.. تتحدثون عن النساء.. والجرائد والكتب التي تكون أمامكم؟

- أنا مولع بالقراءة. فقط مولع بالقراءة.. ولا شيء آخر..

- ولماذا أنت كذلك؟ لماذا لا تكون مولعاً بالسينما مثلاً؟ وأصدقاؤك.

- سيدي لست مولعاً بالسينما. ثم إني لا أرتاد الأماكن المظلمة.. أخاف منها..

- هل تعرف لماذا اعتقلناك؟

- لا يا سيدي.

- خُذ راحتك وتنفس ببطء.. تنفس ببطء.. اعتقلناك لأنك تهتم بالسياسة! هل تعرف هذا؟

- لا يا سيدي.. لأني لا أهتم بالسياسة ولست منتمياً.

- ولكن رغم ذلك أنت ثوري.. أنت وأصدقاؤك ثوريون.. هل تنكر هذا أيضاً؟

- لم يثبت أنني قمت بثورة سيدي.. أو كانت لي أفكار من هذا النوع.. ثم إن كل الأحزاب ممنوعة في بلادي بشكل أو بآخر.. كيف تقول أنا أنتمي؟

- لماذا تقول هذا الكلام؟ أنت تتحدث في السياسة. هل تعرف هذا؟

- عفوك سيدي..

- ارفع رأسك..

- ها أنذا يا سيدي.

- قُل الحقيقة الآن.. هل هناك منظمات سرية تنتمون إليها؟

- لا يا سيدي.. ليست هناك أية منظمة سرية.

- وجدنا في بيتك كثيراً من الكتب التي تتحدث عن السوسيالزم.. هل هذا يعني أنك كومينيست؟

- لا سيدي.. لست شيوعياً. ولم يخطر في بالي أن أكونه في يوم ما..

- وماذا أنت إذن؟

- لا شيء سيدي.. أقرأ كثيراً.. ثم أخرج إلى المقهى ولا أناقش ما أقرأ مع أصدقائي.. صدقني سيدي.. نحن نتحدث فقط عن النساء..

- ألا تعرف أن هذا أيضاً يعاقب عليه القانون؟

- عفوك سيدي، لا أعرف رجلاً اعتقل لأنه يتحدث عن امرأة.

- كفى هراء.. أن هذا أيضاً ممنوع.. كيف تجرؤون على التحدث عن النساء المحصنات؟

- نحن لا نتحدث عن المحصنات سيدي، فقط عن اللائي يمررن من أمامنا ويغريننا بلباسهن أو بنظراتهن..

- هل تعرف أنكم تفسدون الأخلاق؟

- لم يحدث أن عاكست امرأة في الطريق سيدي.. هناك رجال كثيرون يأخذونهن إلى شقق أو إلى الكورنيش.. نحن لم نفعل هذا سيدي، لأننا لا نتوفر على..

- إنك تتكلم باسم جماعة.. من يكون هؤلاء النحن؟

- أصدقائي، سيدي..

- آه.. الثوريون.. الكومينيست.. طيب. هل تقول الحقيقة أم لا؟ سأنزلك إلى تحت..

- أية حقيقة سيدي؟

- كفى مراوغة.. أية هيئة تنتمون إليها.. أية هيئة سرية؟

- والو يا سيدي.. لا شيء.. ليست هناك هيئة.. نحن جماعة من الشبان.. ضائعون..

- ضائعون؟؟! ماذا تعني هذه الكلمة.. تريد أن تقول أن الحكومة ضيعتكم..

- أبداً سيدي.. لا أريد أن أقول هذا.. قصدي أننا لا نجد ما نعمل.. لذلك نتردد على المقهى..

- ولماذا تترددون على المقهى؟

- لأننا لم نجد ما نعمل..

- ماذا تريد أن تقول.. أفصح.. هل معنى هذا أن الحكومة مقصرة في واجبها نحوكم ولم تجد لكم عملاً؟

- لا يا سيدي.. لا أريد أن أقول هذا..

- وماذا تريد أن تقول إذن؟

- أمهلني سيدي، الأفكار مشوشة في ذهني.. لا أستطيع أن أجيب بصفاء ذهن.

- طيب.. خُذ لك مهلة.. انزل لتشم الروائح الكريهة تحت. حتى يعود لك صفاء ذهنك.

نزل إلى تحت. ارتخى كالدودة. شعر بالبرد. شعر بالدفء.. حدّق في سواد المكان. تمخّط بصمت وأكل مخاطه...

وزيعة

قال رحال:

- واللّه يا سيدي، لم أحرضه ولم أدفعه ليسقط في البئر. .

هوى عمران على الطفل الراعي بالسوط للمرة العشرين أو الألف.

تضوَّر الطفل وسالت دموعه بكثرة. ارتمى أرضاً وأخذ يقبّل نعلي السيد. لكن السيد سحب نعليه إلى الخلف ويضرب الطفل بالسوط في مكان ما من جسده. أخذ الطفل يعض على التراب بأسنانه دفعاً للألم. كانت أصابعه أيضاً تساعده على ردّ الألم وهي تنغرس في الأرض. يصرخ مثل ذئب في غابة قريبة. ولكن السيد لا يأبه لكل ذلك. يستمر في الضرب، ويمسح عرقاً متصبباً من جبينه.

- يا ابن الكلبة. استمررت في مضايقة الجمل حتى سقط في البئر. هل تدري كم هو ثمنه؟ سوف تدفعه من جلدك.

- واللّه يا سيدي. لم أضايق الجمل قط. لقد حاولت أن أبعده من البئر لكنه غلبني ومد عنقه وقائمتيه الأماميتين ثم سقط في البئر. .

حول السيد والطفل أشجار قصيرة ذات لون أصفر، متشابكة وكثيفة. يأتي ثغاء نعجة هزيلة خلف الأشجار، في حظيرة ما، ثم يتوقف السيد عن الضرب بالسوط. يدخل يده في جيب قشابته ويحك شعر عانته. يلهث كما لو كان يرفع صخراً. يحاول الطفل أن

يتحرك، لكنه يفعل ذلك بصعوبة فائقة. أخذت نظراته تتوزع على المكان، أرض جرداء وأشجار صفراء كثيفة، وفي مكان بعيد بيوت لها لون الأرض متفرقة أو متلاصقة. حرك جسده الهزيل، وتربع على الأرض مستعيناً بإحدى ذراعيه للحفاظ على توازنه.

وقال السيد:

- لقد أنهكتني يا ابن الكلب. ثمن الجمل سوف تدفعه من لحمك ودمك إذا بقيت على قيد الحياة.

لم يجب الطفل. دموعه لا تزال تنهمر لكن ببطء وبعسر شديد. وتوقفتْ فيما بعد. وعالج الطفل آخر دمعة بكفّه. كانت رزة السيد قد انحلّت عن رأسه. فتدلى ذيلها فوق كتفه، شعر بذلك، فأعاد تسوية الرزة. ومرَّ بظهر كفّه على وجهه وجبينه. ثم وقف والسوط في يده.

لم يلتفت إلى الطفل. ولكنه اجتاز فجوة بين تلك الأشجار الكثيفة واختفى عن الطفل. ثغاء النعجة ارتفع ثم توقف نهائياً. تأكد أن سيده لن يعود إلى هذا المكان لكي يسوطه مرة أخرى. إنها حالة غضب ربما اختفت إلى الأبد. تحسس جسده فأحس بالألم في كل مكان. وضع كفيه على خاصرتيه. مشى وهو يعرج. اختفى من مكان معاكس للمكان الذي اختفى منه السيد. بعض خيام من الوبر موزعة على الأرض الجرداء. الخُضرة تكاد تكون معدومة لكنها موجودة في أماكن معيّنة من هذه الأرض الشاسعة. هناك نخيل وأشجار صفراء كثيفة. النخيل يبدو سامقاً ومثقلاً بالجريد الذي تدلى على الأطراف مثل أغصان الصفصاف الباكي. لا ينقص الصورة سوى الماء الذي تنغمس فيه رؤوس الجريد، متدلية في ارتخاء.

توقف رحال عند إحدى النخلات وأراد أن يتغوط. شعر بمغص في بطنه. حاول ذلك لكن شرجه لم يسعفه. وقف من جديد. ورفع رأسه إلى النخلة كمن يغرغر ماء. مشى وهو يعرج. يداه دائماً على

خاصرتيه اللتين لا شكّ أنهما تنزّان دماً. شيء ما يسيل من ظهره، عند العمود الفقري. قد يكون عرقاً وقد يكون دماً. قد يكون شيئاً آخر. لكن الجمل وحده هو الذي سقط في البئر. لم يحرضه، بل حاول أن ينقذه من السقوط. ومنذ أكثر من ثلاثة أيام ظلّت عينه اليسرى ترفّ. ذلك كان علامة شؤوم. عندما ترفّ عينه اليسرى فإنه دائماً ينتظر ما لا يمكن أن يسره. يحدث ذلك عادة بعد ثلاثة أيام، أو على أكبر تقدير، بعد أسبوع. التجربة علمته ذلك. أمه أثبتت له أن رفة العين هي خير ما يمكن أن يتفاءل أو يتشاءم به الإنسان. لكنها توفيت وتبعها أبوه. لم ترف عيناه مع الأسف. هذه المرة، سواء عندما توفيت والدته أو عندما توفي أبوه. يبدو أن الموت فوق رفة العين والغنى فوق حكة الكفّ.

بلغ رحال الآن مربض الجمال. ارتمى على الأرض تحت زريبة مركّبة بشكل عشوائي. أصدر أصواتاً مثل أصوات حيوانات غريبة. كان الصوت خافتاً، متألماً، ومتقطعاً ثم أغمض عينيه لا لينام ولكن ليفكر في أشياء غير مرتبة، أشياء في مستوى إدراكه أو فوق مستواه. كان يفكر في ذيول الجمال، في السياط في الأرض الجرداء الجافة، في رفّة العين وحكّة الكفّ. وفي موت أمه وأبيه.

قال «آخ..» عندما حاول أن يتململ. أوجعه جسده. رضوض ودماء على الجلد. استرخى نهائياً ولم يفكر هذه المرة في أن يتحرك. كل حركة تجلب ألماً متضاعفاً. شعر أنه يدخل عالم النوم. استلذ ذلك رغم الألم. لكن ركلة فاجأته فأنَّ أنيناً واهياً وضعيفاً. اعتمد على ذراعيه وجلس. رأى السيد عمران بقامته القميئة ورزته المحكمة فوق رأسه، يتوعده بعصبية.

- تنام يا ابن الكلبة. الجمل سوف تؤدي ثمنه من جلدك.

خاف رحال أن يستمر السيد في ضربه كما فعل قبل لحظات.

لكن عمران انصرف عنه وهو يهذي. ساقاه معوجتان وفي نهايتهما عروق سوداء تبدو ناتئة من بعيد. هدأ رحال وارتمى على ظهره باطمئنان كمن نجا من حكم بالإعدام. في حين دار عمران خلف الزريبة. وجد نفسه بين خيام وبر، وبيوت طينية تكاد تلتصق سقوفها بالأرض. كوَّر كفّيه حول فمه وأخذ يصرخ:

- يا مسلمين. وزيعة حلال. وزيعة حلال قبل أن يموت الجمل..

كان يصرخ ويدور حول نفسه. حاول أن يقترب ما أمكن من البيوت الطينية ومن الخيام. أطلّت بعض الرؤوس. وصرخت امرأة:

- يا ويلي! ماذا أصاب جمالنا؟ كل يوم نسمع بموت جمل..

كانت الحرارة شديدة. تثقل كل شيء. حتى الجريد يرتخي، وبعض الأثواب المغسولة جامدة في أماكن تعليقها. ليست هناك ريح. هواء خفيف حار فقط، يتحرك ببطء ليتجمد في الفضاء.

استمر عمران في الصراخ فخرج رجال وخرجت نساء. شمّر أحد الرجال عن ذراعيه وفي يده ساطور يلمع تحت أشعة الشمس القوية. قال الرجل:

- أين الجمل؟

- إنه في البئر الغربية. لا شكّ أن ذلك البرهوش ابن الكلبة هو الذي حرضه على السقوط. أنت تعرف أن الصبيان لا يعجبهم سوى اللعب بالنار. قال الرجل:

- البئر الغربية عميقة. يجب أن نأخذ الحبال لكي ننزل الرجال إلى هناك.

فرح بعض الأطفال لأنهم لم يأكلوا لحماً منذ أيام. اللحم أصبح ثمنه غالياً خصوصاً بعد الحرب. فهجمات البوليزاريو المتكررة جعلت الحياة قاسية في المنطقة.

قال طفل:

- لا شكّ أن واحداً من البوليزاريو هو الذي أسقط الجمل في البئر.

- زم فمك. ماذا يهمك؟ أنت ستأكل لحماً يا ابن الجوعان.

- سوف أذهب لأشحذ أنيابي اليوم. منذ ستة أشهر ذبح لنا أبي ضائنة. ومن يومها لن نأكل لحماً.

جُلِبتْ الحبال، وتقدمت مجموعة من الرجال موكباً صغيراً كان في نهايته النساء. المرأة يجب أن تبقى دائماً في الخلف حتى في الصلاة. تبقى في الخلف لترى ما يفعل الرجل فتفعل مثله. لكن امرأة دخلت وسط الرجال وهي ملفوفة في ثوبها الأسود. لا يظهر منها سوى العينين وذراع بضة فيها شحم كثير وتورمات لحمية. كانت عجيزتها أيضاً أكبر مما يتصور، لا تتناسب مع تكوينها الجسمي. وقالت امرأة لصديقتها:

- لا أدري ماذا تفعل تلك الرجلة بين الرجال؟

- كأنك لا تعرفينها. إنها أكثر من رجل. ألا تذكرين عندما كانت تعلّق زوجها المرحوم من قدميه في الخيمة فلا تفك رباطه إلا عندما يتدخل الناس، يبوسون قدميها ويزاوكون فيها وفي الذي خلفها؟

- يا رب استرنا!

بعض النساء كنّ يجررن أقدامهن بتعب ظاهر وراء الموكب الصغير، لكنهن يردن أن يأكلن لحماً. وزيعة مثل هذه لا تكلّف كثيراً. من ليس معه نقود يمكنه أن يدفع فيما بعد. وقالت امرأة:

- سوف أدفع لعمران سواراً فضياً لكي أطعم أولادي. منذ شهور لم يأكلوا لحماً.

- ألا يرسل زوجك شيئاً؟

- يا أختي. الحياة أصبحت قاسية في المدينة. ثم إن حرفة حفر مجاري المياه والآبار في المدن أصبحت مهنة لا تدر شيئاً. ما يرسله يتبخر في يومين أو ثلاثة.

حول البئر الغربية تجمّع الموكب. وحذّر الرجال الأطفال من السقوط فيها. نهروهم فتشبثوا بتلابيب أمهاتهم. ربط ثلاثة رجال من أكتافهم ودلّاهم الآخرون في البئر، الواحد تلو الآخر. وقال أحد الرجال:

- لقد أصبحنا اليوم مثل النعاج. كان أبي وحده ينزل إلى هذه البئر يذبح الجمل ويسلخه. والنساء يزغردن محتفيات برجولته. وهنّ يتلقفن اللحم في السطل أو في القفاف.

ردّ رجل بالقرب منه:

- لقد كان أولئك الرجال أقوياء.

بدأت عملية الذبح والسلخ تحت في جوف البئر. مجزرة حقيقية. لم يستطع الجمل المنهك تجاهها أن يفعل شيئاً. استسلم للساطور والسكاكين تمزقه وتقطّعه. الرجال فوقه وحوله يلهثون. وعند حافة البئر وجوه أخرى تطل وأيدٍ تمسك بحبال قوية، مربوط بعضها عند جذوع بعض الأشجار القصيرة. ثم سمعتُ فجأة فرقعات قوية آتية من أماكن بعيدة. لم يصدق الناس أول الأمر آذانهم. سيطر صمت على المكان. تكررت فرقعات شيء ما. وصرخت امرأة في الخلف:

- ناري، إنهم البوليزاريو.

أُرخيت الحبال من الأكف، فرَّ الناس في كل اتجاه. بقي المكان فارغاً تحت وهج الشمس الحارة. وقال أحد الرجال الثلاثة الذين يسلخون:

- إني أشعر بالحبل مرتخياً عند ظهري. لقد أطلقوه ماذا دهاهم؟

- لا تخف إنك لن تموت.

- كيف أصعد إلى فوق؟ أم أنكم ستذبحونني مثل الجمل هنا؟

- قلت لك لا تخف. استمر في السلخ. رائحة اللحم سوف تجلبهم إذا جاءوا.

فعل الرجل ذلك بوهن شديد. كان يرفع رأسه إلى أعلى، ويتحسس الحبل مرتخياً ومتدلياً عند ظهره. استسلم لمصيره وهو يقطع جلد الجمل. لم تكن يده تسعفانه. «ترى ماذا دهاهم؟ هل يتركوننا نموت هنا؟..».

بئر الأفاعي..

توقف الجرَّار في الطريق التي تمر أسفل المرتفع. وراء الجرَّار عربة يركبها ثلاثة من المستخدمين الأقوياء. الطريق تمتد وتتعرج جهة البحر، تخترق مرتفعاً آخر مغطَّى بأشجار قصيرة. التفت حوس أوباها، بعد أن أوقفَ هدير المحرك، نحو الرجال الثلاثة. وجّه كلامه بالضبط إلى تزروالت:

- يمكنك أن تنزل أنت، وتخبره بذلك.

قال تزروالت:

- لا يمكن أن أدخل المقهى بهذه الحالة. إن أناساً وسخين مثلي لا يرتادون مثل تلك الأماكن.

- يمكن أن تخبط على الزجاج من الخارج. وعندما يخرج تقول له.

- حتى الساحة التي توجد أمام المقهى لا أستطيع أن اجتازها. انظر كم هي نظيفة. سيشتمني إذا فعلت ذلك. وربما فعل بي مثلما فعل بالآخر. لا أريد أن يلقي بي في بئر الأفاعي. إن لي زوجة وأولاداً.

فوق المرتفع كانت تظهر قهوة ومطعم «سمك القرش الأزرق» مثل قلعة محروسة. الأشجار والأزهار تحيطها من كل مكان. بعض الجراسين الذين يظهرون خلف الزجاج بثياب نظيفة ومتشابهة

يتحركون بين الموائد والطاولات. على أكتافهم أشياء تشبه النياشين. وفوق صدورهم أرقام تلمع بوضوح، أرقام مذهّبة. في الجانب المقابل يظهر البحر شاسعاً وممتداً، وعلى الجرف بعض الرافعات الطويلة الأعناق تتحرك ببطء واستمرار. كرر حوس أوباها:

- لماذا لا تنزل لتقول له؟

- لا أستطيع.

ثم توجّه إلى آخر.

- اذهب وقُل له أنت. قُل له لقد ألقيناه في البئر. ربما يسر بذلك كثيراً. وربما كافأنا.

- لا أستطيع. عندما يشرب يصبح وحشاً.

- هل تخافونه إلى هذا الحدّ.

- اذهب أنت لتقول له. لا شكّ أنه شرب زجاجة ويسكي في هذه الساعات القلائل.

قال حوس أوباها:

- لن يستطيع أن يؤذيني. إنه جبان. أعرفه لأنني اشتغلت معه أكثر من عشر سنوات. لو لم تكن السلطة بجانبه لكنت قد قتلته منذ زمان. وهو يعرف ذلك. على كل، فليدخل من يشاء إلى السجن. وليرمِ من يشاء في بئر الأفاعي. المهم أن يبتعد من طريقي وأن يدفع لي أجرتي في نهاية كل أسبوع.

ثم قفز من مقعد الجرَّار إلى الأرض. كانت قدماه تغوصان في حذائين مطاطين أسودين. علق بهما بعض الوحل الأسود. اتجه نحو «سمك القرش الأزرق». أخذ يصعد الدرجات التي تحفها من الجانبين أزهار وحشائش مقصوصة بعناية فائقة. كان الثلاثة ينظرون إليه متوجسين. إنه شجاع حقاً. الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يرفع

عينيه في وجه «عبيقة». كل المستخدمين والمستخدمات في البساتين والحقول يرهبونه. يده طويلة مع السلطة. استطاع أن يقتل أو يسجن كل من يحاول أن يعترضه أو يرفع عينيه في وجهه. العامل الذي لا يرضيه يأتيه الانتقال أو الإقالة في أربع وعشرين ساعة. لكنه جبان مع ذلك. يخاف من حوس. ومن يدري؟ ربما كان يدبّر له حفلاً خاصاً ذات يوم. كانوا ينظرون بخوف إلى الرجل ذي الجسم العملاق. وهو يصعد الدرجات منحني القامة. يتخطّى الدرجتين تلو الدرجتين. أصبح الآن وسط الساحة التي تتقدم «سمك القرش الأزرق». توقف قليلاً ثم مدد ذراعيه في الهواء، أشعة الشمس تضرب الآن زجاج القهوة، بحيث لم يعد يظهر ما في داخلها. وعندما أصبح حوس أوباها أمام الباب. تردد قليلاً في الدخول، لكن عبيقة خرج. رآهما الثلاثة. وهما يتمشيان قليلاً وسط الساحة توقفا. لم يكن يظهر سوى رأسيهما وأعلى الأكتاف. يتحدث حوس أوباها وعبيقة يستمع من دون اهتمام. أخيراً يرفع يده ويشير جهة البحر. تبقى ذراعه ممددة لفترة غير قصيرة. ثم تتدلى ببطء. يعاود حوس الحديث. ويظل الثلاثة يخمنون فيمَ يتحدثان.

قال تزروالت:

- لو كنت مكان حوس لركلني ذلك الوغد أو بصق في وجهي.

- أجاب آخر:

- يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك.

- أعرف. من يستطيع أن يلقي بإنسان مسكين في بئر الأفاعي، يستطيع أن يفعل أي شيء آخر.

كل الناس يتحدثون عن البئر المليئة بالأفاعي، التي يعاقب فيها عبيقة أعداءه. كل الناس.. من سوق السبت إلى ثلاث الأولاد إلى الجرف الأصفر. أكثر من هذا. كانت لأبيه ساحة واسعة للجلد. كل

مساء يجلد فلاح أو زوجته أو ابنه. كان الحاكم العسكري والحاكم المدني الفرنسيان يحلو لهما أحياناً أن يقوما بجولة حول تلك الساحة، ليتفرجا على عملية الجلد تلك. يضحكان كثيراً من دون أسف. ثم يدعوهما إلى العشاء: الخراف المشوية، والشيخات، والكسكس. . وعندما ينتهي العشاء تبدأ حفلة أخرى خاصة. تطورت الآن تلك الحفلات الخاصة. عوض أن يحضرها فرنسيون، أصبح يحضرها القايد والقايد الممتاز والعامل ووكيل النيابة. لكن الساحة، بنيت فيها زرائب وأكواخ تختلط فيها العجول والناس والأبقار. لم يكن الوالد يشرب. أما عبيقة فلا يكاد يصحو. ومع ذلك، فثروته تنمو باستمرار.

انفصل حوس عن عبيقة، أخذ يتدحرج إلى تحت، جهة الجرَّار. ينزل الدرجات اثنتين اثنتين. كان ينزلها بسهولة دون أن يلهث. حذاءاه المطاطيان يرتطمان بالحصى المنتشر في كل مكان. رأى الثلاثة مقرفصين فوق العربة ينظرون إليه مشدوهين. تصور أنهم يقولون: «إنه شجاع حقاً». لم يكن يهمه رأيهم فيه. المهم أن يؤدي له عبيقة أجرته كل نهاية أسبوع، وألا يقف في طريقه أبداً. حتى بئر الأفاعي لا تخيفه. لكنه قبل أن يُلقى فيها يعرف أنه يستطيع أن يقتل قبيلة بأكملها. قفز فوق الجرَّار دون أن يتكلم. أخذ يشغّل المحرك الذي استعصى أول الأمر. ثم انطلق الجرَّار في الطريق الملتوية جهة البحر. وفوق المرتفع، أمام «سمك القرش الأزرق» كان عبيقة ينظر إليهم وهم يبتعدون. ثم فرك يديه. ضرب الأرض بقدميه وهو يضحك. ولوّح بقبضته في السماء. دخل القهوة من جهة المطعم. وتوجه إلى البار، كاد أن يسقط فوق إحدى الموائد، لكنها تململت وطقطقت واستوت على قاعها. لم يلتفت إليها. نظر إليه الجرسون باشمئزاز وتقدير وخوف معاً. التحق بشخصين جالسين على مقعدين

مرتفعين بمحاذاة البار، أشار للبار من دون أن يتكلم، فأفرغ لهم ثلاثة كؤوس ويسكي.

قال عبيقة:

- المرة القادمة سوف أنجح في الانتخابات النيابية.

ردّ أحد الاثنين:

- ليس هناك من يستحق النجاح دونك.

قال الآخر:

- إن ذلك البغل نجح بالتزوير والرشوة والدعاية.

أجاب عبيقة:

- لقد فعلت كل ذلك. تصوروا أن الفلاحين الكلاب الذين يشتغلون معي كانوا يقومون بالدعاية ضدّي.

- هل ألقيت ذلك الكلب في بئر الأفاعي؟

- طبعاً. سوف تنهشه هذه الليلة. وفي المرة القادمة لن يستطيع أحد أن يقوم بالدعاية ضدّي في المنطقة كلها.

رفع الكأس إلى فمه. فعل الآخران الشيء نفسه. يكاد البار يكون خاوياً. البارمان في الزاوية يسمع ويفتعل أنه غير منتبه إلى العالم الذي حوله. لكنه يعرف حكاية بئر الأفاعي. كل الناس يتحدثون عنها. لكن بتحفظ كامل. يتحدثون عن عبيقة وعن أبيه. غير أنهم يخافون على أنفسهم. عامل الإقليم نفسه يخاف من عبيقة. لا يريد مشاكل. إذا فاحت الرائحة فيجب أن تشم بتقزز في الرباط.

أفرغ عبيقة الكأس في جوفه وأشار للبارمان مرة أخرى:

- اشربا كأسيكما.

ثم بعد أن تنفس بصعوبة:

- واللّه لو استيقظ الجنرال أوفقير من قبره لما استطاع أن يقف

في وجهي. هذه المرة سوف أعطي درساً لأولئك الخنازير الذين يقتاتون من فُتاتي ثم يقومون بالدعاية ضدّي في الانتخابات.

كان الآخران يهزان رأسيهما ولا يتكلمان. يحاولان ما أمكن أن يكونا إلى جانبه، يؤيدانه حتى لو أخطأ، لأنهما يقتاتان من فُتاته. أحدهما يدير إحدى ضيعاته، وكل سنة يحتال على نصف مردودها. أما الثاني فهو معجب به فقط. لما لا؟ إن عامل الإقليم يخافه. وحتى الجنرال أوفقير لو استيقظ من قبره لما استطاع أن يقف في وجوهه. أخذت أشعة الشمس تبلّط أرضية القهوة. غطّت أيضاً موائد المطعم. لم تكن هناك سوى عائلتين اثنتين، يبدو أنهما أنهتا تناول غذائهما المتأخر، وهما تستعدان للدفع. رأس عبيقة بدأ يدور. ولكنه قلما يدور بهذه الكمية من الشراب. كان منفعلاً إلى حدّ الجنون. قال الرجل الذي عن يمينه:

- نستطيع أن نستمر في الشراب. افرض كما لو أنك نجحت في الانتخابات.

قال الآخر:

- ألا تعتقد أن عامل الإقليم هو الذي فعلها؟

قال عبيقة:

- لا تقل هذا. إنه لا يستطيع. لقد أكل كل خرافي. لو فعل ذلك لانفرجت بطنه مما أكل. إن جدي يستطيع أن يقف عند رأسه في المنام، ويصيبه حتماً بأذى حقيقي. هو يعرف ذلك. ولهذا فإنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك القبيل.

انصرفت العائلتان. كان عددها كبيراً. حجبت الشمس للحظة. ثم انتشرت من جديد أشعتها. بلّطت أرضية القهوة وموائد المطعم، وامتدت جهة المطبخ على اليسار. رفع البارمان رأسه وأخذ يتطاول بقامته لينظر خلف الزجاج. في الساحة، كانت سيارة رجال الدرك

تحاول أن تجد لها مكاناً مناسباً لتتوقف. اختار الدركي السائق موقفه أمام باب القهوة. أطل الضابط من نافذة السيارة. ثم فتح الباب بسرعة وتبعه أربعة من الدركيين وفي أيديهم رشاشات. اقتحموا القهوة. رآهم عبيقة فازداد انشراحاً. كان يعرف الضابط. هو أيضاً أكل من لحم خرافه. قال له عبيقة:

- عمّن تفتش أيها الوغد؟ اطرد أولئك الصعاليك وتعال لتشرب كأساً في خاطرك. ليس في المقهى إنسان خطير يستحق كل هذا الاهتمام. وقال مدير ضيعته:

- وهل يمكن أن يوجد إنسان خطير حيث يوجد عبيقة؟

- قُل السي عبد القادر يا كلب.

- عفواً، سي عبد القادر.

غير أن الضابط ظلّت ملامح وجهه صارمة، أشار بيده فاتجه الدركيون الأربعة إلى عبيقة يصوبون فوهات رشاشاتهم إلى جسمه.

اضطّرب ولم يصدق أول الأمر.

- ماذا تفعل؟ لا تلعب بالنار.

قال الضابط:

- لا ألعب ولا أمزح. إنها الأوامر. لقد طُلِب مني إلقاء القبض عليك.

- هكذا يا كلب!

- الكلبة هي أمك.

انقضّ عليه أحد الدركيين ولَوَى ذراعيه إلى الخلف ثم قيَّدهما. ساقه إلى السيارة ثم دفعه فيها بعنف. ظلَّ عبيقة يشتم من دون جدوى وفمه يزبد. لكن الدركيين كانت آذانهم مليئة بالطين.

غجر في الغابة

1982

في الغابة

علمنا أن الغجر خيَّموا هذه المرة في الغابة. يأتون مرتين أو ثلاثاً في السنة. يتوقفون قليلاً، أسبوعاً أو أسبوعين ثم ينصرفون إلى مكان لا نعرفه، ليس لهم مقر يعودون إليه بالضبط مثلما قد تفعل الطيور. ينصبون بعض الخيام، وقد لا يفعلون، بل ينامون في جوف السيارات وأغطيتهم فوقها. وأحياناً على حبل مشدود بين سيارتين. أو بين سيارة وشجرة. هذه المرة حطوا في الغابة. قال حمو:

- إن عددهم كثير. وليسوا قذرين مثل أولئك الذين سبق أن شاهدناهم.

قال عدي:

- هل معهم بناتهم الجميلات.

قلت:

- إنهن جميلات رائعات، لكن كيف الحصول على واحدة منهن؟

ردَّ حمو:

- الأمر سهل. ربطة من الكيف. إنهن يحببن ذلك كثيراً.

- إنهن لا يتحششن، بل يشربن النبيذ.

- لا. هناك من يردن ذلك. سوف ترى، إنهن جميلات رغم أنهن قذرات.

- ليس أقذر من أختك الحافية القرعاء.

- لا تشتم أختي.

- أختك قمر الزمان.

- ليست غجرية على كل حال.

قال عدي:

- رائحة الغجريين كريهة. تزكم الأنوف من بعيد. لا شكّ أنهم يُكثرون من أكل لحم الخنزير. يُقال إن أكل لحم الخنزير يكثر من الصنان.

- كثير من الناس مصننون ولا يأكلون خنزيراً. ولد الشرقاوية أزفر كذئبٍ رغم أنه لم يأكل خنزيراً قط.

قلت:

- ماذا يهمنا نحن من كل ذلك. المهم عندنا هو الحصول على واحدة من بناتهم. إنهن سمراوات وجميلات وذوات شعر أملس وأسود. آه. كم أحب أولئك الغجريات - يا ليت لو كنت واحداً منهم!

- إنهم لا يقبلون أحداً. مثل اليهود.

- يُقال إنهم كانوا عرباً مسلمين مثلنا. ولكن اللَّه مسخهم.. فهم لا يعبدونه.

وقالت والدة المختار، وهي تهوي عليه بعصا ما بين الكتفين:

- أنت لا تريد أن تفترق عن ولد فلانة وفرتلانة وكريطة وزعطوطة. سيأخذونك هذه المرة أيضاً عند أولئك الكفرة المتسخين القذرين الذين أخرجهم اللّه من رحمته ولا ندري من أية قاهرة كحلاء يأتون.

تحمَّل المختار الضربة وشتم أمه بصوت لم نسمعه، وابتعد منّا

ومنها وهو يحفر التراب بقدمه مثل حيوان مهتاج. كانت والدته لا تزال تتحدث وقد التقطت العصا التي أفلتت من يدها:

- الموسم الماضي يا ابن الكلب. كاد زنطيطك أن يُقطَع، وأصابه جرب وَقيح، لأنك تقترب من نسائهم.

أخذنا نضحك.

- إنهم يضحكون منك، يدفعونك إلى الهاوية ويتراجعون.

مشت نحو بيتها وهي تزحف. قذرة، حافية، قدماها متسختان. ولا أحد يدري فيما إذا كان اللّه في السماء، قد طردها من رحمته مثلما قالت عن أولئك الغجر. هل حقاً كل قذر حافي القدمين مطرود من رحمته؟ نحن أيضاً كنا حُفاة. واحد منا يضع حذاء نسائياً، التقطه من مزبلة ما، لونه أحمر فاقع لامع مثل تلك الأحذية التي تصنعها النساء اللواتي لم يخرجن من رحمته، وهنّ يستعددن للسهرات. لكنها توقفتْ جنب سور يكاد يسقط، سور ملصق بمسامير وأعمدة خشبية هزيلة وعلب قصديرية بسطت ودقت حتى صارت ألواحاً. طقطق السور. كادت تسقط مع السور، لكنها تحاملت على نفسها، ووضعت يديها على خاصرتيها. انحسر ثوب قشابتها، فأبان عن ساق عجفاء، مغطاة بالرضوض والكدمات. العصا كانت بين ساقيها مائلة، شبه مغروسة في الأرض، متجه رأسها نحو الرحم. شيء قبيح وعيب. وصفت آباءنا بشيء لو سمعوه منها لقتلوها أو اقتتلوا فيما بينهم. لأن إطلاق تلك الصفة على العرب والمسلمين فيه هدر لكرامتهم، والعرب والمسلمون هم أكثر الناس حفاظاً على أشياء معيّنة في الدنيا. وهم لا يشبهون الفرنسيين والألمان والأميركيين واليهود. فهؤلاء أنجاس والعياذ باللّه. وقد أعطاهم اللّه الدنيا ليعطينا نحن الآخرة. وقتل فيهم تلك الأحاسيس التي نقتل نحن من أجلها أو نقتتل. لذلك انتفض عدي وقال إنه سيذهب

ويغتصبها أمام ابنها، فقلنا ذلك لا يليق بنا ولا به، والأَوْلَى أن يفعل ذلك ابنها إذا كان رجلاً حقاً، وليست فيه تلك الصفة التي وصفت بها آباءنا. اختفت عن أبصارنا بعد أن قالت كلاماً آخر لم نسمعه.

انضم إلينا ابنها وقال وهو يشير إلى ما بين كتفيه:

- إنها حمقاء. لا تهتموا بها.

- ولو كانت أمي لعرفت كيف أؤدبها، غير أنها كانت على حقّ، لقد فضحتك.. ذهبت خفية منا عند الغجر في الموسم الماضي.

- إنها تخرِّف فقط، لقد حصل ذلك في مكان آخر.

- هذا غير مهم. لا بدَّ أن ندبّر ربطات من الكيف، ونذهب إلى الغابة، حيث يخيِّم الغجر.

- قيل إنهم يتحدثون اللغة الإسبانية.

- يمكنهم أن يكونوا إسبانيين. فالإسبان عام الجوع كانوا يعيشون على لبن الماعز، ويعيشون على بيع الشورو إذا ما توافد الدقيق. إنهم أيضاً فقراء مثل العرب والمسلمين، وهم كذلك، لأنهم أقرب إلينا في الدم، وربما دخلوا الجنة معنا.

عندما علم من هم أصغر منا بنبأ وجود الغجر، حاولوا أن يلتصقوا بتلابيبنا مثل لعنة خبيثة. لكننا عرفنا كيف نتخلص منهم، ومن الأكيد أن ولد لالة النساء سيكون قد سبقنا إلى الغابة. فهو يفعل أشياء أكبر من سنه، ويمكنه أن ينافسنا في كل ما يخطر أو لا يخطر لنا على بال. احترقنا الأزقة المحفورة والمتربة، المغطاة بجلطات المياه العفنة، لأنه لم تكن هناك مجار للمياه. كنا مشينا نحو نصف ساعة حتى أشرفنا على الغابة، وعندما تجاوزنا الطريق المرصفة المخصصة للأوتوبيس، لاح لنا أشباح سيارات وبشر وأبقار وماعز. في الحقيقة لما اقتربنا منهم لم تكن هناك أبقار ولا ماعز. قال حمو:

- إن عددهم ليس بالقدر الذي كنا نتصور.

- يمكن أن يكون هناك آخرون متفرقون في الغابة.

- إنهم لا يتفرقون أبداً. لا يحلون ولا يرتحلون إلا جماعة.

- يمكن أن يكونوا داخل الخيام.

أشار إلى بعض الخيام المنتشرة هنا وهناك، مربوطة إلى جذوع الأشجار.

وقال المختار:

- يجب أن نتظاهر بأننا مؤدبون حتى لا يحترسوا منا.

قال عدي:

- انظروا، إنه الكلب ولد لالة النساء. يجرُّ معه طفلين آخرين.

وقف بعيداً ينظر إلينا في خوف، صدره عارٍ. وكان يرتدي فقط نصف سروال. رميته بقطعة حجر وأنا أشتمه. تجنبها وكادت أن تشج رأس أحد الصبيين.

قال حمو:

- دعوني أذهب لأغتصبه. إن ذلك الجرو القذر يستحق كل ذلك.

قلت:

- اتركه. إنه لن يقترب أكثر.

- قال المختار:

- يجب أن نتفرق حتى لا نبعث في الغجريين الشكّ.

- صحيح. إنهم يشكون في أدنى المخلوقات. لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم.

- ليس صحيحاً. إنهم يبيعون للناس بعض الأشياء الغريبة. وأحياناً يشترون منهم ما يقتاتون به. إذا ما نفدت المؤن التي يأتون

بها معهم. قلت «يجب أن نفترق إذن»، ثم تفرقنا، ذهبت وانبطحت قرب إحدى الخيمات تحت ظلّ شجرة وارفة جداً. الآخرون، كل واحد منهم اختار طريقته للتقرب من الغجر. تظاهرت بالنوم، فأحسست بأحد كلابهم يلعق قدمي الحافيتين. أصبت برعب لكني لم أسحب قدمي للتو حتى لا أثير الكلب. فينشب أنيابه في ساقي أو في أي مكان آخر من جسدي. نطّت ضفدعة بالقرب مني على الحشائش التي تنبت بكثافة عند أصل الشجرة، رآها الكلب فتخلّى عني، والتحق بالضفدعة. أخذ يناوشها بأظافره وهو يهر هريراً خافتاً. ظلَّ يفعل ذلك طويلاً حتى صارت مثل جلدة وقد تمزقت أمعاؤها وتعفَّرت بالتراب. سكن الكلب. ثم أقعَى بالقرب من بقاياها. كان ينظر الآن إلى الأمعاء وإلى القوائم التي تحملت ضربات أظافره المتلاحقة فلم تتفسخ. سقطت بلوطة على رأس الكلب فهر ثم نبح. وانسحب إلى مكان آخر خلف السيارة، وكان صراخ الغجر يرتفع هنا وهناك، كأنما يتشاجرون. رأيت ولد لالة النساء من دون الصبيين، يقترب مني، فقلت له:

- يا كلب، إذا لم تعد إلى بيتكم، فإن ما سأفعله لك لن أقوله حتى أفعله.

قال بمسكنة وجبن.

- تعال انظر هناك. لقد خرجت بعض الغجريات، إنهن يطبخن شيئاً ما.

- أين؟

- هناك، وراء تلك الخيمة.

التحق بي عدي:

- لقد تجولت قليلاً، إنهم كثيرون كما لم نكن نتصور. . لقد وجدت بعضهم يلعبون الورق. اقتربت منهم فابتسموا لي وتحدثوا

إليّ لكني لم أفهم ما يقولون.. رأيت غجرياً عارياً تماماً يُفرغ على جسمه سطلاً من الماء البارد، والآخرون لا يهتمون به إطلاقاً.

- لا يخجلون من فعل ذلك، فهو شيء عادي عندهم. هل أنت متأكد أن الجسد العاري لم يكن جسد امرأة؟

- هل تمزح؟ إن جسمه في حجم جسم بغل، وشاربيه في كثافة ذيل حمار.

قلت:

- أين اختفى المختار وحمو؟

- لا أدري. لا شكّ أنهما عثرا على شيء أو هما ممددان الآن تحت إحدى الأشجار. يرقبان الغجر عن بعد أو عن قرب ككلبين، ينظران إلى طعام لم يستطيعا الحصول عليه.

- نذهب للبحث عنهما. المختار له قدرة خارقة على الحصول على الغجريات، مثلما كانت له القدرة على اصطياد الذباب في الجامع.

مشى عدي أمامي، وأخذنا نخترق جماعات الغجر المبثوثة على طول مساحة متوسطة الكبر. كانت بعض الأباريق والمواعين منصوبة على مجامر أمام الخيام، وقرب السيارات الأميركية العتيقة. اختفى ولد لالة النساء عن أنظاري، وطبعاً، اختفى الصبيان كذلك، كانت بعض العيون تنظر إلينا وتبتسم. وبعضها لا يعيرنا أدنى اهتمام. جاء غجري صغير وأعطاني نصف برتقالة. كان للبرتقالة طعم خاص، لذلك بشكلٍ لا يتصور أعطيت قليلاً من نصف البرتقالة لعدي، اِلتَهمه بسرعة. ركض الغجري الصغير جهة الخيمة. فخرجت أمه، في ثياب مزركشة ومفتوحة عند الصدر يظهر ثدياها وشعرها الأسود الفاحم يكاد يغطي وجهها كله. ومع ذلك ظهر بريق عينيها وابتسامتها الرائعة. لكنها سرعان ما اختفت.

وقال عدي:

- يا إلهي! كيف الحصول على مثل تلك الجميلة؟

- لن تحصل عليها، حتى لو قطعت أصابع يديك من أجلها.

- إنها جميلة حقاً.

- أجمل من ملاك. هيا نكمل البحث عن المختار وحمو.

استمررنا في اجتياز وتخطّي بعض الحبال المربوطة في كل مكان. كنت أتساءل، كيف يمكن لي أن أستميل غجرية واحدة. وأنا لا أعرف لغتها. بأية لغة أتحدث إليها. المختار يعرف كيف يتحدث بيده ورأسه وعينيه. إنه حاذق في ذلك. مثلما كان حاذقاً في اصطياد الذباب. لم نعثر لها على أثر. ولا شكّ أن ولد لالة النساء ذهب هو الآخر ليبحث عنهما. كل شيء ممكن. ما يمكنه أن يخطر على بالنا يمكنه أن يخطر على بال ولد لالة النساء. ذلك شيء غريب، لكنه حقيقي، وتكرر مراراً. إنه يشتم نوايانا، عندما يركز نظراته فينا ونحن نتحدث. تلمع عيناه ببريق عجيب تحت حاجبيه الكثيفين. كان له وجه يشبه الساحر، وقال عدي:

- بعد قليل سوف يأتي ولد لالة النساء. ويخبرنا عن المكان الذي اختفى فيه المختار وحمو.

- يستطيع أن يفعل ذلك، أعرفه جيداً. لكنه لو أتى وحده، لماذا أخذ معه الصبيين؟ سوف يفسد أخلاقهما. إنه ماهر في اكتشاف أي صيد مثل السلوقي.

يرتفع اللغط ترتفع الضحكات، وفي مكان بعيد يسمع بكاء طفل غجري. غريب! حتى بكاء أطفالهم يشبه بكاء أطفالنا. عويل هذا الطفل يشبه عويل أخي الصغير، عندما تمتنع أمي عن إعطائه ريالاً ليشتري به نفاخة. وما أكثر النفاخات التي كان يفرقهما في الفضاء كما لو كان يتعمّد ذلك. فتهرع إليه أمي: «يا ابن العريان، هل

فطمتك على نفاخة؟ هاك!» وتضربه بأي شيء يوجد بالقرب منها سواء كان حذاء، وما أقل الأحذية في البيت، أو مشطاً أو نافوخاً. فيرتفع عويله سواء أصيب أو لم يصب. عويل يشبه عويل هذا الطفل الغجري الذي يصرخ الآن في مكان بعيد، غير أني لا أدري كيف يؤدِّب الغجر صغارهم.

هل يضربونهم كذلك بالنوافيخ والأمشاط والمجامر والأحذية؟ توقف عدي، وأخذ ينصت إلى لغط داخل إحدى الخيام. نظر إليّ كما لو كان سيقول لي شيئاً مهماً. لكن ماذا في إمكانه أن يقول لي: فهو لا يعرف لغتهم. أوهمني بحركاته تلك وهو ينصت إليهم أنه يستطيع أن يشرح لي ما يدور داخل تلك الخيمة. أطل رأس غجري، فخفنا منه، كان كتفاه العريضان يوحيان بأنه يستطيع أن يصهر ثلاثة من أحجامنا. مشى عدي أمامي خائفاً:

- هيا، قبل أن يلحق بنا هذا الوغد.

قلت:

- اسمع يا عدي. عندي فكرة. لا بدَّ أن المختار وحمو ذهبا إلى العين.

- وماذا يفعلان هناك؟

- إن المكان بشجره الكثيف يستطيع أن يخفيهما عن الأنظار. لا بدَّ أنهما راودا غجرية أو غجريتين. وذهبا إلى هناك ليحششاهما.

- صحيح. هذه فكرة جيدة. ذلك ما يفعله المختار دائماً. إنه يفضِّل الأماكن الخالية والمعزولة.

تركنا الخيام والسيارات خلفنا، مشينا في طريق مترب يتعرج بين الأشجار، النباتات والحشائش على جانبيه، طريق سوّته أقدام البشر، وحوافر الدواب. يمتدُّ هذا الطريق حتى يبلغ العين. كنا نحرق قطع الكاوتشوك ونطلي بها سيقان بعض النباتات، ونغرسها

حول العين حتى تقع تلك المخلوقات الصغيرة مرتعشة مرعوبة في أيدينا. وحول العين شجر كثيف لا يشبه شجر البلوط ولا يعطي ثمراً.

وقال عدي:

- انظر. ولد لالة النساء مرة أخرى.

كان واقفاً خلف جذع شجرة، وقد ترك الصبيين في مكان ما ربما ينظر إلينا مثلما تنظر الأرانب إلى الصياد قبل أن تفرّ، تنظر في خوف، وفي تحدٍّ أيضاً.

قلت لعدي:

- لا يهم. ربما يكون قد اكتشف وجود المختار وحمو.

ناديت عليه. أخذ يتقدم منا في توجس. وقف بعيداً عني ببضعة أمتار. حكّ أنفه الذي التصق بأرنبته مخاط، وتوقدت عيناه تحت حاجبيه الكثيفين. قال وهو يشير جهة العين:

- إنهم هناك.

- من هم؟

- المختار وحمو والغجر.

قلت لعدي:

- إن ما يخطر لهذا الملعون شيء غريب. ألم أقل لك؟ ما نفكر فيه، يكون هو قد فعله.

قلت: هل معهما بنات؟

- نعم. معهما بنات. كما أني رأيت بعض الغجر الذكور يحومون حول العين. تركناه جامداً في مكانه. ولا شكّ أننا سنجده قد سبقنا إلى العين. وقد يصل من طريق لا نعرفه نحن. يستطيع أن يفعل كل شيء لأنه ولد لالة النساء. وكل ما يمكنه أن يخطر أولاً لا يخطر على بال إنسان، يخطر على بال ولد لالة النساء. اقتربنا من

العين. كانت الأشجار المحيطة بها كثيفة، قصيرة ومتشابكة. لم نرَ الغجر الذكور، ولم نرَ أحداً. قلت لعدي:

- لا بدَّ أنهما حششا الغجريات.

- ولا بدَّ أنهما فعلا بهن ما شاءا.

- يجب ألا نفاجئهم. سوف نتجسس عليهم.

تصورت خرير ماء العين الهادئ. والعصافير وهي ترفّ بأجنحتها بصعوبة بين سيقان الأعشاب المطلية بالكاوتشوك المحروق، حتى تضغط عليها أكُفّنا، فينبض جسدها الضعيف ويرتعش دافئاً في الكفّ. يحرك العصفور الصغير رأسه وينظر يَمنة ويَسرة. وقد يصدر صوتاً ربما كان استنجاداً.

وقال عدي:

- نذهب من الناحية الأخرى، ربما يكون ذلك أفضل. ولا تكون فيه مفاجأة لهم.

قلت:

- لنتفرق يكون ذلك أحسن.

اختفى عني لحظة. ذهبت من الجهة الأخرى، ورأيت العين. لم يكن هناك أحد. كان الماء يلمع تحت أشعة متسربة من بين العرائش والأغصان. ولم يكن هناك أثر لبشر. كانت هناك علبة مُربَّى فارغة وصدئة، وفردة حذاء قديمة ممزقة ولم يكن هناك أثر لبشر. لا شكّ أنهم هنا أو هُناك بين الأشجار. المختار يكون دائماً حذراً في مواقف مثل هذه. سمعت صوت أغصان صغيرة تتكسر. ذهبت جهة الصوت. رأيت عدي يسير بتلصُّص. محنياً قامته بين الأغصان. وهو يدفعها بكفّه. صحت به فالتفت إليّ:

- أنت؟

- نعم. لم أجد أحداً.

- وأنا أيضاً.

- لا بدَّ أن نبحث عنهم. لا يمكن أن تكون الأرض قد ابتلعتهم.

- كل شيء ممكن وقوعه. أرض العين مسكونة.

- اسكت تسكنك جنية!

أخذنا ندور في المكان، وحول العين، غير مصدقين أنهم يكونوا هنا. هل تخطئ فراستنا؟ ثم إن ولد لالة النساء لا يكذب. وقال عدي:

- لا بدَّ أن نعثر عليهم.

مشينا في اتجاه آخر، غير الطريق الذي أتينا منه. وكانت حشائش في المكان تستطيع أن تغطي نصف قامة الإنسان. حشائش ونباتات السرخس، ذات الأوراق التي تشبه المناشير، توقف عدي، وأخذ يرهف السمع:

- إنهم هناك. من غير شكّ. هل تسمع؟

- لم أكن أسمع شيئاً.

- احترس. لقد سمعت شيئاً كالضحك.

اقتربنا قليلاً. التقطت أذناي بالفعل أصواتاً آدمية. بعد ذلك رأيت غجرية شابة تقف وسط حقل السرخس، وهي تلقي بشعرها الأسود إلى الخلف. لم ترنا. عادت للاختفاء مرة ثانية. قلت:

- ترى ماذا يفعلون هناك الآن؟

- إنهم يتحششون.

- هل نلتحق بهم؟

- لا. ليس الآن.

- إني أريد أن أتحشش معهم.

- لا تفعل. إن المختار وحمو يعرفان أننا هنا. سوف يناديان علينا في اللحظة المناسبة.

رأيت حرباء صغيرة، تعبر عند قدمي ببطء. خفت منها، لأنها توقفت وأخذت تنظر حواليها ببلادة. أمسكت بعود، وضغطت به على ظهرها، قاومت ببلادة كذلك. قال عدي:

- دعْ عنك تلك القذارة. إخ تفو!

وأضاف عدي وهو يشرئِبّ بعنقه:

- انظر هناك غجري!

نظرت حيث أشار. كانت قامته طويلة فارهة. وجهه أسمر ملوح. كانت ملامحه صارمة. يقف بعيداً وينصت. هل هو الآخر يتحشش معه؟ وقال عدي:

- إياك أن يكتشفنا.

رأيناه يخرج سكيناً كبيراً من تحت حزامه. سار بحذر جهتهم. لا بدَّ أنه تحشش وسوف يرتكب جريمة. صرخ عدي في رعب:

- حمو!

أطلّت رؤوس من حقل السرخس. اهتاج الغجري. صوَّب السكين جهتنا، ثم جهتهم. احتار في أي جهة يطلقها، كان يركض ويتعثر بين النباتات، سقط مرات، وهو يتمسك بما أمامه أو حوله، رأينا حمو والمختار يفرّان، والفتيات الثلاث ظللن جامدات في مكانهن. كنا نركض ونركض وسط الغابة.

توقفنا في مكان معيّن نستعيد أنفاسنا. قال حمو:

- لو لم تكن معه السكين؟

ردَّ عدي:

- ماذا كنت ستفعل؟ إنك أجبن من دجاجة. لنذهب قبل أن ينادي على الغجر الآخرين.

وقال المختار:

- كانت تلك القصيرة رائعة.

قلت أنا:

- سوف نتفرج عليك، عندما تصاب بذلك الشيء.

جيمس جويس

يفتح زجاجة النبيذ الأحمر. يتذكر قولة جيمس جويس «النبيذ الأبيض يحرِّك الأرجل أما الأحمر فيحرِّك الرؤوس». كان يعبّه باستمرار مع نينو فرانك ومع صام بيكيت ومع جيلي ومع الآخرين. ولكنه مع ذلك استطاع أن يكتب كتابين لا غير. الباقي زيادات. قال جويس:

- لم أكتب إلا كتاباً واحداً. ولم أكتب إلا عن شخص واحد: ليبولد بلوم، أما أنت فماذا كتبت؟

يصبُّ من زجاجة النبيذ الأحمر، يدلق الكأس الأولى في جوفه. يتأمل السؤال ويديره في رأسه مرّات متعددة، يلوك السؤال في فمه. يخلط مع مرارة الخمر والتبغ مجتمعين. يبتلعه، ثم يقيئه مرة أخرى ليعيد الهذيان والمضغ.

«وماذا فعلت؟ آه ماذا فعلت؟» يتوجه لجويس:

- الكتابة عن شخص واحد. هذا شيء صعب. فليكن بلوم أو فليكن قدور. شيء بشع أن يقضي الإنسان حياته وهو يتتبع خطوات شخص واحد.

قال جويس:

- إن ذلك أكبر من قدرة الإنسان على القيام بشيء آخر غيره.

وقال ابنه جيورجيو:

- من الأفضل ألا يكتب الإنسان شيئاً، وأن تكون مهمته هي مضايقة شخص مثل جويس.

هل صحيح أن النبيذ الأحمر يحرِّك الرؤوس؟ يعبُّ الكأس الثانية ويدخّن، يهز رأسه وينظر من وراء زجاجة النافذة إلى العمارة ذات الطلاء الأحمر التي تحجب عنه السماء، الساعة السادسة مساءً من يوم صيفي. أشعة الشمس تنعكس على العمارة. إنه لا يعرف ما الذي كان يفعله جويس في مثل هذا الوقت، وصمويل بيكيت؟ لا شكّ أنه كان نائماً في الفندق، أو ممدداً على الفراش في المستشفى، عندما غرز فيه أحد المشردين سكينه. وربما كان صام بيكيت ينتظر زيارة جويس في مثل تلك الساعة. على كل حال، فكل شيء محتمل، وفي أية ساعة من الأربع والعشرين ساعة. وقال جيورجيو:

- إن الإنسان لا يمكنه أن يملك الوقت، فالوقت ينفلت من بين أصابعنا كالماء. استمعَ إليه بإمعان. فكّر أن جيورجيو يخرِّف. الوقت يمكن أن يمتلك. لأن الوقت في تريستا ليس هو الوقت في دبلن أو زوريخ أو الدار البيضاء.

وقال لجيورجيو:

- إن أباك امتلك وقتاً معيّناً في دبلن.

قال جويس:

- ولقد ظللت أمتلكه في ناس دبلن، ضيَّعته مراراً لكني استعدته على مراحل. ليس هناك أي احتمال آخر. كل شيء يمكن أن يحصل، وأنت ماذا فعلت بوقتك؟ كان السؤال محرجاً بالنسبة إليه. ورغم ذلك، فقد تصوّر أن له علاقة بالسؤال الذي وجهه إليه جويس في السابق. أخذ يهذي مرة أخرى: «ماذا كتبت؟ وماذا فعلت بوقتي؟». ردّد السؤالين معاً مرّات متعددة. لم يكن رأسه يتحرك،

ولكن عينيه ظلتا مركزتين على الطلاء الأحمر أمامه. جال بنظراته في الغرفة وهو متكئ بظهره على وسادة محشوة بالحلفاء. آلمته الوسادة قليلاً فغيّر وضع جلسته وقال لجويس:

- ماذا فعلت بوقتي؟ لا أدري. كل ما أعرف أنني أتحدث إليك الآن. وأستطيع أن أقول لك إني أنظر من نافذة غرفة ما، وأرى أشعة الشمس تنعكس على طلاء عمارة حمراء. وأن الهدوء سائد في هذه اللحظة. وأن كل شيء مخالف تماماً لأوقاتك. وقال جيورجيو:

- وهو يشرب النبيذ الأحمر الآن.

أكّد نينو فرانك:

- هذا ما لم تكن تحبه يا جويس.

ردَّ جويس:

- صحيح، لكن كل شيء يمكن أن يلائم أي شيء في وقت ما وفي مكان ما. النبيذ مرّ لكنه يعطي إمكانية إعادة النظر في كل شيء. فكّر في آخر العمالقة مالكوم لوري، وتخيّله وهو يحترق فوق فوهة بركانه. كانت روايته رائعة في الوقت الذي كانت فيه حياته قاسية. فكّر أيضاً في صديقته وتمنّى لو يتزوجها، ليست له أية فكرة عن الزواج، لأنه دائماً يتخوف، فهو لم يعرف هذه التجربة بعد. لا يدري كيف كان الزواج في ذلك الوقت. هل كانت المرأة حقاً بركاناً مثل بركان مالكوم لوري. يجلس الإنسان على فوهته ويظل طول حياته يستلذ بتفسخ جلده؟ خطر له أن يسأل جويس:

- كيف كانت نورا جويس؟ هل كانت بركاناً أم كانت رماداً؟

تجرّع جويس كأساً من النبيذ الأبيض، تلمَّظ بشفتيه. مسحهما بظهر كفّه اليمنى، وسوّى نظارتيه الدائرتين. استرخى قليلاً ثم أجاب:

- كانت رماداً أبدياً. ولذلك لم تتح لنا إمكانية الاستمرار.

أسأل إيتالو سفيفو، آه! إني أعرف ما يمكن أن يفكِّر به، لكني مع ذلك أحيلك عليه.

(لا يمكن أن أحال على كل التاريخ. فالتاريخ يتناقض. وكل التجارب تختلف، إن ف. ليست هي نورا جويس، وليست هي الجارة التي تسكن على بُعد أمتار مني كما أنها ليست من أولئك اللواتي يفعلن شيئاً ما الآن في العمارة المقابلة ذات الطلاء الأحمر).

الصمت سائد في الغرفة التي يجلس فيها وحده. تحامل على نفسه وجرَّ قدميه إلى التواليت. وهناك وضع رأسه تحت صنبور الماء. لا يدري بأي وازع فعل ذلك، هل كل تصرف إنساني هو في الأصل لا إرادي؟ أقنع نفسه بأنه يفعل ذلك بإرادته الحرة الصادقة. وقال لنفسه إنه إذا لم يفعل ذلك فإنه سينتهي حتماً إلى الجنون. لا بدَّ وأن يحمل مثل أفكار الآخرين وأن يتصرف مثلهم حتى لو كان وحده.

إذا كان جيمس جويس نعجة عجوزاً ذبحت يوم 13 يناير 1941، فهو لا يزال خروفاً، ولا يدري متى سيساق الخروف إلى المجزرة. ولكنه يعرف ذلك المثل الرائع الذي يردده الناس من حوله. يوم عيد الأضحى، لا يمكننا أن نتكهن بأسبقية الذبح. هل يكون ذلك للشاة الصغيرة أم للشاة الكبيرة. ذاك شيء خارج عن إرادة النعاج طبعاً. وهو يجفف شعر رأسه بالفوطة، سمعَ جيمس يقول:

- كان عليك أن تأخذ دوشاً بارداً. إن ذلك يعطيك إمكانية أكثر على إعادة توازنك العقلي.

- لا تتصور أنني فاقد لتوازني. كما يخطئ الناس عندما يعتقدون أنهم أكثر توازناً من الآخرين. لقد كان يونغ غبياً عندما ألحَّ مراراً على أن يجري عليك فحصاً طبياً.

- لم تكن فكرته. ولكنها كانت فكرة تلك التي اعتقدت أنها بثروتها تستطيع أن تلهو بالإنسان مثلما تلهو بكلابها وقططها.

- أعرف ذلك يا جويس. إن المرأة تستطيع أن ترتكب أية حماقة ممكنة في هذا العالم، أية حماقة يمكن للرجل فقط أن يتصورها.

كان شبح جويس يتجول بين الأشجار في شارع خالٍ من الناس معتمداً على عكازته، وفي كل مرة يسوّي قبعته فوق رأسه، لأن الريح تكاد تطيح بها، وحوله أوراق تحت قدميه فيدوسها لتحدث خشخشة رتيبة وخافتة. يمضي جويس إلى نهاية الشارع في اتزان ووقار، يتوقف قليلاً، ويتأمل شيئاً ما أمامه. بعد ذلك يقرر أن يرجع إلى المكان الذي انطلق منه. يهتز جسده ببطء، ويقبل الآن كما لو كان يقوم بجولة صبيحة ذات يوم أحد. تختفي الأشجار وتختفي الأوراق والشارع..

يقول جويس:

- كان ذلك شيئاً رائعاً. إن اللحظة التي يخلو فيها الإنسان بنفسه هي لحظة الألوهية.

ردَّ على جويس وهو يحتسي جرعة من النبيذ الأحمر:

- عندنا شاعر عربي، يا جويس، اسمه أبو العلاء المعري يقول: توحّدْ فإن اللَّه ربَّك واحدٌ.

- إن ذلك لا يفاجئني.

كل الأفكار قِيلت، غير أن تجربة الأفراد وحدها هي التي تختلف.

- أعرف ذلك يا جويس.

- إني أعرف أنك تعرف، لكن ما يهم هو فتح آفاق للنفس البشرية حتى تجد راحتها والأمر لا يتعلق أبداً بالكتابة وحدها.

- لا أدري مدى فتحك لتلك الآفاق يا جويس.

- ذاك سر احتفظ به لنفسه. المهم هو المحاولة.

أرخى نصف جسمه الضعيف على الأريكة، ومدد ساقيه النحيلتين إلى الأمام. كان كأس النبيذ الأبيض في يده المعروقة مملوءاً حتى النصف. رفعه في وجه الآخر الذي أخذ رأسه يدور. وقال جويس:

- في صحة تلك الآفاق التي سوف تُفتح.

عبَّ الآخر كأس النبيذ الأحمر دفعة واحدة، ثم أفرغ الأخرى والأخرى. ولم يعد رأسه يدور ولكنه ثقل وتدلّى فوق الموكيت، كان شيء كالقيء يحيط به. تأمل جويس ذلك المشهد، لم يعتب عليه. لكنه رفع الرأس وأبعده من تلك القذارة. اعتمد على عكازته. ثم وقف بهدوء واتزان واختفى نهائياً من ذلك الشارع الذي كان يحب المشي فيه دائماً...

السجن والحديقة

الأحد 13 أبريل..

هذا الصباح أجدُني وحيدة. . لقد انصرف وقال إنه سيعود ليتغدى ثم نمضي يوم الأحد كالعادة خارج المدينة، حيث الطبيعة التي تستهويه كثيراً. لقد علمتني أن حب الطبيعة شيء بدائي ورومانتيكي في الوقت نفسه. ما أكثر ما أتأثر بأفكارك التي تستعبدني اليوم، وتملك علي جماع إحساساتي وقلبي. بدائي ورومانتيكي في الوقت نفسه. . هذا شيء لم يخطر لي يوماً على بال، ولم أحاول أن أعقد مقارنة بين شيئين متناقضين. لقد بكيتُ هذا الصباح بدموع الفرح عندما علمت أنك هناك. وأنك تعيش دنياك السحرية بفضول طفل. الحياة حب. هل صحيح أنك تشعر بذلك؟ لقد فقدت أنا معناه، وإن كنت أدّعي أنني أعيش دنياي السحرية أنا أيضاً. كنت أعرف أنك الشخص الوحيد الذي يعطيني هذا المعنى المفقود. ولكن عندما غبت واختفيت من الدائرة، بدأت الرياح تعصف بقوة وتهز أشجار الحديقة. حب أفلاطوني؟! لا. . ليس هذا بالضبط. ثم إني لا أدري. ليكن هذا أو ذاك. أنت الذي تستطيع أن تعطي تحديداً لعواطف من هذا النوع. لقد قرأت **روميو وجولييت**، وقرأت **أدولف** لبنجامين كونستان. ووجدت أنك أقرب إلى أدولف منك إلى روميو. يجب ألا تحمل رسالتي خلفيات. أعرف أنك تحبني وتعرف

أنني أحبك. ولكن هو. . سيظل قنطرة وهمية. وسيظل عادل الصغير هو الحقيقة الوحيدة في الحياة. . ماذا نستطيع أن نفعل وقد أصرَّت الحقيقة على أن تظل هي الحقيقة؟ إن الوهم والحقيقة لا يلتقيان، ولكنهما التقيا الآن رغم كل الحواجز والاعتبارات. لقد تجاوز الخيال نفسه. وتشمَّمتُ بكل أعصابي طعم الريح، ونكهة الشمس، ولون البحر، وشحوب الخريف. . ليس أقوى يا أنت. . من هذا الاندماج الكلي في الأشياء. لقد تجاوزت حدود الذات ولم أعد أشعر - أنا التي كنت أشعر في نظرك بكل شيء - بذلك الفاصل السحري بين الأشياء وذاتي. لقد قلت مرة: شيء غريب. . شيء غريب أن نكتب قصة رومانتيكية هي من مخلفات ماضٍ مريض. وتساءلت عمّاذا تعني بالماضي. فنظرت في البعيد. وقلت من خلال لا شيء: فرتر مات ولن يبعث من جديد. . روميو مات وكان مريضاً. وأدولف. . وأدولف هو أيضاً يجب أن تقرئي عنه ونظرت في البعيد مرة أخرى ثم ابتسمت بهدوء. وقلت لك لماذا تبتسم. فتحولت ابتسامتك إلى ضحكة صاخبة. لقد قرأت **أدولف**، وها أنذا أحاول أن أفهمك أكثر فأكثر وكنت أخال أني فهمتك. . ما أسرع ما ننفعل فنغيّر آراءنا السابقة. ألم تكن أنت أيضاً تنفعل ثم تغيّر رأيك لغير ما سبب؟. . - عفواً. . لقد قلت إنني بدأت أحاول أن أفهمك. . ربما لم يكن التفاهم ممكناً بيننا لأنك كنت غامضاً كالقدر، ولأنني كنت - كما قلت - زهرة برية تستحق الإعجاب من بعيد، ومتى كانت الأزهار البرية توضع في زاوية من بيت؟ ألا تعرف أن هذه الأزهار تموت لأنها لا تحتمل هواء مزيفاً في بيوت مزيَّفة؟ أن الأزهار البرية خُلقت لتبقى في الحقول ولتحيا وتموت على طريقتها الخاصة. . أنت أيها الغامض. . إن أزهار الميكا لن تتحول إلى أزهار حقيقية. . حتى لو التقت الحقيقة بالوهم، فإن الزهرة البرية

ستظل تحب الوادي، وستظل زهرة الميكا مجرد زيف. . لم أفهمك. . ولكنني أحاول أن أفهمك. . سأتذكرك بعد لحظات عندما يعود وسأكتب لك في المساء إذا أسعفني القلم. . الأشجار في الحديقة تتحرك الآن بهدوء. . وصورة عادل على الحائط تنظر إليّ. . وأنت حاضر هنا معي. . فتذكرني بين لحظة وأخرى، لعلّ ذلك يبدّد هذا الصمت المرعب المخيف الذي ينتشر في قلبي. .

الاثنين 14 أبريل. .

. . قبل دقائق غادرتُ البيت، وها أنني أعود إليك لأكتب لك. لا تؤاخذني إذا وجدت في لغتي تشوشاً واضطراباً، فصوت عادل في الحديقة يقلقني، فهو يصرخ وراء الطيور الهاربة من الأشجار. . ناديته أن يدخل ولكنه مسرور. . إن فرحة أكبر من تلبية رغباتي. . يا له من معاند مثلك! ولكني أحب عناده كما أحببت عنادك. . ماذا تحب المرأة في الرجل إذا لم تحب عناده وتعنّته ورجولته؟ أرجوك. . دعني أتحدث إليك بكل حرية. ذات مساء - وكنا نجتاز ذلك الطريق الشاحب - أمسكتني من كتفي وهززتني بقوة وعنف، ضممتني إليك فلم أمانع كعادتي. . ثم قبّلتني وكان الطريق خالياً إلا من. . آه، إنك تكره الاعترافات والذكرى، وتكره أن تكون رومانتيكياً على طريقة فرتر وقيس بن الملوح. . كنت أوافقك على شيء. لقد قلت إنك مادي. وقلت أنا لحظتها: الإنسان هو المبدأ. أن تكون مادياً فهذا لا يمنع من أن تكون رومانتيكياً. . إذا أحببتني فلأنني أحبك. . ونظرت في عيني نظرات نفاذة هزّت كياني كله. فارتعشت أنا وألقيت برأسي على صدرك فقبّلتني. وكان الطريق الشاحب يمتدُّ - ذاك المساء - في المدى البعيد. . ولم تكن له نهاية، لأننا لم نعرف له البداية، وتحرَّك هواء خفيف فولدت من

جديد في أحضانك، وقلتُ إنك تحلم الآن ولا تريد أن تناقش فيما إذا كنت مادياً أو رومانتيكياً. ضحكت أنا بانفعال.. وكنت أعبدك عندما تتخذ قراراً وتشعرني أني ضعيفة أمامك.. إن قوة الرجل هي سرّ ضعف المرأة. وكنت أنت قوياً لأنك كنت تعرف ضعفي.. إنك لا تحب المتاهات الفكرية. فأنت تريد أن تعيش طفلاً سعيداً. على الأقل في علاقتك بامرأة.. ما أروع أن أستعيد ذكراي معك، وكنت أنت الإنسان.. الذي خلقتني من جديد في يوم لا أذكره بالضبط.. إن سعادتي هي في ألا أذكر هذا اليوم.. لندعْ هذا الماضي غفلاً، فالاكتشاف يُكسبُ الأشياءَ وجوداً آخر غير وجودها الأول.. وهذا ما لا أريده وما لا تريده أنت.. لذّتي هي في أن أكتب إليك وأنا أستمع إلى مقطوعات من شوبان.. إني لا أزال أذكر المقطوعات التي تعجبك والتي تحوِّلُك إلى طفل وحشي يكسر كل شيء تقع عليه يداه.. آه منك أيها الطفل الوحشي! عادل لا يزال يصرخ وراء الطيور الهاربة إلى مكان بعيد.. وموسيقاك المفضلة لا تزال تنبعث من البيك - آب في انسياب ودود.. سأخفض صوت الموسيقى لأنك ترغب في قليل من الراحة.. أعرف ذلك عنك وإن لم تعلنه بصوتك القوي الدافئ.. بعد لحظات سأغادر البيت.. أعتقد أن الخادم تنام الآن في زاوية من الحديقة لأن عادل ازداد ضجيجه، أشعة الشمس تخترق كثافة الأشجار وراء النافذة. وهو بعد ساعة ونصف سيعود إلى البيت، وسأكون أنا قد انتهيت من هذه الرسالة.. إن امرأة مثلي هي في حاجة إلى كثير من الحنان، وأعتقد أن أفضل رجل يشعرني بذلك هو أنت.. لا تزال الموسيقى تنتشر في البيت، وفي الحديقة، وبين الأشجار، وفي قلبي - عندما أذكرك - دفء إنساني أقوى من أن أعبِّر عنه..

26 أبريل . .

- يجب ألا تخرجي، سأعود أنا على الفور.

ونظر في عيني بابتهال. وأكّدت له:

- سأحاول أن أفعل . .

- أنت لا تدعين سوى المحاولة.

- دائماً . . ففي المحاولة اعتقاد.

وكنت متيقنة أنه لم يفهمني. وبعد لحظات سمعت صوت سيارته يتلاشى خلف النافذة. ولست أدري لماذا تذكرتك، ففجأة أخذت أدافع عن نفسي أمام عظمتك. بورجوازية؟ لا . . لدي طموح؟ لا . . أنت طموحي، ولكنك لم تفهم، لقد حاولت أن أفهمك، ولكني كنت دائماً ضعيفة أمامك. أعرف جيداً أنني إذا كنت أستمع إلى شوبان، فإن الشعب لا يجد ما يسد به رمقه، وكنت في إصرارك على إفهامي هذه الحقيقة قاسياً إلى حدّ العظمة. ولم تكن تأخذني إلا بوجه امرأة ضعيفة، همها الوحيد هو الحصول على فارس تشتهيه كل النساء.

ما أكثر ما كنت تخطئ! فأنا لم أكن أحبك سوى لأنك ذلك الفارس الذي تتحدث عنه. أنت رجل، وأنت أقوى مني. . ثم، هل أعترف لك؟ . . إنني لم أحبك إلا لأنك لم تكن تحب نفسك . . وكان الشعب هو مدار حديثك في غدوك ورواحك . . ولم تكن حياتك الخاصة، في نظرك وفي نظري، سوى هدية للشعب الذي يرفض أن يستيقظ، ويرفض هديتك له . . كم كنت كريماً، وكنت إنساناً في مزجك بين إيمانك بالمحسوس وبين إيمانك بالمثال . . هذا هو سر حبي لك . . فإذا لم أجد الفرصة وقتها للتعبير عن عواطفي هذه فلأسمح لنفسي الآن، وقد أتيحت لي الفرصة، أن أعبّر لك عنها . .

لقد عرفت فيك استعدادك للتضحية بكل شيء، وعلى العكس من ذلك، فهو هنا لا يضحّي بنفسه سوى من أجلي، بل إنه يستطيع أن يضحّي بالعالم من أجلي. ما أفظع أن يضحّي الرجل بالعالم من أجل امرأة! إن تصرفاً من هذا النوع لهو في نظري سلوك حيواني.. وإن مثل هؤلاء، على حدّ تعبيرك، يجب أن ننهيهم. ولقد آمنت بك، واعتقدت في كل ما تقوله لي، ألم أعترف لك في رسالتي أنك أثرت فيَّ إلى حدّ الهوس والجنون؟ فإذا كنت أنتظر هذا المساء زواراً، هم أقل ما يُقال عنهم أنك ترفضهم، فلأني لست واحدة منهم، ولأني كما قلت لك، أؤمن أن الحقيقة أصبحت تقترب من الوهم، لن أخرج، وقد أمرني بابتهال، وسأنتظرهم. ولكن هذا المساء لن يكون لي، أعرف ذلك جيداً، بل سيكون لهم وحدهم، سيكون هو مسروراً، وسيقلق عندما يرى أني لست على ما يرام. إذ ذاك فقط، عندما تقترب مني، أشعر بوجودك أكثر، وأحس أني في حاجة إلى.. حمايتك، وأن هذا العالم كله، إنما هو ملك لي ولك..

7 مايو..

.. عبرتُ الحديقة، وانطلقت إلى الجزء الخلفي، وجلست فوق مقعد يوجد هناك بصفة دائمة، في الوقت الذي ظلّت فيه الخادم داخل المطبخ تعدُّ طعام الغذاء.. وكان عادل يلعب فوق حصانه الخشبي في الزاوية الأخرى من الحديقة، تشمَّمتُ رائحة النباتات والأزهار، ولم تكن تخلِّفُ في نفسي ذلك الأثر الذي كانت تخلفه في رائحتك النفاذة. كنت أتخيلك قادماً إليّ عبر الممر، إلى زاوية الحديقة. وبدأت تكبر في عيني، بشكلٍ جعلني أبدو أمام قامتك، مجرد لا شيء. يا لعظمتك التي تزداد يوماً بعد يوم!..

- انظري هؤلاء الأطفال.

- كم هم سعداء!
- وفي أعينهم براءة.. كبراءة الأشياء الجميلة.
- بل كبراءتك أنت.
- أنت تعبدينني..
- لِمَ لا؟
- هذا شيء صعب عليك..
- أبداً.. لا شيء بعزيز فيك عليك..

وضممتني بذراعيك النحيفتين الدافئتين، فوجدت نفسي، كما حدث لي مراراً، أولد من جديد في أحضانك. لا تقل كنت رومانتيكية. فأنا لم أكن ولن أكون إنما أحاول أن أكون، أليس في المحاولة اعتقاد؟ لا شكّ أنك تفهمني أكثر من الآخر.. فهو بأوهامه كلها أبعد منك إلي. فجأة.. يا للغرابة! تلاشى ظلك، واختفى شبحك من الممر في الحديقة، وكنت أتوقع أن يستمر في تضخمه وانتشاره كرائحتك، لم أعد أطيق ذلك الوجه الآخر للحياة. أصبحت عللها أقرب إليّ من محاسنها، فحتى الموسيقى لم تعد تستطيع النفاذ في هذا الفضاء إليّ.. وكنت أحبها وأعبدها. وكنت أتخيّل عندما أسمع مقطوعاتك المفضلة، أن الأشجار والممرات في الحديقة، ترقص لشبحك الذي ينتشر.

الهم

تعتقد عندما تحكي للناس عن همومك. أنهم يتفهمونك. .
تبحث عن سند في هذا العالم، لكنه في الحقيقة غير موجود عند
أولئك الناس. على العكس بل إنهم قد يزيدون في إذكاء جذوة ذلك
الهمّ.

الأشجار من حوله في الحديقة العمومية باسقة وخضراء، تتوزع
المقاعد على مسافات متقاربة. لا شكّ أن لكل هؤلاء الناس في
الحديقة همومهم الخاصة. لكن، لمن يحكون عنها؟ بعضهم يجلس
منفرداً، والبعض يتحدث أو يقرأ. يأتيه ضجيج السيارات والدراجات
النارية من الطريق فيصم أذنيه. أعصابه متوترة، بحيث إنه لم يعد في
إمكانه الآن أن يتحمل الاستماع إلى صوت محرك. ملجأ الانفعال:
سيجارة. وسوف تتلوها أخرى وأخرى حتى يجفّ الحلق والبلعوم.
وتمتد المرارة إلى اللَّهاة واللِّسان، ويشعر برغبة في القيء على إثر
دوخة تمتد إلى ألياف دماغه، ووهن يصيب كل أطراف جسده. .
يحلم بأصوات العصافير وبألوان ريشها المزدهية أو الداكنة، بأحجام
أشكالها. ثم يلتجئ مرة أخرى إلى نفسه. يرخي قدميه إلى الأمام،
ويحاول أن يحفر بكعبيه في الأرض. يضرب التراب ضربات خفيفة
ومتسترة، حتى لا يقال إنه أصيب بلوثة في عقله. ثم ماذا بعد؟ يرفع
قدمه اليمنى ويخبط بها على الأرض، فيسري في الرجل دبيب متنمل

يكتم شعوره بالألم، ويدير الكعب بعصبية في التراب. الأرض صلبة تتجذر فيها أحجار صغيرة ناتئة بارزة، أو مختفية، لا تظهر منها سوى رؤوسها كأسنان طفل في طور النمو. زقزقات الطيور وخشخشات الأشجار، وأشعة الشمس المائلة نحو الغرب وهي تتسرب من بين الأغصان والأوراق. كلها أشياء يمكن أن يتصورها. وهو يضغط بكعبه على التراب. صحيح أن لكل واحد همومه. لكنه لا يدري مقدار ضغط تلك الهموم على كل الناس. بقع الشمس كدنانير ذهبية متناثرة في الحديقة. هذا ما قال الشاعر العربي. وزقزقات الطيور، وخضرة الأوراق والأغصان المائسة والطيور التي تنتقل، ومسلم بن الوليد وأشياء أخرى. ولكن ماذا عن الوهم الذي يحمله كل واحد منا؟ لا شكّ أن الشعراء لم يتحدثوا عن مثل الهم الذي يحمله.

أنظر إلى الآخرين دائماً في صلف. كل واحد منهم يخفي شخصاً ثانياً. إنهم لا يتحدثون عن همومهم الحقيقية إلا لأنفسهم. وما من رجل استطاع أن يعترف لزوجته أنه يحب امرأة أخرى غيرها ومن امرأة فعلت العكس. لكلٍّ همه ولكلٍّ حقيقته. وأنت؟ لماذا تشعر أنك تريد أن تحكي لأي شخص كان. لا تكتفِ بحفر الأرض بكعبيك. يمكنك أن تنبشها بأظافرك أو بكرباج أو بفأس أو بعتلة، حتى يمكنك أن تختفي داخلها بكل ما تحمله من همٍّ.

لم يكن في مقدوره طبعاً أن يفعل ذلك. حارس الحديقة سيمنعه حتماً، وسيتجمّع حوله كل الذين لا همَّ لهم أو لهم هموم جعلتهم يرتادون هذا المكان اليوم أو في أيام أخرى. وسيصبح بفعلته تلك همهم الوحيد في اللحظة. لعبة طريفة يبحث عنها حتى الذين لا يرغبون فيها. ما أروع أن يجد الإنسان لنفسه اهتماماً! لكنه أصرّ على ألا يكون ضحية اللعبة. لنكن جميعاً ضحايا أو فلنوقف اللعبة. لتكن حياتنا جميعاً لعبة لا حياة أفراد بعينهم.

قالت الزوجة:

- لنأخذ الطفل إلى حديقة السندباد.

- وهل يحب ذلك حقاً؟

- طبعاً. إنه يحب الأشجار والأزهار والخضرة والليل وكل شيء.

- هذه أشياء توجد في كل مكان.

- لكنها في السندباد تختلف.

- كيف ذلك؟

- لا أدري.

- كل ما أدريه أن كل الحدائق تتشابه. ممنوع قطف الزهور. ممنوع المشي على العشب... إلخ.

صمت وأخذ ينظر إلى الزوجة وهي تحدق في المرآة المعلقة قرب التلفزيون. ليس هذا فقط، بل ممنوع أيضاً الاختلاء بامرأة. رجال القوات المساعدة موجودون في كل مكان. إن جميع الحدائق تتشابه. كان يتمتم. وقالت الزوجة:

- ماذا تقول؟

- لا شيء.

- إذن لا بدَّ من الذهاب إلى الحديقة.

- خذيه إليها.

- لنذهب جميعاً.

- ليس ذلك ضرورياً ما دام كل شيء يتشابه.

- لا بدَّ أن نذهب.

شعر بنشوة عابرة واسترخاء كلي. تنفس جميع صدره. لحظة التوتر الآن تلاشت، الكعبان ثقلا فوق التراب. كأن جسده لم يعد في ملكه، أصبح في ملك قوة أخرى خفية. زقزقات الطيور من حوله

تعالت، وتصور العديد من الفراشات وهي تحوم حول رأسه مكوّنة إكليلاً أو هالة. وقف وأخذ يمشي فوق العشب بخطوات ثقيلة. تدارك الأمر ثم غادر الأعشاب إلى الأرض المبلَّطة. بعض السيارات تعبر على طرف الطريق. هناك محركات أخرى يسمع هديرها في أماكن ما خلف الأشجار.. منذ أكثر من ساعة وهو وحده هنا. يجلس ثم يقف ثم يمشي.. قالت الزوجة:

- سأذهب لأؤرجح الطفل. إنه يحب ذلك.

- أرجحيه أو أركبيه سيارة كهربائية. افعلي ما يحلو لك.

منذ أكثر من ساعة وهي غائبة عنه، لم يفكِّر في الالتحاق بها. فضَّل أن يبقى وحيداً يجتر همه.

شيء رائع ومؤلم في الوقت نفسه أن يعيش الإنسان لحظات خلوة. لكن لا بدَّ أن تكون للوحدة حدود. مشى باتجاه البحيرة المائية. الناس ينظرون إلى الماء بلا مبالاة أو يتحدثون أو يتمشون أو يتغازلون. ورأى الزوجة تركض وراء الطفل وهو يكاد يسقط فوق العشب. ولما رأته صرخت:

- انظر إنه بابا.

قال الطفل:

- اركضي وراء بابا ودعيني ألعب.

اقترب هو منهما، وأخذ ينظر في الماء بلا مبالاة مثلما يفعل باقي الناس. أمسك الطفل بتلابيب بنطلونه.

- لماذا لا يسبح الناس في هذا الماء يا بابا؟

- غير ممكن. إنه ماء الحديقة. ممنوع قطف الزهور، ممنوع المشي فوق العشب. ممنوع الاختلاء بأنثى. ممنوع السباحة. ترك الطفل أباه وذهب يركض فوق العشب، ويقوم بحركات بهلوانية، يضرب كرة وهمية برأسه وبقدمه. أما هو فقد حاصرته الزوجة من

الخلف. لم يبدِ أدنى حراك. الوجه فيه قليل من العبوس، والنظرات مركزة في الماء. قالت الزوجة:

- إنك لست على ما يرام. هل ندخل؟

- كما تشائين.

- لا. كما تشاء أنت.

- لم تكن لي أبداً إرادة أن أشاء في يوم ما معك.

- معنى ذلك أنك لا تحبني.

- ما علاقة الحب بذلك؟

- لا أدري. غير أنه يبدو عليك كأنك تحمل كل أعباء العالم على كتفيك.

- ممكن.

أعباء العالم أم هي أعبائي الخاصة؟ لا أدري. لكن لكل الناس أعباؤهم وهمومهم. حتى البجع في الماء يمكن أن يكون له همّ البحث عن الغذاء. حتى العصافير في الفضاء والفراشات فوق الزهور في الخلاء.

التفت إليها. لا تحكِ همومك، بل احكِها. ما الفرق إذن؟ قال لها:

- لندخل إذن.

تأبطت ذراعه ونادت على الطفل. الناس كتماثيل، مسمّرون حول الماء وجامدون فوق العشب.

حتى السيارات لم يعد يسمع هدير محركاتها. جمود وشلل شملا كل العالم من حولهم. قالت:

- هل تحبني حقاً؟

- يمكنك أن تتأكدي من ذلك بنفسك.

- لكن يبدو عليك في هذه الأيام أنك دائماً مهموم.

- أكثر من ذلك، إنني محموم.

- هل تستطيع أن تحكي لي عن همك. إنني زوجتك؟

- أعرف ذلك. لكنني لا أجد القدرة الآن. سوف يكون ذلك في لحظة مواتية.

كان الطفل يركض أمامهما وهما يغادران الحديقة. مرَّ قرب المقعد الذي كان جالساً عليه قبل أكثر من ساعة، تلصَّص بنظراته ليرى الحفر التي صنعها بكعبيه. لم يكن هناك أي شيء. لا أثر لشيء. تجاوزا المقعد، وأخذ يلتفت بتلصُّص. انتبهت المرأة إلى ذلك.

- ما بك؟

- آ. لا شيء.

- لا، بل هناك أشياء. لماذا تلتفت كما لو كنت مطارداً.

- لا أدري. كنت أجلس هناك. خشيت أن أكون قد ضيّعت شيئاً. تنهدت الزوجة.

- أنت لست عادياً على الإطلاق.

- لا تؤاخذيني. لدي بعض الهموم.

- أشعر أحياناً أنني أسبب لك تلك الهموم.

- أرجو ألا يحصل ذلك. انتبهي للطفل.

لا تحكِ همك. لا أحد يتفهمك. كل الناس يتشابهون حتى الذين تعتقد أنهم أقرب إليك. إنهم يذكون الجذوة، ويبحثون عن ثغرة لإهانتك. كان يتمتم. وقالت الزوجة:

- ما بك؟

- لا شيء. سوف أحكي لك فيما بعد عندما نصل إلى البيت.

الذبابة والثور

رفع قدور ذو الوجه المتشقق الكالح يديه ولوّح بهما. فرّت الذبابة عن كأس الشاي وحطت فوق طفلته القذرة. لسعت الذبابة الطفلة فتربصت هذه الأخيرة بها. رفعت كفها بحذر وأنزلت بها ضربة عنيفة، لكنها غير قاضية. تمايلت الذبابة وفرّت سالمة بجلدها. توقفت عند طاقة الخيمة لتستريح. رأت الضوء النهاري فقررت أن تطير في الحقول.

كان الثور رابضاً تحت شجرة في يوم قائظ. وعندما أبصر الذبابة الهاربة توقف عن المضغ وأشار لها أن تقف. وقفت الذبابة عَلى ظهره ولسعته لكنه لم يقل شيئاً ولم يحتجّ بل تحمَّل اللسعة، وعندما أعادت الكرّة. قال الثور:

- أيتها الذبابة. ما هذا الذي تفعلين؟ هل أنت ضيفة أم عدوة؟

قالت الذبابة وهي تنظف رأسها بقدمها:

- لا عدوة ولا ضيفة. أنا مجرد هاربة، وإذا شئت فأنا لاجئة.

قال الثور:

- لقد عرفت ذلك. ولا داعي لإيلامي، خصوصاً أن ظهري مغطى بالجروح.

توقفت الذبابة عن مسح رأسها:

- إن العضّ واللسع من عادتنا. شيء غريزي فينا. أعتذر عن ذلك ويجب أن تتحمله.

- لا أستطيع.

- وإذن. أوجد لي حلاً. ما دمت في حمايتك الآن.

- عندي حلّ. الجئي إلى قرني فهو صلب. وأنا سأحملك طول حياتي إذا شئت أنت ذلك.

طارت الذبابة قبل أن تقرر هذا المصير. وقعت على غصن الشجرة، ورأت عصفورة تزقُّ عصافير صغيرة. فكرت ملياً في الأمر. ثم عادت وتوقفت عند قرن الثور.

قالت بقرار حاسم:

- عندي إشكال أيها الثور. وهو معقد بالنسبة إلي بسيط بالنسبة إليك.

- ما هو؟

- إني أريد أن أضع بيضي فوق قرنك.

ضحك الثور ملء شدقيه، ونظر هنا وهناك وهو يقول:

- أنت مجرد صغيرة هوجاء. ألا تعرفين أني حملت الأرض مدة بلايين من السنين؟

عندها صمتت الذبابة، وصمت الثور، وقرر أن تقيم الذبابة فوق قرنه إلى أبد الآبدين.

لماذا تأخر العشاء؟

ظهر الضوء راكداً من النافذة. ولاحت بعض رؤوس المدعوين، بينما غطى صخب الأمواج على حديثهم. أصبح حليم على مسافة من البيت لا تسمح له بسماع ما يقولونه. وقف حافياً وسط الظلام ولم تكن الليلة مضيئة أو مقمرة. التحق به كريم الذي كان حافياً بدوره وهو يلهث.

قال حليم:

- لقد شربت كثيراً.

قال كريم:

- وأنا أيضاً.

خرجت رائحة كريهة في الفضاء من خلف حليم.

أمسك حليم بيد كريم. سارا نحو الماء. فشعرا بالبرودة.

قال كريم:

- سنبلغ الماء، وسوف نصاب بالزكام.

قال حليم:

- غير ممكن لأننا شربنا كثيراً.

- معنى هذا أن الشراب يقي من الزكام.

قال حليم:

- تماماً.

قال كريم:

- لم أكن أعرف ذلك. شيء غريب حقاً.

- ليس غريباً ولا أي شيء.

فكَّ حليم أصابع يديه وأطلق يد كريم. لم يكونا يعرفان بعضهما سابقاً. الحفلة المسائية عند صديقهما هي التي عرفتهما إلى بعضهما. وبكلمة أخرى عندما شربا وتبادلا الحديث، راقا لبعضهما وقررا أن يخرجا ليشمّا الهواء إلى أن يحين وقت العشاء. صار حليم قدام كريم. لكن كريم نادى عليه بعد أن تجشأ.

- هيه!

قال حليم:

- ماذا؟

- لماذا تسرع؟

- لا أسرع. أتمشى ببطء.

- تعال نعود. انظر الضوء في النافذة. لا بدَّ أن العشاء قد هُيِّئ.

أخرج حليم رائحة كريهة للمرة الرابعة. شعر ببرودة الماء على قدميه الحافيتين. فمال على الجانب الأيمن. التَفَتَ ولم يتبيّن ملامح وجه كريم.

- إن العشاء سيتأخر. تعال نشم الهواء أكثر، لأنه داخل الغرفة خانق.

- لكنهم سيتعشون.

- هل أنت مجعوف؟

- لا.. لكنهم سيبحثون عنا في كل مكان.

- لن يبحث عنك أحد.

توقف كريم عندما شعر بشيء ينغرز في بطن قدمه. أزال الشيء وألقاه في الماء. كان صلباً ناتئاً. لكنه غير حاد. صاح كريم بنغمة متراخية ثملة:

- هيه!

لكن حليم لم يسمعه، لأنه كان لا يزال ماشياً متمتعاً ببرودة الأرض في الجو الحار.

أعاد كريم:

- هيه! أنت هناك.

أيضاً لم يسمعه. لم يكن ممكناً أن يسمعه. فتح كريم قميصه عن صدره، وتحسَّس شعره الكثيف الذي يغلف كل نصفه الأعلى. ركض وراء حليم لكنه لم يدركه. سقط فوق الرمل وأخذ يستمع بتأمل لصخب الأمواج. رفع عينيه، ورأى الرؤوس لا تزال تتحرك في النافذة وسط الضوء، وتمكن من التقاط بعض الأصوات، وقد دار على نفسه ببطء. ثم صاح:

- هيه! أنت اللي هناك.

لم يسمعه أحد. مشى نحو البيت، نحو الضوء، نحو النافذة. قال الصديق منظِّم الحفلة لكريم:

- أين حليم؟

قال كريم:

- إنه ينام في الإسطبل.

ضحك الرجل، وقال لكريم:

- ليس عندنا إسطبل.. لقد شربت كثيراً.

قال كريم:

- لا.. لم أشرب. إنه ينام وسط الأشجار.

ضحك الرجل:

- لم تشرب كثيراً.. معك حقّ، لكن ليس هنا أشجار.

قال كريم:

- لا أدري.

قال الرجل:

- ادخل لتتعشى.. سأبحث عنه.

لعبة أمام البوند ستريت

مباشرة، أمام البوند ستريت توقفنا. أدخلت فتيحة إصبعها في أنفها فلكزتُها. أرخت ذراعها إلى جانبها ومسحت إصبعها في بنطلونها. نظرت في الواجهة ثم قالت:

- هنا.. ذلك.
- أين؟ أرى أسورة كثيرة.
- ذلك الفضي، ذو النقش.
- إنه سوار جيد.
- يجب أن أعرف ثمنه على الأقل. تدخل أو أدخل؟
- ادخلي أنت..

ضربتني بحقيبة يدها ثم وقفت بباب المتجر وترددت برهة. تحركت أنا بعيداً من الواجهة وأخذت أنظر في لا شيء. نساء كثيرات وجميلات يغرينني. التفتُّ فوجدت فتيحة لا تزال بالباب، لكنها أخيراً اختفت داخل المتجر. ضربت مربعات الطوار مراراً بحذائي كما لو أني أختبر قوتها أو قوة حذائي. في الواقع، لم أكن أختبر هذا أو ذلك. فقط كنت أتسلى.

خرجت فتيحة من المتجر وهي تلعب بحقيبتها. تضرب بها فخذها. التحقت بي، وقلت:

- كم الثمن؟

- لا أدري.

- لم تسأليها؟

- لا . . تفرجت قليلاً فقط.

- هل معها العجوز؟

- لا. وحدها.

ضربت مربعات الطوار بحذائي. بينما فتيحة مسرورة تدير حقيبتها في الهواء وتضرب بها فخذها وركبتها. قالت: «آي».

قلت:

- اهدئي. أنت طفلة.

توقفتْ عن إدارة حقيبتها في الهواء. وقالت بجد:

- إن المدام وحدها.

- لم تسألي عن الثمن.

- لا. تعال ننظر مرة ثانية في الواجهة. يمكن أن يكون الثمن من الخلف.

مشينا نحو الواجهة. أخذت فتيحة تشرئبّ بعنقها لكنها لم ترَ شيئاً. لم أرَ بدوري شيئاً. قلت لفتيحة:

- ندخل لنسأل عن الثمن.

سبقتني ودخلت إلى المتجر. تبعتها من الخلف. رأتني المدام وقالت:

- موسيو.

قلت وأنا أشير إلى الواجهة:

- هذا السوار.

أدارت وجهها وذهبت إلى المرافع تسحب بعض العلب الكرتونية وهي تفتّشُ داخلها. فتحت فتيحة حقيبتها بخفة. ودلت العقد داخلها. عادت المدام وقالت:

- لم يبقَ معنا سوى ذاك.

- طيب كم الثمن؟

- (. . .)

- في المدينة القديمة يساوي ثلث هذا الثمن.

قالت المدام:

- نحن ندفع الضرائب. ثم إن صنعتنا جيدة نجلبها من الجنوب. كل ما في المتجر أصيل.

- طيب. خفضي الثمن.

- غير ممكن موسيو.

خرجت فتيحة قبلي وأنا أتحدث إلى المدام. وقفت عند الباب ونادت علي. قالت:

- نعود مرة ثانية. بون شانس مدام.

قالت المدام:

- إن كل ما عندنا أصيل.

وضعت ذراعي في ذراع فتيحة. عندما ابتعدنا دخلنا الكابوتشينو وطلبنا مرطبات باردة جداً بالشانتييه. أخرجت فتيحة العقد ووضعته في يدي. تأملته كثيراً. أعدته لها. فتحت حقيبتها وألقته فيها. كان للشانتييه طعم لذيذ في فمي. وكانت فتيحة تأكله بنهم.

ظلت رجلاه ممتدتين إلى أسفل كقطعتي خشب. شيء خفي لا إرادي يحركهما. تحت الحذائين كان ماء البحر المصطخب يتكسر على جمود ثابت للأحجار. لا تزال الرجلان تتحركان في الهواء. وعلى بعد 200 متر يبدو أشهب كجزء من الحجر الذي يجلس عليها. لا فرق. كل شيء رمادي وناتئ. حتى الماء المصطخب كان يبدو لأشهب رمادياً رغم زرقته التي تستحيل إلى بياض ناصع عند نهاية المسافة بين الماء والحجر. عدة أشكال مرسومة في الفراغ. قدماه تتحركان وترسمان بعفوية هذهِ الأشكال الغريبة التي لا تجوز على حيلة الهندسة. (مثلثات متشابكة.. دوائر.. شبه منحرفات.. مضلعات.. أقواس وأوتار..) وباقي الأسماء الأخرى التي تعلمها في المدرسة وهو صبي. أمسك بقطعة حجر صغيرة. حوَّلها من يد إلى أخرى بخفة وسرعة. ثم تساءل ما عساه أن يفعل بها. لم يكلِّف نفسه عناء الإجابة. ألقى بقطعة الحجر في الهواء وتلقفها بقدمه اليمنى فصوتت بخفوت. تشمَّم رائحة المكان. لم تكن الرائحة عادية. جثث الأسماك لا تزال تتراكم هنا يوماً عن يوم. فهو كلما جاء إلى هذا المكان وجد أن الرائحة تزداد حدّة. وأن هياكل هذه الحيوانات الضعيفة لا تنقرض وإنما تتكاثر في مدة وجيزة. أكوام من عظام الأسماك، ورائحة حادة، وقطط متوحشة، وأشهب ينظر في

الماء. ينظر بإمعان وقد تدلت رجلاه بتعب. لم يمشِ كثيراً ولكنه تعبان. إنه يحس كما لو أنه تمشّى كثيراً. ففي أسفل قدميه تنمل، وفي باقي أجزاء رجليه تنمل.. رائحة المكان نفّاذة وحادة. ونظر إلى الصيادين المنتشرين على حافة الماء. كان بعضهم قد توغّل، وكان البعض على السور الحجري، وقد تدلت من الأيادي سِنّارات.. والسلال التي تنتظر أن تملأ متشابهة في حدٍّ ما (صُفرة مشوبة بسواد، زيت كبد الحوت، مع الطين، مع القصب). وتدلت قدماه وازدادت حركاتهما فوق الماء. نظر بوجه السماء، وتمنى لو كانت له سنّارة. لماذا لا يشتري واحدة، ويأتي إلى هنا، ويمارس مهنة «شريفة»؟ هؤلاء الصيادون لا يصطادون كثيراً من الأسماك. ورغم كل شيء فهم يعيشون أحسن مني.. ثم إن وراء كل سلة عائلة كبيرة العدد يذهب أبناؤها إلى المدرسة والمستشفى. وأنا؟ 19 سنة.. لا دراسة، ولا عمل.. كانت آمالي كبيرة ذات يوم. وكنت أودُّ أن أصبح شيئاً مهماً.. وها أنذا أصبح لا شيء. وما زالت قدماه تتحركان وقد انحنى قليلاً ينظر في الماء. تقوس ظهره بمرونة وشكّل قبة فوق السور الحجري المتوغل في البحر. رفع رأسه واستعاد وضعه الأول، ثم جذب قدميه واستدار، بحيث أعطى ظهره للماء. أصبحت البيوت في مواجهته.. ووضع يديه على ركبتيه، ثم حولهما.. وأخذ يتأرجح على عجيزته (أمام - خلف - أمام - خلف - أمام...). كان بيتهم الصغير لا يبعد من المكان إلا بمسافة 300 أو 400 متر. لقد استيقظ مبكراً هذا الصباح.. وأعتقد أنه سيجد أباه نائماً اليوم، وأنه استيقظ قبله. لكنه لم يجده. يقال إن أباه يستيقظ قبل الفجر، ولا ينام إلا قليلاً.. إن سكان الحي يعرفون ذلك عنه، ويتندرون به، ويدخِلون أبا أشهب في نكتهم إذا كانت النكتة تدور حوادثها في الصباح.. ويشد بكل قوة على ركبتيه.

وأصبح مركز الثقل في عجيزته (أمام - خلف - أمام - خلف - أمام. . .). كانت البيوت قصيرة وصغيرة جداً. . لقد حصلوا على بيت منها برخصة امتياز من طرف مسؤول لأن أباه من قدماء المحاربين في صفوف الجيش الفرنسي. . وهو اليوم يستيقظ مبكراً، لا ليذهب إلى الصلاة ولكن ليذهب إلى مكان لا يعرفه أشهب، (أغلب الظن أنه يذهب عند ولد عيشة ليشرب الحريرة وليدخّن سبسياً أو سبسيين). قال لنفسه. وكانت الرائحة منتشرة في الفضاء تزداد حدّة ولُزُوجة، بحيث شعر أن عملية التنفس أخذت تعسر على رئتيه. كان السور الحجري قد فقدَ لونه الأصلي وأصبح أسود. ودعك أنفه، وتأمل اصطفاق الماء، واستمع إليه. صوته خاص، شبيه بصدى الصفعة على قفا عريضة، وتابع استقامة ظهر ساقيه بنظراته المتراخية. وقال لنفسه إنه يجب أن يعمل أي شيء. ولكن ماذا يعمل؟ في كل صباح، يأتي إلى هنا بلا جدوى. ونظر إلى الصيادين الذين أصبح يعرفهم الواحد بعد الآخر. عباس، حسين، بوضربة والآخرون الخارجون من دائرة وعيه. وما زال يتأرجح أمام - خلف - أمام. . . وفكّ يديه عن ركبتيه ووسَّع بينهما. دخلت كمية من الهواء إلى الفجوة بين ساقيه وأزعجته فوقف ونظر في الماء البعيد، ومدَّ يديه وتمركز في الفضاء فأصبح كالصليب. تثاءب ثم رجع إلى الخلف وفكّر أن أباه قد يكون رجع الآن من جولته الصباحية في المدينة. ومضى بتثاقل والشمس تضرب رأسه بإلحاح. وأحبها ومضى. قال: أشهب أنت، يجب أن تعمل شيئاً. (في صباحٍ مثل هذا، ذات يوم، وجد نفسه خارج الثانوية يبكي بحرقة. طردوه لأنه اشترك في إضراب قالوا إنه كبير وطردوه ولم يطردوا الآخرين. ولم يكن وحده هو الذي أضرب. أبوه لم يكن يشتغل ولكنه يتقاضى راتباً شهرياً بسيطاً. وعندما علم بطرده قال له: مزيان. وكرر: مزيان،

مزيان واكتفى بذلك ونحّاه جانباً وخرج). كانت الشمس تضربه في كل شيء. وغاصت قدماه في أكوام السمك وفي الهياكل العظيمة، وعبر السور الحجري إلى حسين، وجلس إلى جواره بعد أن سَلَّم باقتضاب ونظر في سلّته. نقل حسين يده إلى البانانا فوق رأسه ونظر في الماء. كان يجلس القرفصاء وقال لأشهب:

- أمس كان أحسن من اليوم. انظر. سمكتان فقط منذ الصباح. ونظر أشهب ولم يقل شيئاً. فطأطأ ثم بحث في جيبه عن شيء لم يجده. إنه يجلس هكذا دائماً حتى يحين وقت الغداء. فمنذ أن طردوه وهو يبحث عن عمل، غير أنه لم يجد. لم يكونوا يسألونه حتى عن مؤهلاته. ببساطة كانوا يرفضون. وفي أذهانهم (كما اعتقد هو بذلك) أن هذا شيء غير ممكن (ماذا؟ - العمل؟). ومسح كفّيه ببنطلونه وقال باختناق لحسين:

- هات واحدة..

وقال الآخر: فتِّش تحت السلة.. وفتّشَ وأخذ يدخّن بشوق. وهنا، لم يعد يسمع اصطفاق الماء. لأنه ابتعد من السور.. مجرد حفيف بسيط شبيه بحفيف الأوراق يدخل في إحساسه. شعر أن طاقات تلج في عضلاته كلها. طاقات تعبر عروقه وتنغرز في اللحم والدم والأعصاب.. أحس أنه قادر على كل شيء في الوقت الذي لا يقدر فيه على شيء. وشعر أنه قوي كالحصان في الوقت الذي ماتت فيه قوته البشرية وتلاشت. وامتصّ السيجارة ونظر في الماء البعيد الأزرق، واستمع لحفيفه، وأبصر البانانا فوق رأس حسين وهي تتحرك تحت ريح خفيفة. وراودته هذه المرة أيضاً فكرة أن يشتري قصبة وسلة ويأتي إلى هنا فيصطاد كما يفعل الآخرون. غير أنه لم يكن يعرف ما الذي يمنعه من ذلك. هل هو الكسل؟ هل هو الإحساس بالعظمة أم الإحساس بالتفاهة؟ لم يكن يعرف. كيف لي

أن أعرف. أنا لم أمسك بقصبة في يدي طوال أيامي الماضية. ثم ماذا تستطيع أن تفعل سمكتان اثنتان؟ إن ثمنهما لا يساوي ثمن خبزة واحدة أو سيجارتين. ودخّن بشوق. واجتر كتلة من الهواء. عبرت القصبة الهوائية واجتازتها إلى الرئتين فانتفختا ثم انبسطتا ببطء، ونظر في الأسفل، بين قدميه. وقال له حسين الذي كان يهز قصبته هزّات خفيفة.

- ماذا يفعل الأب؟ (ولم ينظر إلى أشهب). وانهمك هذا الأخير في تأمله، وبعد لحظة صمت، خرجت الكلمات من أنفه:

- كالعادة. خرج هذا الصباح مبكراً، وسوف يعود إلى البيت وقت الغداء.

- ماذا يقول لك؟ هل لا يزال يمرمط كالمعتاد؟

- نعم، هل تعتقد أنه سيتغير؟ إنه يمرمط ويمرمط. ويقول إنه حقق أمجاده. وأنا؟ ماذا فعلت؟ لا شيء. ويقول - أنت تعرف ذلك - إنه استطاع أن يهيِّئ لنا بيتاً وإلا لكنا نسكن الآن في بيت قصديري، هناك في ضاحية المدينة.

وصمت أشهب، وحكّ سرواله بأظافره. كان يحاول أن ينتزع طبقة الأوساخ الملتصقة بالسروال ولكنه لم ينجح في ذلك. ونظر في حذائه المصنوع من القماش الأزرق. لقد بدأ يهترئ. وأخذ لونه يستحيل ويبيضّ بفعل الشمس والمطر.

كان هناك أطفال تتفاوت أعمارهم، يقفزون فوق السور الحجري، عبر الماء الأزرق المصطفق. وقال حسين بنفخة خاصة وحادة:

- أنا قلت لك، ابحث عن جواز سفر، كلهم ذهبوا.

قال أشهب:

- أنت لا تعرف أي شيء. لذلك فأنت تطلب المستحيل. ولم

يتكلم حسين. واستمر ينظر في رأس قصبته، وحمل كفّه إلى رأسه فسوى الباناما المصنوعة من القش. وصمتا زمناً يسيراً. كانت قدما أشهب تغوصان في الأرض، ورائحة المكان تجتاح أنفه وتقلص رئتيه، وعلى بعد أمتار من اليمين ومن اليسار كان الصيادون منتشرين. فانثالت في رأسه من جديد فكرة اشتراء قصبة. ولكنه توقف وفتح فمه ليتثاءب وقال:

- هل تذهب؟

- لا.. لم أصطد شيئاً.

وعبر المكان، ولم يعد يُسمع للماء أي صوت. توقف عند حافة الطريق حتى تعبر السيارة القادمة من اليمين. تقدَّم إلى الأمام ثم تأخر بسرعة كما لو كان سيسقط في هاوية سحيقة. ووقف بصلابة على حافة الطريق، نظر إلى الوراء، ثم إلى اليسار. ورأى فتى وفتاة في سيارة وهما يتكلمان. قال لنفسه: إنهما محظوظان. يمكن أن يكون أبوه وصل إلى البيت. فجولته الصباحية تنتهي وقت الغذاء. فبقدر حرصه على الاستيقاظ مبكراً، بقدر حرصه على حضور الغداء، يومياً، قبل أن يُعدّ. سيجلس أمام أبيه وأمه وأخويه الصغيرين اللذين يعودان من المدرسة في وقت واحد، وسوف يأكلون جميعاً في صحن واحد طعاماً خالياً من البروتينات وسيستمع، كالعادة، إلى أبيه وهو يمرمط.

(- من فعل هذا؟

- فلان.

- مزيان). ولا يضيف شيئاً. يقول: مزيان ويسكت، ويبحلق بعينيه في البثور على وجه الجدار ويستمر في الأكل، ولا يتصرف إلا باعتداد الجندي المنتصر. ومع ذلك أشهب لا يهابه بقدر ما يستاء من صوته القبيح، وعباراته التي تخز. أنت كالبغل، يجب أن تعمل

شيئاً. من قال لك أضرب؟ لقد طردوك وتركوهم لكي يحصلوا على مراتب عالية، قالوا إنك كبير ومسؤول. قل لهم: لا، لست أنا الذي نظّمت الإضراب.

ويصمت ويأكل. العبارات نفسها، والتجهّم نفسه في الوجه، والتجاعيد نفسها على الجبين. اجتاز أشهب الطريق. كانت أفكار معتادة تثقل رأسه، العمل، والأب، وأخواه وأمه. وكان هناك شيء آخر يشغل تفكيره. لم يكن أحد غيره يعرف هذا الهمّ. علاقته مع فتاة لا تزال تدرس.. الآن، وبلا أدنى لطف، أصبح يعاني ويعترف بقساوة الحب المستحيل. كانت هناك عدة وعود صادقة، الزواج والأولاد والسعادة، غير أنه أخذ يشعر بتلاشي الأحلام في الهواء. وشعر أكثر بمرارة الواقع. فالوظيفة أصبحت اليوم أحد المستحيلات، والحصول على عمل أصبح شيئاً مستحيلاً كذلك. إن الإنسان لا يستطيع أن يبني نفسه من غير وضعية اجتماعية تميِّزه كما تميِّز الآخرين. لكن ما الذي يميزني أنا اليوم، لا شيء. عاطل معترف به من طرف الجميع، وهذا لا يعطيني أي تمييز. وشعر أن قدميه تخونانه كما لو كان مُقدِماً على عملية إجرام غير مبيتة. سوف أحاول أن أبكي بمرارة عندما أخلو بنفسي. لقد بكيت وهذا لم ينفعني في شيء. وفكر أن يتأخر عن وقت تناول الغداء مراراً. غير أن وازعاً خفياً كان يمنعه من ذلك. لحظتها آمن أن للأشياء الخفية سيطرة قوية على تصرفاته وسلوكه. إن تلك الأشياء الخفية هي التي تجعل أبي يستيقظ كل صباح مبكراً ويغادر البيت. وهي نفسها التي تجعله يمرمط باستمرار، وتجعلني قلقاً في الوقت الذي أكون فيه في حاجة إلى راحة. وعندما وجد نفسه في البيت قال لأمه:

- هل عاد أبي؟

- إنه في المرحاض.

وأمسك أنفاسه. . دخل إلى الغرفة وتكوَّم على نفسه، نظر من النافذة الضيقة إلى الفضاء الأزرق الفسيح. وبقي في وضعه ذاك فترة غير يسيرة. كانت تدور في رأسه أفكار معادة. ولكنه كان يجد اجترارها تسلية وتعويضاً عن الفراغ المقيت الذي يحسه في حياته. وتذكر أن أباه سوف يواجهه كالعادة كل يوم بتلك الأسئلة القاسية. وفكر من جديد وأمعن النظر في الفضاء الأزرق الفسيح. ثم رفض أن يظل في وضعه ذاك، وقفز بسرعة كمن يستعدُّ للمبارزة وغادر الغرفة فواجهته أمه:

- إلى أين؟ ألا تتغدى؟

- لا. . سأعود.

كانت صورة أبيه وهو يمرمط ويعيد جمله المكرورة المملة تتضخم في رأسه. شعر أنه لن يستطيع بعد اليوم تحمل تلك الإدانة التي يوجهها إليه العالم من حوله، خصوصاً أن الإدانة لم تكن مبررة. ماذا فعلت؟ ما فعلت؟ وواجهه البحر والسور الحجري على بعد 300 أو 400 متر. وعَبَرَ الطريق التي كانت خالية، ثم ملأت خياشيمه رائحة السمك، وداس فوق الهياكل العظمية. . رأى حسين لا يزال في المكان وتوجه نحوه ثم ألقى بنفسه قربه. فوجئ حسين وقال وهو ينظر في الماء:

- هل تغديت؟

قال أشهب:

- نعم (وكانت أمعاؤه فارغة). وصمت للحظة. تشمم أشهب الهواء بغضب، وعيناه في الماء. فكر أن يقول لحسين إنه لم يتناول شيئاً وأنه جائع وأنه كذب عليه. ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية. وقال له:

- ناولني واحدة.

قال حسين:

- فتِّش تحت السلة.. ليس معي سوى اثنتين.

وفتَّش أشهب، وأخذ يدخّن بعمق. كان يشعر بالتِهاب في رئتيه. وحوّل عينيه يميناً ويساراً. لا يزال الصيادون منتشرين. ونظر في الماء البعيد. وأخذ يحلم برحلة طويلة الأمد. وفي تلك الأثناء استطاع حسين أن يتلقف سمكة في الهواء ويضعها في سلته. لكن أشهب كان لا يزال يحلم. ولم يكن من عادته أن يحلم كثيراً، اقترح حسين أن ينهضا.

- سأذهب لأتغدّى.

قال أشهب:

- طيب، اذهب وحدك أنا تغديت.

وعندما انصرف حسين، بقي أشهب وحده بين السور والماء والرائحة..

المشلول والزانية

كانت لطيفة معنا، امرأة ذات قلب طيب. تبتسم دائماً في خفر وحياء وحتى عندما كنا نقترب من كوخها القصديري، ونحدث لها شيطنة ما، فإنها لم تكن تعبأ بذلك. كانت أمهاتنا قاسيات علينا أكثر منها. أغلب أمهاتنا كنّ شريرات لا يرحمن، إن اللطم والركل والشتم والأشياء الأخرى التي كنّ يتلقينها من أزواجهن يصببنها علينا انتقاماً: «ما تركه أبوك، تكمله أنت يا ولد الخنزير. انظر إلى جسد أمك، ما عاد يكتسي لحماً، لم يعد جسد أمك إلا عظاماً». تقول ذلك أية أم ولو كانت تزن طناً، حتى لو تدلّى ثدياها ككيسين، أو انتفخ حنكاها مثل طبلين، أو تكورت مؤخرتها مثل هضبة. لكنها هي، كانت لطيفة. غير أنه لم يكن لها ولد ولا عقب. لا شكّ أن حبها لنا هو نتيجة لذلك.

قال ولد الخالية:

- إنها عاقر، وقد زارت كل الأولياء والفقهاء من دون جدوى.

وقال ولد الدارية:

- ربما كان زوجها لا ينجب. امرأة مثل تلك مشحمة ملحمة لا يمكنها إلا أن تلد أولاداً مشحمين ملحمين مثلها.

وقال ولد الغالية:

- يُقال إنه عاجز جنسياً. كيف يمكن لمشلول النصف مثله أن يعرف امرأة. إنها مسكينة وبئيسة.

كانت هذه الأشياء غامضة بالنسبة إلينا. كل زوجة وزوج لا بدَّ وأن يتم بينهما ما يجب أن يتم بين زوجين، مهما كان أحدهما مشلولاً أو معتوهاً أو قبيحاً أو أعرج أو أقرع. طبعاً، هناك امرأة واحدة تشكل استثناء، هي زوجة بائع الفول المسلوق، فقد تجاوزت زوجها الجبلي إلى رجال آخرين. الكثير من الأولاد عرفوها إلا أنا. كنت لا أحتمل قذارتها المفرطة وأتأفف منها، فهي دائماً وسط البعر والروث والزبل تلقّمه للنار تحت برميل كبير تصبُّ فيه يومياً حوالي نصف كيس من الفول، وتظلُّ يومها جاثية على ركبتيها تنفخ على النار بفمها أو بشيء في يدها قد يكون قطعة قصدير أو كرتون، ومؤخرتها البضة مرفوعة إلى أعلى.

ردَّ ولد الدارية:

- لا يمكنه أن يكون عاجزاً. إنه مشلول القدمين وباقي جسمه سليم، الزيوت المسمومة شلّت أقدام كثير من الناس ولم تشلّ سيقانهم أو أفخاذهم أو باقي أجسامهم.

قال ولد الغالية:

- كيف عرفت أنه ليس عاجزاً. لو لم يكن كذلك لما حصل ما حصل.

- قد يحصل أمر مثل هذا حتى لو كانت المرأة تحب زوجها.

أن يحصل ما يحصل بالنسبة إلى امرأة تحب زوجها أو لا تحبه، شيء لم يمكن في مقدورنا - على الأقل في مقدوري أنا - أن أعرفه، ما كنت أتصور ذلك لو أن الأمر وقع في غيبة عني، ولكن، وقد رأيت كل شيء، تيقّنت أن كل ما يستحيل حصوله في الحياة، قد يحصل بهذه الطريقة أو تلك.

توقفت سيارة البوليس قرب الكوخ القصديري. كنا نركض وراءها ولحقناها بسهولة، لأن التراب السيفي يعرقل سرعتها. كم من مرة كادت أن تتوقف. وكنا نحن أيضاً نتوقف بعيداً منها خشية أن يلقونا داخلها، وعندما توقفت أمام كوخها قال واحد:

- لا شكّ أن زوجها يتاجر في الكيف.

- إنه يتاجر فيه بالفعل، رغم أني لم أرَه مرة واحدة يدخنه.

- كثير من تجار الكيف لا يدخنونه.

- إنها ليست في الكوخ، فهي لا تعود إلا في المساء. يقال إنها محظوظة في إيجاد العمل كغسالة عند الفرنسيين.

- إنها تعرف كل الضباط. حتى قائد القاعدة العسكرية البحرية تعرفه.

وقف بصعوبة مستنداً على السيارة. كنا نراقب كل شيء من بعيد. نزل الشرطي الأول ثم الثاني. تظاهر الأول بتهديدنا فتفرقنا. فرّ الصغار بعيداً واختفوا في جحور مظلمة من القصدير. كان الشرطي الثاني يضرب الباب بجزمة حذائه. التحق به الأول وأخذ يتطاول بعنقه. أخذ يفعل مثل الثاني لكن بشكل أكثر عنفاً.

- لا بدَّ أن اللصوص وقعوا في أيدي الشرطة. أراهن على أن بوسروال هو الذي يوجد داخل الكوخ.

- انظر خلفك، بوسروال يوجد هناك. لو سمعك لفكّ رقبتك عن جسدك.

- وإذا لم يكن هو، فولد طامو.

ظلَّ الشرطيان يضربان القصدير بجزماتهما ويتطاولان بعنقيهما. استمر ذلك أكثر من عشر دقائق. المشلول متكئ دائماً على السيارة، يبحلق في تيهان. يمشي قليلاً بصعوبة ظاهرة مستعيناً بعصا طويلة.

لون وجه متغيّر. أزرق أكثر من اللازم. مزيج من الازرقاق مع الاصفرار. انحلَّت رزته عن رأسه فتدلَّى طرفها على كتفيه، سوّى الرزة باضطراب شديد. استمر الضرب بالجزمات، شتمنا الشرطي بكلام بذيء جداً، حتى لو سمعته أمهاتنا، ما كان في مقدورهن أن يرددن عليه.

- إذا لم يخرج أولئك اللصوص، فإن بمستطاع الشرطي أن يحرق عليهم البراكة.

- لا يستطيع أن يفعل.

- أراهن على أن بإمكانه أن يفعل. ذلك بمستطاع رجل فمه كمزبلة.

- لو سمعك تقول هذا الكلام لأطلق عليك رصاصة. يستطيع أن يصيبك بسهولة. لا شكّ أنه متدرِّب على صيد الأرانب.

تراجع الشرطي البذيء اللسان. كاد أن يسقط لأن إحدى قدميه توغّلت في حفرة. تقدم كالثور نحو الباب فأصبح داخل باحة الكوخ. أعطيت لنا الفرصة لكي نقترب أكثر لأن الشرطي الثاني كان ألطف، وهذا لا يمنع من أنه فكّ العصا عن حزامه واستلَّ القيد. المشلول يظل واقفاً ينظر بعينين زائغتين. لوّح بعصاه جهتنا، ولكنا كنا ندرك أنه لا يستطيع أن يؤذينا، ولو استطاع لفعل. عرفت فيما بعد أنه كان بإمكانه أن يفعل لأن غريزة الشر متأصلة في كل الناس بقدر ما هي متأصلة غريزة الخير أيضاً، اختفى الشرطي الآخر داخل باحة الكوخ القصديري. لم يختفِ كلياً، ولكن نصف جسمه كان يظهر لنا، وكان في مستطاعنا لو اقتربنا أكثر أن نرى قامته كلها.

ارتفعت أصوات من هناك، هي أشبه بالعويل والبكاء والاستغاثة، أصوات فيها ضعف وذُل إنسانيان، تملّكت جسد المشلول رعدة قوية، وبدا كما لو أنه تخلص من مرضه المستديم،

لأنه قام بحركة لا يستطيع من كان في مثل حاله أن يقوم بها، عرفت فيما بعد أن الانفعال يمكن أن يوقف المقعد، وأن يقعد الواقف.

دفعت هي الأولى، فبصق عليها زوجها المشلول، لم يحرمه الشرطي من رغبته في الانتقام. أيضاً، ساعده على ذلك، حينما أدخل عصاه في مؤخرتها ودفعها نحو السيارة. كانت تحمل مجمراً وطجيناً. تبعتها امرأة أخرى لم تجد الوقت الكافي لارتداء جلابتها بشكلٍ لائق. كانت تبكي وتلطم فخذيها. تبعهما رجلان، أحدهما يضع طاقية على رأسه، والآخر يبدو أنه فاقد لإحدى عينيه. أيدي الرجلين مقيَّدة. أحدهما كان يصرخ ويبكي دون أن يخجل:

- لن أكررها أبداً. لمن سوف أترك أبنائي وزوجتي؟

ارتفع صفير الصغار والكبار منا. في حين تهاون الزوج على التراب السيفي، وأخذ يبكي بحرقة. يا إلهي! كم تغيّرت تلك المرأة. لقد تحولت من ملاك إلى شيطان في لحظة قصيرة. ما كنت أصدق ما أرى. وحاولت أن أقنع نفسي بأن الأمر لا يتعلق بها، ولا يمكنها أن تفعل ذلك الشيء المشين. هوى أحد الشرطيين على كتف الرجل الذي كان يبكي دون أن يخجل لأنه أخذ يتلكأ في المشي. دفع الأربعة نحو السيارة. كاد الطجين والمجمر أن يسقطا عن رأسها، في النهاية سقطا. انتشر مرق ولحم على التراب. فتحَلَّبت أفواهنا. المرق المزيت يعكس أشعة الشمس. لكن الشرطي البذيء أخذ يدك بجزمته كل شيء. صفعها ودفعها داخل السيارة، دفع الثلاثة الآخرون بعنف أيضاً. ركب الشرطيان وتحرَّكت سيارة الجيب. أخذنا نتزاحم، نتجمع ونتفرق، نشتم بعضنا أحياناً. دارت السيارة في مكانها بصعوبة، ثم انطلقت جهتنا بسرعة، فسقط بعضنا على بعض، لكننا نجونا بأنفسنا من حماقة شرطي بذيء. الغبار يتصاعد خلف السيارة، وقد غطى صوت المحرك على العويل

والبكاء، أخذ المشلول يضحك بهستيرية ويضرب الأرض بعصاه الطويلة. ركض الجميع وراء سيارة الشرطة. التقط بعضهم أحجاراً صغيرة وأخذوا يطوحون بها في الهواء. كانوا يتحدثون عنها ويشتمونها، قالوا إنها ستدخل إلى جهنم. كل أولئك الأربع سوف يدخلون إلى جهنم. لم أكن معهم ولم أشتمها ولم أطوح بحجر. بقيت في مؤخرة المجموعة التي تركض، بل ظللت أفكِّر، هل هي حقاً امرأة لطيفة وطيبة القلب؟

السابع

قالت نوارة:

- لا بدَّ أن نجلب جوقاً في حفلة النساء تلك لأنه لا يمكن أن تحلو حفلة من دون طرب ورقص.

قال أحمد:

- لو طلبت مني الزوجة الأولى ذلك لما حققت لها هذه الرغبة. أنت تعرفين المكانة التي تحتلينها في قلبي.

نوارة تبلغ الثانية والعشرين، صغيرة الحجم، أنفها أقرب إلى أن يكون أفطس. غير أن ما يغطي على ذلك تورُّد وجنتيها ووجود ذلك الخال قرب الأنف عند الحنك الأيسر. جسدها لا يبدو ذا بال، لكنها عندما تتعرى تصبح امرأة حقيقية بين يدي الرجل. أي رجل. لذيذة بشكل لا يمكن تصوره، مثل فاكهة ناضجة في غير موسمها. لذلك قال أحمد.

- تعرفين أيضاً أنني أُلبي كل طلباتك. لكن جوقاً من الرجال لا أتصوره بين مجموعة من النساء.

- وأنا أيضاً، لا أتصور جوقاً من النساء بين مجموعة من النساء.

- سوف أحضر لك جوقاً من العمي. كثير من الحفلات النسوية يحضرها جوق من العمي.

حكّ أحمد تحت إبطه. تفرَّس فيها بنظرات جد حادة. تأمل جسدها الصغير الحجم، اللذيذ مثل فاكهة في غير موسمها. هذا الجسد الذي يغطيه زغب أصهب مثل زغب الخوخ، لا يمكن لجوق من الرجال أن يغني أمام امرأة مثل هذه. لكن لا بأس إذا كانوا عمياً.

قالت نوارة:

- هذا ولدنا الأول. ويجب أن يكون احتفالنا بسابعه احتفالاً يغلق أفواه النساء والرجال معاً، وأنت تعرف أن الناس يتحدثون حتى عن الأشياء التي لم يروها ولم يسمعوا بها.

- إذا جلبنا جوقاً من العمي فإنه لا يمكن لأحد أن يقول شيئاً.

- كثير من الناس يقيمون حفلات يختلط فيها النساء بالرجال.

- أنا لست من أولئك الناس.

تظاهرتْ بالغضب. شعر هو بذلك. لكنه لا يستطيع أن يفعل أكثر مما يفكر فيه. هذا قراره حتى لو كان يموت من أجل زغب الخوخ. نوارة أرادت ما أرادت. وأحمد أراد ما أراد. غير أن أحمد أراد ما لم ترده نوارة.

ثم سُمعت الزغاريد والتصفيقات. ودخل جوق العمي، متماسكين مثل عربات القطار، واصطفوا في مكان معيّن. احتكت أفخاذ بعضهم بأفخاذ بعض النساء. منهن من تجنبن ذلك، ومنهن من رغبن في دفئه. هذا سابع سوف يغلق الأفواه. أفواه النساء وأفواه الرجال، خصوصاً فم مينة زوجة عبد القادر، فم منانة وفاطمة الحسناوية وخدوج بنت الأصمك ويغلق كابينة رحمة زوجة العربي الهيش. لذلك حاولت نوارة أن تبدو كما لو لم تخرج قط من حالة النفاس والولادة، حتى لا يقال إنها ضعيفة وأنه ليس بمقدروها أن تنجب دزينة من الأطفال، كما تنجب كل نساء البراريك. وعندما

ارتفعت الزغاريد والتصفيقات زغردت هي الأخرى واضعة كفّها فوق شفتها العليا التي ظهر فوقها تقاطع خطوط حناء، في حين كانت اليد الأخرى تحضن الصبي فوق فخذيها. وعندما زغردت أخرجت ثديها وحاولت أن تلقمه عبثاً للطفل الذي كان يحرك عبثاً يديه شبه مغمض العينين، وقالت رحمة زوجة العربي الهيش:

- اللَّه يحفظه لأمه وأبيه.

- لم أرد سوى أن أنبهك. لأن لي تجربة في الأمر وأم لخمسة أبناء وبنات.

وقالت منانة التي التقطت الحديث، رغم أنها كانت تصفق وترشف الشاي:

- لم تقل لك غير الحق.

نهضت امرأة من أقصى البراكة، وتخطت أقدام وأفخاذ بعض النساء وتقدمت نحو الأعمى صاحب التعريجة الذي كان يغني بصوته المبحوح الذي نخره الكيف، وعلقت له بين طاقيته وجبهته ورقة من خمسة دراهم. اضطرب عزف الأعمى، وأوشك كلمات الأغنية أن تضطرب في فمه كذلك، لكنه استعاد الإيقاع، بل رفع صوته أكثر، وأخذ يضرب على جلد التعريجة بحماس. فعلت نساء أخريات مثل المرأة الأولى. وفي الوقت نفسه كنّ يزرّرن نوارة والصبي. نهضت امرأة فقيرة، واقتربت منها وقدمت لها طوبة سكر.

- يا ابنتي يا نوارة. اقبلي هذه الزرورة. في عهدنا لم نكن نقدم سوى السكر. عصركم تبدل. ما كنا نعرف الفلوس.

وتراجعت العجوز إلى مكانها. حتى لو كان معها فلوس ما كانت لتقدمها كزرورة، لأن الفلوس تفلِّس ولذلك قيل اللَّه يفلسك! ثم خبطت العجوز على فخذيها العجفاوين، وقالت للتي تجلس بالقرب منها:

- إنها صغيرة ومسكينة. لكن يبدو أنها من النوع الذي يعيش له الأولاد. وقالت المرأة المتوسطة العمر التي كانت تجلس قربها:

- أنا دفنت خمسة.

- اللَّه يرحمهم.

كفَّ الجوق عن العزف. ونوِّلت كؤوس الشاي وامتدت الأيدي إلى كعك مصنوع من طحين رخيص وسكر وزيت وشيء أشبه بالسمن البلدي. وندت عن الصبي صرخة ضعيفة واهية فحركته أمه بذراع. في حين كانت اليد الأخرى تمسك بكأس الشاي. سقط منديلها على عينيها. وضعت الكأس قربها فاندلق الشاي الساخن، وشعرت بسخونته تحت فخذها الأيمن وهي تعيد شدّ المنديل على رأسها بيد واحدة.

وقالت لها امرأة:

- خذي الطفل إلى الخارج ليشم قليلاً من الهواء أو اتركيه لي لأخرج به إذا لم تكوني تستطيعين ذلك.

لم ترد نوارة، لكن واحدة كانت تجلس بجانبها، ووشوشت لها وسط لغط النساء:

- لا تفعلي. لا تعطي طفلك لامرأة لأنها قد تسحره. النساء حسودات تأكل قلوبهن الغيرة.

تحاملت نوارة على نفسها وغادرت البراكة حافية القدمين. وتبعتها منانة وقبقابان في يدها:

- ضعي هذين القبقابين ولا تمشي حافية، فذلك سوف يؤثر عليك.

- أعرف ذلك يا منانة. لكن الجو حار اليوم.

رغم ذلك وضعت قدميها في القبقابين وأخذت تتمشى وهي تهدهد الطفل الذي كفَّ عن صراخه الضعيف. سمعت العزف

والغناء اللذين بدآ يرتفعان في الداخل. وسمعت أيضاً دكات أقدام. لا شكّ أن امرأة ترقص الآن. اقتربت من الباب وأطلت. لم تكن امرأة، ولكنه أعمى صاحب التعريجة، كان يحرِّك عجيزته كيفما اتفق، وقد وسَّعت له النساء مكاناً لم يتجاوزه لأنه كان يعرف أنه أعمى. النساء يصفقن ويحركن رؤوسهن. وقفت واحدة وأخذت ترقص في زاوية البراكة. وقالت لها امرأة:

- تقدمي إلى الوسط حتى نراك.
- لا أستطيع أن أرقص مع رجل.
- إنه مجرد أعمى، وفوق ذلك فهو عجوز.
- عيب أن تراقص امرأة رجلاً.
- كل شيء عندكن عيب. نحن في الدوار نراقص الرجال.
- لا شكّ في ذلك، لأنك منصورية. المنصورية لا تخجل حتى من أولادها.

وقفت المنصورية وتخطّت بعض الأفخاذ والأقدام والرؤوس. أصبحت قبالة الأعمى في الوسعة الصغيرة، مدّت ذراعيها في الفضاء وأخذت تدكُّ الأرض بقدميها. زغردت بعض النساء مشجعات لها. ارتفع صوت الأعمى وازدادت ضربات أنامله على التعريجة قوة. كانت التعريجة الصغيرة تحت إبطه تكاد تختفي وراء ثوب قشابته. ومع ذلك كان يسمع له صوت حاد. الأعمى صاحب الكمنجة يساعده بترديده لازمة أغنيته عن الحصاد والحب والمرأة التي لا تهتم به لأنه مجرد خماس. شعرت نوارة بالبول الساخن يتسرب إلى جسدها. اعتبرت ذلك طبيعياً فتحمّلته. أخذت تحرك هي الأخرى جسدها الواهن. لاحظت ذلك امرأة فقالت لها:

- لا تحاولي أن ترقصي. الحرارة شديدة. سوف تفسدين الوالدة إذا فعلت. زوجك ينتظر منك أولاداً آخرين، تعالي اجلسي.

جلست نوارة عند الباب. واستمرت المنصورية في الرقص والأعمى ينحني عند عجيزتها، وقد أصابه نوع من الحال، يضرب بعنف على التعريجة وصوته المبحوح يخترق أخشاب البراكة. نهضت امرأة أخرى وأخذت ترقص وقد نزعت عن شعرها الجعد منديلها المزوَّق. ألقت بالمنديل في حِجر إحدى النساء. ظلّت ترقص في مكانها. وقف أعمى آخر كان يضع نظارتين، وتوجه نحو الوسعة الصغيرة وسط البراكة. داس المكان كالتيس، أخذ يرقص مع المنصورية والأعمى صاحب التعريجة، ويردد لازمة الأغنية، لكن صوته كان شبيهاً بالعواء. اللازمة نفسها كانت تُردَّد من طرف أفواه أخرى، أفواه نساء يبصرن ورجال لا يبصرون.

وقالت امرأة توجد قرب الباب لنوارة:

- لا شكّ أن زوجك سيشرب زجاجتين من النبيذ هذه الليلة.

- لم يعد يشرب، ولكنه عوّضه بالكيف. الكيف أرخص يا أختي.

آهاه! مثل زوجي! لكن الكيف يجعل الرجال كسلاء ويفقدون فحولتهم.

- طبعاً، إذا كانت المرأة لا تعرف كيف تستحلب الثور. أقصد إذا أنهكت. أما أنا فلا أزال صغيرة وقادرة على استحلاب ثور عمره ثمانون سنة.

- هنيئاً لك يا أختي. ثم إن سي أحمد يبدو رجلاً فحلاً. وهذا العزري الذي في أحضانك لا بدَّ أنه سوف يشبهه.

- اللَّه وحده يعلم بذلك.

أخذت تهدهد الصبي، وتنظر إلى وجهه المغطى بخرق. ثم قبّلت الخرقة الملفوفة فوق رأسه وهي تقول:

- الفحل اليوم هو الذي يعرف القراءة. أتمنى أن يتعلم حتى يحصل على شهادات.

- معك حقّ. لكن إذا لم يطردوه من المدرسة. لقد طردوا كل أبنائي.

- شكيكو! (وضربت عند خشب البراكة وتفلت في التراب).

قالت المرأة:

- ألف شكيكو وشكيكو. لكنها الحكومة!

لم تسمعها نوارة، لأن الزغاريد كانت تشق الفضاء، والأصوات تتعالى، تتحدث أو تتغنى! وشعرت أنها حققت كل شيء، لقد أغلقت الأفواه. ينقص شيء: المشوي والضلعة! لكن لا يزال الدهر طويلاً عريضاً. وفي المرة القادمة سوف يستمر السابع، سبعة أيام وسبع ليالٍ بكاملها.

قال أحمد لنوارة:

- لو لم تكن الزوجة الأولى عاقراً لما طلقتها. أنت سوف تلدين الأطفال وسوف يكون لك ما تريدين.

- ألا تحبني؟ لقد تزوجتني من أجل الإنجاب فقط.

- أبداً لم أقل هذا. ولكن أبغيك كثيراً.

- لو كنت متعلمة لتزوجت شاباً موظفاً مع الحكومة.

- لو تزوجته لقتلك جوعاً. إن تلك الحزقة إلا ربع التي يتقاضونها ينفقونها على ربطات العنق: كل ما تطلبينه ألبيه لك.

صحيح أن كل ما تطلبه نوارة يلبيه لها أحمد حتى لو كان جلب جوق من العمي. إن ظروفه المادية صعبة هذه الأيام، فالحكومة أحكمت الخناق على المهربين، ولكن أحمد رجل عفريت ينزع اللقمة من فم الكلب. هذا ما يعجبني فيه، وليس مثل أولئك العذارى الذين يمشطون شعورهم ويقفون في رأس الدرب طول

النهار حتى منتصف الليل، ويحلمون بجواز سفر، وفيهم واحد مفلس والعياذ باللّه، قِيل إنه يعيش مع الأوروبيين الذكور، على الرغم من أنه جميل ويمكن لأي فتاة أن تهيم حباً به.

هدهدت الطفل مرة أخرى، لأنه كان قد أغفى ثم استيقظ وبدأ يأنُّ أنيناً خافتاً مختنقاً. وقالت امرأة:

- ادخلي يا نوارة. هذا عيدك، لا تبقي عند الباب.

وأجابتها امرأة أخرى:

- دعيها تشم هواء هي وطفلها. لا تدخلي يا نوارة، فالحرارة شديدة والجو مختنق، والمولود لا يمكنه أن يتحمل ذلك.

وقالت امرأة أخرى جالسة بالقرب منها، بصمت خافت:

- ألا ترين أنه في كل لحظة يملأ لهم شقفاً، كما لو كانت مهمته هي تلك فقط.

توقف العزف ووزعت كؤوس الشاي وقطع الكعك وبعض لوزات لم تكفِ كل النساء. وخرج بعضهم ليشممن قليلاً من الهواء، وليغتبن بعضهن البعض.

وقالت رحمة لمنانة:

- لا أحد يستطيع أن يقيم سابعاً مثل هذا. هي تزوجت رجلاً ونحن تزوجنا بغلين لا يستطيعان أن يعيلا حتى نفسيهما.

- إنك لست جميلة مثلها.

- لقد كنت جميلة عندما كنت في سنها. ولكن ذلك الهيش أنهك جسدي. كان سيتزوجني ولد الإسبانية التي كنت أشتغل عندها في ذلك الزمان.

- تتزوجين رجلاً ليس من ملتك ولا دينك؟

- اللهم كافر باللّه ولا كافر بالقلب.

- حرام أن تقولي هذا الكلام، أنت أم أولاد.

- كلهم يشبهون أباهم. لا فائدة في أي واحد منهم.

أخذت منانة تحكّ جنبها الأيسر بعمود كان مركوزاً في الأرض يسند البراكة وتثاءبت. ظهرت اللَّهاة واللِّسان وبعض الأسنان المسوّسة. أطرقت ونظرت في التراب عند قدميها. رفعت يديها وجذبت المنديل فوق جبهتها. بدت كما لو كانت تفكر في شيء مهم سوف تقوله لرحمة. لكن رحمة ابتعدت منها وذهبت إلى نوارة التي غادرت مكانها عند الباب. وشوشت لها في أذنها، وعادت قرب منانة. كان العمود الخشبي يصدر طقطقات خفيفة. سمعت ذلك رحمة وقالت:

- لا تحكّي جسدك به أكثر. سوف يتكسر هذا العمود وسوف تسقط البراكة على أولئك العجائز وأولئك العمي.

- ياه؟ إنه عمود لا يسند حتى نفسه. لا شكّ أنها تستعمله لنشر غسيلها.

- كأن الأسلاك فقدت من الدنيا. فلتربط سلكاً أو حبلاً وسط الفناء.

- هي ليست في حاجة إلى ذلك. سمعت أن زوجها يأخذ ثيابه إلى الكواء.

- يا فرحتها! كان لي زوج مثلها، إن أحمد مثل الأوروبيين.

- إنه يعيش معهم. السلع التي يهربها يشتريها من أوروبيين. ويرتاد البارات ليشرب فيها، ليس مثل هؤلاء المزاليط الذين يقتتلون على زجاجة نبيذ في التراب. لقد كبر بين الأوروبيين في السوق المركزي. كان يساعدهم على حمل السلال والقفاف عندما كان صغيراً. إنه يعرف لغاتهم.

- رجل وأي رجل؟!

- زوجته الأولى لم تكن تستحقه.

- صحيح. رغم أنها شارفة كانت تشرب زجاجتي نبيذ في اليوم ولا تمنع ذلك الشيء حتى عن كلب.

- تفو!

كان اللغط يرتفع والضحكات والشكاوى في البراكة وخارجها. امرأة واحدة كانت منكمشة في زواية، لأنها مشلولة الساقين. تتأمل في كل شيء، ولا تتحدث إلا قليلاً. ولو لم تكن مشلولة الساقين لكانت هي التي تدير كؤوس الشاي وتوزع الكعك والكلام. ليس لها أولاد ولا بنات سوى نوارة. حتى زوجها توفي من زمان عندما سقطت عليه بالة كتان في الميناء.

كانت نوارة تنظر إلى أمها بإشفاق، لأن هذا هو نهارها الذي كان يمكنها أن ترقص فيه وأن ترش النساء بالعطر، وتطوف عليهن بالمجمر الذي يفوح بخوراً. ومع ذلك، فقد بدت لنوارة أنها سعيدة، يظهر ذلك في أعماق عينيها العمشاوين اللتين يقترب الذباب منهما ثم يتراجع لأن كفّيها تتحركان باستمرار كمروحتين كهربائيتين. كانت الكفّان تطردان الذباب، وفي الوقت نفسه تخفقان من الحرارة.

اقتربت خدوج من نوارة وفي يدها كأس شاي:

- اشربي قليلاً من الشاي. أراك تنظرين إلى الناس كما لو لم تكوني من هذا العالم. لا شكّ أنك في حاجة إلى راحة. هذا سابع ابنك. عليك أن تتحملي كل شيء اليوم. سي أحمد سوف ينمو له جناحان وسوف يطير اليوم فرحاً.

- واللّه يا أختي ما عندي نفس لأي شيء، ولكن ما دمت قد أتعبت نفسك وجئتني بالشاي فسوف أشربه إرضاء لخاطرك.

- لا ترغمي نفسك على شيء لا تريدينه.

- هذا يوم أشرب فيه حتى السم من أجل ابني.

- سوف يرزقك اللّه أبناء آخرين. أنت صغيرة وشابة وقوية - تبارك اللّه - مثل عجلة.

رشفت الشاي. وأخذت تتأمل جسدها من فوق إلى تحت، حتى تتأكد أنها بالفعل قوية مثل عجلة. لطالما قالت أمها إن عينيك جميلتان مثل عيني جحشة. المهم أنها في قوة عجلة وفي جمال جحشة. وسي أحمد يقول لها عندما يكون في حالة نفسية خاصة: «يامو بزازل! يا بزازل البقرة!» هذا كله دليل على أنها قوية وجميلة وأم بزازل وكل شيء وكل شيء آخر. وهذا معناه أن الولادة لم تؤثر عليها ولا يمكنها أن تؤثر عليها عندما ستضع دزينة من الأولاد والبنات.

كانت تنظر إلى ثديها العاري الذي تخرجه وتحاول أن تلقّمه للصبي عبثاً. رأس الثدي مدبَّب وأسود، وحوله شعرة تميل إلى الشقرة. ثم أخذت تسمع صوتاً آتياً من بعيد: «اللّه عليك يامو بزازل!». نظرت إلى البزولة مرة أخرى، ثم أخفتها والتقطت كأس الشاي الذي طارت من حافته ذبابة غليظة ذات ألوان يغلب عليها اللون الأزرق الصدفي. وقالت والدتها:

- لقد زوجتك لأحسن الرجال. كل النساء يتمنينه لأنفسهن. ليس فيه عيب رغم أنه سبق أن تزوج، ثم إن الزواج السابق لا يعيب الرجل، ولكنه يعيب المرأة. لو كان في أي امرأة ربح لما طلقها زوجها. وكل الناس ينصحون أبناءهم بعد التزوج بالهجالة. سي أحمد سبق أن تزوج، غير أنه رجل.

- أعرف أنه رجل حقيقي. لقد أصبحت أحبه.

- يجب أن تحبيه لأنه زوجك، كل ما أتمناه هو أن أرى ذريتك قبل أن أموت.

قالت ذلك وضربت على فخذيها المشلولين، ثم زحفت معتمدة

على يديها نحو ركنة ظليلة. وكان أحمد قد دخل بعد ذلك مباشرة. تأمَّل نوارة، وحاول أن يقبِّلها في جبينها، لكنه سمع حركة غير عادية. التفت ليجد والدتها في الركنة تنظر إليه. ذهب إليها وأخرج من جرابه منديلاً وشربيلاً. كاد أن يقدِّم لها الشربيل لكنه تذكر أنها مشلولة. قدَّم لها المنديل وهو ينحني على رأسها الذي خطّه شيب خفيف. وقالت والدتها لأحمد:

- سوف تلدان خير الأولاد وخير البنات.

تراجع أحمد ولم يقل شيئاً. فتح ليمونادة كانت تنتظره في سطل ماء، شربها بسرعة وغادر البراكة. قبل سبعة أيام تحققت أمنية والدة نوارة. يمكنها أن تموت الآن. لأنها رأت بعينيها العمشاوين حفيدها. تلك أمنية كل عجوز في سنها.

كانت الآن تنظر في هدوء وبلادة إلى كل ما يجرى حولها وحاولت أن تزيح أهداب المنديل عن عينيها، فانفتحتا بتثاقل، كأن كومة من الغبار كانت تحجب عنها الرؤية. صرخت بصوت واهٍ جداً:

- نوارة!

لكن صرختها ذهبت هباء. أعادت الكرّة أخرى وأخرى دون جدوى. وعندما علمت أن نوارة بعيدة منها، التفتت إلى أقرب امرأة إليها:

- يا بنتي أين نوارة؟

قالت المرأة:

- إنها عند الباب. لقد أخرجت الصبي حتى يشم هواء، فالجو خانق هنا.

- أرجو أن تنادي عليها. قولي لها إن أمك - حاشاك! - تريد أن تبول.

وقفت المرأة وذهبت إلى نوارة وقالت لها ذلك. قالت نوارة بصوت لم تسمعه المرأة وهي تتحامل على نفسها:

- لا أدري، هل أبوّل الكبير أم الصغير؟

التحقت بوالدتها وقالت لها:

- يمكنك أن تزحفي وتفعلي ذلك خلف البراكة.

- أخشى أن يكون هناك أحد.

- ليس هناك أحد. ثم، هل تخجلين من النساء؟

زحفت العجوز. لم يهتم بها أحد، كانت تدبُّ، وكنّ يخلين لها ممراً دون حتى أن يهتممن بها وهنّ مستمرات في لغطهن. اختفت وراء البراكة مثل سلحفاة في برمرامة خضراء كثيفة ملتصقة بالتراب، وشكلت غُصَيناتها عريشة صغيرة. فعلت ذلك. كادت أن تفعل الشيء الآخر. لكنها عدلت عندما استعصى ذلك الشيء وعادت تزحف. توقفت وأخذت ترقب كل شيء من حولها في بلاهة. شعرت بالتراب حاراً تحت نصفها الأسفل، حاولت أن تتجنب حرارته بجذب تكة سروالها. أحدث خيط المطاط فرقعة مع لحمها عند البطن.

سمعت في الداخل نقرات على التعريجة، رافقها صوت كمنجة مبحوح، إنها بداية أغنية، عادة ما تبدأ هكذا عشوائية، حتى يهتدي المغني الأعمى للأغنية التي سوف يختار. توقف النقر على التعريجة، في حين استمر صوت الكمنجة يتصاعد ثم يخفت، ثم يتوقف، ليعاود الأعمى الكرّة مرة أخرى.

أخذت نوارة تتحرك من دون اتجاه، في بطء طبعاً. تتحدث إلى هذه وتستمع إلى تلك. زحفت أمها باتجاه النساء. كانت تدبُّ. أفسحن لها ممراً المرة السابقة، حاولت منانة أن تتحرك لتخلي لها الطريق باتجاه الركنة. لكن صرخة قوية ندَّت عن العجوز، صرخة

قوية جعلت النساء يقفن ويتزاحمن ويتناطحن، توقف عزف العمي. لقد انقلب مقراج الماء الساخن على والدة نوارة. أخذت تصرخ: «بطني، حِجري. أفخاذي، ناري». انكفأت على ظهرها، جررنها إلى الخارج، بعضهن كنّ يخبطن على أفخاذهن وأحناكهن.

وقالت امرأة:

- لا شكّ أنه طفل مشؤوم.

ردّت امرأة أخرى:

- يا أختي، لا تتحدثي عن صبي بريء بهذا الشكل.

- قلت لك فقط.

قالت نوارة:

- آه يا أمي، ما عندي سواك!

لطمت حنكيها مرّات عديدة. تلقفت امرأة الصبي من يدها. هرعت إلى أمها تخلِّصها من أيدي النساء الأخريات. لا شكّ أن لحمها تهرَّأ الآن. كفّت العجوز عن الصراخ وأخذت تئنُّ أنيناً خافتاً كما لو كانت تحتضر.

وقالت امرأة:

- نأخذها عند المسعودي: قبل أن تموت هذه الشارفة.

سمعتها نوارة:

- الشارفة هي أنت.

لم ترد المرأة لكنها انسحبت. بالفعل، تطوعت امرأة سمينة، وحاولت أن تحملها على ظهرها، لكن العجوز أخذت تصرخ. تركتها تهوي فتلقفتها أيادٍ أخرى. قال أعمى:

- من هذه المصيبة؟

- إنها جدة الصبي.

- لم تختر لحظة موتها إلا في سابع حفيدها.

- ماذا تعرف عن العجائز؟ لا يخلقن المشاكل إلا في ساعات الأفراح.

- المهم أن تدفع لنا ابنتها وننصرف.

- هل نقترح عليها ذلك في هذا الطرف؟

- وأنا، ما الذي يهمني؟

ذهبت امرأتان لجلب المسعودي من حانوته ليضع للعجوز أعشاباً أو يطبخ لها شيئاً، حتى لو كان رَهْجاً، لتكف عن أنينها. حاولت نوارة أن تتخلص من الجوق فدفعت لهم نقوداً وأخرجتهم، وقالت امرأة:

- إنه ليس سابعاً ولكنه مأتم.

سمعتها نوارة التي أخذت تشعر بتقلص في معدتها:

- حرام عليك يا أختي أن تقولي هذا الكلام. لولا العين لما حصل ما حصل.

انسحبت بعض النساء، وتملصن من العجوز لتموت بطريقتها. بقي بعض قليل منهن. كانت التي تحمل الصبي في يدها جالسة تحت الظل وهي تتأمل وجهه، عيناه مغمضتان، حاولت مراراً أن تطرد الذباب عن وجهه. كانت الحرارة شديدة والعجوز تئنُّ أنينها الخافت ذاك. وقالت رحمة:

- يجب أن نصب عليها سطل ماء بارد.

قالت نوارة:

- هل تريدين قتل أمي؟

- يا حبيبتي، أنا لا أريد ذلك. أريدها أن تعيش وتربّي الريش. إني لست مغايرة وحسودة.

أخذت نوارة تتحرك وتدور على نفسها ولا تعرف ما تفعل. ضربت على فخذيها. عضّت ثيابها بأسنانها. انخرطت في بكاء حادٍّ وعويل. ثم سقطت أرضاً مغمى عليها. أخذت تتمرغ في التراب. هرعت امرأة إلى سطل ماء وصبّته عليها؛ لكن دون جدوى.

ملك الجن

1984

الجفاف

وقفت فاضمة تامصلوحت تحت ظل الجدار. وضعت كفّها عند جبهتها وأخذت تنظر إلى الطريق الترابي الذي يتعرج في السهل الأجرد. ليس هناك كلأ ولا عشب. بعض الحيوانات العجاف، تبدو خيالاتها ملتصقة بجذور الأشجار التي تمدُّ أعوادها في الفضاء تحت القيظ، أخذ أحد أبنائها يناوش أخاه الذي اختطف منه رزمة من الخرق التي صنعتها لهم فاضمة تامصلوحت، عندما طالبوها بشراء كُرة. يتعرَّج الطريق الترابي، ليصبح دقيقاً ثم منعدماً في النهاية. قالت لها رقوش أمس عندما جلبت لها سطل ماء:

- حاولي أن تحافظي عليه. اصنعي من هذا الماء طعامك وطعام الأطفال، لا داعي لكي يغسلوا، إن الأطفال بإمكانهم أن يشربوا هذا السطل في جرعة واحدة.

لو لم تكن رقوش لماتت فاضمة تامصلوحت وأبناؤها. زوج رقوش يستطيع أن يدبِّر كل أسبوع برميلين من الماء، يجلبهما على بغل من بئر تبعد حوالي خمسة كيلومترات من البيت. ولو لم تكن رقوش ابنة عمتها لما أعطتها ولو جرعة ماء. ليس لها زوج يستطيع أن يفعل مثلما يفعل زوج رقوش. على كل حال، فهو لا يعلم بأن الجفاف قد ضرب المنطقة كلها. وهو يرسل لها النقود مع بعض المسافرين القادمين من المدينة، والمدينة كلها خير وبركة. منذ أكثر

من عشر سنوات وهو يشتغل بائعاً لفستق العبيد وبذر القرع في المقاهي. لم ترَ المدينة في حياتها، ولم ترَ مقهى أو باراً. يحكي لها عن ذلك مرتين أو ثلاث مرّات في السنة عندما يعود لينام معها حتى تنجب المزيد من الأولاد. لكنها تظل لا تفهم شيئاً عن ذلك العالم. والبيت الذي بناه من الطوب يشبه بيوت المدينة كما قال لها، بل إنه أوسع بكثير من بيوت تشبه الأقفاص يتكون فيها عشرات الأطفال، ويقضون حاجتهم في مكان واحد يظلون يتزاحمون على بابه، كل ينتظر دوره. أما هنا فيمكن للإنسان أن يقضي حاجته في هذا الخلاء الواسع الفسيح. كانت الأرض أمام عينيها جدبة وقاحلة ومتحفرة. قبل هذه السنة كانت خضراء وكانت الخِراف والحيوانات الأخرى رغم قلّة عددها سماناً، أما الآن، وعندما كثر عددها، فإن الأرض استحالت إلى شبه لوح صخري. أخذت لون الطريق الترابي. قال أحد الأطفال:

- فاضمة. متى سيعود أبي بالماء؟ أكاد أموت من العطش.

- اسكت. إنك كذاب. وتريد فقط أن تدلق قاع السطل على عنقك. سيعود أبوك بالماء. لقد ذهب إلى السوق ليدبِّر أمر برميل أو برميلين لكم يا عجل.

عندما وصل أمس فوجئ. لم يكن يعرف أن اللّه يستطيع أن يحجب الأمطار مثلما فعل هذه السنة. حكى له المسافرون عن الجفاف لكنه لم يتصوره بهذا الشكل. قِيل له إن بعض شياهه تموت فاعتقد أن ذلك شيء عادي، لأن كل الشياه تموت، وفي ظروف مثل تلك. لكن هذه المرة ذهبت أغلب شياهه، وذبلت كل الشجيرات التي اشتراها من أرباح بيع الفستق وبذر القرع. عندما حكت له فاضمة عن كل ما يجري في المنطقة أصيب بنوع من الإغماء. ولم تعد عنده نفس ليشرب كأس الشاي:

- اشرب. شايك سيبرد.

- اللّه يعطيني البرد في الركبتين.

- ربي ينجيك لراسك ولأولادك، كل شر تدعو به لنفسك أتمنى أن ينزل عليّ. إنك أبو أولادي.

- ولكن كل الشياه ماتت.

- حتى شياه الآخرين ماتت.

- هم امتلكوها لا أدري كيف. أما أنا فقد تهرّأت قدماي من المشي، من مقهى لمقهى، ومن الركض هرباً من القوات المساعدة التي كثيراً ما نقلتني إلى المقاطعة تحت الرفس والركل.

- اللّه أراد ذلك.

صرخ أحد الأطفال:

- متى يعود أبي يا فاضمة؟

ركلته بقدمها الحافية في بطنه. توجّع، ثم تحامل على نفسه، وفرَّ بعيداً، بينما كان إخوته الآخرون يضحكون عند الزرب الذي انحسر ظله.

لقد حلف الزوج بأن يعود ببرميلين أو ثلاثة مهما كان ثمنها. وبأية طريقة، مثلما يفعل أخي زوج رقوش. تعبت فاضمة تامصلوحت من الوقوف. كانت هناك قطعة حجر كبيرة مغروسة في الأرض، ذهبت وجلست عليها. ظلّت تراقب الطريق الترابي، أشباح الحيوانات لا تكاد تتحرك، هزيلة وضعيفة. تنتظر اللحظة التي ستموت فيها. ولا شكّ أن زوجها سيذبحها كلها ليحاول بيع لحمها بأرخص ثمن. لكن الناس عافوا أكثر اللحوم وأصيبوا بحالات إسهال وقيء. ما عاد أحد يرغب في أكل اللحم. ارتفع ثمن الخضر. وحتى الطماطم أصبح لها شأن. قالت للأطفال:

- لو اقترب أحدكم من جرعة الماء تلك لعصرت بطنه حتى

يبولها في سرواله. لم تكن لهم سراويل. كانت لهم قشاشيب واسعة، مفتوحة عند الكتف الأيسر. قشاشيب متسخة، وبعض أطرافها ممزقة. لم يهتموا بما قالت، لكنهم انشغلوا بأشياء تخصهم، هي التي أيضاً انشغلت بما يخصها، قالت للزوج:

- كان من الأفضل أن تذهب مع أخي إلى المكان الذي يجلب منه الماء، لو استعرت بغلاً من عند آيت أو حسو وفعلت مثلما يفعل أخي.

- هل تعتقدين أن آيت أو حسو يستطيعان أن يعيراني البغل؟

- ولِمَ لا؟ أليسا خالَيك؟

- كأنك نسيت ما حصل بعد وفاة أمي.

- وما الذي حصل؟ تلك أشياء عادية تقع بين جميع الناس.

- أنا أعتبرها في يوم ما عادية. أحمد اللّه لأنهما كانا السبب في هجرتي إلى الدار البيضاء. ولولا هذا الجفاف لكنت قد اشتريت كل أراضيهما وجعلتهما بغلَين فيها.

- أنا قلت لك أن تستعير منهما بغلاً. لا أن تشتري بغالاً.

- لن أفعل، ولن أتحدث إلى أي كان منهما لو التقيتهما غداً في السوق. ليسا خالَيَّ ولا علاقة لي بهما.

تذكرت الانقباض على وجهه، وتغيّر صوته ليلة أمس، وخشيت أن يصاب بالصرع، لأن تلك حالة تلازمه أحياناً فلا يفيق منها إلا بعد مرور وقت طويل. في نهاية الأمر نام بجانبها دون حتى أن يلتفت إليها. قال لها: «أيقظيني غداً باكراً». لكنه استيقظ قبلها، وأصرَّ على أن يتدبر الماء بأية طريقة من السوق. تشعر الآن بصلابة قطعة الحجر تحتها. لم تأبه للآلام التي تُسبِبُها لها. إذا جلب برميلاً أو برميلين، فسيكون ذلك من أجل إنقاذ حياة أولاده. أما هذه الأرض، وتلك الأشجار، فإنها لا محالة ميتة. وأما تلك البهائم فقد

مات أغلبها. وعندما وقفت وتراجعت إلى الخلف رأت في الأفق شبح شاحنة داكنة اللون. ظلّت تراقبها وهي تتدحرج على الطريق الترابي. عندما اقتربت الشاحنة، وقف الأطفال وركضوا في الطريق تجاهها، كانوا ينتظرون وصولها وهم يقفزون. لم يعتادوا أن يروا شاحنة إلا في النادر. ولكنهم تعودوا على رؤية عربات تجرها الدواب، وعندما أدركتهم الشاحنة أخلوا لها الطريق. وأخذوا يلوّحون ويركضون وراءها وهي تسير نحو بيتهم، كان فيها جنديان وأبوهم معهما. توقفت الشاحنة فاختفت فاضمة بسرعة، لأنه لا يمكن لأي رجل أن يرى وجهها سوى زوجها. ترجّلوا ثم أنزلوا ثلاثة براميل من الشاحنة العسكرية في الخلاء، صعد الجنديان إلى الشاحنة بالسرعة نفسها التي نزلوا بها، ثم دارت الشاحنة على نفسها وسارت في الخط الترابي، بين الأشجار الميتة الجافة. لم تتحرك الدواب لسماعها صوت المحرك، لأنها كانت ضعيفة واهنة وخائرة، عادت فاضمة إلى الظهور:

- من أين حصلت على هذا الماء؟

- لقد دفعت ثمنه ثلاثمئة درهم. إن أمسكان ولد أوتغريت هو الذي أرشدني إلى هذين الجنديين، إنهما يسرقان الماء من الثكنة ويبيعانه في السوق، السوق السوداء.

- ومن أين يحصل العسكر على الماء؟

- إنهم عسكر، يحصلون على كل شيء. الدولة توفر لهم كل شيء.

- إنهم محظوظون.

- لقد واعداني بأنني إذا أغلقت فمي فإنهما يستطيعان أن يوفّرا لي ما أشاء من الماء حتى للدواب، وبثمن رخيص جداً، لكني لمن سأقول ذلك؟

- لكن يمكن لأمسكان ولد أوتغريت أن يتحدث.

- أنا لا أثق في البشر كثيراً. هل لا يزال يتزوج ويطلّق باستمرار؟

- ولماذا تسألين عنه؟ هل تريدين أن تتزوجيه؟ دحرجي معي هذه البراميل واغلقي فمك.

أخذت تدحرج البرميل الأول. تبعها الأطفال وأخذوا يساعدونها وهم يدفعون البرميل الذي يسمع صوت الماء داخله، قالت:

- اذهبوا لتلعبوا. ها الماء! إذا اقترب أحدكم من البراميل فإني أستطيع أن أخنقه.

كان الزوج يمسح عرقاً عن جبينه وهو جالس على التراب. ينظر إلى الخلاء وهو متّكئ بظهره على الزرب. وعندما دحرجت فاضمة البراميل إلى الظل قال لها أن تهيِّئ له براد شاي. ذهبت لتفعل ذلك. يرفع عينه إلى السماء، صافية تماماً، في الدار البيضاء أيضاً كانت السماء صافية زرقاء. لكنهم هناك يملكون كل شيء، حتى الماء في المسابح. رآهم يسبحون ويشربون الخمر، ويأكلون «السندويشات»، ويعانق الرجال النساء ويضحكون. لا يدري من أين يأتون بالفلوس. وقالت فاضمة:

- هل تدخل أم تفضِّل أن تشرب الشاي هنا؟

- ضعي البراد واذهبي لتهتمي بنفسك.

وضعت الصينية أمامه ثم انسحبت. صوت الأطفال يأتيه من بعيد ومن مكان ما. أفرغ الشاي في الكأس. كان ساخناً جداً. التحق به أحد الأطفال وطلب منه جرعة شاي. قال له اذهب وهات كأساً فارغة. لكن الطفل خرج يركض من باب الغرفة وهو يعوي، أطلت فاضمة من الباب:

- ألا تترك أباك يشرب كأسه في راحة؟!

رفع رأسه إليه:

- اعطيه الكأس.

اختفت ثم خرجت بالكأس وقالت بالبربرية:

- هاك! أتسوت اشتشى (تشرب السم).

رأى في الأفق سيارة قادمة: كانت تظهر مثل نقطة سوداء. وقف في مكانه وأخذ يتطاول بعنقه. كان بصره ضعيفاً. ومع ذلك فقد تأكد أنها ليست دابة ولكنها سيارة حقيقية. هل يكون الجنديان قد عادا ببرميل ماء آخر. صرخ في الزوجة:

- فاضمة! الجنديان عادا ببرميل ماء آخر.

خرجت تركض حافية. ذهبت ووقفت فوق قطعة الحجر المغروسة في الأرض. وضعت كفّها عند جبينها. قالت:

- إنها لا تشبه سيارتهما، إنك أعشى ولا ترى شيئاً.

عادت واختفت داخل البيت. مشى هو نحو الطريق الترابي، تأكد الآن من أنها ليست شاحنتهما فعلاً. كانت سيارة جيب صغيرة الحجم. ظهر الأطفال وتفرقوا في الخلاء يتقافزون. صرخ أحدهم:

- إنه الماء، الماء.

قال الأب:

- اذهب بالقرب من أمك.

تراجع إلى الخلف عندما تبيَّن أنها سيارة رجال الدرك، فرَّ الأطفال وتبعوا أباهم. دخلوا إلى البيت وهم يراقبونه من الباب وهو يتراجع خائفاً وقد تغيّر لون وجهه. فرقع الباب ونزل دركيان. أحدهما ذهب ليبول عند الزرب، في حين التحق الآخر بالزوج. ركله عند بطنه:

- يا شلح يا ابن الكلب! تسرق ماء الدولة من الثكنة العسكرية، أين البرميل؟

أخذ الدركي الآخر يزرر بنطلونه. بدا كما لو أنه لا يهتم لما يحدث أمامه.

سقط الزوج على الأرض. أمسكه الدركي من ثيابه وأوقفه:

- قل أين الماء؟

أنطونيو

كان يجلس عند عتبة النادي المهجور. الشمس حارة متجهة نحو الغرب. ساقاه مفرجتان، وقد ارتفع السروال إلى حدود الركبتين. فردتا الصندل باهتتان. كان يرفع رأسه أحياناً إلى أعلى شمالاً، حيث لا تزال معلقة صورة امرأة ترقص الفلامنكو. لكنه عندما كان ينظر إلى الصورة المرسومة على لوح قصدير يكاد يسقط، لم يكن في نظراته أدنى اهتمام بما ينظر إليه. رأيت طفلين يلعبان بالقرب منه. في الواقع، لم يكونا يلعبان، بل كانا يتشاجران. . غلبت البنت الصبي، لأنها حاولت - وقد نجحت في ذلك - إدخال رأس الصبي في بالوعة الشارع. أخذ الصبي يصرخ وينادي على أمه فتركته وعادت لتجلس عند عتبة العمارة المقابلة.

أنطونيو ينظر إلى كل ذلك دون أن يبدو أي انفعال على وجهه. الشارع خالٍ. تعبر من وقت إلى آخر سيارة أو دراجة نارية. البنت والصبي يعودان إلى الالتصاق ببعضهما، تندُّ عنهما صرخات فيفترقان. ينظر إليهما أنطونيو من دون انفعال دائماً في كل فترة يعودان فيها للالتصاق ببعضهما. تألمت أنا لاضطهاد البنت للصبي. لكنه حتماً سينتقم منها عندما يكبران، بالطريقة التي يمكن للذكر أن ينتقم بها من المرأة. لكنه في النهاية ربما انهزم. ولا شكّ أن أنطونيو منهزم حتماً لسنوات خلت. وهذا مجرد تخمين. وما دامت الأمور

فوق طاقة البشر، فيبقى من حقهم أن يخمِّنوا انتصاراتهم أو هزائمهم. هذه المرة أيضاً نجحت البنت في إدخال رأس الصبي في البالوعة. وسمعت صوته مختنقاً يشتم ويستنجد، كانت ساقاه الصغيرتان تفركلان في الهواء ومع ذلك لم ترحمه البنت، بل استمرت في دفع جسده الضئيل داخل البالوعة. خشيتُ أن تقتله، وحاولتُ أن أصرخ بها، لكني رأيتها تسقط على عجيزتها فوق الإسفلت، وقد تعرّى فخذاها النحيلان كنبات البسباس. لقد ركلها الصبي وأخرج نصف جسده من البالوعة. كان أنطونيو دائماً ينظر بلا مبالاة، لكنه كان يتحدث إلى نفسه. الشمس في مواجهته، لا يستطيع أن يرفع عينيه جهة الغرب. فالأشعة مائلة ترشق جسده النحيف الذي لا شك أنه غارق في العرق الآن. ظهرت لي زغبات ساقيه الشقراء تلمع. أخذ يحكمها بأظافره المتسخة السوداء الطويلة. يفعل ذلك أيضاً بتثاقل ولا مبالاة، ثم مدَّ يده اليمنى إلى قبعته وأزاحها عن رأسه، وضعها مقلوبة بالقرب منه على العتبة. ولو وضعها أمام قدميه بذلك الشكل، لما ألقى فيها أحد حتى بصقة، لأن الشارع خالٍ. لمعت صلعته تحت أشعة الشمس، وحرك الهواء الجاف تلك الشعيرات الجانبية عند رأسه. ثم أخذ يمرر كفّه على صلعته.

رأيت رجلاً يحمل كيساً وهو ينبش في قمامات الشارع التي لم تدركها سيارة نقل الأزبال اليوم. لأن الزبالين ينسون أحياناً بعض الشوارع التي لا يدفع لهم سكانها بما فيها الكفاية. نبش الرجل طويلاً ولم يعثر سوى على نصف دميةٍ دسه في الكيس، اقترب من أنطونيو:

- انهض من هنا.

نظر إليه ببطء وتثاقل، كرر الرجل النباش ذلك الأمر. غير أن أنطونيو اكتفى بأن حرك رأسه نفياً، استمر الرجل:

- انهض من هنا أيها الأسباني الفقير، سوف تضربك الشمس وسوف تموت.

قال أنطونيو:

- لا، اتركني، لن أموت، أعرف أني لن أموت بضربة شمس.

- انهض.

- لا.

- قلت لك إنك سوف تموت.

- لا.

حرَّك الرجل رأسه، ترك أنطونيو وذهب إلى القمامة الأخرى ينبشها. أخذ أنطونيو يمسح ما بين أصابع قدميه. تصورت تلك الرائحة التي يفرزها ما بين أصابع القدمين فقلت: «إخ. إنه معفون». مسح أصابع يديه في بنطلونه الباهت الذي كان يشد إلى جسده بحزام لم يخترق عرى السروال. البنت والصبي يتقاربان من بعضهما. كان يتحدثان. هدنة مؤقتة على الأقل.

أطلت أم البنت من النافذة ولوحت بذراعيها البضتين البيضاوين. قالت:

- سمية! ماذا تفعلين في ذلك الحر؟ ألا تريدين أن تفارقي ذلك العزري وتلازمي بيتكم؟ عندما يعود أبوك من العمل سوف أقول له كل شيء. لقد أصبحت عزباء ولم يبقَ سوى أن نبحث لك عن رجل يشد لجامك.

اختفت الأم، ولم تهتم كثيراً بما قالته أمها، في حين نقل أنطونيو كفه إلى صلعته، كما لو كان يتلمس تأثير الشمس على جلدة رأسه. رفع القبعة عن العتبة وكوّمها فوق رأسه. ينظر إلى الطوار تحت قدميه الذي فقدت بعض أحجاره. بعيداً قليلاً منه حفرة صغيرة، فيها كيس بلاستيك مربوط إلى شريط وقطعة حجر صغيرة.

أطلّت أُم الصبي. رأسها مشدود بمنديل، مدّت في الفضاء جلدة خروف وأخذت تنفضها دون أن تعير اهتماماً لمن قد يكون تحت النافذة. رأت ابنها ملتصقاً بالبنت. صرخت فيه:

- يا ابن الكلبة! أما آن لك أن تفترق عن تلك الأفعى. يا ويلي! لن تفترق عنها حتى تقع فضيحة في الدرب. الناس يلدون بني آدم وأنا ولدت جنياً.

استمرت في نفض جلدة الخروف، ثم اختفت وراء النافذة. الشارع خالٍ دائماً. ظلَّ الطفلان يقتربان من بعضهما ويفترقان. ومن الأكيد أن البنت كانت تحاول أن تجر الصبي بغريزتها كأنثى إلى البالوعة لكي تغلق عليه شباكها الحديدي وتستريح. هذا مجرد تخمين. وما دامت الأمور فوق طاقة البشر، فيبقى من حقهم أن يخمنوا مدى قدرتهم على تحمل المكوث داخل البالوعة... إلا أن الصبي يبدو أنه قد تسلَّح هذه المرة لكي لا يدخلها مرة أخرى، ولكي لا يئنُّ مرة أخرى، ولكي لا تسقط البنت على عجيزتها في الطريق فيظهر ساقاها عاريتين كنبات البسباس، ولكي لا تصرخ أمها فتنعته بالعزري، ولكي لا تتهم أمه البنت بأنها أفعى. مجرد تخمين طبعاً ودائماً، هذا مجرد تخمين.

أحياناً، يرفع أنطونيو عينيه إلى النافذة المقابلة. ينقل نظراته من صورة راقصة الفلامنكو إلى فردتي الصندل، إلى الطوار، إلى النافذة، وراء النافذة الأخت الصغرى لسمية ربما. لقد جلب لها ذات مرة سلحفاة صغيرة الحجم. تصورت أنه لم ينجب أبداً. لا يهتم بأحد من الأطفال إلا بأخت سمية. هي أيضاً تحبه. لكن أخت سمية كانت غائبة، ربما ذهبت إلى شاطئ سيدي عبد الرحمن مع أختها الكبرى. يرفع أنطونيو عينيه تجاه النافذة، فتردُّها أشعة الشمس حاسرة، يضع كفّه المعروقة على جبهته مثل مقدمة قبعة لتستقيم له

الرؤية، جلبت البنت قصبة مدببة، على هيكلها عقد غير متساوية الأبعاد، كانت تقول شيئاً للصبي وأنا أنظر إليهما. وافق الصبي أو لم يوافق. وعندما سارت تبعها. ومعنى ذلك أنه وافق في النهاية. اقتربتْ ببطء من أنطونيو وانبطحت على بطنها فوق الطوار، أخذت تنكش بهدوء كما لو كانت تبحث عن دودة تريد استخراجها من التراب، الصبي واقف بالقبر منها على بُعد أمتار، ينظر إليها تحت أشعة الشمس المحرقة، اقترب منها أكثر وجلس على الأرض. أطلّت أمه وصرخت فيه: «تجلس على الأرض يا ابن الكلبة. يدا أمك تهرَّأتا من كثرة الغسيل». ثم اختفى رأسها. كان أنطونيو يلتفت أحياناً إلى البنت وهي تفعل ما تفعل. أخذت تزحف على بطنها حتى اقتربت منه. بدأت تناوش أصابع قدميه بالقصبة. سحب قدميه كما لو لذعته ذبابة. ضحكت البنت وعاودت الكرّة. الصبي ينظر إليها بأسف، غير أنه في الأخير يشجعها على ذلك. وأنطونيو يستمر في سحب قدميه، في تحريكهما بوهنٍ شديد، وباستمرار أيضاً. قال لها بصوت فاتر:

- اذهبي.

سال لعابه عندما فتح فمه، لمع اللعاب تحت أشعة الشمس فوق شعيرات جانبي الفم. خافت البنت، فوقفت بسرعة، ابتعدت منه. قالت البنت:

- هل تلك السلحفاة ذكر أم أنثى؟

لم يكن يحاول أن يرد عليها، نقل أظافر يده إلى ساقيه وأخذ يحك. . السروال منحسر حتى الركبتين.

- إنها أنثى. يجب أن تجلب لأختي ذكراً، وأن تجلب أيضاً معك سلة من الخس.

ينظر دائماً جهة النافذة، ثم في الأعالي، محاولاً تجنب

الأشعة. انبطحت البنت مرة أخرى أمامه على الأرض، فعل الصبي مثلها، عادت إلى مضايقته بالقصبة. قالت البنت:

- إني أكلمك وأنت لا تجيب.

قال الصبي:

- لا تتعبي نفسك. لن يتكلم قط.

- سأحاول أن أكلمه، إنه ليس زيزوناً.

أطلت أمها من النافذة:

- ماذا تفعلين لذلك الرجل المسكين يا بنت القـ. . .؟ وسّخي ثيابك. لن تأكلي لقمة هذا اليوم. واللّٰه لن تأكليها. انهض من هناك يا موسيو أنطونيو. سوف تفقأ عينيك تلك الجنية بقصبتها.

هربت البنت والصبي والتجآ إلى باب إحدى العمارات. الشارع خالٍ دائماً. اختفت الأم، وظهرت دورية لرجال القوات المساعدة في رأس الشارع تزحف ببطء. قالت البنت عندما رأتها:

- يجب أن نصعد إلى السطح حتى لا يأخذونا معهم إلى المقاطعة.

اختفيا وأغلقا باب العمارة وراءهما، وعندما اقتربت الدورية، قفز أحد الرجال من الباب الجانبي للسيارة. يبدو أنه ليس من سكان المدن، لا شكّ أن أحد الضباط من عائلته توسط له فألحقه بالقوات المساعدة. أمسك بأنطونيو من ثيابه وأوقفه بعنف. كان بعض المتسولين والمشردين يطلّون في حذر من باب السيارة. أطل الضابط برأسه:

- يا بغل! من قال لك انزل؟ تريد أن تلقي القبض على أوروبي، هل أنت مجنون؟ تريد أن تخلق لنا المشاكل؟

ارتخت أصابع الرجل، وعاد أنطونيو إلى الجلوس عند عتبة

النادي، وهو ينظر بهدوء إلى السيارة. خفق قلبه العجوز. ثم كفَّ عن الخفقان.

واستمر الضابط:

- هذه المرة لا تنزل إلا بأمري.
- نعم سيدي.
- اصعد.
- نعم سيدي.
- حمير.
- نعم سيدي.

استمرت السيارة في زحفها. تمنى الذين كانوا في داخلها أن يكونوا أوروبيين حتى لا يعتقلوا. تتبع أنطونيو السيارة وهي تزحف. سارت طويلاً في الشارع ببطء. ومن هناك. قبل لحظات، سار النباش أيضاً، يبحث في قمامات الأزبال.

صيف مستمر

عندما كانت بريجيت تهيِّئ شيئاً في المطبخ، سمعت فرانسوا يتكلم إليّ، لكني لم ألتقط من كلامه شيئاً. كنت أتأمل منارة المسجد المقابل وقد زيّنت بمصابيح حمراء وزرقاء لمناسبة دينية. لم يكن عندي شعور تأملي ديني لحظتها ولكني كنت أتأمل في أشياء، الواقع أني لم أعرف ما هي بالضبط. سمعت فرانسوا يناديني فغادرت الشرفة وأنا أقول:

- ماذا تريد؟

- ألم تسمعني؟

- كنت أتأمل منارة المسجد المضاءة.

- لا تمزح أكثر.

- اذهب وصلِّ لعلّ اللّه يفتح عليك.

- هل تنوي الذهاب للصلاة؟

- بماذا؟

- بالجحيم.

قلت بغضب:

- قل لماذا ناديت عليّ. دعني أشم قليلاً من الهواء في الشرفة.

كانت رائحة الخمر تفوح كريهة من فمه، خصوصاً أن الخمر من آخر درجة، وأني لم أشرب بعد. عندما أكون شارباً لا أعير أي

اهتمام لرائحة الخمر، بل لا أحسها إطلاقاً. أما عندما لا أشرب فإني لا أطيقها بل أتصور أن الشارب مسحوق، وقذر، وأن عليه ألا يتعب نفسه بالشرب كي يحل مشاكل لا يمكن التغلب عليها، في الحقيقة، إلا في حالة الوعي التام. قلت لفرانسوا:

- لقد سكرت، أنا لا أطيق المزاح.

وسمعت بريجيت من المطبخ تقول:

- فرانسوا، دعْ عنك حمدون.

قال فرانسوا بصوت مبحوح:

- هل تغارين من زوجك؟

قلت:

- ماذا تقول أيها القذر؟

قال فرانسوا:

- اجلس سأبوح لك بسر. هل تستطيع أن تخمن.

- ممكن.

- خمّن إذن.

- إنك سكرت وأنك ستقلق راحتي.

- إنك مخطئ، افتح أذنيك لأقول لك. هل فتحتهما؟ افتحهما جيداً. . هكذا، حسن جداً، إن بريجيت زوجتي تحبك.

- قلت إنك ستقلق راحتي وراحة بريجيت أيضاً.

- لا يهم. (كانت رائحة الخمر تفوح من فمه). إننا صريحان ولا نخفي عن بعضنا شيئاً. لقد قالت لي.

- إنها تحبني.

- نعم، ويمكن أن تسألها. و(يصرخ) بريجيت، تعالي وقولي له. إننا صريحان يا عزيزتي.

وقالت بريجيت في المطبخ:

- كفى تفاهة. دعْ عنك حمدون، دعه يشم هواء.

وكان ذلك بمثابة أمر بالنسبة إليّ لا بالنسبة إليه. وقفتُ ومشيت نحو الشرفة وأخذت أتأمل الظّلام، والمصابيح المضيئة في المنارة، وتمتعت بلفع الهواء الذي يحمل روائح نباتات وأزهار الشارع والحديقة العمومية القريبة من البيت. كان الجو حاراً هذا العام في نهاية أكتوبر. لقد امتد الصيف حتى نوفمبر، لذلك كان من الممتع حقاً الجلوس في الشرفة، أو في الحديقة العمومية أول المساء. وذلك ما كنت أفعله طوال هذين الشهرين. أقتني زجاجة خمر في الغالب وأجلس في الشرفة الواسعة أحصي النجوم، وأتخيّل أشياء بعيدة، غير موجودة ربما وراء تلك الآفاق اللامتناهية. وقد يتركز تخيلي في شيء واحد، يراودني مراراً. أتخيل أن هناك أراضٍ أخرى وشموساً أُخر، إلى ما لا نهاية. وأظل أسترسل في ذلك الخيال إلى أن تتغلب عليَّ الخمر، فأرفع من صوت المذياع لأني أحب الصراخ، وحتى عندما أسمع الطرقات عند الباب، فإني لا أكلف نفسي الوقوف للذهاب إلى الباب. لم يكن ذلك يعنيني بقدر ما كانت تعنيني جلستي المستريحة، تحت تأثير الليل والخمر. لم يكن ذلك يعنيني حتى لو كنت متأكداً من أن المرأة هي التي توجد خلف الباب.

كانت بريجيت تكبر فرانسوا بـ 12 سنة على الأقل، بينما كنت أكبر فرانسوا بعامين، ومع ذلك فقد كان يبدو أكبر مني سناً؛ إلا أن تجاربه محدودة، وما يحكيه لي لم يكن يثيرني على الإطلاق. كنت أجد فيه شيئاً صبيانياً، أحياناً عندما يصدر حكماً يلتفت إلى بريجيت لتصحح له. في الواقع لم تكن له شخصية. ومع ذلك لم يكن يحبها، في حين تعلن هي أن الحياة بالنسبة إليها من دونه مستحيلة. كانت تحبه كما تدّعي، حباً لم يكن أحد في العالم يستطيع أن

يقدّره. أما أنا شخصياً قد كنت أقدّر هذا الحب. وبتدقيق فقد كنت أعرف معنى أن تحب امرأة تكبر رجلاً بـ 12 سنة. كان الليل مثيراً، والمصابيح الموزعة على طول الشارع وفي أماكن أخرى نائية، داخل مربعات ومستطيلات، تبعث في نفسي رهبة لا حدّ لها. كنت أسمع الحوار يدور الآن خلف ظهري ولم أستطع تمييز كلمات بريجيت. غير أن كلماتها أخذت ترتفع شيئاً فشيئاً وهي تغادر المطبخ وتتجه نحوي. سمعت خطواتها وهي قادمة إلى الشرفة. لم ألتفت، بل أحنيت نصفي الأعلى ووضعت رأسي بين كفّي وقررت أن أهملها. لكني شعرت بكفٍّ توضع في مكان حساس من جسدي. سمعت بريجيت تقول:

- حمدون.

- نعم.

أحاطت زراعها بخصري، فشعرت بلهيب:

- لقد سكر، تعال انظر الحالة التي أصبح عليها الآن.

- إنه يقول إنك تحبينني.

- لا يهم. تعال انظر. لقد ارتخى بصفة نهائية فوق البساط وأخذ يشخر.

- ماذا تقصد؟

- لا أدري. أقصد إنه يحب من يمازحه.

- أقول إنه سكران. تعال انظر.

- أعرف أنه سكران.

- لكنه لم يتعشَّ.

- يمكن أنه لم يشعر بجوع.

مشت بريجيت أمامي في الشرفة، فأثار لأول مرة انتباهي. وكان فرانسوا حقاً قد سكر. تمدد فوق البساط وأغمض عينيه.

أرخى ذراعيه وانبطح على ظهره. صار الآن مثل دودة رخوة لها ذراعان طويلان ورجلان معقوفان انحسر عنهما السروال فبرز شعرهما كثيفاً، أشقر. بعض العروق تظهر فوق الجلد وكأنها تتحرك. تخيلت الدم يهدر مثل ماء خرج عن القنوات. ركلت فرانسوا برجلي حتى آلمتني.

- استيقظ، فرانسوا. هيه، استيقظ، سنذهب الآن إلى مكان تحبه جيداً.

قالت بريجيت:

- إنه لا يسمعك، بل لا يمكن له ذلك.

- إنه ليس سكران، يمكن أنه في حاجة إلى النوم.

- كأنك لا تعرفه. ألم تسكر معه مراراً.

- لكني لم أرَه في هذه الحالة قط.

- ها أنت تراها. أعتقد أنك أنت السبب.

رفعت عيني إلى بريجيت لأرى فيما إذا كانت حقاً تريد أن تشتمني، لكن عينيها كانتا دافئتين ونظراتهما شهوانية، ممتعة. تيقنت إذ ذاك أنها لم تكن تقصد ما تقول، بل كانت تريد إثارتي فقط. ولم أعرف بالضبط إلى أي شيء كانت تودُّ أن تصل. ألقت بقبقابها بعيداً من البساط الذي تمدد فوقه فرانسوا، وأخذت تحوم حوله حافية. قدماها صغيرتان وساقاها غير ممتلئتين بما فيه الكفاية. فكرت على كل حال أنها امرأة. ثم: أنني على كل حال، رجل. ثم - عفواً - إنه على كل حال، رجل. دفعت فرانسوا مرة أخرى وحاولت أن أوقظه. لم يكن نائماً. رفعت بريجيت الزجاجة الفارغة والكأس من فوق الطاولة الصغيرة، ومشت نحو المطبخ. حاولت أن أتبعها فعدلت عن الفكرة. واستمررت في دفع فرانسوا بقدمي. استعنت هذه المرة بيدي، لكن عبثاً. سمعته يزم، فقلت ماذا تقول. كان يزم فقط. استمر

يزم، والتقطُّ كلمة (بريجيت) لكنني لم أفهم شيئاً من الجملة الأخرى. وأخذت أفكّر فيما إذا كنت أمرُّ بالمراحل نفسها عندما أسكر، وهل كل سكير لا بدَّ وأن يحصل له الشيء نفسه. في النهاية لم أستطع أن أصل إلى نتيجة. بدت لي النتيجة صعبة عسيرة، مضببة أحياناً. كيف أستطيع أن أصدر حكماً غير مبني على قرائن واضحة وجلية. جلست على البساط، قرب الجثة الملقاة التي تصدر عنها أصوات مثل أصوات الخنازير. فكّرت أن أقول لفرانسوا استيقظ أيها الخنزير. ثم فكرت: ما جدوى ذلك؟ هل تكفي كلمة خنزير لإنقاذه من الحالة المتردية التي هو فيها؟ أردت أن أنادي على بريجيت لتناولني كأساً. إذا بقي هنالك شيء في قعر زجاجة. كان عندي شعور بالغيرة من حالة فرانسوا. ما أروع أن يغيب الإنسان نهائياً عن حقيقته. دخلت بريجيت من المطبخ. وقالت من خلال سعال: «لماذا تمددت مثله. هل أنت سكران كذلك». لم أجب. ظللت صامتاً ممدداً على البساط. ورأسي عند مؤخرة الجثة أمامي. ثم انبعثت منها رائحة كريهة، فرفعت رأسي وقلت بصوت مرتفع: «خنزير».

فقالت بريجيت:

- ماذا هناك؟

- لا شيء.

- من الخنزير: هو أم أنت؟

قلت:

- أنت.

- أنا.

- نعم.

- وقح، اسكت، الأحسن أن تسكر مثله لتغلق فمك.

- هاتِ لي خمراً. هل بقي شيء في قعر زجاجة؟

- نعم، هنا سم هل تريده؟

قلت وأنا أجلس، والرائحة لا تزال تملأ الدائرة الهوائية من حولي:

- هل تريدين أن تقتليني؟

ضحكت:

- نعم، أنتما معاً.

- ألا تحبينني؟

- أحبه هو. لا أنت.

- قال إنك تحبينني.

لم تجب، بل سمعتها تقول «خنزير» من المطبخ. ولم أعرف من كان المقصود بكلمة خنزير: أنا أم هو. وأردت أن أسألها فلم أتمكن. تمكّنت من شيء واحد فقط. وقفت في إعياء ومشيت حافياً إلى المطبخ. كانت منحنية تبحث في بعض جوارير المطبخ. لم أتمالك نفسي. فضربتها بيدي من الخلف. وتوقعت أن تكرر كلمة خنزير، لكنها ضحكت وقالت:

- كفى. أوه حمدون. سوف يستيقظ.

- إنه لا يهتم بك.

- ليس هذا شغلك.

- إنه عاقر.

- ليس هذا شغلك. إنه صديقك. شوف لك مجلة مصورة تتلهى بها.

- أشوف لي مجلة حية: من لحم ودم.

- غير ممكن. اذهب واسترح، أو اخرج إلى الشرفة لترى المنارة المضاءة. اليوم عيد للمسلمين.

- ليس هذا شغلي.

تحول

عن اليمين الأشجار الخضراء تتخللها الألوان، وخلفها بياض البنايات، وفي بطن جدار أمامي، ظل سليمان ينظر - من المقهى - إلى صورة مريم محتضنة طفلها.. ثم يتأمل بوضوح هذه الحركات التي يقوم بها العجائز والأطفال والناس السذَّج أمام هذه الصورة. الكرماء منهم يدفعون حصاة من مجهودهم اليومي في ثقب موجود تحت الصورة على بطن الجدار... الثقب في متناول الجميع حتى الأطفال. وتحت قدم سليمان، في الشمس القزحية، حقيبته الزرقاء، وخطوط في الأرض منتشرة على الطوار.. الوطن بعيد من هنا بعشرات الكيلومترات. وشعر بارتياح داخلي وهو على هامش المقهى شبه الخاوي. كل الناس يشتغلون في هذه اللحظة بالذات، إلا هو، فهو لا يشتغل ولا يعمل يديه في شيء.. تلذذ بالنظر إلى أناس بسطاء، عشرات من الناس أفرغوا حصصاً من مجهودهم اليومي في ثقب على جدار، وتحت صورة.. هو لا يملك حتى عُشر تلك الحصص التي أودعوها بلا مقابل في حفرة.. ولو كان يملك عُشرها لتغير شكل كل شيء، هذه هي المسألة بأتم حذافيرها..

الموسيقى المنبعثة من الخلف، من قلب المقهى.

- هل تحب الموسيقى؟

- نعم.

- هل تستطيع أن تميِّز أي نغم هذا؟
- بكل تأكيد.. جورجيا أون ماي مايند..

ودفع قدم الكرسي الموضوع أمامه فتحرك الكرسي جانباً بانصياع، ونظر من جديد إلى ارتفاع خلف الأبنية.. هناك جبل كالصخر، لم تكن هناك خضرة ولا ثلج.. وفكر أنه بعد سنوات سوف تغطي البنايات ذلك الرأس الأجرد للجبل، ولن يبقى من منظره المطل على المدينة سوى الوهم، سوى شكل كان ولم يعد.. هذه باختصار قصة شيء وجد في الذهن على الأقل.. مرمى! إن الحقيبة ثقيلة ومتعبة، ولا تزال تنبعث بهدوء في قلب الصمت المضجر «جورجيا أون ماي مايند».

- أي شيء تفعله هنا؟
- لا شيء... أستريح.
- لا شكّ أنك سافرت كثيراً.
- ممكن، لا أدرك شيئاً مما فات..
- يمكنك أن تدرك بسهولة..
- لا أعتقد.. لأنه ليس في إمكان أي واحد أن يدرك ما مرّ به.. تستطيع أن تستمع إلى «جورجيا أون ماي مايند» وتريحني..
- يبدو أنك تحب الموسيقى كثيراً.
- ممكن..
- ما دام كل شيء سيظل في حدود الإمكان سأريحك..

الناس يعبرون بالمئات، وفي الجانب الهامشي للوحة الطبيعية المعروضة أمام عينَي سليمان.. الأشجار الخضراء والألوان المختلفة (والطيور التي لا يراها ويسمع زقزقاتها) لا تزال موجودة هي الأخرى.. إذ لا أحد بمستطيع تغيير شكل من هذه الأشكال أو تلك، فذلك هو السر الذي سيظل خافياً. وتحت الجناح الأسير

لمؤسسة كبيرة تكوّمت السيارات، وعبر الناس بالمئات وتجاوزوا طواراً إلى آخر.. وظلَّ هو يحدق بصمت قاتل، ويدفع الكرسي، ويتحسر على حصص مجهوداتهم اليومية الضائعة في ثقب على جدار..

- هل تحب الموسيقى؟
- ألف نعم..
- إذن استمع إلى «جورجيا أون ماي مايند».
- ألف موافق.. دعني أستريح.

من خلال الأشجار، والبنايات الواقفة بفوضى، تطاولت كثيراً من الأشكال والصور والغابات، وتحولت مسافات وأبعاد تحولاً عنيفاً وغير موضوعي.. هذا أيضاً.. أنا تعب، وهذا وحده يبرر طلبي للراحة ولو قليلاً من الوقت. أعتقد أن الراحة ضرورية حتى بالنسبة إلى دورة الكون.. وسمع سليمان صوت أبيه القادم من مكان بعيد. ونظر بإمعان في اللون المتغير لأصابع يديه..

السفر متعب حقاً.. ما أحوج المرء إلى راحة بعد سفر من هذا النوع..

- اسمع يا سليمان.. من الذي قتل أباك؟
- لا أحد..
- هذا غير ممكن.
- أبي نام ليلته بهدوء ثم مات بهدوء.. في ذلك الصباح رأيته بأم عيني، هادئاً كالمحبة أو الموت.
- لكن، هناك دلائل على مقتله لا على موته.
- أعتقد أن لا فرق بين الموت والقتل.
- طيب.. تكلم بلا مراوغة الآن.. من الذي مزق بُلْغَة أبيك؟
- وجدتها ممزقة..

– وبُلْغَة أمك؟

– وجدتها ممزقة أيضاً.

– وبُلْغَتَك أنت؟

– أنا لا أضع البُلْغَة ولكني أضع الحذاء.

– لكن من الذي ألقى ببدعية أبيك من النافذة؟

– هذا أمر لا يعنيني. فالبدعية كانت معلقة ذلك المساء.. وفي الصباح.. أنتم تعرفون الحكاية.. جاءتني «حادة» بالبدعية وقالت: «سليمان.. هذه بدعية أبيك سقطت من نافذتكم». أمسكتها وقلت هذه بدعية أبي، ولا أحد يعرف من الذي ألقاها من النافذة.. «حادة» تعرف كل شيء، هذا فيه الكفاية.

نفث سليمان الدخان.. الموسيقى لا تزال تنبعث. شمَّ لها رائحة ذات طعم خاص إنها تشبه رائحة أشجار الرتم لدى سقوط المطر في الليل.. لا يزال يتشمم الموسيقى بأنفه، وينفث الدخان في وجه الأشكال.. وفي حفرة الجدار الأمامية، حصصهم اليومية لا تزال تتساقط بنظام، ولا تزال ابتهالاتهم ترتفع إلى السماء ودعواهم لا تستجاب في الحين «كل شيء باسم سانتا ماريا..» وهذا في حدّ ذاته شيء مهم.. فالناس يعبرون بالمئات وهو – المسافر الوحيد – يشعر الآن براحة قوية نسبياً.. لقد اعتقد أنه الوحيد في هذه المدينة، الإنسان الوحيد الذي يشعر بكل عنف – إزاء هذا الغليان – أنه مؤهل لكل شيء. ذات صباح، نظر سليمان في وجه أخته البارد، وأعطى وجهه لهواء النافذة الأمامية – قبل أن يقول كلمته الضرورية والحادة –. لم تكن أخته، قبل وفاة والده، سوى طفلة لا تعرف شيئاً عن الدنيا.. اليوم يقولون عنها إنها أصبحت ذكية، وأكثر من عادية، اليوم فقط أصبحت تعرف معنى أن يضيء القمر في ليالٍ معيّنة من الشهر، وأن تحيض امرأة في أيام

معيّنة، وأن يُقال هذا الكلام أو لا يُقال.. هذه هي التجارب التي أنضجتها.

- إن أبانا مات.

- نعم.. لا تذكّريني بذلك، فقلبي لا يستطيع أن يحتمل أكثر من اللازم، موته ضربة قاسية على قلبي الضعيف.

- أعرف ذلك يا سليمان.. لكن المسألة التي أريد أن أحدثك عنها، هي أن الموت يضع حدّاً لعدد من الاعتبارات.

- لا أفهم.. تريدين أن تقولي إن كل شيء يتغيّر بعد الموت.

- نعم.. الأشياء الخاصة تتغير. أريد أن أقول إنه يتعيّن عليك أن تتغير، أن تحاول إحداث تحول في شخصك.

لكن ما نوعية التحول؟

التحول له شكل واحد، أن نعيش وفق معطيات الموت أو الحياة، هناك ارتباط أساسي بالظروف. لقد مات أبي.. هذا صحيح، لذلك أعتقد أن المسألة لا تعدو كونها واضحة ومفهومة. هناك شخص يعولني قبل موته لأنه يملك قدراً بسيطاً وكافياً من المال. أما الآن فيجب أن أعول نفسي.. (وكانت جورجيا أون ماي مايند تشتعل في الهواء، لا تزال لها رائحة أشجار الرتم في ليلة مطيرة.. يقال إن الأشجار تخنق أثناء عملية التمثيل الكلوروفيلي.. يمكن أن يكون ذلك صحيحاً.. ولكن الموسيقى التي لها الرائحة نفسها، لا تخنق وإنما تنعش). وظهر وجه أخته مدوراً كروياً أو بيضوياً، لا يعرف بالضبط مقاييس الوجه.. كل ما في الأمر أن عليه علامات جادة ومميزة.. وفي شفتيها نوع من الشبه الأنثوي المغري.. وعند القدم، أسفل الطاولة، سمع طقطقات بجلد الحقيبة. دفع الكُرة الصغيرة التي طاشت من الأطفال وتوقفت عنده بوداعة، دفعها بقدمه، وحدّق بشهوة في الجسد الطري لسانتا ماريا،

كان فيها جوع وتوق إلى المطلق، لذلك عيناها تبدوان معلقتين، وجسدها يبدو كما لو كان صاعداً بسرعة فائقة إلى الأعلى باتجاه البيت وقلق بياض البنايات. الارتفاع الأجرد يغطي مرئيات أخرى ويدفع بقوة النظرات الفضولية الفاحصة، يردُّها كما يردُّ الجدار كُرة منطلقة بعنف تجاهه. غير أن الطيور التي لا يراها سليمان لا تزال تزقزق في الاخضرار المجاور.. أما هو فيشعر أن العالم ليس ملكاً لأحد، وكان يعي بكل أعصابه أنه سافر كثيراً من أجل التحول، هو الآن يتوقف بمدينة صغيرة بيضاء.. والوطن ليس بعيداً من هذا المكان.. ولكن العودة.. هذا الشيء المستحيل، هو ما لم يعد يفكِّر فيه، فمن أجل التحول لا بدَّ من وقوع أشياء غريبة وغير ذات معنى، والتحول هو في الأساس وقوع شيء غير ذي جدوى.. وهذه جميعاً ستبقى مجرد افتراضات. أنا أنظر إلى الأمر هكذا، ببساطة، في حين ينظر الآخر إليه بمنظار آخر، قد تكون الجدوى في الجدوى نفسها، وليس في اللاجدوى كما أعتقد. انطبعت إذ ذاك عدة حفر صغيرة بشكل حوافر الماعز في رأس سليمان.. فالتحول هو البحث عن معنى الوجود.

ومعناه أيضاً استراحة متوفرة وحب متوفر، وأشياء أخرى ضرورية..

- أنا شخصياً أحاول أن أتغير.. كل إنسان يحمل هذا الشعور.. أليس كذلك يا أختي؟

- نعم، وهذا ما طلبته منك في بادئ الأمر.. أن تذهب فتبحث عن عمل. باختصار أن أبانا مات. وليس في مقدور والدتنا أن تفعل شيئاً.

- أنا أعرف أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، ومن أجل ذلك أصرّت على بذل جميع طاقاتي للحصول على عمل..

- إن ثقافتك تخوّلك فيما أعتقد..

- أعرف ما تقصدين.. ولكن كل الكتب التي قرأتها عاجزة اليوم عن إطعامي..

- لا تكن كذلك، فكل الناس لا يملكون سوى شهادات دون شهاداتك..

- هذا صحيح، ولكني عجزت اليوم عن إيجاد هذا العمل الذي ترغبين فيه..

- المرء في حاجة إلى تغيير.. انظر فلاناً وفلاناً مثلاً...

- لقد أصبحت ناضجة أكثر من اللازم.

في السمت.. الشمس تدور على نفسها بسرعة فائقة جداً، وتتكسر إلى ألوان قزحية مبعثرة اخترقت كل المنظورات.. وظلّت أشعة الشمس تنفذ كالإبر في جسد الموسيقى المندفعة في الهواء، وتحت المؤسسة الكبيرة، على بُعد خطوات، راحت السيارات تتفرق في اتجاهات مختلفة، ارتفعت أصوات الكلاكسونات.. ومدَّ سليمان يده إلى حقيبته الزرقاء.. التعب لا يزال يضغط على صدره.. والشمس لم تعد تدور في السمت، ومضى يخترق المنافذ العديدة للمدينة، فشوارعها الضيقة والوسعة تغريه بالمزيد من اللفِّ والدوران، ومضى يدور ويدور ويدور... واشتبكت في رأسه دوائر كحلقات السلاسل، ودخّن بأعصابه، وتشمم الهواء باندفاع.

وضع سليمان حقيبته الجلدية الزرقاء عند قدم السرير، وتأمل في اللحظة، كفّه التي تؤلمه من جراء الحمولة. رأى أصابعه وهي تتشنج ببطء. تتنمل وقد تجمد فيها الدم. انغرست نظراته في كفّه. الدم حار في رأسه، وأصابعه أصبحت في لون الحقيبة الجلدية، كانت قدم السرير زرقاء هي الأخرى، طلاؤها لامع يعكس ضوء المصباح الكهربائي الأصفر في الغرفة.. جرَّ سليمان قدمه التي

أثقلها الحذاء، فدفع الحقيبة التي أحدثت للتو: خش. وتلذذ لسماعه هذا الصوت، فأعاد دفع الحقيبة مرة ثانية فلم تحدث الصوت الأول نفسه. ضَجِرَ لذلك، وتجمَّع غضبه في كفّه فضرب في الهواء صورة كل الأشقياء الذين يتناسلون في العالم بلا هوادة. وارتمى بثيابه فوق السرير، محاولاً أن يمسح أتعاب السفر الطويل. جذب الغطاء بلا إرادة فلم ينجذب. نظر في السقف فرأى هالة أحدثها المصباح حول الطلاء الأبيض المقشر. وركّز ذهنه حول هذه الصورة الجامدة الميتة. التفت إلى النافذة التي غطَّت ستارتها الإطار الخشبي. وأتته الرغبة في أن ينهض ويحرك الستارة وينظر في وجه الليل، خلف هذه الغرفة.. لا شكّ أن الليل الآن هو الليل نفسه. لم يتغيّر ولن يتغير.. ونهض سليمان ثم فكّ خيوط حذائيه الأسودين، وربطهما من جديد.. وتذكر أنه لم يزح الستارة فتوجه إلى النافذة ونظر في وجه الليل، وحاول أن يقنع نفسه بأن هذا الليل هو ذلك الليل السرمدي، وشعر أنه يخدع نفسه. حدق في الفراغ الأسود، فبدا له أنه لا يختلف عن السواد الذي عرفه، وربما لن يختلف عن الذي سيعرفه. ثم شدت أصابعه بقوة وعنف على الستارة التي كان ملمسها مغرياً، ناعماً كظهر القطة. لربما كان هو النزيل الوحيد في هذا الفندق، فكر هكذا. ماذا عليه أن يفعل الآن وهو تعب؟

منذ وقت وهو يبحث عن فندق في المدينة البيضاء الصغيرة، فلم يعثر فيها جميعاً على غرفة بأربعة جدران وسرير وستارة ناعمة من ثوب لا يعرف اسمه. إنه الآن يستريح نسبياً بعثوره على غرفة. لكن قدميه تعبتان وكفّيه متشنجتان، وأصابعه المتوترة ذات الكدمات السوداء توجعه بقوة. وكانت يده اليسرى تلمس هذه الكدمات في مواساة. كان صغيراً، وكان يبحث عن معنى هذه الكدمات في أصابع أبيه، واليوم أصبح ذلك يبدو له تافهاً. كم نحن تافهون بعض

الأحيان. كنت أتخيلها نتوءات على ظهر شجرة عجوز، والآن ها هي ذي تنبت بفوضى على أصابعي على الرغم من أني لا أمارس عملاً يدوياً. كنت أقرأ كثيراً...

أرخى الستارة بعد أن شبع من النظر إلى وجه الليل.. وبعد أن تأكد أنه الليل نفسه الذي تركز في وعيه منذ الصبا. خَطا نحو السرير مجرجراً قدميه اللتين أثقلهما الحذاء.. وأتته كلمات إسبانية من خلف الباب الصامد في وجه عالم بأكمله، فلم يفهم للكلمات معنى، وقال لنفسه: أنا لا أفهم الإسبانية، مع ذلك أعيش، آكل وأشرب وأنام، ثم أطلب لي غرفة في فندق هكذا دون أن أعرف كلمة واحدة، إذن ما مهمة أن أتعب نفسي بحفظ قواميس العالم؟

بدا له الباب الخشبي سوراً حديدياً يقف دون أناس لا تربطهم به أي علاقة. إنه وحده بين الجدران الأربعة وخلف هذا الباب، متأكد من أنه تخلص من شتى الاعتبارات التي ستشغله للتو، بمجرد مغادرته الغرفة حيث يلتقي بربّة الفندق وبنزلاء جدد، وحيث ستكون له علاقة مؤقتة أو دائمة بهؤلاء الأشخاص غير المرغوب فيهم. وتذكر أنه خلال سفره لم يحاول أن يسعى إلى الاتصال بأحد.. لقد كان سجين عالمه الخاص. وفي ذلك المنفى الاختياري اكتشف تلك الحقيقة الفردية التي تتعدى جميع الحقائق. إن العلاقة بالآخرين إنما تتبعنا لا غير، ولذلك فهو في حقيقته الفردية قد وجد الخلاص، وكان يتفرج على الأشياء من برج حقيقته. إن كل ما يراه الآن، وما كان يراه سابقاً، ليس إلا مجرد مظاهر، ولذلك فنحن إذ نربط علاقة ما فإنما نربطها مع المظهر لا غير. أنا نفسي لست إلا مظهراً، قال لنفسه، ففي بعض الأحيان تضيع حقيقتي وأصبح مرتبطاً بالمظاهر الخارجية، ولا أُنقَذ من ذلك الاندماج إلا بصعوبة.

اتجه سليمان إلى حقيبته الزرقاء، ووضع يده على المفتاح

الصغير اللامع، ففتح الحقيبة. ما عساه أن يفعل؟ في بعض الأحيان يسبقنا الفعل قبل أن نقرره، ولكنا مع ذلك نسأل عنه. في إحدى المرات - وكان سليمان لا يزال في وطنه - تشاجر مع شخص لا يعرفه. لقد ضرب ذلك الشخص دون أن يشعر ودون أن يقرر القيام بالفعل. غير أنه في النهاية كان مسؤولاً عنه، وقدَّم غرامة للمحكمة. أما الآن فقد فتح الحقيبة دون أن يدري لماذا. لكن يديه سرعان ما امتدتا إلى ثيابه التي اتسخ أغلبها وجعل يقلبها بشكل عصبي. عثر في النهاية على معجون للحلاقة، ولمس للتو وجهه الذي بَقَلَ. لكنه أعاد المعجون إلى مكانه. وأقفل الحقيبة الزرقاء من جديد. وذهب إلى النافذة لينظر في الخارج. حاول أن يتبيّن وجه السماء، غير أنها مختفية في اللامتناهي، خلف ظلمة كثيفة شديدة السواد. وما لبث ينظر وينظر. هناك هواء مسائي خفيف منعش يُداعب وجهه، ويؤرجح الستارة فوق الإطار الخشبي. وشدَّ على الإطار بكل أعصابه، وجعل يستنشق الهواء اللطيف بجذور أنفه. كانت ألياف وجهه الآن تتمدد وتسترخي. وشعر أنه - تحت رحمة هذا الهواء المنعش - يدخل في مرحلة نفسية أخرى. لقد ظلّت أعصابه متوترة طوال هذا اليوم، أما رأسه الثقيل فقد بدأ ومنه يخف تدريجياً. والتفت إلى السرير الجامد، وتوجهت نظراته إلى «الكومودة» عند رأس السرير. هناك منفضة مستديرة تدعوه إلى أن يملأها بالأعقاب هذه الليلة. ظلَّ وجه أخته مدفوناً في المنفضة، فقد شهوانيته، وتحولت استدارته إلى شكل آخر. لم يعد كروياً ولا دائرياً ولا بيضوياً. أصبح رمادياً عليه آثار الجذري، فلن يستطيع الآن جميع علماء الجينيالوجيا والأنساب أن يقولوا إنها أخته من أبيه وأمه. كل شيء أصبح رمادياً ومشوهاً. وغير أن سليمان لا يدخن كثيراً. لا يدخن كثيراً. ومدَّ يده إلى جيبه وأخرج سيجارة. ثم بحث عن علبة

الثقاب في جيب آخر. أشعل السيجارة بآلية. ثم بدأت جذور أنفه تلفظ الدخان في هواء الغرفة. وجعل يدخن بسرعة وعمق. ثم تكوّنت أمامه سحابة صغيرة من الدخان تحولت إلى شكل حيوان غريب لم يره في حياته قط، وربما لن يراه أبداً. وتوجه إلى المنفضة فدفن فيها ما تبقى بين أصابعه من السيجارة الرخيصة ذات التبغ الأسود، ثم هرول سريعاً وفتح باب الغرفة ونزل السُلَّم كمن أصابته نوبة عصبية. ثم تذكر أنه لم يغلق الباب خلفه، ولم يأخذ معه مفتاح غرفته. فعل بسرعة وأطفأ الضوء. ثم بحركة بطيئة أدار المفتاح، ثم شدَّ على المقبض ودفع الباب ليتأكد من أنه مغلق. ثم نزل السُلَّم الحجري بهدوء أعصاب. وعندما بلغ الباب علّق المفتاح فوق اللوح الأسود الذي كُتِبت عليه أرقام الغرف. في الفندق كانت عشرون غرفة. فوق اللوح ثلاثة مفاتيح. ثم غادر الفندق.

بدا وكأنه تناول مخدِّراً مهدِّئاً للأعصاب. تحسس جيبه وهو في الطريق، فعثر على بضع «بسيطات». وقال في نفسه إنها تمكِّنه من أن يشرب شيئاً في أقرب مقهى إليه، واصطدم مرفقه بجسم رجل غليظ قصير وهو يدخل البار. كان هذا الأخير - وهو ممسك بقبعته يحاول أن يضعها فوق رأسه - يغادر البار ثملاً. واصطدم سليمان بعيون بليدة، راكدة النظرات، خامدة. توجه إلى الفاصل حيث «تابوريهات» فارغة تقف في الهواء كالعَسَس، وجلس على أحدها. وأتاه البارمان ذو الوجه الأنثوي وقال له بدلال: «سنيورا!» فأجاب سليمان بارتخاء وإيجاز: شيء بارد!.. ذهب البارمان، وجهُ سليمان في المرآة قد بدأ يتخذ له شكلاً آخر، كان مستديراً فيما سبق، وها قد بدأ يستطيل الآن، لقد أرعبه منظر وجهه وهو مشوّه في المرآة التي التصق بها بخار من جرّاء تنفس الرواد. وشعر أنه غريب في عالمه الوحيد الشخصي. التفت إلى زبون ونظر في وجهه، وعينيه وأنفه وشفتيه.

وقال لنفسه: يجب أن أبتسم له. وعندما ابتسم ابتسامة باردة، يبتسم له الآخر في ارتخاء بفعل كؤوس متعددة أفرغت في بطنه، ولكن ابتسامته مع ذلك جاءت دافئة وإنسانية، جاءت من عالم آخر لم يستطع سليمان أن يعرف حقيقته. دسَّ الشخص الغريب ذراعه تحت إبط سليمان، كلمات خشنة تغرغر في حنجرته. خلفهما ظلّت المقهى صامتة، والليل قد احتوى بعمق كل الأشياء المرفوضة. ماذا يريد هذا السيد بالضبط؟ قبل لحظة عندما تبادلا الابتسام، تكلم سليمان عن حياته بإيجاز وتركيز.

- يوناني؟

- مغربي.

- لا شكّ أنك طالب.

- لا..

- عامل؟

- لا..

- من أنت إذن؟

- لا شيء..

ورفض سليمان أيضاً كل الاعتبارات، وحكّ أنفه المشقوق من طرف رائحة زاكمة ومغثية. كان مسروراً من هذا اللقاء العابر، وقال للرجل الغريب محولاً الحديث:

- أنت من هنا؟

- نعم.

- وتعمل هنا؟

- هنا أو هناك. هذه أشياء تقترحها الظروف.

- بأي شيء تشتغل؟

- بكل شيء. . قلت إنك لست طالباً ولا عاملاً. هل تشتغل معنا؟

- بكل تأكيد.

- لقد كان هناك جزائري يشغل مكانك. أظن أنكما تتشابهان في المزاج. . هذا لا يهم.

ووضع الرجل الغريب ذراعه حول عنق سليمان وضمه إليه بحرارة. رائحة السردين والخبز تتبخر من أوعيته، وأخرجه من المقهى. ها هما يمضيان الآن في الشارع المؤدي إلى الجهة الشرقية من المدينة. قال إنه سيشرح له كل شيء.

- سأضيّع الطريق المؤدية إلى الفندق. ثم إن أمتعتي لا تزال هناك.

- إني أعرف الفندق.

ذراعه لا تزال متشابكة مع ذراع سليمان، يبدو أن الرجل شرب كثيراً، لأن سليمان يجرّه كما لو كان يجر جثة ميتة من قعر النهر. . سقط بتلكؤ في حفرة مستديرة على الطوار، وجذبه سليمان إليه. فقال الرجل الغريب:

- يمكنك أن تتوقف الآن (وتوقف).

- لماذا؟ هل تعبت؟

- نعم. أستعيد قوتي.

- خُذ لك مهلة.

ونظر الشخص الغريب في وجه سليمان المتبقل الحزين بتركيز. لم يكن هناك أي احتمال للسقوط بينهما. فمنذ لحظات فقط، لم يكونا يعرفان بعضهما. وها هما الآن أصبحا متآلفين. أعلن في وجه صديقه:

- هل انتهينا؟

- أجل. .
- إلى أين؟
- تنفس ببطء وحرية. ستصعد. هل تحب المساء؟
- لا أعرف.
- إذن لا داعي للوقوف.
وبتلكؤ وتراخٍ قال سليمان:
- هيا اصعد.
كانت الخمر قد توغلت في تجاويف دماغه، وعبر الخيوط والألياف الممتدة في رأسه كان الشخص الغريب يشعر بحرارة فائقة وقاتلة. وقال من خلال التجشؤ الشبيه بالقيء:
- اسمع، هل تستطيع بحق أن تعمل معنا؟
- نعم. هذا ممكن. ثم إن الأمر يتعلق بنوعية العمل.
- خُذ راحتك الآن. هل تستطيع أن تساعدني على الصعود.
الطابق الثاني.
دفع سليمان الشخص الغريب بكل قوته من درج إلى درج. ثم بعد لحظة وقفا كماردين وسط غرفة صغيرة متسخة. نافذتها تطل على فراغ سحيق ليلي. نظر سليمان عبرها إلى لا شيء، وقال بتقطع:
- هل تسكن هنا؟
- أجل. .
- وحدك؟
- وحدي أو مع صديقي، حسب الظروف. انظر. .
نظر سليمان ببطء في كفَّي الشخص الغريب. هناك علبة شبيهة بالذهب تتألق تحت وهج الضوء الخافت المنبعث من مكان جانبي، وقال بابتهاج:
- ذهب؟!

- لا يهم. إنها من هناك. سنشرح لك كل شيء (رائحة الخمر تخرج خطمه الأزرق).

وأخفاها من جديد في جيب سترته. ثم توجه إلى السرير الوحيد في الغرفة وألقى برأسه على الوسادة القذرة، ونظر إلى قدم الكرسي في الزاوية.

- اسمع، استرح الآن. سوف يجيء صديقي، إنه لا يملك مفتاحاً، يمكنك أن تفتح له الباب إذا سمعت طرقاً.

- حسناً.

نام الشخص الغريب، وترك سليمان شبه نائم على الكرسي قبالة السرير. استيقظ سليمان فجأة غير مصدق وأشعل لفافة. ذهب إلى الشخص الغريب الذي يسمع له شخير كصوت خنزير قبيح وحاول أن يوقظه ولكن عبثاً. ذهب سليمان إلى النافذة ونظر في وجه الليل وفي الأضواء الخافتة القادمة من بعيد عبر أطنان الضباب والهواء المكثف. أحس بالجوع ولم يطق الجلوس على الكرسي، لأن ذلك متعب بالنسبة إليه. وحاول أن يوقظ الرجل دون جدوى. انسحب إلى الخلف ونظر في فردتي حذائيه المترّبتين، وقرر أن يدفع الباب - إذ شعر أنه وحيد - ونزل إلى تحت دون أن يغلق الباب. صوتُ خنزير يطارده بقوة وعنف. رغبته في النوم ملحّة لأن تعبه اليومي تضخم بشكل فظيع. وسار في اتجاه الفندق لينام هذه الليلة، غداً سيحاول أن يسترجع وعيه. ويناقش مسألة العمل مع هذا الرجل الغريب ذي الخطم الأزرق.

أمس كانت رؤاه ليلية لا تبيِّن عن شيء ولا تساعده في إدراك مهوى أو مرتفع. . فالسواد المضبب، والكُرات الكهربائية المنتشرة في البعيد لم تكن لتعطيه سوى عالم متشابه، وهو عالم الليل. أما الآن، فبعد الأحلام المزعجة أو اللامزعجة عن رجل الأمس

الغريب، راح يدور في غرفة الفندق وقد توضّحت معالمها أكثر. ففيها البياض وفيها السواد وفيها الزرقة السماوية المفتوحة. وأما هناك خلف إطار النافذة المفتوحة على ذقن سماوي عميق، كانت الأشياء قد تغيّرت كلياً عن أمس. اقترب وجرجر خطوته الأخيرة إلى النافذة. وهو يعرض نصفه الأعلى إلى هواء الصباح. وضع إصبعه على جرح خلّفته موسى الحلاقة قبل دقيقة أسفل ذقنه. بدا له الجرح غائراً ودموياً. ولكنه لم يكن - في الواقع - سوى جرح طفيف لا يستحق أي عناية، بل لا يستحق كل هذا الاهتمام الذي أولاه سليمان إياه.

أخذ يفكر:

- ذلك الرجل سيشغلني.

- هذا صحيح...

- بالأمس كان سكران بما فيه الكفاية.

- علبته الذهبية رائعة.

- كان إنسانياً ومعبِّراً.

ثم أضاف: أنا أحلم.. أنا أحلم..

ولعق شفته السُّفلى بلسانه الأحمر الذي يقسمه حفير صغير إلى قسمين. ترك لسانه برهة خارج فمه، وعندما جذبه إلى الداخل أحس بنوع من البرودة، وشعر بأن في فكيه ألماً خفيفاً، كما لو كان قد مضغ قطعة كاوتشوك لمدة ربع ساعة. «هذا لا يهم» قال لنفسه. ولكن ما الذي لا يهم؟ لا شيء. لم يكن يعرف. وتحت النافذة تتفاوت نباتات مخضرة في الطول. كانت هناك حديقة ملحقة بالفندق، عليها بعض الكراسي المبثوثة في الزوايا، وقد صُبغت باللون الأبيض، فبدت داخل الاخضرار كأرانب صغيرة متجمعة

تقضم العشب. وخطر له أن ينزل إلى هناك فيتناول إفطاره، لأنه لم يأكل أمس بما فيه الكفاية.

- النقود ليست كافية. لكن ماذا أفعل؟

- عش أولاً لحظتك الحاضرة وسترى ما الذي تفعله فيما بعد.

- هذا معقول.

ووضع إصبعه على الجرح الصغير في ذقنه للمرة المئة هذا الصباح، وتحسسه بعناية وفكر أنه مجرد عابر سبيل من هنا. فهو لم يخطر له في لحظة ما أن يتوقف أو أن يستقر. ونزل إلى الحديقة الصغيرة. وتحت وهج الشمس الخفيف استعرض مظهره. ولم تكن عليه ثياب تثير الانتباه. إذ إن بعض الأوساخ كانت عالقة بها. وعلى الرغم من كل هذا، فهو يعرف أن بإمكان المرء أن يستبدل ثياباً بأخرى. غير أن التحول الحقيقي الجوهري هو ما ليس في إمكان أي واحد أن يتوفر عليه. قال ذلك، وأخذ يمضغ بشهية قطعة الخبز المصلوبة أمامه، والتي بدت تحت طبقة الجبن مغرية شيئاً ما. وعندما انتهى، أراد أن يدخن، فبحث في جيبه عن سيجارة. لكنه لم يجد شيئاً، لذلك عدل للتو عن الفكرة وأخذ يشرب القهوة المخلوطة باللبن بتلذذ غير عادي. ونزل إلى الحديقة شخصان وهما يتكلمان بحدّة وجلسا إلى طاولة بعيدة منه. جذب عن رأسه ورقة قد تدلت، فدعكها بخفة وشمَّ رائحتها. وشعر بالوحدة والغربة. وخاف أن يثير منظره انتباه الشخصين، ولكنهما لم يفعلا أبداً، فربما كانا متعودين على ذلك، أو أنهما كانا منشغلين بما هو أهم. ودعك ورقة ثانية وتشمم رائحتها الحادة، وطارت أمامه صورة الرجل الغريب، وتذكر بسرعة الطريق الذي سيمضي منها إليه من هنا.. ثم من هناك.. وهذا الشارع.. ثم من هنا.. وبعد ذلك العمارة.. فالطابق الثاني.. وملأت خياشيمه رائحة الورقة المدعوكة، وحمل الفنجان

إلى فمه ولكنه كان فارغاً. لقد أتى على كل ما به من قهوة ولبن. ونظر إلى ركبته فاسترعت انتباهه خطوط سوداء مرسومة على سرواله، خطوط زيتية سوداء، وقف، ثم دار في الهواء، ونظر في مركز دائرة الشمس كإلهٍ إغريقي. ولكن تحدّيه انهزم فجأة، لذلك دار دورته النهائية وانسلَّ من الباب الصغير إلى الطريق، وتنفس بعمق رائحة الأشياء وقد استيقظت كلية. حكَّ أنفه ونظر إلى طفلين يلعبان، وقبل أن تُستكمل الصورة قفز الدرجات بخفة كالسنجاب ودخّن بوعي نافذ. وقف عند الباب. كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً، وضع سليمان يده على الجرس فرنَّ في قاعة بعيدة جداً. وخرجت للتو سيدة متوسطة القامة والعمر:

- سيدي؟

قال سليمان بارتباك:

- هل السيد هنا؟

- نعم (وذهب بعد أن دفعت الباب قليلاً).

كان سليمان في حلم. من تكون هذه المرأة الغريبة؟ هل هي صديقة الرجل الغريب؟

ورفع سليمان عينيه في عيني الشخص الغريب وقال له:

- أعتذر عن أمس. لقد انسحبت لأنك نمت مبكراً.

قال الرجل باندهاش:

- عفوك سيدي.. ماذا تعني؟

- البارحة..

- آه.. البارحة؟ لا أفهم..

- طبعاً، لا يمكنك أن تفهم لأنك نمت وتركتني وحيداً.

قال الشخص الغريب باندهاش أكثر..

- يمكن أنك أخطأت سيدي، ماذا تعني بالضبط؟

- أنا صديقك أمس. ألم تعدني بالعمل معكم؟

- سيدي أنا لا أفهم، يمكن أن يكون جاري، إنه وحيد وأعزب.

ودفع الشخص الغريب الباب في وجه سليمان، لكن هذا الأخير ردّه إليه بشدة:

- لماذا تتصرف هكذا مع صديق؟

قال الرجل:

- سيدي، لستَ صديقي. إنني لا أعرفك ولم يسبق لي أن رأيتك. أعتذر إذ وقع هناك سوء تفاهم.

ودفع الباب هذه المرة بقوة أكثر في وجه سليمان الذي انسحب على الفور، وتجاوز الطابق الأول إلى الشارع. كان الطفلان لا يزالان يلعبان. استكمل الصورة الآن في ذهنه، لقد أخطأ الطريق بالفعل إلى الشارع، إلى الغرفة، إلى الرجل.

أخذ يدخّن، داس عشرات الأعقاب بفردَتي حذائه المترّبتين. قرر أن يجرب حظه في اتجاه آخر. لقد وصل أمس إلى هنا، وها هو يمضي كما جاء، رأسه مشعث، وفي ذهنه فكرة يسميها تحولاً. كان التراب على حذائيه لا يزال ملتصقاً بعناد. وكان يشعر بالتعب الممض، ولكنه يرفضه، لأنه اعتقد بادئ الأمر أن للرياح اتجاهات متعددة، وأنه مستعد لأن يسير في إحداها مهما كان الثمن..

وقالت الأخت:

- إنك تعيش على الأوهام.

- هل تعتقدين ذلك حقاً؟

- إني أعرفك كثيراً وأعرف طبيعتك.

- أنت لا تعرفين شيئاً.

على الأقل بعض الشيء من طبيعتك. احمل حقيبتك واذهب لتبحث عن عمل في أي مكان. لا شكّ أنك واجد رجلاً يساعدك على ذلك، إن هناك العديد من الرجال الطيبين الذين لا يمكنهم أن يتنكروا لمبادئهم أبداً.

ملك الجن

كانت الأشجار طويلة، ممتدة، ضاربة في الفضاء من كِلا جانبي الطريق، لكنها مع ذلك لم تستطع أن تخفي بعض قمم المرتفعات الخضراء، التي تتوج ذؤاباتها سُحُب رمادية أميل إلى السواد. كان تكاثف السحب وتحرُّكها ببطء يوحي بمجهول مخيف ومرعب. كان الاخضرار يتدرج صاعداً إلى الفوق، حتى يندمج نهائياً في لون السحب، تحرَّك رجلان من الركّاب وهما ملفوفان في جلاليب دافئة، وبمساعدة الأب ومساعد السائق، استطاعوا أن يحملوا الشاب المشلول وأن يخرجوه من الحافلة ويضعوه على جانب الطريق مثل كيس. كان ينظر حواليه ولا يتكلم. استسلم لمصيره ببرود ولا مبالاة. وعندما همَّ الرجلان بالصعود إلى مقعديهما، ألقت والدة المشلول بدعوات وراءهما.

قال أحد الرجلين: «في سبيل اللّٰه!». ثم غطّى رأسه بقب جلبابته ولم يلتفت إليها لأنه لم يرفع قط عينيه في امرأة غير زوجته، في حين صعد مساعد السائق إلى ظهر الحافلة وأخذ يلقي ببعض الحوائج التي كانت تتلقفها الزوجة حيناً والزوج حيناً آخر. السائق ينظر إلى كل ذلك وهو يدخن، ينظر في صمت وقد وضع مرفقه على المقود. الناس الذين يجلسون جهة السائق أيضاً ينظرون في صمت إلى الشاب، الذي كان رافعاً عينيه، ينظر إلى حركات المساعد،

عندما تحركت الحافلة، جلست الزوجة إلى جانب ابنها فوق إحدى الرزم، قالت له:

- سليمان، هل بك جوع؟

- لا، هل وصلنا إلى سيدي شمهروش؟

- لا أعرف يا وليدي، أسأل أباك.

قال الزوج وهو لا يلتفت إليهما:

- لم نصل بعد. نحن في أسني الآن، لقد قال لي السائق إن أمامنا سبعة كيلومترات لنبلغ أمليل. ومن أمليل نصعد إلى سيدي شمهروش.

قالت الزوجة:

- وهل هناك حافلات تذهب إلى أمليل. إني لا أستطيع أن أحمل سليمان على ظهري. كنت أستطيع أن أفعل عندما كان صغيراً. أما الآن فقد شخت وأصبح هو شاباً.

- لماذا تفكرين بهذه الطريقة؟ لقد قِيل لي إن هناك الكثير من الشاحنات وسيارات الأجرة والكراريس التي تحمل الناس من أسني إلى أمليل.

ذهب الزوج وسط الطريق الخالية. وأخذ ينظر إلى البعيد لعلّ شاحنة أو أي شيء آخر يكون قادماً. لا شيء. كان هناك صمت. بعض العصافير فقط تزقزق بين أغصان الأشجار. خرجت كروسة من طريق ترابي بين الأشجار المتكاثفة، وقفت الزوجة مفزوعة:

- كروسة!

قال الزوج:

- اجلسي في مكانك.

وقال الشاب لأمه:

- الجو ليس بارداً جداً كما قِيل لنا.

قالت الأم:

- نعم. لكن سيدي شمهروش تحيط به الثلوج. نحن لم نصل بعد إليه. سكتت وتابعت بنظراتها زوجها وهو يتوجه إلى صاحب الكروسة التي يجرها حمار يكاد يلتصق بالأرض، حوّل الرجل اتجاه الحمار، وتوقفت كروسته في الأعشاب على حافة الطريق المعبَّدة.

طلب الزوج منه أن ينقله إلى أمليل، ردَّ الرجل:

- كان بودي أن أفعل ذلك، لكن الكروسة ليست ملكي، إنها ملك صاحب البستان. كم تمنيت لو كان في ملكي كروسة! هل أنتم ذاهبون إلى سيدي شمهروش؟

- نعم.

- لا تضيع وقتك هنا، اذهب يساراً، وراء تلك البناية البيضاء، هل رأيتها؟ هناك سوف تجد موقفاً للكراريس التي تَقِلُّ الناس إلى أمليل.

هوى الرجل بالعصا على ظهر الحمار وأصدر صوتاً يحثه على استئناف السير.

سارت الكروسة دائماً على جانب الطريق المعبَّدة. انتظر الزوج حتى عبرت سيارة مسرعة الطريق. التحق بهما:

- انتظرا، سوف أذهب لأجلب كروسة. لن أتأخر. الكراريس هناك وراء تلك البناية البيضاء.

قالت الأم عندما رأت دابة نحيفة:

- آه لو كنت تستطيع المشي يا سليمان، لكنا قطعنا هذه الكيلومترات السبعة على أقدامنا ولاقتصدنا الثمن الذي سندفعه لصاحب الكروسة، ولكنك ستستطيع المشي إن شاء اللّه ببركة ملك الجن سيدي شمهروش.

عندما وصلت الكروسة لمعت عينا سليمان بفرح. سوف يصل

تواً إلى سيدي شمهروش وبعدها سيقف على قدميه. كما يمشي كل الناس. وسوف يركض وراء كل صبي ينادي عليه: «آ الزحّاف». لكن لن ينادي عليه أحد بهذا الاسم منذ اليوم لن يبقى زحّافاً. سوف يمشي هو أيضاً.

تعاون الأب مع الرجل. أمسكا به من تحت إبطيه. ووضعت أمه يديها تحت مؤخرته. كانت ساقاه مُتَشبِّكتين فانفرجتا في الهواء. ألقوا به على ظهر الكروسة بعد أن فرشت له أمه قطعة ثوب. طقطق خشب الكروسة، فأخذ الحمار يلتفت وهو يحرك أذنيه وإحدى قائمتيه الخلفيتين.

قالت الأم:

- هل تشعر بألم يا ابني؟

حرك رأسه بالنفي، وكان ينظر إلى تلك الأعالي الخضراء التي تمتد وسط السحب الداكنة. هناك سيدي شمهروش. كم أقام من مُقعَد زحّاف!

نُقلت الرزم إلى الكروسة وركب الزوج والزوجة. سارت الكروسة في الطريق الضيقة التي تؤدي إلى أمليل. سمعوا بوق سيارة جيب من الخلف فأخلى لها صاحب الكروسة الطريق. كان يركبها أوروبيون وأوروبيات.

قال صاحب الكروسة:

- إن الأوروبيين هنا كثيرون. يأتون لتسلُّق الجبل وهُم في كل مكان. يصعدون بالحبال حتى يصلوا إلى سيدي شمهروش. وكم واحد منهم نزلت به لعنة سيدي شمهروش فسقط ومات.

قال الزوج:

- ولماذا يعودون إليه؟

- إنهم يحبون تسلُّق الجبل. لكنهم لا يكتفون بذلك، بل

يفعلون أشياء قبيحة لا يرضاها سيدي شمهروش. وهناك من الأوروبيين من يأتي للتبرُّك به. هو لا يردُّ طلب من يلتجئ إليه.

على جانبي الطريق، كانت هناك بعض البنايات البيضاء تختفي وراء الأشجار، وهناك أيضاً أكواخ وزَرائب ودواب وقطعان من الماعز تنطُّ في الخلاء. بعضها كانت تمدُّ أعناقها لأغصان بعض الأشجار المتدلية.

صرخ الشاب: «آي!» ثم انقلب على ظهره فأسرعت أمه إليه وساعدته على الجلوس. كانت عجلة الكروسة قد توغّلت في حفرة، لم يهتم الرجل لذلك لأنه كان متعوداً عليه. أخذ يضرب الحمار بعصاه والحمار يمدُّ عنقه إلى الأمام.. ويحاول أن يخرج الكروسة من الحفرة. ضربه الرجل مراراً. في النهاية انطلقت الكروسة.

قال الرجل للزوج:

- إنهم لا يريدون إصلاح هذه الطريق. كانوا قد وعدونا بذلك أثناء الانتخابات.

قال الزوج:

- ماذا يستطيع الميت أن يقول للذي يدفنه؟ بالطبع، لا يستطيع أن يتحدث.

- لكن اللّه سوف يجازيْ الدافن والمدفون.

مرّت سيارة أخرى وهي تهتز، كانت تجر وراءها عربة أخرى صغيرة، مغطاة بباش مشدود بحبل.

قال الزوج:

- أوروبيون كذلك؟

- نعم. سوف ترى بعينيك. لقد اقتربنا الآن.

- قِيل لي إن الناس يصعدون إلى ملك الجن على ظهور البغال.

- نعم. أما أغلب الأوروبيين فيصعدون من طريق الحبال. سوف آخذكم إلى امرأة طيبة تكترون منها بغلين. إنها من قبيلتنا. المسكينة! توفي عنها كل أهلها وتركوها وحيدة تعيش من تلك البغال الستة. آه عفواً. الخمسة. لأن أحد الأوروبيين المتّسخين اكترى منها بغلاً منذ ستة أشهر واختفى هو والبغل.

- حتى هم يسرقون.

- اسألني عنهم. لكن سيد شمهروش لا يهملهم.

وقالت الزوجة:

- سليمان! مالك؟ لقد اقتربنا يا ابني. سوف تشفى إن شاء اللّه ببركة سيدي شمهروش.

ظهرت بعض المنازل والحوانيت في الجهة اليسرى. كان هناك أناس قلائل، اجتازت الكروسة امتداداً للطريق غير معبَّد. أحجار وبحيرات صغيرة من الماء الآسن. كان المكان شبه خالٍ. هناك ساحة وسخة ربضت فيها بعض الحافلات والعربات التي تجرُّها الدواب. ضرب الرجل الحمار بعصاه. التفت شمالاً. لم تكن هناك سيارة ولا شاحنة. بعض المارة فقط. سقطت امرأة عجوز في جلطة ماء. أسرع إليها رجل فأخرجها من الوحل ثم انصرف دون أن يهتم لما كانت ستفعله بعد انصرافه، أوقف الرجل الكروسة في ساحة أخرى، على جوانبها نباتات خضراء قصيرة، لكن الساحة لم تكن بعيدة من الساحة الأولى التي تلوَّثت بالروث وفضلات الدواب. كان في الساحة الأخرى غير المعبَّدة أكوام من الفضلات المبتلة.

قال الرجل:

- يمكن أن تأتي معي. أنزل الولد والولية. سنذهب إلى تلك المرأة حتى تحصل لك على بغلين. كما قلت لك فهي امرأة طيبة.

قفز الزوج من الكروسة دون أن يرد على الرجل. مشى وراءه

في زقاق ضيق ثم انتهيا إلى خلاء، حيث يوجد بيت طيني وأشجار وبغال. دخل صاحب الكروسة من الباب المفتوح، ثم خرج صحبة امرأة عجوز في وسط ذقنها وشم أخضر أقرب إلى السواد. لم تكن المرأة تتحدث العربية. قالت بضع كلمات بالبربرية، ثم انصرفت إلى الداخل وتركت صاحب الكروسة يفكُّ عقال بغلين ويستلم الأربعين درهماً من الزوج.

قال صاحب الكروسة:

- إنها امرأة طيبة. يمكنك أن تبقي البغلين معك المدة التي تشاء. لكن عليك أن تهتم بهما، إنهم يبيعون التبن، هناك فوق.

- لن نبقى سوى يومين فقط.

- الناس الذين يزورون سيدي شمهروش لا يبقون سوى ليلة واحدة. سوف ترى كيف أن ابنك سوف يشفى إن شاء اللّه. سيدي شمهروش لم يخيِّب أبداً أمل من يلجأ إليه.

حثَّ صاحب الكروسة البغلين على المشي. ضرب أحدهما بكفّه عند المؤخرة وهو يحدث صوتاً معيّناً. سار البغلان طائعين. كأنهما متعودان على الرجل. سارا حتى تجاوزا الخلاء، ثم مضيا في الزقاق باتجاه الساحة. إنهما يعرفان مهمتهما. ولا شكّ أنهما سيفعلان الشيء نفسه عندما سيصعدان إلى قمة الجبل حيث مزار ملك الجن سيدي شمهروش.

تولّى الأب أمر ابنه، ساعده الرجل على حمله. عانق الأب ابنه بذراعيه من البطن. بينما ركبت الأم على البغل الثاني بعد أن وضعت الرزم في خُرج أحد البغلين. قال صاحب الكروسة للأب:

- لا تخف على هذا الشاب. لن يسقط على كل حال، فالبغلان متعودان على تلك الطريق.

ثم ضرب الرجل البغل الأول في أسفل بطنه وهو يصدر الصوت

نفسه. سار البغل، ثم تبعه الثاني الذي كانت تركبه الأم. بعد ساعتين، كان البغلان قد وصلا إلى قمة الجبل. حيث انتشرت هناك غُرف. كان في المكان قبّة أيضاً. بعض الأوروبيين يتزحلقون على الثلج، وبعضهم يتزاحمون في البار الوحيد الموجود هناك. جرى رجل قصير القامة نحو البغلين، تبعه ثلاثة أشخاص، وحاولوا مساعدة الشاب المشلول القدمين على النزول، أخذوه إلى باب إحدى الغرف. قال رجل للأب:

- الثمن ليس مرتفعاً. يمكنك أن تبقى هنا المدة التي تشاء. ابنك سوف يشفى بإذن اللّه، إن لسيدي شمهروش وعداً مع جدنا. إذا كانت نيتكم حسنة فإن الولد سوف يشفى حتماً. يجب ألا تشك في قدرة جدنا ولا في الوعد الذي أعطاه له سيدي شمهروش.

قال الأب:

- من يستطيع أن يشك في ذلك يا سيدي؟!

- كثير من الناس يشكّون في ذلك، وقد استطاع جدنا أن يبتليهم بمصائب كثيرة. تصور أن وزارة الأوقاف ووزارة السياحة حاولت مراراً الاستحواذ على هذا المكان. هل تدري ماذا كانت النتيجة؟ طبعاً لا يمكنك أن تعرف. أقولها لك دون أن أخشى أحداً. إن أي موظف من هاتين الوزارتين حاول أن يقوم بهذه المهمة، أصيب إما بجرح وإما بكسر وإما بآفة أخرى. هم يعرفون ذلك اليوم ولا يحاولون أن يقتربوا منا. وإذن، فلتكن نيتك صادقة، وثقتك في وصية الملك لجدنا ثقة واضحة وصادقة أيضاً.

قال الأب وهو ينظر إلى زوجته، تحاول أن تلفح ابنها بغطاء صوفي:

- نحن لا نشك في شيء من ذلك يا سيدي، ولذا تحمَّلنا هذا السفر الطويل.

قال الرجل:

- هات بركة لخدام هذا المقام. أما ثمن كراء الغرفة فستدفعه عندما تنصرف. إذا أردت تبناً للبغلين وزريبة، فكل شيء موجود هناك.

ثم أشار إلى مكان مغطى بأشجار الصنوبر، ووراء الأشجار ثلوج بيضاء تتخللها بقع سوداء. هزَّ الأب رأسه. ثم دسَّ في يد الرجل درهماً واحداً، لوح الرجل بالدرهم وهو يقول:

- ما هذا؟ هل تمزح؟ أخشى ألا تكون نيتك صادقة.

قال الأب:

- من يستطيع أن يمزح يا سيدي أمام هذا المقام؟

- أخرج دراهم أخرى، واذهب لتلتحق بزوجتك حتى تهيِّئ لك براد شاي ساخن، فالبرد شديد جداً. اذهب وتدفّأ وإلا فإنك سوف تصاب بزكام هنا.

- نعم سيدي.

ثم تبع زوجته بعد أن أعطى للرجل قطعاً نقدية أخرى. كان الثلاثة الآخرون مبتعدين يثرثرون أمام القبّة غير مهتمين بما يحدث. كما لو كانت لهم ثقة فيما يفعله صديقهم.

قالت الزوجة:

- إن سليمان يمكنه أن يزحف وحده داخل الغرفة الآن، متى نُدخله إلى القبّة؟

- لم أتحدث إلى الرجل في ذلك، ادخلي وهيئي لنا شاياً ساخناً.

- سوف أفعل على الفور، ادخل أنت لتحتمي من البرد.

في الصباح، زحف سليمان وأمه إلى جانبه إلى القبّة. قبّة ملك الجن سيدي شمهروش. كان هناك مشلولون آخرون، صغاراً وكباراً.

كانت أمه، أحياناً، تذهب لتهيِّئ له شاياً، وتعود إليه بكعب الغزال الذي لم يكن يستطيع مضغه لأن بعض أسنانه تؤلمه. لاحظت الأم أن هناك مشلولين زاروا مراراً المكان لكنهم لم يقفوا على أقدامهم. عرفت ذلك من خلال أحاديث عائلات المرضى، ولكن الواقع أن سيدي شمهروش هو الذي يعرف ما يفعل. في المساء زحف سليمان مع أمه وأبيه إلى الغرفة. هيَّأت طعام العشاء، وتبادلت الطعام مع امرأة تعرفت عليها في القبة. أرملة تعيش مع أخيها الذي كان له ولد مشلول. وتلك المرأة هي التي قالت لها إنهم زاروا المقام طوال سنتين. إلا أن مشيئة سيدي شمهروش هي التي شاءت ألا يقف ذلك الطفل على قدميه في هذه السنة.

وقال الزوج:

- لا يمكننا أن نبقى أكثر من يومين. أنت تعرفين أنني لا أستطيع أن أدفع أكثر.

- مسكين ولدنا سليمان، لو كان أبوه غنياً لذبح ثوراً لسيدي شمهروش.

- سيدي شمهروش ليس في حاجة إلى ثور. إنه ملك الجن. هل تعرفين أنه يملك جميع لآلئ البحار، ومُدناً من الذهب، ولا يسير إلا على المسك والعنبر..

- ولكن ذبح ثور هو من الثواب والأدب، أمام قبّة سيدي شمهروش.

كان سليمان يستمع إلى ذلك كله، وينظر إلى رجليه الهزيلتين المُشبّكتين. ينظر من خلال فجوة الباب شبه المفتوح إلى الظلام في الخارج، ويتصور جيشاً من الجن، يقتحم عليهم الغرفة الضيقة، يتقدمهم جني أكبرهم سناً له ذيل وقرنان، يمدُّ ذلك الجني يديه اللتين طالت أظافرهما اللامعة. ثم يمد قدميه النحيفتين، ثم يقول له

بصوت خافت جداً «قف!». ينصرف الجيش فيقف هو، بعد ذلك يدفع الباب بقدمه القوية، ويخرج إلى الظلام. لكن أمه قالت:

- اشرب شايك. عليك أن تنام. ما بقي أمامنا سوى يوم واحد، سوف تقضيه غداً في القبّة، ولا بدَّ أن تشفى إن شاء اللَّه يا سليمان يا ابني.

في الصباح، جاء أحد خُدّام القبّة، طرق الباب، ذهبت الزوجة لتفتحه ثم عادت واختفت لتخبر زوجها، وعندما رأى الرجل الزوج تثاءب بكسل ظاهر وهو يقول:

- هل تبقون هنا مدة أطول أم سوف تنصرفون.

قال الزوج:

- سوف نقضي هذا النهار فقط حتى يقف ابني على قدميه.

- المهم إذا لم يقف هنا اليوم فإنه سوف يقف على قدميه في مكان آخر. أخبرك أن آخر حافلة تمر على أسني تكون السادسة والنصف مساء. ربما وقف ابنكما في الحافلة إذا لم يقف هذا اليوم، كثيراً ما وقع هذا.

- وإذا لم يقف في الحافلة.

- ارجع في الربيع القادم، لأن هناك فترات يتغيّب فيها سيدي شمهروش، ولا أحد يستطيع أن يعرف تلك الفترات.

- شكراً سيدي.

في الثانية من ظهر ذلك اليوم، كان البغلان يتدرجان إلى الأسفل.

صيد الثعابين

قالت:

- ما أنا إلا امرأة أرملة عجوز. لا أبناء لي. ولا أحد لي في هذا العالم سوى اللَّه. وإذا لم أدافع عن نفسي فمن الذي سيفعل ذلك..

قالت امرأة:

- أخشى عليك أن تقتلك إحدى الحيَّات ذات يوم.

- وإذا أراد اللَّه لإنسان أن يموت حتى بلدغة حبل، فإنه لا يمكن لأحد أن يقف في وجهه. ثم إنه على الرغم من قتلي لهذا العدد الكبير من الحيَّات كل السنة فإنها لا تنقرض أبداً من المنطقة.

كانت معروفة بقتل الحيَّات. لها طريقة خاصة في البحث عنها، تحت أية كومة تبن أو أية قطعة حجر. كانت لها أساور من جلود الثعابين، وأحزمة مختلفة الألوان. رؤوس الثعابين تبيعها للعطارين المتجولين على دوابهم، مقابل سكر أو شاي أو زيت أو صابون. قِيل لها إنها تُستعمل للسحر وأحياناً لشفاء الأطفال. لكنها لم تَنْوِ قط في حياتها أن تسحر حتى لأقرب الناس إليها المرحوم زوجها. السحر حرام. وعاقبة الساحر لا يعلمها إلا اللَّه. وهي تعرف أن كل امرأة ساحرة كانت نهايتها مفجعة. كسر في الرجلين أو عمى العينين، أو إصابة في الأبناء والأنعام.

ونظرت إليها المرأة وهي تحمل قفة مليئة بالطين فوق الرأس:
- يا أختي! لا أدري كيف أعطاك اللَّه هذه الشجاعة، وهذه القوة على مهاجمة الثعابين والحيَّات في أوكارها.
- كيف أخاف؟ لقد رأيت جدي وأنا صبية يمتطي فرساً في نهاية الليل وهو عارٍ تماماً مثلما خلق اللَّه آدم. ثم طارد مجموعة من اللصوص جاءت لتسرق أبقارنا. لم يكن يخاف البرد ولا بنادق اللصوص. رأيته في نهاية تلك الليلة يطلق في السهب رصاصاته وراء اللصوص. ولم يعد إلى البيت إلا ومعه الأبقار. ذهبت جدتي وسترته بقطعة ثوب حتى لا نرى عورته. كيف لامرأة مثلي ذاك هو جدها أن تخاف من ثعبان.

انصرفت المرأة، وتركت الأرملة العجوز ملفوفة في عدة أماكن من جسدها بجلود الثعابين الملونة. تنثر الحَب للدجاج، وتنادي على ديكين ابتعدا من المجموعة. غرست أصابعها في الأرض، وألقت بطوبة من التراب على الديكين اللذين انضما على الفور إلى المجموعة، لونهما زاهٍ يلتمع تحت أشعة الشمس. كانت تحصي دجاجاتها بعد كل ساعتين، فربما مرّ من هنا ثعبان أو أي حيوان آخر، حتى لو كان بني آدم. . قبل أكثر من أربعين سنة كانت هناك ثعالب وذئاب، لكنها انقرضت نهائياً، ربما قضى عليها هؤلاء الذين ابتنوا هذه البيوت المتفرقة والتي لا يزورونها إلا في الليل يفعلون فيها أشياء مع النساء.

عدد الدجاجات لم ينقص ولن ينقص لأنها حريصة على ذلك. وهي لا تبيع بعضها إلا إذا سمنت. تفتخر بأن دجاجها دائماً هو الأسمن، وبيضها هو الأكبر، في حين أن دجاجات الآخرين لا تبيض إلا بيضاً في حجم بيض الحمام، أو في حجم زبل الماعز.

هشّت بغصين شجرة يابس في الفضاء، ثم توجهت نحو البيت

المصنوع من التبن والطوب، لكنها رأت عزوز قادماً جهتها وقد ترجّل عن عربته. ابتسمت لأنها فكرت في شيء تقوله له من شأنه أن يغضبه. لكنه لم يكن يغضب منها. سمعته يقول على بُعد خطوات منها:

- كيف حالك أيتها الفأرة؟ ألا تزالين تصطادين الثعابين؟

- حتى الرجال لا يستطعيون ذلك. ألا تذكر عندما كنتم ثمانية واستطاع ثعبان واحد أن يهزمكم. لم تستطيعوا قتله إلا بالكاد. أية رجولة هذه؟ لقد أصبحتم ضحكة في أفواه نسائكم وبناتكم.

- نحن لم نرضع سمّاً من أفواه أمهاتنا، كما فعلت أنت.

- أية رجولة هذه؟ لقد مات سيدكم، سيد الرجال كلهم، ولهذا لم أرد أن أتزوج بعده، لأنه لا يمكن أن يعادل حتى قلامة ظفره.

- اللّه يرحمه، لماذا تتحدثين عن الأموات أيتها الفأرة العجوز؟

- زوجتك ليست أحسن حالاً مني.

أخذا يضحكان. ثم ألقت بالغصين اليابس على الأرض، نفضت كفّيها من التراب ثم مسحتهما بثوب قشابتها، قالت:

- هل عدتَ من عين الذئاب؟

- نعم. لكني تركت العربة في الطريق الثانوية عند شاطئ البحر. ونقلت كيسين من العلف على ظهري حتى القرية، وقد تجنبت الطريق الرئيسية لأنك تعرفين ما الذي يستطيع أن يفعله بي رجال الجندرمة لو ضبطوني.

- أعرف.

- وكنا في حاجة أيضاً إلى كيس من السكر، سنتوزّعه فيما بيننا. ولهذا الغرض جئت إليك.

- اترك لي كيلوغراماً أو كيلوغرامين. لكن ليس معي فلوس.

- أنت واحدة منا منذ أن رحل المرحوم. منذ متى طالبناك

بالفلوس؟ تستطيعين أن تدفعي دجاجة. سوف نرى فيما بعد عندما أتحدث إلى الجماعة.

ثم قال وهو يتوجه نو العربة:

- وإذا كنتِ في حاجة إلى الزُّؤان فهو موجود. تعالي لتأخذيه أو ربما أرسلته لك مع الصَّبيّة منانة.

شعرتْ في اللحظة بأنها ليست وحيدة حقاً. ولكنها مع ذلك تشعر بالوحدة عندما تفكر أن هذه الثعابين الملعونة تهدد دجاجاتها على مرّ السنة. أما عندما يصيب دجاجاتها وباء فذاك أمر اللّه، ولا دخل لأحد فيه. ولكنها عندما تدرك أنها لا تزال قادرة على قتل ثعبان، تتأكد من أن اللّه لن يقتلها جوعاً ذات يوم. لها طريقتها الخاصة في صيد تلك الحيَّات والثعابين. تتربصُ بالثعبان كلما سمعت نقنقات الدجاج، وعندما تعرف مكمنه، تنقضُّ على ذيله بسرعة ثم تأخذ في التطويع به في الفضاء حتى يصاب بدوخة، ثم تخبطه مراراً على قطعة صخر صيني مراراً. تتعفر قطعة الصخر بالدم، ويتلطّخ المكان كذلك. وعندما تشعر بأن جسد الثعبان فَقَد كل قوة على المقاومة تُلقي به بعيداً، وتبقى تتفرج عليه من بعيد. لكن قلما تحرك جسد الثعبان بعد ذلك. يموت في اللحظة عادة، لأنها لا تلقي به إلا إذا كانت متأكدة من أنه مات. أحياناً تنفلت بعض الثعابين وتختفي في أحجار السور، لكن الأرملة العجوز بإمكانها أن تظل النهار كله تنتظر خروجها.

دخلت إلى البيت. لكنها سمعت في الخارج صوتاً ينادي عليها: «عمتي!». عرفت الصوت للتو.

خرجت إلى الباحة. قالت العجوز:

- منانة! تعالي اقتربي. هل تريدين بيضة تسلقينها؟

قالت الصبية:

- لقد أرسل لك أبي هذه المخلاة، وهي مليئة بالزُّؤان.

- تعالي اقتربي.

كانت الصَّبيّة حافية القدمين، تشدُّ رأسها بمنديل ممزّق، في حين تتدلى من يدها مخلاة مصنوعة من الدوم تلامس الأرض، تخلصت من المخلاة وأخذت تحك عجيزتها، ثم حكّت أيضاً شعر رأسها. رأت العجوز ذلك ثم قالت:

- لقد توسّختِ، لا شكّ أنك لا تستسلمين لأمك عندما تريد أن تغسلك. سوف يكثر في شعر رأسك القمل، وأن تكاثر القمل يقلل من عمر الإنسان. عليك أن تعيشي طويلاً حتى تتزوجي وتنجبي لأمك أولاداً.

اقتربت منها وحملت المخلاة، علّقتها عند عمود خشبي يبرز من جدار البيت. ثم دخلت إلى البيت وخرجت ببيضة في يدها قدمتها للصَّبيّة:

- إياك أن تكسريها.

قالت منانة:

- ألا تزالين تصطادين الثعابين يا عمتي!

- لقد اختفت هذه الأيام، ولو لم أفعل ذلك لما بقيت دجاجة واحدة حية.

- أخاف عليك أن يعضك ثعبان ذات يوم.

- لا تخافي. لا تزال عمتك قوية لقتل كل ثعابين أولاد جرار. هل تريدين أن أسلق لك البيضة.

- لا. سوف أسلقها في البيت.

- أسلقيها وكليها وحدك. لا تقدمي منها شيئاً لأحد.

- نعم.

اختفت الصَّبيّة وراء الأشجار التي كانت تقوم مقام السياج حول

بيت العجوز من الجهة اليسرى الغربية. كان هناك مجمر من الطين في مكان ما قرب باب البيت، وضعت فيه فحماً ناشفاً منذ ساعات وهي تنتظر أن تجتاح النار قطع الفحم، لكن ذلك كان عبثاً رغم أنها سقتها بأوقية كاز. تصاعد اللهب أول الأمر غير أن ذلك لم يكن له أي مفعول على الفحم الناشف. كانت تسمع أحياناً فرقة الشرارات تنبعث من المجمر فتذهب لتطل على قطع الفحم لعلها تكون قد احمرّت، وراحت مرّات عديدة تسوط على المجمر بقطعة من الزنك وتنفخ بفمها، ثم في النهاية وضعت طجيناً فوق المجمر. كان فيه شيء من السمك والجزر، بالتدقيق، كان في الطجين سردينات. ولم تدرِ من الذي سيشاركها الأكل هذا اليوم. كانت الآن جالسة على الرمل الحار، لكنها سمعت الدجاجات تنقنق وتتفرق. قالت إنه هو من غير شكّ. ثعبان ولا شكّ. وقفت متحفزة، وذهبت تتربص به، جحظت عيناها تبحث ما بين الحشائش، سمعت من ورائها منانة:

- عمتي. هل هو الثعبان.

التفتت إليها:

- ألم تذهبي إلى بيتكم؟

- لا. لقد تكسرت البيضة.

- لقد قلت لك ذلك. ابقي هناك في مكانك حتى لا يلدغك الثعبان. سوف أسلق لك بيضة أخرى.

تشتّتت الدجاجات مذعورة، وهي تقفز فوق الأعواد القصيرة هنا وهناك. بحثت العجوز عن أثر الثعبان لكنها لم تجده. كانت هناك ضفدعة رأسها مدفون في جسمها تنط ببطء، وقالت العجوز:

- ليس هناك ثعبان. هناك ضفدعة فقط.

قالت الطفلة:

- اقتليها مثلما تفعلين بالثعابين.

قالت العجوز:

- لا. أنا لا أقتل الضفادع. تعالي اقتليها أنت، تعالي لتتعلمي قتل الضفادع قبل قتل الثعابين.

اقتربت الطفلة وهي تنظر إلى الضفدعة السمينة، قالت العجوز:

- انقضّي عليها بسرعة، امسكيها من قدمها، ثم طوحي بها في الهواء حتى تدوخ. وبعد ذلك اضربيها على هذا الحجر الصيني.

كانت منانة خائفة، مرتعبة. لكن حافزاً قوياً جعلها تنقضُّ بسرعة وتمسك الضفدعة من قدمها، أخذت تلوح بها في الفضاء مثل لعبة مصنوعة من الخرق والعجوز تشجعها: «استمري إنها لم تدخ بعد». عندما أصبحت قرب قطعة الحجر الصيني، خبطت منانة الضفدعة فتشتَّتت أمعاؤها. وظلَّ مع ذلك جسدها يتحرك حركة الموت الأخيرة. اقتربت العجوز وأطلت على الجسد الميت. ثم جرّت الطفلة من يدها:

- هكذا أفعل بالثعابين. الآن سوف تغسلين يدك، وسوف أسلق لك بيضة، في المرة القادمة سوف أعلمك كيف تقتلين ثعباناً.

الملاك الأبيض

1988

الغيلم

سَمِعَ طرقات على الباب، الساعة السابعة والنصف صباحاً، ما عاد أحد يطرق بابه في مثل هذا الوقت منذ سنوات، عندما اتخذ قراراً معيّناً بوقف علاقات معيّنة، مع أشخاص بعينهم. لا شكّ أن السيدة استيقظت في السابعة دون أن تُحدث أي ضجيج كعادتها، أو ربما قبل السابعة، ثم ذهبت إلى العمل. منذ مدة لم يعد يستيقظ في مثل هذا الوقت بعد أن حصل على التقاعد النسبي في وزارة المالية مصلحة الضرائب المباشرة وغير المباشرة.. إحدى وعشرون سنة من العمل المتواصل. كان ينتزع أحياناً بعض الوقت ليكتب ويقرأ.. لم يتجاوز الثالثة والأربعين ولكنه يحس أنه شاخ. زملاؤه في المهنة أثْرَوا، بنوا العمارات والكبانوات والفيلات، أما هو فقد ظلّ بين الكُتب، ثروته الوحيدة، يقرأ ويكتب ويحلم بالشهرة. فركَ عينيه وذهب ليفتح الباب، كانت أحلام الصغيرة في يدها وردة حمراء ذابلة:

- أحلام لماذا تطرقين الباب في هذا الوقت؟ ألم تذهبي إلى الروض؟

- لا لم أذهب.

- لماذا؟

- أمي لم تدفع هذا الشهر.

بلع ريقه:

- ليس عندي ما أدفعه من أجلك. لو أخذت رشوات طوال هذه الإحدى والعشرين سنة لكان بإمكاني أن أدفع من أجلك ومن أجل أطفال آخرين في الشارع أعرف جيداً أنهم يتكومون كالسردين في هذه الغرف الضيقة المظلمة المتربة.

دفعت أحلام الباب بيدها النحيلة فأرادت أن تدخل، سقطت الوردة ثم انحنت عليها، قال لها:

- من أين جئت بهذه الوردة؟

- وجدتها تحت، فوق الطوار.

- أخذتيها من صندوق القمامة.

- لا، كانت في الأرض. في الزنقة.

- طيب، اذهبي ودعيني أنام.. من الذي أيقظك في هذا الصباح الباكر؟

- أمي عبوش.

- اذهبي وعودي فيما بعد.

- اعطني طعاماً.

- تعالي في الثانية عشرة.

- وخا.

نزلتْ الدرجة وهي تنقل قدميها كما لو كانت تعرج، وتتمسك بالجدار حتى لا تسقط. فقدت الوردة مرة أخرى فانحنت لتلتقطها. أقفل الباب وعاد لينام، شعر بالدفء في مكان السيدة إلى جانبه. مكان دافئ حقاً وهادئ. مكان يشمله صمت القبر، إلا أن خيالاته مثيرة وإن لم تكن مرعبة. شيء رائع أن ينام الإنسان وحيداً في مكان لا يمكن أن يضايقه فيه صوت آلة أو حيوان أو آدمي. بعض الناس ترعبهم تلك الخلوة، المرتشون والخونة والخائنات. إنها تضعهم

أمام حقيقتهم فيهربون إلى الناس ليكرروا أفعالهم الشريرة، واضعين على أوجههم أقنعة جديدة لذلك اليوم. أما هو فبقدر ما كان يعتقد أنه لم يؤذِ أحداً، فإنه كان يحب الخلوة في اليقظة أو في النوم، يقلِّب أفكاره الماضية من حياته، ما هو خير ينسى لأنه خير، وما هو شر يحفر صورته في الذاكرة لأنه شر، ولا يمكن للشر أن يكون غير ما هو عليه. كان الفراش دافئاً في هذا الجو البارد. حتى وسادتها المحشوة بالإسفنج كانت دافئة. على عكس وسادته التي تكون دائماً باردة كالصقيع. ربما لأن طريقتها في النوم تختلف، ربما أيضاً، لأن خلايا جسميهما تتعامل مع المادة بشكل مخالف. هي مشاريع كثيرة للانتقام. ممَّ؟ ممن؟ أشياء كثيرة. مواقف كثيرة، أشخاص عديدون. كل هذا كان يدعوه للانتقام. وكانت طريقة الانتقام تختلف دائماً من هذا الموقف لذاك ومن هذا الشخص لذاك، يكون الانتقام عنيفاً وحشياً أحياناً، وأحياناً أخرى يكون فيه نوع من الرحمة، وهذه الرغبة تأتي بعد الإفراط في الشراب، وعندما يشعر أنها تحتدُّ، يلجأ إلى النوم. يضع رأسه على الوسادة ويطفئ الضوء أو لا يطفئه، يسكت المذياع أو لا يسكته ثم يستيقظ لهذا السبب أو ذاك، فيعود إلى فراشه لينام فيستيقظ فينام. قبل الثانية عشرة استيقظ من نومه، هيَّأ له شاياً، وقرأ صحيفة لا يحبها، يجدها عادة بالباب، وأحياناً أخرى يضطر إلى مغادرة البيت لشرائها من أقرب كشك، أو من قرب مكتب لبيع التبغ. كانت محركات بعض السيارات تهدر خلف النافذة في الشارع، أيضاً بعض الأصوات الأخرى المختلطة في الفضاء، أصوات آدمية غير مفهومة. أطل من الشرفة، بعض الباعة أمام عرباتهم المحمَّلة بالفواكه والخضر، بعد قليل ربما طاردتهم الدورية فيتفرقون في كل اتجاه وهم يلهثون كالكلاب وراء عرباتهم، عاد ليتفحص الجريدة مرة أخرى، وشرب من شايه الذي أخذ يبرد.

توقف كثيراً عند باب التعازي. وقال لنفسه هو أيضاً موته وشيك. كم كانت فكرة الموت ترعبه في السابق، ولكنه الآن طرد الخوف من تلك الفكرة نهائياً عندما اعتقد اعتقاداً راسخاً في اللَّه، الإيمان هو أقوى سلاح ضدّ الموت. ولكن الناس أمام ملذاتهم اليومية ينسون اللَّه وينسون الإنسان وينسون الموت. لكنهم يصبحون كالأرانب عندما يصابون ولو بزكام عادي، وبدلاً من أن يرفضوا تلك التفاهات اليومية، فإنهم يزدادون تشبثاً بها. حُب امتلاك العالم كله، يستطيع أن يخلصهم من الموت المحقق. حدَّق جيداً في وجوه هؤلاء الأموات. لا شكّ أنهم ارتكبوا من الآثام ما يندى له الجبين. وها هم الآن ينظرون ببؤس وإشفاق من خلال الجريدة كما لو كانوا يتأسفون أو يسخرون من تفاهة هذا العالم. من هذا الصراع اليومي العابث. ينظرون إليه. وقال في نفسه، قليلون هم الناس الذين يستطيعون أن يفهموا ما تقوله عيون هؤلاء الأموات. كانت ابتسامة المرأة التي توفيت على إثر حادثة فيها الكثير من الأسف. ربما توفيت مع عشيق لها وعلمت العائلة كلها بذلك. كثيراً هي الأحداث من هذا النوع. وتمنى لو لم يكن لها أولاد حتى لا يعرفون الحقيقة. أما أمر الزوج فهو هيِّن. تذكَّر قصة تلك المرأة البدينة التي التقاها ذات مرة في بيت للدعارة. قالت له صديقتها: إنها المرأة التي وجدوا فوقها ضابط الشرطة ميتاً بسكتة قلبية. كان له أولاد وكان في سنّ والدها، وكانت تبتزه ابتزازاً، الشقة وكل شيء. حتى إن أبناءه وزوجته لم يتأسفوا لوفاته لأنهم كانوا يعلمون بعلاقته بها. ولكنه في النهاية مات. مات كما سيموت كل شيء في العالم. كانت تلك البغلة تعبُّ النبيذ بنهم وتدخّن وتتحدث بصوت مرتفع وحاد. وعلى كل حال، فهي لا تشبه في شيء المرأة التي أمامه على صفحة الجريدة. كانت نظرات البغلة قاسية وسلطوية، أما نظرات هذه فهي

حالمة مع قليل من المكر والدهاء والأسف. ألقى بالجريدة إلى جانبه، أشعل سيجارة، ولا يدري لماذا خطرت له صورة الشاعر بليز ساندرار، ذي الذراع الواحدة، الذي كان يظهر دائماً على صفحات الكتب والمجلات والسيجارة دائماً في فمه. حاول أن يبعد فكرة الموت، لكنه تذكر أن بليز ساندرار هو الآخر مات. كم كتب من الكتب لكنه في النهاية مات. ماذا تنفع الكتب؟ ماذا تنفع الثروة؟ ماذا تنفع اللذة الجسدية؟ لا شيء ولا شيء على الإطلاق. شعر بانشراح كبير، وأخذ يحلم بأنه في حديقة غناء والملائكة مثل الفراشات تحوم من حوله، وقربه البحر بزرقته، والصمت يلفُّ المكان. كان الجو معتدلاً ما أتاح الفرصة للفراشات أن تفعل الحب في الفضاء. لكن الطرقات على الباب أعادته إلى مكانه، ثم تبدّد الحلم واتجه ليفتح:

- أحلام؟

- نعم، اعطني ريالاً أو اعطني برتقالة.

- ادخلي أنت قبيحة.

- لقد قلت لي عودي في الثانية عشرة.

- طيب ادخلي ولا تلطخي الموكيت بحذائك.

- وخا.

تذكرت، رغم أن سنها يبدو أنه لا يسمح بذلك. أحياناً تنسى، لكن حتى الكبار ينسون، ينسون أفعال الخير. وحتماً، فإن أحلام لن تنسى هذه الطفولة. عندما تكبر، سوف تعرف أنها ولدت بطريقة غير شرعية من أب حلّاق لطيف ومهذب ومن أم تبتسم دائماً ببراءة، ولا يبدو عليها أنها من نوع النساء الذي يستفز ويثير رغبة الرجل في الجنس من أجل إهانته، ومن أجل أن تشعر هي بالتفوق، وأنها استطاعت أن تذل رجلاً. حقدٌ تاريخي قديم منذ حواء مروراً بالعصر

الأميسي. وهذه الإثارة هي انتقام من اضطهاد الرجل. وإذن أم أحلام ليست من ذلك النوع الذي يشعر بطريقة لا إرادية أن الحب انتقام. طبعاً أحلام سوف تعرف وسوف تتذكر هذه الطفولة ولن تنسى شيئاً على الإطلاق، تماماً مثلما لم يستطع هو أن ينسى وقائع معيّنة عندما كان في سنها، حتى العمليات الجنسية لوالدته ووالده اللذين كانا يعتقدان بأنه مجرد صبي صغير لا يفهم في هذه الأمور.

نزعت أحلام صندلها ووضعته في الزاوية عند الباب، وجلست على الموكيت وهي تنظر في كل مكان بحذر شديد. كان يعرف ما تريد. قال لها:

- ماذا تريدين؟

- أريد أن آكل، هل الفكرون أكل؟ أين هو؟

- إنه نائم وصائم، لا تحاولي أن تبحثي عنه.

- لكن أين هو؟

ثم نهضت وأخذت تبحث في كل مكان. تظاهر هو باللامبالاة حتى تُحقق الصغيرة رغبتها، فربما حتى كانت جميع رغباتها محبطة، من الروض حتى أشياء أخرى، ثم عادت بالغيلم من الغرفة الأخرى وهي تصرخ: إنه يعضني.

- أنت كذابة. الفكرون لا يعض، هو مسكين وأنت تعتدين عليه.

- لا واللّه إنه يعضني.

- اتركيه في مكانه، أرأيتِ كيف أنك أيقظته من نومه وهو صائم ونائم. لكنها لم تسمع لكلامه، كانت تبتعد قليلاً من الغيلم لتعود إليه مرة أخرى فتناوشه إما بقدمها وإما بأصابع يديها. وكلما فعلت ذلك، انتهزت الفرصة وظلّت تردد: «إنه يعضني». لم يكن يجيبها في

الغالب. ولكنه أحياناً كان يتظاهر بالغضب: إن الفكرون لا يعض. وهو مجرد حيوان مسكين.

- لا، إنه يعض.

كانت غريزة الأنثى هي التي تجعلها تحاول أن تكون دائماً مظلومة لتكسب العطف. الغيلم يعض حتى لو لم يكن يؤذي أحداً. ومن تجربته مع النساء لاحظ اللواتي وقع في حبائلهن هنّ الأكثر بكاءً والأكثر تظلماً والأكثر شكوى. وعندما ساندهن لفترة متأكداً من أن كل ذلك صحيح، انقلبن عليه. كررت أحلام مرة أخرى: الفكرون عضني.

ثم تظاهرت بالبكاء. عندما تكبر سوف تتقن البكاء والشكوى والتظلُّم من أشياء وأعداء غير موجودين إلا في الخيال، وسوف تكسب بعد ذلك ودّ مجموعة من الرجال الذين يكتشفون اللعبة ثم ينصرفون عنها. لكن ما كل الرجال يكتشفون هذه اللعبة، وعندما يكتشفونها عند مجموعة من النساء فإنهم لا محالة لن يكتشفوها عند امرأة واحدة تظل تسحلهم حتى المقبرة مثقلين بالأولاد والشرور والعناد والتشبث بسخافات هذا العالم.

ذهب إلى المطبخ وتبعته أحلام، أخذ قطعة من الخبز وبللها بالماء، كانت عيناها تفتِّشان عن فاكهة أو أي شيء تأكله. قدَّم لها برتقالة، فرحت بالغنيمة، غير أنها تظاهرت بأنها ليست قانعة بها. قال لها: سوف ترين كيف أن الغيلم لا يمكنه أن يأكل مع أنه يحب فتات الخبز المبلل. إنه صائم وقد أيقظته من نومه.

- نعطيه هذه البرتقالة.

- إنه لا يحب البرتقال.

- ولماذا لا يحب البرتقال؟

- لأنه ليس بشراً مثلنا.

- ولماذا يأكل البشر الخبز؟

سكت لأنه لم يجد جواباً. إن متاهات الأسئلة كثيرة، وبقدر ما يوجد الجواب بقدر ما يطرح سؤالاً آخرَ يعقبه جواب فسؤال فجواب وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. صحيح أن الدجاجة هي التي باضت، ومن البيضة خرجت دجاجة أخرى، ولا ندري ما هي السابقة: الدجاجة أم البيضة؟ وإذا كان الإنسان يستطيع أن يأكل الحلزون والسلاحف والضفادع فإن هذه الأخيرة لا تستطيع أن تأكل لحم الإنسان.

وضع فتات الخبز المبلل أمام الغيلم، لكن هذا الأخير أدخل رأسه في حذر شديد. قال لها أن تبتعد منه ففعلت، بعد فترة أخرج الغيلم رأسه، وقربه من الفتات ثم أخفاه، وعبثاً حاولت أحلام أن تثيره لكنه ظلَّ صامداً هادئاً تحت قشرته. قال له طفله الوحيد الذي ولد أيضاً بطريقة غير شرعية: بابا لماذا تعتني بفكرون عندك في البيت؟ الناس يربون القطط والكلاب وأنت تعتني بالسلاحف.

- ألا ترى أن شكل الغيلم جميل؟

- لا، إن شكله مخيف ومرعب.

كان طفله الذي يكبر أحلام بحوالي سنتين لا يحب هذا الغيلم. في حين كانت أحلام تحبه، ربما لأنها كانت دائماً في حاجة إلى التظلُّم والشكوى. ولا بدَّ من إيجاد مبرر لتظلمنا وشكوانا حتى لو كان مجرد غيلم. وقال ابنه: سوف أقول لماما أن تربي لنا قطاً في المنزل.

كان يعرف - رغم الشهور البسيطة التي جعلته يحتك بتلك العائلة - ألا تستطيع أن تعيش في ذلك المنزل حتى «رامودة». وقال في لا مبالاة (وهو يتحدث دائماً في لا مبالاة عندما لا يكون متفقاً على الفكرة المطروحة، متجنباً إحراج الطرف الثاني): آه قط. جميل

أن يربي الإنسان قطاً أو قطة في البيت. أنا لا أستطيع أن أفعل هذا لأن القطط تموء باستمرار.

قال الطفل: إنها لا تموء ولكنها تتحدث عندما تحس بجوع أو أذى.

- تماماً. هذا معقول.

- وإذا ما اقتنت لي أمي قطاً فسوف أعتني به كثيراً، سوف أطعمه. لن يؤذيه أحد سوف ينام معي في فراشي، القطط جميلة، أليس كذلك يا بابا؟

- تماماً إنها جميلة. لكن إياك أن ينشب فيك القط أظافره، الفكرون لا يفعل هذا. لا يعض، لا ينشب أظافره في أحد، لا يموء ولا يعوي.

عندما كان يدخّن سيجارته ويتأمل في السقف، وفي الأوراق الكثيرة المبعثرة، سمع أحلام تصرخ: لقد أخرج رأسه، إنه يعضني. إنه يعض. له أسنان حادة.

التفت ببطء جهة الغيلم. كان مختفياً تحت قشرته لا يصرخ ولا يعوي. لا يعض ولا يتحرك. إلا أنه لا بدَّ للأنثى الصغيرة من تكرار تلك اللازمة الخالدة في روح المرأة. دخّن بعمق وأخذ يتأمل فيها صورة كل المحتالات. وقال في نفسه: هل كل الأطفال حقاً أبرياء؟ استعرض صور الموظفات معه في مصلحة الضرائب، كم كنّ يتزوجن ويطلقن باستمرار. كم كنّ يتغيرن باستمرار. كنّ أحياناً يجعلن من الرجل إلهاً وأحياناً أخرى شيطاناً. أزعجته أحلام بصراخها. فتح لها الباب. دسَّ في يدها قطعة نقدية وأمرها أن تنصرف. أطل من الشرفة فرآها تركض نحو البقال. لقد وصلت إلى الهدف كأي أنثى أخرى كبيرة. عندما تبلغ هدفها تطير فرحاً وتتصرف كطفلة تماماً حتى تفقد ما بين يديها إلى الأبد. بعد ذلك تأتي مرحلة الندم العابرة، ثم تتكرر

الفرصة فتضيع مرة أخرى وبالطريقة نفسها. . طبيعة سيكولوجية من غير شكّ تؤثر في كل شيء وتفسد كل شيء. لقد كانت المرأة في الجنة فأضاعت جنتها. أفسدت كل شيء بتصرف أرعن، ثم قررت أن تبكي ولا تزال تبكي إلى حدّ الآن وسوف تظل تبكي. وفكّر في الغيلم الذي يصوم عن أنثاه، يأكل القليل وينام الكثير، يزحف ببطء وبثبات حتى يقترب منه ويتشمم رائحته ويدخل رأسه في قشرته، شاعراً بالسكينة والدفء والإلفة. لو أن كل الناس كانوا يتشبهون بالغيلم لما بقيت هناك حروب ولا احتيالات ولا مضاربات. . زوجته أيضاً تظل تتأمل الغيلم وهو يشعر بذلك. يسعى إليها في المطبخ ويظل عند قدميها، تلقي له ببعض الخس، يأكل ثم يعود إلى الركن. لو كانت الزوجة الأولى لألقت به في الفرن حتى تنفجر قشرته على وجهها. وهي قد أصيبت بجروح في وجهها ويديها تقهقه منتصرة، ثم تأخذ في البكاء لأن الغيلم أصابها بأذى. أحرق وجهها ويديها (اطلع إلى الشجرة لتأكل التين، لا أنزل من قالها لك).

حسناء، زوجته الثانية لا تحرك حتى قدميها عندما يخرج رأسه ويأخذ في لحس القدم. تتصرف بهدوء. إنها مثل السلحفاة. هادئة، تنام كثيراً وتأكل قليلاً.

قالت الزوجة الأولى: إنك تكرهني. قُل إنك تحبني.

- الحب لا يُقال بل يُفعل.

- إنك لا تستطيع أن تقول «أحبك» لأنك أناني وتعتقد أنك الرجل الوحيد على الأرض.

- أستطيع أن أقولها ولكن ما جدوى ذلك؟ يمكن أن أقولها ولكن قلبي يكون معلقاً بامرأة أخرى.

- لا يهم. قلها وكفى. حتى تتحطم أنانيتك. تعتقد أنك وحدك الرجل الوحيد على الأرض.

ألقى بنظراته على الكتاب، وأخذ يتابع سطور الرواية، دون أن يهتم بها. تركها تقول كلاماً وهي ترتعد ويأخذ وجهها في الازرقاق ويداها في الارتعاش يخرج حلب أبيض من فمها وهي تقول: إنك أناني. لا تحب إلا الكتب. لا تحب إلا نفسك، قُل «أحبك».

نحّى الكتاب جانباً. رشف جرعة من النبيذ أمامه وأشعل سيجارة. أخذ يدخن في محاولة لتغيير الحديث. البركان يغلي في الداخل ولكنه يتظاهر بهدوئه المعتاد. روح الغيلم تتملكه. ومثلما كانت أحلام تبحث عن التظلُّم وهي صَبيّة صغيرة، كانت الزوجة أيضاً تبحث عن ذريعة للتظلُّم والشكوى. قالت: «أحبك. حتى هذه الكلمة لا تستطيع أن تنطقها. لأنك تعتقد أنك أقوى رجل في العالم». دخّن بعمق رغم أنه قرأ كثيراً عن مساوئ التبغ. . ليس المهم هو التدخين. . ولكن المهم هو نقل اليد إلى الفم. نفض الرماد. إشعال عود كبريت. كل هذه الحركات هي تعويض عن إحراج. في حالة مثل هذه لا يشعر المرء إلا وقد دخّن علبتين أو ثلاثاً.

قال بهدوء: إنني أحبك. أحبك كثيراً، ولا يمكن لامرأة في العالم أن تحظى بمثل حبي لك. تيقني من ذلك.

ارتعدت. نهضت واقفة قبالته. وضمت يديها على خاصرتيها. جحظت عيناها وظهر منهما بريق جهنمي. ها. الآن تأكدت أنك لا تحبني. كلماتك فيها نفاق. أنت منافق وأناني. لا تحب سوى نفسك.

- لست منافقاً، تأكدي من أنني أحبك كثيراً.

- كذاب.

صمت وأخذ يدخن وينظر إلى الجهة الأخرى من الغرفة. تحبها أو لا تحبها. اطلع إلى الشجرة لتأكل التين. لا أنزل. من قالها لك؟ ولو كان الغيلم موجوداً في ذلك الزمان في البيت لكانت قد أمسكته،

وضربت به على الحائط حتى تشتَّتت قشرته على بلاط الغرفة. ولما لم يكن هناك غيلم في البيت فقد أمسكت بالمزهرية وألقت بها في زاوية الغرفة، وأخذت تبكي وتصرخ، «كذاب... كذاب... كذبت علي وعلى عائلتي. إنك أناني ومغرور. من تعتقد نفسك؟» ثم سقطت على الأرض وهي تتمرغ على البلاط في حالة هستيرية.

وكان هو ينظر إلى كل ذلك ولا يتحرك. يدخّن ويشرب مثلما فعل قبل لحظة مع أحلام. في حالات مثل هذه لا يمكن للمرء إلا أن يظل لامبالياً. وإذا لم يفعل ذلك فإنه حتماً سيسقط أيضاً على البلاط وسيظل يتمرغ فوقه حتى يفقد أنفاسه الأخيرة.

عندما تدور أفكار مثل هذه في رأسه يخرج الغيلم رأسه ببطء ثم يرفع عينيه إليه، كأنما يحس ما يحس به. ذات ليلة كان يناقش فكرة اللّه وفكرة الموت مع زوجته، وعندما لم يصل إلى مخرج بل وصل إلى مخرج واحد هو الإيمان من أجل الخلاص. بعد أن دار في مكان ما من الذاكرة. عندما كان يناقش زوجته كان الغيلم في تلك الليلة يركض في أرجاء غرفة النوم على غير عادته، يركض ويركض. قالت حسناء:

- أرجوك توقف عن مثل هذا النقاش.

- لماذا إنها أشياء حساسة يجب أن نناقشها. هل نعيش من أجل أن نموت فقط؟ الأمر ليس كذلك البتة.

- أنا أوافقك. لكن انظر في الغيلم. إنه يركض هذه الليلة. هل رأيته يفعل ذلك في السابق؟

إذ ذاك انتبه. أخذ يحملق في الغيلم وهو يركض كما لو كان يريد أن يشاركهما الحديث. ثم بعد ذلك توقف وقالت حسناء: أخشى أن يحصل شيء هذه الأيام.

- مثل ماذا؟

- أن تموت. أن أموت. أن يحصل شيء من هذا القبيل.
لقد تحدثنا في ذلك قبل لحظة. وصلنا إلى أننا ميتان لا محالة.
- أعرف. لكن ذلك مؤلم.
- إنه ليس مؤلماً. المهم أن يموت الإنسان من دون ألم. سوف أضع حدّاً لحياتي عندما أتألم.
- لا أريدك أن تفعل ذلك، أنت لم تحقق بعد هدفك في الكتابة. إنك تريد أن تجمع تلك المقالات والقصائد التي نشرت.
- أحس أن ما كتبته من شعر شيء سخيف، وأحياناً أشعر بأنني لو لم أفعل ذلك لكنت قد أنهيت حياتي من زمان. فهي فارغة إلا من سخافات تلك الحمقاء وحتى الطفل الذي ولدته لا أدري حتى كيف تمَّ ذلك.
- دعنا من الحديث عن تلك. إنك لم تمضِ معها سوى شهور قليلة.
- لكنها محفورة في القلب.
- وفي قلبي كذلك.
ليلتها التجأ الغيلم إلى ركنة معهودة قرب الفراش ونام. أو ربما لم ينم، هادئاً ساكناً مثل بحيرة. لا يعوي ولا يبكي، ومن يدري فربما لم يكن يشعر حتى بالألم. كل شيء يتحمله بصبر. إنه يتحمل حتى إحراقه من طرف امرأة مجنونة أو رجل أهوج بصبر وثبات.
قال له عباس عندما رأى الغيلم لأول مرة في البيت: هل تربي غيلماً؟
- نعم.
- أنا لا أحب السلاحف.
- لماذا؟
- لا أدري. لكني أذكر أنه كانت عندنا سلحفاة في البيت عندما

كنت صغيراً. تعتني بها أمي اعتقاداً منها أنها تطرد العين والسحر. ذات ظهيرة صعدتُ إلى سطح البيت وجمعت أعواداً وتبناً. أشعلت النار وألقيتُ فيها السلحفاة. احترقت المسكينة حتى انفجرت قشرتها..

كان يقول ذلك من دون تقزز ورائحة النبيذ تفوح من فمه.

- ولماذا فعلت ذلك؟ ألا تعرف أن السلاحف أكثر المخلوقات الكونية حكمة.

- لا شكّ أنك تنوي تأسيس جمعية للدفاع عن السلاحف.

- آه. فكرة رائعة، هذا حل بالنسبة إلى البشرية. لو أن أي إنسان ظلَّ ساعة واحدة يتأمل السلحفاة لكان ذلك بالنسبة إليه درساً مهماً.

- سوف نؤسِّس هذه الجمعية جميعاً.

أخذا يضحكان. طبعاً، في قرارة نفسه، لم تكن هناك مدعاة للضحك. اعتبر الفكرة جيدة ولكنها بعيدة التحقيق، وفيها نوع من الحمق. وأخذ يتساءل ما هو الحمق؟ وجاءه الجواب على الفور: «لا تكون مثل الآخرين»، ثم تساءل مَن مِن البشر يشبه الآخر؟ إذا كانوا يتفقون على أشياء معيّنة فهم يختلفون في أشياء كثيرة. وإذن الجميع حمقى، ولتعشْ مؤسسة الدفاع عن السلاحف!

جمعية الدفاع عن السلاحف، جمعية الدفاع عن الحيوانات، جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان كلها سواء. تصوَّر أن الحيوان أفضل من الإنسان، حتى لو كان السبعُ يفترسُ الحمارَ والقطُّ الفأرَ والثعلبُ الدجاجةَ والذئبُ الخروفَ... وردّد في نفسه ثم بصوت مرتفع باللاتينية «Homo homini lupus»، هذه الجملة التي كان يحلو له أن يرددها حتى لو في غير مجالها. الإنسان ذئب في المكتب، في البيت، في الشارع.. ذئب حتى بالنسبة إلى نفسه.

إنه ليس ذئباً بالمعنى الحقيقي، ولكنه يمكن أن يكون عقرباً. يستطيع أن يقتل نفسه إذا لم يتمكن من فعل ذلك بغيره. رأى كيف كان الموظفون في مصلحة الضرائب يفترسون الناس والدولة معاً. كان لعابهم مختلطاً بالدماء، وكانت أنيابهم تكبر بشكل فظيع وهي تقطر دماً. وكانت أظافرهم تستطيل، كأنهم لم يأكلو قط منذ عهد الإنسان الحجري. أما هو فقد يشفق على هؤلاء وأولئك. فالمفترسون كالمفترسين سواء. أولئك أيضاً كانوا يفترسون أناساً آخرين. ومراراً كان هو عرضة لكي يفترسوه. لكنه نجا من ذلك بأعجوبة قوية. بفضل العناية الربانية. لأن إيمانه باللّٰه كان قوياً. وكان يترك كل ذلك بين يديه. واضعاً أمام عينيه مثال النبي أيوب، ومتمثلاً: «الإنسان ذئب للإنسان» كحقيقة أزلية ترافق البشر حتى تغادر الروح الجسد.

سمع طرقات على الباب، تردّد قليلاً، ثم ذهب ليفتح. كانت أحلام مرة أخرى، قال لها:

- ماذا تريدين؟
- أريد أن أدخل.
- اذهبي العبي في الشارع.
- لن أكون قبيحة مع الفكرون.
- طيب ادخلي واجلسي في مكان واحد ولا تتحركي.
- يمكنني أن أطل من الشرفة؟
- لكن إياكِ أن تسقطي.
- لا، لن أفعل، لن أسقط.

جلست على الموكيت وأخذت تجول بنظراتها باحثة عن الغيلم الذي اختفى في مكان ما. ربما في الغرفة الأخرى، أمسك هو بكتاب **تليستينا** لروخاس وأخذ يقلّب صفحاته دون أن يقرأ منه حرفاً

واحداً. كان يجول بنظراته في الهوامش، عندما سمع طرقات أخرى على الباب ذهب ليفتح. صديق قديم عائد من حرب الصحراء. وجه ملوَّح أسمر. كم تغيَّر كثيراً، يبدو أكبر من سنه. عجوز في الستين. تعانقا كثيراً ثم جلسا.

- من تكون هذه البنت؟ اللّه يصلح. أعرف أن لك ولداً.

- بنت الجيران، لا يعجبها اللعب إلا هنا.

- ألا تزال تكتب شعراً؟ متى ستصبح مشهوراً؟

- عندما تصبح أنت جنرالاً. لقد غيّرت وجهة نظري في فعالية الشعر.

- أنا لا أعرف في تلك الأمور، مجرد ضابط صغير. كم كنت تقرأ الكتب عندما كنت صغيراً بينما نحن نتلهى بلعب الكُرة. لم تكن تشبهنا في شيء.

- الناس لا يتشابهون إلا في حالتين: الجنون أو العبقرية.

وقفت أحلام وقالت إنها ذاهبة إلى المرحاض لتبول. أخرج الصديق من جرابه خرطوشة سجائر أميركية وناوله إياها: إنها رخيصة هناك. الويسكي مرتفع الثمن.

- شكراً على الخرطوشة، كيف حالكم هناك؟

- أنتم تعرفون كل شيء، ثم إن الحروب تتشابه.

- صحيح، كل الحروب تتشابه.

وقال في نفسه «أومو أوميني لوبوس». فتح الخرطوشة وأخرج منها علبة فتحها للتو، دفع بالمنفضة للصديق أمامه وأخذ يتلذذ بطعم السيجارة الأميركية: هل تشرب شاياً أو قهوة؟

- جئت لأزورك فقط، منذ سنة لم أرَك.

انطلق صراخ حادّ لأحلام، قال الصديق:

- ما هذا؟

- ربما كانت تلعب مع فكرون في المطبخ.

كفّت عن الصراخ فترة وجيزة. ثم عاودته بحدّة مرفوقاً ببكاء وهي تنادي «ماما، بابا، ماما..». طرقات عنيفة كانت على الباب. قالت الجارة وهو يفتح في وجهها الباب: ماذا عندكم؟ دخان يندفع من المطبخ..

لم يرد عليها بل جرى كالتيس. وجد أحلام رابضة على الأرض وشيء كالبول تحتها وهي تبكي. كانت النار قد أتت على الأزبال على علبة الكارتون. ولهيبها يمتد إلى نافذة المطبخ. نادى على الصديق القديم وهو في حالة من الهياج. أدركه هذا الأخير، وأخذا يملآن كل الأواني بالماء ويصبانها على النار. انطفأت في النهاية وبسهولة تامة. التفت إلى أحلام التي كانت لا تزال رابضة في بركة البول وقد كفّت عن البكاء.

- من فعل هذا يا بنت الكلبة؟

- لقد أراد أن يعضني فحاولت إحراقه.

أمسكها من ذراعها وجرّها خارج الباب. كانت الجارة لا تزال واقفة:

- ياك، لاباس.

- هذه البرهوشة.

- من تناول سحوره مع الأطفال لا بدّ وأن يفطر غداً صباحاً.

ثم اختفت الجارة. كان على وجهه نوع من الذعر والخوف. صديقه لم يتأثر كثيراً، لكنه اكتفى بأن أطرق رأسه وقال بصوت خافت: «معها حق هذه السيدة. أنت مالك ومال أبناء الجيران؟ لكن لا بأس. لم يحدث أي شيء خطير، تعال نغيّر الجو في أقرب مقهى».

الإرث

كلهم أصبحوا إخوته وأبناءه، رغم أنه لم ينجب قط، ولم يكن بمقدوره أن ينجب، لقد خرجنا إلى الوجود من رحم واحد. أنا وهو وأختنا التي ماتت بالسرطان ولم تخلِّف أولاداً - لأنها هي الأخرى كانت عاقراً. وقد رُزق زوجها فيما بعد أولاداً مثل الملائكة، أغدق اللَّه عليهم الصحة والنعمة. لم يكن المرحوم أخي ينجب ولا أدري من أين خرج هؤلاء الثلاثة. من الأرض أم من السماء. يقولون إنهم أبناؤه من زيجات أخرى. هذا هو الحمق بعينه. عندما تسقط البقرة تكثر السكاكين. منذ سنوات وهو مريض. مُلقى في غرفة وحيداً. لم أرَ هؤلاء الأبناء قط. ولم أرَ الإخوة الذين من المفروض أن يكونوا إخوتي، وأن أعرفهم ويعرفوني. . ما أكثر الأدعياء واللصوص في هذا العالم! هو أخي وأنا أخوه. ولا أخ لنا آخر في هذه الأرض. كلهم يطوفون صباحَ مساءٍ حول العمارة. يتفقدون نوافذها وطوابقها، معتقدين أنهم سيرثونه، إنهم متوهمون وحمقى وكل شيء. كل أوراق أخي معي، حتى شهادة الطبيب الذي تثبت أنه كان محروماً من الإنجابِ، وماذا بعد؟ المساكين! يحلمون ويبنون جنّات في خيالاتهم. يعتقدون أنهم يستطيعون أن يستغفلوني، وأن يبيعوني بفلسٍ لأول مشترٍ. لا يعرفون من يكون المختار بوشويكة. لا يزال بعض الأحياء من أقراني يذكرون كم كنت داهية في طفولتي وشبابي.

ورغم أني أبلغ الخمسين فإني أعتقد أنني لا أزال قادراً على الدهاء. هم لا يعرفون هذا. لن يرِثوا ولو قرشاً واحداً. هناك الشرطة وهناك المحاكم. ولماذا خلقت كل هذه الأشياء إذا لم تخلق لمثل هذه الأمور؟ كثيراً ما نمت ونامت زوجتي وأطفالي عند قدم سريره، عندما كان يتوجع ويتألم، كانت قلوبنا تنفطر جميعاً من أجله. وعندما يفتح عينيه تدمعان وينادي على أحد الأطفال ليقبّله. كم سهرنا بالقرب منه! ولِمَ لا؟ أليس أخي وأنا أخوه؟ كان المرحوم يكلِّفني بجمع ثمن الكراء، وبتدبير عملياته المصرفية كلها. لم يكن يثق في أحد إلا في أخيه. ومعه الحقّ. هذا عالم لا يوثق فيه. وإذا ما بذل الإنسان كل ثقته اعتبره الآخرون مغفّلاً وبليداً وكل شيء. لم يكن يثق حتى في زوجته التي طلقها. . - وثبت أنه معه الحق - ياه! كم كان يفهم الأمور ويمحّصها، ويقلِّبها تقليباً على مختلف أوجهها. فعندما لازم الفراش مدة سنة تقريباً، أحس وأحسسنا جميعاً أن قدمي زوجته خرجتا من الخرج كما يُقال. طلقها وظلَّ يردد: لا يمكن الثقة بأحد. لا يمكن الثقة بأحد!! كان الناس يتهمونه بالبخل. ولكنه كان يعرف ما يفعل. واللَّه يشهد أنه لم يكن بخيلاً إطلاقاً معنا. يا كم من صناديق الخضر والفواكه! ويا كم من كيلوجرامات اللَّحم التي كانت تتقاطر علينا! وكان يعرف دائماً أن أخاه في عوز وفاقة، وأنني مثقل بالأولاد، وحظي سيئ ومتعثر في هذه الدنيا. وبعد ذلك يقولون إنه بخيل. لم يكونوا يعرفونه جيداً. كان رجلاً جذراً، غير مبذر. وإلا كيف يمكن لعامل بسيط أن يجمع كل هذه الأموال وأن يحال على المعاش وقد كسب من الدنيا مبتغاه! لطالما حلم أنه سيقضي أواخر حياته في راحة. من الدار إلى المسجد ومن المسجد إلى الدار. إلا أن المرض أقعده. تلك مشيئة اللَّه. مساكين! كانوا يعتقدون أنه غصن مقطوع من شجرة، لا أصل له ولا جذور، استهانوا بالمختار

بوشويكة. وهم لا يعرفونني جيداً. هذا هو المختار الذي عاش الحياة طولاً وعرضاً. عرفت كل شيء وعشت كل شيء واشتغلت في كل شيء. إلا أن الحظ لم يكن أبداً حليفي. وما يعزيني أنني لست الوحيد الذي لم يحالفه الحظ. أعرف الكثيرين أمثالي. والدنيا هكذا، إما أن تقبل وإما أن تدبر وكثير من الناس أقبلت عليهم في أول الأمر لتدبر وتولي في آخره. وهناك من أقبلت عليه في آخر العمر. وتلك مشيئة اللّه. وأنا - زواجي حرام عليّ - إذا كنت أطمع في ثروة أخي. صحيح أنه كان يقول مراراً: «كل ما أملك هو لأبنائك يا المختار. اللّه لم يرزقني ولداً، ولكن أبنائك أبنائي. كانت والدتنا توصيني بك خيراً وهي على فراش الموات». لم يخطر لي أبداً أن أطمع في أخي، ولا تحلّبت شفتاي لثروته. ولكن مع ذلك، كنت أقول في نفسي، إذا ما توفي فهذا رزق الأولاد. وإن اللَّه سبحانه اختار الثروة لتكون بين يدي أخي لا في يدي، لأنني ربما كنت قد بذّرتها وأضعتها في اللهو. من يدري؟! فالإنسان، في سنٍّ معيّنة، قد يخرج عن أطواره. وما أكثر ما خرجت عن أطواري على الرغم من أنني كنت مستور الحال فقط، وذلك والعياذ باللَّه من وسوسات الشيطان. والحقيقة أن ذلك من وسوسات البشر الذين يأتونك بصفة الملائكة، إلا أن أرواحهم تتلبسها الشياطين. أما أخي، فقد كان طينة أخرى. لا يخرج الفلس إلا إذا قام بألف حساب وحساب، ولذلك نمت ثروته وكبرت وكثر حسّاده في حياته. أما بعد مماته فها أنتم ترون. كثُر إخوته وأبناؤه. يا اللَّه! هل أضحك أم أبكي؟ أم أجري في الشارع وأصرخ بين الناس: تعالوا لتروا العجب. البغلة ولدت والديك باض؛ رجل لم يكن له أحد من الأقارب فأصبح بين عشية وضحاها ذا عائلة كبيرة وواسعة. لكن - كما سبق أن قلت - الشرطة والمحاكم لم توجد إلا لمثل هذه

الأشياء، ولمثل هؤلاء الناس الأدعياء الذين ينهبون أموال الضعاف بالحيلة والباطل. نسيت أن أقول إن لأخي فعلاً بنتاً بالتبني، وهذه مسألتها تهون. ومع ذلك لم يُصب بالندم لأنه تبنّاها، إلا في الحالات النادرة، وقد عادت إلى أهلها منذ زمان. لا بأس في أن ترث إذن، وإن كنت أشعر أن في ذلك حيفاً. لأن الذي خرج من صلبك، لن يكون أبداً مثل الذي التقطته من الشارع. فحتى عندما يكبر ويصير رجلاً، يظل حنينه إلى الرحم الأول والصلب الأول أقوى. تلك سنّة الكون، وتلك طبيعة النفس البشرية. وأني وإن كنت أنا وزوجتي لا نشعر تجاه ذلك المخلوق بأي عطف، فإننا نعود لنسلِّم بالأمر الواقع، ونقول دائماً تلك مشيئة اللّٰه. والغريب أن تلك الفتاة لا تتحدث عن ميراث ولا عن أي شيء. كل ما في الأمر أنها تغيّرت. أصبحت تضع المساحيق وترتدي أثواباً فاخرة؟ وتصفف شعرها كلما زارتني بعد وفاة أخي، كأنها قادمة إلى زيارة عائلة خطيبها. يا للمرأة عندما تنقلب من حالة إلى أخرى! وما أكثر ما عرفت أنواعاً من هؤلاء النساء! لا يهم. ما دامت غير متهافتة على المال. ومن يدري ما الذي يدور في رأسها؟ خصوصاً أن بعض النساء يفضِّلن الفعل قبل القول. وأكيد أن أمرها واضح كما أسلفت. ربما كتب لها اللّٰه هذا النصيب في الدنيا. وإذا كتب اللّٰه لأحد شيئاً فلن يقف في وجهه أي كان. وحتى لا أكون حسوداً فإني أتمنى لها زوجاً لا يشبه شباب هذه الأيام. وعلى كل حال - فأنا لست متأكداً من أنها سوف ترث. وحالات من هذا النوع كثيراً ما يقع فيها الأخذ والردّ على المحاكم. وكثيراً ما اجتهد القضاة وقلبوا كل الموازين. إذا كانت حالة هذه بين قوسين فكيف بحالة أولئك الذين يرابطون صباحَ مساءٍ حول العمرة. ما على المختار بوشويكة إذنِ إلا أن يضحك حتى يستلقي. ولِمَ لا أضحك من غبار بعض

الناس؟ قال لي الجيران إن هؤلاء سوف يرفعون ضدّي دعوى.. هيه، هل أنا لص؟ هل اغتصبت أموال أحد؟ إن اللّه رزق أبنائي، فمن يمنع عنهم هذا الرزق؟ من يستطيع أن يتدخل في إرادة خالق الأكوان والبشر وكل شيء؟ هو الذي تظل عينه ساهرة على كل شاذة وفاذة في هذا العالم. مساكين من حيث لا يدرون. كل واحد منهم يعتقد أنه قطب الذكاء والمعرفة. لكنها النفس البشرية الأمّارة بالسوء والعياذ باللّه. لا يرعوي صاحبها إلا عندما تكتوي بما آلت إليه. وربما قد لا يرعوي فيتمادى في غيه إلى أن يلقى حتفه. وعندما كثرت أقاويل الجيران، أصابها غمّ شديد. تقول دائماً إنها تخاف علي.. وأنا أخاف على أبنائي. هل مع الآخرين حجج قاطعة تثبت نسبهم إلي وإلى أخي؟ كل الأوراق معي، كلها تثبت أنه أخي وأنا أخوه ولا أخ له سواي. والمختار بوشويكة لن يقف مكتوف اليدين في أمور مثل هذه.. مات المرحوم، وأنا الآن أقوم بكل مستلزمات استحقاق الإرث. أنا لا أكذب على أحد. لأنني متيقن أن كل ما أقوله حقّ، وأن الذين كانوا يعتقدون أن المرحوم مقطوع الأصل والجذور أسقط في أيديهم.

تحقيق صحفي

كنا نرشف البيرة الباردة بتلذذ في مقهى «خوانا دي أركو». الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف. كان صديقي الإنكليزي يبدو في عينيه الإنهاك الدائم، ولكنه على كل حال أكثر حيوية مني. سألني فيما إذا كان هناك باص في هذا الوقت يتجه إلى أصيلا. قلت له إن سيارات الأجرة متوفرة. رفع كأسه إلى شفتيه وهو ينظر خلف الزجاج. الشارع خالٍ إلا من بعض المراهقات المتجهات إلى الشاطئ يحملن فوطاتهن على أكتافهن أو تحت آباطهن وهنّ يتضاحكن. لم يكن هو يبالي بهذا العالم ولا بهنّ، أما أنا فقد كنّ يثرنني. ربما لأنني كنت أصغر منه سناً، وربما أيضاً لأن بلاده هي بلد النساء الشقراوات الجميلات.

- آه.. هل قلت شيئاً؟ هل تتحدث معي؟

خرج من عالمه الخاص كمن وخزته إبرة.

قلت له:

- إنهن جميلات.

نعم. قلت إنهن جميلات.

- من.

- هؤلاء الفتيات.

- صحيح جميلات. بلدكم تغيّر كثيراً. اشرب بيرتك. هل تريد واحدة أخرى؟

- شكراً..

- اشرب ما تشاء. هل تريد أن تأكل شيئاً أم نترك ذلك حتى نصل إلى أصيلا؟

- كما تشاء.

- كما تشاء أنت لا أنا. لقد أكلت في الصباح الباكر بما فيه الكفاية. قُل لي: هل تعتقد أنهم سيساعدوننا هناك؟

- أعرف أولئك الناس، بقدر ما هم شجعان بقدر ما هم طيبون.

دخل بائع جوارب متجول، أخذ يمطط زوجين من الجوارب أمامي.

- سلعة جديدة من جبل طارق. صوف حقيقي.

قال النادل:

- لا. إنها من جزر كنارياس. ألم تسافر قبل أسبوع إلى لاس بالماس؟ قُل الحقيقة يا عبدو حتى يقتنع الزبائن؟

ردّ البائع:

- دعنا نسترزق اللَّه يا حميدو.

- غادر مقهى خوانا دي أركو واسترزق الله في أي مكان آخر. فمدينة طنجة عريضة واسعة. عندي فكرة، لماذا لا تذهب إلى فاس أو مكناس أو أية مدينة أخرى داخلية؟

- إن سلع سبتة ومليلية المهرَّبة تصل إلى هناك. اللَّه يعفو علينا من هذه الحرفة. هات قليلاً من «الطابا» فأنا لم أفطر هذا الصباح وربما لن أتغدى أيضاً. السياح قليلون هذا الموسم. لم أبع شيئاً منذ الفجر الباكر.

ناوله النادل صحناً من الكفتة وصبَّ فوقه صحنين صغيرين من الطماطم والبطاطس المخللة.

قال البائع:

- ما هذا الخليط؟

قال النادل:

- ماذا تريد أيها العريان؟

- خاتماً يا مولاي.

- كُل أيها الحلوف وأملأ بطنك. ما لا يقتل يحيي.

انهمك البائع المتجول في الأكل، كان يأكل بشراهة، جوع حقيقي فعلاً، كاد أن يمسح بجواربه التي وضعها فوق الكونتوار. لكنه تدارك الأمر وتناول ورقة موضوعة أمامه ومسح بها أصابعه واستمر في الأكل.

قال الصديق الإنكليزي:

- هل ننصرف؟

- كما تريد.

دفع الثمن بعد أن علَّق جرابه على الكتف الأيمن. حملت أنا الحقيبة الجلدية التي كانت موضوعة في الزاوية حيث كنا نقف. مررنا بفندق رامبرندت وانحدرنا صوب محطة سيارات الأجرة المتوجهة إلى أصيلا على أن نسافر فوراً إلى دار الشاوي لكي يسجل أحاديث مع المحاربين في صفوف فرانكو ضدّ «الروخوص». قال إنه يعمل لصالح إحدى الصحف في مانشستر. لم أكن متأكداً من ذلك، ولكن من الممكن أن يكونوا صحافيين أو فنانين، كل هؤلاء الأوروبيين، وقد يكونون لا شيء لكن الأكيد أنهم أحسن حالاً مني أنا الذي ظللت أجري وراء الحصول على جواز سفر للذهاب إلى أي مكان في أوروبا أو الخليج العربي. قلت للصديق الإنكليزي:

- لماذا أنت متعجل؟ فدار الشاوي قريبة جداً من هنا. على مسافة دقائق من أصيلا.

- لا شكّ أنك تريد أن تنزل إلى البحر لتستحم. ولكني في حاجة إليك لكي تترجم لي.

- أنا لا أحب البحر كثيراً.

- طيب. أعرف ما تريد.

- ماذا؟

- أن تشرب بيرة.

قلت فكرة جيدة، وفرص مثل هذه لا تتكرر. دخلنا إلى أقرب قهوة وفضّل هو أن يشرب «تونيك». فهمت إنه لا يشاركني رغباتي، وقررت ألا أكون ثقيلاً. لذلك بعد وقت قليل كنا في قرية دار الشاوي، وعندما وصلنا إلى هناك كان في استقبالنا شاب جبلي يرتدي جلباباً قصيراً ويضع على رأسه سمبريرو ملوناً، كان يتحدث بالإنكليزية، ويبدو أنهما يتعارفان منذ زمن قصير جداً.

وقلت ها مهمتي الآن قد انتهت. تحدث إليّ الشاب الجبلي بالعربية:

- هل أنت من أصيلا؟

- لا.

- من أين إذن؟ من طنجة أم من الداخل؟

- لا أنا من القصر الصغير. وتلقيت تعليمي الثانوي في طنجة. لكني لم أوفق في دراستي.

- كثيرون هم أمثالنا، أنا فضّلت أن أعيش بين هذه المدائن. لقد عشت في لوندريس واستوكهولم حيث قضيت ستة أشهر سجناً، أنا أعيش هنا في راحة تامة، هل تعرف توم جيداً؟

- لا لقد التقينا بالصدفة في طنجة.

- إنه إنسان شجاع. نلتقي مرتين أو ثلاثاً في السنة. إذا كنت صادقاً معه فستعرف أي نوع من الرجال هو.

- هل يأتي دائماً هنا لإجراء أحاديث مع السكان؟

- أحاديث! أي أحاديث؟ آه فهمت.

وسكت الشاب الجبلي وأخرج من جيب جلبابه علبة سجائر. كنا نسير في طريق ترابي مليء بالحُفر والأحجار الصلدة البيضاء اللون مثل الجير. كانت العصافير تزقزق في الخلاء حولنا، وتنتشر بعض الأشجار القصيرة والصبار الشائك تحت حرارة شديدة. تناول الشاب الجبلي الحقيبة التي كانت معي.

ثم قال توم:

- عليك أن تبقى هنا في انتظاري، ربما تحفّظوا منك.

قلت:

- ولماذا يتحفّظون مني؟

- إنهم عندما يتحدثون عن مواضيع حساسة مثل الحروب يتحفّظون من بعض الأشخاص الذين لا يعرفونهم. خصوصاً المغاربة مثلهم، أما هذا فهو واحد منهم.

- كما تشاء.

ألقى إلي بعلبة سجائر.

واجتزت حفيراً صغيراً جافاً تنطُّ حوله بعض الجَداجِد. ذهبتُ وتمددت في الظل تحت شجرة تين، وظللت أنظر إليهما وهما يصعدان المرتفع حتى اختفيا نهائياً. كانت السماء صافية جداً، وبعض العصافير تعبر من حين إلى آخر ولا يسمع أي صوت غير أصواتها، ثم استسلمتُ لريح شرقية خفيفة في الظل، ولا أدري كم نمت تحت الشجرة إلى أن سمعت جلبة فوق رأسي فاستيقظت. قال توم:

- هل نمت جيداً؟ لا شكّ أنك تشعر بالجوع.

قال الشاب الجبلي وهو يضحك:

- كنت أعتقد أنك أكلت كل تين هذه الشجرة.

- إني لا أحب التين.

لم يسر معنا الشاب إلا مسافة قصيرة ثم عاد ليختفي بين المداشر، وعندما بلغنا الطريق المعبَّدة جلست على علامة الطريق في حين ظلَّ توم واقفاً إلى أن شعر بالتعب ثم جلس على التراب. كان الشاب الجبلي قد طمأننا على أن الحافلة الذاهبة إلى أصيلا سوف تمر قريباً. وبالفعل بعد حوالي ربع ساعة كانت الحافلة تتوقف لينزل منها بعض الجبليين والجبليات الحُفاة. وكانت رؤوس بعض الأطفال مدلاة كالفواكه الناضجة خلف ظهور أمهاتهم.

قلت لتوم ونحن في الحافلة:

- كيف كان التحقيق الصحفي؟

- على ما يرام.

- لا شكّ أن أغلب أولئك العجائز يفتخرون بقتلهم لأكبر عدد ممكن من الروخوس.

- تماماً..

- يفتخرون بذلك، ويفتخرون بعدد النساء اللاتي اغتصبوهن في الكنائس.

- تماماً..

- وبعدد الأطفال الذين قتلوهم وقطعوهم إرباً.

- آه تماماً، كل ذلك سجلته.

كانت الحقيبة موضوعة بين فخذي، وأخذت أتصور ما يمكن أن تضمّه آلة التسجيل من قصص واقعية أو خيالية. فهؤلاء المحاربون القدماء يكذبون أحياناً وينسبون أفعال غيرهم إليهم، وبعد حوالي

عشر دقائق توقفت الحافلة في الطريق المؤدية إلى أصيلا، لم ينزل أحد، ولكن فُتح البابان الخلفي والأمامي وصعد رجال الدرك الملكي. شعرت بتوم يرتعد من الخوف. فتح الدركيان الحقيبة التي بين قدمي، لم تكن فيها آلة تسجيل ولكنها محشوة بكمية من الشيرا. قال الدركي وهو يضع القيد في يدي:

- أنتم تغتنون من بيع المخدرات ونحن نموت هنا تحت الصهد والحرارة.

- واللَّه.. أنا.

- لا أفهم شيئاً.

وشعرت بركلة تلقيني من الحافلة إلى التراب وقد ملأ فمي.

الضبع

حديث المضبوعة:

رشفتُ قهوتي وجذبت نفساً من السيجارة. كنت لا أجالس أحداً داخل الكريمري. وهناك فتيات صغيرات مع رجال في سنِّ آبائهن. وهناك فتيات وفتيات يبدو أنهن جميعاً حديثات العهد بمثل هذه الأمكنة. قبل سنوات قليلة فقط كنت مثلهم. وفي مثل هذه الأماكن تعرفت على زوجي. السيارات تتزاحم خلف الواجهة الزجاجية في الطريق. والمارة يتحدثون أو يحركون أيديهم أو يتفرجون على الفترينات، أو يتغازلون أو ينظرون إلى أماكن معيّنة في أجساد بعضهم. هكذا كنت أيضاً. أنظر دائماً إلى وجه الرجل أو إلى قدميه. وكثيراً ما كانت نظرات الرجال في مختلف الأعمار تنصبُّ على عيني أولاً فشعري فصدري فردفي، ساقاي لم تكونا مهمتين.

استيقظت قبل ساعتين فقط، إن عالم الليل يرهقني، خصوصاً الاستمرار في ذلك يومياً. أحياناً أكون مضطرة إلى ممارسة الجنس بعد ليلة متعبة في «النافورة» أو في أي مكان آخر. أليس ذلك مرهقاً حقاً بالنسبة إلى امرأة مثلي تعيش بلا نظام في حياتها؟ رشفت من قهوتي مرة أخرى. ولقد شعرت بدبيب خفيف يسري في جسدي وفي رأسي بالخصوص. عيناي بدأتا تتفتحان على العالم أكثر. كنت وحيدة، وبعد قليل لن أكون كذلك. لا يمكن لأي كان أن يبقى

وحيداً سوى اللّه. لأن اللّه وحده هو الذي يستطيع أن يبقى وحيداً. كانت الفتيات الصغيرات يثرثرن في الكريمري، ويحركن شعرهن وأيديهن وشفاههن بطريقة خاصة. كلهن يتشابهن في سنٍّ معيّنة. هل كنت ذات يوم أيضاً مثلهن؟ لكنهن سوف يشحبن بعد خمس أو ست سنوات. الرجال الكبار الذين هم في سنِّ آبائهن، يفتعلون الضحك ويقدِّمون لهن السجائر الأميركية ويشعلونها لهن. السيارات في الخارج تتراكض وتتزاحم وتتسابق، والدراجات النارية تتسرب من كل مكان. في هذه الساعة بالضبط تنطلق المدينة من قمقم عفريت. كل شيء يصبح لا معنى له في الشارع. وقد يكتسب معناه عندما يدخل الناس إلى بيوتهم، حيث يمكن أن تفرض أخلاق معيّنة، فتتحدث البنت التي كانت مع رجل في سنِّ أبيها باحتشام، ويتحدث الرجل الذي كان مع فتاة في سنِّ ابنته بوقار.

اشتعلت المصابيح خلف الواجهة الزجاجية في الشارع. الليل بدأ يعلن عن نفسه، هذا عالم آخر. يختلف كلياً عن عالم النهار الذي كثيراً ما افتقدت طعمه في هذه السنوات الأخيرة. رشفت مرة أخرى من قهوتي، وأشعلت سيجارة أخرى. نظر إليّ رجل كهل بطريقة تبعث على التقزز. كان بديناً ومتهدِّل الأوداج، شفته السُّفلى متدلية بطريقة منفرة. حرك يده لكي يشعل السيجارة، وأشار بولاعته جهتي، جذبت نفساً عميقاً، وإذ ذاك تيقنت أنه من النوع البخيل الذي يرتاد مثل هذه الأماكن لكي يحصل على امرأة بأرخص ثمن. هذا النوع من الرجال لا يمكنه أن يرتاد الأماكن الليلية، فهي تكلِّفُ كثيراً. وهذا النوع من الرجال أيضاً يكون خبيثاً، لأنه لا يشبه أولئك الرجال الذين يدفعون بكرم دون إعطاء اعتبار لما في جيوبهم، وحفاظاً على سمعتهم فهم لا يظهرون إلا ليلاً لحماية غرائزهم. أما أنا فلا أرتاح إلا لهذا النوع الأخير، فهو أكثر إنسانية وانفتاحاً، وإن

كانت تغلُب عليه مشاكل داخلية يعلنها في حالة خاصة. المصابيح في الشارع تتدلّى فوق الأعمدة، والضوء يكون دوائر تنتهي في حدود فضائية معيّنة. كثُر ازدحام الناس، وتضاربهم بالمناكب. كثُرت الأعين أيضاً والرؤوس والأذرع والسيقان لم تعد تظهر لي. في مثل هذه الساعة، كنت دائماً سيدة الموقف. أعرف كيف أكذب على والدتي فتعرف كيف تكذب على أبي. لقد ذهبت لأفعل كذا أو كذا مع صديقاتي، وفي الغد سوف أذهب لأفعل كذا أو كذا مع صديقاتي. وكان والدي يصدِّق أو لا يصدِّق. ولكنه صدَّق كثيراً أنني لم أكن أكذب أبداً، عندما تزوجت. وتأكد أنني أكذب عندما افترقت مع زوجي. الفتيات الصغيرات يضحكن كما ضحكت في السابق. إنهن مغريات حتى بالنسبة إلى امرأة، لقد جربت ذلك مع بعضهن مرّات وهنّ في حالة تخدير أو سكر. يفعلن ذلك من دون افتعال، وقد لا يفعلنه وإنما يفعل لهن. ذلك شيء رائع لكنه حرام. أيضاً جربته وأنا في سنهن.

(كان قد أنهكني التعب، لم يكن في جيبي ثمن الحافلة. الأشجار فوق الرصيف أحتمي بها من حرارة أول الصيف. لم أكن أدري ما أفعل في هذا المكان. لماذا غادرت الثانوية لا أدري. كثيرة هي السيارات التي كانت تزمّر خلفي، وكثيرة هي الدراجات النارية التي توقفت من أجلي كما تتوقف من أجل أخريات وعرقلت حركة السير، فتبودلت الشتائم. لكني لم أكن آبه إلى ذلك. لا، فقط كنت أخاف. توقفت عند ظهر جذع شجرة أستريح قليلاً. لا تزال أمامي مسافة للوصول إلى البيت. لكن سيارة المرأة زفرت وتوقفت. هذه امرأة على الأقل، ولن تفعل بي شراً. فتحت الباب فمشيت نحوها:

- أوصلك..

- شكراً سيدتي. هل تعرفينني؟
- أعرفك لأنك أنثى.
- كثير من الرجال زمّروا ورائي. لكنني أخاف من الرجال.
- الأفضل أن تخافي من الرجال لأنهم كلاب. وإذا زمّروا وراءك هذه المرة فقولي لهم طبلوا أحسن. قبل أن أوصلك، تعالي لتشربي معي شيئاً في مكان معيّن.

شعرت بعطش حقيقي. إنها امرأة طيبة وتعرف الرجال أكثر مني - ولقد عرفت فيما بعد ماذا كانت تعني - لماذا لا أشرب شيئاً لم أذقه في حياتي قط؟ وبالفعل شربته وكان لذيذاً وإن كان حراماً).

الفتيات الصغيرات ما زلن يضحكن، المصابيح متدلية في الشارع. السجائر متدلية من بين شفاههن أو أصابعهن. وربما بعد ذلك، سوف يدلّى شيء ويعلق شيء آخر، كل شيء ممكن.

وقالت والدتي:

- يجب أن تهتمي بدراستك. لقد شعرت هذه الأيام أنك أصبحت تشمين صنان إبطيك.
- من لم يشم صنان إبطيه شمَّ شيئاً آخر.
- أنا لا أفهمك. لكن يجب أن تكملي دراستك.
- سوف أحاول أن أفعل. لكن أبي يعاملنا كضبع.
- يعاملك أم يعاملنا؟
- لا أدري.
- اهتمي بدراستك. فالضبع هو الذي لا ينظر إلى المستقبل.
- كل الفتيات اللاتي يدرسن معي تضبعن هذه الأيام.
- دعي الضبع يبول عليهن. واخرجي سالمة من بين براثنه.

ورشفت آخر جرعة من فنجان القهوة، ناديت على الجرسون

ودفعت له. كان هو أيضاً ضبعاً. والفتيات الصغيرات يضحكن للرجال الذين هُم في سنِّ آبائهن. بفعل تأثير بول الضبع عليهن، كان الرجال ضباعاً حقيقيين. ضباعاً يدخنون ويرشفون من فناجينهم، وضباعاً يبولون من تحت الموائد التي يجلسون عليها. وتذكرت نصيحة والدتي. لا أريد أن ألطَّخ - وفي هذه اللحظة بالذات - ببول الضبع. وإن كنت قد لطخت به في السابق. تأبطت حقيبتي. غادرت الكريمري. الزحام لا يزال. المصابيح متدلية وقد انتشر ضوؤها أكثر فأكثر. وسط الناس شممت رائحة تزكم الأنف. عرفتها للتو، وقد كنت أعرفها في السابق. إنها الرائحة التي تنتشر في كل مكان مهما حاول الإنسان أن يبتعد منها فهي تلاحقه. وضعت كفّي على أنفي لكي أتلافاها لكني عندما شعرت بالاختناق، فعلت مثل باقي الناس، إذ رأيتهم يتنشقونها بكل زهو. دفعت صدري إلى الأمام. حركت شعر رأسي، ونظرت في أعين الرجال. قلت في نفسي: «مهما كانت قذارة رائحة بول الضبع خبيثة، فقد قدِّر لي أن أشمها» ثم استنشقت، وسط الزحام وبملء رئتي، هذا الهواء المحيط بي.

حديث المضبوع:

في الواقع لم أكن حبها، ولكن شيئاً ما كان يشدني إليها أول الأمر، كنت أعرف أنها تشبه هذا النوع من الفتيات اللاتي يرتدن مثل هذه الأماكن إلى حدٍّ ما. غير أني في الأخير اقتنعت أنها لا تشبههن، ولكنها فقط مدفوعة بسبب خفي، هذا السبب عرفته فيما بعد. من شبَّ على شيء شاب عليه. أعني من تعوّد على شيء صار من الصعب عليه أن يبتعد منه.

وقالت والدتي:

- لقد جلبتها من الزنقة، فتحمَّل مسؤولية ذلك.

- إنها لم تكن كذلك. ولكنها تغيّرت.

- ماذا تعرف عن فتيات المقاهي؟

- لقد كانت ترتاد الكريمريات لكي تراجع دروسها مع صديقاتها.

- لا يهمني. افعل ما تشاء، وتصرّف كما يبدو لك.

وقال والدي:

- إنها فتاة طيبة ولكنك عوّدتها على أشياء قبيحة.

وقالت أختي مرة:

- إنها تحب رئيسك. وقد عثرتُ على صورته في حقيبتها.

وأخرجت لي صورة فتعجّبت. وقالت إن كل شيء ممكن حتى انطباق السماء على الأرض، ولما لم أكن أحبها وإنما هناك شيء ما كان يشدني إليها سألتها عن الصورة، فقالت إنها لم ترَ الرئيس ولم ترَ صورته قط في حياتها. تظاهرت بالغضب وقلت لها هيئي لنا قهوة حتى نهدِّئ أعصابنا. ترددتْ قليلاً ثم ذهبت إلى المطبخ لتهيئ القهوة. وإذن لم أكن أحبها ولكن كان هناك شيء ما يجذبني إليها، وشربنا القهوة وهدأت أعصابنا. فلم أعد أتذكر صورة رئيسي، ولم أعد أتذكر شيئاً آخر. وقالت:

- متى نتزوج؟ وهل سنظل على مثل هذه الحال؟

- إننا لا نعرف طبائع بعضنا أكثر.

- لقد تعارفنا بما فيه الكفاية.

- لا يكفي فقط أننا نمنا معاً في غرفة ذلك الطالب. فالفراش ليس وحده كافياً لكي يتعرّف رجل على امرأة. هناك أشياء أخرى لا نعرفها، وعلينا أن نعرفها.

- إنك تذهب بعيداً، وتنظر إلى الأشياء نظرة غريبة.

تحدّثنا أيضاً في أشياء من ذلك النوع. هل نتزوج أو لا نتزوج؟ تزوجنا وكففنا عن ارتياد المقاهي والمراقص. وقالت أختي:

- لا بدَّ من وضع حدٍّ فاصل لتلك الحياة التي تعيشانها.

- لكنها جميلة.

- كل شيء جميل. وكل جميل له ثمن.

وقالت غيثة:

- إن الحياة التي يعيشها باقي الناس لا تعجبني. إن الأكل والشراب واللباس كلها أشياء تافهة.

قلت لها هذا صحيح. وعشنا حياة ليست مثل التي يعيشها باقي الناس. لكن لكل جميل ثمن. حتى الدخول إلى تواليت مقهى له ثمن. (شعرت بمغص. غادرت الطاولة أمامي، أسرعت نحو المرحاض وقضيت حاجتي. تركت الماء يصوت في دورة المياه. وأغلقت باب المرحاض واتجهت نحو المرآة. كانت هناك فتاتان غيثة وأخرى لا تعرفها. قلت:

- اسمحي لي أن أنظر إلى وجهي في المرآة. ربما كنت جميلاً ولا أعرف ذلك.

أجابت غيثة:

- إنك جميل فعلاً. لا شكّ أنك وحيد أمك.

الفتاة الأخرى لا تتحدث، كانت تمشط شعرها دون أن تهتم بحوارنا، انسحبت للتو وتركتنا أمام المرآة، تحدثنا في أشياء أخرى لا أذكرها. وقالت غيثة:

- هل نشرب شيئاً معاً؟

قلت:

- لِمَ لا؟

انحنت تحت اللافابو ورفعت مجموعة دفاتر وأوراق وكتب،

نظرتْ مرة ثانية في المرآة إلى وجهها. سوّت بعض خصلات شعرها. شربت أنا قهوة وتناولت هي مرطبات).

وقلت لوالدتي:

- لقد كنا نتفاهم في أشياء كثيرة، أول الأمر. ثم بدأت تهمل رأس الخيط الذي كنا نشده معاً. كل من طرف.

- إذا أطلق أحد رأس الخيط فاحتفظ بخيطك لنفسك. أقول خيطك لأنه أصبح خيطك وفي ملكك أنت أو أطلق أنت أيضاً رأس الخيط ودعه يسقط في الشارع أو في أي مكان حتى دون أن تفكر.

وقالت أختي:

- لقد كنت وحدك تمسك الخيط من طرفيه والواقع أنك كنت تتوهم أنها تمسك معك الطرف الثاني. هذا ليس عيباً. ومن حقّ أي إنسان أن يعيش على وهم يصدِّقه.

قلت في غضب:

- هذا شيء لا يهمك أنت. وأنا لم أتحدث يوماً عن عدد رؤوس الخيوط التي تمسكينها وحدك.

- ما هذا الكلام؟ اسمعي يا أمي. إن ولدك يسبني.

- لم يقل أخوك عيباً. وربما أمسكت أمك أيضاً أطراف خيوط عديدة. هذا شيء غير مهم. المهم أن أخاك جلبها من الزنقة.

قلت:

- الزنقة ليست ماخوراً. المواخير توجد في البيوت.

في الواقع، كنت أشعر أن غيثة تشعر بأنني أشعر أن تلك الحياة التي تمارسها انحرفت نهائياً عن التصور الذي كوّناه معاً. وعسير جداً أن ينتقل الإنسان من مرحلة في التفكير إلى أخرى بسهولة. وعزيز عليه أيضاً أن يقلب مفاهيم معيّنة ترسّخت في ذهنه لفترة معيّنة دون أن يكون لذلك أي تمهيد. والعربة لا تسير في الطريق بسهولة

دون أن تمهّد تلك الطريق أو تسوّى. وشعرت هي كذلك بأنني أشعر بأنها تشعر. فاختارت غيثة عالماً يستطيع الإنسان أن يعيشه وحده دون أن يشاركه فيه أي أحد. وقد تكون على حقّ دون أن يمنعها ذلك من أن تعيش بالباطل.

بعد أن شربت القهوة وأكلت المرطبات، وكانت تبدو نهمة رغم أنها حاولت أن تخفي ذلك، خرجنا تحت الأشجار القصيرة. لم نلتفت إلى الفترينات بل كنا نتحدث. كان كل واحد منا يحاول أن يهزم الآخر لكي يقربه إليه أكثر. ودون أن يهزم أحدنا الآخر اقتربنا. ولا أستطيع أن أجزم الآن من هو المنهزم ومن هو المنتصر. وقلت لها:

- هل تشربين خمراً؟

قالت:

- لا.

- ولماذا لا تشربين؟ ألا يوجد أحد في عائلتكم يشرب؟

- كلهم إلا أنا.

فيما بعد اكتشفت أنها كانت تشرب أكثر مني وتتناول الحشيش. ولكن كل ذلك ليس مهم. المهم هو اللحظة الدائمة. لا اللحظة العابرة. والمهم أيضاً الإخلاص قبل الوفاء، والمهم كذلك أن تفعل ما يجب أن يفعل، وأن تتجنب ما لا يريد الآخرون أن يتجنبوه لأنهم لم يستطيعوا ذلك. وبعد تلك الأشجار وصلنا إلى أشجار أخرى وجلسنا تحتها. وخفنا كثيراً لأن رجال القوات المساعدة سوف يطالبوننا برشوة أو يأخذوننا إلى المقاطعة السابعة بتهمة أننا غير متزوجين. قلت ذلك لغيثة فقالت إن أباها يعمل قائداً للمقاطعة السابعة، فصدَّقتُ ذلك، ونظرت إلى أحد رجال المقاطعة بتحدٍّ كبير فلم يأبه ولم ينتبه. ولم يكن أبوها قائداً أو خليفة أو وزيراً أو ملكاً،

ولكنه كان رجلاً طيباً، لا يمكنه أن ينتحل أبداً صفة رجل سلطة. كان رجلاً طيباً. والنار لا تترك سوى الرماد. وأحياناً، تتبقى بين الرماد جذوة صغيرة قد تلهب كل شيء. وعلى كل، غيثة قد تكون جذوة في كومة رماد أو كومة تبن. الرماد يفنيها والتبن يغذيها.

وقالت الوالدة:

- أنت الذي اخترتها. كل إنسان يتحمّل مسؤولية اختياره.

أضافت أختي:

- كل شيء نقبله في عائلتنا إلا الخيانة. ودِيننا يرفض ذلك. على الزوج أن يفعل ما يشاء، لكن المرأة يجب أن تحترم زوجها وعائلة زوجها.

قلت:

- إنها لم تفعل إلا ما استطاعت أن تفعله. وكل من استطاع فعل شيء فإنه لا يتهاون في فعله سواء كان خيراً أو شراً. وقد قال واحد من عرب الشرق كلمة لا أدري أين قرأتها: «إنما العاجز من لا يستبد».

- دعنا من عرب الشرق أو عرب المغرب. الذي قال ذلك الكلام شاعر. لنعد للحديث عن غيثة تلك. هل أقولها يا ماما؟

- لا تقوليها. أعرف أن لسانك سليط وهو مثل مزبلة.

وفي وقت آخر قال أبي:

- إنها فتاة طيبة. لو عرفت كيف تعتني بها لما وقع بينكما شَنآن.

سكتُّ ولم أحاول أن أشرح له كيف كان يجب عليّ أن أعتني بها أو تعتني بي.. طبعاً، إذا كانت أختي تنعتها بالخيانة، فإن ما وقع هو فوق ذلك، شيء لا يمكن أن يعرفه إلا متزوجان. أشياء خاصة تحصل حتى كما لو كان الإنسان مضبوعاً حقاً، بالَ عليه

ضبع، يجرك حتى غاره، ثم يفترسك. هذا ما رووه لنا في الطفولة. كان الأطفال يحكون خرافات وقصصاً كثيرة عن الضبع في الغابة. لا يأذي مباشرة. يبول أمامك، وعندما تشم بوله، تتبعه عن طيب خاطر. اكتشفت فيما بعد أن الإنسان يمكنه أن يضبع حتى في المدينة، وفي أي وقت، وفي أي مرحلة من عمره. وإذن، ما حصل بيني وبين غيثة، وما يمكنه أن يحصل لأي رجل وامرأة في أي مكان آخر، إنما هو نتيجة بول الضبع. وعندما يبول عليك الضبع فإنك لا تبقى سيد نفسك. تتصرف دون أدنى وعي منك، تحب، تكره، تتزوج، تتشاجر. تخون. . الضبع هو السيد. يقول أبي لو عرفت كيف أعتني بها؟ كيف لي أن أعرف؟ إنه الضبع. فهو الذي قادني إلى الكريمري أول الأمر، وهو الذي أمسكني من ذراعي وجرني إلى المرآة وقال لي تحدث إلى غيثة وأكيد أيضاً أن الضبع هو الذي أمرها بأن تكذب عليّ باستمرار، وهو الذي يجرها من ذراعها الآن في أماكن ما من المدينة. وقد يوحي لها بألا تهتم حتى بولدها.

حديث الضبع:

حوادث بسيطة هي التي تقع. غير أنه من الأكيد أن كل إنسان يحمل في داخله ضبعه إن لم أرد أن أقول إن كلَّ إنسان في الواقع ضبعٌ، وكل ضبع كبير، ذو تجربة، يبول على الضبع الصغير الغر، فيجره إلى غاره، أي إلى أعماق نفسه، ويفعل به ما يشاء، لمدة معيّنة من الزمن. وقد يحدث أن يستيقظ المضبوع أو المضبوعة من حالتهما النفسية تلك فيتخلص الواحد منهما من ضابعه. ويُقال أيضاً إن هناك نوعاً من الفاسوخ الذي يفسخ تأثير بول الضبع. لذلك كان ضرورياً على كل واحد أن يتسلح بشيء ولو قليل من هذه المادة، وهذا لا يمنع من أن تأثير بول الضبع على البشرية سوف يظل

مستمراً، ما دامت البشرية تتناسل وتتكاثر. والغريب، كما لاحظت، أن الأطفال هنا في المغرب يولدون مضبوعين، فكيف بآبائهم؟ ربما لكثرة الغابات والجبال التي تساعد على الحفاظ على جنس الضباع. وربما أيضاً كانت الضباع المغربية في السابق قد تزوجت وتناسلت مع الضباع التي جلبها معهم الفينيقيون والرومان والوندال والبرتغاليون والإسبان وأخيراً الفرنسيون.. انتهى! فأعيدوا قراءة حديث المضبوعة والمضبوع، لأن في إعادة القراءة نوعاً من الفاسوخ الذي أنتم في حاجة إليه.

حكاية رجل شارب

عن ابن مسعود أنه قال إذا مات شارب الخمر فادفنوه ثم انبشوا قبره، فإن لم تجدوه مصروفاً عن القبلة فاقتلوني!

ألف - دسستُ في يد الشرطي، عندما ناولني بطاقة التعريف، مئة درهم. كان الليل والضباب كثيفين حولنا، رغم ضوء المصابيح التي بدت باهتة. قبل لحظة، وأنا في حالة سُكْر، أحسست بزخّات مطر خفيف تسقط على شعر رأسي، غير أني لم أكن أشعر بذلك. لم أكن أشعر بحدّة أي شيء. الرغبة في مضاجعة امرأة. لم أفعل ذلك منذ وقت طويل. ربما كنت قد فعلت ذلك، وربما نسيته أيضاً. أحياناً عندما أشرب كثيراً لا أتذكر ما فعلته في الليلة السابقة. لكن هذه الليلة سوف أتذكر كل شيء. وأكيد أنني سوف أتذكر كل شيء. وقد أتذكر أشياء أخرى أكون قد نسيتها منذ زمان.

قال الشرطي الأول وهو ملتصق بسيارة الجيب، بينما كان الآخر ينظر إلينا وراء عوينات صغيرة بللها رذاذ المطر الخفيف:

- نعرف أنك إذا قُدِّمت إلى المحكمة فإنك سوف تُفصل فوراً من العمل. تقتحم بيت الدعارة، ثم تسكر هذا السكر البيِّن، لا داعي لأن أشرح لك. إنك أستاذ وتعرف كل شيء. ثم إن الحكم

سوف يكون قاسياً، كيف يعقل أن يفعل مُربٍّ ذلك؟ أعرف أجرتك قليلة، لكن المئة درهم أقل.

- ليس معي غير ذلك.

- فتِّش جيوبك.

كانت مريم تحاول أن تتطاول برأسها، وإلى جانبها الفتاة الصغيرة وهي ترتعش. تردِّدُ مريم باستمرار:

- إنها بنت أخي وليست واحدة منهن. أرجوك سيدي الشرطي لم تكن لديها الشجاعة الكافية لتقفز من الجيب، كما لم تكن عندي الشجاعة للفرار.

قال الشرطي:

- اسكتي أنت يا كلبة، سوف نتفاهم في مركز الشرطة، دعيني أتحدث مع الأستاذ، غداً سوف يجد نفسه مصاباً بالزهري. أنا الذي أعرفكم.

- واللّه يا سيدي.

- اسكتي يا كلبة.

التفت الشرطي:

- أنت، يمكنك أن تنصرف؟ لكني لا أضمن لك الخلاص من أيدي شرطة الدوريات الأخرى، أين تسكن؟

- هممم.

- انصرف.

عندما كانت مريم تتحدث إلى الشرطي، حاولتْ ما أمكن أن تستعيد وعيها لكن ذلك المجهود الذي بذلته كان عبثاً. واضحٌ جداً عليها أنها في حالة سُكْر. لكزها الشرطي مراراً عندما حاولت أن تمدُّ عنقها إلى الخارج، في حين ظلَّ ذو العوينات مهذباً، مثل تلميذ نجيب، لا يتدخل في ما يفعل رفيقه.

قالت:

- لا تمسسها. إنها ابنة أختي، ما رأيك في؟

- أريدها هي، إنها ليست ابنة أختك، أنت كذابة، دائماً تختلقين لي قصصاً من هذا النوع، كلما وجدت عندك فتاة جميلة، أنت حسَّادة.

رفعتْ الزجاجة في وجهي، كانت تتمايل بين الحائط والدولاب العتيق، ارتعشت البنت الصغيرة وانعزلت في ركن الغرفة، بدت خائفة وضعيفة كأي أنثى عادية في موقف غير عادي، قلت لها:

- هل سَكِرتِ؟ ضعي الزجاجة الفارغة واملئي لك كأساً يكون ذلك أحسن.

- من تكون حتى تأمرني؟ لا يوجد رجل على وجه الأرض يعطي الأوامر لمريم.

- لا ترتكبي حماقة.

لكنها ارتكبتها، طوّحت بالزجاجة في وجهي، قفزت البنت وصرخت وهي تضع كفيها على وجهها الشاحب الضئيل. نظرت إليّ من وراء أصابعها. جحظت عيناها في خوف، لم تكتفِ مريم بذلك، بل ألقت بالمنفضة على الحائط. تكسَّرت شظايا على الأرض وفوق الفراش الملتصق بالأرضية العارية. وعندما مدّت أظافرها لتمزق وجهي، كانت أظافري في مكان ما في جسدها. ارتفع صراخ أنين، وارتفعت الطرقات على الباب: «بوليس!».

سارت سيارة البوليس الآن تحت زخَّات المطر، في شارع مون امبينياني، في حين مشيت أنا في الاتجاه المعاكس، كنت أشعر بأني لستُ في حالة سُكْر، لا تزال معي دراهم أخرى. أكثر من المئة درهم، إنه أول الشهر.

باء - روي عن الزهري رضي اللّٰه عنه أن عثمان ابن عفان

(. . .) قال: إن رجلاً كان قبلكم من العِباد (. . .) فلقيته امرأة سوداء، فأمرت جاريتها فأدخلته المنزل وأغلقت الباب وعندها الخمر وصبي، فقالت: لا تفارقني حتى تشرب كأساً من هذا وتواقعني أو تقتل هذا الصبي، وإلا صحت وقلت: هذا دخل عليّ في بيتي، فمن الذي يصدّقك؟ فقال الرجل: أما الفاحشة فلا آتيها وأما النفس فلا أقتلها، فشرب كأساً من الخمر، فواللّه ما برح حتى واقع المرأة وقتل الصبي.

جيم – مسكين! أراد أن يتجنب الزلة فوقع فيها.

ألف ثانية:

كان ضجيج الجوق مزعجاً. ثقلت رأسي بفعل الشراب. الفتاة بالقرب مني شعرت أنني مللت العالم. أخذتْ الكأس من فوق الكونتوار، ذهبتْ لتعانق زبوناً آخر من الخلف. كنت أنظر إلى ذلك كما لو كنت في حلم، كل شيء مضبب أمامي، النساء والرجال. لكن للموسيقى هدير مزعج، خصوصاً أنها تسير على وتيرة عربية واحدة ومملة. مددت يدي للكأس، شعرت أنها ثقيلة، بدأت ترتعش لتهوى إلى جانبي. ما عاد في الكأس شيء. جاءتني رغبة في القيء وشهية للأكل. تصورت أنني آكل قيئي. بصقت من فوق المقعد بين فخذي بصوت مرتفع. التفت إلي أحد الزبائن، نظراته كانت شزراً، لا تبصق علي، لم أبصق عليك، بصقت، لم أبصق، أنت كذاب، أبوك هو الكذاب، تتكسر الزجاجة على الكونتوار وترتجف اليد وهي تحمل عنق الزجاجة ذات القاع المسنن الحاد، ثم تسيل الدماء وتأتي سيارة الإسعاف.

لكن شيئاً من ذلك لم يقع. قبّلته المرأة في جبينه ويدها تتمسح بجيب بذلته الأسير:

– لا تهتم به، البدو كثروا في الدار البيضاء.

- إنهم مثل الهوام، أينما يذهب المرء يجدهم. استمرت تداعب جيبه وهي تقبّله في فمه هذه المرة.

- لا أدري لماذا يرتادون الحانات؟ إنهم غير مهذبين. لكن هؤلاء المومسات هنّ اللاتي يشجعنهم على ذلك. هؤلاء البدويات المطلقات. أين البيضاويات والبيضاويون الحقيقيون؟

- تماماً.

طلبتْ بيرة وهي تمرر كفها على عنقها. لا شكّ أنه يشعر الآن بشيء تحته، شيء دافئ سوف يبرد بعد لحظة، شيء يمتد إلى أخمص قدميه. وتخيلته يتهاوى على ركبتيه ليجثو أمامها. طقطق البارمان الكأس كأنه أسود وذو عضلات، ابتسم لي ابتسامة فيها سخرية مُرّة ومؤلمة.

- أنت هناك! هل تعتقد أنك في فندق؟ إذا أردت أن تنام فأرني ظهرك، اشرب وإلا فاترك المكان لزبون آخر. ماذا تفعل أمامي؟ هل تعتقد أنني عذراء أو حورية نزلت من السماء؟ نحن واقفون هنا منذ الصباح من أجل «رزق الأولاد».

سمعت المرأة تقول للزبون:

- هل سمعت؟ يعجبني حميدو في تصرفه مع هؤلاء البدو.

تركتُ المقعد، كنت أشعر بثقل ودوخة في الرأس، أشعر أيضاً برجلي لا تقويان على حمل جسدي. اتجهت نحو الباب، سمعت من خلفي: «تفو!». لن ألتفت طبعاً. كان الشارع خالياً، انتظرت طويلاً سيارة أجرة دون جدوى. بعض السيارات الخاصة رابضة هنا في أماكنها على جانبي الشارع. . شعرت بالرغبة في البول، ذهبت إلى شجرة الطوار، كانت أغصانها وأوراقها ترسم ظلاً كبيراً وممتداً على الشارع، سمعت من خلفي:

- صدقة يا مسلم!

كانت تطل بعنقها من وراء كتفي، قلت:

- اذهبي!

امرأة عجوز قذرة، حسرت اللثام تحت ذقنها. جلبابها أسود أو أزرق. لم أكن أستطيع أن أميِّز لونه. استمرت:

- صدقة يا وليدي!

- استحيي قليلاً.

- هأنذا يا وليدي، حتى تبول في خاطرك.

سمعت فرقعة باب من خلفي. سيارة جيب أخرى، نزل شرطي شاب، أمسكني من قفاي وأمسك العجوز من ذراعها.

- اصعدي أنت، وأنت هات أوراقك.

دفعت له ورقة التعريف. قال الشرطي الشاب هو يحرك قبعته إلى الخلف.

- هل تمزح؟ الأوراق الأخرى، ألا تفهم؟ هل تريد أن تستغفلنا؟

حاولت أن أفهم. فتشت في جيوبي، كانت هناك عشرة دراهم فقط ثمن سيارة الأجرة. مددتها له، سلّط عليها ضوء البطارية. ضحك في سخرية كبيرة:

- هل تسخر منا؟ لقد أتعبتمونا أيها السكارى، لا تخجل؟ وتزني، فوق هذا، مع عجوز هي في سنِّ جدتك.

- واللّه...

- اصعد. لست في حاجة إلى حلف.

باء ثانية: ذكر عن ابن أبي الدنيا أنه قال: رأيت سكران في بعض سكك بغداد يبول ويمسح بثوبه ويقول اللهم اجعلني من المتطهرين.

جيم ثاني: أما الذي بال في شوارع الدار البيضاء وهو سكران فقد وقع له ما وقع.

ألف أخيرة: للاستفادة أكثر راجع ما يلي:

1 - ما يحدث في الدار البيضاء ليلاً أو نهاراً.

2 - مجموعة قصص وحكايات من القصص النبوي وغيرها، وخصوصاً الفصل المعنوَن بـ«حكاية في ذم شرب الخمر».

الملاك الأبيض

وهو مشدود إلى سرير، كان بإمكانه أن يرى من خلال زجاج النافذة الواسعة، الذي يحميه من الخلف شباك حديدي، أزهاراً ووروداً على درابزين سلالم العمارة المقابلة. صمتٌ كبير يأتي من هناك، كأن ساكني العمارة موتى. طوال هذين اليومين لم يرَ شخصاً واحداً يطل من النوافذ أو الشرفات. أحياناً في أول الليل، يرى بعض الأضواء تلمع خلف ستائر النوافذ، لا تلمع تماماً ولكنها ترسل إشعاعاً يكاد يكون خافتاً. صمت كامل يأتي من تلك العمارة القريبة المقابلة. هنا يفتقد ذلك الصمت الذي يتمناه أي مريض. الممرضات والمنظفات يمررن بقباقيبهن الخشبية. يسمع الطقطقات على رأسه كل ربع ساعة تقريباً، كأنه في معمل للحدادة وليس في عيادة، لكنه لا يستطيع أن يتكلم. عندما أبدى مساء اليوم الأول ملاحظة، تركته الممرضة يقضي حاجته في الفراش عقاباً له. وتذكر كل النعوت التي كان يقرأها في قطع المحفوظات وكُتُب المطالعة المدرسية عن ذلك الملاك الذي يرتدي البياض والذي تكفي لمسة واحدة من يده حتى تصير بَلْسَماً. حاول عبثاً أن يثبّت تلك الصورة المثالية في ذهنه عن ذلك الملاك الطاهر، لكن الملاك لا يزداد إلا قسوة، يدفع الصينية بعنف، يجرُّ السرير ذا العجلات الصغيرة بعنف. يصرخ الملاك كذلك باللغة الفرنسية على ملائكة قد تشبهه: «فاطمة. انظري الغرفة

رقم 201. قولي لسعاد أن توقظ ذلك الأعرج إذا كان لا يزال نائماً في غرفة 107». تصرخ وهي تجر اللحاف من تحته والزبد يتطاير من فمها.

يبدو أنها لم تنم بما فيه الكفاية. وأخذ يفكر. ربما كانت مطلَّقة. ربما كان لها ثمانية إخوة وأب أعمى وأم مقعدة تعولهم جميعاً. من هنا يأتي حقدها على العالم. مسكينة. جذبت اللحاف بعنف:

- اتكئ على جنبك الأيسر. لن أكرر لك هذا مرة أخرى، إذا أردت أن تتدلل فابدِ دلالك على أمك. كثير من المرضى ينتظرون فراغ هذا السرير.

قال بمسكنة:

- ها هو سرير فارغ في الغرفة.

- ليس ذلك شغلك. اتكئ على جنبك الأيسر بشكلٍ جيد. أبذل مجهوداً. هل أنت رجل أم امرأة؟ لماذا تتوجع؟

كتم أنفاسه. وأخفى آلامه، مال جهة اليسار قدر ما استطاع ثم عندما أمرته أن يتكئ على جنبه الأيمن فعل دون أن يتوجع أو يتألم، أنهت مهمتها ثم انصرفت. تمدد على ظهره وأخذ يتنفس بعمق كما لو كان قد مشى مئات الكيلومترات. ثم مدّ يده اليسرى إلى فنجان القهوة المخلوطة باللبن. ورشف أول رشفة. كان للرشفة طعم خاص. كما لو أنه لم يشرب قهوة مخلوطة باللبن إطلاقاً. نظر من خلال النافذة. كان الرجل الوحيد الذي اعتاد رؤيته خلال اليومين الماضيين يسقي الأزهار والورود بصفيحة في مقدمتها رشاش ماء ينزل مع درجات السُلَّم خطوة فخطوة، بل زهرة فزهرة. يضع على رأسه طاقية حمراء تشبه لون الورد، يتحدث إلى نفسه أو إلى

الأزهار. من يدري، ربما كان هو الذي غرسها. هم يملكون الشقق وهو يملك الأزهار.

اختفى الملاك الأبيض الآن ليعود في وقت آخر لاحق، وظلَّ هو ينظر إلى الرجل وإلى الأزهار والسلالم المتعرجة، وفي جانب من العمارة تظهر السماء زرقاء ومن خلف الزجاج سمع صوت عصفور أو عصافير، لأن الصوت كان على وتيرة واحدة. يحاول عبثاً أن يتحرك. لكنه يجد في ذلك صعوبة كبيرة. أراد أن يقف ويذهب إلى المرحاض، على الرغم من أنه كان يعرف أن ذلك مستحيل. في النهاية ضغط على الزر الذي يوجد عن يساره. لا جواب. كرر الضغط، جاءت الممرضة وهي تضرب الأرض بقبقابيها المزعجين.

- ماذا تريد؟ لن تأكل شيئاً. سوف نضع لك قنينة سيروم، انتظر حتى يمر الطبيب.

- أنا لا أريد أكلاً.

- ماذا تريد إذن؟ كم أنت مزعج!

- أريد أن أذهب إلى المرحاض.

- قلها وأرحنا. هل تتصور أنني سأحملك على ظهري إلى المرحاض؟ سوف أجلب لك إناء تقضى فيها حاجتك.

كان صوتها عصبياً حاداً يشبه نعيق غراب مشؤوم. وعندما تلفِظُ الكلمات فإن يديها لا تكفّان عن رسم حركات سريعة ومنفعلة في فضاء الغرفة. تدور حول نفسها، ثم تكاد تنحني عليه كما لو كانت ستنشب فيه أظافرها. يستعيد هو صورة ذلك الملاك الأبيض الذي تتحدث عنه قطع المحفوظات. يبتسم ابتسامة خفيفة وعيناه تتنقلان بين السقف والممرضة. تذهب هي لتعود بزجاجة على شكل بطّة وتضعها بين فخذيه، ثم تنصرف. قالت:

- ثم افعل ذلك في السرير، فوق اللحاف وكل شيء. وسترى من الذي سوف يغيّر لك الأغطية هذه المرة.

قال في نفسه إنه صبر كثيراً لحماقات هذه الممرضة. وقرر ألا يظل سلبياً:

- عليك أن تذهبي لتشتغلي في معمل للنسيج. هل تعرفين أن البلاد تصدِّر المنسوجات إلى كل بلاد إفريقيا؟ أما أن تكوني ممرضة فهذا..

سكت ولم يستطيع أن يكمل الجملة. شعر أنه قَسَا عليها كثيراً. رآها ترتعد. تراجعت إلى الخلف وجلست على السرير المقابل وساقاها مفرجتان:

- ماذا تقول؟

- كما تسمعين.

وضعت كفيها على وجهها المحتقن وأجهشت بالبكاء، وقفت منتفضة باتجاه المرحاض:

- كلاب. كل الرجال كلاب.

عندما قضى حاجته أخرج الزجاجة من بين فخذيه ووضعها بصعوبة فائقة عن يساره. شعر بالألم يغزو كل جسمه.

كانت كلمة «كلاب» تتردد في الغرفة. لكنها في الحقيقة لم تؤثّر عليه كثيراً. لقد أراد أن يقول ما كان يريد قوله فقاله والسلام. فكّر أن من الصعب على المرء أن يظل كاتماً لما في داخله كلما أتيحت الفرصة، على الإنسان أن يعلن ما يفكّر فيه. إذن لقد فعل. وفي الثانية عشرة جاءت ممرضة جديدة تبتسم كملاك:

- هل أنت في حاجة إلى شيء؟ لا تزال قنينة السيروم لم تستنفد بعد.

قال:

- أين ذهبت الممرضة الأخرى؟

- آه، مسكينة! إنها تصاب بانهيار بين الفينة والأخرى. الطبيب يعرف ذلك فيسمح لها بالاستراحة يومين أو ثلاثة. إنها تستغل كالنحلة من دون توقف.

- لكن يبدو أنها..

- هل تريد أن تقول عصبية؟

- تماماً.

- كثير من المرضى لا يفهمونها. إنها طيبة.

ضحكت وأضافت:

- أنتم الرجال! لها طفلان من زوجها الأول والأخير. وكانت لها صديقة.. ثم إن زوجها الأول والأخير.. هل فهمت؟

- يبدو أنني فهمت.

انصرفت الممرضة الجديدة. الحقيقة أنه لم يفهم جيداً. إلا أن الخيوط العريضة للقصة واضحة: زوجها، صديقتها والطرف الثالث هو ذلك الملاك الأبيض الذي تحوَّل إلى شيء آخر عصبي متشنج، ثم ركز نظراته على قنينة السيروم التي كانت قطراتها تتساقط برتابة وبطء. بعد قليل سوف تنتهي، وسوف تُغيَّر بأخرى. وتأكد من أن كل شيء لا بدَّ وأن ينتهي في وقت ما وفي مكان ما، ابتداء من قنينة السيروم إلى أبسط علاقة إنسانية.

ليلة في الدار البيضاء

البحر لا يكاد يظهر تحت سواد الليل ونزول الأمطار الكثيفة، وهناك بعض السيارات تعبر مسرعة وهي تتمايل بفعل شدّة سُكْر أصحابها. كم من الحوادث وقعت هنا دون أن يحضر رجال الشرطة إلا في وقت متأخر ليقوموا بإجراءاتهم الروتينية، ويطرحون دائماً السؤال على بعض الفضوليين المتجمّعين حول حادثة من هذا النوع: «هل كان السائق سكران؟». ثم قد تأتي سيارة الإسعاف متأخرة هي الأخرى، وينفضُّ الجمع من المكان، وقد يكون من نصيب أحد الفضوليين صفعة أو ركلة، ثم يُحشر في سيارة الجيب ليدفع غرامة في نصف الطريق، ويلقى به هناك.

يسمع للبحر هدير قوي، وللرعد هدير أقوى، وللمطر نقرات على أسطح السيارات الرابضة إلى جانب الفنادق والحانات.

كانت الموسيقى تأتي هادرة من ملهى «أوكلاهما»، وبالقرب منه حانة تدخل منها أفواج وتخرج أخرى، تتمايل وترفع أصواتها، غالباً ما تشتبك جماعة مع أخرى بالأيدي، أو بشفرات الحلاقة، وغالباً ما تبقى الجريحة ينزف دمها على الرصيف وقد تحلَّق حولها أناس لا علاقة لهم بالحادث، ولا يستطيعون أن يدلوا بشهادة غامضة للبوليس، ويسمع تعليق البوليس كالعادة: «إنه مصير المومسات. بقدر ما يستنزفن دماء الرجال بقدر ما تنزف دماؤهن على الأرصفة».

يهدر البحر في الظلام الكثيف الآن، وتخف حدّة المطر، وتندفع سعاد من باب «أوكلاهما» الضيق بعد أن تسمع فرقعة المزلاج بقوة، وهي تحاول أن تزرر حزام معطفها. تتقدم إلى الأمام قليلاً في باحة صغيرة دائرية، تحيط بها مزهريات كبيرة من الطين. يخرج سعيد وهو يتحدث إلى البواب الأنيق، الذي كان يعرفه جيداً.

قال البواب:

- إنك سكران الليلة. هل تستطيع السواقة؟

- لم أشرب بما فيه الكفاية. لقد شربت تلك المومس الزجاجة كلها. سوف تدفع الثمن طبعاً.

- هل تفعلها أيضاً هذه الليلة؟ كُن متعقلاً يا سعيد.

- سأفعلها مثل جميع الليالي. أنا شهريار.

ضحك ودسَّ في يد البواب ورقة عشرة دراهم، تناولها هذا الأخير بتمنّع ظاهر. «نحن صديقان، لماذا تكلف نفسك؟»، قال سعيد «أوف!» وهو ينظر إلى سعاد. كانت واقفة دائماً في الباحة الدائرية الصغيرة بتعب، وضع ذراعه على كتفها وجذبها إليه.

قال لها:

- السيارة قريبة.

- آه؟!

- السيارة قريبة.

- إلى أين تذهب؟

- إلى أي مكان تشائين، لا تزال أماكن أخرى مفتوحة. الليلة ليلتنا.

عندما صعدا إلى السيارة جذبت من حقيبتها سيجارة مملوءة بالكيف بصعوبة. أخذت تديرها بين أصابعها.

- سعيد، نمر على إحدى صديقاتي. لا شكّ أن المسكينة لم تجد شيئاً تدخنه هذه الليلة.

- ولماذا لا تجد؟ بائعو الحشيش كثيرون في الكورنيش.

- إذا لم تجد فسوف تموت أو تنتحر. إنها صديقة حميمة. لها مشاكل كثيرة مع زوج أمها، ومع صديقها الذي رُزقت منه فتاة كالبلورة. لم يرد أن يعترف بها. لأنه من عائلة كبيرة.

- أعرف تلك العائلات الكبيرة، ومع ذلك فأنتن تحببنهم.

- أنا لا أحبهم، ولكني أحب أن أعيش.

كانت تقول ذلك بتثاقل، وهو يقود السيارة مخترقاً الشوارع الخالية التي تفصل الفيلات بعضها عن بعض، وتنبعث من حدائقها أضواء ذات ألوان مختلفة. أشعلت السيجارة المحشوة بالكيف وهي مغمضة العينين تقريباً. قالت: «هل تدخن؟».

تناول السيجارة، ثم ردّها إليها.

- ماذا تقول؟ أين صديقتي؟

- لا أدري. ربما هي في مكان ما من هذا العالم.

- ونحن، أين نوجد؟

- بين أولئك.

- من؟

- الذين تحبينهم.

- أنا لا أحب أحداً. كنت أحب المعطي، ولكني تركته لأنه لم يكن غنياً، وكان يبتزّ مني كل ما أحصل عليه ليلاً. كان يدخن مقداراً كبيراً من الحشيش، وإذا لم يحصل عليه فإنه يكاد يجن ويهددني بالقتل. كنا في ثانوية واحدة وطردونا. حاول أبوه مراراً أن يقتل أمه. أنا لا أعرف أباه، لكنه يحكي لي عنه، لا شكّ أنه يشبهه، ولو

تزوجته لحاول هو الآخر قتلي. أنا لا أريد أن أموت، إني أحب الحياة.

الموسيقى صاخبة داخل السيارة التي تتحرك ببطء شديد، والنوافذ مغلقة لأن المطر والبرد في الخارج. أصبحت السيارة مثل علبة مغلقة، جوها خانق من جراء رائحة الحشيش، ولكن سعيداً لم يرد فتح النافذة. مرّت دراجة نارية كبيرة أمامه بسرعة خارقة. ارتعدت فرائصه، ومسح زجاجة النافذة الأمامي بكفّه.

قالت سعاد:

- كم تمنيت لو كانت لي دراجة كبيرة مثل هذه.

قال سعيد:

- وعندما تحششين، تحصدين كل أشجار الطريق أمامك. أليس كذلك؟

- آه. آه. تبالغ. كل الذين يملكون درجات من هذا النوع يحششون.

اجتازا منطقة الفيلات. كانت المدينة هادئة تحت الأضواء والمطر الخافت. بعض البحيرات الصغيرة التي كوّنتها الأمطار تلمع تحت ضوء الليل. ومن حين إلى حين تعبر بعض الدوريات الليلة، وقد أطفأت الأضواء، ببطء. قرب الطوار، تتصيّد كلباً آدمياً ضالاً. كانت سعاد تتدفأ داخل معطفها وقد أرخت رأسها إلى الخلف. أغمضت عينيها، ولم تكن تفتحهما إلا بصعوبة، تقول كلاماً غير مفهوم. لكن سعيداً فَهِم منها أنها تريد أن تأكل. شعر هو أيضاً بجوع. وقلما كان يأكل بعد ليلة مثل هذه. أحياناً ينام بثيابه وحذائه.

- آه. بك جوع؟

- نعم.

- نذهب لنشرب حريرة.

- الحريرة حامضة، ثم الحِمّص والعدس كأنما تأكل الحجر.

- الحشيش يعطي الشهية للأكل.

- نعم. مرة أكلت قصعة من الكسكس وحدي.

- لا تبالغي.

- أقسم بشرفي.

- هل لك شرف يا..

- قلها وشلل بها فمك، إنني شريفة أحسن من بنات أصحاب الفيلات. أنا التي أعرفهن، لقد حششت معهن كثيراً.

- طيب. لا يهمنا. أنت لا ترغبين في تناول الحريرة؟

- لا، أفضِّل «همبورغر» بالكفتة والبيض والصلصة، وهو أرخص ثمناً من الحريرة عند الطنجاوي الذي يوجد محله قرب مثلجات «سينسيناتي».

المكان هناك مزدحم. كثيراً ما تقع مشاجرات بين السكارى من أجل فتاة في نهاية الليل. وكثيراً ما تمر دورية الشرطة لتطلب أوراق التعريف.

- هل تحملين معك ورقة تعريفك؟

- وهل تعتقد أنني جئت من كوكب آخر؟ أنا أيضاً مغربية، ولي أم وأب مثل باقي الناس. هل تحتقرني لأنك تعرفت عليّ بسهولة؟ لو لم تعجبني لما تعرفت عليك. أنا أشم نوع الرجال. لا تعتقد أنني أعجبت بثيابك أو بربطة عنقك. فيك شيء آخر ربما أنت نفسك لا تعرفه. قلائل هم الناس الذين يعرفون أنفسهم على حقيقتها.

أغمضتْ عينيها نهائياً، ولكنها بالفعل لم تنم. كانت تستمع إلى الموسيقى، وترى ألواناً مختلفة، وعصافير صغيرة تزقزق، وأشكالاً أخرى متداخلة فيما بينها. من بين ما رأت بحراً على شاطئه شجيرات نخيل، وعلى الشاطئ أناس عراة يستحمون ويتشمسون.

وبعض النساء يعلّقن على شعورهن أزهاراً جميلة تلمع تحت وهج أشعة الشمس. التفت إليها سعيد. بدا له وجهها حالماً وبريئاً مثل طفلة صغيرة. تناول سيجارة وأشعلها لنفسه: وبصعوبة وجد له موقفاً للسيارة. فتحت سعاد عينيها، وطلبت منه أن يشعل سيجارة. كان نثيث المطر خفيفاً جداً الآن. وعندما رفع سعيد رأسه إلى السماء بدت له كالحة سوداء تماماً. سوف تمطر من دون شكّ، بعد لحظات، وغداً، وبعد غد، وفكر أن الأرض في حاجة إلى المطر. فكل الناس يشكون من جفاف مبيت بمن فيهم والده الذي يملك أراضي في «المذاكرة» لم تشق فيها بعد قنوات الري، إذ توقف شقّ هذه القنوات عند أرض أحد الأعيان الذي له قرابة مع شخصية رسمية. تمنى من أعماقه أن تمطر السماء، ليس من أجله هو، فهو يملك سكنى وسيارة له وأخرى لزوجته، ورصيداً في البنك. وهو الشيء الذي يصعب تيسره لمن هم في سنه.

غادرت سعاد السيارة بعده، وردّت الباب بتراخٍ ولا مبالاة، وهي تحاول أن تتلفع بياقة معطفها. قال سعيد: «ردّي الباب بشدة. الجو ليس بارداً، ثم إن المطر قد كفَّ عن النزول». فتحت الباب، ثم أعادت ردّه بعنف شديد. تأكدت من أنه محكم الإغلاق. وسارا باتجاه معمل الطنجاوي لبيع المأكولات الخفيفة. كان صوت ستيفيووندر ينبعث من هناك هادئاً منتشراً في فضاء نهاية الليل. المكان ضيق ولكنه كثير الألوان. جلست بعض الفتيات على المقاعد الطويلة أمام الفاصل الحجري. وكان عدد الرجال أكثر من عدد النساء. الخدم يشتغلون بخفة وبهلوانية في أثوابهم النظيفة. كان واحد منهم يقلِّب قطعة اللحم في الهواء وهو يرقص على أغنية ستيفي وونذر. رفعت فتاة رأسها عن ذراعيها، وكانت تدس شعرها بينهما، جميلة لكنها متعبة من قلّة النوم، وكثرة الشرب، يبدو أنها وحيدة. نادت

على الخادم الذي كان يرقص، فقفز إليها الآخر الذي لم يكن يرقص.

- كأس ماء بارد.
- لقد شربتِ كثيراً من الماء البارد. مالك؟ هل حششت كثيراً؟
- اهتم بشغلك وإلا صعدت عند الطنجاوي، فوق.
- اصعدي فالطنجاوي لا يحب أمثالك.
- هات كأس ماء بارد واهتم بشغلك.

جاءها الخادم بكأس ماء، وأضاف إليه قطعة ثلج شربته دفعة واحدة، ثم عادت إلى وضعها الأول. قال الخادم: «إذا كنت تريدين النوم فاذهبي إلى هناك».

لم تهتم له. ظلَّ سعيد وسعاد واقفين وراء المتزاحمين بعد أن طلبا أكلتين خفيفتين. كان بعضهم يأكل واقفاً بشراهة. تناول سعيد اللفافتين، ثم انصرفا ليأكلا داخل السيارة. كانت قطرات من الماء قليلة، ضائعة في الفضاء، تنزل هنا أو هناك. فتحت سعاد اللفافة وأخذت تأكل بنهم شديد. قال سعيد وهو يمضغ: ألم تتغذي اليوم؟ لماذا تأكلين بهذا النهم؟

لكنها لم ترد. كانت تمضغ وتأكل بشراهة. سقطت على معطفها قطعة طماطم فالتقطتها وأعادتها إلى فمها بسرعة. شعر بخيال عن يساره، التفت. كان رجل شرطة يطرق عليه الزجاج. فتح النافذة. وقال الشرطي بعد التحية: أوراقك.

نظر داخل السيارة، إلى المقاعد الخلفية. تفحّص وجه سعاد بصرامة دون أن يطلب منها أوراقها:

- من؟
- صديقة.
- اذهب لتنام. الوقت متأخر وإلا بتما الليلة في المركز.

أعاد له الشرطي الأوراق وانسحب.

قالت سعاد:

- تفو. إنهم كالذباب.

- اسكتي وإلا أنزلتك عنده. لقد كان رجلاً لطيفاً ومع ذلك فأنت تقولين تفو. لو لم تكوني معي لبت الليلة في المركز.

- وماذا فعلت؟ هل قتلت بوحمارة؟

- وماذا تفعلين في هذا الليل؟ إنهم يقومون بحملة تطهير، فاللصوص كثروا هذه الأيام، وكثرت الجرائم.

- أنا مجرد... اللصوص الحقيقيون ينامون بهدوء في بيوتهم.

- لا تتكلمي في أمور لا تهمك.

- لو لم تكن معي الآن، لقلت أنك واحد منهم.

أشعل لها سيجارة. ضربت على فخذه الأيمن وهي تضحك، بعد أن ألقت بقايا اللفافة خارج السيارة. كانت اللفافة مكورة على الطوار الآن بعد أن تدحرجت بصعوبة فوق البلل.

- أُحب أن أدخن دائماً بعد الأكل. يصير للسيجارة نكهة خاصة. قل لي: إلى أين نذهب؟ لا تقل إلى الفندق. أنا أخاف من رجال الشرطة. هل عندك شقة؟

- لا.

- أنا أعرف مكاناً خالياً، قرب الحزام الكبير.

- إن الحزام الكبير بعيد.

- لكنه مكان آمن. هناك يحلو شم النسيم. كل الناس يذهبون إلى هناك لشم النسيم.

- هل تذهبين دائماً إلى هناك لشم النسيم؟

- مع أمثالك طبعاً، إذا لم تتوفر شقة. لي صديقة تملك شقة

في «فيردان»، لكن صديقها يبيت هناك أربع ليالٍ في الأسبوع. ونحن لا نريد لها مشاكل.

انطلقت السيارة باتجاه الحزام الكبير. كان إيروس الآن قد تقمص شخصية بشر وراء مقود سيارة، يخترق شوارع المدينة، وقد انتفخ مثل الطاووس. توقف عند إحدى المحطات للتزود بالبنزين. بصعوبة استيقظ المستخدم بعد إلحاح إيروس، ولا شكّ أنه، وهو يضغط على البوق، قد أيقظ كل الجيران. مسح المستخدم عينيه بظهر كفّه، ثم عاد ليتابع نومه. وعندما انطلقت السيارة أطفأ المستخدم ضوء المحطة ليتجنب أية مضايقة أخرى.

السيارة الآن تجتاز بعض الشوارع المهجورة تماماً في نهاية الليل. كانت بعض أضواء السير لا تزال تشتغل بشكل عادي. هذا شيء استثنائي حتماً، إذ عادة ما تتوقف هذه الأضواء بعد منتصف الليل. الطريق صار مظلماً، وهناك بنايات مهجورة وأخرى ينبعث منها ضوء. وربما هناك بنايات أخرى لم يستطيعا أن يتبيّناها في الظلام. بعد فترة قليلة، قالت سعاد:

- عليك أن تنحرف يميناً. هناك المكان الذي يمكن أن نشم فيه النسيم. هل جئت إلى هنا فيما قبل؟

- لا.

- إنه مكان رائع ولا بدّ أن تتعرف عليه. كل الناس الذين يحبون شم النسيم يأتون إلى هنا.

- لا شكّ أن نسيمه يختلف عن جميع الأنسام.

- تماماً. وسوف تعرف ذلك بنفسك.

سارت السيارة تتدحرج ببطء في طريق مظلم. كان الخلاء فقط وبياض وسط عتمة نهاية الليل. شعر سعيد بقلبه يدق. أدخل يده تحت المقعد وأخرج زجاجة «بلاك ليبل» صغيرة، مدها لسعاد.

فتحتها وشربت جرعة ثم أعادت إليه الزجاجة. شرب هو الآخر ليشعر بنوع من الشجاعة، وليطرد عنه هواجس الخوف في هذا الطريق الخالي. قال لها: يجب أن نتوقف. أليست هنا دوريات للشرطة أو للقوات المساعدة؟

- لا. المكان أعرفه جيداً.

توقفت السيارة. وقالت سعاد:

- أشعر ببرد شديد. هات الزجاجة. سوف أخرج لأشم قليلاً من النسيم.

شربت جرعة كبيرة، ثم فتحت الباب وخرجت. أشعل سعيد سيجارة. وهو يراقبها تتمشى في الظلام قال في نفسه: «لا شكّ أنها فتاة غير عادية. ثم إن الحشيش يكون قد أثر عليها. إنها تدخن بنهم».

بعد لحظات كان حوله أربعة أشخاص. أحدهم يضع طاقية على رأسه، ويلفح وجهه وعنقه. سمع صوت سعاد من بعيد: لا تضربه يا عبد القادر إنه إنسان طيب وكريم. خُذ كل شيء. اترك له أوراقه الرسمية. لا تفعل مثل تلك الليلة المشؤومة مع ذلك الرجل الغبي. لا تنسَ أن معه زجاجة ويسكي إذا كنت تريد أن تتدفأ.

سيد الساحة

جلس عند عتبة باب الدار التي تحاذي سينما طاناغرا. كان قد أنهكه الجوع والتجوال في أزقة المدينة. بحث في بعض القمامات، لكن لسوء حظه لم يعثر على لقمة خبز، بل عثر فقط على علب سمك وألبان فارغة. لقد أكلوا بما فيه الكفاية وألقوا بنفاياتهم في القمامات إلى أن تمر سيارات البلدية لجمعها عند الفجر، وبعد ذلك يمر العمال لرشّ الطرقات والأرصفة بخراطيمهم السوداء. كانت الساحة أمامه الآن فارغة. ومن حين إلى آخر تعبر سيارة. وفي الشارع الذي يجلس فيه الآن، اصطفت سيارات فارهة من صنع أميركي، يعرف أغلب أصحابها تقريباً، لأنه يعرف المكان جيداً. كلهم إقطاعيون أو من أصحاب البازارات، أو بائعي المخدرات. كم تمنى لو يكبر ليصبح مثل هؤلاء الرجال، تصبح له سيارة فارهة ونساء مثل اللائي يخرجن الآن من الحانات المتراصة هنا حول الساحة أو خلفها. نساء مغربيات وأوروبيات يترنحن دائماً.

حاول أن يبحث له عن عمل لكن من دون جدوى. أمين ماسح الأحذية الذي يشتغل كمُخبر للشرطة رفض أن يتوسط له لكي يحصل على رقم رخصة تسمح له بمزاولة هذه المهنة. في حين جلب العديد من سكان قريته من إقليم قلعة السراغنة، وساعدهم على الحصول على رقم، يعرفهم واحداً واحداً. منهم من يعطف عليه ويقدِّم له

طعاماً، ومنهم من يركله عند بطنه أو مؤخرته، سيئ الحظ حقاً. لكنه دائماً يحلم بأنه سوف يصبح ذات يوم ملك هذه الساحة سوف يكون له بازار، وسوف تكون له سيارة فارهة ونساء مترنحات، نساء أوروبيات على الخصوص. سوف يأكل جيداً ويشرب ويترنح باستمرار. وسوف يلعب الفليبير مع البحَّارة الفرنسيين أو مع الجنود الأميركيين مثلما يفعل ولد القايد المعطى، أو ولد أم هاني أو أولاد رجال آخرين أو نساء أخريات. سوف يفعل كل هذا عندما يصبح ملك الساحة. كان الوقت حوالي الواحدة صباحاً.

تنبعث الموسيقى صاخبة من البارات والحانات لتشمل الساحة. لم يكن يشعر بالنوم في هذه اللحظة بالذات، لأنه نام طوال الظهيرة، نوماً مشوشاً أسفل درج إحدى العمارات، بعد أن صنع له فراشاً من الورق المقوى. وربما عاد لينام فوق ذلك الفراش، في حالة ما إذا لم ينظف البواب المكان، ويلقي بذلك الفراش في قمامة العمارة، وكثيراً ما اختفى في مثل تلك القمامات عن أعين الشرطة حتى لا يأخذوه إلى المركز فيعتدي عليه الأكبر منه سناً. كان يخشى دائماً أن يقع بين أيدي شرطي كورسيكي. فهؤلاء الشرطة قساة عتاة. أما رجال الشرطة المغاربة الذين يرافقون الفرنسيين فكانوا يركلونه، ثم يطلقون سراحه: «ادخل إلى بيتكم يا ابن الحرام». لكنهم لا يعرفون أنه ليس له بيت ولا أهل. لقد ماتت أمه في خيمة من الوبر في ضاحية المدينة.

وكان يسمع منها دائماً أن له خالاً في قرية قرب سيدي قاسم. لكنه لم يتوفر قط على حصيلة من النقود ليسافر إلى هناك قاصداً البحث عنه. وحتماً فإنه سوف يسافر ذات يوم، عندما يصبح ماسح أحذية أو عندما يصبح ملك هذه الساحة. وبالتأكيد أنه عندما سوف يصبح ملك الساحة. فإن خاله يكون قد مات. لكن من يدري؟ فربما

أطال الله عمره. وربما كان خاله كذلك إقطاعياً مثل هؤلاء الذين يترنحون كل ليلة هنا، وهو لا يعرفه. كل شيء ممكن. مرّ كلب هزيل بالقرب منه، حاول أن يلعق قدمه، لكنه ركله، فابتعد الكلب وسط الطريق. انتقل إلى الرصيف الآخر، وأقعى قرب عجلة إحدى السيارات الفارهة، تحت ضوء أحد مصابيح الشارع. أخذا يتبادلان النظارات. لكن يبدو أن الكلب كان منهكاً جداً. دلّى رأسه إلى الأرض، ومدّ قوائمه، ثم نام أو مات، ومرة أخرى كل شيء ممكن: النوم أو الموت. كان هو بدوره منهكاً، ويحس بالجوع، لكن هذه المسألة تحل بسهولة. عندما يسكر الناس يتركون بقايا سندويتشاتهم، يستطيع أن يلتقطها إذا لم يلتقطها قبله النادل. حول نظراته عن الكلب إلى الساحة قرب حانة «القصبة» ذات الزليج المرمري الأسود. رأى ثلاثة أشخاص وشرطيين نزلا من سيارة الجيب. وكان أحد الأشخاص الثلاثة جندياً أميركياً طويل القامة. وقف وذهب ليتفرج بدافع الفضول. وكان رجل مغربي يترجم للشرطيين المغربيين ما يقوله الجندي الأميركي. الأميركي سكران تماماً، استمر واقفاً يتفرج عليهم. فهم أنه لم يدفع ثمن ما شرب، واستدعت ربّة الحانة رجال الشرطة. طال الحديث بين الشرطيين والجندي الأميركي والمترجم بينما الشخص الآخر صامت. في النهاية أشار الأميركي إليه بإصبعه. وقال كلاماً لم يفهمه. التفت المترجم إليه وقال للشرطيين:

– يقول الأميركي إن هذا الفتى هو الذي سرق حافظة نقوده.

صعق وأصيب برعب داخلي، تأمله الشرطيان جيداً، ثم قال أحدهما:

– اصعد يا ولدي، سوف نطلق سراحك فيما بعد. أنا متأكد أنك لم تسرق حافظة نقوده، ماذا نفعل مع هؤلاء الجنود الأميركيين الأنذال؟ أنت لا تفهم شيئاً من هذا.

غربان يورمالا

خلف النافذة تبدو السماء رمادية إلى حدود السواد، والأشجار تستطيل فارهة في السماء وقد غطاها الثلج، جو الغرفة هنا دافئ، وفي الخارج برد قارس جاف. ورغم الموسيقى المنبعثة من آلة التسجيل، فقد كان نعيق الغربان الطاغي في المكان يسمع هنا أيضاً داخل الغرفة برتابة أصبحت مألوفة. وكانت آنّا كيرن جالسة إلى المكتب، تكتب بطاقات لأصدقائها. بينما هو على الأريكة يقلِّب صفحات مجلة باللغة الليتوانية التي لم يكن يقرأها طبعاً، يتأمل صوراً لأشخاص وأماكن. فكّر في هذه اللحظة بالذات: ما أصغر هذا العالم بقدر ما هو كبير! كم من الوجوه وكم من الجنسيات عرفت إلا أن أغلبها اختفى؟! كم من الناس يموتون بالنسبة إلينا إلا أنهم أحياء في أماكن قاصية أو دانية. وتساءل هل ستموت آنّا كيرن حقاً هي الأخرى، إلا أنها أجابت:

- عزيزي، هل يمكنك أن تغيّر الشريط، هذه الأغنية لا تعجبني كثيراً.

- نعم سأفعل. لقد كتبتِ العديد من البطاقات!

- أربع بطاقات فقط.

مدّ يده إلى آلة التسجيل ولبّى رغبتها. تبدو جادة وهي منهمكة

في الكتابة، إلا أن ابتسامتها لا تفارقها. كم قضيا من الأيام هنا؟ لم يعد يذكر. قالت له أمس:

- يبدو كما لو أننا قضينا دهراً هنا في يورمالا. ألم تعجبك المدينة؟ آه لو كنا زرناها في الصيف. الناس يسبحون هنا في النهر، أما شاطئ البحر العريض فيصبح مهرجاناً حقيقياً.

وعندما كانت تتحدث وتتحدث عمّا يجري في الصيف، كان هو يتخيل كل شيء، ويتذكر الأصياف التي قضاها في أماكن معيّنة، وعلى شواطئ أخرى. أحياناً كان ينام في الأدغال أو بين الصخور، لأنه لا يجد ما يدفع به ثمن غرفة في أحقر فندق.

وكان أتفه البشر يتحلقون حول الموائد على إفريز المطاعم تحت الشمس، بينما هو ككلب ضال. لكن عزاءه الوحيد أنه كان يتذكر بعض كتّابه المفضلين. ألم يأكل هنري ميللر مرة في أيامه الهادئة في كليشي شيئاً قبيحاً؟! تلك الأيام جعلته يأنف من الأكل حتى الآن. ولأنه لم يمت جوعاً فإنه لن يموت أبداً. أصبحت عادته أن يتناول سندويتشاً بسيطاً وفاكهة. وتقول آنّا كيرن دائماً:

- إنك لا تأكل شيئاً. إذا لم تأكل فسوف تهزل وتمرض وتموت.

لكنه كان يحاول أنْ يرضيها فيحشو مصارينه بأطعمة كثيرة. ويتذكر إما عن غباء وإما عن مثالية أولئك النساء اللاتي يتزاحمن أمام الجزار في درب غلف، لشراء درهم شحم كي يطبخنه مع الخبز الجاف لدزينة من الأطفال. ويقول في نفسه يا إلهي كم ينجبن مثل الأرانب!! لكن الأرانب أعمارها قصيرة.

سمعها تقول:

- يبدو أنك مهموم. تدخن كثيراً. تلك المجلة هي مجلة أدبية.

- مع الأسف أنا لا أقرأ الليتوانية. أعرف أن هذا الشعب عظيم وأريد أن أعرف أدبه. لكن كم يلزمنا من الوقت لنعرف كل شيء؟!

غادرت المكتب والقلم في يدها. جاءت وجلست قربه على الأريكة. رأته يتأمل صورة تمثال لامرأة حسناء فوق قبر.

- قالت:

- هل تعرف من تكون هذه؟

- لا بالطبع.

- إنها زوجة أكبر شاعر. اسمه راينيس. هل تنصبون تماثيل لشعرائكم؟

- إنهم ينصبون لهم شيئاً آخر.

- ما هو؟

- عندما تكونين هناك سوف تعرفين.

- أنت دائماً غامض.

- اذهبي واكتبي بطاقات.. امشي.

- هل تسمع جيداً وراء النافذة؟

- أصوات غربان..

- نعم أصوات غربان. حتى الغراب لا يقول لأنثاه: امشي. أنه يقول لها: تعالي الآن فوق قمم الأشجار، رغم الثلج والبرد.

عادت إلى المكتب وهي تحرِّك رأسها على نغمات الموسيقى. وقفَ وذهبَ إلى النافذة المشرعة. كان شاطئ البحر متجمداً تماماً. والغربان التي تقول امشي أو تعالي تحلِّق في فضاء فسيح، لتنزل فوق الأشجار السامقة التي يغطيها الثلج. ورأى أيضاً أحد العمال في الأسفل على اليسار يصلح شاحنة كبيرة. كان غير مبالٍ إطلاقاً بالعالم من حوله، ويصدر صفيراً غريباً لا يشبه على كل حال نعيق الغربان. وبعيداً قليلاً يتمشى رجال ونساء تحت المعاطف والقبعات الشتوية

الكبيرة. ولاحظ أن الناس هنا لا يتعانقون كثيراً ولا يتخاصرون، وأن الرجال فقط يساعدون النساء على ارتداء معاطفهن في مستودعات المطاعم أو الفنادق أو النوادي.

طالما كان يحاول أن يفعل ذلك مع آنّا، إلا أنه كان ينسى. هم يفعلون ذلك بآلية ربما، وحتى من دون سابق تفكير. ما إن تقف أمامهم أنثى حتى يهرعوا إلى مساعدتها على ارتداء معطفها حتى لو كانت زوجة الشيطان. سمعها تناديه. التفت وهو يجتذب نفساً عميقاً من السيجارة. كان مرفقاها على المكتب والقلم يداعب شفتيها. قال وهو يبتعد قليلاً من النافذة.

- هل انتهيت من كتابة البطاقات؟!

قالت:

- يلزمني أن أكتب واحدة أخرى. تعال اجلس بجانبي. تعال قُل أي شيء حتى كلمة «امشي».

- لماذا تؤولين كلامي دائماً بطريقتك الخاصة؟ أنت تعرفين جيداً أنك لن تمشي من حياتي، وأنا لا أذهب أيضاً إلى الأبد.

سمعا صوت متعهدة البيت وهي تصعد إليهما، كانت عجوزاً لطيفة وديعة متسامحة. قالت وهي واقفة عند رأس السُلَّم إنها هيَّأت لهما شاياً. شكراها وذهبت لتحضِر الشاي. في هذه الأثناء مدّت آنّا يدها لتزيح شيئاً علق بوجنته، قرب الأنف. دائماً يشعر بأن حركاتها صادقة. عرف العديد من النساء، لكنهن أطعمنه الحنظل. أخذ ينظر إليها في اشتهاء تام عندما شرعت في كتابة بطاقتها الأخيرة. وتساءل في نفسه: هل تكون البطاقة لآخر حبيب؟! وهل يكون الذين عرفتهم قد ماتوا فعلاً وهم أحياء مثلما مات بالنسبة إليه كل اللاتي عرفهن؟ إلا أنها قالت عندما وضعت المرأة العجوز صينية الشاي:

- املأ لي كأساً من دون سكر. هل تعرف يا عزيزي أننا سوف

نذهب لنتفرج على القناطر المتحركة بعد غد؟ لا شكّ أن لينينغراد ستعجبك كثيراً، سوف ترى كيف أن الفينلانديين يسكرون حتى الموت في الشوارع وفي كل مكان. وهناك ستحبني أكثر ولن أشاكسك. هل تعرف أن عاطفة الإنسان تتغير بحسب الزمان والمكان؟

- إذا كان كذلك فمن يضمن لي أنك ستحبينني أكثر ولن تشاكسيني؟ كفى فلسفة. بعد غد سنكون هناك وسنرى ما الذي سيحصل قرب القناطر المتحركة.

رشفت شايها وكانت قد انتهت من كتابة آخر بطاقة في آخر يوم في يورمالا، هذه المدينة الصغيرة النائمة بين أحضان بحر البلطيق. مدينة أسطورية في طرف العالم، ستظل محفورة، بكل تأكيد، في ذاكرته: شاطئ ممتد متجمِّد، يسير فوق جليده جسدٌ عارٍ وحيد، هو جسد آنّا كيرن، وهو جالس على أحد المقاعد. إنها بالفعل امرأة خالدة وإن كانت مشاكسة. وقالت آنّا وهي تضع كفّها على فخذه:

- بماذا تحلم أيها الشاعر؟

لم يجبها، ولكنه ضمّها إليه. وضعت رأسها على صدره في وضع غير مريح. اقترب منها أكثر وشعر بدفء أنفاسها. إنه الجسد الذي يتحدى الطبيعة على امتداد شاطئ متجمِّد في مكان بعيد من العالم. قالت وهي مغمضة العينين:

- يلزمنا أن نخرج لنودِّع يورمالا. كم تمنيت ألا نغادر هذا المكان أبداً. وأنت؟ أليست هذه فكرتك؟

لم يجبها أيضاً بل ضمّها إليه أكثر. شعر باسترخاء شامل، وشمَّ رائحة زكية تغمر الغرفة. رائحة لم يشمها قط في السابق ولا في أي مكان. رفعت رأسها عن صدره:

- إنك لا تتحدث. قُل أي شيء حتى لو كلمة: امشي.

قبّلته في وجنته ووقفت:

- سوف أذهب لأغيِّر ثيابي. عليك أن تتلفع بشكل جيد حتى لا تزداد حدّة سعالك.

الأشجار عارية تماماً، وبعض الأغصان والجذوع التي لم يغطِّها الثلج تبدو سوداء كالحة. كانا يسيران بحذر شديد فوق الجليد. تتقدمه أحياناً، وأحياناً أخرى تتأبط ذراعه. فلنودِّع يورمالا. ليكن.

من أعلى المرتفع، كان يبدو تمثال لينين شامخاً قبالة محطة القطار، كما لو كان يودِّع المسافرين الذاهبين إلى مدينة ريغا. اقترحت آنّا أن يتجولا على الشاطئ لآخر مرة. إنه يوافقها دائماً. هي تقترح وهو يلبّي. وعلى كل حال فإنها لن تقترح بعد غد بأن يلقيا بنفسهما من القناطر المتحركة. كانت بعيدة منه الآن ببضعة أمتار، تتعثر في منحدر جهة الشاطئ، رآها تجمع شيئاً عند قدميها. لكنها وقفت فجأة ورمته بكُرة ثلج. لم ينفعل ولكنه ابتسم. أرادت أن تكرر ذلك إلا أنه زجرها. توقفت تنتظره. وعندما لحق بها جلست فوق الجليد. وأخفت رأسها بين ذراعيها.

قال:

- ماذا تفعلين بنفسك؟

- إني أشم رائحة الأرض.

أمسكها من ذراعها وجرها:

- أنت بالفعل حمقاء.

- أنا لا أريد أن أغادر هذا المكان، أنا أحبك وأعرف أنك لا تحبني. ستعود إلى يورمالا مرة أخرى أنا متأكدة. علينا أن نلقي بكوبيك أو كوبيكين للبحر حتى نعود إلى هذا المكان.

- هل تؤمنين بالطير؟

- لا. أنا امرأة قوية، وأعرف أني سحرتك إلى الأبد.

أخرجت من جيبها بعض الكوبيكات وطوحت بها في الماء المتجمد. ثم أخذت تركض من دون حذر. كانت تركض وتركض حتى تعبت وجلست على مقعد خشبي. وعندما جلس بالقرب منها وضعت رأسها على كتفه، ودسَّت يدها تحت معطفه. وقالت إن عليه أن يلقي هو الآخر ببعض الكوبيكات في البحر، ثم أضافت:

- هل تعرف ماذا تقول الغربان الآن؟

- تقول: تعالي.

- لا. إنها تقول: امشيا لتتفرجا على القناطر المتحركة في لينينغراد.

التصقت به أكثر. وبدا جسمها كما لو كان هامداً تماماً. ظلَّ ينظر في الأفق البعيد، وإلى الغربان التي تحوم هنا وهناك وهي تنعق. وأحس بأنه الملجأ الأخير لهذا الكائن السرمدي في هذه اللحظة. ولكن الإحساس نفسه كان يلازمه مع نساء أُخريات، إلا أنهن كنّ يذهبن مثلما ستذهب آنّا كيرن من دون شك، لكنها ستبقى في الذاكرة.

العربة

1993

أطفال بلد الخير

خلف الحي الشعبي، وأمام الحي الآخر، وسط الفيلات التي تنتشر عن اليمين واليسار، تمتد الساحة طويلة متربة محفّرة، يتكوّم بعض العجائز المتقدمين في السن في إحدى الزوايا هنا أو هناك، أو حتى فوق روث البهائم. ولا تتميّز أثوابهم القديمة - بلونها - عن الروث. وبعيداً من هؤلاء العجائز الذين يبحلقون في فضاء الساحة، دون أن يفكروا في شيء، تصطف نساء يعرضن بعض الخضر، وبالقرب منهن بائعو الفول الهاري. أما عرض الفواكه فيقتصر على البرتقال لرخص ثمنه في هذا الموسم.

قالت الضاوية وهي مكوّمة أمام ربوة من البرتقال:

- ها الخير. زيدوا ها الخير.

لكن المشترين كانوا يمرون بقفافهم وسلالهم ملقين نظرة على هذا الخير. مترددين في الشراء بعد أن يسألوا عن الثمن، ثم ينصرفون ليسألوا عن ثمن خير آخر في مكان آخر من الساحة المتربة، قد يكون أجود وأرخص.

تقف الضاوية أحياناً لتزن كيلوغرامين من البرتقال. وتظل واقفة لحين وهي تنادي على سلعتها:

- ها الخير، زيدوا ها الخير.

وعندما تتعب قليلاً تقرفص أمام كومة البرتقال، ثم تتناول

برتقالة وتقشرها، تأكل نصفها، وعندما يمر رجل أمامها وينظر إلى كومة البرتقال تقدم له النصف الآخر:

- ذُق يا سيدي. هذا هو العسل الحر. لم نأكل مثله إلا في أوائل الاستقلال.

يتناول الرجل النصف الثاني من البرتقالة. قد يلتهمه فيشتري أو ينصرف وعيناه تبحلقان في صف بائعات الخضر والبرتقال. لكن الضاوية رغم اهتمامها بصرف سلعتها فإنها تلتفت دائماً إلى الوراء وهي تصرخ في وجه طفلها الصغير:

- لا تبتعد أيها المسخوط، العب هنا ولا تبتعد، ولا تكن مثل أبيك.. فرعوناً مثل أبيك.

والواقع أن الطفل لم يكن يبتعد قليلاً، رغم أن له رغبة قوية في ذلك. لكنه كان ضعيفاً نحيفاً، وهناك ثلاثة أطفال بعيدون منه بعدة أمتار يتحرشون به، وهُم يأكلون قشور البرتقال. وعندما يحاول أحدهم أن يدركه فإنه يركض جهة أمه.

يصرخ فيه الطفل الأسود ذو العينين الحمراوين:

- اسرق برتقالة لأمك يا ولد..

لكنه لم يكن يعبأ لذلك، إلا إذا ما حاول أحد أن ينقضّ عليه فإنه ينجو بجلده. كان الأسود يخيفه كثيراً. وأحياناً كان يلقي لهم ببرتقالة متعفنة استخلصتها أمه من الكومة وألقت بها وراء ظهرها، ويظل يراقبهم من بعيد وهم يتخاطفونها ويلتهمونها، وعصيرها وعفنها يلطخان أوجههم. وعندما ينتهون من ذلك يبتعدون قليلاً، ويجلسون متفرقين على التراب، وينظرون إليه في مسكنة مثل جراء جائعة، في انتظار أن يلقي إليهم ببرتقالة متعفنة أخرى أو حتى بالقشور التي تلقيها أمه بين قدميها. أراد أن يغيظهم كثيراً، ولذلك فكّر أن يطلب من أمه برتقالة، يقشرها أمامهم وهم ينظرون، ثم

يأكلها في أناة وتلذذ، ويمص محتواها بصوت مرتفع يسيل لعابهم. خصوصاً لعاب الأسود ذي العينين الحمراوين. كانت أمه الآن مشغولة، تزن لأحد الزبائن. ترفع سلسلة الميزان عالياً، كفتاه متدليتان في الفضاء تتهاديان. قال الرجل:

- إياك أن يكون ميزانك مغشوشاً. هل الكيلو هو أربع برتقالات فقط؟

والله يا سيدي. أنا لا أغش. أولادي حرام عليّ إذا ما غششتك. ليس هناك سوى اللّه والنبي والآخرة. وماذا أفعل أمام اللّه غداً يوم القيامة؟ ولولا أني امرأة أعيل أسرة لما اشتغلت بهذه المهنة. ولبقيت في عقر داري مثل باقي النساء.

- أنا لست مقدم الحومة. زيدي برتقالة أخرى.

ثم مدّ يده إلى الكومة وتناول برتقالة أخرى وأضافها إلى البرتقالات الأربع. أذعنت للأمر وأفرغت له البرتقالات في القفة وقالت:

- والله يا سيدي، ما ربحت معك شيئاً.

لم يجب الرجل ولكنه دفع لها الثمن وانصرف باتجاه الصف الطويل. كان باعة آخرون يصرخون، مثل كورال ناشز، فشاركت هي كذلك في الجوقة: «ها الخير! زيدوا ها الخير». وكانت الفكرة لا تزال تراود الطفل. أمسك بتلابيبها:

- الضاوية. أريد برتقالة. أنا جائع.

- ها الخير! زيدوا ها الخير!

- أريد برتقالة.

- يا ابن الكلبة. ألا تحشم؟ منذ الصباح وأنت تأكل. الليلة سوف تتقيأ مصارينك. ركلتهُ بقدمها، فسقط أرضاً وابتعد منها بحوالي متر. استمرت هي:

«ها الخير! زيدوا ها الخير!».

وبالفعل كان هناك خير كثير من هذا العام. لكن هذا لا يمنع من أن يقتل الأخ أخاه من أجل صندوق من البرتقال. وإذا لم يقتله فقد يهينه، وإذا لم يهنه فقد يفعل له شيئاً آخر من أجل برتقالة مثلما فعلت الضاوية مع ولدها قبل لحظة. لكن الطفل نسي تلك الركلة لأنها لم تكن مؤلمة بما فيه الكفاية واستعاد حالته الطبيعية. تمنى أن يكون بين الأطفال، وقد يستطيع على حدّ تقديره أن يدافع عن نفسه ضدّ الأسود. لكن أمه تصرخ من ورائه، وتمنعه من الذهاب إليهم. كانوا ينتظرون منه أن يلقي لهم بأي شيء حتى لو بصقة من فمه. لم يكن يستطيع أن يبصق لأنه كان يبتلع ريقه خوفاً من أمه. ولكن لا بدَّ أن يقشر برتقالة ويأكلها بتلذذ ما دام الخير موجوداً وما دام الأسود موجوداً. وهذه الفرصة تكون مواتية أحياناً عندما يحتشد الزبائن حول كومة البرتقال، وتكون أمه منشغلة بالكلام أو بالكيل. وإذا كان همّه أن يسرق فهمّها أن تبيع ولو بثمن رخيص قبل أن يأتي رجال المخزن ويصادروا سلعتها وميزانها، ولن ينفع التوسل إلى اللّه أو النبي أو الكعبة أو عائشة البحرية. وهي لن تستطيع أن تحمل سلعتها وتهرب، مثلما تفعل باقي النساء الأخريات اللواتي يبعن السواك والحناء وأكياس الحمَّام. أو مثلما يفعل بائعو النعناع أو الجوارب أو أي شيء آخر يمكن حمله بسرعة والاختفاء به في معركة خاطفة لا تدوم أكثر من ربع ساعة. وعندما ينصرف رجال المخزن، يعود بعض الباعة إلى الساحة بسلعهم الخفيفة، بينما الآخرون الذين صودرت سلعهم يبكون أو يلطمون أوجههم أو يشتمون أو يدعون الأولياء الصالحين ليأخذوا لهم حقهم. لكن مع ذلك فالخير موجود، وعلى الرغم من أنه موجود فقد كان الأطفال الثلاثة خلف الضاوية جياعاً. وربما كان هناك أطفال آخرون في الساحة جياعاً كذلك، يختارون

لهم أماكن أخرى بالقرب من باعة آخرين. . . وربما فضَّل اثنان أو ثلاثة منهم الهجوم على حديقة إحدى الفيلات التي تحاصر الساحة من الجهة الشمالية.

ولا يمكن الجزم تماماً بأن الأسود قد يكون واحداً منهم، رغم أنه عنيف. إلا أن قدرته على المكر لا تبدو واضحة، فهو يستطيع أن يتشاجر لكن من المحتمل أنه لا يستطيع أن يسرق. وعلى كل حال، فمن يدري؟

وكان الأسود ينظر الآن من تحت السور إلى الناس وقد تجمعوا حول الضاوية وهي لا تزال تردد لازمتها عن الخير، ثم فكّر أن يذهب إلى ولدها الذي أصبح خلف الزبائن بعيداً من أمه. وفكّر أيضاً ألا يهدده بل يستلطفه حتى يلقي إليه ببرتقالة حتى لو كانت عفنة. قال ذلك لصديقيه. لكن أحدهم اقترح:

- لنذهب نحن الثلاثة إليه. إنه لا يخاف مني.

- لو ذهبنا جميعاً لاختبأ وسط الناس واستنجد بأمه.

- إن أمه مشغولة الآن. لن تهتم بنا على الإطلاق.

- ولماذا لا نسرق من بين أرجل الناس؟

- إن ولدها سوف يصرخ، وسوف يشبعنا الناس ركلاً.

صمت، هذا صحيح. فقد يضربهم شخص ما ببرودة دم وتشتمهم الضاوية، وتُنعت أُمّهاتهم بتلك الصفة القبيحة التي تهينُ بعض النساء. لكن الأسود توفيت أمه منذ أربع سنوات، ولم تعد لها أية صفة بذيئة. ولذلك قال:

- هيا فلنمضِ! ما الذي سوف يحصل؟

كان الآخران ينظران بشهية إلى البرتقال من بين أقدام الزبائن. وعندما تقدَّم الأسود بضع خطوات إلى الأمام، وتبعه الآخران، سمع صراخ قوي وبدأ الباعة يفرّون في كل اتجاه حاملين سلعهم. لقد

بدأت معركة ربع الساعة. لم يتبقَّ لدى الضاوية سوى بعض البرتقالات. احتضنت ميزانها وهي تصرخ في ولدها تاركة تلك البرتقالات:

- أينك يا ابن الكلبة؟

جرت في غير اتجاه وهي تجرُّ ولدها. وعندما اختفت وسط زحام الراكضين، جرى الأطفال الثلاثة وألقوا بأنفسهم فوق البرتقالات المتبقية في الساحة. أخذوا يلتهمون بنهم.

الكناس

يجلس الآن على الرصيف، وقد أعطى ظهره إلى الحائط القصير الذي تتدلى من فوقه أغصان في نهاية أطرافها أزهار أو براعم لم تتفتح بعد. ترك عربة الأزبال في فجوة بين سيارتين، وكانت المكنسة في العربة تتمايل بفعل الريح لأنها خفيفة وطويلة أكثر من اللازم. وربما كانت من قصب هشّ. أشعل سيجارة وأخذ يدخن وهو يسعل. لا يدري أحد فيما إذا كان مصاباً بداء السل أم بزكام عابر. كل شيء يمكن أن يحصل في الشيخوخة، وحتى في الكهولة أو الشباب أو الطفولة. لكنه على كل حال يسعل باستمرار سواء دخن أم لم يدخن. لقد اقترحت عليه إحدى بناته أن تأخذه إلى الطبيب ذات مرة، لكنه رفض، لأنه لم يزر الطبيب في حياته على الإطلاق. إنه يسعل وكفى. فهذا شيء عادي. كل الناس يسعلون. ثم إن السعال ليس عيباً. وقد لا يكون مرضاً خبيثاً. فأغلب الذين هم في سنّه يسعلون. صحيح أن هناك منهم من مات وكان له صديق يدخن الكيف ظلَّ يسعل بجواره إلى أن مات. وأغلب الظن أنه لم يمت بالسعال، ربما قتله شيء آخر قد يكون الوحدة. لأنه عاش حوالي عشر سنوات في غرفة منعزلة بعد أن تركه الأبناء عندما تزوجوا واشتروا سيارات واغتنوا واقتنوا شققاً في أحياء أخرى. وعلى الرغم من السعال لا يميت فقد سعد حتى مات بالقرب منه.

لقد رآه بنفسه وأسنده على كومة من التراب، حتى جاؤوا وتجمّعوا وتكلَّموا وتأسفوا وسعل بعضهم كذلك، ثم أخذوه ودفنوه بعد أن سعل ومات بجواره. ورغم أن الريح كانت خفيفة، فقد كانت الحرارة شديدة نسبياً. بعض العصافير تزقزق فوق رأسه بين الأغصان المتدلية. ثم إن فراشة مرّت أمام عينيه وحطّت فوق المكنسة إلا أنها طارت، فلربما وجدت نفسها بين رائحة كريهة. كان يدخن ويسعل. مدد ساقيه فوق الطوار وأخذ يتأمل إحدى أصابع قدميه التي تطل من فردة حذائه المثقوب. لم يكن يعنيه أن يكون حذاؤه مثقوباً لأنه تعوَّد أن يمشي حافياً حتى في شبابه. إحدى بناته فقط هي التي تفرض عليه أن يلبس حذاءً جديداً وأن يرتدي بذلة نظيفة في بعض المناسبات. لم يكن يهمه ذلك ولكنه كان حريصاً على الذهاب إلى الحمام البلدي. ما كان يهمه قد حققه. لقد بنى عمارة من طابقين بعد أن قضى أغلب عمره في كوخ من الصفيح. البنات كبرن الآن، واحدة موظفة في إدارة الضمان الاجتماعي والأخريان في لندن، قِيل إنهما تشتغلان في حاجة يمكن أن تكون عيباً. اللَّه أعلم فالناس يتحدثون كثيراً. وكل زبيبة في مؤخرتها عود. لكنهما ترسلان له كل شهر مقداراً من المال. وقد يستطيع أن يبني لهما عمارة أخرى تستقران فيها عندما تدخلان بصفة نهائية إلى الوطن. لأن الوطن يظل دائماً هو الوطن. وفي الوطن يجب أن تبنى وتؤسَّس العمارات والشركات وأقنان الدجاج. إنه مجرد كنَّاس لكنه يكنس كل شيء ويفكر في بناته. إنه يحب المكنسة مثلما يحب بناته.

حاولت بناته إقناعه بتغيير المهنة لكنه رفض. لقد تعوَّد أن يشرب كأس شاي تقدمه له امرأة أو قطعة خبز جافة تقدمها له طفلة أو طفل. كان ذلك طعاماً لذيذاً بالنسبة إليه لا يضاهيه سوى شربة المساء وكأس القهوة قبل النوم. أحياناً يصعب عليه تناول الشربة لأن

العجوز تثرثر كثيراً وتتذكر بنتيهما في لندن وتقول باستمرار إنها اشتاقت إليهما، وأنهما في بلد العجم، غريبتان وكأنهما من دون أب ولا أم. فيجيبها بأنهما ترسلان مبلغاً كل شهر، أحمدي اللَّه واشكريه. لقد كبرتا، وهما تعرفان ما تفعلان. اسكتي. ثم يستمر في حسو الشربة وبعد ذلك يأتي على القهوة وينام. لكن أمهما تحدث الناس عن طبيعة العمل الذي تقوم به الفتيات المغربيات في إنكلترا أو فرنسا أو إيطاليا، فإن كثيراً من العائلات لها بنات في أوروبا وأحياناً في بعض الدول الأخرى التي لا يعرف عنها شيئاً. المهم أنه يكنس الأرض وهنّ يكنسن الجيوب بعرق جبينهن وآباطهن. اللَّه سبحانه عزّ وجلَّ هو الذي عرف كيف يقسم الأرزاق. فهناك الكنَّاس وهناك البستاني وهناك الوزير. ثم فكّر وهو يدخن: ماذا لو قُدِّر له أن يكون وزيراً. ثم قال: لماذا لا تتزوج إحدى بناتي وزيراً؟ ولقد عرف بنتاً تسكن بالقرب منهم تزوجت شخصية كبيرة. لقد كانت محظوظة حقاً. وهي ليست في جمال بنتيه اللتين تشتغلان في إنكلترا. إلا أن الحظ ساعدها، ربما لأن أباها لم يكن كناساً. مات من زمان وترك أمها تصنع الكحل والسواك وتصبغ شعرها. ولا شكّ أن الشخصيات الكبيرة تعجبها أمهات من هذا النوع. لكن الثرثارة التي تطبخ له الحساء والقهوة في المساء يمكنها أن تطرد حتى الشيطان لو جاء ليطلب يد إحدى بناته. وعلى كل حال فالفراشة طارت ثم عادت ثم طارت وكفّت المكنسة عن التمايل لأن الريح خفّت. وبعد أن دخن سيجارة أولى وثانية ألقى بنظرة على نهاية الزقاق. لا تزال أمامه مسافة لملء العربة بالأزبال والعودة بها إلى المستودع لإفراغها، ولا شكّ أن العامل الذي يحرق الأزبال في المستودع يكون الآن قد انصرف، فهو يغادر العمل قبل الوقت لأن الرئيس يغادر العمل قبل الوقت هو كذلك. لكن هذا ليس مهماً.

فحرق الأزبال قد يتم في أي وقت. لكن قبل حرقها تكون قد تجمّعت هناك جيوش من الحشرات لا يعرف منها إلا الذباب.

فهناك حشرات أخرى صغيرة تلسع وتترك آثاراً حمراء على الجلد. ولذلك يجب حرق الأزبال في حينه. وهذه الحشرات سوداء اللون ولا تشبه تلك الفراشة التي كانت تحط وتطير ثم تحط وتطير. لقد عافت المكنسة والعربة وذهبت لتحط فوق الأزهار والبراعم. سبحان اللّه! فهناك من المخلوقات من يريد أن يعيش في الأزبال، وهناك من يريد أن يعيش بين الأزهار والبراعم. هناك حشرات سوداء قذرة وهناك فراشات جميلة. هناك من يريد أن يعيش في واضحة النهار وهناك من يريد أن يعيش في دامسة الليل. إن البشر مثل الحشرات. هناك من يعيش مثل الوطواط، وهناك من يعيش مثل الذبابة أو الفراشة. ثم وقف ودفع عربته. إلا أن طفلة صغيرة أخذت تنادي من ورائه.

- الرَّجل! الرَّجل.

تلفّت بوهن وعياء. كانت الطفلة تحمل صينية صغيرة عليها إبريق شاي وقطعة خبز. نظر إلى بعض الأزبال المكوَّمة أمامه. ترك العربة وجلس على الطوار قرب المكان الذي وضعت فيه الطفلة الصينية تحت الشمس. ذهبت الطفلة لتثرثر مع طفلتين أخريين. أخذ يصب الشاي لنفسه وهو متكئ على الحائط ماداً قدميه في استرخاء تام. تذكر أن ابنته التي تشتغل موظفة في مكتب الضمان الاجتماعي كانت تقول له باستمرار:

- يا أبي، هل أنت في حاجة إلى شيء؟ إنك تخجلنا، كل الجيران يقولون عنا: بنات الكنَّاس.

وتذكر أيضاً أنه كان يجيبها:

- إن تلك المكنسة هي التي جعلت منكن نساء. لقد كنتِ تنامين في حظيرة وها أنت الآن تنامين في عمارة.

- المهم أن تتخلى عن المكنسة.

- بعد سنة سوف أحصل على المعاش. وسوف تتزوجين من تريدين. ذلك الشخص الذي يرضى أن يكون صهره كنَّاساً. ومن يدري؟ فقد يكون أبوه كنَّاساً كذلك.

- أنا لا أتعرف على أبناء الكنَّاسين.

- وتقولينها أمام والدك من دون خجل؟

رشف جرعة وأشعل له سيجارة وحاول أن ينسى كل شيء. وكانت الطفلة لا تزال تثرثر مع صديقتيها. ابتعدت قليلاً وأخذت واحدة منهن تتطاول لتقطف زهرة من فوق الجدار القصير. لكن ذلك كان عبثاً لأنها لم تتمكن رغم محاولاتها المتكررة.

لكن الريح أسقطت زهرة حمراء شبه ذابلة ففرحت الطفلة. التقطت الزهرة وأخذت تشمها وتقربها من أنفي الطفلتين الأخريين. كان قد انتهى من تدخين سيجارته، وأتى على إبريق الشاي كله. نادى على الطفلة التي لم تسمعه. كرر النداء فسمعته. استمرت في الثرثرة مع صديقتيها. ربما كنّ يتحدثن عمّا سوف يحصل لهنّ في المستقبل، أو ما وقع في البيت أمس أو ما يمكنه أن يقع. وقف وأمسك بذراعي العربة. ونظر إلى نهاية الزقاق. كم من كومة تنتظر؟ لكن لا يهم. لقد تعوَّد على ذلك منذ سنوات. قالت له إحدى بناته إن الكنَّاسين في لندن يتقاضون راتباً جيداً. وكم تمنى لو كان كنَّاساً في لندن. لكن على كل حال هو اليوم بخير. أن يكنس شوارع الدار البيضاء أفضل من أن يكنس شوارع لندن لأن كنس شوارع المسلمين فيه خير عند اللَّه، وجمع أزبالهم الكثيرة أفضل من جمع أزبال النصارى. وإن كان بعض النصارى أحسن من المسلمين أحياناً فهم

يتوسطون لدى رجال السلطة ويحصلون على جوازات سفر ويأخذون بعض البنات معهم - كثّر اللّه خيرهم - ولولا أولئك النصارى لما بنى حائطاً، ولما سافرت ابنتاه إلى لندن. . . إن النصارى فيهم ومنهم. . إنهم لا يتشابهون حقاً وهُم أحياناً يكونون أحسن من مسلمي الرباط. لكن النصراني يبقى نصرانياً والمسلم يبقى مسلماً. لكن اللّه خلق الجميع ويعرف ما في قلوبهم. يعرف من هو المؤمن ومن هو الكافر والكفر ملة واحدة. كما أن الأزبال لا تزال مكوَّمة إلى نهاية الزقاق. وسوف يستمع إلى الثرثرة المعتادة وسوف يتناول الحساء والقهوة وسوف يتأمل الحيطان التي بناها بعرق الجبين أو بعرق الآباط أو عرق أي شيء آخر في لندن. كان يدفع عربته في الوقت الذي مرت فيه سيارة تابعة للمجلس البلدي. أطل منها رأس أحد المستخدمين، وقال له:

- ألم تنتهِ بعد من كنس هذا الزقاق؟

لم ينتبه السائق للمستخدم عندما أخرج رأسه ووجّه تحذيره. كان الكنَّاس يتدحرج وراء العربة ويلتقط بعض الأوراق وقشور البرتقال والبطيخ والدلاع. وفكر فيمَ إذا كان الناس يلقون بقشور البطيخ والدلاع في أرصفة لندن أم أنهم يلقون بأشياء أخرى. لم يسأل ابنتيه ولكنه هذه المرة سوف يسألهما إذا ما تذكر. فقط يتذكر أنهما قالتا له إن هناك عرباً في لندن، ولا شكّ أن أولئك الأعراب سوف يلقون بالأوراق وقشور البطيخ والدلاع والموز، وسوف ينزلق فوقها بعض النصارى. ومثلما يلقون القشور في هذا الزقاق، فلا شكّ أن الآخرين سوف يفعلون مثلهم لأن العربي سوف يظل عربياً سواء كان من الدار البيضاء أو من مكة فاللّه خلقهم هكذا. يقشرون ويأكلون والآخرون يكنسون. وحتى الكنَّاس يقشر ويأكل أحياناً وينزلق أحياناً أخرى. وكلنا في نهاية الأمر إلى اللّه منزلقون. ولا

تدري نفسٌ بأي أرض تنزلق ولا بأي رصيف ولا بأي شارع. فكم من وزير انزلق من فوق إلى تحت وكم من كنَّاس انزلق. إلا أن السقوط بعد الانزلاق لا يتشابه. فسقوط الوزير لا يشبه بأية حال سقوط الكنَّاس. وعلى كل حال، فقد قالت له ابنته الموظفة في مصلحة الضمان الاجتماعي:

- إن كثيراً من الموظفين يا أبي يسقطون على أرضية المكاتب عندنا. ولا شكّ أن المنظفة تستعمل مادة تساعد الانزلاق لتنظيف المكاتب. هذا مجرد احتمال.

- إنني لا أعرف مادة تساعد انزلاق الموظفين سوى الصابون البلدي. أما أنا يا بنتي فأحرص على تنظيف الزقاق من قشور البرتقال والموز حتى لا ينزلق أحد. وقد قمت بهذه المهمة لعدة سنوات. وهذه المهنة جعلتكن كبيرات.

ومن زقاق آخر ضيق خرج صبي وضربه على وجهه بكُرة مطاطية. بكى الطفل ثم هرب تاركاً كُرته. تلمّس العجوز وجهه. كانت الضربة قاسية حقاً. جلس على الطوار وأخذ يسعل لكن هذه المرة عندما مدّ كفّه إلى شفتيه رأى شيئاً أحمر، وإنه الدم. ولا شكّ أن الكُرة أصابت مكاناً حساساً في وجهه.

توقف بعد فترة ودفع العربة من جديد. لكن الدم لم يكفّ عن النزيف. وكان أمامه بضعة أمتار لتنظيف الزقاق لكنه كان يخلّف قطرات دم وراءه ربما ينظفها غيره. وقبل نهاية الزقاق انهار تماماً، ممدداً لا أحد يدري ما الذي جرى له.

سردين وبرتقال

مصب النهر غريب جداً. كان منذ حوالي فترة يعكس زرقة السماء. لكن ماءه الآن أصبح عكراً نتناً بلون الطين. فعلى إحدى ضفتيه أقيمت معامل كثيرة. لكن تلك المعامل لا تثير اهتماماً باستثناء معملين لتصبير البرتقال والسردين.

فبالقرب من المعملين حفرتان واسعتان يلقى فيهما البرتقال الفاسد والسردين الفاسد. وبعيداً من الحفرتين بحوالي خمسة كيلومترات هناك حفرة أخرى كبيرة تلقى فيها نفايات القاعدة البحرية الفرنسية. وكان أجمل ما فيها من غذاء، خبز مبلل وبقايا علب المربى أو بقايا فواكه أو بسكويت مبلل أيضاً وأشياء أخرى قد تكون محرمة على المسلمين. لكننا كنا نأكلها، لأن الاستقلال أعاد لنا الأرض إلا الطعام، وبقيت لنا القاعدة البحرية الفرنسية نقتات من حفرتها. وأضيفت لنا حفرتا معملين للبرتقال الفاسد والسردين الفاسد، وأعطتنا الطبيعة غابة للبلوط نجني منه أكياساً من دون رقيب أو نصطاد من قرب نبع بداخلها عصافير نشويها لنأكلها أو نبيعها. وغالباً ما كنا نشويها، لكنها عصافير هزيلة جائعة ليست حتى في حجم حمامة صغيرة. إذ يمكن للمرء أن يلتهم العصفور في لقمة واحدة بعظامه. وإذن فمصب النهر غريب، وإلى جانب المعملين تقام القاعدة البحرية في مكان متقدم من المصب على مسافة حوالي

اثني عشر كيلومتراً. وللأسف فإن الفرنسيين يلقون فيه بأشياء أخرى لا نعرفها، بعضها ينزل إلى قاع النهر وبعضها يلفظه النهر إلى المحيط الأطلسي، ولم نكن ندري إلى أين كانت تذهب تلك الأشياء اللامعة منها والغامقة اللون، الكبيرة الحجم منها والصغيرة الحجم. وبكل تأكيد فهي لم تكن طعاماً، وإلا لرأينا الأسماك تنط فوق سطح ماء البحر، إذا ما تركت لها أسماك النهر بعض الفتات. وعلى فكرة، فأسماك البحر جميلة ونشيطة تلمع تحت أشعة الشمس عندما تقفز في الهواء، بينما أسماك النهر ثقيلة، لونها أغبش، وتصطاد بسهولة في شباك تنشرها قوارب صغيرة، حتى ليكاد المرء أن يعاف أكلها. ولذلك فهم يبيعونها لمدن داخلية بعيدة من الأنهار والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض. يا لجمال سمك البحر النشيط! لقد سرقنا ذات مرة صندوقاً قرب أحد مراكب الصيد الصغيرة في الميناء عند المصب. كانت متنوعة، فيها الكبيرة وفيها الصغيرة، كانت جميلة ولكنها لم تكن نشيطة لأنها ماتت. لم نأكل قط مثل تلك الأسماك، فالأوروبيون وحدهم هم الذين يأكلونها لأنها غالية الثمن. وأغلب الظن أنها لا تليق بأفواهنا. لكن أفواهنا لاقت بها. وعندما أخفينا الصندوق في طرفة عين داخل شجر قصير كثيف، رأينا صاحب الصندوق الذي ربما كان تاجراً في السوق المركزي الذي يرتاده الأوروبيون والمغاربة الآخرون، يلطم خديه وفخذيه، ويصرخ:

- أناري! رزق أولادي ضاع!

ورأيناه يدور على نفسه، وذهب إلى جوقة كان فيها البيع بالمزايدة. ثم أخرج من بين الجوقة رجلاً ينتعل حذاءين طويلين من الكاوتشوك يصلان حتى الركبتين وأخذا يتعاركان أمامنا بالأيدي، وقال الرجل صاحب الصندوق:

- واللَّه لن أفترق معك حتى أقتلك. سرقت رزق أولادي يا ابن الكلبة.

لكننا اختفينا ولم ندرِ فيما إذا كان قد قتله أم لا. لكن سمك البحر كان لذيذاً لم أذق مثله في حياتي أبداً. حتى إن والدتي لم تعرف كيف تطبخ بعضه، هل يشوى أم يقلى أم يطهى.

ولا أدري ما الذي قد حصل مع أمهات الثلاثة الآخرين، الذين اقتسمت معهم الصندوق. وما عدا هذه الوليمة فلم نكن نقتات إلا بما قد يملأ البطن، حتى لو كان البلوط المشوي أو المسلوق، إلى حدّ أننا لكثرة ما كنا نتناوله في موسمه نصاب بالغثيان والقيء. لكن ولائم أخرى استمتعنا بها لكنها لم تتكرر منذ تلك السنة. فقد كان الجراد يغطي السماء، وكان الكبار منا يملؤون منها أكياساً ليبيعوها مشوية أمام المدارس أو دور السينما الشعبية، لأن الأوروبيين كانوا يعافون أكل الجراد، ولم نكن ندري لماذا، فقد كانوا يأكلون الخنازير والضفادع وحيوانات أخرى مثل القطط أو الكلاب كنا نتلصص لمشاهدتها فوق أطباقهم في بعض المطاعم. ثم إن الناس يأكلون ما يريدون. فمنهم من يختار البطيخ، ومنهم من يختار العجل أو الفجل. لكن سمك البحر يبقى ألذ رغم أن ثمنه مرتفع جداً، حتى لو كان يطير فوق صفحة البحر، لأن الوصول إليه صعب، وقد وصلت إليه سفن من بلدان بعيدة واصطادته. لكننا للأسف لا نملك سفناً لاصطياد تلك الأسماك الجميلة النشيطة، حتى لو لم نأكلها فقد نستطيع أن نضعها في إناء فيه ماء، نتأملها ونشتهيها. في كل مرة كنت أفكِّر أن الأرض أصبحت لنا بعد الاستقلال (أو لبعض الناس - لا أدري) ولكن البحر ليس لنا. أرى أحياناً بعض الناس لهم عيون ضيقة وقامات قصيرة ولونهم لا يشبه لوننا. لكنهم طيبون، ولا نعرف بأية لغة يتحدثون. لكنهم يصطادون سمكاً جميلاً ملوناً ونشيطاً، ثم

يشربون شيئاً في المقاهي، ويأخذون معهم ذلك السمك الذي سرقنا منه صندوقاً في ذلك اليوم، في ذلك الميناء الصغير، وخبأناه وسط تلك الأشجار القصيرة الكثيفة، ولم تعرف أمي كيف تطبخه أو تشويه. . . إلخ. لكننا كنا جميعاً نعرف كيف نشوي السردين أو ثعابين النهر. وللأسف فأن بعض ثعابين النهر قد تكون أحياناً سامة مثل ثعابين البر، لم أعرف هذا ولم أشاهده، ولكنني سمعت ذلك من الناس، كما سمعت من الناس كذلك أن بعض الشعوب تأكل الثعابين البرية ونحن نأكل الثعابين النهرية. وعلى كل حال فهذه الدنيا غريبة مثل مصب النهر، فهناك من لهم عيون ضيقة، وهناك من لهم جلد أسود، وهناك من لهم شعر أشقر، وهناك من لهم بحر ولا يعرفون كيف يصطادون فيه، وهناك من حصلوا على الاستقلال مثلنا وتوفرت لنا حفرتان واحدة للسردين الفاسد والأخرى للبرتقال الفاسد الذي لا يمكن تصديره أو تصبيره، وحفرة ثالثة أخرى تُرمى فيها نفايات القاعدة البحرية الفرنسية. ولا أدري فيما إذا كانت دول أخرى حصلت على الاستقلال تتوفر على مثل هذه الحفر، ولا أدري أيضاً فيما كانت لها بحار مثل المحيط الأطلسي تنط فوق صفحته الأسماك ولا يعرف سكانها كيف يصطادونها؟ وهل يأتي عندكم أناس آخرون ليصطادوا تلك الأسماك اللذيذة النشيطة الجميلة؟ وهل يعرفون كذلك كيف يطبخونها أم يشوونها. . . إلخ؟ لكننا، على كل حال، قد حصلنا على الاستقلال، وأصبحت الأرض لنا، وأيضاً أصبح لنا وزراء مغاربة وسمعت واحداً منهم ذات يوم يخطب، كان إنساناً رائعاً، وكنت حاضراً وسط ساحة متربة. وقال لنا إنه ينوي أن يهدم البراريك التي نسكنها، ويبني لنا عوضها دوراً فيها مراحيض ولها نافذة واحدة تدخل منها أشعة الشمس، لكنه لم يعد منذ ذلك اليوم إلى تلك الساحة ولم يهدم البراريك ولم يبنِ الدور، وحسناً

فعل حينما لم يردم تلك الحفر، لأن فيها ذباباً كثيراً، خصوصاً أنه تحدث عن النظافة وعن القضاء على الذباب، وأغلب الظن أنه لم يكن يعرف - لحسن الحظ - أن هناك ثلاث حفر يغطيها بشر وذباب.

فالبشر يقتات من تلك الحفر دون أن يعبأ بالذباب. والذباب لم يكن يؤذينا على الإطلاق، فقد كان يقتات مثلنا من تلك الحفر. حتى لو حطَّ على سردينة غير صالحة للتصدير كنا ننقضّ عليها. فهو يريد أن يعيش كما نريد أن نعيش نحن كذلك، وذلك السردين الفاسد لم يصبني أبداً بألم في معدتي. ولا أدري لماذا كانوا يلقونه في الحفرة. ربما كانت أمعاء الناس الذين يصدَّر لهم السردين والبرتقال ضعيفة، لأنهم حصلوا على الاستقلال قبلنا، وليست لهم بحار ولا بساتين، وربما تكون بحارهم وأنهارهم قد جفّت، فلم تتعود أمعاؤهم ومَعِدهم على هضم هذا السردين، ولكن هذا كله في مصلحتنا. فلتجفّ البحار والأنهار ولتهترئ أمعاؤهم حتى يتبقى لنا ما نأكل. لكن يبدو أن أمعاءهم ومَعِدهم تهضم بشكل جيد ذلك السمك الجميل النشيط اللذيذ، وتلك الأشياء الأخرى في البحر التي لها قرون وأنياب وأذناب وأجنحة ومناقير وأظافر. وأعتقد أننا إذا ما أكلنا تلك الأسماك فإننا سوف نصاب بالمغص أو الإسهال أو أي شيء من هذا القبيل.

حتى عندنا في المغرب هناك أناس مثل أولئك الأجانب لا يستطيعون هضم أي شيء حتى لو كان لحم الخروف أو العجل أو الأرنب. قال لي أحد الذين اقتسموا معي صندوق السمك النشيط الجميل إنه كان يشتغل في بيت أحد المغاربة الأغنياء. وكان يقيم حفلات فيها لحم خراف مشوية كثيرة ودجاج وفواكه كثيرة وأسماك، لكنه لم يكن يستطيع الأكل، كان يكتفي فقط بشربة ليست فيها

توابل، وعلَّق بعد ذلك: «إنه كرش الحرام». يا إلهي! ما أحسن أن يأكل الإنسان سردينا وبرتقالاً فاسدين من حفرة دون أن تكون له كرش الحرام. لأن صاحب كرش الحرام منبوذ من عند العبد قبل الرب... وأعتقد أنهم لو أكلوا من الحفرة لكان ذلك أفضل بالنسبة إليهم، ولربما كانوا أقوياء ولم يصبهم مرض. أما نحن فلم يكن يصيبنا مرض عسر الهضم، بل فقط كنا نصاب بالعمش والقراع العسلي وأحياناً بالحمّى الصفراء لأننا كنا نذهب لنسبح في مستنقع، هذا ما قالته أمي وضربتني بسببه مراراً. ورغم أنني كنت أصاب بالحمّى الصفراء أو الزرقاء أو أية حمّى أخرى لا أدري لها لوناً، فقد كانت تضربني وتقول لي لا تذهب إلى المستنقع مرة أخرى مع ابن فلان أو ابن فلانة. وهذا لا يهم، فلم تكن تضربني عندما كنا نذهب إلى الحفر ونجلب معنا في جيوبنا أو في علب صدئة سردينا فاسداً، وبرتقالاً فاسداً في أكياس أو شبه أكياس لم أتذكر من أين كنا نحصل عليها. أن نتذكر، أو لا نتذكر، فقد كان البرتقال يصل إلى البيت، أو يُباع في الطريق، فعلى الجميع أن يأكل، سواء في البيت أو في الطريق. ومن لم يستطع أن يأكل هذه الأشياء فعليه أن يشوي الخراف ويتناول شربة من دون توابل، وأن تنتفخ كرشه، لكن بالحرام. لكن لا أعرف كيف الحرام يستطيع أن ينفخ الكروش.

لقد أكلنا كثيراً من البرتقال والسردين والبلوط ولم تنتفخ كروشنا. وأكلنا أشياء كثيرة، إلا أن قاماتنا طالت ونحفت، غير أن بطوننا لم تنتفخ ويبدو لي أن الفرق بين الحلال والحرام بيّن. فالأكل من خارج معمل التصبير أحسن من أكل ما في داخله. ففي الداخل تنتفخ البطون، وفي الخارج تطول القامات وترتفع الهامات وتضمر البطون. لكن من حقّ كل إنسان أن يأكل. لقد خلقنا لكي نأكل ونشبع من خيرات هذه الدنيا.

وأعرف أننا عندما سنموت سوف نأكل العنب والرمان ونتغذى من العسل والخبز الأبيض الذي يأكله الفرنسيون في المطاعم. وقد أكلته ذات مرة ووضعت قطعة منه في خبز الشعير الذي تعجنه أمي كل يوم. وما دام الإنسان خلق لكي يأكل ويشبع، فقد قررنا ذات يوم أن نعود إلى ذلك الميناء الصغير لنسرق صندوقاً مليئاً بالسمك الجميل النشيط اللذيذ. وقال أحدنا: أخشى أن يضبطونا فيأخذوننا إلى السجن. وكنا نعرف أن في السجن قملاً كثيراً كما يُحكى لنا بعض الذين يخرجون منه. لكن هل يكون قمل السجن أكبر من القمل الذي يلتصق بشراوطنا خارج السجن؟ فكثيراً ما كنا نذهب قرب السكة الحديد ونتخلص من شراوطنا ونفلّي القمل منها. وإذن فالقمل سواء داخل السجن أو خارجه. ولهذا لم نفكِّر في السجن، وذهبنا ذلك الصباح على الأقدام إلى ذلك الميناء الصغير لنسرق صندوقاً من ذلك السمك الجميل النشيط اللذيذ. لقد خُلِق الإنسان لكي يأكل ويشبع.

عربة النساء

لم أنتبه إلى أنني كنت الرجل الوحيد في العربة إلا فيما بعد. لقد جلست على أول مقعد وجدته فارغاً، إلى جانب امرأة مسنة، وأخرى دون الثلاثين معها طفل صغير، عرفت فيما بعد ألا علاقة عائلية بين المرأتين. وكنت أتصور أول الأمر أن المرأة المسنة ربما كانت أم أو حماة المرأة الشابة، أو أي شيء آخر من هذا القبيل. إلا أن تحفظهما في الحديث أكَّد لي عكس ذلك. وكان الطفل سبب محو تصوري السابق ذاك، عندما سألت المرأة المسنة عمّن يكون ذلك الطفل، هل هو ابن المرأة الشابة أم قريبها. أجابت الثانية بأنه ابنها. أما أنا فكنت صامتاً طوال هذه الفترة أستمع إلى كلامهما المتقطع، وأنظر إلى الأعشاب والخضرة والأزهار والأشجار من خلال نافذة القطار، متظاهراً بأن حديثهما لا يهمني على الإطلاق ونحن نعرف جميعاً أية وحشة يشعر بها الإنسان عندما يسافر وحيداً، مهما قصرت المسافة أو بعدت. لكني أشعلت سيجارة بعد أن تحرك القطار بحوالي ربع ساعة، حتى أبدد تلك الوحشة المتوقعة، رغم أنه ليس من عادتي التدخين صباحاً. كان القطار متوجهاً إلى مدينة وجدة، وأنا سوف أنزل في مدينة فاس. وبما أن الحديث كان قصيراً بين المرأتين فإني لم أعرف في أية محطة سوف تنزلان إلا فيما بعد. لكن التحفظ الذي كان قائماً بينهما بدأ يزول شيئاً فشيئاً، شأن

الإنسان الذي يحب شخصاً آخر، ولا يستطيع الإعلان عن ذلك، حتى يفعل في النهاية أو تفوته الفرصة إلى الأبد. أما أنا فقد كانت وحشتي تزداد رغم التدخين، ورغم انشغالي بالنظر إلى ما وراء النافذة. لكنني قررت أن أحطم هذا الحاجز وأدخل معهما في حوار. شجعني لغط النساء في العربة القادم من المقاعد الأمامية والخلفية، إذ كنّ يتحدثن بصوت مرتفع، ويحكين عن همومهن اليومية، ومشاكلهن العائلية. ولا يفهم من حديثهن المرتفع سوى أنهن لم يتعارفن من قبل، وأن هذه الرحلة التي قد تطول أو تقصر هي التي جمعت بينهن. وأعتقد أن النساء على العموم أقل تحفظاً من الرجال في تجاذب الحديث. عندما قررت تحطيم الحاجز بيني وبينهما، نبّهت المرأة الشابة إلى أن ما يفعله الطفل سوف يضر به. كان ذلك بكلمات مقتضبة، فأجابت هي على التو، وكأنما كانت تنتظر هذه الفرصة:

- شكراً يا سيدي، أنت تعرف طبيعة الأطفال.

وقلت من أدراها أنني أعرف طبيعة الأطفال. وهل يمكن للمرء أن يعرف حتى طبيعة أقرب كائن إليه؟ هل يمكن للمرء أن يعرف حتى طبيعته الشخصية؟

تدخلت المرأة السمينة حتى لا تفوتها الفرصة:

- إن تربية أطفال هذا الزمان صبعة. كلما كبروا ازدادت مشاكلهم وتعددت.

حركت رأسي بالموافقة وأخرجت سيجارة أخرى. ساد الصمت بيننا من جديد، لكنه صمت ذائب وسط لغط نساء المقاعد الأمامية والمقاعد الخلفية في العربة. وكان بعض المسافرين والمسافرات يمرّون أحياناً إلى المقصورات الأخرى أو إلى دورات المياه. في بعض الأعين دهشة أو وحشة.المسافر الوحيد الذي ينتظره مصير

غامض. غير أن الشبان الذين كانوا يعبرون عربتنا يتمازحون بتلقائية رافعين أصواتهم وأيديهم. وبالتأكيد أنهم لن يستطيعوا فعل ذلك بعد بضع سنوات قليلة، عندما يصبحون مثقلين بالأطفال، ومطالبين بدفع ثمن الكراء، والخضوع لرئيسهم في العمل. انزلق الطفل من بين ذراعي المرأة الشابة التي كانت تنظر إلى الأشجار وهي تتراجع إلى الخلف. التفتت فرأت الطفل بين ركبتي. ابتسمت ابتسامة وديعة دون أن تقول كلمة واحدة. لكن الطفل نظر في عيني وقال:

- عمي، أعطني سيجارة لأدخن مثلك.

اختفت ابتسامة المرأة وانقضّت عليه، ثم جذبته من ياقة قميصه بعنف، وصفعته صفعة قوية. انتحب الطفل قليلاً لتركنه المرأة إلى جانبها. كفَّ عن النحيب وأخذ ينظر إليَّ. قالت المرأة المسنة:

- اللَّه يستر! هذا جيل غريب!

ردّت المرأة الشابة:

- هل أنت ترين يا سيدتي هذا المسخ!

تدخلت قائلاً:

- إنه مجرد طفل. عندما يكبر سيعرف كل شيء. لقد كنا جميعاً أطفالاً ولا يمكننا أن نتذكر ما ارتكبناه من حماقات عندما كنا في سنه.

قالت المرأة المسنة:

- معك حقّ يا وليدي. لكن أطفال هذا الزمان...

انفرجت أسارير المرأة الشابة:

- ما يلزمهم هو التربية. التربية هي أساس كل شيء في الحياة.

قالت المرأة المسنة:

- معك حقّ يا بنتي.

شيء غريب. هذه المرأة تعطينا الحق جميعاً. وربما أعطت

الحق طول عمرها للناس بعدما تكون قد أصدرت أحكامها. ثم سمعت امرأة سوداء في مقعد مقابل على اليمين تقول لأخرى:

- هنيئاً لك! رزقت اثني عشر ولداً؟!

- نعم، ستة ماتوا والآخرون لا يزالون على قيد الحياة.

- إذن عشّرت يا أختاه.. اللَّه اللَّه! ستة من الملائكة وستة من البشر. سوف يكون أجرك عند اللَّه عظيماً. يقول سادتنا الأوائل: المرأة التي تعشّر تدخل الجنة وعيناها مفتوحتان.

- ذاك من فضل ربي.

وأخذتُ أتأمل المرأة السوداء. كانت ترتدي جلباباً قذراً، وتضع صندلاً من البلاستيك. وتذكرت أحد المعلمين الذي ساهم في عملية إحصاء قال لي إنه لم يكن يتصور أن حوالي مئة فرد يسكنون في دار واحدة في أحد الأحياء الشعبية. وفي الدار دورة مياه واحدة. ثم رنّت في أذني: «إذن عشّرت يا أختاه.. اللَّه اللَّه!». جذبت نفساً آخر من السيجارة، وأنا أتأمل القدمين السوداوين في صندل البلاستيك. واستمر الحديث عن الإنجاب. وفي حين صرخت واحدة من مقعد أمامي آخر. كانت تدخن، ولم أكن أرى من جسمها سوى ذراعها وقدمها:

- اطلبي منه الطلاق. الرجال دائماً هكذا، يريدون ابتزاز النساء. أم أنك تحبينه؟!

- أنا لا أحبه. لقد كان جاراً لنا فقط. ثم قبلت الزواج منه.

كان أمامنا ربع ساعة للوصول إلى مدينة مكناس. تعبت قليلاً ولذلك ذهبت إلى دورة المياه في رأس مقدمة العربة. وعندما عدت ظللت واقفاً أطل من النافذة وأنا معتمد بمرفقي على المتكأ الحديدي. تتراجع الحقول والبيوت الصغيرة والبهائم إلى الخلف. كان هناك نهر متعرج يلمع ماؤه تحت شمس الظهيرة. وعندما التفتُّ

ورائي، رأيت المرأة المسنة تشير إليَّ وهي تتحدث إلى جندي شاب أراد أن يقتعد مكاني. انصرف الجندي وعدت إلى مكاني. كانت المرأتان تأكلان شيئاً بينما الطفل يلهو بين سيقانهما. ناولتني المرأة العجوز قطعة من كعب الغزال، فتقبّلتها منها شاكراً دون أن تكون لديَّ رغبة في الأكل. ومع ذلك التهمت القطعة. وقالت المرأة الشابة للطفل وهو يتظاهر بالألم:

- تعال إلى دورة المياه. إياك أن تفعل شيئاً أمام الناس في سروالك.

انصرفت المرأة والطفل وبقيت مع العجوز وسط لغط النساء. لكنهما تأخرا طويلاً ولم يعودا إلى العربة حتى بعد أن تجاوزنا مدينة مكناس. وقالت المرأة العجوز:

- هل تريد المزيد من كعب الغزال يا وليدي؟

- لا واللَّه، ليست عندي شهية.

أدخلت يدها في القفة الموضوعة إلى جانب ساقها اليسرى لتأخذ قطعاً من كعب الغزال الملفوف داخل خرقة مزركشة. لكنها أخذت تفتِّش في أسفل القفة باضطراب وقد تغيّرت ملامح وجهها. قلت لها:

- لا داعي أيتها الوالدة. أنا لا أريد أن آكل.

لم تجبني، ولكنها وقفت وأخذت تفتِّش تحت المقعد. ثم انبطحت أمامي. ودفعتني بقوة حتى كدت أسقط. وقفت وابتعدت قليلاً بالقرب من المتكأ الحديدي. لم أفهم ما أصابها. غير أنها وقفت في هياج وصرخت حتى غطى صراخها على لغط النساء:

- ناري! حافظة نقودي ضاعت.

بدأت تلطم حنكيها وفخذيها وهي تولول، بينما تشبثت أنا

بالمتكأ الحديدي. وقفت بعض النساء، في حين كنّ أخريات غير آبهات. تجمهر حول العجوز ست أو سبع نساء في الممر المضيق. وبما أن مكبر الصوت كان يعلن وصولنا إلى مدينة فاس فقد انسللت باتجاه الباب وأنا أقول في نفسي: «هل يمكن لتلك المرأة الشابة صاحبة الطفل أن تفعل ذلك، أم أنها مجرد كذبة من المرأة العجوز؟!».

النبَّاش

كانت قطة هزيلة تموء وراء القمامة، وكانت أخرى تمدُّ قائمتيها الأماميتين بكل قوة جسدها لالتقاط رأس سمكة نتنة يطن فوقها الذباب، في حين كانت قطة أخرى أو قط صغير وراء ذيل تلك القطة لتشمم الرائحة وانتظار الفتات. جاء كلب ففزعت القطط بحُكم الغريزة، لكنه لم يبالِ بالقطط ويبدو أنه شبعان ولذلك لم يلتفت للقطط ولا للقمامة. إلا أن رجلاً يدفع عربة صغيرة ركل القطط السمينة والهزيلة وفتَّش في القمامة.

عثر في القمامة على علبة ورق مقوى وكيس بلاستيك مقوى وزجاجة فارغة. وضع هذه الأشياء في عربته الصغيرة، ومضى لينبش في قمامات أخرى بحثاً عن علب أخرى وأكياس بلاستيكية أخرى وزجاجات أخرى. وأحياناً تصطدم يداه بزبل بني آدم. كأن بني آدم ليس لهم مراحيض، والحقيقة أن بعض البيوت ليس فيها مراحيض رغم أن فتيات أنيقات يخرجن من تلك البيوت. لسن جميلات ولكنهن أنيقات ويتحدثن بفرنسية متعثرة. وكلهن أو أغلبهن يتحدثن عن جدهن القائد في عهد الاستعمار. أو ينتظرن إرثاً وهمياً أو سفراً أبدياً إلى أوروبا، فحتى الزواج لم يعد فيه خير. لكن النبَّاش لم يهمه كل هذا. مضى في طريقه، وعادت القطط إلى القمامة، وتمكّنت القطط من انتزاع سردينة نتنة بأكملها، بعد أن بعثر النبَّاش كل

محتويات القمامة. كانت حفلة حقيقية بالنسبة إلى القطط، لكن الصغير الهزيل لم يحظَ بأي شيء، بل ظلَّ منزوياً يموء بين القمامة والجدار. غير أن قطة يبدو أنها انتبهت لاستعطافه، فعادت إلى القمامة، نطّت بخفة شديدة وسط القمامة وأخرجت شيئاً ألقت به إلى الصغير الهزيل. وعادت لتضرب رأس السردينة بإحدى قوائمها وتنهش الرأس الذي لم يكن في الغالب من دون عظم. عثر النبَّاش في طريقه على صندوق قمامة كبيرة، وفكّر أن يعثر فيه على كنز، لأنه كان أمام باب عمارة كبيرة، تتدلى من شرفاتها نباتات غريبة لم يرَ مثلها، ويبدو أنها مستوردة. وعندما أدخل المخطاف في الصندوق وحرّكه، مدّ ذراعه الطويلة، وأخرج بعض الخرق يمكن أن تكون ثوباً داخلياً للنساء. لم يهتم لذلك، ولكنه وضع تلك الخرق في الكيس، سوف يتفقد ذلك فيما بعد. أحياناً يكتشف أن ما عَثَرَ عليه شيء له قيمة، وأحياناً يكتشف أنه كان محمّلاً بأشياء غير ذات قيمة على الإطلاق، وأنه تصبب عرقاً وتورّمت قدماه طوال النهار من أجل لا شيء. ويمكن أن يكون بعض النبَّاشين قد مروا قبله ولذلك يحرص على أن يستيقظ مبكراً، لكنه أحياناً عندما يفرط في شرب النبيذ الرديء يستيقظ إلا في الظهر وهو منهار تماماً، ومع ذلك فهو يكابر ويخرج لينبش ما تركه النبَّاشون الذين سبقوه. أحياناً يلتقط حتى أجزاء الورق المقوى على الرصيف سواء كانت مبللة بالمطر إذا كان الفصل شتاء، أو جافة صفراء في فصول أخرى. فحتى الورق المقوى يباع وإن كان ذلك بثمن بخس. وعلى كل حال فهو يعرف أنه يعيش في بلد يباع فيه كل شيء. فالناس في حاجة إلى أن يبيعوا كل شيء، وأصحاب المال يستطيعون أن يشتروا كل شيء، حتى أكياس قطع الخبز الجاف، يصنعون منه أي شيء لبني آدم أو يبيعونه لمربّي الأبقار والبهائم. ويعرف أن كل ما يلتقطه من القمامة يباع،

سواء بثمن مرتفع أو بثمن بخس. لا يهم. لكنه يباع. والحقيقة أن هناك أشياء أخرى لا يشتريها منه أحد، ربما لأنها غير ذات فائدة. وعلى كل حال، فلا يمكن للإنسان أن يموت جوعاً في المغرب.

وقد حكى له أحد النبَّاشين القدماء أنه عندما كان صغيراً، كان هو وأصدقاؤه ينبطحون على الأرض لكي يلعقوا بألسنتهم فصة معسلة تتساقط من عربات تحمل تلك الفصة لأبقار المعمرين. وقال له إن تلك الفصة كانت حلوة المذاق، وكانت تشبعهم، ويكملون طعامهم اليومي عندما يذهبون إلى البحر لسرقة الذرة التركية التي يشوونها في الخلاء العاري. عربات الفصة المعسلة لم تعد موجودة الآن. ولكن بكل تأكيد إن حقول الذرة التركية لا تزال موجودة. فهو يراها كلما سافر إلى البادية. وفي نيته عندما يغتني أن يشتري بقعة أرض، وأن يزرع فيها الذرة التركية والدلاع والبطيخ والخيار والنعناع والطماطم وكذلك البطاطس عند الحدود الإسبانية. وإذن لا بأس، فلا داعي لزرع الطماطم والبطاطس، يمكن للمرء أن يكتفي بزرع الذرة التركية. هذا مجرد حلم لكنه يمكن أن يتحقق. فكم من نبَّاش أصبح غنياً، فقد يعثر على أشياء ثمينة ألقيت سهواً في القمامة. عندما فكر في هذا ضحك من نفسه، لأنه في بعض الأحيان لا يعثر إلا على زبل بني آدم. لكنه يعتقد بأن الحظ لم يسعفه، وقد يسعفه ذات يوم. من يدري؟! كل شيء ممكن. . . وقد رأى في بعض الأفلام أن كثيراً من الناس كانوا فقراء ثم أصبحوا أغنياء. وكان منهم حتى النبَّاشون أنفسهم، خصوصاً في الأفلام الأميركية. غريبة هي الحياة. إذا ضحكت لك فهي امرأة، إذا هربت منك فهي زوجة إبليس والعياذ باللَّه!

أحلام النبَّاش كثيرة بقدر القمامات التي نبش فيها. وهو يعرف أن كثيراً من النبَّاشين أصبحوا الآن يملكون شركات ودكاكين يبيعون

فيها السلع المستوردة ولهم علاقات مع رجال في الدولة يسهّلون لهم بيع السلع المهرَّبة. وقد رأى بأُمِّ عينه كيف أن أصحاب السيارات الفخمة يتهافتون في الجوطية على شراء تلك السلع من آلات إلكترونية وألبسة إيطالية... إلخ. المهم أنه سوف يظل ينبش في القمامات حتى يصبح مثلهم ذات يوم. وفي اعتقاده أن كل من ينبش لا بدَّ أن يصل ذات يوم سواء إلى القمة أو إلى الهاوية التي لا يزال هو ساقطاً فيها الآن. ثم دفع عربته الخشبية وكان يشعر بتعب حقيقي. إنها جولة مضنية هذا اليوم. لكن لا بأس، فعلى الإنسان أن يتحمّل كل شيء من أجل العيش. فاللَّه سبحانه عزّ وجلّ خلقنا لكي نعرف كيف نعيش وننبش في هذه الدنيا حتى لو تلطّخت أيدينا بزبل بني آدم. ثم حمدل وحوقل، ورأى قمامة بعيدة منه بقليل. توقف عن دفع العربة، وذهب لينبش فيها والخطاف في يده. أخذ يحرك ما في داخلها. كانت هناك بعض الأوراق وقشور البرتقال وعلبة مربى. لكن المخطاف جذب كيساً أسود ملفوفاً في قعر القمامة. وضعه على الطوار ثم فتحه بأناة. كان يعتقد أن في داخله ديكاً هندياً، لأن ما كان في داخله شيء طري، إلا أنه فوجئ عندما عثر داخل الكيس على صبي ميت. ذهل لفترة ثم أخذ يركض تاركاً عربته وراءه. كان يركض ويركض إلى أن سقط فوق عشب إحدى الحدائق وهو يلهث. ولم يكن له الوقت لكي يحمدل أو يحوقل.

عندما يصير الرجل حماراً

كانت الشمس تلمع في جناح من السماء، عابثة بغيمات ضائعة في عالم الصيف القائظ. ولأن الحرارة كانت على أشدها، فقد كان الناس ينفثون الهواء الثقيل من صدورهم آملين في هواء بارد منعش، بينما كانت الحيوانات لا تقل عنهم رغبة في طلب البرودة والهواء ذي اللفحات الربيعية. الكلاب تمد ألسنتها والبغال والحمير تعبِّر هي الأخرى عن رفضها لهذا الصَّهد الثقيل، فالدواب الواقفة لا تلبث بين الفينة والأخرى أن تدك الأرض بحوافرها بينما التي تمر في عرض الطريق ترخي رأسها وأذنيها إلى أسفل كأنها تفتِّش عن شيء في الأرض. وكان الحمار مسعود قد بدا متعباً للغاية. خطواته تتثاقل بعد أن كان يرمي قبل لحظة قوائمه إلى الأمام بسرعة كبيرة آملاً في أن يصل، وقد ازداد ثقل هذه الخطوات ما جعل علياً يعالجه بضربة على ظهره. ورغم أن الضربة لم تكن قاسية أو عنيفة فقد توقف الحمار على إثرها. لكن الضربات استمرت يسيرة فعسيرة أو قليلة فكثيرة. غير أن الحمار أصرّ في النهاية على ألا يتحرك بتاتاً. هدأ علي، وبدأ ينتظر، ولم يتحرك الحمار، فقال:

- اللَّه يهديك، سر.

لكنه لم يسر، ولم يتزحزح، ولم يخطُ خطوة واحدة، بل استمر في إحناء رأسه إلى الأرض، وأرخى أذنيه أكثر من ذي قبل، وعاد

عليّ يعالجه بعصاه، لكن عبثاً. وظنَّ أن قطع الآجر الأحمر الذي تحمله العربة ثقيلة جداً. بينما عاد يؤكد لنفسه أن ليست هذه هي المرة الأولى التي يجر فيها مسعود العربة وهي محملة بهذا القدر من قطع الآجر أو غيره، لكنه عاد ليثبت صحة تخمينه الأول. وفكّر ملياً ثم عزم على أن يفرغ جزءاً من حمولته هذه، يترك نصفها على الأرض ريثما يذهب بالنصف الآخر فيعود لينقل النصف الثاني.

وكان الصهد لا يزال محتدّاً، غير أن علياً نسي الحرارة وفظاظة الجو لدى توصله إلى هذه الفكرة أو هذا الاقتراح الذي قدّمه لنفسه، والذي يؤكد أنه من الذكاء بمكان، وبدأ في تنفيذ المشروع. كان جسده يتفصد عرقاً كأنه قربة مثقوبة ولم يبالِ لذلك، واستمر في نقل قطع الآجر من عربته العتيقة إلى الأرض بجهد لا يحد. وسرعان ما بدأ الحمار يتحرك ليس إلى الأمام أو إلى الخلف، لكنه كان يتحرك في مكانه، يضرب الأرض بقائمتيه الخلفيتين، ويهز رأسه إلى أعلى بقوة كأنما يطرد حشرة من الحشرات لدغته لدغة مؤلمة فبعثت فيه ردّ فعل عنيفاً. وإذ كان الحمار يتحرك ظنَّ علي أن المشكلة الآن قد بدأت في طريق التسوية، واستبشر مهنئاً نفسه على الحل الذي اهتدى إليه بغير مقدمات، والذي نزل عليه من السماء وكأنه الوحي. لا يبلغ مقدار الثلث على كل حال.

ثم قفز إلى العربة ماسكاً بزمام الحمار وأخذ يجذبه إليه، وهو يطلق صيحة خاصة، لكن أمله خاب، فالحمار لم يتزحزح خطوة إلى الأمام، وأكد على نفسه أنه لا بدَّ من تتمة تنفيذ المشروع الذي اقترحه بادئ ذي بدء لكي يصبح الآن على ما يرام، فقفز إلى الأرض وبدأ من جديد ينقل قطع الآجر من أعلى العربة إلى أسفل، وانتهى في الختام بأن قال في نفسه إنه قد أشرف على نقل نصف كمية الآجر إلى الأرض. لكنه عندما انتهى فعلاً مُنِيَ بالفشل، فقد خيَّب الحمار

أمله، وجعله يتساءل عن إيجاد حلّ هذه المشكلة التي لم يصادفها قط منذ أن اشترى حماره هذا.

لا شكّ أن هناك سراً. وإذ كان يضع سبابته بين أسنانه كتعبير عن شيء لا يعبَّر عنه، انطلق الحمار في نهيق بعيد الصدى رددته البنايات القائمة هناك من بُعد. وبدأ يضرب بإحدى قائمتيه الخلفيتين ثم رفعها في الهواء، ولبثت كأنها معلَّقة، واستيقظ عليّ من تفكيره القصير على إثر نهيق الحمار الذي داهمه كنفير سيارة شحن كبيرة، وجعل ينظر إلى رِجل مسعود وهي معلَّقة في الهواء. ولكن هذا الأخير أعادها إلى وضعها الأول وكأن في نيته أن يطمئن علياً، بينما اعتبر علي هذه الحركة بادرة فيها أمل. لقد قالت له هذه الحركة مرة إنه سيربح نقوداً كثيرة في يومه ذاك. عندما وقف ذات صباح أمام الحمار وقال قبل أن يشده إلى العربة: «إذا تحركت إحدى رجلي الحمار الخلفيتين فإن اليوم سيكون مربحاً». ولم يخيب الحمار يومها ظنه وكان له أمل، وحصل على ما رغب. أما اليوم فلم يقل شيئاً ولكن رجل الحمار الخلفية - التي اتخذ حركتها آية للخير منذ ذلك اليوم - تحركت. ولا شكّ إذن أن معجزة ستقع، وتقع المعجزة عندما تحرك الحمار. وضحك هو ضحكة أربت على نهيق حماره مسعود. وقال بصوت مرتفع: «لا عدمت يا رجل!» وقفز فوق العربة، وأخذ يحرِّك رجليه وجسمه ويديه وكأنه طفل يتّقي ضربات حزام والده التي تسقط عليه كالأحجار من كل مكان، ولم يفكر في غمرة فرحة في الآجر الذي تركه على الأرض هناك.

ومضى الحمار وهو يعرج، فبهت علي، لقد كانت الرجل الميمونة هي التي تعرج. ما الذي حدث إذن؟ وإذ تساءل هكذا، توقف الحمار مرة أخرى. ولم يتحرك، وكانت الحرارة والجفاف على أشدهما، أما الهواء فكان أثقل مما يتصور، وقد بدت الشمس

في كفِّ السماء تتحدى الناس والدواب بحرارتها المفرطة، وأشعتها الثاقبة كأنها سهام حادة تنخر فلا ترحم. توقف مسعود بعناد، رفع رجله الخلفية مرة أخرى، فانحنى علي يتفحصها... وبينما هو كذلك جاء صوت خشن:

- يا بني آدم!!

ووقف علي لتوه وهو يقول: «لا شكّ أن في هذا الحمار شيئاً»، فقال له الرجل:

- يا سيدي، إن العربات الثلاث وصلت منذ ساعتين وأنت لا تزال هنا، هل تتحرك أم أنادي على عربة أخرى؟

- إن بالحمار شيئاً.

- لا يهمني، هل تتحرك أم... أيعجبك أن ننتظر سيادتكم يوماً كاملاً.

فقال علي وهو يمضغ ريقه:

- إن هذا مستحيل. الحمار لا يريد أن يتحرك.

- قلت هل تتحرك؟ لا يهمني، جر العربة على كتفيك.

وكان الرجل يتكلم بفظاظة مرفقاً كلماته بتعابير قاسية من وجهه. وأمام هذا العالم المتجهم بدت لعلي الدراهم الثلاثة تسقط من يده، وفكر في أن أدنى حركة أخرى منه تعني الرفض، ستؤدي حتماً إلى ضياع الدراهم الثلاثة منه. وإذ كان يتحدث لنفسه صهل الرجل:

- لا أريد أن أبقى طوال اليوم هنا. لا أريد أن أضيّع وقتي، لماذا تتصامم هكذا؟

شرع علي في فكّ العربة عن الحمار. كان بعض الأطفال قد تجمعوا حول المعركة المسالمة، وهم يحدقون في الرجلين منتظرين أن تقع الواقعة كي يتفرجوا ويقهقهوا، ما اعتادوا أن يفعلوا عند كل

اصطدام يقع بين شخصين في هذا الحي. وشدّ علي العربة إلى ظهره لكن ما إن خطا خطوتين اثنتين حتى قال الرجل:

- والباقي من يحمله؟ أنا؟

قال علي:

- سأعود لأنقله.

ومضى يجر العربة. كان بعض الأطفال يدفعونها من الخلف. لقد وجدوا الفرصة لتمضية بعض الوقت والمزاح. كان علي يتميز غيظاً. ولما توقف وتخلص من العربة فرَّ الأطفال كالأرانب التي أبصرت صياداً. غير أن علياً لم يكن ينوي بهم شراً. لقد توقف فقط ليخلع فردتي حذائه، ليضعها بين قطعتين من الآجر، ثم عاد إلى عربته واستمر يجرها وجسده يتفصد عرقاً. كان يحس بأشعة الشمس تعبث فوق قفاه العاري غير أنه لم يجد القدرة على مقاومة الشمس. أما حماره فقد تركه للأطفال يتلهون بجذب ذيله القصير.

عربة الأطفال الصغيرة

كانت الأشياء قد غاصت في الظلام، ونزل الليل من السماء إلى الأرض ولا أحد يمر في الزقاق الذي يشبه الدهليز. هناك أعمدة النور المنتصبة كمَرَدَةٍ خبيثة تحاول أن تعدم الظلام، وأن تحدّ من توسعه اللعين كالسرطان.

الريح أخذت تهب بعنف، بعض النوافذ التي لم يُحكم إغلاقها جيداً تحدث فرقعة قوية بارتطامها مع الحيطان. الريح تهب ولكن الجو ليس بارداً، إنه دافئ شيئاً ما. ومع ذلك فلا أحد يخطر ولو من بعيد، فكأنما الحرب قد نصبت خيامها، أو الشتاء قد جاء في غير أوانه. إن مثل هذه الأوقات غالباً ما تكون مُربحة، وغالباً ما يكون حظ إبراهيم فيها لا يقل عن حظه طوال النهار، فالمارة لا ينون يخطرون جيئة وذهاباً كأنهم في سوق، ولعلّ هذا السبب هو الذي يجعله يختار هذا الزقاق منذ زمن ليس باليسر. أما هذه الليلة فالأمر يختلف. لا أحد يمر، ولا يطل من النافذة، فكأن العالم غير العالم، ولا تزال الريح تهب بعنف دون أن تحمل معها البرد القارس. وفكر إبراهيم لا بدَّ أن في الأمر شيئاً. مستحيل أن يمر ثلاثة رجال فقط طوال ساعتين كاملتين: «لا بدَّ أن في الأمر شيئاً». ولبث هادئاً صامتاً كشيء من الأشياء. إن الحيرة تأخذ بعقله وتدهشه، والاستغراب يملك عليه ذاته وجميع أفكاره. الضباب هو الآخر بدأ

يتساقط. وفجأة أصبح المكان كأنه سيارة شحن كبيرة تحمل أطناناً من القطن المندوف، فالبياض يعم الضوء مختلطاً بالظلام، وأعمدة الإنارة لم تعد تظهر منها سوى نقطة في الرأس صفراء مضببة. لبث إبراهيم ضائعاً في الضباب لا يريم، ثم شُلَّ مخه لفترة من الوقت. وإذ مرت أقدام من بعيد وهي تصطدم بالطوار مراراً استعاد وعيه: «لا بدَّ أن في الأمر شيئاً!». والآن، ما جدوى البقاء هنا؟! وتحسس عربة الأطفال الصغيرة التي ترقد إلى جانبه كقطة أليفة، ثم تحسس قطعة الجلد المشدودة إلى مؤخرته التي تنغرس فيها عظام هي كل ما بقي له من رجليه، وتحسس طاقيته فوق رأسه كأنه ليس هو، كأن آخَرَ هو الذي يتسول، ويقعد الآن على الرصيف في رأس الزقاق ويتحسس جلدة مؤخرته، أو سرواله المتين على الأصح. ما جدوى البقاء هنا؟ قال لنفسه، ورفع قطعة الورق المقوى التي توجد أمامه وتلمس الأرض علّ قطعاً من النقود تكون قد ضاعت منه، فهو يضع النقود بين قطعة الورق المقوى هذه والأرض. وفي بعض الأحيان تضيع منه فرنكات يكون قد أحصاها منذ استلامها من يد كريمة. وطالما عثر على قطع من النقود في مكانه هذا لدى اختلافه إليه كل يوم في وقت العصر ليبقى حتى يسقط الليل كما هو الشأن الآن. كان قد قرر يوماً أن لا بدَّ من صنع كيس جلدي يستخدمه لجمع النقود، ولكنه استهول الأمر وخشيه، فربما سطا عليه لصّ وخطفه من يده. ولذلك اكتفى بأن يضع كل ما يتصدق به الناس عليه تحت قطعة الورق المقوى التي يجلس عليها، حتى يكون بإمكانه أن يأمن تهور نذل من الأنذال الذين ترميهم المدينة إلى هنا.

لقد أصبح كل شيء ضباباً في ضباب، وأحس إبراهيم بتوتر عضلات جسمه الملتصق بالأرض كجذع شجرة فقد نصفها الأعلى، وطفق يتمدد في حيّزه الضيق، وتزحزح قليلاً. كان يحس بالألم

والضيق، واستغرقه تفكير طويل، حتى إنه لم يأبه للخطوات التي مرت أمامه وهي تدق الأرض كأنها خطوات جندي تعب. لا شكّ أنها كانت لسكير. ولاحظ إبراهيم بعد فترة من الوقت أن الزقاق خاوٍ إلا منه ومن شبح قمامة أزبال تقبع أمامه عن كثب، وفكّر أنه لا يزيد عنها طولاً، بل هي أطول منه. ودار برأسه خاطر غريب، وارتعش له كثيراً، ولعن نفسه لأنه استدعى مثل هذا الخيال، أن يأتي وبش من الأوباش الآن ويحمله إلى تلك القمامة يضعه فيها بعد أن يسرق منه نقوده. وشدّ على عربة الأطفال الصغيرة الراقدة بجواره، وحرّكها إلى الأمام وإلى الخلف ليتأكد من أنها ليست معطلة، وأنها تستطيع أن تقلّه إلى كوخه كما هو المعتاد. ولم يعد أمامه الآن وداخل حفرة الصمت والظلام التي يتردى فيها إلا أن يفكر في كلثوم. كأنها لا تعلم بهذا الضباب الكثيف، وبهذه الريح، وبهذا البرد الذي بدأ يحتدُّ شيئاً فشيئاً. لقد تأخرتِ يا كلثوم. هل تظنين أن هناك شخصاً آخر سيدفع بي العربة إذا لم تقدمي الآن؟

لبث يتفرس ويحدق علّه يتبيّن معالم ما يقبع أو يخطر أمامه، ولكن عبثاً. فأعمدة الإنارة لم تعد تضيء حتى عن نفسها، وخطر له أن يزحف قليلاً معتمداً على يديه، ومضى يدفع عربته الصغيرة بجسده حتى وصل أخيراً إلى عمود الإنارة حيث كان الظلام يخف نسبياً. وأخذ يتنفس كأنه صعد جبلاً عالياً. الآن يمكنني أن أراقب شبح كلثوم. كان الزقاق لا يزال غارقاً في صمته. ليس هناك مارة وليس هناك دراجات. بعض الأطفال فقط: يقفزون هناك بعيداً ويتصايحون. لو كنت مثلهم لذهبت إلى فراشي، واستمتعت بالدفء والراحة والنوم. أيها الأشقياء الصغار، إنكم تبحثون عن التعب بأي ثمن. لقد ضاع الأمل في قدوم كلثوم الآن، لو كانت هذه هي المرة الأولى التي تتأخر فيها لما صدق أنها لن تجيء، ولكنها مراراً تركته

في الزقاق ينام متوسداً عربته الصغيرة. في المرة الأخيرة التي حدث له فيها هذا، عندما استيقظ في الفجر، وجد نفسه مرمياً على وسط الطريق بلا نقود. الليلة لن تتكرر المأساة، ولكن كيف؟ لم يفكر كثيراً. فجأة بدأ يصرخ بالأطفال الذين يمرقون أمامه ويقفزون هنا وهناك.

- من أراد منكم أن يربح ثلاثين فرنكاً؟

قالوا بصوت واحد:

- أنا.. أنا.. أنا..

- طيب. سيكون ذلك مقابل عمل يقدمه لي.

قال أحدهم:

- أنا مستعد.

- أنت لا تستطيع. أنت لا تزال صغيراً، أريد هذا الكبير.

قال أكبرهم:

- أنا؟؟

- نعم.

- ثلاثون فرنكاً قليلة جداً.

- ولكن لم تعرف بعد ما هي الخدمة التي ستقدمها لي؟

- أعرف ذلك. ولكن الليل متأخر جداً. إن عمل الليل غير عمل النهار.

- سأعطيك خمسة وثلاثين.

- لا. أربعين.

- أنت أحمق، يمكنني أن آخذ سيارة أجرة.

- سيارة أجرة؟ فهمت. الآن تريد أن أدفع بك العربة.

- نعم.

- خمسون فرنكاً.

- يمكنني أن آخذ سيارة أجرة.

- خُذها إذن، هيا بنا.

ومضى الأطفال يركضون. وإذ خشي أن يدخلوا بيوتهم ليناموا، صاح بهم مرة أخرى. وقبل عن مضض دفع الخمسين فرنكاً رغم أن رصيده اليوم لم يكن مرتفعاً. وبمساعدة الأطفال صعد إلى العربة، واستوى فوقها مثل كيس مليء بالبطاطس.

- هل أرافقك يا علي؟

قال طفل لصديقه الذي أجاب للتو:

- تدفعه معي، هل توافق؟

- نعم.

ومضيا يدفعانه وهو يهتز فوق العربة الصغيرة لا يملك من نفسه شيئاً.

كان مرمياً في زاوية من الكوخ وعيناه تبحلقان وتدوران كعيني الحرباء. وأخيراً قرر أن يتحرك.. فتحرك. ثم توقف وسط الكوخ وأخذ يفرك عينيه وجبهته ووجهه جميعاً. وزحف إلى برادة الماء وملأ علبة مربى تقوم لديه بمثابة الإناء. وشرب منها حتى ارتوى، ثم غسل وجهه ويديه. وتراجع إلى الوراء حيث توجد كومة من الخرق البالية، وبعثرها ليخرج منها على الفور كسراً من الخبز، وأخذ يقضمه كحيوان أليف لا يتكلم ولا يتعاطف. ولبث جامداً هادئاً في مكانه، فقد كانت يداه تتحركان وفكاه تمضغان. مضى عليه كثير من الوقت وهو هكذا، دمدم أخيراً: إنها تأخرت هذا الصباح أيضاً. وأحس أنه لا يتأسف لغيابها كما تأسف البارحة. ليس هناك لصوص يسرقونني الآن. أنا في الكوخ ولست في الشارع، والوقت نهار وليس ليلاً، وقطع النقود مخبأة ولن يعرفها أحد سواي. أمس كانت العربة هي المشكل، أما الآن فالأمر مختلف. يمكنني أن أتركها في

الكوخ وأزحف حتى أصل إلى الزقاق. ولكن إذا سقط المطر وتبللت الأرض وتجمّعت المياه على سطحها؟ إن الفصل ليس شتاءً، ولكن هذا الجو يحتمل أن ينذر بسقوط المطر. إنه ليس بارداً ولكن من المحتمل أن ينزل المطر ولذلك فالحاجة ماسة إلى العربة الصغيرة، والحاجة ماسة إلى من يدفعها، وكلثوم لم تجيء كعهدها كل صباح لتهيِّئ لنا الغذاء في انتظار الزوال لنأخذ الطريق إلى الزقاق.

ومضى يزحف على مؤخرته، معتمداً على يديه، وغادر كوخه. وفي الباب وجد أن الجو ملائم شيئاً ما، وأنه لا ينذر بسقوط المطر كما توهم. وقرر أن يذهب إلى حمادي ليسأله فيمَ إذا كان هذا الأخير قد رأى كلثوماً تخطر من هنا أمس أو اليوم. كان يزحف، وخلفه خط طويل مرسوم فوق التراب يمتد كأنه لكلب. وفكر أنه في حاجة إلى أن يشرب كأساً منعنعاً من الشاي، وطمأن نفسه على أنه سيبتاع رطلاً من السكر من حمادي، أما الشاي فلديه في كوخه ما يكفيه ليومين أو ثلاثة. «حمادي لا يوجد والدّكان مقفل. يمكن أنه لم يستيقظ مبكراً هذا الصباح». وقفل إبراهيم إلى كوخه راجعاً. كان يتأمل الخط الذي تركه خلفه قبل لحظة: «كأنني محراث». قال لنفسه، ثم أضاف: «أو كأنني قطار». ولما وجد نفسه أمام كوخه التفت وأخذ يتأمل خطين شبه متوازيين رسم أحدهما عند الذهاب والآخر عند الإياب، وابتسم في جذل مشوب بالأسى: «كأنني قطار». وانتظر حتى الزوال. لكن كلثوم لم تجيء. ولذلك كان قد قرر أن يزحف من كوخه حتى الزقاق، لكن المشكل الذي ألح عليه قبل أن تغيب شمس النهار هو: أينصرف أم ينتظر كلثوماً؟ وحتى لو جاءت ماذا عساها أن تفعل؟ هل تدفع العربة؟ إن العربة ليست معي. هل تحمله على ظهرها؟ هذا شيء يستحيل.

الظلام والضباب أخذا يسودان، وبدت الليلة كسابقتها. ورغم

أن إبراهيم اهتدى إلى أنه ليس في حاجة إلى كلثوم ما دامت العربة ليست معه الليلة، رغم ذلك، فقد شعر بوازع الانتظار ولو قليلاً. لماذا؟ إنه لا يعرف، فربما تجيء كلثوم ويترافقان معاً في الطريق، ثم يؤنّبها على غيابها، ويقول لها كلاماً كثيراً.

وانتظر إبراهيم ولكن عبثاً. كانت الليلة كسابقتها والزقاق ليس به سابلة والضباب يغلف الضوء والأبنية. ولم يكن يحس قلقاً، وقرر أن يزحف ولو قليلاً حتى يبلغ محطة الأوتوبيس. ولأن الليل كان لا يزال في عزّ شبابه، فقد ظن أن شركات الأوتوبيسات لا تزال تشتغل حتى هذه الساعة. وفي المحطة بدأ انتظاره الذي لم ينتهِ، وحاول أن ينهيه، فنادى على سيارة أجرة مرت أمامه. وفي كثير الاشمئزاز كان سائق السيارة يحمله بين ذراعيه كحقيبة ويرميه إلى الداخل.

وعندما توقفت السيارة قرب كوخه أقسم إبراهيم للسائق أنه لا يملك قيراطاً فتركه هذا الأخير وهو يلعن، وأخرج رأسه وبصق عليه ودمدم كالرعد بكلمات بذيئة. وشعر إبراهيم لذلك بكثير من الارتياح، فتحمل اللعنات فهي أحسن على كل حال من إنفاقه كذا من الفرنكات. وخطر له خاطر. لماذا لا يختار شخصاً آخر غير كلثوم يدفع به العربة؟ ألم يعد في الدنيا بشر؟ وأجاب نفسه: هناك بشر. نعم، لا يزال في الدنيا بشر. ولكن كلثوم ليست مهمتها فقط دفع عربة الأطفال الصغيرة. إنها تعطيه الليالي الدفيئة وتنام معه بلا مقابل. «هذا حسن»، قال لنفسه، «ولكنها تتغيب طويلاً». ثم فكّر أخيراً: هناك أحمد، ابنه لا يذهب إلى المدرسة ولا يعمل شيئاً، لماذا لا أذهب إليه وأحدّثه في شأن ابنه ليدفع بي العربة مرتين في اليوم وأقرضه أجره؟! إنها فكرة حسنة، أليس كذلك؟ ولكن إذا جاءت كلثوم؟ لتجيء. ستكون مهمتها النوم فقط. إن هذه المرأة المشردة تحب النوم كثيراً. سننام حتى نشبع.

وذهب إبراهيم إلى أحمد ليحدثه في شأن ابنه حيث لم يكن كوخاهما يبعدان من بعضهما، واتفقا أخيراً.

وفي صباح اليوم التالي كانت كلثوم قد عادت من غيبتها التي استغرقت يومين كاملين. لم يكن لها بيت، ومع ذلك كانت تغيب مدة طويلة لتختلف إلى هذا الكوخ في آخر الأمر. ولم يسألها إبراهيم عن سرِّ غيابها هذين اليومين، فالسؤال والجواب أصبحا معتادين جداً. كل ما هنالك أنه أخبرها بأنها ستنام معه فقط، ولن تدفع به العربة بعد اليوم.

وقالت له: «لماذا لا نتزوج؟». أما هو فقد ضحك من الأعماق ولم يجب إجابة شافية.

وفي الزوال عندما آن موعد ذهاب إبراهيم إلى الزقاق الذي يتسول فيه لم يأتِ ابن أحمد ليدفع به العربة، ويبدو أنهما نسيا هذا الفتى بدورهما. فقد قامت كلثوم بمساعدة إبراهيم على الصعود إلى العربة دون أن يتحدث أحدهما في شأنه، ومضت تدفعها به كالمعتاد بعد أن أقفلت باب الكوخ. وفي الطريق كانا صامتين لا يتكلمان. فقط عربة الأطفال الصغيرة كانت تئن.

جريمة أخلاقية

على الطوار المستطيل الشكل، كانت أشجار الساج منتصبة على بعد أمتار معدودات، وكانت كل شجرة تقف وسط دائرة من الحجر الصلب. كانت أوراق الأشجار صفراء متجمدة، منكمشة على نفسها. تساقط بعضها وبقي البعض معلقاً في الفضاء كأنه شجرة اصطناعية خلف واجهة من واجهات نيويورك.

وعلى جذع شجرة اتكأ أميركي أسود لا يبالي بالناس، كان يلوك شيئاً في فمه ويداه في جيبي سرواله. وكانت نظراته تمسح بهدوء ولا مبالاة كل ما أمامه. لقد ترك القاعدة الجوية الليلة، وها هو الآن يفكر في الحصول على امرأة تدفئه، وتؤنسه وتشعره بأنه موجود، كهذه الشجرة، كهذا الغصن، كهذا الطوار.

«. . . سميث قال لي إنه يمكنني الحصول بسهولة على امرأة إذا ما رغبت في ذلك. وسميث البارحة فقط قال لي إنه استطاع أن يتمتع بأجمل امرأة على وجه العالم. وسميث قال لي. . سميث قال لي. . إلخ. . إلخ».

ولم يغيّر من وضعه، وبحركة باردة وضع سيجارة في فمه، وبحركة باردة كذلك أشعل السيجارة وأخذ يدخن. «لو أن ماجي تزوجتني لقدمت معي إلى هنا، ولما حاولت أن أقدم على جريمة زنى». «آه أيها السيد المسيح. لا تزنِ. وها أنذا أفعل على الرغم

مني». إن ماجي شرسة به. وكان الدخان يخرج من بين شفتيه الكبيرتين ويمسح أنفه وجبهته لكي يتلاشى أخيراً في الفضاء. كان لا ينتبه للناس وهم يخطرون قدامه، ولكنه انتبه إلى ضابط أميركي وهو يمسك بذراع امرأته ويدفع طفله إلى الأمام برفقٍ تام. إنه يعرفه. لا إنه لا يعرفه. وكان حذاؤه يغوص في التراب عند أسفل الجذع، واستمر يدفع الحذاء في التراب بعصبية وانفعال، وانتزع من بين شفتيه السيجارة، ورمى عقبها تحت قدميه.

لم يكن مسروراً ولا راضياً عن نفسه. كان جسمه يبدو ثقيلاً ومفككاً، وكان ينتابه شعور غامض يضايقه. إن حالته ليست سوية. «إن أصدقائي في شيكاغو الآن يمرحون. لا شكّ أن وليم الآن وهنري على فاصل أحد المقاهي. ترى هل يذكراني؟ عفواً.. عفواً. ربما هنا الآن على متن طائرة متجهة إلى فيتنام».

كانت موسيقى أليفة تنبعث من مقهى قريب. لا شكّ أن إنساناً له ذوق هو الذي طلب هذه الأغنية. ولم يعر المغربي أي اهتمام. كانت كلمات هذه الأخير تنبعث من حلقومه مليئة بالغضب والألم والجوع إلى شيء ما، وكانت كلمة تشنّج تذوب في الضجيج الذي يملأ رأس الأميركي الأسود. واستمر الشاب المغربي الذي يلبس جلباباً صوفياً في إلحاحه غير أن الأميركي دفعه بوهن، ثم بقوة. ولكنه مع ذلك لم يردّ على شتائم الشاب المغربي «الأوباش كثيرون. ماذا يظن هذا المغربي الوقح. هل أنا أملك أموال فورد؟». وبلع ريقه باشمئزاز. ثم وهو يحك جنبه «إن العالم اليوم بدأ يتغير. أصبح يتخذ له شكلاً آخر». ودخل إلى قلب المقهى القريب عن يمينه، ثم استوى أخيراً على أحد الكراسي وهو شارد. كان يفكر في لا شيء بل في أشياء كثيرة لا تعني شيئاً.

قال لها:

- ما اسمك؟

- خديجة.

- وزميلتك؟

- حبيبة.

(وكانت الفتاتان قبيحتين).

قال لخديجة:

- أنت جميلة.

فردّت (وفي أعماقها شيء من الزهو):

- حقاً؟!

- ألا تصدقين؟

- لست أدري.

(وكانت في قرارة نفسها تدري).

- إذن اسألي زميلتك.

قالت حبيبة:

- أنا لا رأي لي.

وكان الأميركي يحتسي جعته بانتصار الآن. لقد استطاع أن يحصل على امرأتين وليست امرأة واحدة فقط. «إن سميث لو رآني الآن لمات من الغيرة. ومع ذلك فهو صديق طيب». وألقى بجرعة وجرعة وجرعة في فمه. كان يشرب نخب كل زملائه الغائبين منهم والحاضرين. والأموات والأحياء. قال لحبيبة:

- لماذا لا تشربين قهوتك؟

- ليست لدي رغبة.

- هل أنت مسرورة؟

- أبداً لا.

وقالت خديجة:

- إنها حزينة. . لأنها فقدت صديقاً لها.

وضحك الأميركي ضحكة شوهها السعال:

- لا بدَّ أنها واجدة صديقاً آخر.

قالت حبيبة:

- إنكما تمزحان.

قالت خديجة:

- ماذا تعنين؟

وقال الأميركي:

- يبدو أنها غاضبة علينا.

وقدَّم لها سيجارة وأمسكتها. ثم وهي تنفث النفثة الأولى أكّدت:

- يبدو أنه يجب أن أنسحب.

قال الأميركي:

- لا داعي لذلك. ستؤنسيننا.

وظلَّ يحملق في عيني حبيبة بينما استغرقها شرود وذهول. ثم حولت نظراتها إلى الظلام في السماء وإلى الأشجار الواقفة بتحدٍّ وزهو.

وكانت خديجة تفكر في أن صيد الليلة ثمين «مهما يكن فهذا الأميركي الأسود حيوان أليف. وهذه الخرقاء ما بالها تملأ السماء بالسحاب؟» وقالت لصديقتها بالعربية:

- لماذا تملئين السماء بالسحاب؟

قالت حبيبة:

- لا بدَّ أن أنسحب. .

- واحدة من اثنتين. إما أن تنسحبي، وإما أن تلبسي وجه الفرح.

- ماذا تعنين؟

- لا شيء. يجب أن تفهمي.

قال الأميركي:

- ماذا تقولانه؟ أنا لا أفهم شيئاً.

ولم تردّا عليه بل استمرت خديجة تحدث صديقتها:

- أنت الليلة..

ولم تكمل. واكتفت بأن تتكئ على كفّ الأميركي وهي تمسح شعرها المخشوشن بذقنه.

وقالت حبيبة:

- ألا ننهض؟

وقال الأميركي:

- قليلاً وننهض.

توقفت سيارة الشرطة عند الرصيف، ونزل منها شرطيان أحدهما يقوم بدور السائق والآخر بدور المساعد. كانت قامتاهما فارعتين فكأنهما وافدان من وكالة خصيصاً لممارسة هذه المهنة. قال أولهما:

- ما أفظع أن نبحث في المقاهي كالكلاب!

قال الثاني:

- يجب أن نعمل. ماذا نفعل إذا بقينا في المركز؟ لا شيء.

- إن عمل الليل متعب للغاية.

- أف. إذا بلغت أسنانك أذنك فلتقضمهما.

ودخل أحدهما المقهى، بينما بقي الآخر يشدُّ فردة حذائه اليمنى، ثم سرعان ما التحق به.

قال الأول وهو يلمس قبعته التي لم ينزعها:

- هويتكما؟

قالت خديجة:

- أرجوك.

بينما لبثت حبيبة والأميركي واجمين.

- هات بطاقة التعريف..

- ليست معي.

- وأنت؟

- وأنا أيضاً.

- هيا إلى المركز.

انسحب الشرطي الثاني كأن الأمر لا يعنيه، وانشغل بمراقبة الجرسون الذي كان يمسح عن ثيابه بقايا قهوة اندلقت عليه. ثم وهو يلتفت إلى صديقه:

- يجب أن نأخذهما إلى المركز.

- هيا إلى المركز.

ووقفت الفتاتان وهما متداخلتان في بعضهما، ثم لبثت كل واحدة منهما تنتظر إشارة ثانية تغفر لهما تقصيرهما في ممارسة الأخلاق العامة. غير أن الشرطي زمجر فيهما:

- هيا تقدما.

وكان الجرسون الذي انتهى من مسح سرواله واقفاً يتأمل هذا المنظر، فدفعه الشرطي بيده. وسارت الفتاتان مطأطأتي الرأس. ولم يكن على إفريز المقهى أي زبون.

لبث الأميركي لا يتحرك، وأكّد لنفسه أنه ليس محظوظاً على كل حال. «إنها ليلة ضائعة كسابقاتها. ماذا أقول لسميث؟ هل أقول إنني عانقت امرأة بيضاء لا مثيل لها طوال ليلة أمس... امرأة جميلة جداً».

وقال للجرسون:

- مجموع حسابك؟

- ثلاثة دراهم.

وهو يدفع الحساب:

- ما هذا؟ ماذا يريدان من المسكينتين؟

قال الجرسون:

- ماذا نستطيع أن نفعل من أجلهما؟

ومضى إلى حال سبيله. كان يسمع خارج المقهى أحداً يناديه، بينما بقي الأميركي يردد مع نفسه «ماذا نستطيع أن نفعل من أجلهما. ماذا نستطيع أن نفعل من أجلهما.. بل ماذا نستطيع أن نفعل من أجلي أنا..؟» وتحامل على نفسه، وزحزح الكرسي إلى الخلف، ثم مضى متثاقلاً وقد وضع إحدى يديه في جيبه. وقبل أن يغادر المقهى التفت للمرة الأخيرة. كان صاحب المقهى خلف الآلة الحاسبة ينظر إليه بفتور ورأسه على أحد كتفيه.

مملكة صغيرة

كان الجبل سامقاً شامخاً على اليمين، وعلى اليسار جبل آخر أقل منه علواً وشموخاً وأكثر انبساطاً، ما سمح للأكواخ والدور المبنية من التراب والطين أن تكون أكثر التحاماً ببعضها. في حين كانت البيوت الأخرى معلقة ومتفرقة على ظهر الجبل الأول على اليمين. لكن خضرة الوادي في الأسفل هي التي تجمع بين الجبلين، فسكان قُرى الجبلين استطاعوا منذ زمان أن يجعلوا من هذا الوادي مُلكاً مشتركاً. وقد ساعد هذا الوادي على المصاهرة. لقد تزوج تكرموس من فطوش، كما تزوج ابنه حدو رئيس الجماعة القروية في الجبل الثاني من عائلة بهوش في الجبل الأول. فالعلاقة بين الجبلين قديمة وطّدها الوادي الأخضر. هناك قبائل أخرى مجاورة تنشب بينها مشادات، وقد يرجع الخلاف بينها إلى سنوات طويلة، لا تحلها سوى السلطة المخزنية، عندما تتدخل في الوقت المناسب. لكن قبائل الجبلين تجنبت مثل تلك الحزازات والخلافات. وعندما نسمع عن مناوشات بين بعض القبائل الجبلية الأخرى المجاورة، أو حتى في السهول والأودية أحياناً، فإننا لا نسمع أي شيء يوحي بالضغينة بين قبائل هذا الجبل أو ذاك. لقد حصل ذلك قديماً. وتَكرَّر مراراً في العصور القديمة، وتحيّزت تلك القبائل لهذه الدولة أو تلك، كما تحيّزت لهذا الملك أو ذاك. لكن عندما تمّت المصاهرة بين عائلات

قبائل الجبلين أصبح الوادي جنة حقيقية. كانت الأشجار شبه ميتة، وكانت النباتات هي الأخرى تموت لتترك لبذورها فرصة أن تستعيد الحياة في وادٍ كان مهملاً بين جبلين. إلا أن الوادي لم يعد مهملاً كما كان في السابق. فقد نزلت الفؤوس والمعاول عليه، وتبعتها أيادي النساء والرجال والصبية الصغار، ولم تعد الأشجار شبه ميتة. وأصبحت البذرة تعرف لها مكاناً في الأرض، مكاناً معيّناً ترعاه يد الإنسان. تعاقبت الدول وتعاقب الملوك وتعاقبت الأجيال، لكن الوادي يزهر ويخضر كلما شملته إرادة الإنسان، ثم تذبل أشجاره ونباتاته لكي تستعيد حياة الطبيعة العادية عندما تهوي عليه الفؤوس والمعاول. لا يمكننا أن نعرف الدافع الرئيسي بالضبط الذي يجعل كل أفراد القبائل تنزل إلى الوادي كي تعيد إليه الحياة عندما تغضب الأرض أو السماء. ومن المحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى رابطة الدم وأحياناً يبدو أن لدم الإنسان ارتباطاً بالطبيعة نفسها. وقد لا نجد له تفسيراً خفياً، عندما نلاحظ أن قبائل الجبلين تغادر بيوتها المعلقة أو المتلاحمة وتنزل إلى الوادي بمعاولها وفؤوسها ونسائها وأطفالها ينبشون هنا وهناك. وعندما تمر فترة من الوقت، تزهر الأشجار وتتفتح البراعم وتنضج الثمار والفواكه، ويتحدّى الإنسان الطبيعة. وعندما يستعيد الوادي خضرته تكثر الأعراس وحفلات الخطوبة بين قبائل الجبلين. أما المهور فلا تتم نقداً، وإنما تتم بالأنعام والأغنام والماعز، وغالباً ما تنتقل تلك الحفلات من البيوت الضيقة أو الفسيحة في نهاية الليل إلى أسفل الجبلين في الوادي الأخضر بين الأشجار على ضفتي النهر الصغير الذي ركبت فوقه قنطرتان خشبيتان. ورغم أن النهر يجف أحياناً إلا أن الوادي يظل دائماً مخضراً وفي أغلب الأوقات. فسكان قبائل الجبلين يعرفون كيف يستحلبون الأرض ويجلبون منها الماء. لكن شيئاً واحداً

يقهرهم، ولا يستطيعون له ردّاً. فالخنازير البرية تهاجمهم أحياناً وتعيث فساداً في كل شيء، ولا يمكن قتلها لأن السلطة تعاقب كل من قتل خنزيراً. وقد قدَّم رئيس الجماعة القروية شكايات باسم السكان لكل الدوائر العليا لكن من دون جدوى، لأن القانون هو القانون، وبعض الحيوانات يجب ألا تنقرض في المملكة حتى لو انقرض الإنسان رحمة الله عليه. آمين! تروي الأساطير أن الوادي والقُرى المحيطة به، التي تختلف تركيبتها الاجتماعية عن باقي قُرى جبال الأطلس الصغير، كانت تابعة في زمن غابر لسلطة امرأة بربرية جعلت من نفسها ملكة متحدية بذلك السلطة المركزية في فاس. ولم يستطع الملك أن يفرض سلطته عليها رغم محاصرته لها، فقد كان للملكة اكتفاء ذاتي. لم تكن في حاجة إلى استيراد أي شيء من خارج الحدود. فالأرض أرضها والماء ماؤها والسماء سماؤها. ولذلك عرف سكان قُرى الوادي بالأنفة والقناعة والموت من أجل الكرامة. وإذا لم يستطيعوا قتل خنزير بري واحد، فليس معنى ذلك أنهم جبناء، ولكنه احترام للقانون، واحترام القانون هو نوع من الأَنَفة، وذات يوم من عام 1974 عُيّن قائد جديد على المنطقة، ولم يكن يعرف جيداً أنه يحكم مملكة صغيرة لها قواعد عيش خاصة، وتلك أخطاء غالباً لا صلة لهم بها ولا يعرفون عنها شيئاً، بل يحملون صوراً تقريبية عنها، كما يحملون فكرة القانون فوق الجميع. وبما أن القانون فوق الجميع وفوق الرؤوس، إلا أنه أحياناً يصبح تحت الأقدام وتحت الجزمات. وهكذا فقد قام القائد الجديد بجلد امرأة عجوز في السوق لأنها عنّفته في الجواب. لكن شاباً تمكن منه فطعنه بسكين وتركه مضرجاً في دمائه إلى أن لفظ أنفاسه، لكن رصاصة قاتلة أردت الشاب إلى جانب القائد الجديد. غير أن القُرى أقامت حفلات دينية ودنيوية وفاءً للأنفة والذكرى. لم يحزن أحد

ولم يبكِ أحد. قد لا يقتل خنزير هنا، ولكن قد يقتل بشر هناك حتى لو كان قائداً، فقوانين أسطورة المملكة الصغيرة مقدسة ولا يمكن خرقها بأي شكال من الأشكال. وللخنازير الوحشية أن تفعل ما تشاء، غير أنه غير مسموح لأي خنزير بشري أن يفعل الشيء نفسه حتى لو كان واحداً من سكان القبائل. فالعرف هو العرف، والموت مكتوب على الجميع، والدوام للّه سبحانه عزّ وجلّ. لكن قوانين المملكة الصغيرة يجب أن تتغير، فكل نظام قوي عليه أن يعرف أن هناك نظاماً أقوى منه. وعندما وقعت حادثة القائد الجديد مع العجوز والشاب صاحب الأَنَفة في الوادي الأخضر، نزلت قوات غريبة مدججة بالأسلحة في تلك الليلة من ذلك اليوم. إلا أنني لا أعرف ما حصل فيما بعد في تلك المملكة الصغيرة. هل قتل أحد؟ هل اعتقل أحد؟ كان الظلام سائداً ولم أستطع أن أتبيّن أي شيء. ومن الأفضل ألا أعرف شيئاً لأن على الإنسان أن يكنس باب داره قبل أن يكنس باب دار جاره.

مظاهرة

دفعه الشرطي من الخلف داخل الزنزانة بقوة وعنف كبيرين، وأحكم إقفال الباب لأنه متأكد من أن هذا الشخص سيهرب لا محالة. وفجأة وجد علي نفسه داخل غرفة شبه مظلمة، لا شكّ أنها كانت تحت الأرض. رائحتها النفاذة الكريهة تملأ منخاريه، وكان يتنفس بصعوبة وسرعة معاً. هناك كوة تطل على لا شيء ومساحتها تتسع لوجه متوسط. زاغت عيناه فيما حواليه. أبصر كُوَماً هادئة ترقد في اطمئنان آمن ومرعب، وبحث بلا جدوى عن كرسي - ربما -؛ غير أنه لم يكن هناك سوى الإسفلت ذي الصوت الأصم. وتحرّك في داخل الزنزانة كأنه عملاق أسطوري في أحد الدهاليز التاريخية. لم تكن قدماه تحدثان أي صوت على الإطلاق. في النهاية أتاه صوت بئيس، يبدو أنه طابور من الأحزان:

- هيا تفضل (وكان الصوت واهناً مع ذلك).

الكومة هي التي ألقت بهذه النبرة إلى أذنيه، ووجد عليٌّ نفسه غير قادر الآن على التحدث مع أي شخص. إنه في حالة نفسية متوتّرة للغاية. وبينما يتحدث الشخص الأول لبث الثاني لا يتحرك. اتجه عليّ صوب هذا السجين الثاني ليجد مكاناً بالقرب منه، فانزلقت قدمه في مادة عَرفَ فيما بعد أنها قيء. أحس كأنه في منطقة خالية من الهواء، وأن وزنه قد خفَّ تماماً إن لم يكن قد انعدم،

وشعر بأن ذراعيه ارتختا. وفي الأخير ارتمى على الأرض الباردة دون أن يهتم بعد ذلك لسترته المكوية بإتقان، ووجد أن لهذه الأرض ميزة على الأقل، إنها باردة، بينما في الخارج، خلف هذه الظلال، خلف هذه الجدران، حيث الشارع يحتضن مئات المتظاهرين، يشتدُّ القيظ وتتعدى درجة الحرارة الأربعين.

كان قد استرخى كلية ومدّ ساقيه في الفضاء. وشعر أنه مع ذلك أكثر حرية الآن. ومرّ خلف الكوة التي تشرف على التابلوه القاتم وجه ميّز عليّ تعرجاته ومنخفضاته. ثم مرّ وجه آخر فآخر. إذ ذاك فقط قال له الرجل الملقى باطمئنان آمن:

- هو ذا شخص آخر.

ويبدو أنه تعلم ذلك بالخبرة.. لا شكّ أن له أسبوعين هنا في هذه الزنزانة أو ثلاثة. وفجأة رمى الشرطي بشخصين آخرين فسقط أحدهما على ساق عليّ، فاستجاب هذا الأخير بسرعة. وكردّ فعل، حرَّك ساقيه واستعاد وعيه. وقف فجأة كالملسوع، وبدأ يدور على نفسه كالخذروف، وفكّر أنهم الآن خمسة أشخاص في الزنزانة وربما سيكبر هذا العدد إذا ما اشتدّت حملة الاعتقالات.

كان يعتقد أن المتظاهرين لا يزالون يعاندون رغم الحرارة المفرطة. فقد كانت أصوات الجماهير لا تزال تطن في رأسه عميقة وبعيدة، وذات دلالة. كان الشخص الذي دخل مع رفيقه للحظة لا يزال واقفاً مشدوهاً. فقد كان يضرب يديه بين الفينة والفينة الواحدة بالأخرى. عيناه كانتا تلمعان، بحيث أن بؤبؤيه يكادان يخرجان من خلف نظارتيه الطبيتين. ورفع رأسه، ثم عرَّض وجهه للضوء الخافت جداً. فتبيَّن لعليّ أن هذا الوجه سبق له أن رآه، وانطلقت عبارة مريرة وأليمة:

- سنظل نقاوم، سنظل ندافع، هنا وهناك.

غير أن أحداً من المعتقلين لم يجد في نفسه الرغبة للردّ على هذه العبارة. واستمر الصوت نفسه يندد:

- نحن دولة عربية، نحن لسنا دولة يهود. إن من حقنا أن نتظاهر.

كان صاحب الصوت جالساً.. فانتفض كالديك، واتجه صوب الباب الحديدية ذي الكوة المربعة. بينما جلس أحد الواقفين الآخرين. وضرب صاحب الصوت الباب بقدمه، فأحدث ذلك رجّة قوية ومدوية هزّت الزنزانة، وربما المركز بأكمله. كان يعتقد أن في هذا الفعل احتجاجاً وإعلاناً عن رغبة في التحدي. وما زال صاحب الصوت واقفاً قرب الباب وهو يلفظ أقسى العبارات حتى أطل شرطي بوجهه المستدير، خلف الكوة، معلناً غضبه. غير أن الشاب ذا الصوت النحاسي بصق في وجهه من خلال الكوة المربعة، فازداد غضب الشرطي. وبعد لحظة فتح شرطيان الباب، وصفعه أحدهما حتى استلقى، ثم جرّاه إلى الخارج، وأقفلا الباب. وارتفع لغط الثلاثة في الزنزانة. وكان الشخص الذي وجده عليّ مكوماً لا يزال كذلك وكأن الأمر لم يكن يعنيه. غير أن صديقه الثاني أعلن بوضوح:

- ماذا ينتظر ذلك الشاب المتهور منهما؟ إنهما لا شكّ سيعذبانه حتى الموت.

وقال عليّ بعد حركات في الهواء غاضبة:

- إنهم يهود.. إنهم ليسوا عرباً. إنهم يعتقدون أن فلسطين لليهود. قال الشخص الثاني ببرود:

- عملاء الإمبريالية..

ثم بهياج:

- سنبقى نقاتل ونقاتل.

كان عليّ إذ ذاك لا يزال يستمع إلى طنين في رأسه. . أصوات المتظاهرين كانت تأتيه من بعيد. وتمنى لو أنه لا يزال الآن وسط الجماهير الهادرة، لكي يقذف أعوان الخونة والإمبرياليين بالحجر على الأقل. وخلف الكوة، مرّ وجه ووجه. وفي لحظة وجيزة كان الباب قد فُتح، وتزاحمت أجسام كثيرة كانت تكون مع ذلك كتلة واحدة صامدة. وبدأت أفواج المعتقلين ترتمي داخل الزنزانة. هناك قوة خارقة تدفعها من الخلف وبعض الهراوات أجمعين، ويحرر كل المعتقلين لينطلق معهم إلى الشارع مرة أخرى ليتظاهر كيفما يحلو له وليعبِّر عن رأيه كمواطن عربي، أو على الأقل كإنسان. لكن والأمر هكذا فما إمكانه أن يفعل؟ لا شيء، ولا شيء على الإطلاق. الزنزانة امتلأت الآن عن آخرها وربما يأخذون باقي المعتقلين - إن كان هناك معتقلون آخرون - إلى زنزانة أخرى. كان هناك لغط قوي يرتفع. . أصوات ذات بحّة متشابهة تقريباً تندد بالرجعية، ورؤوس تطل من وراء الكوة وتلعن وتبصق، وفكر عليّ: لا شكّ أن جميع المتظاهرين سيعتقلون الآن. ودار في خلده أيضاً من هنا سوف نتطلق. . . إن الفكرة سوف تكون أقوى من السلاح والإرهاب.

ودار حول نفسه، فوجد في أعين هذه الجموع الهادرة تصميماً وعزماً قويين. «هذا هو سلاحنا. . الخونة!! الخونة!!».

وارتفع صوت وسط الزنزانة يندد ويشتم، فتبعته أصوات وأصوات وصارت الزنزانة كورالاً في مسرحية بطولية. وأطلَّ خلف الكوة وجه شرطي، فبصق عليه أحد الأشخاص. غير أن الشرطي هذه المرة لم يستطع أن يفتح الباب ليجر الشخص المعيّن إلى حيث ذهب رفيقه قبل لحظات. كان عليّ يتأمل هذا المشهد بتأثر، وبينما الأصوات من حوله تتعالى. وأحس أنه لا بدَّ أن يردد الشعار الذي بدأ يملأ جو الزنزانة. وأيقن في ذلك بطولة وإخلاصاً لعاصفة

الجماهير الهادرة. وفتح الباب.. فتحرك المعتقلون يرجون الانطلاق إلى الفضاء الرحب. غير أن قوات صدتهم إلى الخلف. ومن الوراء، هناك على بُعد مترين تماماً كان ضابط الشرطة يصرخ:

- أنتم مهرجون.. غداً ستُحاكَمون.. أنتم تخلّون بالأمن.

فارتفع اللغط، وازداد السب والشتم.. وصرخ شاب في وجه الضابط:

- فلسطين في القلب.. أيها الخونة مهما تفعلون فستبقى فلسطين في القلب.

وبصق عليه.. غير أن البصقة ارتمت قرب حذائه اللامع على الإسفلت. وانتفخت أوداج الضابط، فنادى للتو على شرطيين آخرين جرّا الشاب، ودفعاه إلى حيث لم يعد بالإمكان أن يراه المعتقلون الذين ارتفعت أصواتهم، واختلطت في فضاء الزنزانة الضيق. وفي نفس عليّ بدأت خواطر رهيبة مرعبة تنمو بسرعة وبلا توقع. لو يجري خلف هذا الضابط فيجندله على الأرض ويمزقه إرباً إرباً. وانتفض في داخله هذا الشعور العارم، فمضى يشق طريقه بغضب وصعوبة نحو الباب لكي يحقق حلمه الأول والنهائي. غير أن الشيء الذي لم يتوقعه خلال هياجه، هو هذا الصمود العنيف للباب الحديدي الذي حاولت أيادٍ أخرى أن تحطمه، ولكن عبثاً.

بائعة الورد

1996

بائعة الورد

قتلتها خادمتها. ولأن بائعة الورد كانت عجوزاً فإنها لم تستطع أن تدافع عن نفسها. قبل أن تقتلها الخادمة، أغلقت الباب، وسرقت ما يمكن سرقته. ثم حاولت أن تفر من النافذة إلى نافذة أخرى في الشقة المجاورة في الطابق الثالث إلا أنها سقطت فماتت بدورها، وكان بالقرب منها على الطوار ما كان بالإمكان سرقته.

جاء رجال المطافئ ورجال الشرطة وسيارة الإسعاف طبعاً. أخذوا الجثة التي في الشقة والجثة التي على الطوار. وحملوهما على سيارة واحدة إلى ذلك. المكان الذي قد يشرِّحون فيه الجثث، وإذا كان الأمر لا يحتاج إلى تشريح فإنهم قد يفعلون ذلك. المهم أنهم حملوا الجثتين، إلا أن الناس لم يتفرقوا، ربما لأنهم لم تكن لهم اهتمامات يومية. قال أحد الرجال:

- إن بائعة الورد من أصل سينغالي. وقد كبرت في دير للراهبات. ولذلك فهي لا تتحدث إلا اللغة الفرنسية.

قال آخر:

- لا. إنها تتكلم اللغة العربية وعلى الرغم من أنها سوداء فإنها ليست سينغالية، إن والدتها مغربية من ورزازات. ولدتها بطريقة ما وتركتها لإحدى الراهبات. صحيح أنها أكبر مني سناً لكني سمعت

هذا الكلام. كانت والدتها تشتغل في بيوت الأجانب. ولم يعرف أحد ممن حملت.

وقال آخر:

- إن الزنوج في كل مكان. يشتغلون في البناء وحدائق الفيلات. ولا شكّ أنها حملت من واحد منهم.

في الحقيقة لا يعرف أحد شيئاً عن بائعة الورد. كانت امرأة منطوية على نفسها، أنيقة بشكل لائق. تجر كلبها أيام الآحاد، وتتحدث إليه. كان لها دكان لبيع الأزهار قبالة الكنيسة التي خلت من المصلين ومن الراهب الوحيد الذي كان يسكن في جناح منها، وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويمارس أشياء قبيحة مع بعض الشبان المغاربة، مقابل أن يساعدهم على الحصول على جواز سفر وعقد عمل في فرنسا.

وكانت بائعة الورد السوداء تسكن فوق دكانها في الطابق الثالث وتطل نافذتها على الكنيسة الخالية. وأحياناً يتدلَّى من عنقها صليب في نهايته سلسلة ذهبية، تحاول ما أمكن أن تخفيها، إما خوفاً من السرقة وإما خوفاً من أن ينعتها الناس بالمسيحية. ولم يكن أحد يعرف أنها مسيحية أو مسلمة، لأنها لم تكن تتكلم في هذه الأمور. المهم أنها سوداء وكفى، ولها كلب تفسّحه وتتصدق على المتسولين حتى لو لم يطلبوا منها صدقة. ويبدو أنها كانت تعرف معنى الصدقة، كما تصدَّقت والدتها بها لراهبة، وكما تصدَّق الراهب بجوازات السفر وأشياء أخرى. ويبدو أن باب الكنيسة ليس ضيقاً ولذلك تخرج منه الصدقات. وكان باب بائعة الورد أيضاً مفتوحاً، رغم أنه ضيق. لم يكن مفتوحاً تماماً لكل الناس، إلا أنه كان مفتوحاً لبعض العجائز الأجنبيات من إسبانيات وإيطاليات وفرنسيات، وبعض المغربيات اللواتي كنّ متزوجات بأوروبيين. مات

أزواجهن جميعاً وبقين هنا في هذا الحي. يتزاورن ويغتبن بعضهن بعضاً، وفي أغلب الأحيان يغتبن الخادمات منهن مثلما يتخلصن من ملابسهن الداخلية، خوفاً من مرض وهمي يرافق الشيخوخة عادة. فهنّ يحرصن على النظافة مثلما يحرصن على تغيير الخادمات. والخادمات حريصات كذلك على السرقة، إلا أن بعض المتعوهات يتجرأن على القتل. وهكذا قَتلت الخادمة بائعة الورد، وربما تكون قد سرقتها مراراً قبل أن تقتلها، ماتت بائعة الورد السوداء وماتت الخادمة كذلك، وقبلهما مات أحد الجيران الإسبان الذي كان يشتري منها الورد مرة كل أسبوع. كان في حوالي السبعين من العمر، ولم يتزوج على الإطلاق. كان يشرب طوال النهار، ويمر كل صباح تقريباً على دكان بائعة الورد، يتحدث إليها حوالي نصف الساعة، ولم يفاتحها أبداً فيما إذا كان قد سبق لها الزواج. ولا أحد يفاتحها في ذلك. لكنها كانت تتحدث عن مرحوم، ولم يكن أحد يعرف فيما إذا كان هذا المرحوم صديقها أو زوجها أو أخاها أو أحداً من أقاربها. المهم أن المرحوم كان حاضر في أحاديثها عندما تتحدث النساء عن الرجال، ويبدو أن المرحوم كان أنيقاً ومهذباً، وله مكانة في الدولة، في عهد الاستعمار الفرنسي. كما كان يفهم من حديثها عن المرحوم أنه كان يشرب نوعاً خفيفاً من الشراب ويحب الكلاب ولعبة الكُرة الحديدية، خصوصاً في الأماسي أو أيام الأسبات والآحاد. لم تكن بائعة الورد تحب تغيير الخادمات كثيراً مثل صديقاتها العجائز، بل كانت أحياناً تتناسى حتى بقية مصروف البيت إلا أن الخادمات كنّ ينصرفن بإرادتهن، منهن من كانت تتزوج لتطلق فيما بعد، ومنهن من كانت تختفي نهائياً. ثم إن السجن مفتوح في وجه الجميع. وكذلك مستشفيات الأمراض العقلية، إذا كانت هناك مستشفيات حقاً. وعلى ذكر المستشفيات، فلا أحد يعرف فيما إذا

أخذوا بائعة الورد والخادمة إلى المستشفى أم إلى أماكن أخرى، لكن من المعروف أن هناك مكاناً للتشريح في عين الشق.

وهناك فرنسي يشرف على فلق رؤوس الأموات وتشريح أجسامهم. وهو يسكر باستمرار في حانة الكابتول. يسكر وحيداً كأنه يتذكر كل الجماجم التي فلقها أو الأعضاء التي شرحها وعبث بها. بائعة الورد قُتلت. والخادمة ماتت والمرحوم الآخر مات كذلك. لكنه كان أنيقاً ومهذباً ويحب كذا وكذا. وبطبيعة الحال، فكل الناس كانوا يحبون كذا وكذا، ثم يقتلون أو يموتون، كما قتلت الزنجية وماتت الخادمة. وبكل تأكيد فإنه لا فرق بين أن تموت مقتولاً أو أن تموت ميتة طبيعية. الإنسان ينتهي، لكي يأتي معه إنسان آخر. وعلى سبيل المثال فبائعة الورد سوف يشتري دكانها إنسان آخر، وبيتها سوف يكتريه أو يشتريه إنسان آخر، ولا شكّ أن خادمة أخرى سوف تأتي لتنظيف البيت من جديد، وأن دكان الأزهار سوف يُعاد ترتيبه، وأن أزهاراً أخرى سوف تحل محل الأزهار الأخرى التي كانت تقتنيها البائعة الزنجية.

شيء يذهب وشيء يبقى. وأشياء تحل محل أخرى. وبما أن الورود تذبل، فإن الأرواح كذلك تذبل داخل الأجساد، قد تنتقل تلك الأرواح إلى أجساد أخرى، سواء كانت بيضاء أو سوداء أو صفراء. ماتت الزنجية، كما ماتت الخادمة والمرحوم، والإسباني والآخرون.

لقد ذبلت أرواحهم مثلما تذبل تويجات الأزهار. وعندما تذبل الأزهار والأرواح فإنها تكون قد ضعفت فتموت. لكنها تسعى إلى من يخلفها. ولا أحد يدري فيما إذا كانت الزنجية تبحث عمّن يخلفها. كانت تعيش مع الورد والكلب والكنيسة المهجورة والعجائز وروح المرحوم. هل التقت روحها بروحه؟! لا أحد يعرف. فكل

الناس يتشبثون بالبقاء في هذا العالم. ومن حقهم ذلك لأنهم لا يعرفون ما وراء ذلك الستار. ولو عرفوا ذلك لانتحروا جماعياً هروباً من القتل والمجاعة ونظرات السخرية والاستهزاء. قالت الزنجية بائعة الورد ذات مرة لإحدى صديقاتها.

- آه لو لم تكن لنا عيون وآذان!

أجابت العجوز الإيطالية:

- بالعينين نبصر وبالأذنين نسمع.

وعلّقت مغربية عجوز كانت متزوجة بنمساوي شارك في الحرب العالمية الثانية:

- ولنا أنف كذلك نشم به الرائحة الزكية أو الرائحة العطنة. وأشياء أخرى كذلك.

إلا أن بائعة الورد لم تكن تحاول أن تسمع أو ترى أو تشم حتى عطر أزهارها. كانت صامتة دائماً ولا تتحدث كثيراً. وإذا سمعت كلاماً حتى لو كان يعنيها فإنها لم تكن تعلق عليه. ولربما فهمت الخادمة التي قتلتها بأن صمتها ذاك كان غباء وبلادة. لكنها لم تكن بليدة بالشكل الذي يمكن أن يتصوره الإنسان. فالأزهار المرتبة بطريقة جميلة خلف واجهة دكانها الزجاجية كانت تدل على شخصيتها

لم تكن تحب أن تتحدث كثيراً، وعندما كانت النساء يتحدثن عن الأزواج فإنها كانت فقط تتحدث عن المرحوم المهذب الأنيق، وعن الكلب والأزهار. وما أكثر أسماء الأزهار التي كانت تعرفها. حتى إنها لم تكن تتذكر أسماء صديقاتها بقدر ما كانت تتذكر أسماء الأزهار التي تبيعها. ولم تذكر قط اسم المرحوم. ومرة سمعتها إحدى صديقاتها تنطق باسم بيدرو. قالت تلك العجوز لصديقاتها إن بائعة الورد كانت متزوجة بشخص اسمه بيدرو. وعلقن:

«لا شك أن والدها أسود من إحدى المستعمرات الإسبانية»،
وقالت واحدة:
- من أميركا اللاتينية. أنا زوجي المرحوم ولد في الأندلس لكنه عاش طفولته في الهندوراس. وعندما مات والده عاد إلى إسبانيا والتحق بجيش الروخوس وفرَّ من الحرب وتزوجني وكان اسمه بيدرو، بيدرو كونثاليث.
وقالت واحدة:
- هل كان أسود؟
- لا، أبداً، كان أسمر وكان جميلاً وعيبه الوحيد أنه كان يحب النساء. ومع ذلك، كنت أحبه، رجل شهم لكنه كان يحب النساء. وأعتقد أن أي رجل شهم لا بدَّ أن يحب النساء.
وقالت بائعة الورد ذات مرة قبل وفاتها:
- إن المرحوم كان رجلاً شهماً ولكنه لم يكن يحب النساء كثيراً، كان يحب الشراب الخفيف ولعب الكرة الحديدية واصطياد بعض الخنازير البرية. وظلَّ كذلك حتى قبل أن يموت.
- هل كان زوجك؟
تصمت وتشذب أو ترتب بعض الأزهار، وتنظر من خلال وجهة الدكان إلى بعض المارة القلائل، وتسرح بنظراتها بعيداً وبعيداً جداً، إلى عالم غريب لا تعرفه إلا هي، وقد تنسكب دمعة من تحت نظارتيها الطبيتين. على كل حال، فقد ظل المرحوم مجهولاً بالنسبة إلى كل الفضوليات اللواتي يحاولن أن يعرفن كل شيء عنها. وهكذا، فقد ماتت دون أن يعرف أحد شيئاً عن بيدرو. لا أحد رأى بيدرو أبداً. رغم أنهم يعرفونها منذ زمان، ولم يدخل رجل إلى بيتها على الإطلاق. لقد قالت ذات مرة إنه كان يتقن طبخ لحم الخنزير البري. وكم كان ذلك اللحم لذيذاً عندما يتعلق الأمر بخنوص

وعندما يتفنن بيدرو في طبخه. وعندما ماتت بائعة الورد لم يأتِ أحد من أقاربها لزيارة بيتها، بل لم يدع أحد ذلك. والغريب في الأمر أنه لم يمر حتى رجل أسود أو طفل أسود أو امرأة سوداء قرب دكانها الذي زاره بعد أيام حوالي أربعة أشخاص. فتحوا الدكان الذي ذبلت بعض أزهاره، ثم أنزلوا الشباك الحديدي ووضعوا عليه الأقفال ثم ختموه بالشمع وسجلوا شيئاً في بعض الأوراق وتكلموا قليلاً فيما بينهم ثم انصرفوا. هل تبدأ حياة الإنسان وتنتهي بهذا الشكل؟ هكذا فكّر أحد المدرِّسين الذي كان يسكن في الشارع نفسه، إلا أنه لم يكن له علاقة بالأزهار ولا بالحيوانات. لم يذهب أحد في جنازة بائعة الورد ولا يدري أحد كيف وأين دفنت. المهم أنهم أخذوها في سيارة الإسعاف، وعادوا بعد أيام ليختموا بالشمع. ولا يدري أحد فيما إذا كانت قد دفنت في مقبرة المسلمين أم مقبرة المسيحيين أم مقبرة اليهود. وفكّر المدرس من بعيد: المهم أن الموت واحد. هناك من يُدفن وهناك من يُحرق، وهناك من يذهب إلى بطن الحوت. الموت واحد، ثم مَنْ يبكي مَنْ؟ الذي يبكي الميت اليوم سوف يموت غداً. والذي ترك شيئاً وراءه بعد وفاته سوف يأتي شخص آخر ليمتلكه دون أن يبذل حتى أدنى مجهود: ولذلك قال المدرس في نفسه «لن أترك لوارث إرثاً». لكن ما الذي يستطيع أن يتركه مدرس لا يتقاضى رشوة؟!

كأن شيئاً قد تغيّر في الشارع بعد وفاة الزنجية بائعة الورد. إلا أن دكانها فتح فيما بعد. ربما اشترته امرأة أخرى. كانت ترطن بلهجة أهل فاس. وتنظر إلى السماء كأن الأرض ليست تحت قدميها، تلك الأرض التي قد تدفن تحتها ذات يوم. وقد يُغلق الدكان مرة أخرى ويختم بالشمع إلى حين. تلك هي خاتمتكم جميعاً.

الفيلا المهجورة

لم يكن أحد يعرف من يكونون، إلا أنهم كانوا يسكنون. يدخلون إلى تلك الفيلا من بابها الواسع الذي تتهدل على جوانبه أغصان وأعراش ونباتات غير مشذبة، فكل سكان الفيلات المجاورة يهتمون بتشذيب نباتاتهم وإقامة حفلات ليلية. لكن تلك الفيلات تبدو مهجورة. إلا أنهم يدخلون إليهم رغم ألا أحد يعرف من يكونون. قالت إحدى خادمات الفيلا المجاورة للحارس:

- إنني أشك في هؤلاء الثلاثة، تكون معهم أحياناً فتاة أسمعهم ينادونها فاطمة.

- يمكن أن يكون منهم البستاني والطباخ ومصلح أدوات الكي أو أي شيء من هذا القبيل.

- إنك تمزح. أنا لم أرَ طوال السنوات التي قضيتها هنا في هذا الحي أناساً أغنياء يدخلون إلى الفيلا المهجورة.

- يمكن أنهم يأتون في آخر الليل.

- ولماذا لم يشذبوا نباتاتهم؟

- ربما لأنهم يملكون فيلا أخرى.

قالت الخادمة:

- أنا أشك فيهم. خصوصاً في ذلك الأبرص الذي يرمش

بعينيه، أما تلك الفتاة بلباسها ذاك فإنها تبدو من ناشلات الجيوب في الحافلات. لقد رأيت مثيلاتها كثيراً.

صدَّق الحارس بعض ما قالته الخادمة، لأنه لم يشتغل معها إلا سنة واحدة. ثم إنه لم يتحدث إلى الثلاثة على الإطلاق. فهم لا يتكلمون وغالباً ما يدخلون منفردين، يدفعون الباب ويدخلون، فهو دائماً مفتوح وأحياناً يسمع نباح كلب داخل الفيلا، لكن ذلك الكلب لم يغادر قط الفيلا، فربما كان مربوطاً، وحتى نباحه كان غريباً شبيهاً بعواء ذئب.

وخيل للحارس أيضاً أنه ربما سمع نقيق دجاج، لكنه لم يتأكد من ذلك، فآذاننا تخوننا أحياناً كما تخوننا ألسنتنا فنقول ما لم نكن نريد قوله، وقال الحارس للخادمة:

- يبدو أنهم يربّون الدجاج.

- لا تقل هذا الكلام. أشتغل هنا منذ سنوات، ولم أرَ سيارة تقف أمام هذه الفيلا.

لم يكن الحارس يهمه الأمر بقدر ما كان يهم الخادمة على ما يبدو. ثلاثة رجال وامرأة في فيلا مهجورة. شيء يبعث على الفضول، حتى بالنسبة إلى الذي لم يكن فضولياً. ثم إن الفضول غريزة في الإنسان حتى لو تلصص وأطل من ثقب الباب. وقال الحارث للخادمة:

- كم أنت فضولية! دعيهم وشأنهم.

- أنا لست فضولية. ولكن يمكن أن يكونوا أناساً مشبوهين. وقد تأتي الشرطة لتأخذنا جميعاً كشهود. فنحن في الحقيقة لا نعرف شيئاً ولم نشاهد شيئاً.

قال الحارس:

- وماذا شاهدنا؟ إنهم يدخلون ويخرجون. ثم إننا لا نسمع سوى نباح كلب.

قالت الخادمة:

- ذات مرة أخذوني إلى مركز الشرطة وضربوني لأنني لم أرَ ما وقع في تلك الفيلا هناك. دخل اللصوص وسرقوا أشياء. وقال رجال الشرطة إنني أعرفهم، وأنا لا أعرفهم ولم أرَهم على الإطلاق. هل ترى كيف أن عدم الفضول إلى ماذا يؤدي؟ لقد علمتني أمي منذ طفولتي أن أكون فضولية.

ظلَّ الحارس واقفاً، يتأمل تلك النباتات والأعراش غير المشذبة. ولم يفهم ما معنى أن يكون فضولياً. وفكر في أن الفضول قد يؤدي بصاحبه إلى السجن. لقد حصل له ذلك عندما تشاجر تاجرا خردوات، وأراد أن يتدخل فأصابته لكمات، وأخذه رجال الشرطة مع المتشاجرين. حُكم عليهما بالسجن لأنهما كان يتاجران في مسروقات. أما هو فقد منّوا عليه بشهر سجناً. لأنه مسلم وأراد أن يفك الشجار بين أخويه في الإسلام. وقد قال ذلك لرئيس الجلسة. فقال له السيد الرئيس:

- الإسلام شيء والفضول شيء آخر. لقد تدخلت، ومعنى ذلك أن لك يداً مع أحدهما.

أقسمَ كثيراً وحاول أن يبكي. لكن ذلك لم ينفعه. ذكرى ذلك الشهر الذي قضاه في السجن لم تُمحَ قط من ذاكرته.

وقالت الخادمة:

- فيمَ تفكر؟ لا شكّ أنك تعرف أحدهما. أقول لك إنهم مشبوهون. التفت إليها:

- عمّن تتحدثين؟

- عن أولئك الثلاثة؟

- أنا لا أعرف أحداً. أنا لست فضولياً.

- سوف يأخذهم رجال الشرطة. كُن متأكداً من ذلك.

وبما أنه لم يكن متأكداً من شيء فقد اكتفى بأن قال كلاماً لنفسه.

وقالت الخادمة بصوت مرتفع:

- ماذا تقول؟ تحدث. إن الشرطة سوف تستدعينا نحن الاثنين كشاهدين. لا شكّ أنهم من النشالين أو بائعي المخدرات.

- لا أدري. لا أستطيع أن أقول لرجال الشرطة سوى أنني لا أعرف شيئاً، وسوف أقول لهم كذلك إن الناس يريدون أن يعرفوا كل شيء عن الآخرين. ولا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن أنفسهم.

وقالت الخادمة:

- إنك لم تجرِّب الحياة كثيراً. من الأفضل أن تسقي الحديقة وأن تسكت إلى الأبد.

سكت بالفعل، وتمنى ألا يتكلم. ولكن حتى لو تمنى الإنسان ألا يتكلم فإن هناك إنساناً آخر يجعله يتكلم حتى بما لم يعلم. قبالة الفيلا المهجورة هناك حديقة مهجورة يرتادها كثير من المشردين والمشردات والشيوخ الذين ينتظرون تقاعد الموت، كما هو الشأن بالنسبة إلى الجميع. في تلك الحديقة المهجورة، كانت تنام فتاة من منطقة الريف كل ليلة. وبطبيعة الحال، كانت هناك فتيات أخريات. وفي المغرب حدائق كثيرة ينامون ويسكرون فيها وربما قد يتزوجون. لكن عندما تخرِّب المجالس البلدية تلك الحدائق، وتبني في مكانها عمارات للبيع لا للكراء، فإن الذين أنجبوا أطفالاً، فإنهم يتركونهم في الشارع يبيعون السجائر بالتقسيط، أما بناتهم فهنّ عرضة للشارع الفسيح رغم أن الشوارع ضيقة للأسف. وهكذا فتخريب الحدائق يفرِّخ أطفالاً. ومن يدري، فقد يكون أولئك الثلاثة المشبهون قد

فرختهم الحدائق المخرَّبة. كل شيء محتمل. إذا انتُزعت شجرة فقد تنبت أخرى في مكان ما. وإذا مات لص فقد يُولَد آخر. وإذا اختفت امرأة سواء كانت ابنة الحديقة أو أي مزبلة أخرى، فإن الإنسان سوف يعثر على امرأة أخرى - علماً أن ربّة البيت هي الشريفة -. نقول هذا الكلام ونمضمض به أفواهنا. بنات الحدائق موجودات في كل مكان، لكن المحصّنات موجودات قرب البقال والنجار والخضّار وبائع التوابل. وحتى لا نذهب بعيداً، فقد قالت الخادمة:

- كم يلزمنا من الوقت لكي نفهم كل شيء؟

وكان الحارس قد أجابها:

- صعب جداً أن نفهم كل شيء. لقد حاولت أن أفهم أشياء كثيرة لكني لم أوفق.

- أنت أصغر مني سناً ولا تستطيع أن تفهم.

- أفهميني.

- عُد إلى السجن تفهم. قلت لك إن أولئك الثلاثة مشبوهون وأشك فيهم كثيراً. سوف نرى. وسوف تعرف أني على صواب.

يبدو أن أشخاصاً آخرين كانوا يتسربون إلى الفيلا المهجورة من مكان آخر. لأن أصواتاً كثيرة ثملة كانت ترتفع في آخر الليل وكانت الخادمة تسمع ذلك إذا ما أتيحت لها الفرصة لكي تنام في الفيلا التي تشتغل فيها. أصوات غريبة تصدر كلاماً نابياً.

أصوات تتحدث عن السجن وعن كيفية الطعن بالسكين أو بالزجاجة المكسورة، وأحياناً حتى بكعب حذاء امرأة. على كل حال. فهي أصوات رجال ونساء. وكانت الخادمة تتخيّل تلك المعارك الدامية فتصاب بالخوف، وتتناول قرصاً لكي يساعدها على النوم لكن نومها فيه كثير من الشجارات والسواطير والسكاكين والزجاجات المسكورة، والأجنَّة الملفوفة في أكياس البلاستيك،

وقبعات رجال الشرطة، والآلة الكاتبة التي تنجز محضراً يقدَّم إلى المحكمة بتهمة السكر والتحريض على الفساد. إنها أحلام مزعجة حقاً، تجعلها تستيقظ لكي تتناول قرصاً آخر فتهدأ فتنام فتستيقظ فتشتغل فتفكر فيما سيكون عليه أمر المشبوهين. لكن أحلام الحارس كانت عادية: وغالباً ما كان يحلم بأنه يمتلك فيلا، وله العديد من الخدم والأصدقاء. وغالباً أيضاً ما كان يحلم بشاحنة تنقل إلى الفيلا التي يحلم بها زجاجات الويسكي المتنوعة. كان حلمه مغايراً تماماً لحلم الخادمة. لكنها تبقى مجرد أحلام. غير أنها بعيدة كل البُعد عن السواطير والزجاجات المكسرة واللكمات إلى غير ذلك.

ليلة الاثنين من شهر مارس عام 1980، سمعت الخادمة نباح الكلب في الفيلا المهجورة. كان نباحه غير عادي. غادرت فراشها وذهبت لتطل بفضول من بين الأزهار المتدلية عند باب الفيلا المقابلة للفيلا المهجورة. رأت كل ما كانت تحلم به عادة: سواطير وسكاكين وقبعات وعصي وتخيلت أنها رأت بعض الدماء تسيل. لكنها لم تكن متأكدة من ذلك. ثم سمعت طلقة رصاص. أصابها رعب. أخذت ترتعد وتهذي، ثم هرولت إلى فراشها، وتناولت فنجان ماء وقرصين ابتلعتهما بسرعة. تهاوت على حافة الفراش، وكانت أحلامها كالعادة: سواطير، زجاجات مكسرة، وقبعات رجال الشرطة.

مشي

ربما كان ذلك عام 1950 أو 51 أو 52، لا أذكر ذلك التاريخ بالضبط، كل ما أذكر أنه كانت هناك أكواخ صغيرة متفرقة ومتباعدة، وبعض الخيام من وبر الإبل، وهي كذلك متفرقة ومتباعدة. لكن الخيام كانت أكثر اتساعاً من الأكواخ. وكانت الأكواخ مبثوثة في الجانب الأيسر من الطريق المؤدية إلى ميناء المهدية، بينما كانت الخيام توجد في الجانب الأيمن على منخفض، تحته شبه بركة ماء، طالما كنا ننزل لنلعب أو نسبح فيها، أو نشاهد نساء يولولن حافيات وراء جنازة ميت. ولم أدرِ لماذا كانوا يموتون كثيراً في ذلك المنخفض، وراء الطريق، تحت خيام وبر الإبل، رغم اتساع تلك الخيام، ولكننا في الأكواخ لم يكن يموت منا إلا العجائز أو الأطفال أو بعض النساء اللواتي يسحرن للرجال والنساء والأطفال. لكن الأكثر سحراً هي الأقرب إلى الموت. . وكم ماتت من ساحرة لأنها تسحر كثيراً حتى للرجال والنساء الذين لم ترَهم قط. ربما كانت نساء ما وراء الطريق، في المنخفض، وتحت خيام الوبر يفعلن الشيء نفسه. ولذلك كثر موتاهم وقَلّ أحياؤهم. على كل حال، فسوف يموتون فيما بعد كما مات الذين سبقوهم. قد نموت بالسحر أو بغيره. فهناك أشياء مؤسسات تقتل، والناس يتحدثون عنها مثل حاجة يقال لها الكوليرا أو الطاعون. وما أكثر ما كنا نسمع نساء في تلك

السنوات، 50 و51 و52، (ولم أعد أذكر كما قلت) يقلن لأبنائهن: «سر اللّه يعطيك الطاعون». ويبدو أنه مرض خبيث يقتل الناس والبهائم. ولا شكّ أن الذين كانت النساء يولولن وراء نعوشهم، في ذلك المنخفض على ضفة شبه البركة قد ماتوا بالسحر أو الطاعون أو تلك الحاجة الأخرى التي اسمها الكوليرا، كم كان مرعباً أن نرى نساء حافيات شبه عاريات وهنّ يضربن أفخاذهن ويلطمن وجوههن وراء النعش، بل هناك من كانت تمزق ثيابها حتى لتكاد تبقى عارية تماماً. وهناك من النساء من كنّ يتمرغن عن التراب أو وحل البركة. وكان بكاؤهن يشبه عواء الذئاب، وعلى فكرة، فأنا لم أرَ ذئباً في تلك المنطقة ولا في ذلك الوقت. ولكن عندما كبرت، أكلت من لحمه مشوياً، عندما استطاع رجل أن يصطاده في الغابة. لم يكن لحمه ذا رائحة نتنة كما سمعت. ولكنه كان لحمه لذيذاً. وأعتقد أنه لولا أكل لحوم الذئاب لما مات الناس. يمكن أن الجوع أيضاً كان يقتلهم. ففي بيتنا مثلاً لم نكن نأكل سوى خبز الشعير والشاي أو البقولة إذا توفرت. وقلما كنا نشاهد خروفاً يرعى هناك في المنخفض، قُرب البركة. وراء الطريق. وغالباً ما إذا ظهر خروف أو ضائن أو معزى، فلا بدَّ أن يكون هناك إنسان خلف أو أمام أو بالقرب من ذلك الحيوان. لأنه لا يمكن لبهيمة أن ترعى وحدها من دون إنسان، وإلا جاء إنسان آخر فسرقها وباعها أو ذبحها. والإنسان إذا لم يرعَ بهيمته يجيء شخص آخر فيسرقها. كما هو الشأن بالنسبة إلى المرأة إذا لم تحرسها وترعَها مثل بهيمة فإن رجلاً آخر يأتي ويأخذها. وهكذا، يجب أن يبقى الرجال خلفها أو أمامها أو بالقرب منها مثل بهيمة. فالإنسان عليه أن يحرس ويرعى البهائم والبشر. وعندما كبرت وتعلمت أعجبني هذا الحديث النبوي «كل راعٍ مسؤول عن رعيته» وبما أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان راعياً فهو يعرف ما يقول.

ولذلك، في الطرف الآخر، هناك في المنخفض، ربما كان الناس يعرفون كيف يرعون رعيتهم. لكن في الجانب الأيسر من الطريق، حيث كانت الأكواخ متفرقة ومتباعدة، وحيث لم نكن نملك شيئاً سوى بقرة عجفاء. بطبيعة الحال، لم نكن نملكها جميعاً، ولكنها كانت في ملك رجل معتوه من بني حسن، لا يتحدث إلى أحد. ولا يدري أحد من أين أتى بها. نُباح الكلاب ونقيق الضفادع وطنين الذباب وهناك خوار تلك البقرة العجفاء وصمت ذلك الرجل المعتوه الذي يرعاها ويملكها ويحرسها، وأحياناً يتحدث إليها. ومرة أخرى - عندما كبرت وتعلمت - قرأت قصة لكاتب روسي اسمه تشيخوف، كتب قصة عن حوذي كان يتحدث إلى فرسه. إلا أنني لم أتأكد من أن ذلك الحوذي كان معتوهاً. ومن يدري، فقد يكون صاحب البقرة غير معتوه. لا أذكر. كان ذلك سنة 50 أو 51 أو 52، المهم أن البقرة كانت حية في ذلك الوقت، في الجانب الأيسر من الطريق المؤدية إلى ميناء المهدية، وكانت تخور قرب المحيط الأطليس، وتلك الفرس كانت تصهل، ربما تحت الثلج في روسيا البيضاء أو السوداء، كانت هناك، على كل حال، أكواخ وخيام من وبر الإبل، وكانت هناك طريق تفصل بينهما تؤدي إلى الميناء، وكانت هناك شبه بركة. هناك بشر يموتون وبشر يعيشون، ونساء يولولن ويلطمن أفخاذهن وأحناكهن ويمزّقن ثيابهن. لكن كل ذلك سوف ينتهي ذات يوم، كما انتهت أشياء كثيرة في الحياة، وابتدأت أشياء أخرى، وعلى سبيل المثال، قد تبدأ الحرب لتنتهي ذات يوم، ثم تبدأ حرب أخرى لتنتهي وقد يولد شخص ليموت آخر. وقد تُذبح بهيمة بعد أن تلد أخرى لكي تُذبح فيما بعد. ويأتي إنسان آخر لكي يذبحها ويسلخ جلدها ويأكلها. وإذا كان كريماً، فإنه سوف يتصدق ببعض لحمها على جيرانه. أعرف أن هذا شيء نادر هنا، ولكنه قد

يحصل، مثلما حصل بالنسبة إلى الذي وزّع لحم الذئب وعافه كثير من الناس. لكنني سمعت والدتي وعماتي اللواتي جئن إلى هنا من الغرب يتحدثن عن الذبائح الكثيرة في زمان ما، وفي الوقت نفسه يتحدثن عن الجوع وعن الرجال الذين انخرطوا في الجيش الفرنسي ورجع بعضهم معطوباً معلولاً، ومنهم من مات مقتولاً، ولا تزال نساؤهم ينتظرن تعويضاً من فرنسا. ليس هناك معطوب حرب، على الأقل في هذه الأكواخ، وقد يكون هناك معطوبون في تلك الخيام. على الطرف الثاني من الطريق وبعيداً من أكواخنا بحوالي كيلومترين تقريباً، يوجد هناك قبر لضابط فرنسي مبني بالإسمنت وتحيط به سلاسل كنا نتخطاها، ونصعد إلى ظهر القبر، نلعب فوقه، ولم نكن نعرف لماذا أقيم هذا القبر هنا، وحيداً منفرداً على شاطئ المحيط، مع أن قبور المسيحيين ليست بعيدة إلا بحوالي عشر كيلومترات. وللحقيقة، فقد كانت مقبرة المسيحيين جميلة، فوق كل قبر وحواليه أزهار وورود وعند باب المقبرة الحديدي مغربي حي يحرس أولئك الأموات. وعندما كنا نحن الأطفال نريد أن ندخل إلى تلك المقبرة فإن ذلك المغربي الحي يخرج عصا غليظة يهددنا بها. كما كان يقظاً حتى وهو نائم تحت قب جلبابه. شيء جميل أن يحرس مغربي حي مسيحيين أمواتاً. لقد تعلمت فيما بعد أن الإسلام دين تسامح، إلا أن المسيحيين طردونا من الأندلس وضربونا. ولم يكن هناك مسيحي واحد يحرس قبور المسلمين، وبحسب ما قرأت فقد كانوا يخرجونهم من قبورهم، بعد أن ينبشوها. ونحن لم ننبش قبل ذلك الضابط الفرنسي، بل كنا نلعب فوقه. كنا نعثر على بعض زجاجات النبيذ الفارغة حول القبر. كان قبراً فريداً وحيداً، بالقرب منه شجرة سامقة، وخلف الشجرة هناك المحيط الأطلسي. كيف مات هذا الرجل هنا؟ لا أحد يدري. المهم أنه ميت، مثلما سوف نموت

جميعاً، ولن يختار أي واحد قبره. سوف يختارونه له حتى لو ترك وصية. إن أولئك الأموات خلف الطريق، لا شكّ أنهم لم يتركوا وصايا، لكنهم تركوا وراءهم دزينات من الأطفال، سوف يدفنون في أماكن ما، بوصية أو من دونها.

على كلِ حال، سوف يُولَد أناس وسوف يموتون، مثلما مات هذا الضابط الفرنسي. كان بالإمكان، بدل هذا القبر، أن توضع له صورة في مكان ما، على صدره مجموعة من الأوسمة والنياشين، وإذا كان قد فعل شيئاً في الحياة حقاً، إذا لم يكن «قلب كلب». لا يهم، مرة أخرى، هناك أكواخ، وهناك خيام من وبر الإبل وهناك كذلك الطريق المؤدية إلى ميناء المهدية. والطريق طويلة والحمارة ماشية. إلى أين؟ لا أحد يعرف. هناك من مشى وسكن أكواخاً قرب المحيط الأطلسي وهناك أيضاً من مشى وسكن خيام وبر الإبل. وهناك من مشى فقدِّر عليه أن يكون منفرداً منعزلاً، يلعب الأطفال فوق قبره، لكن ذات صباح، رأيت رجالاً يمشون، منهم المغاربة ومنهم الأجانب يتفحصون الأكواخ، ويتحدثون ويشيرون بأصابعهم، لكنهم لم يكونوا يشيرون جهة خيام وبر الإبل. وعند الظهيرة رأيت النساء يلطمن أفخاذهن وأحناكهن. أما بعض الرجال فقد تجمعوا تحت شجرة تين وأخذوا يتكلمون. ماذا كانوا يقولون؟ لا أحد يعلم. وفي صبيحة الغد، جاءت عربات وشاحنات نقلتنا إلى ضاحية المدينة. وعندما تعلمت وكبرت، عرفت أنهم كانوا يريدون إنشاء قاعدة بحرية فرنسية وقد فعلوا. لكنهم لم يكونوا يعرفون ما يفعلون. لم تكن هناك مدارس بنوها وسط الأكواخ ولا وسط خيام وبر الإبل. إلا أن هناك مدرسة بنوها في ضاحية المدينة تعلمنا فيها، ولو لم يمشوا ويتحدثوا وينشئوا قاعدة بحرية، لما غادرنا ذلك المكان ولما تعلمنا، ولا يمشي الإنسان إلا للمكان الذي أراده اللّه له.

هناك من مشى إلى القبر، وهناك من مشى إلى الحج على الأقدام. أما أنا فقد مشيت في طريق أخرى، عندما طردونا من أكواخنا تعلمت وكبرت. وتمكنت من أن أكتب مثل هذه القصة. امشوا جميعاً، فالطريق طويلة والحمارة. . . إلخ.

كيف نحلم بموسكو

كان الثلج يتساقط بكثافة وبرودة لاسعة، لكنه بعد مرور أيام قليلة تعوَّد على هذا الجو. «قد نستطيع أن نتعود على كل شيء إذا اقتضت الضرورة». ولذلك فإنه بعد مرور هذه الأيام القليلة، أصبح يَعتبر أن الأمر عادي إذا ما اختفت الشمس نهائياً. ولم يعد يعرف فيمَ إذا كانت الشمس ضرورية فعلاً، لهذه الحدائق والأشجار والبساتين التي اختفت خضرتها وتغطت بالثلج، لكن رؤوس بعض النباتات تبقى مطلّة، وبعض فروع الأشجار كذلك، متحدية هذا الثلج الذي يتساقط بكثافة وبرتابة، تتساقط ندف الثلج بشكل عمودي، لأنه لم تكن هناك ريح ولا أشعة شمس. وإذن، فموسكو تعيش من دون ريح ولا شمس ومن دون برتقال مغربي هذه السنة لأن الثلج يتساقط على موسكو والجفاف يعم بساتين البرتقال في المغرب. قضى أول ليلة له في فندق «منسك» العتيق. ورغم المكيف، فقد كانت تتسرب برودة قاسية جداً من شقٍّ في النافذة. لم يكن يتحدث اللغة الروسية. ولذلك لم يستطع أن يتصل بإدارة الفندق لأن تلك الحروف البسيطة التي يعرفها بالفرنسية أو الإنكليزية أو الإسبانية لم تكن لتفيده هنا. فقط التقى أثناء العشاء برئيسة الخدم في المطعم التي كانت تتكلم بلغة إنكليزية رطنة، لكنها على كل حال كانت مفهومة. في الثانية عشرة ليلاً يغلق المطعم. وما كان عليه إلا أن ينام حتى تأتي المرافقة في الصباح.

- لقد كان البرد شديداً، ولم أنم جيداً. كان هناك برد يتسرب من شقٍّ في النافذة.

- كان عليك أن تتصل بإدارة الفندق.

- إنهم لا يتقنون أي لغة.

- يا إلهي... كان عليك أن تتصل بي في بيتي. إن رقم الهاتف معك.

- لم يكن ضرورياً أن أزعجك في ذلك الوقت المتأخر من الليل.

ولأنه كان يعرف المرافقة من قبل، قال لها:

- إنني غاضب منك.

قالت:

- لا تغضب يا حبيبي، سوف نغيّر لك الغرفة. تعال لنتناول طعام الإفطار، كُلْ جيداً. إنك تبدو نحيفاً كما لو كنت من الحبشة.

- سوف أشرب شاياً أسود. هذا يكفيني.

- لا. سوف تأكل جيداً. وسوف ترى كيف يأكل الروس في الصباح. ليس سهلاً أن تقاوم البرودة الشديدة من دون أكل. أنت الآن لست في إفريقيا.

ولأول مرة، وفي أول يوم، عرف كيف يتناول الروس طعام إفطارهم. يأكلون بشهية كبيرة وبنهم. لكن من أدراه أن هؤلاء الناس جميعاً من أصل روسي. إنهم يختلفون في السحنات لكنهم يتكلمون لغة واحدة وليسوا في حاجة إلى مترجم أو مترجمة. كان يحتسي شايه وهو يتأمل هذا العالم الغريب الذي لن يصبح غريباً عليه فيما بعد. أخرج من جيبه علبة سجائر. كانت المرافِقة منهمكة في الأكل مثل باقي الناس، وعندما رفعت رأسها رأته يضع السيجارة بين

أصابعه. أزاحت أصيص الأزهار الموضوع فوق المائدة قليلاً، ثم قالت بلهجة عتاب:

- ماذا تريد أن تفعل حبيبي؟

- ها أنت ترين. ليست عندي شهية لآكل مثلكم. لقد شربت شايي وأريد أن أدخّن.

ضحكت وهي تقول والسكين في يدها اليمنى:

- ألم تلاحظ شيئاً؟

- لا لم أفهم..

- انظر أمامك جيداً فوق المائدة.

- إنني أنظر جيداً. هناك فنجان أمامي وصحون أمامك، وأصيص أزهار.

- لكن، ألم تلاحظ أنه ليست أمامك منفضة؟ إنهم لا يدخنون في هذا المكان سوف تعرف ذلك فيما بعد. ضحكت مرة أخرى واستمرت في تناول إفطارها. بينما أخذ هو يتجول بنظراته في المطعم الواسع الكبير التابع لفندق «منسك». كانت الرؤوس منحنية على الصحون، وأُصُص الأزهار تخفي بعض تلك الرؤوس والرؤوس التي تعبت من المضغ استرخت إلى الوراء ومناديلها تسمح أفواهها. ربما كانت بعض تلك الرؤوس تتجشأ أو تضرط الآن، على كل حال مخارج الهواء موجودة في جسم الإنسان. وفكر أنه من الأفضل ألا يأكل كثيراً حتى لا يفعل ذلك الشيء مثلهم. وفكر في ذلك المثل العربي الذي يقول إن البطنة تُذهب الفطنة. لكن على الرغم من أنهم يأكلون كثيراً فإن فطنتهم لم تذهب. فصنعوا أشياء كثيرة مثل مبيدات الحشرات أو مبيدات الإنسان.

انتهت المرافقة من الأكل، واسترخت هي كذلك إلى الخلف وأخذت تمسح فمها مثل الآخرين. وقالت:

- هل تذكر عندما كنا في ذلك البيت في بلدك، أكلنا قصعة من الكسكس بأيدينا، أكلنا طعاماً آخر لا أذكر اسمه بأيدينا كذلك. كان ذلك الطعام لذيذاً من دون ملعقة ولا سكين. وهل تذكر أيضاً عندما رأينا قرب الجامعة الطالبات يركبن عربات تجرها الحمير ليصلن إلى الجامعة؟

- يا إلهي؟! كان ذلك المنظر جميلاً.

- نعم، جميل. لأنهن لم يجدن ثمن دفع ركوب الحافلة.

- غريب!

- ليس غريباً ولا أي شيء.

- نحن عندنا أيضاً في الأقاصي طالبات يركبن عربات تجرها الكلاب.

- ها أنت ترين! كل طالب يجد نفسه في كل مكان مجروراً. في السابق كان الإنسان يجر عربة يركبها إنسان آخر في الصين. فالكل مجرور إذا وجد من يجره.

ثم أضاف:

- إني أريد أن أدخن.

- عندما نخرج.

ثم التفتت يميناً وشمالاً، ففهم رجل يضع نياشين على بذلة مدنية ما أرادت أن تقوله بإشارتها تلك. جاء على الفور ودون أن يتحدث ذهب ورجع بعد أن تحدثت إليه ببضع كلمات وصب لها القهوة في الفنجان. ثم قالت:

- سوف أرشف هذه القهوة بسرعة، وسوف ننصرف حتى تتاح لك فرصة التدخين. لماذا لا تكف عن التدخين؟

- سوف أحاول ما أمكن. هل كل الأماكن يمنع فيها التدخين؟

- لا. بالتأكيد.

- وأنت، ألم تدخني إطلاقاً؟

- أبداً علمونا في المدارس منذ الصغر مضار التدخين. لقد رأيت الأطفال عندكم يجمعون أعقاب السجائر ويدخنونها.

- ما شفتي والو، ابنتي.

- لم أفهم ما تقول.

- اسمحي، لقد نسيت وتحدثت معك باللهجة الدارجة.

- لا بأس!

كانت السيارة تنتظرها في الخارج عند باب الفندق إلى جانب سيارات أخرى. ظلا واقفين عند باب الفندق الواسع. ولم يدرِ هو لماذا توقفت، كان ينظر في ذهول إلى الناس الذين يمشون في طابور واحد. عندما كان يتخيل ذلك، قالت:

- لم يبقَ إلا حوالي نصف ساعة ونصل إلى البيت.

في الطريق كانت تتحدث إلى السائق الذي كان يجيب باقتضاب. ويبدو أنه لم يكن يهمه أن تتحدث إليه. ربما كان يفكر في شيء يهمه أو في طريقة قد توصله إلى رئاسة الاتحاد السوفييتي. إن خروتشوف لم يكن سائقاً على كل حال. لقد كان فلاحاً وقد وصل مع ذلك. وهذه الدنيا فيها العجائب والغرائب. وتذكَّر تحت ثلج موسكو أن في بلده كم من إنسان لا يفرق بين الألف والزرواطة أصبح وزيراً أو نائباً في البرلمان. ولماذا لا يكون هذا السائق ذات يوم نائباً أو وزيراً في بلده، لأن أمامه في السيارة ثلاثة كتب؟ يقرأها أو لا يقرأها هذا لا يهم. لكن الكتب أمامه، وقالت المرافقة:

- فيمَ تفكِّر؟ سوف نصل قريباً.

- إنني أفكِّر في الكتب.

- هل تريد أن تشتري كتباً؟

- إنني لا أقرأ الروسية.

- هناك كتب بالفرنسية تُباع هنا، وهناك أيضاً كتب باللغة العربية.

- هذا شيء جميل، أريد أن أقتني كتباً.

- إنها كتب مطبوعة هنا، وهي غير موجودة عندكم.

- سوف أهديك بعضها.

على الرصيف تحت الثلج المتساقط قالت له لدى وصوله إلى المطار إن درجة الحرارة هنا في موسكو تبلغ العاشرة تحت الصفر. يا إلهي! كيف يستطيع أن يتحمل؟ لكنه فيما بعد استطاع أن يتحمل.

وقال لها:

- هل تنتظرين أحداً؟

- نعم أنتظرك أنت أن تدخن. فقد يكون السائق من الذين لا يدخنون. دخّن قبل أن نذهب إلى البيت، فوالدي هو كذلك لا يدخن لكنه يشرب كثيراً وكثيراً جداً. حتى إن والدتي تخلق له جحيماً حقيقياً عندما يسكر.

ثم أضافت عندما أنهى تدخين سيجارته:

- إياك أن تضغط العقب بقدميك مثلما تفعلون هناك، قمامة الأعقاب وراءك.

السائق البدين كان يبدو عليه أثر النوم، وكان أمامه ثلاثة كتب ضخمة ربما يقرأ منها قبل أن يلتحق به الراكب. في بعض البلدان الأوروبية شاهد مثل هذا، في حين لاحظ في بعض البلدان العربية أنه عندما يركب سيارة أجرة، لا يسمع سوى الشكوى والحديث عن كثرة الأولاد كما لو أن السائق طلب من أحد ما أن يساعده على إنجابهم. موسكو مغطاة بالضباب، لكن هناك آلات تفرد الثلج. فكان ينظر إلى هذه العمارات الطويلة والعالية. إنها مثل قبور ضخمة

يرقدها العديد من الأموات، على أمل انتظار يوم البعث. هل هي مدينة للأموات كبيرة مقبورة تحت الثلج؟

- آه كم أنت رائعة!

كاد السائق البدين أن يصطدم بشاحنة كبيرة. لكنه استطاع أن يتجنب تلك الشاحنة وكادت السيارة أن تنقلب لكن صمته وهدوءه مكّناه من تجنب ما كان يمكن أن يقع.

وقالت المرافقة:

- يا إلهي ربما كان قدرك هنا، وقدري معك كذلك. وكانت الصحف سوف تكتب عنا.

قال:

- الموت لا يهمني. لقد ماتوا قبلنا، وسوف نموت. كلنا نتساوى في المرض والموت.

- والحب؟ ألا نتساوى فيه؟

- قد نتساوى فيه كما نتساوى في الكراهية والأنانية والكيد لبعضنا البعض. وقد نتساوى في حُب هذا الشيء أو كراهيته. إن الإنسان كائن غريب. هناك من يدوس وردة وهناك من يهديها لحبيبته. هناك من يصنع عربة للأطفال وهناك من يصنع مدفعاً للرجال. الأطفال يتدربون على أسلحة من دون رصاص عندما يكونون صغاراً لكنهم عندما يكبرون يحققون أحلامهم فيقتتلون. عالم غريب أليس كذلك؟

وكأنها لم تسمع كلامه. دفعت نظارتيها فوق أرنبة أنفها وقالت:

- لقد وصلنا الآن.

ثم تحدَّثتْ إلى السائق الذي توقف في ساحة يغطيها الثلج. وتحدثت إليه بالروسية، ثم أخرجت من حقيبتها بطاقة وضعت عليها إمضاؤها، وفعل السائق الشيء نفسه ثم أخرج هو بدوره بطاقة لا

تشبه بطاقتها، أمضياها معاً. لم يفهم أي شيء في العملية. لكن السائق فتح لهما الباب وانصرف صامتاً، وهو يقول «سباسيبا».
كانت ندف الثلج تتساقط. وهرولا تجاه العمارة القريبة. توقفت عند بابها وقالت:

- هنا بيتنا. سوف ترى كم أن أمي طيبة وكيف تتعامل مع والدي عندما يسكر.

- لا أريد أن أرى ذلك المشهد.

قالت وهي تضحك:

- هل تخاف أن أمنعك من الشرب عندما نتزوج؟

- ومن قال إننا سوف نتزوج؟

- من يدري؟ لقد أحببت مغربياً كان يدرس في موسكو، لكنه خانني. كان يعيش في بيتنا طوال خمس سنوات، لكنه عندما أنهى دراسته عاد إلى بلده ونسيني. هناك من يدوس الوردة وهناك من يقدمها لحبيبته. أليس هذا كلامك؟

- صحيح.

- فلنصعد الدرج. إننا نسكن في الطابق الأول.

وهما يصعدان الدرج، كان يفكر في هذا المغربي الذي خانها. قد يحصل كل شيء بين امرأة ورجل. قد تخونه وقد يخونها. حتى الأبناء يخونون آباءهم. وقد يخون الآباء أبناءهم. وفي نهاية الأمر، فإننا لا نختار آباءنا ولا أبناءنا. فكّر في هذا الأمر وهو يصعد الدرج. كانت الوالدة العجوز امرأة طيبة جداً. وكذلك كان والدها رجلاً طيباً غير مخمور كما وصفته ابنته. «ومرة أخرى نحن لا نختار أبناءنا». تقدم والدها بهدوء وهو يرتدي بذلة سوداء أنيقة وقميصاً أبيض وربطة عنق جميلة تلائم البذلة. انصرف بكل هدوء. كانت المائدة مُعدّة على الطريقة الروسية. ألقى نظرة على الأطعمة. لم

يتعرف على بعضها. لكنه عندما رفع بصره إلى رفٍّ أمامه رأى مجموعة من القنينات مصطفة مثل العساكر. خمّن أنها خمور بكل تأكيد. ذهبت والدتها وعادت لتقول:

- إن ابنتي قالت إنك تشرب كثيراً. ما الذي أستطيع أن قدمه لك؟

(وبطبيعة الحال، كانت ابنتها هي التي تترجم بأمانة كلام أمها - لا نختار آباءنا ولا أبناءنا - سبحان اللّه).

- قولي لها أريد أن أشرب كذا.

هبّت وانصرفت وقالت: «في صحتكما يا ولدي».

ثم عادت بطعام آخر. أشياء لم يألفها. انصرفت المرأة العجوز الطيبة ثم دخل الوالد الرجل الهادئ. قال كلمة واحدة بالروسية ثم انصرف.

ترجمت ابنته:

- في صحتكم أيها الشباب.

بعد ذلك:

- هل تعرف أنني أحبك منذ التقيت بك في المغرب؟

- لا شكّ أنكِ شربت كثيراً.

- أقول لك كلمة حقّ. إنك لا تشبه ذلك المغربي الخائن.

- ربما كان سوء تفاهم فقط. الناس لا يتشابهون في أي مكان.

كلنا بشر. قد نحب وقد نقتتل في أي مكان وفي أي زمان. وقد نخون أيضاً. لكن يبدو أنها رفضت أن تتقبل فكرة الخيانة هذه. إنه الحب الخفي الذي يتضمن كراهية. وكم من كراهية تضمّنت حباً! إنها طبيعة بشرية أزلية قد لا تتغير، لكن كل شيء يمكن أن يتغيّر في هذا العالم.

عادت الوالدة العجوز الطيبة ثم عاد الوالد الطيب. تحدثا

بالروسية إلى ابنتهما وكأنهما كانا يتأكدان من أن كل شيء يسير على ما يرام. هذا ما خطر له على باله. وعندما مرت لحظات، شربت كثيراً فبدت له مثل طير قد تدلس فتفلى:

- لقد أحببتك منذ أن رأيتك. إنك لست خائناً، هل تعرف أن الخيانة هي سبب مشاكل البشرية. لقد قرأت لشيكسبير بكل تأكيد. آه كم أحب شيكسبير سائس الخيول ذاك. إن العظماء قد لا يكونون بالضرورة من عائلات بورجوازية. هل تعرف أن البابا كان يشتغل في المناجم وأنه كان لاعب كرة قدم فاشلاً وأنه يكتب ولا أدري إذا كان اليوم يكذب؟ وهل تعرف أنني أحبك؟ وأنك لن تستطيع أن تخونني وأنني لست سكرى، وأن والدتي تقمع والدي عندما يمعن في الشراب.

استمرت في الكلام الذي لم يصبح مفهوماً. ودخلت الوالدة مرة أخرى وهي تتثاءب. تحدثت إلى ابنتها بالروسية، فردّت عليها. وعلى الفور أغمضت عينيها.

انسحبت الوالدة وظل هو يبحلق في فضاء الغرفة دون أن يعرف ما يفعل بنفسه. لكنه في نهاية الأمر، وبعد تفكير طويل قال لنفسه إنها ربما قد تكون صادقة وأنها تحبه بالفعل، وبدا له أن التعبير عن عاطفتها لا يشبه تعبير امرأة مغربية - على الأقل، من اللواتي عرفهن -. ظلَّ يفكِّر ويبحلق في السقف ثم نام وعندما استيقظ في وقت متأخر، وجد نفسه وحيداً في الغرفة. أراد أن يذهب إلى الحمَّام لكنه لم يعرف الطريق إليه، إلا أنها جاءت، ويبدو أنها استحمت.

- صباح الخير. إن فطورك ينتظرك. هل نمت جيداً؟ لقد هيَّأت الوالدة طعام الإفطار. أنا كنت بانتظار أن تستيقظ حتى نفطر معاً.

وكانت تحرِّك شعر رأسها الذي يبدو أنه كان لا يزال مبللاً. قبّلته على وجنته، ثم قادته إلى الحمَّام بعد أن شغّلت موسيقى بوب

روسية. وعندما غادر الحمَّام توجها إلى مائدة الإفطار. كانت تضحك بتلقائية وتتحدث عن الحب والكراهية ومزايا الشيوعية. ولم تكن تنسى بطبيعة الحال خيانة الرجل للمرأة، ناسية بذلك خيانة المرأة للرجل. وهو يرشف شايه، دخلت الوالدة العجوز الطيبة. حيّته وظلّت واقفة كما لو كانت تقول (في خدمتكما). عيناها زرقاوان لامعتان، لا يبدو عليهما أثر الشيخوخة.

وقالت هي:

- إن أمي وأبي أحباك للوهلة الأولى. وفوق هذا، فقد سبق لي أن تحدثت لهما عنك عندما عدت من المغرب. انظر إلى والدتي كيف تنظر إليك.

- إنها امرأة طيبة.

ثم تحدثت الوالدة، فترجمت هي:

- قالت أمي: لا شكّ أنكما ستكونان سعيدين، في الحياة.

- وماذا تقصد والدتك بذلك؟

- تقصد أننا سنتزوج وننجب ونعيش سعيدين، ولن يكون أحدنا خائناً. هل تفهم؟

- يبدو أنك غير عادية. وبهذه السهولة تتم الأشياء؟ إذا كانت تتم بهذه السهولة فلذلك تكثر الخيانة. هل تفهمين أنت كذلك؟

- عندما نذهب بعد يومين إلى منسك سوف تفهمني جيداً. إنني لست مغفلة إلى الحدّ الذي يمكن أن تتصوره.

في الحقيقة لم يكن يفهم أي شيء في هذه القصة. شيء غريب ومفاجئ يقع في هذه الحياة. ارتبك أكثر عندما أكّدت الوالدة مرة أخرى:

- يكفيكما طفلان، ولد وبنت. لأن كثرة الأولاد تشوش على

الحياة الزوجية. ولولا أنني ولدت بعملية قيصرية. لكنت قد أنجبت ولداً.

في ذلك اليوم البارد، وهما يتمشيان تحت ندف الثلج، كان يهمهم فقط عندما كانت تخاطبه. وما يتذكره هو أنه قال لها:

- سوف نرى ما الذي سيقع عندما نكون في مدينة منسك.

استقلا القطار إلى منسك. وقعت أشياء بالفعل وكان الأمر بمثابة حلم عندما وجد نفسه وحيداً في الدار البيضاء من دونها، إلا أن تلك الدموع التي كانت تترقرق في عينيها وهي تودعه في المطار لم يستطع أن ينساها على الإطلاق وربما لن ينساها. وظلَّ يتخيّل لشهور ذينك الطفلين اللذين كان سينجبهما منها وكيف أنهما يحملان حقيبتهما المدرسية باتجاه إحدى المدارس الابتدائية في المعارف أو درب غلف. كان الطفلان جميلين أشقرين عيناهما زرقاوان مثل عيني أمهما، ولا يشبهان بأي حال من الأحوال التلاميذ الذين يدرسون معهما في الفصل.

إذا كان شيكسبير قد تحدث عن **حلم ليلة صيف** فقد كان ما حكيناه أعلاه أحلام ليالي ثلج.

على شاطئ جنوة

اسمع، قلت أن منظر البحر جميل هنا، فكأنه لا يشبه باقي البِحار الأخرى التي رأيت. صحيح أن الأمواج غير عالية، وأن الأشجار الخضراء القصيرة تنبُت على حافته وقد تدلّت من بعض أغصانها أزهار مختلفة الألوان. إنهم يهتمون هنا بالشاطئ، جئت في الربيع، ولو عدت في الصيف لرأيت شيئاً آخر، سوف يتغيّر كل شيء بالنسبة إليك، عندما ترى أجسام النساء الجميلة المنحوتة بعناية، وهي تتشمس فوق الرمل الذهبي الجميل، في حين أن تلك البارات الصغيرة على الشاطئ تكون غاصّة بزبائن يحتسون البيرة في تلذذ، كأنهم لن يشربوها غداً يوم القيامة.

تقول إنك تريد أن ترى تلك المناظر في وطننا. لا، لا، ذلك مستحيل، يلزمنا كثير من الوقت لكي تصبح أجسام نسائنا متناسقة، وألا يقطع الأطفال أو السكارى أغصان الشجيرات. معك حقّ، إن سحناتهم تشبه سحناتنا. ألم ينزل العرب قديماً في جنوة؟ مدينة عتيقة لكنها جميلة، هل رأيت تلك الكنيسة الكبيرة التي مررنا بها ذلك اليوم. هندسة رائعة، أليس كذلك؟! لقد رأيت كنائس أخرى في أوروبا لكن كنيسة جنوة تلك تبدو جميلة ومختلفة، هل يصلون؟

نعم، إنهم متدينون، لكن فيهم كذلك بعض الملحدين أو القدريين. لا تتعجب، إنها الساعة السابعة صباحاً، ولذلك ترى

زحام السيارات كثيراً، فهم يشتغلون كالنمل، رغم أنك رأيتهم أمس يشربون في المقاهي فإنهم يستيقظون مبكراً، المهم أنهم يشتغلون لكي يستطيعوا أن يأكلوا ويشربوا ويلبسوا ويتحدثوا عن نتائج كرة القدم. قلت إنهم لا يقرأون. هذا غير مهم، لأنهم لا يعيرون اهتماماً لما يجري، لقد صوّتوا على رئيس الحكومة رغم أنهم ضدّه في الحافلات وفي المقاهي. فهذا شعب يريد أن يأكل ويشرب ويلبس ويبدع في صناعة الأحذية.

إيطاليا ليست هي المغرب، عليك أن تفهم هذا، وما هذا البلد يشبه ذاك في نهاية الأمر. إنهم ينامون في آخر الليل لكنهم يستيقظون في أول الصباح.

وعندما تأتي الانتخابات يوم الأحد، فإن بعضهم يذهب إلى صناديق الاقتراع وبعضهم يبقى نائماً في فراشه إلى جانب كله أو إلى جانب بني آدم الذي ينام بالقرب منه. ولذلك، إن نتائج الانتخابات تكون غير متوقعة لأنهم ينامون كثيراً. غير معذورين لأنهم يشتغلون طوال الأسبوع، ولن ينفعهم في شيء هذا الذي سوف ينجح في الانتخابات، ما دامت الأمور تشير كما هي عليه، وما دامت القواعد الجوية الأميركية موجودة. هل تعرف أن أكبر جالية في إيطاليا بعد المغاربة هم الأميركيون ثم يأتي بعدهم الفليبينيون؟ وعلى فكرة قلها لهم عندما تعود إلى بلدك. إن الإيطالي عندما يسكر ويتشاجر مع صديقه فإنه يشتمه. قائلاً: «اذهب أيها المغربي القذر»، عجباً! قالت لي امرأة مغربية كانت تشتغل في المملكة العربية السعودية، إن النساء السعوديات عندما يتشاجرن، تقول إحداهن للأخرى: «اذهبي يا ابنة المغربية». شيء جميل هذا، لكن لا داعي لأن تتعجب، لقد رأيت بنفسك مغربيات عاريات في شوارع ميلانو وجنوة وروما، ويمكنك أن ترى الشيء نفسه حتى في المدن الأخرى. لكنهن يكسبن كثيراً في

ظرف شهور قصيرة ثم يعدن إلى المغرب ليشترين الدور والدكاكين والرجال العاطلين. لا تتعجب كذلك إذا ما قلت لك إن نساء متزوجات يفعلن ذلك في علم أزواجهن. تقول هذا عيب، متفق معك، إنه عيب في المغرب، لكنه ليس عيباً هنا. ثم ماذا تستطيع أن تفعل أولئك النساء إذا بقين في المغرب؟ سوف يقـ. . .بن بكسرة خبز، وأحياناً عليهن أن يدفعن لذلك العاطل الذي يحميهن وإذا لم تدفع المرأة، فإنه يستطيع أن يشوه وجهها بموسى حلاقة، هنا لا يشوهون وجوه النساء وإنما يشوهون أجسادهن أو يقتلوهن. لكنهم على كل حال لا يسلبونهن كل عرق آباطهن. فلهذه المهنة أخلاق كذلك. تقول إن تلك الفتاة، التي تحاول الآن أن تجتاز النفق إلى الطرف الثاني من الطريق السيَّار، جميلة حقاً، إنها جميلة، لكنها عندما تكبر ربما تصبح قبيحة وشريرة. من يدري؟ ربما امتهنت تلك الحرفة نفسها، وربما أصبحت عالمة كبيرة. إنها صغيرة وجميلة وتحاول أن تجتاز النفق قرب تلك الأشجار القصيرة ذات الأزهار المتدلية في هذا الصباح الممطر البارد. وقد تجتاز النفق نفسه في زمن لاحق عندما تكبر، وعندما تغيّر تلك الشجيرات أزهارها أو تموت. تخاف من الموت؟! إنك أحمق. إنهم هنا لا يخافون من الموت. ولذلك فهم يأكلون كثيراً ويشربون كثيراً. ويقولون إن عليهم أن يأكلوا ويشربوا ويفعلوا تلك الأشياء الأخرى ما دامت الحياة قصيرة، وما دامت الأزهار تموت وما دامت بعض الأنهار تجف لتمتلئ فيما بعد. اذهب إلى صقلية وسترى. إنهم يدخلون هناك إلى بيوتهم في الساعة الثامنة مساء، ولا يعرفون كيف يتناقشون ويتهارشون مثلما نفعل نحن هناك. إذا ما وقع سوء تفاهم بين اثنين فاعلم أن أحدهما سوف يذهب في خبر كان، غداً صباحاً. وسوف يستمر الآخر في الأكل والشرب إلى أن يأتي دوره، وسوف تنبُت

الأزهار على قبره، وسوف تأتي امرأة مع عشيقها لتبكيه. سوف تذبل تلك الأزهار، وسوف تنبت أزهار أخرى. وها هي الفتاة الآن قد اختفت من خلف تلك الشجيرات المزهرة. ولا يدري أحد أي اتجاه الآن سوف تأخذ. فلهذا النفق أربعة مخارج، ولا يمكن لأي أحد أن يعرف من أي مخرج سوف تخرج. المهم أنها غابت بالنسبة إليك وبالنسبة إلي، إلا أنها بكل تأكيد لن تغيب بالنسبة إلى الآخرين وسوف تخلق لهم مشاكل وسوف يختلقون لها مشاكل. وقد تخلق لها مشكلة قبل أن تغادر النفق. نعم!! ماذا تقول؟ إن الحياة نفسها نفق! قد أتفق معك وقد أختلف، فأحياناً قد يكون النفق مظلماً أو مُضاء. لا بأس، ما دمت تصرّ على أن الحياة نفق، فإن تلك الفتاة دخلت إلى ذلك النفق مثلما يدخل الآخرون. الآن انظر، إنهم يدخلون، لكن لا أحد يعرف من أين سوف يخرج. إذا كان لهذا النفق أربعة مخارج، فإن لجنوة عدة مخارج ومداخل، المهم أن يعرف الإنسان من أين يدخل ومن أين يخرج. تشعر برائحة غريبة؟! إن الريح التي تأتي من جهة البحر هنا لها دائماً رائحة خاصة. وإذا ما ابتعدت قليلاً من الشاطئ فإنك لن تشم مثل هذه الرائحة، ربما اختار أجدادهم أن يبنوا مساكنهم هنا لكي يشموا تلك الرائحة. وكل إنسان من حقه أن يختار المكان الذي يستريح فيه حتى لو كان قبواً أو قبراً. . لا داعي لكي تقول إنك متفق معي. وأنا أعرف أنك لو لم تكن متفقاً معي في عدة أشياء لما لازمتني ولما لازمتك طوال هذه المدة. تشعر بنشوة خاصة!؟ ولِمَ لا؟ يكفيك أن ترى هذا البحر الهادئ أمامك وأن تنظر إلى تلك القلعة العتيقة، وأن تحلم فقط بأنك سوف تشرب بيرة بعد قليل في حانة جيرالاتيرا. يكفيك هذا فقط لكي تشعر بنشوة أكثر. تقول إن تلك الفتاة لا يهتم بها أحد. إنني أراها أحياناً، ربما كانت صديقة أحد المستخدمين هنا، إنها تأتي كل

صباح. تقرأ الجريدة، ثم تركب سيارتها وتنصرف دون أن تتناول شيئاً. وأنا لا أعرف ماذا تشتغل. إنها مثيرة حقاً لأنها لا تتحدث كثيراً، وتغرق دائماً في صمتها، تقول بعض الكلمات لأحد المستخدمين، ثم تتصفح جريدتها أو تقرأها، ثم تركب سيارتها وتنصرف. إن النساء لا يتشابهن في أنحاء العالم، وأنا لا أعرف فيما إذا كانت تلك الفتاة من جنوة أم لا. إلا أنها أنثى، وهي، بكل تأكيد، لا تشبه النساء الأخريات. قلت إن المغربيات يتشابهن، لا لست متفقاً معك. ما كل امرأة تشبه أخرى، وما كل رجل يشبه آخر. فاللَّه خلق لكل إنسان طبيعة خاصة. جميلة تلك الأزهار؟! بطبيعة الحال؟ إنها جميلة. وهم هنا يحبون الأشياء الجميلة، لكنهم لا يعرفون كيف يتحدثون عنها، لكنَّ شعراءهم ينوبون عنهم. وعلى ذكر الأزهار، فقد كنت ذات مرة مع صديق لي في الدار البيضاء. دخلنا إلى إحدى الحانات، وجاءت فتاة فقبّلتنا، وشربت معنا. وكانت تقبّلنا قبل أن تشرب، لكنها عندما سكرت أرادت أن تقبّل الآخرين الذين كانوا ينظرون إلينا من دونها. دخل بائع الأزهار، لم يشترِ أحد منهم ولو زهرة واحدة. ليست لهم أي علاقة بالزهور لكن صديقي اشترى زهرة وأهداها للفتاة. دفع ثمنها غالياً. نظرتْ إلى الزهرة، شمّتها ورشفت بيرتها، ووضعت الزهرة على الكونتوار. كانت الفتاة من ذلك النوع الذي يمكن أن يشتهيه أي سجين. غادرنا الحانة وأردنا أن نذهب إلى مرقص. أخذت الفتاة الزهرة معها، وفي الطريق، لوّحت بالزهرة بعد أن تأملتها كثيراً. ثم قالت لصديقي: «ماذا أفعل بهذه الزهرة؟ هل سأطبخها في الطنجرة وأقدمها لإخواتي التسعة كي يأكلوها؟». ألقت بالزهرة وأخذت تدوسها كما لو كانت تدوس جثة عدو. داست الزهرة. لكنهم هنا يتورعون حتى عن قطفها. فهم يحبون الأزهار، مثلما يحبون أشياء أخرى، كالقتل

مثلاً. ذاك من شأنهم، فهم يقتلون في اللحظة، إلا أننا نقتل ببطء. تقول إنك فهمت كلامي. هذا شيء جيد. يجب أن نتفاهم قبل أن نتقاتل. انظر كيف يتزاحمون بالسيارات، لكنهم لا يدوسون المارة، لأن المارة يحترمون أنفسهم إلا إذا كانوا سكارى. وبعض المغاربة لا يحترمون أنفسهم: يجتازون الطريق، دون أن يكلفوا أنفسهم المرور بالأنفاق، وربما دفعهم واذع ما إلى ذلك. إن الروح لا تساوي أي شيء أمام مبلغ مالي قد يوفر بناء عمارة تحتها مرآب أو دكان لبيع التوابل، وذيل الفأر واليربوع والضفادع والسلاحف اليتيمة الصغيرة التي تموت في حينها. وكما يموت الإنسان في جنوة فإن الإنسان يموت هناك. لا فرق. إن الناس ينسون أن هناك شيئاً اسمه موت محقق، مهما تناكحوا وتناسلوا وعمّروا وغدروا واستنفروا أو استقروا.

لا يعجبك الحديث عن الموت. هذا شيء طبيعي، وأنت تعرفه أكثر مني. آه يجب ألا نتحدث عنه في الصباح الباكر!! ومتى نتحدث عنه، وهو حاضر في أية لحظة، إنني أتحدث معك الآن، وفي هذه اللحظة يكون العديد من الناس قد ماتوا وآخرون وُلِدوا. إنك تنظر إلى تلك السيارات التي تسير بسرعة. لا تتعجب. فهناك أناس آخرون يمكنهم أن يفعلوا الشيء نفسه في مكان آخر. وهناك لا يزال نائماً الآن. قد يكون الوقت قد تجاوز الثامنة صباحاً. لكن لا يمكن للمرء أن يعرف إلى أين تتجه هذه السيارات، إلا أنهم بكل تأكيد لا يضيعون وقتهم. حتى بعض النساء المغربيات لا يضيعن وقتهن هنا. ذاك من حقهن، وعليهن ما دمن لا يحملن ذلك المرض الخبيث الذي ليس له دواء.

لكن، أليس هناك أخبث من مرض الفقر؟ ولولا الفقر لما جئن إلى إيطاليا. مسكينات، لكنهن شريفات نظيفات، ويمكن لأي مغربي

أن يمضمض بهذا الكلام فمه. وإذا لم يسرّه ذلك، فعليه أن يعيل أخته أو أمه الحاجة، ويمنعهما من السفر إلى بلاد النصارى. ماذا ستفعل تلك الفتاة التي داست الزهرة إذا ما جاءت إلى هنا؟ هل ستعيّنها حكومتكم (عفواً حكومتنا) سفيرة، لا تغضب، إنها وجهة نظر فقط، فليكن صدرك رحباً.

نعم، إنني أحمل الجنسية الإيطالية، لكنني لا أزال مغربياً. وإلا لتمكن الأرجنتينيون من طرد كارلوس منعم وأعادوه إلى سوريا. وقِس على ذلك. أنا أعتذر، لا تقلق مني، ربما لم أستطع أن أتمالك أعصابي، لأنني شربت كثيراً البارحة. وأنت كذلك؟ إذ ذاك من حقك فعل ما تشاء في هذا العالم. إنه يستحق أن يعاش لأننا خلقنا فيه بغير إرادتنا، وما جدوى أن نوجد هنا دون أن نعرف كيف نعيش؟ تقول إن هناك حواجز تمنعنا من ذلك. لا أقول العكس، لكن يجب أن نحرك أدمغتنا قليلاً لكي نتخطى تلك الحواجز. يبدو أنك لم تفهمني، فأنا أقول كلاماً وأنت تقول كلاماً آخر. أنا أتحدث عن العلاقات البشرية وأنت تتحدث عن المطار. إن مطار جنوة قريب جداً، سوف تسافر، وسوف تعود إلى وطنك، لن تكلفك سيارة الأجرة كثيراً، وهو مطار جميل يمتدُّ على لسان داخل البحر. سوف ترى جنوة عندما تستقل الطائرة كيف أنها ملتصقة في حصن مرتفع مثل مدينة شفشاون عندكم.. هناك مدن كثيرة تلتصق بالجبال والهضاب، وأحياناً شواطئ البحار أو الأنهار، أينما وجدوا قلوبهم فإنهم يخيمون، حتى لو في قرية متنفالد البافارية. إنها أيضاً ملتصقة بالجبل. كما تلتصق جنوة بهذه الهضبة التي سوف تراها. لم أسمعك جيداً، ماذا تقول؟ آه - إنها قمامة متحركة. انظر، انظر، إن الشاحنة سوف تنتشلها حالاً، وتفرغ ما بها من أزبال، تعيدها إلى مكانها. أرجوك ألا تقول هذا الكلام لأحد عندما تعود إلى الوطن. إن تلك

القمامات ينام فيها بعض المغاربة العاطلين عن العمل، ينظفونها ثم ينامون فيها. لكن هناك من وجدوا لهم حلاً. يشترون سيارة معطوبة، وينامون فيها إلى أن يجدوا لهم مأوى ولا أقول مسكناً، وأحياناً يحتلون بعض مرافق الشركات المُفلِسة، قلت إنهم يعودون إلى الوطن بسلاسل من ذهب في أعناقهم، قد يحصل ذلك، لأنهم يفعلون أي شيء هنا، ومنهم من لا يفعل أي شيء على الإطلاق. فعلى سبيل المثال: انظر إلى ذلك الصبي الذي يمسح زجاج السيارة الأمامي، إنه مغربي، يمكن أن والدته تفعل شيئاً آخر في مكان آخر. وما أكثر الأطفال الذين يفعلون مثله، فمثلما يكتري المشلولون الأطفال هناك، في الوطن، فإنهم هنا يكترون ماسحي زجاج السيارات. تسألني كيف يصلون إلى هنا؟ لا أدري، لكنهم على كل حال يصلونه، وأعرف أنهم يدفعون ثمناً غالياً من أجل الحصول على التأشيرة. على كل حال، أنا وصلت منذ سنوات، قد أعود أو لا أعود. هذا غير مهم، لكنني أعيش. أجد أنه من الضروري أن أتحدث لك عنهم. أنت لا تعرفهم، وأنا عشت سنوات طويلة هنا. ليست عندي مشكلة، لكني أتأسف لحالهم. منهم من يغتني بسرعة، لا أحد يستطيع أن يعرف كيف يحصل ذلك. لكن الأمور واضحة. إما أن يتاجروا في المخدرات وإما في البشر وإما في أشياء أخرى لا يعلمها إلا اللّه أو الشيطان، إذا كان الشيطان موجوداً بالفعل في صورة بني آدم كما نقول. إن الأطفال ماسحي الزجاج في الصباح كثيرون، يكترون أو يباعون مثل سجائر التقسيط، أما أخواتهم أو أمهاتهم فيفعلن شيئاً آخر في الليل. إنك تتثائب، لا شكّ أنك لم تنم بما فيه الكفاية. أعرف أنك في حاجة إلى بيرة، حانة جيرالاتيرا مفتوحة. وعندما تشرب قليلاً سوف تعي جيداً ما كنت أقوله لك. إلا أن الحديث يطول جداً عمّا يجرى هنا. وكم أتمنى لو أن بعض

الصحافيين زارونا، ورأوا القمامات والنساء وكل شيء. طيب، يمكننا أن نتوجه إلى الرصيف المقابل، سوف نجتاز ذلك النفق. لا تكلف نفسك، فأنا سأدفع الحساب، وبعد ذلك سوف نكمل حديثنا عمّا يجري على شاطئ جنوة. وعندما تعود إلى هناك، قُل لهم إن الوقت لم يسعفه أكثر، فقد كان مهتمّاً بي لأنني واحد منكم. وقُل لهم كذلك إنه لا يزال واحداً منكم رغم أنه أصبح لإيطاليا، وأنه ليس صورة مماثلة لمعاوية ابن حديج أو فاتح لإيطاليا، عندما دكّ أبواب صقلية. انهض لكي نجتاز ذلك النفق، هل تسمعني؟

الشاعر

رنَّ التليفون في الساعة الثانية صباحاً. وكان قد وصل قبل حوالي عشر دقائق فقط إلى الفندق. رحلة شبه متعبة بالطائرة، لكن مع ذلك كان يلزمه قسط من الراحة. كان الصوت دافئاً إلى حدّ أنه تصور أن صاحبة الصوت تعرفه جيداً. وفي هذا الوقت من الليل بدت كما لو أنها نامت جيداً في النهار مثل مذيعات المحطات الإذاعية الليلية. إن صوتها واضح، منشرح. وحاول أن يقدِّر سنها وأن يتخيّل صورتها، لكن ذلك، بطبيعة الحال، كان عبثاً. فمن الصعب جداً أن نكوِّن فكرة عن إنسان لم نرَه قط ولم نسمع به وسوف نظل نتخيله بجميع الأشكال والأحجام إلى أن نلتقي به.

أحسَّ كما لو أنها كانت تريد أن تكون بجانبه الآن، وأنها كانت بانتظاره لسنوات طويلة.

وفكّر أن الأمر عادي. فكل إنسان يريد أن يسمع بالمعيذي، وأحياناً يريد أن يراه.

– أتمنى أن يكون السفر مريحاً. المسافة ليست بعيدة على كل حال. ثلاث ساعات بالطائرة شيء عادي. أليس كذلك؟

– أريد أن آكل قليلاً الآن وأنام.

– إن أمامك التلفزيون، يمكن أن تشاهد أحد الأفلام أو بعض

البرامج التي تبثها محطات أوروبية. أنت تعرف أن تونس ليست بعيدة من أوروبا. قد نكون أتعبناك عندما ركبت. أخذت السيارة من جربة، وقد لا تعرف أننا شبه معزولين هنا في جابس. سوف نتحدث أكثر. إن شبه جزيرة جربة جميلة، ولكن بكل تأكيد فإنك سوف تزورها.

- أريد أن آكل قليلاً وأنام.

شيء رائع أن تعرف عنك امرأة كل شيء دون أن تلتقي بها من قبل. كانت تتحدث إليه كما لو كانت تعرفه من زمان، كما لو كانت تصطاد معه الفراشات وهما طفلان، أو يلتقطان الحلزونات الصغيرة الملتصقة بأشواك العليق، أو أحياناً، يجمعان صدفات الشاطئ الفارغة. صوت غريب لكنه أليف. ما أكثر الأصوات الغريبة التي يستمع إليها الإنسان حتى لو في مكان خلاء! قد يشعر معها بإلفة، أو قد يقشعرّ منها خوفاً. خصوصاً إذا ما كان وحيداً. ولذلك فالإنسان يبحث دائماً عن صوت حقيقي لكائن حي حتى لو كان زوجاً شريراً أو زوجة شريرة. لكن هذا الصوت الأليف الوديع في آخر الليل قد يكون شيئاً آخر. كما تبدأ الهمسات والوشوشات بلطف بين رجل وامرأة، لتنتهي إلى أصوات مرتفعة وإلى ما لا يمكن للإنسان أن يتصور سماعه في حياته.

- شكراً، سوف آكل قليلاً وأنام.

- نعم، استرح قليلاً، غداً سوف ألتحق بك في الفندق. سوف تكتشف هذه المدينة المعزولة. إنها جميلة مع ذلك. لقد اخترت لك غرفة مناسبة. افتح النافذة، وسترى ذلك الشاطئ الممتد اللامتناهي. إنه بالقرب من النافذة تماماً. سوف تسمع الأمواج الضعيفة وهي تتكسر عند حافة النافذة. وغداً سوف ترى النخيل. لا تتعجب. نخيل عند شاطئ البحر. عندما كنت أدرس في باريس، كانوا

يتصورون أن النخيل لا ينبت إلا في الصحراء. إنك لا تجيب. يبدو أنك متعب.

- سوف آكل قليلاً وأنام.

لم يأكل ولم ينم. لم يفتح النافذة، ومع ذلك كان يستمع إلى أصوات خافتة، يمكن أن تكون تكسر أمواج البحر، لكنها كانت خافتة جداً مثل وشوشات كائنات مجهولة لم يألف سماعها على الإطلاق.

صحيح أنه لم يأكل، لكن يبدو أنه نام قليلاً، نوماً شبيهاً باليقظة. نام أم لم ينم؟ هذا شيء لم يكن يعنيه في شيء. وكثيراً ما فكّر في أن النوم رديف الموت. والموت لم يكن يعني بالنسبة إليه شيئاً. كان دائماً يفكّر في أنه يعيش ليسمع مثل تلك الأصوات. سواء كانت قبيحة، أو دافئة عذبة في أول النهار أو آخر الليل. المهم أنه خُلِق والأهم أنه سوف يموت، وقد تكون الأصوات بعد الموت مخالفة تماماً لما يسمعه، ربما لن تكون شتائم أو تجريحاً. قد تكون تلك الأصوات شبيهة بأصوات الملائكة. لكنه لم يرَ ملاكاً في حياته، كما أنه لم يرَ شيطاناً أبداً. وهو لا يعرف الفرق بينهما. كل ما يعرف أن الشيطان كان ملاكاً ذات يوم، إلا أنه لم يعد ملاكاً. لأنه اختار ذلك، وغداً يوم القيامة، سوف يعاقب على كل الجرائم التي ارتكبها، لأنه كان حاضراً في واقعة الجمل ورجم الكعبة بالمنجنيق وفي حرب المئة عام بين فرنسا وإنكلترا، وظلَّ يوسوس طوال حياته عبر تاريخ بني آدم، وهذا شيء لا يليق بملاك، فالملاك يسعى إلى الخير دائماً. وعلى كل حال، فإن الصوت الدافئ الذي استمع إليه في حوالي الثانية صباحاً، لن يكون بكل تأكيد صوت شيطان، ولكن صوت ملاك، صوت امرأة حقيقية، جميلة، رائعة لا تنام، مثل مذيعات محطات الإذاعات الليلية، إذا كنّ جميلات بالفعل كما يتصورهن الناس.

وضع السماعة وأشعل سيجارة، أخذ يحملق في الجدران والدولاب وجهاز التلفزيون وأُصُص الأزهار الاصطناعية. وفي السقف، كانت هناك ثُريّا مدلاة مثل عنقود عنب، وفي الجانب الآخر كان هناك مصباح خافت الضوء. ضغط على الأزرار قرب الفراش، فانطفأت الثريا، ثم انطفأ ضوء المصباح الملتصق بالجدار، إلا أنه أعاد الضغط على زر جهة اليسار، فاشتعل ضوء مصباح آخر في الجدار المقابل. تأمل شرشف النافذة التي يبدو أن خلفها حاجزاً، لم يكن متأكداً من شيء إلا من هذا الهدوء، ومن ذلك الصوت الغريب الذي لم تألفه أذناه. لقد بدأت الآن أصوات الملائكة والشياطين تتلاشى، وعندما كان يدخن ويتأمل تعرجات الدخان المنبعث من السيجارة، بدا له ذلك الدخان الذي يتلوى، مثل نساء إحدى قصائد بودلير. حاول أن يسترجع قصيدة «الثعبان» لكنه أطفأ سيجارته وضغط على الزر فانطفأ الضوء. تمدد كلية على الفراش دون أن يسحب الغطاء، بدأت صورة المرأة الثعبان تختفي، والأبيات الشعرية اختفت من ذاكرته. وأخذت صورة بودلير التي رآها على غلاف أحد كتبه الشريرة تبهت. ثم نام أو لم ينم. إلا أن الصوت نفسه أيقظه في الظهيرة. كان يحتفظ بعذوبته، لا صوت ملاك ولا صوت شيطان. إلا أنه صوت امرأة. قد تكون غير مشاكسة. إن البقية قد تأتي فيما بعد.

- هل نمت جيداً؟

- نعم.

- لم أرد أن أزعجك، أعرف أن السفر متعب. التحق بي في المطعم، هنا مجموعة من الأصدقاء، لقد ناموا واستراحوا وتغذينا جميعاً لأنهم وصلوا قبلك بيومين، لا تستعجل، خُذ حماماً. نحن في انتظارك. أو على الأقل أو الأكثر أنا في انتظارك.

فتح النافذة الكبيرة، ليرى أمامه شجيرات صغيرة، وبحراً أزرق هادئاً، يمتد ليلتقي بسماء هادئة، ليس فيها سحب على الإطلاق، ليس تماماً، لكن في الطرف الأيمن من تلك السماء الهادئة كان هناك بعض العِهن المنفوش الذي لا تكاد تراه العين. شمَّ هواءً غريباً عندما اجتاز حافة النافذة حافياً، داس الرمل الحار وسط تلك الشجيرات القصيرة. لم يكن هناك ناس كثيرون على الشاطئ الشاسع، لكن كانت هناك نوارس وطيور كثيرة، ونحلٌ يطنُّ فوق الشجيرات الصغيرة، ذات الأزهار شبه المتفتحة. وكانت هناك أيضاً ثلاث فراشات غير ملونة، تحوم في الفضاء بالقرب منه من دون خوف، لكن ذبابة موت كبيرة سوداء خرجت من بين الشجيرات وارتطمت بأذنه اليمنى وهي تصدر ذلك الصوت الغريب. هش على الذبابة التي ظلّت تدور حول رأسه، وفكّر أن يعود إلى الغرفة لكي يستحم ويذهب إلى المطعم. وعندما دخل إلى الغرفة تبعته ذبابة الموت. وأخذت تطن وتئن وترتطم بالجدران، لأنها ربما كانت تريد أن تنتحر. وهو بكل تأكيد، لم يخطر على باله ذات يوم أن ينتحر. كائن حي في بيته حتى لو كان ذبابة موت. وعندما غادر الحمَّام، كانت الذبابة قد غادرت الغرفة من النافذة المشرعة، لتنتحر ربما في مكان آخر. إن شاطئ اللّه واسع وليفعل أي كائن حي بنفسه ما يشاء في تلك الشواطئ الواسعة العريضة، لكنه لم يتمنَّ أن يحصل ذلك في أية غرفة سكنها.

المهم أن الذبابة اختفت، وترك النافذة مشرعة، وإذا أرادت أن تعود لتنتحر فذلك يهمها، لن يكون موجوداً في الغرفة على كل حال، فهو موجود الآن في المطعم.

- هل نمت جيداً؟ أنا لم أرد إزعاجك.

- يبدو أنك طيبة بالفعل، أحسست كما لو أننا كنا نتعارف من قبل.

- إني أستاذة حاصلة على دكتوراه في الكيمياء البحرية، سنتعارف أكثر وسوف تركب معي في إحدى البواخر الصغيرة وسترى البحر، وسترى كيف يشتغل البحّارون الشبان. إن عالمهم مخالف تماماً.

كان بعض السياح الأجانب ما زالوا حول موائدهم يثرثرون ويشربون، وبعض الأطفال يتناولون الآيس تحت الشمسيات بالقرب من آباؤهم. وهناك بعض الكبار والصغار معاً، يلقون بأنفسهم في ماء المسبح. كانت هي تثرثر من دون انقطاع. لكن ثرثرتها لم تكن ثقيلة. تحدثت عن روما وباريس وتونس، وعن شخص أحبته، لكنه هجرها وذهب إلى أميركا منذ حوالي خمس سنوات. وعندما كانت تتحدث، كان هو منشغلاً بالأكل. لم تكن لديه شهية إلا أنه كان يأكل، لأنها كانت تحثه على ذلك، وبين اللقمة واللقمة كان يرفع عينيه ليتأمل وجهها المستدير الذي لا تفارقه الابتسامة. كانت متوسطة الجمال. إلا أنها تتحدث كثيراً.

- لم تسألني عن اسمي. أنا واحدة من المشرفات على المهرجان. قررنا أن نفعل شيئاً من أجل هذه المدينة المعزولة حتى نثبت للعاصمة أن هناك مثقفين في الجنوب. لقد قرأت شعرك، أعرف أنك شاعر كبير. ورغم اختصاصي في الكيمياء البحرية فأنا جنوبية. فحتى والدتي شاعرة رغم أنها أمّية. إنها تكتب الشعر بأصابعها على الزرابي في قرية صغيرة اسمها «وذرف»، قريبة من مدينة جابس. سوف ترى أمي، وسوف ترى النساء الأخريات اللواتي هنّ في سنها. كلهن شاعرات. لكن العاصمة لا تعرفهن، أنا ولدت في «وذرف» ولذلك يقولون إن طبعي حاد.

كان يستمع إليها دون أن يتكلم، لأنها لم تتح له الفرصة للحديث. وحده إيروس كان حاضراً في ذهنه. وغالباً ما يكون

إيروس حاضراً بين رجل وامرأة، مثلما يكون الشيطان حاضراً بين رجل ورجل وبين امرأة وامرأة، وفي نهاية الأمر بين رجل وامرأة. هل يكون إيروس شيطاناً؟! لكن بدا له أنه كان يتحدث من خلاله. ربما فطنت إلى أنها كانت تتحدث كثيراً.

لذلك صمتت بعض الوقت لكي تتيح له الفرصة لكي يقول:

- إن الجو حار هنا جداً.

- نعم. لكننا في الجنوب تعودنا على الحرارة. سوف تتعود عليها.

جاءت شابة شقراء. سلَّمت عليها ببرودة. قدمتها من دون حماس:

- صديقتي كريستين. إنها طبيبة نفسانية من سويسرا. ليست من المدعوات إلى المهرجان لكنني فضلت أن تكون هنا. لقد قضينا سنتين في غرفة واحدة في باريس.

وكانت الشابة الشقراء تنظر إلى السماء الزرقاء وإلى الفضاء الممتد، كأن الأمر لا يعنيها، كأن هذه الزرقة وكأن هذا الفضاء الشاسع لا يعنيان بالنسبة إليها شيئاً. نزعت قميصها المشجر، ومدت ساقيها على الكرسي المقابل.

استرخت وأغمضت عينيها، ووضعت ذراعيها وراء قفاها. لم يأكل بما فيه الكفاية، إلا أنه كان يشعر بأنه استعاد شيئاً من الراحة. ثم قالت وهي تنظر إلى صديقتها السويسرية.

- هذا المساء، سوف تقرأ لنا شعراً أليس كذلك؟

- بكل تأكيد، ولماذا جئت إلى هنا؟ أتمنى أن أستمع إلى شعراء آخرين. أعرف أن عندكم شعراء تونسيين جيدين. يبدو أنها لم تستحسن رأيه. ولذلك قالت:

- أنا لا أهتم كثيراً بالآداب، قد يكون هناك شعراء جيدون في

تونس، إلا أني أهتم كثيراً بالبحث في البحر. البحر عالم غريب. إنه قصيدة جيدة، مثل القصائد التي قرأت. لا يهم لكنك سوف تقرأ شعراً هذا المساء.

كانت الشابة السويسرية نائمة أو مغمضة العينين. ولم يكن يعرف في ما إذا كانت تهتم بالشعر أم لا. فكثير من العلماء لا يفهمون شيئاً في الأدب أو الفن. ولكنهم يرصدون حالات نفسية قد تنعكس عليهم. حالات تعود بهم إلى طفولتهم. ليس بالضرورة أن تهتم به هذه الشقراء إذا كان شاعراً. قد لا يهمها الشعر بقدر ما تهمها بعض الحالات النفسية التي تذكّرها بطفولتها أو بطفولة الأطفال الذين كانوا يلعبون معها لعبة الاستغماية، أو أية لعبة أخرى. على كل حال، إنها نائمة الآن أو مغمضة العينين. وقد تفتحهما جيداً عندما تشخّص حالة مرضية لإنسان مريض. ولِمَ لا يكون هذا الإنسان المريض شاعراً؟ ولِمَ لا تكون هي نفسها مريضة؟ لماذا جاءت إلى هذه المدينة بالذات؟ هل جاءت لتأكل وتنام؟ هناك أشياء أخرى يسافر الإنسان من أجلها. كأن يستمع ويرى ويفعل أشياء أخرى لا يمكنه أن يفعلها في بلده. عندما كان يفكِّر في هذا تمددت على الجانب الأيسر فوق الكرسي، وأخذ يسمع شيئاً مثل الشخير. إذن لقد نامت، لكنها لم تمت. امرأة تشخر. يمكن أن تكون متعبة، وسوف يتعب هو كذلك عندما يقرأ شعراً هذا المساء. ولا شكّ أنه سوف يشخر دون أن يشعر بذلك، لا أحد يعرف ما الذي يحصل له أثناء النوم. هناك أحلام نتذكرها وأخرى تتعبنا بعد اليقظة. لا شكّ أنها تحلم الآن. شيء جميل أن يحلم الإنسان في النوم بدل اليقظة، فالحلم في اليقظة نوع من الجنون. هكذا فكّر، وهو يحلم، في أن هذه الشقراء يمكنها أن تعانقه ذات يوم، في مكان ما. حلم يقظة، لكنه يمكن أن يتحقق.

كانت التونسية قد أغمضت عينيها كذلك. وظلَّ هو يبحلق في المسبح وفي الطبيعة، إلا أن التونسية سرعان ما انتفضت واقفة.

- آه، عليك أن تذهب لتستريح قليلاً. سوف أتصل بك، بكل تأكيد أن جمهوراً كبيراً سوف يحضر هذا المساء.

أشعلت سيجارة وأخذت تنظر في الاتجاه المعاكس إلى السماء الزرقاء. تمشت قليلاً نحو حافة المسبح، كانت تدخن وهي تنظر إلى بعض الأطفال الصغار الذين يتراشقون بالماء.

ضحكت بصوت مرتفع وعادت لتصرخ:

- كريستين!! استيقظي سوف تنامين عندما تعودين إلى بيرن، أو عندما تذهبين إلى القبر.

قال هو:

- سوف ننام هناك جميعاً (في القبر طبعاً).

سكت، وشرب جرعة من السائل الذي كان أمامه. في حين تململت الشقراء وتثاءبت، ومطّت ذراعيها دون أن تتكلم. نظرت إلى ما حواليها كأن هذا العالم غريب عليها. طلب الاستئذان، وانصرف إلى غرفته. ترك معهما إيروس. وكان يردد بعض الأبيات الشعرية من قصيدة سوف يلقيها هذا المساء. وتساءل مع نفسه فيما إذا كان بالفعل شاعراً كبيراً، كما قالت له المختصة في الكيمياء البحرية. وهل صحيح أن البحر قصيدة كبيرة وعظيمة ورائعة! ارتمى على الفراش دون أن ينزع حذائيه. ثم نام كما لو أنه لم ينم في حياته أبداً. وبطبيعة الحال، فقد حلم. لكن لا أحد يعرف بأي شيء كان يحلم. قد لا نتذكر أحلامنا بَله أن نتعرف على أحلام الآخرين. وبكل شكّ فإنه قد حلم والأحلام قد تقطعها كوابيس، وأحياناً مكالمة هاتفية مثل هذه:

- أستاذ، هل نمت جيداً؟ السيارة في انتظارك عندما تستعد، نحن موجودون في المقصف، إن مقر الملتقى ليس بعيداً.

دخل إلى المرحاض، نظر في المرآة ثم اغتسل، ونظر إلى وجهه، وابتسم مراراً لكي يختار أية ابتسامة تليق بمن سيلتقي بهم. إنه لا يعرف نوع الناس الذين سيلتقي بهم. قد يكونون مسؤولين في الدولة، أو كتّاباً مهمين، أو شعراء مبتدئين عديمي الموهبة، يحاولون دائماً إثارة الانتباه إليهم في المهرجانات. وعلى كل حال، فقد جرَّب أمام المرآة كيف يبتسم لكل واحد.

ثم دقّ جرس التلفون مرة أخرى.

- نعم، حالاً أنا حاضر. سوف ألتقي بكم فوراً.

لكنه عندما ألقى نظرة أخيرة على الغرفة، لم يخرج من الباب، وإنما خرج من النافذة التي تطل على البحر. نظر إلى ذلك الفضاء الواسع، كانت الشجيرات ملتفة ومتشابكة. لم تكن هناك فراشة أو نحلة.

ترك النافذة شبه مفتوحة. ولتدخل كل الفراشات والزنابير، أو حتى ابن آدم أو ابن آوى. ولا شكّ أن أحد المستخدمين سوف يدخل إلى الغرفة لكي يتفقدها، أو يتجسس عليها من خلال الثياب أو نوع الأحذية، أو حتى إذا اقتضى الحال نوع الفرشاة التي يستعملها، هذا شيء عادي في الفنادق، لكنه يحرص كل الحرص على أن يحمل معه جواز سفره. إذا سرقت فرشاة الأسنان، فذلك أمر هيّن. أما إذا سرق الجواز فتلك حكاية السندباد، وقد سبق أن حصل له ذلك في أحد البلدان عندما استدعي لكي يقرأ شعراً. وفكر في أن كتابة الشعر قد تكون جواز مرور إلى الناس إلا أنها قد تفقد الشاعر أحياناً أشياء كثيرة، حتى لو كانت جواز سفر.

ضحك بصوت مرتفع دون أن يشعر، إلا أنه انتبه إلى ذلك،

والتفت حوله مخافة أن يكون أحد قد سمعه. لحسن حظه، كان هناك إنسان واحد يتكلم إلى نفسه وهو مستلقٍ فوق رمل الشاطئ ينبشه بيده. عرج على المقصف فتحدثوا قليلاً وشرب قهوته بسرعة ثم استقلوا سيارتين وذهبوا إلى مقر الملتقى لكي يقرأ شعراً.

كانت القاعة غير مغطاة والساعة حوالي الخامسة، عندما أخذ مكان على المنصة إلى جانب خمسة أشخاص. كان أمامه جمهور قليل من الناس. إلا أنهم بدأوا يتوافدون. تمعّن في سحناتهم، وبدا له كأن الأمر لا يعنيهم على الإطلاق. هل هم أفهم أعضاء في الحزب جاؤوا فقط لملء القاعة لا فرق عندهم بين الاستماع إلى قصيدة شعرية أو خطبة سياسية؟ مع أن القصيدة تختلف دائماً عن الخطبة السياسية التي تتحدث عن الأيادي الخفية التي تتدخل في شؤون البلاد وعن ارتفاع الأثمنة والمطالبة برفع الأجور وما إلى ذلك من الكلام الذي يتكرر من تشيلي إلى أنغولا، ومن المغرب إلى جابس. هنا لم يهتم رئيس الجلسة على ما يبدو بتلك السحنات. أو ربما كان متعوداً على ذلك، وهكذا افتتح الجلسة مع الإشادة بطبيعة الحال بدور الحزب في إقامة هذا الملتقى. والغريب في الأمر أنه عندما كان يتحدث، عبرت فراشة ملونة حومت ثم حطت فوق المنصة وانصرفت. لكن يبدو ألا أحد انتبه إليها. هكذا تصور الشاعر، قد ينتبه المرء إلى نحلة أو ذبابة، لكنه لا ينتبه إلى فراشة ملونة. وتذكر أنه قرأ ذات يوم قصة عن قاضٍ وقور حطت الذبابة فوق أنفه، لكنه لم يحاول أن يطردها بيده.

وظلَّ الناس ينظرون إلى الذبابة، دون أن يهتموا بما كان يقول. لقد أفتى في كل شيء، وأصدر أحكاماً، لكنه لم يستطع أن يرفع يده ليهش بها على الذبابة. إلا أنه استطاع أن يتكلم ويقرر مصير الناس، دون أن يقرر مصير الذبابة التي كانت تحط على أنفه إلى أن قررت

مصيرها بنفسها فطارت. وحومت واختفت مثلما فعلت الفراشة الآن، ثم بدأ الشاعر يقرأ شعراً عاطفياً وشعراً ثورياً، فكّر أنه يستطيع أن يقلب به العالم، ومع العلم أن العالم ينقلب على نفسه كل لحظة. تلك غريزة بشرية مؤكدة قد نحب لنكره وقد نكره لنحب من دون أي دافع معروف. وقد نندم على ذلك، وأحياناً لا يمكن للمرء أن يندم مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الشاعر الذي ترك النافذة مفتوحة للفراشات أو الزنابير أو بني آدم، أو بنات حواء أو آوى جميعاً. لكن قصائده الثورية لم تثر اهتمام أحد. ويبدو أن الناس قد ملّوا الحديث عن المناجل والمطارق والبنادق والخنادق. ويبدو كذلك ألا أحد لم تعد له الرغبة في حمل بندقية والعيش في خندق تحت المطر أو تحت أشعة الشمس الحارقة، في انتظار أن يصدر أمر بوقف إطلاق النار من المكاتب وخلف ربطات العنق والأحذية الملمعة والأدمغة المشمعة التي لم تقرأ في يوم من الأيام قصيدة واحدة.

وتذكر أن زوج ملكة بريطانيا سُئل ذات مرة عن توماس إليوت، فأجاب: «آه! ذلك الذي يكتب أبياتاً موزونة»، وقال في نفسه، عندما قرأ شعره، ولم ينتبه إليه أحد، على من تقرأ مزاميرك يا داود. وفجأة وقف رجل كان في نهاية القاعة، ذو لحية خطّها الشيب. وأخذ يصرخ كما لو كان مجنوناً: الصلاة! الصلاة! والشعراء يتبعهم.. إلخ. ثم تبعه مجموعة من الناس، وغادروا القاعة غير المغطاة، وذهبوا - ربما - إلى أداء الصلاة. وردد في قرارة نفسه:

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب

وقال في نفسه كذلك: هذا بيت شعري وليس غواية. نظر حواليه، وكان يستمع إلى كلام لم يفهمه، إلا أن المصلين عادوا إلى القاعة غير المغطاة. كانت هناك فوضى حقيقية لم يشهد لها مثيلاً.

وقف الرجل العجوز في نهاية الصف وفي يده نسخة من القرآن الكريم وأخذ يتحدث عن كل شيء إلا عن القصائد التي لم يستمع إليها كلها. ثم أخذ يصرخ والزبد يرغي من فمه:

- «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون».

عودوا إلى بلدانكم. لا إله إلا اللَّه. لم يفهم الشاعر شيئاً. إلا أن الشاعر بالفعل استجاب للنداء وعاد إلى بلده فيما بعد، دون أن يتمكن من زيارة غابة «شنيني» التي قِيل له إنها تثمر موزاً في حجم التمر. كل شيء بمقدار. لا إله إلا اللَّه.

الجناح رقم 36

لن أكذب عليك فوالدي لم يعلمني الكذب. لقد مات دون أن يعلِّم أحداً الكذب سواء على نفسه أو على غيره. وكذلك جدي لم يكن يعرف الكذب.

كان عجوزاً صامتاً دائماً يجلس بالقرب من الشجرة لكي يدخّن الكيف. تلك الشجرة لا تزال موجودة في ساحة بيتنا، أقصد في ساحة مدرسة الراهبات التي كان يشتغل فيها جدي كحارس، وعندما كبر جدي أصبح والدي حارساً في المدرسة نفسها، بمعنى أنه حلَّ محله وأنا الآن أسكن في دار تابعة للمدرسة.

واسمح لي إذا كنت أتحدث بالفرنسية. إنني أستطيع أن أقرأ اللغة العربية لكني تعودت على الحديث باللغة الفرنسية. لأنني نشأت في مدرسة للراهبات. إنهن يتقن اللغة العربية حقاً، لكنهن غالباً ما يتحدثن باللغة الفرنسية وأحياناً يتحدثن بلغة أخرى أعتقد أنها اللاتينية، ولا شكّ أنها كذلك. قلت إنني أسكن في بيت هناك، لكني لا أسكن وحدي ولن أكذب عليك فأنا أسكن مع والدتي. لي أخ متزوج يأتي أحياناً ليزورنا وحده لأن أمي لا تحب زوجته، هذا كل ما في الأمر، وكم كنا نلعب أنا وأخي حول الشجرة ونفرش تحت أغصانها في الصيف حصيراً، وندخن بعض الحشيش. أنا لا أخجل من أخي، إنه بمثابة صديق. كان جدي ووالدي كذلك

يدخنان الكيف قرب جذع الشجرة. قد تتصور الأمر غريباً إذا ما قلت لك إن جدي دفن بضع قطع من السكر حول جذع الشجرة ثم كان يسقيها بالماء. لا أدري لماذا كان يفعل ذلك؟ وظلَّ يفعل أبي ذلك بعد أن مات جدي، وبعد أن توفي والدي فإني لا أزال أفعل ذلك. أتمنى أن تذهب معي إلى مدرسة الراهبات، إلى بيتنا، وسترى تلك الشجرة، فهناك أضع كل مساء مرة في الأسبوع قطع سكر وأسقيها ولا أعرف لماذا أفعل ذلك؟ إنها فكرة الأجداد، ولا شك أن للأجداد أفكاراً جيدة لا نعرفها نحن. إنهم يعرفون أحسن منا من دون شكّ، صحيح أنهم كانوا يتقاتلون كثيراً. وهذا ما أقرأه في الكتب الموجودة في خزانة مدرسة الراهبات. لقد مرّ العالم بحروب كثيرة، لكن مات كل من قاتل أو تقاتل أو من لم يتقاتل، وأنت تعرف أننا كلنا سوف نموت جميعاً حتى لو لم نطعن بسكين، أو تُطلق علينا رصاصة. كلنا سنموت. كُن متأكداً فأنا لا أكذب عليك، لأن أبي لم يعلمني الكذب الذي لم يتعلمه من جدي والذي لم يتعلمه جدي من جده. إن الكذابين في هذه الحياة كثيرون. أنا لست منهم، بدليل أنني قلت لك أمس إنني بعت دراجتي الهوائية لكي أشتري سواراً ذهبياً لإحدى صديقاتي التي تزوجت مؤخراً. وقد بقي شيء من النقود سوف أشتري به زجاجتيّ نبيذ نسكر بها معاً. أنا لا أحب السكْر، أحب أن أشرب فقط وخصوصاً مع شخص مثلك. يقولون إن شرب الخمر حرام في الإسلام، لكنني رأيت كثيراً من الناس يشربون!

لقد تعودت شرب الخمر عند الراهبات، إنهن يشربن لكنهن لا يسكرن. وكم رأيت بنفسك كيف تشرب المسلمات، ثم يتشاجرن مع بعضهن ويكسرن الزجاجات والكؤوس ويقلبن الكراسي على رؤوس بعضهن. كُن متأكداً أنني لست منهن ولا يمكن أن أفعل ذلك معك

على الإطلاق.. إنهن يتشاجرن حتى مع أصدقائهن. أنت صديقي، ولن يخطر لي أبداً أن أفعل ذلك. ثم إنني دائماً بجانبك. صحيح أنني أعتني بذلك المريض. لكن عنايتي بك أكثر. إنني أقولها بكل صراحة. هناك فرق كبير بينك وبينه.

إنه طيب لكنه غبي. إنني أتقاضى أجراً محترماً وأعرف جيداً أن سبب مرضه هو افتراق والده عن أمه. إن والده طبيب جراح يوجد الآن في فرنسا، أما أمه فلا تزال تعيش في المغرب. ولقد أقسمت بروح أجدادها ألا تعود أبداً إلى فرنسا، إنها تشتغل مدرِّسة ولها أصدقاء كثيرون حتى إنني لا أستطيع أن أتذكرهم، يشربون كثيراً، كأن البيت مخزن للويسكي، إنك تعرف أحسن مني. لقد توقف ابنها عن حقن نفسه. لكني لا أزال أعطيه بعض المسكنات عندما يبدأ في الهذيان. إنه يبلغ من العمر تسع عشرة سنة، لا تقل إن لي علاقة به. إن له صديقة يهودية، أقبّله أحياناً لكي أهدئه بعد أن أناوله بعض الأقراص، ينام بين أحضاني لكن ليست لي علاقة به. تلك العلاقة التي يمكن أن يتصورها أي إنسان. وأنت تعرف أن الإنسان يمكنه أن يتصور أي شيء، وتصوره يمكن أن يكون حتى عن نفسه، بَله عن الآخرين. وعلى سبيل المثال فإنني أتصور أحياناً أنني أمه وأنسى طفلي الوحيد الذي أخذه مني أبوه وغادر المغرب. المهم أن ابني يعيش مع والده في ذلك البلد الذي قد يوفر له أشياء كثيرة. لا تعتقد أنني أتحدث بفعل الشراب. إنني أقول لك كل شيء، ولماذا أخفي شيئاً ما دمت أعيشه؟ دعهم يخفون أشياءهم الخاصة بهم. لكل واحد وشأنه. المهم أن لي شأناً واحداً هو أنت. أنا لا أكذب لأن أبي لم يعلمني الكذب، إنني أثرثر عليك كثيراً لكن اعذرني فأنا أظل أستمع إليه. إنه يقول كلاماً كثيراً ولا يقول شيئاً ولكنني أتحمله. لقد قلت لي ذات يوم إن على الإنسان أن يكون له صدر رحب حتى يتحمل

هذه الحياة التي لم نختر المجيء إليها. هل تذكر كلامك هذا؟ بكل تأكيد فأنت تتذكر كل شيء ولهذا أحبك. بكل صراحة سوف أعلمك كيف تضع قطع السكر حول جذع الشجرة. وسوف نسقيها معاً مثلما فعل والدي وجدي، وربما فعل ذلك قبلهما آخرون، ولن أكرر لك أننا يجب أن نأخذ العبرة مما فعله الأجداد سواء كانوا حمقى أو حكماء. أنت لا تريد أن تسمع كلمة حب. أفهمك جيداً. لكنني أحبك. وأنت تعرف أن الحب ليس هو العاطفة. أنا أعطف على ذلك الفتى كما أعطف على أمه التي تُغرِقُ نفسها في الشراب. أحياناً أتساءل لماذا تفعل ذلك. إنها تنتحر ببطء. كم من مرة أدخلوها إلى المستشفى لكنها تعود إلى الشراب. لقد كفَّ ابنها عن الشراب ولم يعد يحقن نفسه. غير أني كما قلت لك أناوله بعض الأقراص وأظل أهدهده حتى ينام مثل طفل وديع. إنني أعطف عليه لأنني مررت بالحالة نفسها عندما هجرني زوجي وأخذ مني طفلي الوحيد، أخذوني إلى مستشفى الأمراض العقلية في الجناح رقم 36 وسمعت الطبيب يقول للمرضة إنني مصابة بمرض اسمه الذهان العضوي. وأنا لا أعرف شيئاً عن هذا المرض. أنا أحس بشيء يؤلمني ولكنني لا أتحمل إنساناً لا يفهمني حتى لو كان الخطأ صادراً مني. يمكن أن تعتبر ذلك نوعاً من الأنانية. لكن في نهاية الأمر الإنسان أحياناً لا يكون مسؤولاً عن طبيعته أو تصرفاته. قلت لي ذات مرة إن هناك أشياء لا نستطيع إدراكها، فهي فوق قدرتنا العقلية، ولهذا لا تعتبرني أنانية إذا ما ارتكبت خطأ ورفضت ألا يتحمله أحد، تلك طبيعتي وشيء فوق قدراتي العقلية. وكذلك إن ما دفع الفتى وأمه إلى الإدمان شيء فوق طاقتهما. أعرف هذا جيداً ولقد تعلمته منك، ولذلك إنني أعطف عليه كثيراً بقدر ما أحبك، لقد أحببت زوجي ولكنه فعل ذلك.

أنتم الرجال - عفواً هم الرجال - هكذا لا يمكن للمرأة أن تثق فيهم، فكلما وضعت المرأة الثقة في الرجل إلا وانتفخ مثل الديك الرومي أو انتفش كالطاووس، تقول إن العكس صحيح. أنا متفقة معك فما ينطبق على الرجل يمكنه أن ينطبق على المرأة. كنت أعرف قطاً وقطة لا يفترقان في حديقة مدرسة الراهبات، لكن قطة لا أدري من أين جاءت، ربما كانت قد تسلقت السور الحديدي، أصبح القط يحبها. هل القطط تحب؟! تقول: نعم كل ما تقوله اتفق معك عليه، ثم ماءت القطة الأولى طوال أيام معدودات ثم ضعفت ونحفت ثم ماتت يا سبحان اللَّه! لكنني لم أمت بعد أن أخذ ابني وذهب به إلى هناك. لقد عزفت عن الأكل مدة طويلة وبكيت. وإذا كانت القطة تموء فإنني كنت أبكي. نسيت كل شيء عندما التقيت بك. وكما قلت لك فقد مررت بالحالة نفسها التي يمر بها الفتى إلا أن أمه لا تزال تسكر وتبكي باستمرار. ولم تحاول أن تنسى ما وقع لها. ربما ارتكبت أخطاء أو ارتكبت في حقها أخطاء لكنها لم تحاول أن تنسى ذلك. ماذا تقول؟ لم أسمعك جيداً. آه تقول إن الحياة نفسها خطأ، ومن أخطأ إذن في خلقها؟ أنا لا أفهم كلامك في بعض الأحيان، وتقول أيضاً إن كثيراً من الناس وُلِدوا خطأ، أتمنى ألا أكون منهم بدليل أنني أعتني بذلك الفتى، ولو لم أُولد من الذي كان سيعتني به ولو لم يُولد الأطباء من الذي كان سيعتني به وبأمه. تقول إن بعض الناس وُلِدُوا لتصحيح أخطاء الآخرين، هذا كلام أفهمه. لكنك تصرّ على أن الحياة كلها خطأ. شيء جميل أن أسمع منك كلاماً حتى لو لم أكن أفهمه. فما كل ما يُقال يفهم. إلا أنه على الرغم من ذلك يكون جميلاً لأنك تسمعه من إنسان تحبه. وعندما نحب إنساناً ما فإننا نفهم منه ما لا يمكن أن يفهم أو على الأقل يبدو لنا جميلاً معقولاً ونحاول أن نؤوله، ونجد فيه كثيراً من الصواب. مهما يكن

فهذا كلامك. قد تبدو لي أحياناً غامضاً لكنني أفهمك ولذلك إني أحبك. لا تلمني إذا كنت أبكي أحياناً، فأنا أبكي عندما أتذكر أشياء تبدو لي مضببة في الذاكرة إلا أنها مع ذلك تبكيني. إنني أحياناً أبكي من دون سبب. تقول إن ذلك شيء غريب لكنك قلت لي مراراً ألا شيء غريب في هذه الحياة. لقد ندمت كثيراً على الرجال الذين عرفتهم قبلك، لأنهم لم يكونوا يقولون لي شيئاً. كانوا فقط يرددون الكلام نفسه مثلاً: «أنت تصلحين للدار ولا تصلحين للبار». لماذا يتشابه الرجال بهذا الشكل؟! ولماذا أنت مختلف عنهم؟ تقول إن تلك مشيئة اللَّه، ولماذا يشاء الله لهذا الإنسان شيئاً دون أن يشاءه للآخر؟ تقول إن هذا الكلام فيه إلحاد. لا أنا لست ملحدة لكنني فقط أريد أن أعرف. ولكي تتأكد أنني لست ملحدة فإني أفكّر عندما أكبر بالذهاب لزيارة الكعبة وسوف يغفر لي اللَّه كل ذنوبي، أليس كذلك؟ تقول إننا كلنا مذنبون، أنا لم أفعل شيئاً ولذلك إني أقلّهم ذنوباً. حتى عندما أخذوني إلى الجناح 36 لم أكن أعرف لماذا أخذوني. كان بإمكانهم أن يأخذوا شخصاً آخر في حاجة إلى تلك المسكنات فقد كنت أستريح عندما أتناولها. تصور أنني ذات مرة رأيت الملائكة. هل سبق لك أن رأيت الملائكة؟ ماذا تقول؟ تقول إنك رأيت الشياطين في صورة بني آدم. يا إلهي! هذا كلام غريب. أتمنى ألا أرى شيطاناً في حياتي حتى لو كان في صِورة بني آدم. لكن يبدو أني فهمت ما تقصده بالشياطين لأن الفتى وأمه سمعتهما مراراً يقولان «اتركني، دعني وشأني» ولم يكن هناك أحد حاضراً أبداً. تقول إنه الشيطان الذي كان حاضراً معهما لكنني لم أرَه ولو قدِّر لي أن أراه لفررت من النافذة أو من أية كوة. لا ترعبني، تقول إنه يستطيع أن يتبعني، تقول إنه تمرد على اللَّه، فكيف لا يستطيع أن يتبع الإنسان؟ لكني أعرف أن الله قوي ويستطيع أن يضعه في قفص

ويسجنه فيه إلى يوم القيامة. اسمع يا حبيبي، إنك تقول لي أشياء كثيرة ربما تعيدني إلى الجناح رقم 36. هذه أشياء فوق طاقتي ولا أستطيع أن أعرفها. بكل تأكيد إنني لن أعود إلى الجناح رقم 36، لقد فهمت اللعبة وبما أنني لست حمقاء فإنني لن أعود إلى هناك، لقد أخذوني لأنهم لم يفهموا أنني لا أفهمهم، عليك أن تفهم حماقتهم وإلا فإنك سوف تكون أحمق في نظرهم أو مصاباً بذلك المرض الذي سمّاه الطبيب ذهاناً عضوياً. آه! لقد ثرثرت كثيراً كعادتي. إنك تتقبل كلامي وهذا ما أحبه فيك. ليت كل الرجال كانوا مثلك ولا يسرقون أطفال زوجاتهم ويذهبون بهم إلى بلد بعيد، لكن لا بأس كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن أننا سوف نتحدث مرّات أخرى حتى الموت، وأعتقد أن مصيرنا سوف يكون واحداً، أنا متأكدة من هذا ولقد حلمت به مراراً وتكراراً. تقول إنك لا تثق بالأحلام، لكن والدي قال لي إن الحلم مذكور في القرآن وأنت تحب القرآن كثيراً. وطالما قلت لي إنه كتاب عظيم. يا إلهي كم تعلمت منك الشيء الكثير. اسمح لي فالكلام يطول يا حبيبي. لا شكّ أن الفتى استيقظ الآن من نومه وأن عليّ أن أعطيه بعض المسكنات، ولا شكّ أن أمه سقطت الآن على البلاط وكسرت الأواني وزجاجة الويسكي. علي أن أذهب الآن لكي أصحح ذلك الخطأ فالأمر فوق طاقتي. لا تدفع ثمن ما شربنا فأنت تدفع دائماً، والأمر كذلك فوق طاقتك. إلى اللقاء مساءً. باي باي. «Fais-moi une grande bise».

الجرذ والعصافير

كان الشارع خالياً من المارة. إلا أن هناك بعض السيارات رابضة وملتصقة ببعضها. لكن فتّاح الصغير كان يلهو بشيء ما بين سيارتين. لم يرَه أول الأمر، وعندما خرج الصبي مندفعاً من بين السيارتين كان يصرخ وهو يلتفت إلى الوراء. وعندما رآه الصبي قال:

- عمي، عمي، هناك جرذ كبير. لقد دخل في تلك البالوعة. كاد أن يأكلني.

- لا يمكنه أن يأكلك. إنك رجل. والجرذان تخاف من الرجال.

- لقد دخل هناك يا عمي. وحتماً سوف يخرج وقد يستطيع أن يقضم أصابع أختي كوثر. إنها لا تزال نائمة. وهي تخاف كثيراً من الفئران ومن القطط والكلاب. القطط جميلة يا عمي، لكن السوداء منها شريرة.

نظر إلى الطفل وإلى البالوعة بين السيارتين. لم يكن هناك أي أثر لأي جرذ، بل كانت هناك بعض الأزبال وبعض الجرائد المكوَّمة وقنينة خمر فارغة. شيء عادي أن يرى ذلك. فالشارع كله أزبال. والزبالون الكسالى يأتون متأخرين. إن السيارات كثيرة لكنَّ الزبالين قليلون. تراجع فتّاح قليلاً إلى الخلف وأشار بإصبعه جهة البالوعة وقال:

- هنا يا عمي اختفى. لو استيقظت كوثر وخرجت لقضم أصابع رجليها ذلك الجرذ. إنه سمين يا عمي لكني لم أعثر على حجر لكي أقتله. من هنا يا عمي، دخل من هنا.

ثم عاد فتّاح إلى مكانه وهو يفرك عينيه. وضع كفّه على السيارة وألقى ما كان بيده الأخرى. ربما كان قطعة ورق أو أي شيء آخر. وقال لفتّاح:

- ألا يزال أخوك نوفل نائماً كالعادة؟

- لا يا عمي، لقد استيقظ مبكراً هذا الصباح.

- هل أنت الذي أيقظته؟ أم أيقظته أمك؟

- عندما استيقظت لم أجده بالقرب مني. كانت فقط كوثر، وكان فيصل يشخر. إنه يوم الأحد يا عمي. لم نذهب إلى المدرسة. ثم إن نوفل استيقظ مبكراً لكي يدفن العصفور في الحديقة.

- هل كان عندكم عصفور؟

- نعم. أول أمس اشتراه نوفل. لكن مات. عصفور صغير جميل إلا أنه مات. وقد حفر له نوفل حفرة ودفنه فيها قبل أن يأكله جرذ أو قط. القطط كثيرة يا عمي وكذلك الجرذان. وهي تختفي هناك، في تلك البالوعة.

تراجع فتاح قليلاً، وأشار بإصبعه إلى البالوعة. وعندما انحنى بين السيارتين بجسمه النحيف، بدا كما لو كان قطعة ثياب بالية، مكوَّمة، مُلقاة بين سيارتين، تنتظر زبّالاً. فرك عينيه شبه المعمشتين مرة أخرى وقال:

- كان العصفور جميلاً يا عمي. وكنا نريد أن نربيه. في الحقيقة لم نشترِ له قفصاً. وربما مات لأن نوفل ربط رجله بخيط. وكانت كوثر تحاول أن تطعمه. الخبز. لا أعتقد يا عمي أنه يأكل فتات الخبز. لكن ليس عندنا قمح في البيت. إن القمح الذي كان

عندنا في البيت دفعته أمي إلى المطحنة. ولم تبقَ هناك ولو حبة واحدة. وهكذا مات ذلك العصفور المسكين واستيقظ نوفل مبكراً ودفنه. من الأفضل أن يموت ويُدفن قبل أن يأتي قط أو أي شيء آخر فيأكله. تعرف يا عمي أن نوفل ينام كثيراً. ولكنه استيقظ مبكراً لدفن العصفور. كاد نوفل أن يبكي.

استمع إلى كلامه الذي غطّى عليه هدير سيارة جيب صغيرة مرّت خلف ظهره، بعد أن زمّر سائقها لكي يخلي له الطريق.

أشعل سيجارة، ربما من أثر الانفعال، لأنه ليس من عادته أن يدخن في الصباح. وقال لفتّاح:

- سوف أشتري لكم عصفوراً وقفصاً. وقُل لنوفل ذلك. قُل له كذلك إن عليه ألا يبكي. إن البكاء لا يعيد الميت إلى الحياة.

- وأين ذهب الآن يا عمي؟ هل له روح مثلنا؟ إن المعلمة تقول لنا إن لكل واحد منا روحاً وتقول لنا كذلك إننا عندما نموت سوف نعثر على أشياء جميلة، إذا لم نكن نقوم بأشياء قبيحة في الدنيا. هل هذا صحيح يا عمي؟

- إن ما قالته لكم المعلمة صحيح. إذا مات عصفور عليك أن تدفنه حتى لا يأتي آخر فيأكله. هناك بعض الأطفال لا يدفنون العصافير الميتة، بل يلقون بها في الطريق. هذا شيء قبيح. وهؤلاء الأطفال لن يعثروا على تلك الأشياء التي تحدَّثت لكم عنها المعلمة، عندما يموتون. أنت ونوفل لستما قبيحين، وسوف تعثران على تلك الأشياء الجميلة في مكان اسمه الجنة.

- وأين يوجد هذا المكان يا عمي؟

- في قلب المؤمنين.

- ومن هم المؤمنون؟

- عندما تكبر سوف تعرفهم. إنهم يوجدون في الرباط.

- عندما أكبر، سوف أسافر إلى الرباط لألتقي بهم. لا شكّ أنهم يدفنون العصافير ولا يلقون بها في الشارع.

- إنهم يشوون بني آدم بَله العصافير.

- لم أفهم يا عمي.

- عندما تكبر، سوف تفهم. المهم أنك أنت وأخوك قد دفنتما العصفور وحسناً فعلت عندما طاردت الجرذ، وإلا لقضم إصبع كوثر.

- أنا في أول الأمر خفت منه يا عمي، لكنه في النهاية عندما نظر إليّ وحاولت أن أضربه بقدمي فرَّ ودخل إلى البالوعة، لا شكّ أن له عائلة داخل تلك البالوعة.

- بكل تأكيد. هل أفطرت؟ أم أن أمك لم تستيقظ بعد؟

- لا يا عمي، لم أفطر. ثم إن أمي تستيقظ مبكراً دائماً. حتى عندما كان أبي معنا ولم يسافر إلى فرنسا للعمل هناك. إنه يرسل لنا الفلوس والثياب. وعندما يعود فإنه من غير شكّ سيشتري لنا عصافير وأقفاصاً.

فكّر أنه أطال الحديث مع الطفل. أدخل يده في جيبه وأخرج حفنة من الدراهم. أعطاه درهماً وانصرف، دخل فتّاح إلى بيتهم. فالباب كان شبه مفتوح. مشى على الطوار الضيق باتجاه الكشك. آملاً في أن يعثر على جريدة غالباً ما تنفد. كان الشارع خالياً تماماً، لكن عندما وصل قرب الصيدلية، أحس بحركة غريبة. لم يكن سوى نوفل جالساً على الطوار بين سيارتين. جرى نوفل إليه.

- عمي! لقد مات. مات لي عصفور جميل.

أخذ نوفل يجهش بالبكاء وهو يحاول أن يمسح دموعه.

- لا تبكِ. الرجال لا يبكون. إنك رجل، والبكاء لا يعيد الأموات.

- إنه جميل يا عمي.

أدخل يده في جيبه وأخرج حفنة من النقود. أعطاها له دون أن يعدّها:

- خُذ هذا، واذهب لتشتري عصفوراً آخر.

انصرف باتجاه الطريق المؤدية إلى الكشك. ومن بعيد لاحظ أن الكشك كان مغلقاً. ثم قرر الرجوع إلى البيت ليشرب قهوة ثانية دون جريدته التي غالباً ما تنفد.

بورخيس في الآخرة

في الحقيقة أن بورخيس لم يكن يحاكم الأشخاص ولكنه كان يحاكم التاريخ في قصصه القصيرة المعروفة. وكم من الناس الذين صدرت في حقهم أحكام عبر التاريخ كان يجب إعادة محاكمتهم! لكن الموت حسم كل شيء بالنسبة إلى الحاكم والمحكوم عليه وبالنسبة إلى شاهدي الزور والقواد العسكريين والحُكّام والهوام الذين يسمع طنينهم حولهم، لكن بورخيس لم يكن في إمكانه أن يحاكم كل هؤلاء البشر الذين مروا عبر هذا التاريخ الطويل، فعمره كان قصيراً جداً (حوالي الثمانين سنة فقط)، وكما قصر عمره قصرت قصصه، إلا أنني تمنيت لو أنه حاكم أشخاصاً آخرين. لكن بما أنه قد مات فقد أتيحت له فرصة حضور محاكمة الأفشين قائد جيوش المعتصم الذي قال فيه أبو تمام:

لقد لبس الأفشين قسطلة الوغى
حشا بنصل السيف غير مواكل
وسارت به بين القبائل والقنا
عزائم كانت كالقنا والقنابل

لم يُتح لبورخيس طوال حياته القصيرة أن يعرف شيئاً عن الأفشين القائد العظيم. وبما أن بورخيس كان يهتم بالعصر العباسي من خلال **ألف ليلة وليلة**، وحاكم بعض الأشخاص، فقد جيء به

كشاهد بعد وفاته لحضور محاكمة الأفشين الذي اتهِم بالزندقة. وأثناء المحاكمة سمع بورخيس تُهماً غريبة لم تكن تخطر له على بال لأنه نصراني، وهذه التُّهم موجودة عند كثير من المصنِّفين مثل الطبري والمسعودي وغيرهما.

ظلَّ بورخيس ينظر أول الأمر، وهو بلباسه الأوروبي الأنيق (ولم تكن معه زوجته الصغيرة) إلى هيأة المحكمة، وكانوا جميعاً بثياب سوداء. وبالمناسبة فقد استعاد بصره في الآخرة بعد أن عمي في الدنيا. ويبدو أن بورخيس لم يفهم جيداً معنى الزندقة في حياته. بكل تأكيد فإنه يعرف أن كل من خرج عن طاعة من له رأي واحد فهو زنديق. وأن كل من قال هذا شيء لا يقبله العقل يعتبر زنديقاً. وهذا الأمر موجود في السند والهند والصين وبلاد العرب وأميركا اللاتينية التي نشأ فيها بورخيس. وكم شاهد في عمره القصير ذاك العديد من الذين اتهموا بالزندقة في بلده فعذبوا أو قتلوا. ويبدو أن عينيه عميتا من كثرة البكاء عليهم.

قال له أحد الجالسين بالقرب منه:

- لا تتعجب سيد بورخيس. إنها محاكمة عادية وقد تكون شبيهة بما كان يحصل عندكم في أميركا اللاتينية. ولا شكّ أن الأمور لا تزال كما هي في الدنيا. أليس كذلك يا سيدي بورخيس؟!

- لا أدري، لأني حديث العهد بالوفاة، ثم إني لم أتعود بعد على عاداتكم في الآخرة.

قال رئيس المحكمة:

- إننا نسمع كل شيء هنا، قُل كل شيء، إنها الآخرة، لم يعد هنا اليوم بوليس ولا مخبرون ولا رؤساء دول، كلنا متساوون. فقد أردنا أن نسليك وأن نستعيد ذكريات تلك الدنيا التي لا يزال الناس يعتقدون بكل تأكيد أنهم فيها خالدون.

قال بورخيس وهو يسعل

- عفوك سيدي الرئيس، هل تعرف اسمي؟

- بطبيعة الحال، الناس كلهم هنا في الآخرة يعرفون أسماء بعضهم، وعلى سبيل المثال فأنا أستطيع أن أقول لك اسم ذلك الرجل الذي هو بجوارك. إنه يزدان بن باذان، وقد قُتل في العصر نفسه بتهمة الزندقة. ولذلك أعتقد أنه بدل أن يذهب لكي يتفسح فقد علم بالخبر وجاء ليستعيد ذكريات الماضي ولكي يعرف كيف كان يُحاكَم الزنادقة. أو على الأصح، كيف فرض علينا أن نحاكمهم خوفاً من أن نقتل.

قال بورخيس:

- لكننا متنا سيد الرئيس.

- أعرف، أعرف، لا تخاطبني بسيدي الرئيس. فهنا لم يعد رئيس ولا مرؤوس، لكننا فقط أردنا أن نسليك ولكي نسترجع أخطاءنا، يا لها من حياة سخيفة! إنهم لا يزالون يتعبون فيها هناك ويقتتلون ويجوعون بعضهم بعضاً، والحقيقة أن من مات والتحق بنا هنا فقد استراح، انظر خلفك يا أخي بورخيس، رغم أنني عشت في العصر العباسي، فإنني أعرف ذلك الشخص، اسمه هيلاسي لاسي. كان إمبراطوراً للحبشة.

- إنه من العصر الذي عشت فيه، أعرف جيداً. لكنه يبدو أنه مهموم.

- ليس مهموماً، ولكنه يفكر في كتابة قصيدة جديدة عن كلابه. وأحياناً يذهب إلى جناح الإيطاليين الذين حاربهم ويشرب معهم كأساً.

قال بورخيس:

- لم أكن أعرف أنه كان يكتب الشعر في الدنيا.

- في الآخرة كل شيء ممكن، على كل حال، فالحديث يطول، لكن، نحن لسنا في صدد كل هذا الآن.

تنحنح الرئيس حواليه ولقي الموافقة من الجميع. وقال محمد بن عبد المالك الزيات ملتفتاً إلى أحمد بن أبي داود:

- أذكر باختصار التُّهم الموجهة إلى الأفشين قائد المعتصم، وعلى فكرة، إنهما لا شكّ يشربان معاً في مكان ما، إذا دخلا الجنة. لكن اللّه غفور رحيم.

قال أحمد بن أبي داود:

- التُّهم كثيرة، منها القتل والسبي والنهب والتخريب وحرق المزروعات إلى آخره، وثّقنا ستاً منها، وهي لا تزال محفوظة عندهم في الدنيا. أرى أن نلخصها للكاتب الكبير بورخيس، الذي جاء في القرن العشرين الميلادي، وبطبيعة الحال فسوف يلتحق به وبنا آخرون، بمن فيهم كاتب هذه القصة.

وقال محمد بن عبد المالك الزيات لأحمد بن أبي داود:

- أذكر لنا التُّهم التي وجهنا للأفشين، حتى لا نثقل على الكاتب الكبير، ربما كان له موعد في مكان آخر.

قال أحمد بن أبي داود:

- حاضر، لقد أصدرنا حكم الإعدام في حقّ الأفشين، والذين نفّذوا فيه حكم الإعدام لا شكّ أنهم يتجولون في هذا العالم الفسيح اللامتناهي.

قال بورخيس:

- لا شكّ أنهم في الدرك الأسفل من النار كما قرأت في كتابكم، ولا شكّ أن الأغلال في أعناقهم وأرجلهم.

ضحك الرئيس وقال لأحمد بن أبي داود:

- إقرأ التُّهم المنسوبة إلى الأفشين.

قال أحمد:

- نحن في جلسة أخوية نؤنس بها ضيفنا الجديد في الآخرة.

- طيب. لا يهم، التُّهم التي كانت موجهة للإفشين كانت ستاً، وقد أوردها أحمد أمين نقلاً عن الطبري والمسعودي وكلهم موجودون هنا.

التُّهمة الأولى:

ضرب رجلين بالسوط حتى عرّيت ظهورهما من اللحم، لأنهما حوّلا مكاناً لعبادة الأصنام وأصبح أحدهما إماماً والآخر مؤذناً.

2) في بيته كتاب زيّن بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر باللَّه. وعندما ردّ على هذه التهمة قال إنه ورثه عن أجداده، وانتفع بما فيه من أدب وترك ما فيه من فكر.

3) اتهِم أيضاً بأنه كان يأكل المخنوقة ويزعم أنها أرطب من المذبوحة، وهذا شيء يتنافى مع تعاليم الإسلام.

4) واتهِم بأن أهل مكة كانوا يكتبون إليه باللغة الاشتروستية ما تفسيره بالعربية: إلى إله الآلهة... فماذا أبقى بعد لفرعون إذ يقول: «أنا ربكم الأعلى».

تنحنح الرئيس وقال:

- معاذ اللَّه! أكمل أكمل يا أحمد.

استمر أحمد:

- أما التهمة الخامسة، فإن أخ الأفشين كتب ذات مرة، وقد عثر على ذلك الخطاب الموجه إلى «فوهيار»، يقول: إنه ليس من ينصر هذا الدين الأبيض (المجوسية) إلا أنا وأنت وبابك... إلخ. ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس، فإن وجهت إليك لم يبقَ أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك. والعربي بمنزلة

الكلب، اطرح له كسرة، ثم ارمِ رأسه بالدبوس. وهؤلاء الذباب، أي المغاربة، إنما هم أكلة رأس. والأولاد الشياطين هم الأتراك. فإنما هي ساعة حتى تنفد سهامهم، ثم تجول عليهم الخيل فتأتي على آخرهم.

جاء رجل بكؤوس ماء كان يوزعها على الحاضرين، لم يكن بورخيس يفهم شيئاً مما يدور حوله. إلا أنه قال لأحمد:

- لكن ما التهمة التي أودت بالأفشين إلى الإعدام؟

شرب أحمد جرعة من كأسه ثم قال:

- كأنك متعجل يا سيد بورخيس. التهمة السادسة التي أفاضت الكأس هي كالتالي: لقد اتهِم بترك الاختتان. وضجّت القاعة بالضحك. وضحك بورخيس كذلك حتى دمعت عيناه، ثم قال لأحمد:

- وماذا في ذلك؟ أنا أيضاً تركت الاختتان طوال الثمانين سنة التي قضيتها هناك. وهل دافع عن نفسه؟

فقال أحمد:

- نعم يا سيد بورخيس. لقد قال إنه خاف أن يقطع ذلك من جسده فيموت، وما علم أن في ترك الختان الخروج من الإسلام.

قال بورخيس:

- لقد كانت محاكمة غريبة في ذلك العصر. وماذا فعلتم به بعد ذلك؟

قال الرئيس:

- لقد حبسوه ومنعوا عنه الطعام والشراب إلى أن مات، ثم صُلب وأحرق بالنار. اسأل الطبري وابن الأثير وابن خلدون فهم كلهم موجودون هنا في هذه الآخرة التي هي الأولى.

وقف بورخيس وتقدَّم من هيأة المحكمة وقال:

- يا لكم من أناس طيبين تعرفون كيف ترحبون بالأموات، ولو كنت أعرف منذ زمان أن هذا العالم جميل لانتحرت. وعلى كل حال فلتبقَ هذه القصة سرية، لأنهم لو علموا هناك بأن هذا العالم جميل لانتحروا جماعياً، إلا أنهم يفعلون ذلك بطريقة أخرى. مساكين!!

يد طويلة

قالت والدتها من دون تردد:

- ماذا سنفعل يا ابنتي؟ ما عليك إلا أن تتزوجيه. لا نملك شيئاً أنا وجدَّتك. ثم إنه ابن الجاري، والجاري هو الذي يحكم. يدخِل من يشاء إلى السجن.

لم يكن يهمها الزواج من هذا أو ذاك. ولكنها كانت تخاف الزواج من ابن الجاري. فهو رجل طلَّق أكثر من امرأة ورأت بنفسها كيف كان يجرهنّ من شعرهنّ وسط القرية أو قرب النبع، وكيف كان يرفسهن دون أن تستطيع إحداهن مقاومته؛ حتى لو كان ذلك في مقدورها. وإذا قبلت الزواج منه فلا بدَّ أن مصيرها سيكون مثل السابقات. زوجها مات منذ ثلاثة أشهر فقط، تحت رصاص الجنود الإسبان، عندما كان يقوم بعملية تهريب قرب عرباوة. الآن هي وحيدة مع أمها وجدتها وطفلها الصغير، لكنها لا تستطيع أن ترفض الزواج من ابن الجاري. وتصورت أن بإمكانه أن يهدم سقف البيت من فوقهن قبل أن يأخذهن جميعاً إلى السجن.

ذهبت عند إحدى جاراتها التي كانت متزوجة بخماس؛ هذه الأخيرة قالت لها أيضاً:

- ليس بمستطاعك أن تفعلي شيئاً. أنا أعرف ابن الجاري. إنه

جن والعياذ باللّه. لا يمكن أن تقولي إنه بشر. من أجل طفلك تزوجيه واصبري. اسحري له. واطبخي له شدق الجمل واقتليه.

- أنا لا أستطيع أن أقتل حتى ذبابة. ثم إن الروح عزيزة عند اللّه.

- وإذن تزوجيه قبل أن يزجّ بك في السجن.

كلهن يخفنه. كلهم يخافونه. في الواقع، لم يكن مثل الجن، لأن لا أحد رأى جنياً في حياته. ولكنه كان مثل الماعز. . ينط مثلما ينط الماعز. خفيف الحركة، عيناه يقظتان. يميل رزته فوق رأسه يميناً أو شمالاً في نخوة الأسياد - طبعاً إذا كانت للأسياد نخوة -. أحياناً يحلو له أن يطوِّح ببلغته في السماء لكي يتلقفها بيده، كي يعيدها إلى قدمه التي تظل معلَّقة. تصرفاته غريبة. إنها تصرفات ابن الجاري، هذا الذي لا يكاد يرى في المداشر. ويبدو أن الجاري متزوج في كل مدشر. شيخ كبير السن. لكنه يفتعل مهابة العملاء. ولقد شوهد إلى جانب المسؤولين الفرنسيين ذوي القبعات مراراً، في بعض الحفلات الرسمية.

عندما استمعت رقية إلى زوجة الخماس أجهشت ببكاء صامت وضمت طفلها الصغير إليها. ثم بكى الطفل نفسه. هدهدته فسكت وإن ظلَّ يصدر أنيناً.

أضافت زوجة الخماس:

- ما عليكِ إلا أن تقبلي. ولو لم يكن في عنقك والدتك وجدّتك لكنت فررت بابنك إلى مكان آخر، وأنت - تبارك اللّه - صغيرة وشابة، تستطيعين أن تشتغلي في الحصاد أو جني الزيتون أو صنع الأواني من الطين وكل شيء. لا يمكنك أن تموتي جوعاً. فأنت امرأة حقيقية كما أعرفك، ولم تقولي في حياتك أبداً «آح».

والمرأة الحقيقية هي التي تشتغل بيدها، لا التي تنتظر زوجها حتى يعود إليها بلقمة.

- أنت تعرفينني. لقد كنت أفعل كل ما تقولين عندما كان المرحوم حياً. ولا أزال قادرة على كل شيء لولا ابن الجاري هذا.

- ثم إن المرأة الحقيقية هي التي تشتغل في النهار، ولا تتزيّن إلا في الليل رغم أن زوجها لا يرى زينتها في الظلام.

كل النساء كنّ يتحدثن عن هذا الزواج. أما الرجال فلم يكن يهمهم الأمر. لأن أي امرأة مات عنها زوجها لا بدَّ أن تستر نفسها بزواج آخر حتى بأقرع أو أعور أو زحّاف. ليس في ذلك أي غضاضة. فالقرية مليئة بالنساء المتزوجات بالقرع والعمي والصم والبكم والزحّافين. الرجل يبقى دائماً رجلاً والمرأة تبقى دائماً امرأة والمحظوظة إذن من تتزوج ابن الجاري. والفقيه يقول لهم عندما يرى أو يعلم أن زوجاً قد أشبع زوجته رفساً - الشيء الذي أصبح يردده كلازمة -: «أولاً، النصيحة الحسنة، ثم الهجر في المضاجع، حتى تتقلى المرأة في فراشها كما تتقلى السمكة فوق النار، وإذا لم ينفع كل ذلك، فعليه أن يضربها ضرباً غير مبرح، وإذا كان رأسها متحجراً فما عليه إلا أن يطلقها. هذا هو الشرع». وإذن فإن كل الرجال لم يهتموا ككل النساء بهذا الزواج. ما كان يضربهن أو يطلقهن إلا لِعيب فيهن. إنه ابن الجاري، وعليهن أن يحترمنه.

وقالت لها زوجة الخماس مرة أخرى:

- إذا كان مجنوناً فكوني أنت عاقلة.

- أخشى أن يقتلني. وأنا أريد أن أعيش من أجل ولدي. لا أخاف الموت عندما أذهب عند اللَّه، ولكني أريد أن أعيش من أجل هذا الصبي. فهو من لحمي ودمي. إنه ابني انظري إليه. أريده أن يصبح من رجال المخزن عندما يكبر.

- إذا صبرت وتزوجت ابن الجاري، فإن ابنك عندما يكبر يمكنه أن يصبح واحداً من أهل المخزن.

ثلاثة أيام فقط مرّت على إعلان ابن الجاري عن رغبته في الزواج برقية. أعلن الرغبة كنزوة. وكان بإمكانه أن يعلن الرغبة في الزواج بغيرها. لكن شيطانه هداه إليها. وطوال الثلاثة أيام وهي لا تعرف ما تفعل بنفسها. تأكل وتشرب. ولا تعرف أنها تأكل وتشرب، تمشي ولا تعرف إلى أين. تتعثر، تجلس أحياناً على مجمر، معتقدة أنه مصطبة أو عتبة. تتصوره أحياناً وهو يقفز فوق النار والأشجار مثل جني. تصورته أيضاً وهو يمسك بشعرها ويجرجرها في الوحل والصبي يبكي ويناديها. رأت كذلك الصبي حافياً غارقاً في بركة من الماء والوحل وقد تلطخ وجهه. خيالات كثيرة كانت تراودها. وسمعت أصواتاً كثيرة في كل مكان: «ما عليك إلا أن تصبري»، غير أنها لم تصبر استيقظت ذات صباح ندي، انسلّت مع ولدها من البيت ومشت في حقل الزرنيج الشائك على طرف القرية. كانت العصافير قد استيقظت، وبعض الدواب تلوح لها في الخلاء العاري. رأت رجلاً راكباً حصاناً، وذهبت لتنتظر وصوله على الطريق الطيني. الحصان يسير بخبب بطيء. وعندما وصل الرجل إلى المكان الذي تقف فيه، ركعت على الأرض أمام الحصان. رفعت عينيها إلى الرجل العجوز ذي اللحية البيضاء مثل العِهن المنفوش.

- يا سيدي أردف معك هذا الصبي. أنا قادرة على المشي حتى آخر الدنيا.

لم يقل الرجل كلمة. وإنما تناول الصبي من والدته ووضعه أمامه. أمسكت بذيل الحصان الذي استأنف الخبب. أخذت تهرول وراءه حافية. قدماها ترتطمان بالأحجار وهي لا تشعر بشيء. المهم

هو الفرار. كانت تتصور ابن الجاري يقفز خلفها ويفعل بها ما يمكنه أن يفعل بامرأة غيرها. وكان ذلك التصور يزيد من قوتها فتتشبث أكثر بذيل الحصان. وعندما تتعثر تستعيد نفسها لتلتحق به. كان العجوز أحياناً يتوقف لكن دون أن يتكلم معها. ينتظرها حتى تكف عن اللهاث. ثم يستأنف الطريق. ومع ذلك فهي لم تكن تشعر بشيء. كلما ابتعدت من القرية كلما اعتقدت أنها لا تزال قريبة منها. عندما بلغ الرجل سوق العوامرة سلَّمها الطفل، ومضى في صمت دائماً، فقط نظر في عينيها بعمق. كانت عيناه خضراوين غائرتين تحت حاجبيه الأبيضين. جلست لتستريح في مكان ظليل. أغفت ثم نامت. وعندما استيقظت وجدت الصبي بين أحضانها يغطُّ في نوم عميق. كان البشر أمامها يشترون ويأكلون ويبيعون ويتحدثون بأصوات مرتفعة. أحست أن قدميها لم تعودا تطاوعانها. ومع ذلك فقد تحاملت على نفسها. تأكدت من أن النقود الملفوفة في صرة لا تزال مشدودة إلى حزامها. فكرت في أختها القاطنة بمدينة س. . . أختها الكبرى التي غادرت القرية منذ سنوات. تزوجت وأنجبت. عندما زارتهم في الصيف الماضي اقترحت عليها وعلى زوجها الانتقال إلى المدينة. لكن المرحوم لم يكن يرغب في ذلك. فربما كان عزرائيل يريد أن يأخذ روحه في ذلك المكان. اخترقت حشود الناس والدواب والدجاج. إنه منتصف النهار والشمس حارقة. ولكن بعض الرجال في جلاليبهم الصوفية اعتادوا على مثل تلك الحرارة. وصلت إلى محطة الحافلات التي هي عبارة عن ساحة متربة، لم تكن هناك أية حافلة. الناس متجمعون ومتفرقون في الساحة. بعضهم تكوم فوق العربات التي تجرها الدواب. جلست فوق التراب وهي تحلم بمدينة س. . . الطفل كأنه غير موجود. ينظر إلى العالم من حوله باندهاش، حلمت بالدار في المدينة. بالزوج الذي سوف يحنو

على الطفل. رأت نفسها شغالة عند الفرنسيين مثل أختها الكبرى. سوف ترسل لوالدتها وجدّتها بعض الأثواب من هناك مع المعطي الذي يعمل طبالاً في الأعراس. أختها كانت ترسل لهم معه حتى التحيات. استمر حلمها في انتظار الحافلة. لكن يداً أمسكتها من الخلف، صعقت إنها يد مخزني ووراءه ابن الجاري يبتسم في استهزاء كبير. لم تصدق ما ترى. رفع الصبي عينيه إلى الرجلين. أجهش بالبكاء ثم دسَّ وجهه في صدر أمه.

الأعشاش

يجلس إلى النافذة، يتأمل تلك السماء الصافية وحيداً. وقد لا تصفو السماء فيما بعد، قد تمرُّ سُحُب أو أسراب طيور سوداء. لكنه تعوَّد على كل ذلك. لا يغير موضع الكرسي، ولا موضع المائدة الصغيرة التي توجد على يمينه. يدخن ويشرب، ويسترجع أشياء كثيرة قد تعود به أحياناً إلى الطفولة العارية. وكثيراً ما يستمع إلى صوت طفليه:

- بابا، عندما أكبر، سوف أتزوج وسوف أشتري فيلا كبيرة وسوف تسكن معي وزوجي. وسوف يكون لي أطفال.

ثم تذهب الطفلة لتفرغ المنفضة وتعود قائلة:

- ثم إنك يا بابا تدخن كثيراً. إن المعلمة تقول لنا إن التدخين مضر.

يسترجع كلام الطفلة، ثم يشعل سيجارة. يدخن وينظر إلى السماء من وراء النافذة ويلتقط بعض حبات الفجل الذي يحبه كثيراً، والذي يسبب له مشاكل مثل التجشؤ أو الضراط. كلام كثير كانت تقوله ابنته. لكن أخاها الأصغر كان يفكر بطريقة أخرى:

- عندما أكبر يا بابا، سوف أكون طبيباً وسوف أزوجك بامرأة أخرى، لأن أمي تضربني كثيراً وتلقي عليك الصحون، وتبصق عليك. بابا سوف أزوّجك بامرأة لن تبصق عليك ولن تلطم وجهها.

في الحقيقة أن السماء تكون صافية أحياناً وراء النافذة، وأحياناً تجللها الغيوم أو الطيور السوداء المهاجرة.

كل شيء يتغيّر وراء النافذة، إلا وجود حمامتين على سطح عمارة مقابلة، قد تكونان ذكراً وأنثى.

وبكل تأكيد، لن يكون الأمر إلا كذلك. يلتقط حبات الفجل، ويشرب وينظر وراء النافذة إلى أُصُص الأزهار، وإلى الحمامتين اللتين تطيران سوية لتعودا إلى مكانهما فوق السطح. قد يكون لهما هناك عش. كل زوجين فوق الأرض أو تحتها يبنيان لهما عشاً، لكنه قد يتحطم قبل فراقهما أو بعد وفاتهما. وقال في نفسه: كل عش مكتوب عليه أن يتحطم. الناس يتقاتلون فوق الكُرة الأرضية أو تحتها بجميع الوسائل لكي يحطِّموا أعشاشهم. غير أنه لا يعرف فيما إذا كان للحمامتين عشاً فوق السطح، أو نفايات أو دجاجة أو ديكاً؛ فكل ما يخفيه الإنسان لا يستطيع الإنسان الآخر أن يعرفه، سواء كان ذلك وراء الجدران أو الحواجز. دخّن سيجارته بهدوء وتأمل الحمامتين اللتين كانتا تحومان لكي تعودا إلى مكانهما. وبدا له كما لو أنهما كانتا تتحدثان أو تتخاصمان، مثلما يفعل الرجل والمرأة في حالة غضب. عندما تنسى كل كلمات الحب والنفاق التي كانت تجمعهما. وعندما يكتشف كل واحد منهما أن الحب عندما يمارس بين اثنين في الفراش فإنما يتم بين أربعة: رجل وامرأة أخرى وامرأة ورجل آخر. لكن لا بدَّ من محاولة الحفاظ على العش، حتى لو كان يسكنه أربعة، هذا ما حاول أن يفعله، أن يحافظ على ذلك العش حتى يقول الناس إن له عشاً سعيداً. إنه يسمع كثيراً بذلك العش السعيد، وقرأ عنه في الكتب والمجلات. لكن الناس يتحدثون كثيراً في الشوارع، أما ما يحصل في أعشاشهم فهذا شيء لا يعرفه أحد. يوهمون الآخرين بأنهم يعيشون في سعادة، يختفون وراء لباسهم

وسياراتهم وأشياء أخرى كثيرة، يكذبون على أنفسهم إلى أن يقال رحمة الله عليه أو عليها، إذا كان الواحد منهم ميسوراً فإنه يستطيع أن يجد له حيّزاً ضيقاً، يكتبه محرر ضيق الحال يقول فيه: «انتقل إلى جوار ربه المرحوم. . .» لكن من الذي رحمه ومن الذي أجاره؟ والذي قد يرحمه أو يجيره وحده يعرف لماذا تنتهي كذبة البكاء عليه بعد أيام قليلة من وفاته، كما تنتهي كذبة السعادة الزوجية، في الوقت المناسب. كان مسمّراً على الكرسي، وهو يفكر في ذلك الكلام الجميل الذي كانت تقوله له زوجته. لكنه تحمل كثيراً إلى أن فهم قليلاً. وقالت ابنته وهي تلعب بحبلها:

- وعندما أكبر يا بابا، سوف تسكن معي، وسوف أشتري لك سيارة وسوف أشتري لك آلة جديدة.

وقال الطفل:

- لقد ذهبت يا بابا إلى إسبانيا مراراً. إنك لم تعد تسافر كثيراً. عندما أكبر وأصبح غنياً سوف أشتري تذاكر سفر كل عام. إنك تحب إسبانيا في الصيف، وسوف أسافر معك.

وتذكر فقط عنوان مسرحية لصامويل بيكيت، قرأها في شبابه ولم يفهمها. وقال في نفسه: «يا للأيام الجميلة!» وأضاف: في إسبانيا، وتساءل كيف أن الأطفال الصغار يتذكرون كل شيء، وعندما يكبرون يتكتمون عن كل شيء. يعملون كل شيء في الخفاء، وكل واحد منهم يعتقد بألا أحد يعرف ما يحاول أن يخفيه. أفرغ له كأساً أخرى من النبيذ، وحملق في سطور الجريدة التي كانت فوق ساقيه. لم تعد له القدرة على التركيز في القراءة. فقط كانت له قدرة على التفكير في طفليه اللذين أخذتهما زوجته إلى مكان ما في سويسرا. عندما طلقها لم يكن يعتقد أنها سوف تفعل ذلك، لكنه تأكد أن المرأة قادرة على كل شيء حتى إنها أخرجت آدم من الجنة

وحاربت علياً بن أبي طالب رضي اللّه عنهما. كم كانت زوجته جميلة. وكان يشتري لها الزجاج والحلوى والفخار والأرانب الحية أو المذبوحة، وكان أحياناً يفضِّلها حتى على طفليه الصغيرين، لكنها كانت تضربه وتلطم وجهها وفخذيها وتبصق عليه، وتقول له إنه ليس رجلاً. وكان يتحمل كل ذلك. ويستمع إلى صوت الطفل الصغير:

- لا تفعلي ذلك يا ماما! حرام عليك.

أما البنت فغالباً ما كانت تعانق وسادة وتدس فيها وجهها وتبكي بحشرجة. وعندما تنتهي من كلامها القبيح الذي كان في السابق لطيفاً وجميلاً مثل قصيدة شعر، يغادر البيت إلى أقرب حانة ليشرب ويستمع إلى السكارى الذين يتحدثون عن أعشاشهم، وعن سيدة البيت التي تهيئ لهم الطعام في أي وقت يدخلون فيه، وعن أبناءهم الذي ينجحون في المدرسة بامتياز. لكنه كم شاهد مراراً نساءً يجرّون دزينة من الأطفال وهنّ يصرخن أمام باب الحانة «تشرب وتترك أبناءك من دون طعام يا ابن كذا». وكم كان يتساءل كيف لهؤلاء الأبناء الذين لا يأكلون أن ينجحوا بامتياز. جميل أن يكذب الإنسان على نفسه قبل أن يكذب على الآخرين. وجميل كذلك أن يحلم الإنسان بعش سعيد، كما ظل هو يفعل لسنوات. إلا أن الحلم يذهب بعد اليقظة. لم يكن يستطيع الحديث في المقهى عمّا يقع في البيت، لأنهم جميعاً كانوا سعداء، وهو لم يرد أن يكون استثناء. فكل نسائهم يهيئن لهم أبناء ينجحون بامتياز. ولمن يقول إن زوجته تبصق عليه؟ وإذا قالها فإنهم سوف يبصقون عليه. ويشربون كؤوساً أخرى، ويقولون إن زوجاتهم يغسلن لهم أرجلهم بالماء الساخن، أو أن صاحبة الدار ذهبت مع الأولاد عند عمتها أو تركتها لتقضي العطلة، وهم يشعرون الآن بأنهم عزّاب. ذهبت عند خالتها أو جدتها فهذا شيء لا يهم. إنهم يذهبون إلى هناك، وهنّ يذهبن إلى

هنالك، وهكذا يستمر الكذب. ولا شكّ أن الحياة كذبة كبرى بلقاء. ومهما يكن من أمر، فإن زوجته ذهبت لتقضي عطلتها السنوية في سويسرا، كما ذهبت نساؤهم إلى أماكن أخرى. المهم أن العش سعيد. وفي صحة الجميع. فكل شيء بخير!! وعندما رفع رأسه رأى الحمامة تطير وتحلِّق في السماء لتعود إلى مكانها، وقال في نفسه: لحسن الحظ أن سويسرا بعيدة، وإلا لكانت قد طارت وحطّت في بيرن، وغابت عن عشها وتركت ذكرها المسكين ينتحر ببطء فوق ذلك السطح، يضرب بمنقاره الجدار حتى يهلك.

– كم أنت أناني ولا تحب إلا نفسك!

– لقد قررنا أن نبني عشنا منذ البدء. أنا لم أكذب عليك على الإطلاق.

– كل الرجال يقولون الكلام نفسه. إنكم بكل تأكيد كذابون.

– وهل تعرفين كل الرجال؟!

– إن معرفة واحد تكفي.

– لقد تغيّرتِ كثيراً منذ أن التقينا.

– أنت الذي غيّرتني، أو تغيّرت، واحد من أمرين.

أشعل سيجارة أخرى ورشف له جرعة، وظل يفكِّر فيمَ يمكن أن تقوله أنثى الحمام لذكرها. لكنهما حلَّقا معاً في الفضاء، واختفيا. أما متى سوف يعودان إلى مكانهما فلم يكن متأكداً بالضبط. التقطت أذناه خبراً بثه المذياع بالقرب منه. قال المذيع إن زلزالاً ضرب مكاناً في العالم وتحدَّث عن عدد من القتلى والجرحى. وقال في نفسه: يا إلهي! حتى الطبيعة تساهم في تشتيت وتحطيم الأعشاش. ربما كانت تلك الأُسر سعيدة في أعشاشها، إلا أن الطبيعة أرادت أن تقتل أو تجرح من تشاء. ولربما دفنت قطط وكلاب وجرذان وأسماك مطبوخة أو حية في أكواريومات. لقد

شاءت الطبيعة أن تفعل ذلك. غريب هذا الكون! إذا لم تفعلها بنفسك فإن هناك مَنْ يفعلها بدلاً منك. مهما اتخذت من احتياطات. لا يهم. فليفترض أنه فقد زوجته وطفليه في زلزال. ماذا كان عليه إذن أن يفعل؟ هل يظل ينظر إلى الحمامتين في أوقات الفراغ وهو يدخن ويشرب عندما يرفع رأسه عن صحيفة؟ إذا مات شخص هنا، فإن آخر يُولَد هناك. وبإمكانه أن يتزوج من جديد امرأة أخرى قد تموت أو تعيش بعده، وقد يموت قبلها أو بعدها. فكرة جيدة حقاً. ما دام مكتوباً علينا أن نفقد أعشاشنا في أية لحظة كما نفقد أرواحنا كذلك من دون علمنا، وكما نُولَد أيضاً من دون علمنا. وأحياناً نتزوج من دون علمنا، ولربما بإرادة إيروس وحده. لقد قرأ عن إيروس لكنه لا يعرفه. ربما يوجد داخل جسم الإنسان. وكم يحمل جسم الإنسان من أشياء غريبة لا يمكنه أن يدركها حتى هو نفسه؟! هناك ملاكان على سبيل المثال، وأحد تحت الإبط الأيمن والآخر تحت الإبط الأيسر، يسجلان الحسنات والسيئات. وقد تسكن جسم الإنسان كذلك شياطين، وفي جسم الإنسان أيضاً روح، لا يمكن أن ندركها فهي من أمر ربنا، فحتى النبي عندما سُئِل عن الروح قِيل له إنها من أمر ربي. كثيرة هي الأشياء التي تسكن داخل جسم الإنسان، إلا أنه لا يعرفها. فهو يعرف فقط شيئاً اسمه الألم، ولكي يتهرب من ذلك الألم فإنه يحاول أن يحتمي منه داخل عش حتى لو كان من قش، إلى أن تأتي ريح أو عاصفة. ومع ذلك، إن محاولة إعادة بناء العش ممكنة. وهذا ما أصبح يراوده في عزلته في هذه الأيام الأخيرة، بعد أن ذهبت زوجته إلى سويسرا المخجلة وأخذت معها الطفلين.

إعادة بناء العش؟! ضحك بهيستيريا، ثم توقف فجأة عن الضحك والتفت حواليه بتوجس كما لو أن أحداً كان حاضراً معه.

ويمكن أن يكون أحد حاضراً دون أن يراه. مثل أولئك الذين يسكنون الأجسام على سبيل المثال.

هذه امرأة، تشتغل في أحد البنوك، تأتي بين الحين والآخر لتشرب معه، وتنظف البيت. لكنها لا تقول شيئاً جديداً، سوى ما يلي:

- على الرجل ألا يثق في المرأة. إنهن متشابهات. عندما تشعر بأن الرجل يحبها فإنها تفعل به ما تريد. لقد جربت ذلك وأنت لا تستحق كل هذا العذاب. لقد ذهبت إلى سويسرا. هذا غير مهم. عندما يكبر الطفلان فإنهما سوف يتذكران أباهما. وسوف يحققان له كل ما كان يتمنى.

بالنسبة إلي، اعتبرني أمهما. إنهما ذكيان أليس كذلك؟ صحيح أنني لم أتزوج لكن الرجال لم يفهموني على الإطلاق. هل يمكن أن أشرب كأساً أخرى. ثم إن على الإنسان إذا أراد أن يبني عشه، عليه أن يحسن اختيار الذي سوف يسكن معه.

وهكذا، فعليك ألا تحزن، انظر إلى تلك الشجرة وراء النافذة، ونظر إلى تلك الطيور التي تحلِّق في السماء ثم تحط فوق الشجرة. لا أدري لماذا تحب كثيراً النظر إلى الطيور المحلقة وإلى زوجيّ الحمام ولا تستمع إليّ في أغلب الأوقات. لا بأس، سوف أطبخ لك شيئاً تأكله. إنك لا تأكل بشكلٍ جيد. وعندما نعيش تحت سقف عش واحد، سوف يكون الأمر مختلفاً. سوف ترى يا حبيبي.

تأتي المرأة فيما بعد لتعيد الكلام نفسه وكم كان يتمنى لو أنها تقول شيئاً آخر، أو تطرح عليه أسئلة، لكنها تريد أن تبني عشاً، ويبدو أن طريقتها في الوصول إلى بناء عش لم توفق فيها طوال سبع وثلاثين سنة خلت. ويبدو أنها كانت تقول الكلام نفسه للرجال الذين التقت بهم.

ظلَّ منذ سنوات ينظر إلى السماء التي تدكن وتصفو وتصحو، وذهبت تلك المرأة مثلما ذهبت أخريات. ولا شكّ أنها بنت عشاً في مكان آخر، ربما تحطم هو كذلك. ذهب إلى المطبخ، وأخذ يتأمل زجاجات النبيذ الفارغة. ثم عاد ليجلس على الكرسي قرب النافذة، وأخذ يتذكر: «بابا عندما أكبر فإني...» ثم «بابا سوف أشتري لك..» ثم قال: «أكاد أن أجن».

(بابا لقد أصبحت امرأة. إنك أبي رغم كل شيء. وقبل أن أتزوج من شاب من غواتيمالا فإني أطلب منك الإذن. إني أريد أيضاً أن أبني عشاً سعيداً. تعال متى تشاء لكي أعرفك على زوجي في المستقبل).

ألقى الرسالة تحت قدميه وأخذ يبكي. كم من الأعشاش بنيت لكنها تحطمت. يا إلهي! ما الذي يستطيع الإنسان أن يفعل بنفسه. شرب كأسه جرعة واحدة، وبعد لحظة سقط من فوق الكرسي قرب النافذة لكي يرتطم رأسه بالجدار، إلا أن السماء ظلّت صافية. وهو يشخر مثل خنزير في حظيرة.

الفهرس

الأعمال القصصية الكاملة

يشكّل هذا المصنف الأدبي الأعمال القصصية الكاملة للراحل محمد زفزاف، والتي يحق اعتبارها إضافة ثرية إلى الخزانة العربية، كما للقارئ العربي الذي بات بإمكانه تشكيل تصور عن الكتابة القصصية لدى أحد أبرز أعلامها.

ويمكن القول إن محمد زفزاف جسّد علامة فارقة في الكتابة القصصية والروائية، سواء من حيث صيغة الكتابة التي نحا فيها منحى التنويع والتجريب ضداً على المنجز التقليدي في الكتابة والتأليف، أو جملة القضايا التي عمل على تناولها بجرأة نادرة منذ الفتح البكر **حوار في ليل متأخر** (1970)، إلى مجموعته الأخيرة **بائعة الورد** (1996).

ومن ثم، إن تجربته تُعدُّ – بحق – تجربة التأسيس لكتابة مغايرة في القصة القصيرة المغربية والعربية، إذا ما ألمحنا إلى الحظوة التي ظفر بها تداولاً وتلقياً وترجمة.

كما أن هذا المصنف يعيدُ الاعتبار للحظة إبداعية لها فرادتها، وبالتالي قيمتها المستحقة على مستوى الكتابة والإبداع.

❖ ❖ ❖

محمد زفزاف (1945-2001) كاتب مغربي كَتب القصة والرواية والمسرحية، مثلما ترجم أعمالاً أدبية عالمية. تابع دراسته بشعبة الفلسفة في كلية الآداب بالرباط، ليعيَّن أستاذاً للغة العربية في مدينة الدار البيضاء التي أمضى فيها حياته كاملة.

ISBN 978-9953-68-844-2





الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com